تراث الإسلام

تأليف جمهرة من المستشرقين
بإشراف سير توماس أرنولد

عربه وعلق حواشيه
جرجيس فتح الله
المحامي

دار الطليعة للطباعة والنشر

تراث الإسلام

أحمد محمد الحسين الجلالي

الطبعة الثانية
تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٢

مقدمة للطبعة الثانية

صدرت الطبعة الاولى لهذه الترجمة الكاملة لتراث الإسلام في ربيع العام ١٩٥٤ . ونفدت بوقت وجيز جداً داخـــل القطر العراقي دون ان يتاح لها تخطي حدوده فادركت الحاجة إلى طبعـــة ثانية في حينه الا ان ظروف معربه الخاصة ، حالت دون ذلك وإن اشتد الطلب عليـــه ، واعيد طبع اصله الانكليزي خمس مرات منذ صدور الترجمـــة العربية فضلاً عن الطبعات الأخرى التي صدرت منه قبـــل هذا التاريخ .

ولم يكن تراث الإسلام يحتاج إلى مقدمة او تعريف ، بعد أن اخذ مكانته المرجعيّة بين امهات الكتب التي بحثت في الحضارة الاسلامية ومـــا خلفته من مآثر ومكتشفات في العلوم العامـــة التي دفعت مدنية العالم إلى الامـــام حتى عصرنا . ولذلك سأقصر الاسطر القليلـــة التالية على مـــا يجب ان يعرفه القارىء عن الترجمـــة لتكون اقرب متناولاً .

لقد حرصت على ايراد النصوص العربيّة التي استشهد بهـــا المؤلفون كما وردت في مضانهـــا . لاأن أترجمها حرصاً مني على أمانة التعريب مع أن بعض تلك المصادر مـــا زال مخطوطاً واغلبـــه مدفون في خزائن مكتبات المتاحف في اوروبا . كمـــا إني حرصت على شرح بعض التعابير والمصطلحات حيثمـــا شعرت ان فهمهـــا قد يتعسر على القارىء وعرّفت بمائتين ونيف من الكتاب والمؤلفين والشخصيّات السياسيّة والتاريخيـــة الذين ورد ذكرهم استطراداً في متون الكتاب ولم يجـــد المؤلفون داعيـــاً للتعريف بهم ، وكان

هدفي في هذا ، استكمال الفائدة من المعلومات . وحثّ القارىء العربي على تعقيب اعمـــال بعض هؤلاء المؤلفين والكتاب وكذلك قمت باضافة ملاحق ارتأيت انهـــا نافعة لاجلاء بعض الفِكرَ المركّزة ، او لتحريض القارىء على مزيد من التتبع لمواضيع الكتاب ولوضع صورة مقارنـــة للعصر واحواله . وقد وضعت هذه الملاحق (حيثما وجدتْ) في آخر كل باب من ابواب الكتاب فكلّ ملحق في الكتاب هو من وضعي . ولاجـــل ان أكون مسؤولاً عن تعليقاتي وملاحقي وشروحي ، فمـــا كان للمؤلف من الحواشي ذيلتـــه بكلمة (المؤلف) ومـــا كان من قلمي ذيلتـــه بكلمة (المعرب) .

وكانت الطبعة الاولى عاطلـــة عن فهرست للأعلام لمـــا رافقها من عجلة وقد استدركت ذلك هنـــا فعملت فهرساً وهو ممـــا لا غنى عنه في اي كتابٍ مرجعيّ . واعدتُ ترتيب الفصول بموجب التنظيم المتبع في الكتاب الأصلي . وكنت قد صنفتهـــا في الطبعـــة الأولى على أساس تناولي إيّاها بالنقـــل والتعليق . . ولذلك سيجد القارىء أن التعريف باسماء الكتاب المستشهد بهم قد يرد أحيانـــاً متأخراً . او في فصل آخر فان مرّ اسم أمامه دون تعريف فليعـــد إلى الفهرست حالاً ، وسيكون على يقين ان التعريف به وارد في موضع آخر . ولأجـــل ضمان اللفظ الصحيح لاسمـــاء الأعلام الاجنبيـــة حرصت على وضع الاسم باحرفـــه اللاتينيـــة امام تعريبـــه كذلك اوردت اسمـــاء الكتب والمراجع التي اعتمدها المؤلفون بعناوينها الأصلية إلى جانب ترجمتهـــا وكذلك فعلت في ايراد النصوص الاجنبيـــة او التعابير التي اقتبسهـــا المؤلف من مراجع غير عربية او اسلاميـــة توخيـــاً للأمانة في التعريب وتسهيـــلاً للقارىء إذا اراد الرجوع اليهـــا .

هذا كلّ مـــا عنّ لي اثباته . وارجو العذر في ما لا يمكن تداركه .

بيروت

جرجيس فتح الله المحامي

تمهيد

كتاب تراث الاسلام هو حلقة من سلسلة كتب : تراث اليونان وتراث روما وتراث القرون الوسطى الخ ... والغرض منه ، كشف النقاب عن العناصر المقتبسة من العالم الاسلامي ، التي تشربت بها حضارة اوربا . وإن شئت تفصيلاً ، فتراث كل من روما واثينا هو تراث توأم ، تراث ثقافتين متحدتي الاصل انبعثت كل واحدة من مركز جغرافي معين . أما تراث القرون الوسطى فهو تراث فترة من فترات تطور الحضارة الاوربية الغربية .

لكن علينا ان نتفهم (تراث الاسلام) من ناحية اخرى غير ما فصّلناه . هذا العنوان عنوان مثير ، ربما وصلنا إلى معناه الوافي بقراءة هذا الكتاب .

إن تراث الاسلام لا يعالج تراث دين محمد (ﷺ) بوصفه ديناً . وسيستخلص القارىء من الكتاب — وكله عجب — إن تركة الدين الاسلامي الاروبية والشرقية في الحضارة الغربية ، ما بها الكثير من العناصر الاسلامية البحتة . بالعكس كانت زهيدة تافهة في الأمكنة التي مارس السلطان الديني أقوى النفوذ . والأمر يصدق على الشريعة نفسها . لكن الاسلام كان عاملاً جوهرياً لايجاد التراث ورفع شأنه . ففي حماية الامبراطورية الاسلامية ازدهرت العلوم والفنون الموصوفة في هذا الكتاب.

كانت جزيرة العرب مهبط الرسالة المحمدية ، وكانت اللغة العربية هي

السبب فيمــا حواه كتابنــا هذا . وكثيراً ما استعملت لفظتا (الاسلام) و (العرب) احداهمــا محل الاخرى كمرادفين . وكانت اللغــة والديانة في أيــام الخلافة الاسلامية العظمى ، وحدة غير قابلة للانفصام ! فالعربية هي (يونانية) العــالم الاسلامي . ولحظ الاسلام نزلت رسالته في وقت نضوج اللغة التام وكانت الآرامية مجدبة ومملقة إذا قورنت بالعربية . حتى العبرية القديمة في ذروة مجدها فإنها لم تطال العربية بمرونتها واشتقاقها العجيب . فمن معينها الخالص ، أمكن نحت تعابير واشتقاق مصطلحات في غاية الدقة وفقــاً لمتطلبات الفنون والعلوم الجديدة .

إن أهم مــا يميز اللغات السامية هو فعلها المجرّد عن أحرف الزيادة الذي لا يتألف ممــا يزيد على ثلاثة أحرف إلا ما شذّ عن هذه القاعدة وهو نادر قليل في تلك اللغات لا يستحق الذكر . فاستتبع ذلك حتمــاً ان ظلّت الكلمات المركبة تركيباً مزجياً للدلالة على أفكار أكثر تعقيداً غير معروفة في اللغة العربية . أفلم يكن من أعجب العجائب أن تستوعب لغة كهذه كل علوم العالم الاغريقي وفنونه . بدون أن تقوم شبهة ما على قصور لها أو جهد تحملته مصادرها في سبيل النهوض بتلك التبعــة ؟

صلح اللسان العربي للتعبير عن العلاقات ، بايجاز أكثر من اللغات الآرية لمرونته وقابليته الاشتقاقية الفائقة في الاسم والفعل . فخاطرات (الكَسْر) أو (السّحْق) و (التسبب في الكسر) و (السماح بالكسر) و (تكسير الواحد الآخر) و (سؤال أحدهم ان ينكسر) و (التظاهر بالانكسار) لهي من مشتقات كثيرة تحصل عليهــا من أصل الفعل (كَسَرَ) وهذا يتمّ بتغيير وضع الحروف الصائتة في الفعل ، او باضافة الأحرف الصامتة من غير اللجوء إلى أفعال مساعدة او ضمائر [١] ممــا نضطرّ إلى الاستعانة به في اللغة

---

(١) وهي على التوالي : كسر ، كسر « بتشديد السين » ، اكتسر ، إنكسر ، تكسر ، كاسر ، استكسر ، تكاسر .

الانكليزية . وللاسم أيضاً أوزان وهيئات مختلفة للدلالة على أشياء متنوعة ، كاسمي الزمان والمكان ، وأحوال الجسم ، والالوان ، والمهن وغيرها . ولنكتفِ بمثال واحد . لنأخذ كلمة (دَ ـ وْ ـ رٌ) التي تعني بأبسط حال من حالاتهـا (الفتل ، والبرم) . ها نحن نجد فيها :

« دَوَّرَ ، أدارَ ، داورَ ، تداوَرَ ، إستدار ، دَوْر ، دَوَرَانٌ ، مَدار ، مُدير ، دَوْرة ، دُوار ، دَوارة ، مُدارة » .

ليست هذه المشتقات عرضية بـل ثابتة المكانة معينة الحدود بالعبقرية التركيبية عند العرب .

ويسهل على المرء ان يدرك مدى استيعاب اللغة العربية واتساعها للتعبير عن جميع المصطلحات العلمية للعالم القديم بكل يسر وسهولة ، بوجود التعدُّد في تغيير دلالة استعمال الفعـل والاسم . العرب أمة قوية الملاحظة . فإن كان الجدل التحليلي ليس من ميزات لغتهم فقد سدّوا هذا النقص بوضع اسم قائم بذاته لكل حالة من حالات الموصوف . كالجمل المُعَمّرّ ، والناقة ذات الافلاء الكثر ، والجواد السريع الخبب ، والناقة الحلوب وغير ذلك مما له أسماؤه الخاصة في اللغـة وما يجعل ترجمة الشعر العربي ، ترجمة دقيقة أمراً شاقاً محفوفاً بأهوَل الصعاب .

إن الجذر الثلاثي باشتقاقاته البالغة الألف عداً ، وكل منهـا متّسق اتساقاً صوتياً مع شبيهه شكلاً من أي جـذر آخر ، يصدر ايقاعاً طبيعياً لا سبيل إلى أن تخطئه الأذن . نحن (الانكليز) عندما ننطق بفكرة مجردة ، لا نفكر بالمعنى الاصلي للكلمة التي استخدمناها . فكلمة Association تبدو منقطعة الصلة بـ Socius ، وهي الاصل . فنحن لا نملك هذه اللفظة ولا لفظة Ad (١) . لكن أصل الكلمة بالعربية لا يمكن يستتر ويستدق على

---

(١) من اجتماعهما تتألف لفظة *Association* ، كما هو واضح ، وتختفي الدال مدغمة لسهولة النطق . (المعرب)

المرء عند تجريد الكلمـة المزيدة حتى يضيع تماماً . فوجود الاصل يظل بيّنـاً محسوساً على الدوام . وما يعد في الانكليزية محسنات بديعية لا طائل تحتهـا ، هو بلاغة غريزية عند العربي الذي يدرك في الحال جمال التفسير في عبارة « مِنـا مِنا تَقيل ، أوْ فرُسين » التي وردت في سفر دانيـال (اصحاح ٢٠) يصعب القول ان عبرانية الكتاب المقدس [١] خلت مـن الاشتقاقات المصنوعة التي هي — كمـا يدلُّ ظاهر الحال — محاولات مقصودة لايجـاد معوّض متطرف عن الاسماء التي ضاعت أصولها الاولى ، لكني لا أعرف أمثالاً فيهـا كثير تنطّع من قبيل ما يُرى في التفسير الساذج الذي جاء به كاتب عربي لاسم شيخ قبيلة قديم هو (مُزَيْقية) فقال : إنه الرجل الصغير الذي كان (يمزق) ثيابه كل مساء !

والايمان بسمو اللغة العربية المطلق ، هو من الدين عند المسلمين ؛ كذلك امتلاك ناصية البيان في الدوائر المثقفة هو العلامة التي تميز الرجل المهذب . ومع ذلك فمن الطريف أن نذكر أن أحد خلفـاء الامويين قبل نهاية القرن الاول الهجري عجز عن تفهيم غرضه لأعراب أقحاح قدموا من الصحراء . والواقع أن لغة جزيرة العرب الاولى الفصحى لن نجدها إلا عند أدبـاء ما قبل الاسلام وما بعده بقليل . هذا الواقع كان بعيداً كـل البعد من ان يثبط المحاولات التي بُذلت لامتلاك ناصيتهـا فأغرت الباحثين المسلمين من جميع الاقطار على بذل جهود مضنيـة لمدارسة قواعدها النحوية والبيانية . ولم تبؤ هذه الجهود بالخسران . إذا كان مفيداً لأوربا المثقفة ان تقلّد عصر شيشرون [٢] ، فكذلك هو مفيد للشرق أن يكتسب ذوقـاً رفيعاً ، ليلتذ

---

(١) يقصد بالكتاب المقدس في هذه المقدمة مجموعة التوراة والانجيل واعمال الرسل .(المعرب)

(٢) *Cicero* (١٠٦ — ٤٣ق.م.) خطيب روماني وسياسي وفقيه في اللغة اللاتينية أشهر من أن يعرف . (المعرب)

بآداب لغته الكلاسية [1] .

والسحر الذي لم تتلكأ لغة العرب وآدابهم عن إشاعتها في أنفس المنقطعين اليهما ، يكمن في وضوحها وبيانها الساحر ، في حبّها للكلام المستقيم المباشر . وستجد في أمكنة أخرى من هذا الكتاب أمثلة لما قدمه اللسان العربي إلى لغات أوروبا . ستجد كم عاش من الكلمات العربية ليطلع عليها ذلك اليوم الذي قتلتها فيه يد الرينسانس الاوربية ؟ اللغويون وحدهم يعرفون ذلك . ماذا فعل الاطباء مثلاً ، بلفظة (Soda) التي كانت عنواناً لأول مبحث من الكتاب الثالث في (قانون) ابن سينا ؟ تلك الرسالة التي تُعتبر (رسالة عالمية في الصداع Sermo Universalis de Soda) . ان هذا التحريف البربري لكلمة (صُداع) أي وجع الرأس قد جاء رأساً من مادة الفعل (صَدَعَ) أي شق وفلق .

نحن ندين للغة العرب بجانب هذا — بدَين كبير في حقل دراسات الكتاب المقدس . إذ ما اصبحت اللغة العربية لغة عالمية حتى أدرك اليهود صلتها الوثقى بالعبرية . فقلّدوا العرب او بالأحرى المسلمين غير العرب — في القرن الثالث الهجري ، وأخضعوا لغتهم إلى قواعد النحو العربي . وكتاب النحو العبري لواضعه (رابي قمحي ت ١٢٣٥ م) الذي كان له تأثير عميق في دراسة العبرانية بين المسيحيين في اوربا استمدّ ما لا يُحصى من المصادر العربية . وشروحه للكتاب المقدّس التي بناها على هذه القواعد النحوية ، كثيراً ما يمكن ان تتلمّس آثارها في الترجمة المعتمدة لنسخ الكتاب المقدّس القديمة .

ومنذ بداية القرن التاسع والاستمداد من معين اللسان العربي لا ينقطع

---

(١) ان كتاب الاستاذ نيكلسون « مترجمات من الشعر والنثر الشرقيين » ط كمبردج ١٩٢٢ ، ذو قيمة لا تقدر ، فهو يقوم دليلا على فرط المتعة والفائدة اللتين يجنيهما المرء من قراءة الآداب الاسلامية . (المؤلف)

في تفسير الكلمات النادرة والتعابير الغريبة في العبرية . حيث أن العربية وإن صغر سنهـا عن العبرية بألف عـام بوصفها لغة آداب ، فهي اكبر سناً من ناحية البلاغة وفقه اللغة بقرون لا تعد ولا تحصى وكثيراً مـا يُستدلّ على معاني التعابير المحيّرة غير المفهومة في هذه اللغـة — بوصفها تعابير منفردة مندثرة الاصول — من أشباه عربية لهـا شائعة الاستعمال الآن ! فما أسهل ما تجد للكلمات والمصطلحات التي ضاعت مدلولاتهـا الدقيقة ، تفسيراً وافياً متهيئـاً في المصدر العربي. والواقع انه ليتعذّر على باحث جادٍ في الكتاب المقدّس ان يستغني عن معرفة مباشرة باللغـة العربية . إن صحائف كل شروح معتبرة على الكتـاب المقدّس ، تجدهـا مزدانة بصورة من الدَّيْن الذي يدين به شُرّاحه للغة العرب ، وتراثها الذي لمّا يزل باقي الأثر حتى الآن .

عندما توقف يوليوس فلهاوزن [١] عن الكتابة في المسائـل العربية ، وهو المستشرق الذي مـا زال لكتاباته سلطانهـا العظيم على دراسة الكتاب المقدّس ، حُرمت دراسة العربية والمعاهـد الاسلامية خدمات عبقري . ولكن الحظ رزقهـا بمن سدّ هذا الفراغ . وأعني به إغناص غولدتسيهر [٢] الذي انصرف عن العبرية إلى العربية . ونحن نرى في كتابـات روبرتسن سمث[٣] مثالاً بارزاً لمـا يمكن للعادل المنصف أن يفعـل . فكتابه « ديانة الساميين » لم يكن الا مصنّفاً رائعـاً محكماً لتراث العرب وقدماء الكنعانيين .

---

(١) *Julius Wellhausen* : ١٨٤٤ — ١٩١٨ » استاذ مدرسة غوتنغن . له من الكتب المشهورة تاريخ اليهود وتاريخ الدولة الاموية وكتاب في أديان عرب الجاهلية . (المعرب)

(٢) *Ignaz Goldseiher* « ١٨٥٠ — ١٩٢١ » من أعاظم المستشرقين — ولد في هنغاريا وتضلع في العربية على يد شيخ الازهر . وله كتب عديدة في الحركات الفكرية الاسلامية بعد تحوله عن دراسة العبرية . وله أبحاث قيمة في الفرق الاسلامية والعقائد . (المعرب)

(٣) *Robertson Smith* « ١٨٤٦ — ١٨٩٤ » اسكتلندي درس العربية في ابردين ودرسها قام برحلات في الجزيرة العربية . (المعرب)

من العسير علينا الكتابة بهدوء ، عن الخسارة التي حاقت بكتابنا هذا ، بموت رصيفي في التأليف سر توماس أرنولد موتاً مفاجئاً . كان الطيب الذكر ، صديقاً شخصياً لكل مساهم في تأليفه ، وكان موته خسارة لا تعوّض في ميدان الدراسات الشرقية ، فضلاً عن انه أحدث في قلوب أصدقائه جرحاً لا يندمل إلا بكرور الزمن . ترك موضوعه — وهو تراث التصوير الاسلامي — ناقصاً . ومعلوماته فيه فريدة من نوعها في انكلترا كلها . فرجحتُ ان يبقى مقاله كما تركه ، وجعلته ملحقاً للفصل الخاص بالفنون الزخرفية خيراً من إضافة شيء اليه [1] . واضطلعتُ انا وسر توماس ارنولد بتبويب الكتاب ، حيث ان الحياة امتدّت به إلى قراءة أغلب فصوله الموضوعة . ومنذ أن اخترمته يد المنون والاستاذ نيكلسون يتكرّم عليّ بقراءة كل فصل معي حتى الطبع ، وفضلاً عن ادلائه بعدة مقترحات قيمة ، فقد سمح لي أن اشاوره في كل ما يساورني به شك .

أما عن ترتيب رسوم الكتاب فأنا مدين لمستر نورنكتن A.L.P. Norrington من مطبعة كلارندن . عدا فصلي الفنون الزخرفية ، وفن العمارة اللذين هيأ كاتباهما رسومهما .

وقد ارتأينا ان نقصر فحوى هذا الكتاب على آثار الماضي . ففي وقتنا الحاضر اعترضتْ حركةُ التجديد حركةَ الاصلاح ، في العالم الاسلامي الدّين . وفي الوقت الذي صارت (المادية) تكتسح بالايام والساعات أفكار الشرق وآدابه قد يكون من أكبر الرعونة أن نحاول التنبوء بما ستنكشف عنه الاحداث الآتية . فمن جهة ينكشف لنا تاريخ الماضي لعلوم العرب والاسلام عن حيويتها الدافقة والفائقة رغم انف الهجمات المنصبّة عليها من الداخل والخارج . ومن جهة اخرى تجد مبتدعات واسعة جداً توصلت اليها الاقطار الاسلامية خلال السنوات القلائل الماضية ؛ وربما ساعد

(١) يرد هذا الرأي الذي ارتأيناه بقول المؤلف نفسه أن تأثير التصوير الاسلامي على التصوير الأوروبي لا يعتد به (المؤلف) .

هذا الكتابُ المطّلعَ الباحثَ على تحديد أهميـــة تلك التغييرات وتتبعهـــا من مصادرها بعطف واهتمـــام .

أمـــا النظام الذي اتبعناه في كتابة الاسمـــاء العربية ، فوفقـــاً لمـــا صدّقته الجمعيـــة الآسيوية الملكية . هذا النظام قد يتسامح في تغييرات معينـــة يمكن أن تجدها بين آن وآخر في مختلف الفصول (يشرح كاتب المقدمة هنـــا ، الطرق المتبعـــة لكتابة الاحرف العربية باللاتينيـــة) . في كتاب من هذا النوع ، حيث كـــل فصل فيه وحدة قائمة بذاتهـــا تجد المواضيع وسيَر الكُتّاب تتكرر اكثر من مرة فلم يكن لنـــا بـــدٌ من التنويه وإعادة التنويه . وقد يجـــد القارىء في مواضع ان مؤلفي الكتاب يختلفون في تحديـــد ميراث بعض المظاهر المألوفة في الشرق والغرب ، تباين في الرأي كهـــذا ، آثرنا تركه كمـــا هو لتمكين القاريء من الاطلاع على وجهات النظر وتكوين رأيه الخـــاص .

الفريد غيّوم
ام. أي. اكسفورد . عميد كلية كلهام
استاذ سابق باللغات الشرقية في جامعة درهام

اسبانيا والبرتغال

بقلم

جون براند ترند John, Brande Trend (١٨٨٧ – ١٩٥٨)

رائد من رواد تاريخ اسبانيا . استاذ في جامعة كبردج . شارك في الحرب العالمية الاولى . قام بعدة رحلات في اسبانيا والبرتغال ومراكش ومكسيكو واشتغل في معهد الدراسات الشرقية بلندن . قلد عدة أوسمة في اسبانيا وفنزويلا . من كتبه صورة لاسبانيا الحديثة – ١٩٢١ ، موسيقى تاريخ اسبانيا – ١٩٢٥ ، لغة اسبانيا وتاريخها – ١٩٥٣ وكثير من الكتب الأخرى مما يدور في هذا الفلك .

ان المدرسة الحديثة الاسبانية للمؤرخين العالميين الجدد لا تقر البتة بفضل لتراث الاسلام . منذ مائة سنة خلت، كان الآراء تسرف وتبالغ كثيراً في تقدير أهمية العرب في اسبانيا . ولكن الموضوع صار اليوم غير ذي أهمية في عيون بعض الباحثين لا بل صار يرمقه أذكياء القارئين والمتتبعين بعين الاحتقار . ربما يكون هذا الموقف مؤسفاً باعثاً للأسى . الا أن ثم عوامل تبرر وجوده ليس كلهـا معقولا . فسوء التحقيق في كتاب كونديه Condé [1] الموسوم « تاريخ حكم العرب في اسبانيا » والنتائج الخاطئة المؤسفة التي تورط فيهـا « دوزي Dozy » [2] عن (السيد Cid) تلك النتائج التي اثبتت الابحاث الاخيرة انهـا وهم في وهم ، زد على ذلك الميـل الشديد لنسبة كـل ما يمكن نسبته إلى اصول لاتينية (بتأثير جامعات فرنسا وامريكا) . كان من شأنه أن يؤدي برواد تاريخ اسبانيا Hispantists إلى أن يدفعوا بالدراسات الشرقية إلى وهـدة من التشكك وعدم الثقـة ، لم تفلح في انتشالها الابحاث القيمة التي كتبهـا رجال مشهود لهم بالكفـاءة امثـال « آسين وربـيرا » .

---

(١) جوزيه انطونيو كونديه ١٧٦٦ – ١٩٢٠ مستشرق ولد في بيرالجيا ، وكتابه هذا *Historia de la Deminacion los Arabes en Espana* طبع في ١٨٢١ ونقل الى الالمانية والفرنسية والانكليزية . (المعرب)

(٢) رينهارت بيتر آن دوزي ١٨٢٠ – ١٨٨٤ امام المستشرقين الهولنديين في الامور العربية، عرف بكتابه « تاريخ المسلمين لاسبانيا حتى فتح المرابطين لاندونيسيا ٧١٦ – ١١٠١ » ابحاثه ألقت على تاريخ المغاربة نوراً ساطعاً وأوضحت نقاطاً غامضة . درس العربية في لايدن وأنفس ما خلفه هو ملحق ومستدرك القواميس العربية ذكر فيه الألفاظ العربية التي لم ترد فيسائر المعجمات.(المعرب)

وكان ثم تأثيرات اخرى تعمل عملها كنتيجة لاحوال اسبانيا الاجتماعية والسياسية الحديثة . وبرزت فكرة لاقت تحبيذاً واسعاً مؤداها : أن الدراسات الشرقية والحلول الاسلامية لمشاكل التاريخ الاسباني وعلم اصول اللغة والفن الاسبانيين قامت كلها على الفكرة التقليدية الخيالية المشؤومة التي انتهت في القرن التاسع عشر بالصدام الاسباني الاميركي في العام ١٨٩٨ بعد غزوات وحروب اهلية وقلاقل . بدأت حركة الازدهار والاصلاح بظهور جيل جديد في السنة ١٨٩٨ . وشجعتها والهمتها التعاليم المستقاة من حياة فرانشسكو جنير Francisco Giner [٣] النقية الخالصة . أدى هذا إلى نمو ذلك الاتجاه العلمي الدقيق الذي يفصح عن نفسه بكل جلاء في آثار الاستاذ منيديث بيدال Menedez Pidal [٤] القلمية على الاخص . ولكن من المؤسف كثيراً أن (بيدال) هذا يجد أني توجه بناظريه (من الملاحم الغابرة ، إلى اشعار « السيد » إلى اصول اللغة الاسبانية) فروضاً واهية الأسس تتعلق بوجود جذور عربية فيها : أوهاماً رأى الواجب يقضي عليه بتقويضها وازاحتها عن السبيل قبل أن يحقق لآرائه شيئاً من النجاح . كان « منيديث » يبذّ كل قرنائه ومعاصريه عدة وتمويناً . حتى ساد يقين بأن عالماً لغوياً رومانسياً لهو أهل للثقة والاعتماد في اسبانيا اكثر من أي مستشرق . وان ايضاحاً رومانسياً لأي ظاهرة في اللغة الاسبانية أو الفن الاسباني لهو أحسن وقعاً من حلول تستند إلى دراسات شرقية . ومهما يكن « فبيدال » نفسه لم يكن قد داخله اي شك في جدوى دراسة الجذور اللغوية للعربية والاسبانية وضرورتها . فقد كان المقال الافتتاحي

---

٣) فرانشسكو جنير دي لوس ريوس ١٨٤٠ – ١٩١٥ قانوني وباحث اسباني ولد في رنده وتعلم في غرناطة ، عرف بشدة اهتمامه بالثقافة الاسبانية والدراسات الفلسفية وتطبيقها على اساليب التعليم الحديث (المعرب).

٤) سيرد ذكر هذا الكاتب الاسباني في المتون والحواشي القادمة (المعرب).

لأول عدد من مجلة « فقه اللغـــة الاسبانية » التي اسسهـــا في العام ١٩١٤ بقلم الاستاذ ميكيل آسين بالاشيوس (٥) .

أثر الاسلام في التاريخ السياسي والاقتصادي

هناك سبيل آخر لتنكران الاسبان تراث الاسلام وهو أن المسلمين كانوا العلـــة المباشرة او غير المباشرة لكل النكبات التي انصبت على رأس البلاد فيما بعد . وقد كتب واحد من خيرة المؤرخين الاسبان الشباب للقرون الوسيطة مـــا نصه « لولا الاسلام لسلكت اسبانيـــا الطريق الذي اختارته فرنسا والمانيا وايطاليا وانكلترا . ولو اننا اخذنا بنظر الاعتبـــار ما تم فعلا خـــلال القرون المتعاقبة فلربمـــا كنا نجد اسبانيا في طليعة تلك البلاد . ولكن ذلك لم يكن مقدراً لهـــا فقد استولى الاسلام على شبه الجزيرة بأجمعها وبدل مصير ايبريا وكتب لهـــا على لوح القدر نصيباً مختلفاً من المأساة الهزلية في التاريخ . كتب لها دور التضحية واليقظة ، دور الحارس والمعلم ، دوراً عظيم الخطر في حياة اوربا ولكنه ــ كما اتضح بعدئذ ــ كلف اسبانيا افدح الأثمـــان » (٦) .

وكانت اولى نتائج الفتح الاسلامي في العام ٧١١ م هو أن العنصريـــة الإيبرية انتفضت فجأة وعادت تفيض بالحياة . فعلى طول سلاسل الجبال التي تحد اسبانيا الشمالية ، من المحيط الاطلنطي حتى البحر المتوسط ،

٥) *Prof. Miguel Asin Palacios* مستشرق اسبـــاني في الامـــور العربيـــة نشر وأحيـــا كتبـــاً عربية في غاية النفاسة منهـــا كتاب « المدخل إلى صناعة المنطق لابن طلموس » ومنهـــا رسالات ابن باجة (الوداع ، في النبات ، اتصال العقل بالانسان) فضلا عن القاموس النفيس الذي نشره في مجلة الا ندلس ج ٩ السنة ١٩٤٤ في الكلمات العربية الدخيلة على اللغة الا سبانيـــة الحديثة .

٦) سي. سانشيز البورنوث *C. Sanchez Albornoz* من مقالـــه « اسبانيا والاسلام *Espana y el Islam* » في مجلة الغرب *Revista de Occidente* مجلد (٧) عدد =

ندّت بؤراتُ مقاومةٍ للغزاة المسلمين . هذه البؤرات تمخضت على مر الزمن بممالك استرياز ً(٧) (اشتورية) والنافار والبروفانس في البرانس : بقيت هذه الممالك الجديدة تعيش في نجوة بعضها عن بعض زهاء ثمانية قرون لا يربطها الا الدين ورابطة أخرى وهي أن اللهجات المختلفة التي يتكلم بها سكانها كانت يومـــاً ما شكلاً من اشكال اللاتينية العامية . بدأت هذه الدول وهي عبارة عن مراكز مقاومة للمسيحيين كدول البلقان — وظلت كذلك وبعد أن مر زمن طويل بدأ الوهن يدب في صفوف الاسلام فلم يعد ذلك الجار المرهوب الجانب ، اخذت كل دولة من هذه الدويلات المسيحية ترسل انظارها المنهومة إلى جهة من الجهات وصارت تطاحن بعضها بعضا في حروب سجال مرة بعد أخرى . وخلقت كل واحدة منها — ايام عزلتها — تقاليد متباينة ولهجات متغايرة . وكانت مملكة كاستيـــل (قشتالة) اعظم هذه الممالك وانشطها طراً . على انهـــا بقيت — مع ذلك — متخلفة زهاء ثلاثة قرون عن ركاب التقدم الذي حصل في الانظمة التي دفعت باوربا القرون الوسطى إلى الامام بسبب صلتهـــا الطويلة بالاسلام . وفي الوقت نفسه أخذت حركة استرداد الاقطار المحتلة تمتد إلى الجنوب . وزادت موارد الملوك النصارى باحتلالهم بقاعاً مترامية الاطراف يقطنهـــا مزارعون مسلمون . بينمـــا صار رعاياهم النصارى طبقة كادت تكون مهنتهـــا الحروب فقط . كانت النتائج الاقتصادية التي تمخضت بهـــا عملية استرداد الاقطار الاسبانية تبعث على اليأس . وهذا لا يعني ان أثر الاسلام كان ضاراً بصورة مباشرة . لكن من الثابت انه عرقـــل التقدم الاقتصادي للدول النصرانية . بقيت اسبانيا النصرانية تدور طوال خمسة قرون على المحور الاقتصادي

= (٧٠) ص (١٤) نيسان ١٩٢٩ . ان الاصل العربي في اسم اسرة الكاتب (البورنوث— البرنسي : الرجل ذو البرنس) لا تخطئه الملاحظة . (المؤلف)

٧) مقاطعة في اسبانيا الشمالية اوجدها « حنـــا الاول » ملك ليون وكاستيـــل في ١٣٨٨ وأعطاهـــا لابنه الاكبر هنري عندما تزوج بابنـــة دوق لا نكاستر الانكليزية . (المعرب)

للجنوب المسلم . كان المسلمون واليهود محتكري التجارة . وظلت ممالك المسيحية في اسبانيا زهـــاء اربعة قرون يتداول سكانها عملة عربية أو فرنسية . وامتد الاجل بملوك كاستيل مثتي سنة اخرى ولا عملـــة ذهبية مضروبة باسمائهم . ولم يكن لدى « المسيحيين الاولين » اي ميل إلى النشاط الاقتصادي لأن استعادة الاراضي المفتوحة (سواء أهو هدف وجداني أم غير وجداني) أدت إلى تجنيد كل الرجال القادرين على حمل السلاح وتعبئتهم لهذه المظاهرة العسكرية . وعندما توقفت عملية الاسترداد الحربي فعلا فيما بين منتصف القرن الثالث عشر والخامس عشر ، أدت روح الطموح بارغونة Aragon إلى التماس سبيل السيطرة في ايطاليا وفي الشرق ، ودفعت بالبرتغال إلى ارتياد مجاهل افريقيا والاطلنطي . بينما حصرت دولة كاستيل جميع ضروب نشاطها في نزاع أسـَري داخلي وحروب (بارونية) . إذ لم يكن لديها منفذ بحري يدفع بنشاطها إلى الخارج .

أدى اتحاد دولتي اراغون وكاستيل بشخصي فرديناد وايزابللا إلى استسلام غرناطة في العام ١٤٩٢ ونهاية حرب الاستعادة . الحدث الذي صاحبه اكتشاف امريكا . وبهذا الكشف الجغرافي انصرفت انظار أنشط فئة من سكان اسبانيا إلى القيام بأعظم مغامرة في التاريخ . ولم تكن عمليـــة تصفية اليهود واخراجهم في السنة نفسهـــا أمراً مكروهاً في عيون « المسيحيين الاولين » . ولكن طرد الموريسكيين (وهم الاسبان المسلمون الذين تنصروا لعدة اسباب) لم يكن له الوقع الحسن في نفوس غالبية السكان المسيحيين . إذ وجدت البلاد نفسها فجـــأة في مفتتح القرن السابع عشر مجردة تماماً من جميع صناعها الماهرين وبضع مثين الالوف من المزارعين لهذا السبب صار الانهيار الاسباني محتوماً .

ومع ذلك فالعيش في تماس مستمر بالشعب الاسلامي كان يستبطن على الاقل فائدة واحدة . فقد خلق في اقلية ذات قسط ضئيـــل من الثقافة – تقطن الممالك المسيحية – روحاً من التسامح عزّ مثيلها في اوربا القرون

الوسطى . فالصليبيون الفرنسيون الذين اعانوا الفونسو الثامن [٨] على كسب معركة « لاس نافاس دي طولوزا Las Navas de Tolosa » في العام ١٢١٢ تولوا عنه ساخطين لما رأوا من مبلغ لينه وتسامحه في معاملة المسلمين المغلوبين . بينمـــا مات (بدور) [٩] الثاني ملك ارغونة وهو يحارب في صفوف الالبيجيين الهراطقة . واحاط عدة ملوك من كاستيل واراغون انفسهم بعلمـــاء مسلمين ويهود واستخدموا معمارين مسلمين واستمعوا إلى موسيقيين مسلمين وتمتعوا ببدائع مـــا انتجته الثقافة الاسلامية . على أن وجود الحرب المقدسة المتواصلة ضد المسلمين في الوقت نفسه ـ ولدت على ممر الزمن مرارة وقسوة في العاطفة الدينيـــة . ولم يبلغ اكليروس اسبانيا من القوة والسؤدد حتى قدر لهذه البلاد أن تحكمهـــا اقلية اكليروسية كانت مصالح اسبانيا الحقيقية لديهم تحتـــل المنزلة الثانية . حتى قيل « ضحت اسبانيا بحريتها الروحية وعظمتهـــا كموطن ، على مذبح الكاثوليكية » .

كان القضاء على الاسلام في الاندلس قد انتهى بتسميم اسبانيا ومـــا لبث أن ذهب ضحيتـــه فرديناند وايزابللا اللذان مزجا جرعة السم لمملكتيهما بأيدٍ طاهرة نقيـــة . لقد نبذا بالدرجـــة الاولى روح التسامح الدينيـــة التقليدية في اسرتي كاستيـــل واراغون وسمحا لنفسيهما أن يخضعا لاراء وروحية الاقليـــة الاكليروسية وحاولا تحقيق صهر مملكتيهما المفككتي العرى بقالب الوحدة الوطنية وجعلهما وحدة طابعها ديني اكثر مما هو

---

٨) ملك كاستيـــل الملقب بالطيب (١١٥٨ – ١٢١٤) ورئيس الا تحاد المسيحي الذي كسر شوكة المغاربة . (المعرب)

٩) احد ابطال معركة لاس نافاز دي تولوزا التي تعتبر بحق اعظم المعـــارك الحاسمة بين الموحدين وبين الاتحـــاد الحربي المسيحي المقدس الذي أعلنـــه البابا انوسنت الثاني على الكفار ومنهم ملك النافـــار وانضم اليهم بعض الاخويات العسكريـــة من الاسبتارية والتمبلرية ووقعت المعركة في سهـــل طولوزا وكان النصر فيهـــا للموحدين اول الامر ثم انتهت بنصر حاسم للممالك المسيحية جعلها مسيطرة على شبه الجزيرة ، ومات بدرو الثاني في الحرب الالبيجية . (المعرب)

سياسي . وسار فيليب الثاني قدماً تحدوه الآراء التي ركزتها الاقلية الكنسية في ذهنه . واشتط إلى درجة التعصب والرقاعة منحرفاً عن طبيعة السياسة التي التزمهما فرديناند وايزابللا . وانتهج خلفاء فيليب هذا السبيل فما مرت بضع سلالات بشرية حتى قضي القضاء المبرم على تلك الزهرة الفينانة للفكر الاسباني . وهو التراث الجيد الوحيد الذي تركه العرب في اسبانيا (١٠) .

الاجناس واللغات في اسبانيا المسلمة

هذه هي شكوى مؤرخي الاسبان في العصر الحديث . ومع ذلك فالشيء الذي لا يمكن نكرانه هو أن عرب اسبانيا خلقوا مدينة زاهرة واتقنوا تنظيم الحياة الاقتصادية في الوقت الذي كانت تنوء اغلب اصقاع اوربا تحت نير الشقاء والاغلال مادية كانت أم روحية . اجل فقد لعب عرب اسبانيا دوراً خطيراً في تقدم الفن والفلسفة والشعر حتى ارتفع تأثيرها إلى اعلى قنن الفكر المسيحي في القرن الثالث عشر بظهور توما الاكويني ودانتي .

هكذا كانت اسبانيا — وإن لآخر مرة — نبراساً لاوربا ومشعلا . ولكن من هم اولاء حاملو المشعل ؟ كانت الألسن قد درجت على تسميتهم (بالمغاربة moors) أو العرب : لكن هذه التسمية جوازية إلى حد جد كبير . « فطارق » قائد اول حملة ناجحة في اسبانيا لم يكن عربياً بل من بلاد البربر . كذلك كان القسم الكبير من رجاله الغزاة . والارقام الحقيقية تظهر لنا أن العرب منهم ، لا يزيدون على الثلاثمائة . اما البربر فأكثر من سبعة آلاف . اما القوات التي نزلت في السنة التالية (٨١٢ م) بقيادة موسى بن نصير فقد كانت خليطاً من عرب مختلف انحاء شبه جزيرة العرب ، ومن سوريين واقباط وبربر . وإننا لنتوصل بدراسة الوثائق التاريخية العتيقة واسماء الجديد من الامكنة في اسبانيا (ولا سيما ما هو في مملكة بلنسية) إلى

(١٠) *Revista de Ocidente* : ج ٧ عدد ٧٠ ص ٢٨ نيسان ، ١٩٢٩ . (المؤلف)

توزيع القبائل العربية في اسبانيا عقيب الغزو المباشر ثم بعد ذلك بصورة تقريبية . وقد نقـل الغزاة معهم خصوماتهم القبلية فضلا عن كُنى قبائلهم وصاروا يختصمون بسببهـا في اسبانيا بأشد وأعنف مما كانوا يختصمون وهم في موطنهم الاصلي . ودخـل حضيرة الدين الاسلامي كثير من الأسر المسيحية، وترك أكثرها — مع بعض من بقي على دينه — اسماءه المسيحية واتخذ اسمـاء عربية مع نسبتهـا العائلية « بنو ... أو بني الـ ... » وحصل تزاوج كثير جداً بين المسلمين والنصارى كأنْ بَنى أبنُ موسى بن نصير وغيره من قادة الحملة ، بنساء من أسرة وِتزا [11] آخر ملـوك اسبانيا الفيزغوطية [12] واصبحت جميـع امهات الجيل التالي — مسلمات ام مسيحيات اسبانيات في جميع انحـاء البلاد . أما مسلمو الجيل التالي ، فقد فضلوا أن تكون امهات اولادهن من أولئك الشقراوات الامـاء اللائي يبتعن من شمـال اسبانيا على أن يكن بنات جلدتهن ، فضلا عن اقترانهن بغربيات في الوقت نفسه . وقد درس الاستاذ ريبرا [13] سجلات سوق النخاسة القرطبي لفترات زمنية مختلفة فتوصل إلى أن ابتيـاع الرقيق لم يكن كمـا يبدو بالصفقة البسيطة ، إذ كان يجب ان تعقد بحضور الكاتب العدل . ويؤخذ بنظـر الاعتبار بكـل دقة الاغراض التي تستوجب شراء الجارية

---

١١) أوغيطشه كما يسميه العرب ، لم تكن اسرة الفيزقوط آخر من حكم اسبانيـا فقوضها العرب . حيث ان وتزا وهو آخر ملك منهم اسقطه (رودريك : لذريق) عن العرش . فمـا كان من الملك المعزول الا ان تحالف مع العرب ضد خصمـه . ان ابنة وتزا التي تزوجهـا عبد العزيز بن موسى بن نصير كانت تعرف بام عاصم . (المعرب)

١٢) الفيزقوط *Visigoth* هم قبيلـة من قبائل الغوط . استوطنوا شمـال الدانوب ثم عندما هاجمتهم قبائـل الهون البرابرة دخلوا التخوم الرومانية وعبروا الألب واستوطنوا فرنسا واسبانيا . (المعرب)

١٣) خوليان ريبرا في كتابه ابحاث ومقالات *Disertaciones y opùsculos* مجلد ١ ص ١٧ — ٢٥ مدريد ١٩٢٨ (المؤلف) . توفي هذا المستشرق في ١٩٣٤ ، وكان استاذاً للعربية في سرقسطة . (المعرب)

وملكاتُهـــا ومواهبهـــا واسلوب المعاملة الذي يجب اتباعه معهـــا . وقد نعمت النساء بحرية ورعاية في حكم امويي اسبانيا تفوق ما كان يتمتع به مثيلاتهن في حكم « عباسيي بغداد » وكما يظهر كذلك انه كان من المناسب جداً لأولئك اللاتي قدر لهن ان يصرن امهات لاطفال اسر عريقة ، أن يكن بيضاوات البشرة وإن أمكن فمن الغاليسيات [١٤] (الجليقيات) فكانت النتيجة ان صار الدم العربي يتناقص في عروق السكان باطراد تمازجه المتتابع على دوام تقادم الاجيال البشرية . وان ظلت أنسال العرب عربية تحمل اسماء اسلافهم الذكور ، فكلما زاد عدد الاسماء العربية اللاصقة باسم الرجل كلمـــا قلت نسبة الدم العربي الذي يجري في عروقه تبعاً لذلك . فمن الخطأ اذن ألقول بأن كل مسلمي اسبانيا هم عرب ، وان كـــل النصارى هم رومانيون أو قوطيون ، وإن كل هؤلاء الأخيرين لجأوا إلى الشمال هرباً من الفتح الاسلامي . ومن الخطأ القول ان حرب الاستعادة التي استعرت طوال قرون ثمانية قد نشبت بين القوط اللاتين في الشمال وبين عرب الاندلس في الجـــنوب.

صـــار أغلب المسلمين الاسبان يتكلمون بلغتين منذ ولادة الجيل الثالث أو الرابع بعد الفتح . سواء في هذا ذوو الاصـــل العربي الخالص (وكانوا اقلية ضئيلة آنذاك) او ذوو الاصل المسيحي الاسباني . واستخدموا — فضلا عن اللغة العربية (الرسمية) ، اللغة الرومانسية الدارجة لغة تخاطب المستعربين المسيحيين الذين بقوا يعيشون في ظل الحكم العربي . ويفصل لنا (الخُشني Aljoxani) في « كتاب القضاة بقرطبة [١٥] » بكـــل وضوح انتشار

١٤) غاليسيا مقاطعة فرنسية على حدود اسبانيـــا في الزاوية الشمالية الغربية منها . (المعرب)

١٥) « كتاب القضاة بقرطبة » للخشني . (الاصل والترجمـــة مع مقدمة) وقف على طبعـــه (خوليـــان ريبرا) . والخشني هو الحافظ العالم ابو عبد الله محمـــد بن حارث الخشني القروي الاندلسي (ياقوت،) صاحب التواريخ .ذكره (الحميدي) قال هو اعلم العلم والفضل فقيـــه محدث ، مات في حدود ٣٣٠ هـ. = ٩٤١ م. طبع كتابه المذكور بالخط المغربي في مدريـــد ١٩١٤ . (المعرب)

اللهجة الرومانسية ومبلغ جريها على الالسن في جميع الطبقات بقرطبة كما يبدو ، حتى في ساحـــات القضاء وفي بلاط الملك . والواقع انه كان يوجد اربع لغات اعتـــاد مسلمو اسبانيا التكلم بها :

١ — العربية الفصحى وهي لـــغة المتأدبين والبلغاء .

٢ — العربية الدارجة وهي لغة دواوين الحكومة والادارة المدنية .

٣ — اللاتينية وهي اللغة التي تستخدمها الكنيسة . لغة التراتيل الدينية يرافقهـــا شكل خـــاص من الصلوات ولا اكثر .

٤ — لهجة رومانسية ؛ واكثرها مشتق من اللاتينية الدارجة لكن قدر لها فيمـــا بعد أن تكون ما يدعى (بالرومانسية — القشتالية أو بالاسبانية) احدى اللغات العالمية التي تقف في مستوى الانكليزية والعربيـــة .

كان أول الأمر — يصعب على الاميين من السكان الذين انحدروا بالاصل من شبه الجزيرة ان يتدربوا على الافصاح عمـــا يريدون باللغة الغربية — بأي شكل كان . وفي القرون الاولى التي عقبت الفتح وجد ثم الكثير ممن ارتضوا الاسلام دينـــاً ، يجهلون العربية جهلاً تاماً بحيث تعذر تلقينهم فرائض الدين الاسلامي الاساسية . ولم يكن ليدهشنا ان نرى حتى إلى زمن متأخـــر امرءً لا يعرف شيئاً من العربية ويعين قاضياً . وكان عبد الرحمن الثالث ورجال الحاشية يتندرون ويرسلون الملح والفكاهات عن اللفظ المحرّف للكلمات العربية والرطانة الدارجة في لغة السكان [١٦] وقد روى الخشني بأنه كان يوجد في قرطبة أيامه رجل مسن يدعى « يانير أو جنير Yanir, Giner » (اسم لا يسمعه الملم بتطور اللغة الاسبانية الحديثة الا ادركه الحنين العاطفي كان هذا الرجل المسن لا يتكلم بغير الرومانسية (العجمية) ولكنه مشهور

---

١٦) منيديث بيدال (أصل الاسبانية) *Origenes del Espanol* ص ٤٤٢ ط . مدريد ١٩٢٦ . (المؤلف) .

بالفضل لنبله وصدقه حتى ان شهادته كانت مقبولة دون تزكية في المرافعات الشرعية-والقضائية . كان محبوباً للغاية في قرطبة لمناقبه الحسنة ولفرط تمسكه بالدين الاسلامي الذي يعتنقه . دعـــاه صاحب الشرطة يوماً ليدلي بشهادته في قضية ضد احد القضاة فأجاب الشيخ باللغـــة العجمية « انني لا اعرفه ولكن سمعت الناس يقولون عنه : « بأنه ... » واستخدم تصغيراً للكلمـــة العجمية التي نطقهـــا وفق قاعدة التصغير العربية . فلمـــا نقل الكلام إلى الامير ـــ رحمة الله عليه ـــ سرّ كثيراً وقال « لا تصدر مثل هذه الكلمة عن هذا الرجل الصالح الا والوثوق بصدقها واجب » وأمر بعزل القاضي في الحال (١٧) .

المستعربة والثقافة الاسلامية

كان تراث الاسلام يتقدم في اسبانيا باطراد مع وجود الحقيقـــة التي لا تنكر وهي ان كثيراً من المسلمين في اسبانيا من اصل اسباني وان اللغة العربية لم تكن اللغة التي يتفاهم بهـــا العامة او التي يمكن اتقان التحدث بهـــا (حتى ان « المقدسي » السائح القادم من الشرق في القرن التاسع وصف اللغة العربية في اسبانيا فقال انها مستغلقة على الافهـــام) . فاذا كانت المستعربة المثقفة تتكلم بلغتين ، فان غالبية السكان من جهة اخرى ، امية . والقليل الذي يعرف القراءة والكتابة منهـــا كان يفضل التفاهم بالعربية على اللاتينية . وكانت لغة بربرية غليظة الكتبة إذا قيست بالعربية وكل مـــا كان ميسوراً من ادبياتها فهو تافه قليل الأهميـــة . لذلك وجدنا اسقفاً في قرطبة لايشتط كثيراً في لوم رعاياه لقلة ايمانهم ، بقدر مـــا يشتط في تأنيبهم لتفضيلهم الشعر والنثر العربيين على قصص ابائهم الدينيـــة. كذلك ادخل المسلمون الكاغد فصارت الكتب العربية تفوق اللاتينية برخص الثمن وسرعة الانتشار .

١٧) خوليان ريبرا المصدر السابق ص ١١٨ والاصل العربي ص ٩٧ . (المؤلف) .

ان قرطبة التي فاقت كل حواضر اوربا مدنية اثنـاء القرن العاشر كانت في الحقيقة محط اعجاب العالم ودهشته ، كمدنية فينيسيا في أعين دول البلقان . وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو اشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينة التي تحوي سبعين مكتبة وتسعمائة حمام عمومي . فإن ادركت الحاجة حكام ليون او النافار او برشلونة إلى جراحي او مهندس معماري أو خائط ثياب أو موسيقي فلا يتوجهون بمطلبهم إلا إلى قرطبة . ونذكر على سبيل المثال أن (توتة Tota) ملكة النافار جاءت بابنها (سانشو السمين) لمعالجته فيها من مرض البدانة ، فأشير عليها بمراجعة طبيب يهودي مشهور . وكان العلاج ناجعاً حتى أن الحكومة انتدبت هذا الطبيب ليتوسط لها في مفاوضة تلك الملكة وعقد معاهدة هامة .

ولكن الشيء الذي يذهل خاطر الرحالة هو الروايات والاخبار المأثورة عن مقر مدينة الزهراء الصيفي الذي يقع على بعد ثلاثة اميال من قرطبة تقريباً ، تلك الاخبار التي تطالعنا حتى على صفحات المقري (١٨) الرزينة التي كتبت بعد ذلك الزمن بوقت طويل . ترينا القصر فهو اشبه بالقصور الخيالية (في حكايات الف ليلة وليلة) لا كمجموعة من أبنية . لم يعثر منقبو العصر على شيء منها اللهم الا مجاري المياه (١٩) .

حاق الدمار بمدينة الزهراء بعد خمسين عاماً من بنائها . لكن سقوط الخلافة كان يعني أن ثقافتها أو بعض ثقافتها ، صارت ميسورة للفاتحين او لملوك

---

١٨) المقري ت ١٠٤١ هـ. = ١٦٣١ م هو ابو العباس احمد بن محمد بن احمد المقري المولود في تلمسان مؤلفه « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » أتى فيه إلى وصف الاندلس بدقة وهو يقع باربعة أجزاء . ط مصر سنة ١٢٧٩ هـ. . ونشر في لندن بمجلدين ١٨٤٠ – ١٨٤٣ . (المعرب)

١٩) فلاثكيث بوسكو *Velazquez Bosco* في « مدينتا الزهراء والمرية » *Medina Azzahra y Almiriya* ط . مدريد ١٩١٢ . (المؤلف) .

الطوائف (بالاسبانية Reyes de Taifas) ومـــع ان اشبيلية لم تكن — وهي تحت حكم بني عباد ومنهم المعتمد الشاعر بأقل ازدهاراً وعظمة من قرطبة كما كانت حالها قبل ذلك بقرن ، فان الدول الاسلامية اصبحت الآن اكثر اقتراباً من مسيحيِّي الشمال ، وقد انتشر نفوذهم الثقافي في الوقت الذي كان سلطانهم السياسي يضمحل . إن توسع الثقافة الاســـلامية إلى الشمال زاد في تشجيعهـــا هجرة المستعربة خلال فترة الاضطهاد التي حدثت ايـــام حكم البربر والمرابطين والموحدين، وعلى الاخص بين السنوات ١٠٩٠ و١١٤٦ . ولاول مرة يظهر التعصب الاسباني على مسرح التاريخ الاسباني ولـــكن من العجيب أن يظهر هذا التعصب لدى كلا المعسكرين في وقت واحد تقريباً . حمـــل لواءه في الجنوب البربر المتزمتون؛وفي الشمال الرهبان الكلونياك (رهبانية متزمتة Cluniac) [٢٠] ، ولقد وجد مستعربة بلنسية ان العيش تحت حكم المرابطين محال . عندما تركت (يمينه) المدينة بعد موت (السيد) في ١١٠٢، نزح جميع المستعربة إلى قشتالة.هذا النزوح الجماعي تبعته عدة هجرات . ولقد ساءت حالة المستعربة تحت حكم المرابطين في ١١٤٣ إذ أمر عبد المؤمن بطرد جميع المسيحيين واليهود الذين يرفضون ان يصيروا مسلمين . ومع ذلك فمن العجيب اننا نجد في هذه الفترة من حكم البربر باسبانيا (من ١٠٥٦ الى ١٢٦٩ على وجه التقريب) اسماء عظيمة تسطع في سماء الثقافة الاسبانية المسلمـــة كالبكري ، والادريسي الجغرافيين ، وابن زهر الجراحي الذي عاش في عصر المرابطين . ونبغ في عصر الدولة التي اعقبتهـــا ، الفلاسفة ابن باجه وابن رشد وابن الطفيل وابن عربي المرسي الصوفي . واليهودي ابن ميمون الحكيم . وابن جُبير السائح .

---

٢٠) نسبة إلى بلده كلوني (شرقي فرنسا) انشئت فيها (٩١٠ م) رهبانية للآباء البندكيتين حملت لواء التعليم المتزمت في القرنين الحـــادي عشر والثاني عشر .(المعرب)

كان المستعربة المهاجرون قد نقلوا اساليب معمارية وانماطاً من الثياب وبعض العـادات الاسلامية وجملة تعـابير مثل quem Deus salvet, cui sit beata requies que Dios mantenga «من يخلصه الله ، كانت له الراحة السعيدة ، وهو الذي يحفظه الله [٢١] » ولكن ، مثلمـا نشأ تراث الحضارة الاسلامية العلمية في اسبانيا فقد تم نشره في ارجاء اسبانيا كلهـا على يد الفتح المسيحي — بتوسط اليهود — في النصف الاول من القرن الثالث عشر ؛ هذا الفتح الذي كان السبب في دخول عدد كبير من مهرة الصناع المسلمين تحت الحكم المسيحي وفتح طريق المدارسات الاسلامية على رحبه لكـل اوروبا ؛ فقد اخذ التأثير ينتشر بسرعة عقيب فتح طليطلة (١٠٨٥) وسقوط قرطبة (١٢٣٦) والاستيلاء على اشبيلية (١٢٤٨) . وبعد الظفر بغرناطة (١٤٩٢) ، ربما صح القول ان تراث الاسلام وصل خاتمة المطاف خلا ما يتعلق بصناعة الاواني الخزفية وبعض الصناعات الفنية الصغيرة .

ان النهضة العلمية العربية المسبوقة بنهضة علمية فرنسية اعقبتها حركة احياء العلوم الايطالية وبهذا انتهت فترة التأثير العربي .

الهندسة المعمارية . المستعربة والمدجنون

في فصل آخر من هذا الكتاب بحث عن الهندسة المعمارية الاسلامية . فليراجـع .

ان عهدي الخلافة والامارة يمثلها المسجد الجامع بقرطبة[٢٢] (شكل ٧٧) اما مـا يذكرنا بعصر ملوك الطوائف (وهو واحد من عدد قليـل) فهو

---

٢١) مينيديث بيدال : المصدر السالف . (المؤلف) .

٢٢) عن نفح الطيب باختصار : كان كنيسة قبـل الفتح العربي وشاطرهم عليهـا المسلمون عند الفتح وبدأوا بتوسيعه . وقد تحول إلى كنيسة بعد رجوع الاسبـان . ومـا زال قائماً حتى الآن بنقوشه وزخارفه الاسلامية وكتاباته العربية . (المعرب)

الآثار الباقية من الجعفرية Aljaferia في سرقسطة . اما عصر الموحدين فيمثلـــه برج جيرالدا ، واعتق قسم من بناية القصر Alcazar [٢٣] في اشبيلية (patio del y eso) بينما يمثل فن اسرة (بني نصر) في غرناطة « قصر الحمراء » Alhambra [٢٤] (شكل - ١) وواجهة قصر جنة العريف Generalife» . وعلى كل حال فثم اسلوبان آخران جديران بالتأمل كلاهما اسباني الطابع وهمـــا (العمار المستعربي . والعمار المدجني) فالعـــمار المستعربي هو من بعض النواحي رد فعل اسلامي . لكنه خضع مضطراً لمؤثرات جاره الجنوبي الاقوى والاكثر مدنية . ولما كانت اصوله ترجع إلى الاسلوب الذي ساد اسبانيا قبيل غزوالعام ٧١١ ، فقد صار الاسلوب العملي المفضل لممالك الشمال المسيحية خلال تلك الفترة حتى دخول الطرز الرومانسي وكالطليعة البعيدة عن القسم الاكبر من الفن البيزنطي ، فهذا الاسلوب يميط اللثام عن مظاهر معينـــة تبدو ايضاً في فن العمارة الاسلامية . كالنوافذ المزدوجة (الشماس Ajimas) والطاق الشبيه بحدوة الحصان . وان تاريخ هذا الطاق العربي هو بحد ذاته قضية طريفة . إذ لم تنفرد مباني المسلمين باستعماله ولكنه وجد في كنائس المستعربة أيضاً وقد زعموا ان المسيحيين الذين هاجروا من قرطبة ، على الاخص الرهبان منهم حملوا معهم نظريات لثقافة اعلى ممـــا عرف في الشمال بأسره ، ومنها اساليب جديدة في البناء . ان الكنائس البسيطة التصميم التي يعود تاريخ بنائهـــا إلى تلك الحقبة ، تفصح عن تأثير قرطبة في شكـــل بناء الطاق وفي نظام حفر السراديب وان كان طابعهـــا العام ما يرجع اصله إلى الفن البيزنطي . مثال ذلك كنيسة القديس (ميكيل داسكالادا) التي بناها الرهبان المطرودون من الحاضرة الاسلامية في العام ٩١٣ . وقد عرّفت قرطبة المسيحيين والمسلمين على حد

---

٢٣) ويدعى بالقصر الكبير ، شرع ببنائـــه عبد الرحمن الناصر في أواسط القرن الثاني وأتمـــه خلفاؤه وهو مؤلف من ٤٣٠ داراً . « نفح الطيب » . (المعرب)

٢٤) بنـــاه بنو الأحمـــر في أواسط القرن الثامن الهجري . (المعرب)

سواء بالطاق العربي . لكن الفضل في ابتكاره لا يعود لها . فلقد كان موجوداً بكل تأكيد في اسبانيا قبل الغزو العربي وكان ظاهراً أيضاً حتى في احجار القبور الرومانية في عصور متأخرة . وعلى كل حال فان المعماريين الاسبان سرعان ما ادركوا مزاياه البنائية والفنية فتبنوه وشاع عندهم استعماله ، مع فارق بسيط هو توسيعهم طرفي كماشة الطاق ، وتضييقهم فتحته من الوسط . ان تأثير قرطبة المعماري منهالطاق « أي العِقادة » الشبيه بحدوة الحصان) يمكن أن نراه في مخطوطات المستعربين المزخرفة بالرسوم الهندسية كشروح بياتوس ليبانا Beatus Liébana . كما عرف ايضاً غير ذلك من المخطوطات اللاتينية وفيهـــا فعلا هوامش وملحوظات بالعزبية تفسر معاني تلك البصمات العربية . ولكن اهم مـــا قدمته قرطبة من مبتكراتها الاصيلة المعمارية هو طريقة عمـــل السراديب ذات السقوف المعقودة المرتكزة على اسلوب العقادات المتقاطعة والاضلاع الظاهرة المتشابكة . وهذا اسلوب يعالج مشكلة العمـــار من الصميم اعني تسقيف الفسحة بالنظام الذي جرى عليه التسقيف القوطي . هذا النظام الذي اصاب نجاحاً وشاع استعماله بعد ذلك بقرنين من الزمن . نقلت انماط العمارة المتقدمة من قرطبة إلى طليطلة وسرقسطة وتجلت روعتهـــا ورواؤها في ابنية قرميدية . ان الكنيسة الرائعة المسماة « كريستا دي لا لوث Crista de la Luz في طليطلة (شكل — ٢) كانت بالاصل كنيسة فيزقوطية ثم حُولت إلى مسجد ايـــام الاحتلال الاسلامي ورممها معماريّ مسلم في السنة ٩٨٠ كما ذكر في كتابة محفورة على واجهة البناية . نجـــد الحيطان من داخلها ، قد ازّينت بصفوف من البواكي المتشابكة المسدودة : صفوف من العقادات الجامدة التي لا تنتهي بشيء ولقد قيل ان ذلك الزمن هو اول استعمال لها . اما النموذج الثاني فيتجلى في كاتدرائيتي دورهـــام Durham ١٠٩٣ ونورويـــج Norwitch ١١١٩ (شكل — ٣) ولقد صارت الاطواق الزخرفية المتشابكة بدعة محببة عند البنائين المسلمين بعد أن خضعوا لتأثير المسيحيين .

اما الفئة المعروفة باسم « المدجنين » فهم موجدو الطرز الوطني الاسباني الذي ربما كان اهم ميزاته هو ظهور الطابع الاسباني فيه على الفن الاوربي . وما خلفوه من آثـــار يمكن رؤيته في مختلف انحاء اسبانيا . على أن موطن تلكم الآثار الحقيقي هو (طليطلة) فهنالك نجد تلك الابراج الكنسية الجميلة المصنوعـــة من القرميـــد عـــلى اشكـــال مختلفة من العقـــادات المسدودة . اما زخرفتهـــا الرئيسية فتتمثل في عدة طبقات من هذه العقادات مرتبة احداها فوق الاخرى صفاً صفاً . ويختلف شكل نوافذ كل طابق عن زميله (شكل – ٤) والابراج ذات النمط المدجني في (اراغون) منفصلة عن الكنائس كالمـــآذن . وهي احياناً مزينة بزخارف على شكل مربعـــات (قاشانية) ذات الوان لألاءة صارخة ، فضلا عن صناعة التكفيت بالقرميد . ولقـــد بني في مدينة تيروله Terule على قارعة الطريق اربعة ابراج بشكل يدع وسائط النقل تمر من خلال طاق في الاسفل . اما في قلعة ايوب cataloyub فالابراج مثمنة الاوجه [٢٥] . وتعد كذلك المنحنيات القرميدية لكنائس المدجنين في(طليطلة) مثال النماذج الجميلة لعمارة القرميد . بينما يسفر الجدار الشمالي لاقدم كاتدرائيتين(بسرقسطة)عن اروع مثل لهذا الطراز من الزخرف . كان البناؤن المدجنون يستدعون في مختلف انحاء اسبانيا الرائع لقصر انفنتادو Infantado في مدينة وادي الحجـــارة Gandalagara . ولقد كانت الحاجة إلى فنهم عظيمة وعلى الاخص لنحت شواهد القبور ولبناء كنائس اليهود كما هو مشاهد في المباني الطليطلية المعروفة الآن بـ «الترانسيتو El-Trànsito والقديسة مارية البيضاء santa Maria la Blanca . أما « القصر في اشبيلية فقد شاده البناؤن المدجنون للملك بدرو القاسي [٢٦]

---

٢٥) برنارد بيفان *Bernard Bevan* كتابه : ابراج المدجنين في أراغون *The Mudijar Towers of Aragon* (مصور) مجلة ابولو ، السنة ٩ العدد ٥٣ أيـــار ١٩٢٩ (المؤلف)

٢٦) صاحب كاستيـــل وليون ١٣٣٤ – ١٣٩٩ . (المعرب)

على طرز اسلامي خالص وما زال احد القصور التي كان يشغلها الملك الاسباني [٢٦] .

النجاريات ، الخزفيات ، الاقمشة ، الموسيقى

مهر المدجنون في الصنائع اليدوية (المنزلية) وبرعوا في النجارة وعمل للفخار والنسيج أكثر من أي شيء آخر . فالسقوف الاسبانية المقفصة بالواح الخشب artesonado يعز نظيرهـــا في اوربا . اللهم إذا استثنينـــا سقف كنيسة بالاتينا capellapalatina في مدينة بالرمو ، وهي من عمل المسلمين ايضاً فالواحها المطعمة والمكفتة لا تقـــل عن إختها الاسبانية جمالا وروعة . وما زالت مصطلحات اسبانيا النجارية حتى هذا اليوم عربية . كذلك مختلف انواع المربعات الفسيفسائية الملونة الثولويوس azulejos المألوفة كثيراً في اسبانيا والبرتغال فهي من آثـــار المسلمين كما يظهر من اسمهـــا (جدول الكلمات) وبعد حرب الاستعادة حلت الرسوم والمناظر (حتى الصورة الكبيرة المرسومة على الحيطان بطريق التطعيم بقطع القرميد الملون) (شكل - ٥ -) محل الرسوم الهندسية والنقوش . واستعمل القاشاني (الكاشي) في اشبيلية لرصف المذبح الكنسي والدرابزينات الحجريـــة والنافورات (حيث نظم تدفق الماء بحيث ينساح على مهل فوق حواف الحوض ليبقى القاشاني المرصوف تحت النافورة ندياً صقيلا) كذلك استخدم في الحديقة العامة المجانية (بدعة انفردت بها اسبانيا) واستعمـــل القاشاني والصور المكفتة بالقاشاني في البرتغال بنطاق اوسع . فثم في اوفيرا (Overa) كنيسة غطيت كل جدرانها الداخلية بالكاشي الابيض والازرق .

---

٢٦) حولته الجمهورية المعلنـــة باسبانيا في العام ١٩٣١ إلى متحف . (المعرب)

ووصلت صناعة الفخار البراق العربي — الاسباني اعلى قمة الفن عند المدجنين . هذا الفخار يلي بالنفاسة الفخار (البورسلان) الصيني عند الهواة جمّاعيه . واول ما ورد ذكره في القرن الحادي عشر (طليطلة العام ١٠٦٦ وقرطبه العام ١٠٦٨) كما وصف لنا (الادريسي) طريقة صنعه في قلعة ايوب قبل السنة ١١٥٤ .

وثمّ مكانان آخران متباعدان في اسبانيا نالا شهرة في هذه الصنعة اولهما وأشهرهما (مانيسيس Manises) في مملكة بلنسية وثانيهما مدينة (مالقة) . واقدم ما بقي من آثاره حتى الآن يرجع بنا إلى القرن الرابع عشر وان كان قد عثر على قطع أثرية او لُقى تعود إلى ما قبل ذلك باربعمائة سنة في تنقيبات (مدينة الزهراء) . والنموذج الاصيل للخزف العربي — الاسباني له بريق معدني ذهبي اللون لألاء ، وتختلف الوانه بين الياقوتي وعرق اللؤلؤ الاصيل والاخضر المائل للاصفرار . واعتق انماط الزخرفة هي بيزنطية لكن سرعان ما دخلت الاحرف الكوفية المربعة في صلب الزخرفة . ثم استعمل نقش محبب هو كلمة (العافية : بالاسبانية alafia)ومعناها بهذه اللغة كمعناها بالعربية (الرخاء . النعمة . طيب العيش) . والظن السائد أنّ هذا التعبير اختاره الفخارون ليحل محل لفظ الجلالة (الله) ، حتى إذا انكسر الوعاء والاسم عليهـا ، لا يبقى مجال لموت صاحبها من جراء هذا الانكسار . لقد وجدت كلمة (العافية) منقوشة على قناني الدواء اكثر من غيرها . ومهما يكن فقد ابتدع فخارو بلنسية نقوشاً مختلفة اخرى شكلهـا مأخوذ من النبات البري الذي يعرف بالعربية (الغالبة) وبالاسبانية (algalaba) وهو نبات معروف في تلك الجهة . واستعملت كذلك اوراق العنب . واخيراً اشكال البيارق والرايات (شكل ـ ٦ ـ) وقد ثبت من كل هذا ان صناعة الفخار العربية — الاسبانية كانت وقفاً على البابوات والكرادلة وزهرة الاسر

العريقة الاسبانية والبرتغالية والايطالية والفرنسية (٢٧) ولقد نوه الكردينال خيمينيز – Ximénez بأولئك الهراطقة الصناع قائلا : « ينقصهم ايماننا لكن تنقصنا صناعتهم » .

وما كان الطلب على الحرير العربي – الاسباني بأقل من الرغبة في خزفياته . كان مستودعه البيَع المسيحية على الاخصّ حتى تبين ان جملة الاكياس الحريرية الصغيرة التي عثر عليها في كاتدرائية « كانتربري » والتي كانت بمثابة محافظ اختام الوثائق ، مما يرجع تاريخه من ١٢٦٤ حتى ١٣٦٦ ، انما هي مصنوعة من وصلات الحرير الاسباني العتيق . هذه النماذج ، لا يمكن أن يتطرق الشك في تفردها عن غيرها بجمال نسجها وصنعتها التي لا تضارع وفي مبلغ دقتها وتعقيدها . وربما عاد اقدم ما وصلنا منها ، إلى نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر . وبمجيء القرن الرابع عشر ، ظهرت نماذج حريرية جديدة فاقت الاولى في دقة صنعها وزخرفتها . ظلت هذه هذه الصبغة قائمة إلى ما بعد ذهاب الحكم الاسلامي عن اسبانيا ، وهي تمثل مظهراً آخر لفن المدجنين في القرنيين السادس عشر والخامس عشر .

وطار صيت قرطبة بسبب الجلود التي تنتجها المعروفة باسم « القرطبي cordovan أو Cordwain » . وقد تعتبر « شركة القرطبيين Cordwainers Co. » أو يعد اسمها هذا على الاقل ، جزءاً من تراث الامة العربية بما تبع ذلك من زمن انجز فيه مجلدو الكتب المدجنون ادقّ الاعمال واروعها . واصاب الصاغة المسلمون الاسبان ، شهرة ايضاً . أما صناع المعادن الاخرى فلم تكن جهودهم المبذولة بأقل من جهود من ذكرناهم ومن سبقوهم في انواع معينة من الصنعة كنقش قبضات السيوف

---

٢٧) س. فان در بوت *C. Van der Put* في « الفن الاسباني » بمجلة « برلنكتن مونوغراف *Burlington Magazine Monograph* » ، ١٩٢٧ وبعض الدراسات الاخرى . (المؤلف) .

وتطعيمها بالمينـــا ، وكبعض الحاجات والادوات المستعملة في الحياة اليومية مثل المفاتيح الحديدية التي اشبهت السنتها المسننة هيئة الأحرف والكلمات المكتوبة بالخط العربي الكوفي المتداخل ، واما التقليد فقد جاء آية في الابداع .

من العسير علينا أن نزجي إلى الفنون الصناعية لاسبانيا المسلمة ما تستأهله من ثناء وحمد . على أن الأمر بعكس ذلك في موضوع الموسيقى ، فربما كان يوجد بعض المبالغة في تقدير اثرها . انّ المماثلة الظاهرة بين الموسيقى الشعبية التي كانت تسمع في جنوب اسبانيا وبين الموسيقى التي سمعت في مراكش وغيرها من الاقطار الاسلامية ، جعلت بعض الناقدين يخبطون خبط عشواء . وإنه وإن كان يوجد بدون شكّ علاقة بين الرقصات والاغاني الراقصة الاسبانية الحديثة وبين نظيراتها في مراكش الحديثة ، ومع أن بعض المقامات التي يعتزّ بهـــا موسيقارو « فاس» قد قيل انها من مخلفات غرناطة ، فالتشابه في اشكال الموسيقى الاخرى ملحوظ في اسلوب الاداء اكثر مما هو ملحوظ في فن الايقاع ، ظاهر في الانماط لا في الموسيقى نفسها . ومما لا شكّ فيه أن قصور ملوك القرون الوسيطة في « كاستيل واراغون » لم تكن خالية من الموسيقيين المسلمين الذين وصلت الينا اسماؤهم كما وصلت الينا اسماء زملاء لهم من انكلترا واسكتلندا ، واسماء غيرهم من ارجاء اوربا ، ولكن فيمـــا تأخر من القرون الوسيطة (اعني في عهد كاهن هيتا الكبير) . وكثيراً ما وصف المغربيون بأنهم راقصون اكثر ممـــا هم ضاربون على الآلات الموسيقية ، وإن كان المسلمون هم الذين ادخلوا تلكم الآلات — في مناسبات كثيرة — إلى اسبانيا ، ومنها إلى اوربا — كالعود والقيثارة ، والرباب (وهي الآلة المحببة عند شوسر [٢٨] Chaucer) هي بالعربية

٢٨) جيوفري شوسر (حوالي ١٣٤٠ — ١٤٠٠) احد أساطين الادب الا نكليزي الكلاسي عرفه الادب الانكليزي « بحكايات كانتربري » والفكرة التي بنيت عليها تتلخص : أن جماعة من الحجاج المتواردين من مختلف أنحـــاء انكلترا للحج إلى قبر القديس تومـــا في كانتربري

رباب وبالاسبانية ربيل rabel وبالبرتغالية ربيكا rabeca (وهذا الاخير هو المصطلح الشائع الذي ما زال يستخدمه البرتغاليون للدلالة على الكمنجة) .

وفي جزيرة ايبريا ، آلات اسماؤها مشتقة من العربية مثل : البندير العربي (التامبورين tambourine ، بالاسبانية : بنديرو pandero وبنديراتـــا pandereta) وعرفت الصنوج التي تحف باطاره باسم « صُنجاس sonjas جمعُها بالعربية : صنوج ؛ وبالفارسية صَنج » .

أمـــا البوق الاسباني القديم المسمى (انافيل anafil) فهو النفير العربي ، بينما القطعة الموسيقية المسماة « فانفير fanfare » والتي تُؤدى بعدة ابواق اشتق اسمها كما يقول الدكتور فارمر [٢٩] من صيغة الجمع للنفير أي أنفار . أما القِرَب الموسيقية الاسبانيـــة المسماة (غيتـــا gaita) فهي الآلة الموسيقية العربية المسماة (الغيطة hautboy) المعروفة في غرب افريقيا باسم : الليكاتور alligator وهي اقرب كلمة انكليزية للنطق العربي العامي بهـــا . وثمّ ايضاً الآلة الاسبانية العتيقة المعروفة باسمي : البوق albogue والبوقون albogon ، واصلها العربي « البوق » وباللاتينية buiccinum بقيت هذه الآلة زمناً طويلاً سراً مستغلقاً على الباحثين حتى وُصفت مؤخراً وصار بالامكان رسم شكل لهـــا باعتبارها من الآلات الشائعة في اقليم الباسك إلى الآن [٣٠] . واخيراً تأتي كلمـــتا طروبادور trobadour وطروبار trobar (كمـــا ألمعنا إليه في باب آخر من ابواب هـــذا

= التأم شملهم في احدى الحانـــات « التابارد » فقابلهم المؤلف مع صاحب الحـــانة واقترحا عليهم ان يقص كل واحد منهم تزجيـــة لساعات الفراغ قصتين : واحدة في طريق الذهاب وأخرى في الاياب ومن تحرز قصته أكبر الا عجاب يدعى مجاناً للعشاء في الحانة . (المعرب)

٢٩) دكتور فارمر : راجع « مختصر تاريخ الموسيقى العربية » . (المؤلف)

٣٠) انظر « رودني كالوب *Rodney Gallop* » في « كتاب الباسك » ص ١٨٣ ط . ١٩٣٠ (المؤلف)

الكتاب) فهما كلمتان من اصل عربي لا شائبة فيه اشتقتامن فعل(طرّب) أي غنى ، أو من فعل التأدية الموسيقية .

وفي إبان اضطهاد العرب وطردهم التدريجي خلال القرن السادس عشر أخذ معشر الغـَجـَر[٣١] التي حطوا رحالهم اول ما حطوا في برشلونةالعام١٤٤٢ وصاروا – كما عُرف عنهم – يتسربون ويحتلون مكان العرب (الموريسكيين) حتى أن بعضهم استقر في الاحياء المهجورة من غرناطة تاركين عيشة البداوة ، عادة الارتحال ، وهم – وان امتهن بعضهم النِحاسة والبيطرة – لم يحققوا أي بروز في فنّ أو صنعة خاصة . فكانوا بذلك شرّ خلف للموريسكيين . على انهم صاروا مغنين شعبيين بالتدريج ؛ يرددون الموسيقى التي التقطتهـا اسماعهم اثناء تجوالهم ويرددونها بحماسة واندفاع اشبه بشعلة نار ، وندر أن بذهم في ذلك أحد . اما طريقة الاداء المعروفة عند المبتدئين زمبرا Zambra فعربيتها (زمر) فضلا عن سلوك السامعين ومقاطعتهم المغني بهتافات (اولي ... اولي ! Olé! Olé!) ومعناها (واللهِ واللهِ) فقد بقيت لتذكيرنا بما كان في عهود المسلمين . يبدأ عازف القيثار بتوقيع انغامه وحده بوصلة افتتاحية تمهيدية طويلة ، فاذا تهيأت نفوس السامعين وطربوا وانسجم خيال العازفين الآخرين واندمجوا تماماً في الجو الموسيقي المتهيء ، دخل المغني او المغنية وشرع أو شرعت بغناء صوت طويل النفس هو عبارة عن مقطع (آي، أو، آه Ay) لتجربة صوته ولاكمال تهيئة الجو أيضاً . وقد يبدأ بنواح مرتفع الطبقة مؤلف من مقطعين هما (ليلي .. ليلي Leli Leli) بقي ترديده شائعاً حتى السنة ١٩٢٢ ، وهو أثر آثار العقيدة الاسلامية او ربما كان اصله النداء العربي « يا ليلي يا ليلي » .

على أنّ ثمّ احتمالاً مهما وهو أنّ نظرية الموسيقى في اوربا ، فقد تأثرت

٣١) ويطلق عليهم في العراق اسم كاولية ، وهم النور او الجبسي او الجيتانوس او الجيتانوس او الزيكوينر) قوم رحالة يظن أن أصلهم هندي يحترفون الغناء والرقص والبيطرة (المعرب)

بالكتاب المسلمين [٣٢] شأنها في ذلك شأن كلّ فرع من فروع الدراسات السائدة في القرون الوسطى . ففي موضوع الموسيقى ، تُرجمت ما بين القرنين الثامن والحادي عشر الميلادي عدة رسائل يونانية إلى اللغة العربية ، والفّ باللغة العربية نفسها رسائل موسيقية أصيلة عظيمة الخطر ، دبجتها أقلام الكندي والفارابي وابن باجة وابن سينا وغيرهم . وعندما بدأ طلاب العلم يفدون من الشمال إلى طليطلة ، انتشرت هذه الكتب العربية بالتدريج في اوربا بتراجم لاتينية . ومن عجيب الصدف ان نجد هذه الفترة (اول نصف من القرن الثاني عشر) قد اقترنت بظهور مبدأ جديد في موسيقي الشمال هو ايجاد قيم زمنية محدودة في الغناء [٣٣] البسيط . وابتكار هذه الموسيقى المقننة يعزى احياناً إلى « فرانكو الكولوني » على أنه هو نفسه كان يتكلم عن الموسيقى المقننة كشيء سبق وجوده والظاهر انه كان معروفاً عند « الخليل » قبل القرن الثامن فضلا عن الفارابي (من القرن العاشر) الذي ترجمت آثاره إلى اللاتينية تحت اسم « الفاربيوس » فاقبل موسيقيو الشمال عليها وعلى مدارستها بنهم وتوقان . اشاد (والترادنكتن) اعظم موسيقي القرن الثالث عشر معجباً باساتذة الفنّ العرب . وثمّ موسيقى انكليزي آخر من ابناء ذلك العصر كتب في نظرية الموسيقى ، بلغ حداً انه صار يطلق على القيم الجديدة للعلامات الموسيقية اسماء عربية ، فهو يتكلم عن الموحيم Elmuahym والمريفة Elmuarifa [٣٤] .

---

٣٢) هنري جورج فارمر (انظر اعلاه) في « الادلة على تأثير الموسيقى العربية في النظرية الاوربية » وهو بحث منشور في المجلة الآسيوية ، كانون الثاني ١٩٢٥ ص ٦١–٨٠ . (المؤلف)

٣٣) انظر (غروف *Grove*) في (معجم الموسيقى والموسيقيين) الطبعة الثالثة ١٩٢٧ مادة فرانكو *Franco* (المؤلف)

٣٤) كوسميكر *Coussemaker* المجلد الاول ص ٣٣٠ من كتابه (كتابات عن موسيقى القرون الوسيطة *Scpriptores de musica medii aevi* (المؤلف)نقول ربما جاءت اللفظة الاولى من « الموحي » . والثانية من « المرفه » . (المعرب)

لقد عرف من نظرية موسيقى القرون الوسطى وقواعدها الشيء الكثير الآن ، ولكن لم يزح الستر بعد الا عن النزر اليسير من فنها العملي . ويفتح لنا فصل « الميزات الاجتماعية للموسيقي في القرون الوسيطة » من المجلد الاول التمهيديّ لتاريخ اكسفورد ، آفاقاً جديدة . ومع ذلك فقد كانت القيمة العملية لنظام الموسيقى المقننة – جليلة الشأن لانها جعلت الموسيقى فناً يمكن التأليف والكتابة فيه بشكل يسهل لعدة اصوات منطلقة في الغناء معاً إن تؤديه. موسيقى كهذه لم تكن معروفة عند الفارابي وغيره من نظريي الموسيقى المسلمين ولعلهم كانوا يجهلون ان موسيقيي الشمال صاروا يطبقون مبدأ كانوا هم ، اول المبشرين به وان الاغنية المسماة « الصيف قادم (٣٥) Sumer is icumen in » وهو الدور العظيم الذي تنشده ستة اصوات وهومن وضع احد رهبان ريدنك Reading حوالي العام ١٢٤٠ قد بذ كلّ الموسيقى المعاصرة سمواً ورفعة . انما هو من طينة وعالم يختلف تمام الاختلاف عن اغاني الطروبادور واناشيد الملك الاسباني الفونسو الحكيم الموضوعة حوالي ١٢٨٣ وهي التي ربما دان ظهورها إلى تأثير المسلمين المباشر .

الكلمات العربية في اللغتين الاسبانية والبرتغالية

ليس ثمّ شاهد على مقدار ما تدين به اسبانيا للاسلام اعظم واقوى من اللغة

---

٣٥) ان هذه المنظومة اخذت اسمها من مطلعها (الصيف قادم) وهي بالانكليزية الاليزابيتية كما يدل عنوانها . ويظن أنها أول ما استحدث من الشعر الغنائي الانكليزي ، وناظمها غير معروف أما موسيقاها فباقية حتى الآن ، ويتم غناؤها بان ينقسم المغنون الستة إلى فريقين متساويين تبدأ الاصوات الثلاثة الاولى بترديد المقطع الاول فما تنتهي منه حتى تتلقفه الفئة الثانية بينما تكون الفئة الاولى قد بدأت بترديد مقطع ثان جديد ، فاذا انتهت الفئة الثانية من المقطع الاول وتلقفت المقطع الثاني تقوم الفئة الاولى بترديد المقطع الاول في الوقت نفسه، ثم تنتقل إلى الثالث وهكذا حتى تنتهي المقطوعة باصوات متشابكة منسجمة (المعرب)

الاسبانية نفسها ، لكن علينـــا ان نحذر المبالغة في هذه النقطة بالذات ، علينا ان نحدد مقدار هذا الدين بدقة وأمانة قدر الامكان . ففي ايام الفتح الاسلامي (٧١١) كان ثمّ لهجـــة رومانسية في اسبانيا تسلك سبيلهـــا إلى التكوين . أخذت هذه اللغة من اللاتينية الدارجة التي كانت هي الغالبة على ألسن سكان شبه الجزيرة لفترة من الزمن ولقد اثر عنها شيوعها على افواه المسيحيين الذين ظلوا في حكم المسلمين كمـــا سبق فرأينا ، وتخاطب بها بعض المسلمين انفسهم بعد زمن ، وبذلك شقّ عدد كبير من الكلمات العربية طريقاً له إلى هذه اللغة الرومانسية . والداعي إلى ذلك هو الاستعارة المباشرة من اللغـــة العربية ، ووجود اللهجات الاسبانية في حالة من التذبذب وعـــدم الاستقرار في وقت كانت لغة العرب قد شاعت في الجزيرة .

والكلمات العربية الدخيلة اكثرها من فصيلة الاسماء ، اي من مختلف أنواع الأشياء والعواطف والرغبات التي كان – بعضها وما زال يوجد له اسماء عربية في اللغة الاسبانية الحالية مثال ذلك .

طاحونة : tahona ، فُنْدُق : fonda تَعريف أو تعريفة : tarifa . وقد تبين على كل حال – ان الكلمة العربية تأخذها اللغة الاسبانية هي وأداة تعريفها المتصلة بها ومثال ذلك : الحاجة : الجوهرة [٣٦] = (لا الهاجة la alhaja) الرز = (الـ... أرز el arroz) الساقيـــة (مدلولها اللغوي بالاسبانية : القنال أو الترعة) = (لا أساقيه la acéquia) النقال مدلولها اللغوي بالاسبانية : صبي الخباز = (الاناقالو el anacalo) وربمـــا لا حاجة لنا إلى القول إن هذه الكلمات الاسبانية لم تكن مشتقة من الادب والكتابة العربية بل من عاميتهـــا الدارجة في جنوب اسبانيا ، واللام

---

٣٦) كان الشكـــل المألوف لهذه الكلمـــة في القرن السادس عشر هو *el alhaja* (المؤلف)

في (أل التعريف) كانت في حالات معينة تُدغم اثناء النطق بالحرف الصامت الذي يليه في الكلمة نفسها : النقال (أنـ ... نقال an-naqqal الرز (أر .. ... رز ar-ruzz) الساقية (أسـ... أساقية as-saqiya) الا في كلمتي الحاجة al haja وكلمة القبة al-qubba وما جرى مجراهـا .

واستعمل بدرو دي الكالا Pedro de Alcala وهو المبشر الذي نشر السنة ١٥٠٥ كتابين يعالجان موضوع اللغة العربية الدارجة في غرناطة ، كلمة (أدار a-dar) قاصداً بها (الدار) وكلمة أجَمْس a-xems) قاصداً بهـا (الشمس) وكلمة (أسُلطان a-çoltan) قاصداً بهـا (السلطان) وغير ذلك . ولكن يجب الا نستنتج بأن كل كلمة اسبانية غير مألوفة ، هي ذات اصل عربي إذا ما ابتدأت بالالف واللام . فالكلمات الآتية يحوم حول اصلها اللاتيني الشك مع انهـا تبتديء بالالف واللام :

« الشارع : alameda » و « اللوز almendra » و « وجبة غذاء almuerzo » و « السلك alambre » بينمـا نجد الكلمات التـاليـة « مشمش : apricot او albérchigo او albaricoque (وهذا احد انواع لا تحصى من ثمر الخوخ) هي كلمات لاتينيـة الاصل مرت خلال اللغة اليونانية ثم العربية قبل أن تستقر في اللغة الاسبانية . وعلى كل فالحقيقة هي هي ، وهي ان الكلمات الاسبانية المستمدة من العربية تتضمن اموراً هي من الزم الاشياء للحياة اليومية :

zaguàn : ثكوان عربيتها أسطوان : وهو المدخل إلى البيت

azotea أثوطية عربيتها السطيحة : وتصغيرها سطح وهو السقف المسطح .

toldo : طُلدو وعربيتها ظله : أي خيمه ، (والكلمة بالاسبانية تعني خيمة

alcoba : الكوبة وعربيتها القبة : وهي غرفة النوم عند الاسبان (٣٧)

---

٣٧) والبغداديون وجنوب العراق يستخدمونها بنفس المدلول. (المعرب)

alacena : الأسنة وعربيتها الخزانة : وهي قمطر الثياب .

anaguel : الناكيل وعربيتها النقال : وهو الحامل .

tarima : تريمة وعربيتها طريمة : وهي المخدة ، المسند مجلس القدمين .

tabique : طَبيق وعربيتها طَبَق : ومعناها بالاسبانية فاصل .

alfombra : الفُمبرة وعربيتها الخُمرة : وهو بساط منسوج من سعف النخل

almohada : المهادة وعربيتها المخدة : (وكذلك معناها بالاسبانية) [٣٨]

alfiler : الفلر وعربيتها الخلال : وهو بالعربية والاسبانية الدبوس

bata : بَتَه عربيتها بطّة : رداء خشن ، بطانة

gabàn : غَبَان وعربيتها قباء : وهو بالاسبانية المعطف .

albanil : البَنيل وعربيتها البنّاء : وهو كذلك بالاسبانية .

andamio : انداميو عربيتها الدعائم : وهي الصّقالة بالاسبانية .

almacén : الماسن عربيتها المخزن : وهو المخزن بالاسبانية .

adoquin : الدُكين عربيتها الدُكان : ومعناها بالاسبانية .الدكان او المقعد الحجري .

alquitran : القطران عربيتها القطران : وهو كذلك بالاسبانية .

alquiler : الكلر عربيتها الكراء : وهو بالاسبانية الايجار .

averia : أفيريا عربيتها عوّار : وهو بالاسبانية عيب أو ضرر .

alcanzar : الكنزار عربيتها الكنز : ومعناها بالاسبانية حيازة الشيء والظفر به .

---

٣٨) ويمكن ان تكون المهادة أو المهـاد وهو الفراش ، ونراها أقرب . (المعرب)

badén : بادن عربيتها باطن : ومعناها بالاسبانية أرض مخسوفة .

aduana : أدوانا عربيتها الديوان كذلك معناها بالأسبانية .

taquilla : تقلله عربيتها طاقة : ومعناها بالاسبانية دائرة التذاكر (محطة أو مسرح) .

albacea : البصيه عربيتها الوصيّ : ومعناها بالاسبانية المنفذ أو المشرف .

alcalde : الكلدي عربيتها القاضي : ومعناها بالاسبانية العمدة .

albaràn : البران عربيتها البراءة : (أي كتاب البراءة) ومعناها بالاسبانية مذكّرة .

fulano : فلانو عربيتها فُلان : ومعناها بالاسبانية : « ما اسمه ؟ »

hasta : هَسته عربيتها حتّى : وهي كذلك بالاسبانية .

هذه الكلمات معروفة كثيرة الاستعمال في الحياة اليومية ولو شئنا التنقيب اكثر من هذا فقد تطول بنا القائمة . ولنا أن نذكر ان كثيراً من الضواحي والقرى والمزارع وما يلحق بها هي ذات اسماء عربية . فالفلاح يكيل بذوره بما يسمى : (الفنيقة fanega) وتساوي بوشلا ونصف بوشل – والفنيقة بالعربية هو الكيس الواسع . ثمّ أن الفلاح يقسم الفنيقة إلى اثني عشر « سليمينس » celemines . (بالعربية الفصحى ، ثماني وبالعامية زماني) وكل سليمينس يعادل غالوناً.ولدى الفلاح الاسباني ايضاً مقياس آخر وهو (الروبة arroba) وعربيتها « الرُّبعة » وهو ربع القنطار الانكليزي hundredwieght للاوزان الصلبة وهو وأربعة غالونات للسوائل . كما أن جميع مصطلحاته الخاصة بالريّ انما هي عربية . وكذلك قل عن اسماء مختلف الازهار والثمار والفاكهة والاشجار والشجيرات . وقد دخلت كلمة « السكر » azùcar إلى الاسبانية والبرتغالية وغيرها من اللغات الاوروبية وهي بالاصل عربية (سكر ثم ، شكر

بالفارسية) ولم تؤخذ من الكلمة اللاتينية saccharum كما يحلو الادعاء للكثير من الاسبان . فالكلمتان العربية منهـا واللاتينية مأخوذتان على وجه التحقيق من الكلمة السنسكريتية الدالة على هذه المادة وان اختلفت سبـل الاشتقاق . كذلك كلمـة (جرابي jarabi) التي كثيراً مـا يجدها السائح في جنوب اسبانيا في ثنايا الاعلانات التجارية وهي بالانكليزية (سيروب syrup) كذلك شربت sharbet وكلمة شراب الروم shrub هي الاخرى مشتقة من كلمة (شراب) العربية . كانت التهجئة السابقة لكلمـة خارابي Jarabe هو (شرابي xarabe) من حيث كان حرف x الاسباني يلفظ (شيناً) حتى القرن السابع عشر : وهو ما زال يلفظ كذلك عند القطلانيين والبرتغاليين . وقد تدركك الدهشة لو علمت أن الناطقين بالاسبانية ما زالوا يستعملون العبارة العربية (انشاء الله) . وهذا هو التفسير الاوحد للتعبير الاسباني المعروف (ojalà) والذي كانت تهجئته (oxalà) ثم صار يلفظ حرف x فيه كما يلفظ حرف الشين sh .

ان الكلمات الاخرى المأخوذة من العربية [٣٩] التي بقيت حية في لغة الادب الاسبانيـة صارت تهجر شيئاً فشيئاً بتأثير الصحافة . فالصحافـة الاسبانية وبالاخص الصحافة الاسبانية في اميركا تأثرت بباريس اعظم تأثير ، وانّ مـا يدعى بالصحافة اللاتينية prensa latina مـا كانت تميل إلى الكلمات التي لا يمكن التوصل إلى معرفة معناها رأساً في أي دولة من

٣٩) راجع دوزي *R. Dozy* ودبليو أي . اج. انكلمان *W.H. Engelmann* في معجم الكلمات الاسبانيـة والبرتغالية المشتقة من العربيـة طبعة ثانية : ليدن سنة ١٨٦٩ . وراجع د. ل. دي اكويلاث *D. L. de Eguilaz* في المعجم اللغوي للمفردات الاسبانية التي هي من اصل شرقي . طبع غرناطة سنة ١٨٨٦ . راجع : معجم اللغـة الاسبانية وهو من منشورات المجمـع العلمي الاسباني . الطبعة الخامسة عشرة – مدريد سنة ١٩٢٥. كذلك راجع ك. لوكوتش *K. Lokotsch* في « المعجم اللغوي للكلمات الاوربية ذات الاصول الشرقية » طبعـة هيدلبرغ السنة ١٩٢٧ . (المؤلف)

دول أميركا اللاتينية أمـــا أشهر استثناء حديث العهد لهذه القاعدة فيقوم في شخص خوزيـــه مارتينيث رويث José Martinez Ruiz الـــذي كان يكتب دومـــاً تحت التوقيـــع المستعار (أثورين Azorin) . ليس في اسبانيا كلهـــا متفرنس مغـــال في فرنسيته مثله ومع ذلك ، فانّ حبّه لكتاب اسبانيا الاوائـــل ، وتعلقه بمسقط رأسه الاول (هو بلنسي كالاستاذ ريبرا ، واقليم بلنسية مليء بالمنشآت المغربية ، ذات الاسماء العربية ، تشيع في جوه الالفاظ العربية) أدى بـــه إلى استعمال لغة جزلـــة رشيقة لا تعدلهـــا لغة ، بينما حبّه لداخلية بلاده ودقته واسهابه في وصف الاشياء العادية وفرط سروره باسمائها جعل من اولى مقالاته صكاً تضّمن اعترافه الجليـــل القيمة بفضل التراث العربي على اسبانيا الحديثة .

ان الاسباني الجيد الثقافة ما زال حتّى الآن يطرب لدن يسمع الكلمات ذات الاصل الذي امتزج فيه اللسانان العربي والاسباني ، طربـــاً لا يقل عما يشعر به لدن يسمع الكلمـــات التي اختلط جذراها اللاتينيّ والاسباني ممـــا يمكن ارجاعه إلى عصور المستعربة . وأنشد المغنون الجوالون شعر « سيدي my Cid » والاغاني التي سبقته كقصائد كونثالو دي بركيو Gonzalo de Berceo واناشيد عظيم كهان هيثا ، وكنثر الفونسو الحكيم والدون خوان مانويـــل ، كـــلّ ذلك صور من « صفحة بئر عكرة قشتالية » والتي صارت — باصولها اللاتينية العامية وبالاستعارات العربية — ملكـــاً للشعب الاسباني يتجلى فيه طابعه الخاص . ومجمل القول ان تأثير العقول التي لا ترى الحسن فيمـــا لا يكون مصدره باريس ، يؤدي إلى احلال الاتجـــاه الغاليسي محل الاتجاه العربي . وربما لن تجد رجلااسبانيا دون الاربعين يسره أن يفسر لأجنبي حقيقة اصل صناعة تجليد الكتب المعروفـــة حتّى الآن باسمهـــا الـــبربري تفتليّي tafilete) أو يشير إلى جباية الضرائب الخاصة بزوجات صيادي السمك في مدينـــة

(كورونا) المفروضة على امتعة المسافرين القادمين من امريكا ، باسمها المعروف « الموخاريفاثغو » وجبايتهـا من ضمن واجبات الكمرك (المقطع العربي من الكلمة هو ــ المُشْرِف ــ يضاف اليهـا المقطع الرومانسي وهو ــ آثكو ــ الذي انحدر من الاضافة اللاتينية aticum ــ .

وما قيل عن الآثار التخريبية التي تخلفها الصحافة اللاتينية العالمية ، ينطبق على الصحافة البرتغالية تماماً فقد اوغل مدد من الكلمات الشرقية في تلك اللغة [٤٠] وكان مجيئهـا من المستعمرات البرتغالية في الهند وسبب دخولها الاحتلال الاسلامي للبرتغال . على أن الغريب جداً هو وجداننـا بعض الكلمات العربية التي بقيت منذ ذلك الحين في هذه اللغة ، امّـا انها اندثرت في اسبانيا او انها لم تندمج ، وتتمثـل اقليمياً هناك على ما يبدو . ويوجد كثير من جذور الكلمات الاسبانية السالفة في اللغة البرتغالية بصيغ وصيغ . مثـال ذلك (حتىّ واسبانيتهـا hasta فهي بالبرتغالية até ؛ كذلك (مخزن) : واسبانيتهـا ألماسن almacén فهي بالبرتغاليـة armazem (ارمازم) وغيرها .

والكلمات التالية هي كلمات برتغالية على كـلّ ــ غير مستعملة في اللغـة الاسبانية الحديثة :

alcatila عربيتها : القطيفة (ومعناها بالبرتغالية : السجـادة) مخمـل أو حرام) .

alfaiate عربيتها الخيّاط : (ومعناها بالبرتغالية : الخياط) .

alfândega عربيتها : الفندق : (ومعناها بالبرتغالية : دار الكمرك) .

---

٤٠) س. ر. دالكادو « معجم الكلمات الشرقية » *S. R. Dalgado: Glosàrio Luso-asiàtico* مجلدان طبع كويمبرا سنة ١٩١٩ و ١٩٢١ (المؤلف) .

٤١) من رأى ومرأى والمرآة العربية .(المعرب)

algibeira عربيتها : الجيب (معناها بالبرتغالية : الجيب) بالدارج الجبيرة وقد عادت إلى العربية من البرتغالية .

azinhaga عربيتها : الزنقة (ومعناها بالبرتغالية : الممشى الضيق وبالدارج الزناقة)

sàfara عربيتها : صحراء (ومعناها بالبرتغالية : الارض القفراء) .

safra,ceifa,aceifa عربيتها : إصفرأ والصيف أو صيّف كذلك (ومعناها بالبرتغالية الحصاد) (نضج الزرع بأن اصفّر . أو أدركه الصيف)

alfaça عربيتها : الخس (كذلك معناها بالبرتغالية :) .

arratel عربيتها : الرطل (كذلك بالبرتغالية :) .

والظاهر أن كلمة (باروك baroque) انما هي من اصل عربي وهي (البرجة) أي الارض المتموجة ، وصلت إلى اوربا عن طريق كلمة barroco وهي تعبير خاص يستعمله صيادو اللؤلؤ البرتغاليون ومتعاطو التجارة به .

اسماء الامكنة بالعربية

في كل من اسبانيا والبرتغال

بقيت اسماء الاماكن غير متأثرة بالصحافة . والطالب العربي يجد في تقري خريطة اسبانيا والبرتغال لذة واهتماماً لا يعد لهما لذة واهتمام وانه وإن كانت تلك الاسماء خليطاً معرباً عن اللغتين الايبيرية والفينيقية القديمتين وكثير منها ذات اصل واضح المعالم في خليط من العربية والرومانسية فاجتماع هذه الامور كلها في صعيد واحد يؤلف مجموعة عجيبة للأثر الذي خلفته الشعوب الاسلامية في شبه الجزيرة . فثمّ الجبال والتلول والرؤوس والجزر والسواحل الرملية ، والانهار ، والبحيرات ، والينابيع الحارة ، والسهول

والحقول والغابات ، والحدائق والاشجار والازهار ، والكهوف ، والمقالع الحجرية ، والالوان على اختلافهـا ، والآثار البشرية في الطبيعة كالمزارع والقرى والمدن والاسواق والمساجد والطرق المعبدة والجسور والقـلاع والابراج كلها صارت اسماء اعلام جغرافية ، وعليه فلفظة (جبل jabal) تظهر في الاسماء التالية : « مونت جبل كـوث monte jabal cuz ، جبل كون jabalcon جبلويـاس jabloyas ، جبلو كوينتـو jabal quinto ، جفليون javaleon وقمـة وسلسلة جبال جفلمبري pico and sierra de javalambre وسلسلـة جبرالـبين gibralbin وجبراليون gibralion وجبل الفارو (جبل الفأرة) gibralfaro بينما نعت جبل طارق gibraltar باسم القائد البربري « طارق » قائد اولى الحملات العربية المظفـرة في اسبانيا . وتظهر لفظة (الكـدية) al - kudya (أي التل) في تسعة أو عشرة اماكن ، لا تراها تخلو من هذا المقطع alcudia ، كما في « كديا كريمادا » اي التل المحروق gudio cremada الواقع في جزيرة مينورقة . ونجد أيضاً) القور : جمعها القرى وهي التلول الصغيرة (في كلمتي alcor, alcora ونجـد كلمـة المدور : مـن فعل دار) في اسم المدينتين القائمتين على نشز من الارض وهمـا المديفر دل كامبو al-modivar del campo ، والمديفر دل ريو al-modivar del rio » وغيرهما . واخذ اسم مرفأ (المرية : almeria) من لفظ المريّة[٣٨] وهو برج المراقبة . ومن المنارة اشتق اسم المرتفعات المسماة « سيرو دي لا المنارة cerro de la almanara » وسييرا دى المنارة sierra de almenara

امـا الكلمة الاسبانية almena (المينة) ومعناها التحكيم والاستحكام ، فلم تأت من الكمـة العربية (المنعـة) بل من اللفظ اللاتيني (minae)

(٣٨) من رأى ومرأى والمرآة العربية . (المعرب)

الذي ادخل عليه أداة التعريف العربية . بينما كلمة (المنهر almener) تتعلق بأمور الزراعة . ودخلت كلمة (طرف) على اسم (طرافلكار trafalgar : طرف الغار أي رأس الكهف) ووردت كلمة (الجزيرة) في لفظتي (السيرة alcira والجسيراس algeciras) . ووردت (مرسي القلعة) من كلمة القلعة بشكل مستقل كما في كلمة (كالا cala : بمعنى ساحل) وبشكل غير مستقل كما في (كالا - باركا cala barca) و (كالا بلانكا cala blanka) و (كالا دي سان فيسنتو cala de san vicento) و (وكالا سانتوني cala santony) و (وبونتا دي لا كالا punta de la cala) (وتوري دي لا كالا هوندا torre de la cala honda) و (لا كاليتا la caleta) هذا وإن الشواطيء الرملية على مصب نهر الابرو المعروفة باسم (لوس الفاكوس los alfaques) وبما جاءت من الكلمة العربية (الفك) ويذكرنا لفظ (رملة ramla) وهو قاع النهر الرملي باصل اسم (لارمبلا la rambla) وهو الشارع الرئيس في برشلونة . ولكن الكلمة العربية الاكثر شيوعاً من غيرها في الاسبانية مما يمت بصلة إلى النهر ؛ هي (الوادي) وينطقها الاسبانيون هكذا : (كواد guad) مع أنها ما زالت في كثير من الاحيان تبتديء بحرف الواو ، وعليه نجد كواد الكيفير guadalguivir : وادي الكبير و (وكواد الجارا guadaljara : وادي الحجارة) و (كواد الكزار guadalcazar : وادي القصر) و (وكواد الكُطُن guadalcoton : وادي القطن) و (كواد المدينة guadmadina وادي المدينة) و (كواد الراما guadarrama وادي الرملة) و (كوارمان guarroman : وادي الرمان) وثم اماكن اخرى اتخذت اسماً قديماً لكنه تخفى تحت ثوب عربي ؛ ومثل ذلك (كوادیانا

guadiana : وادي أنس) و (كواديكس guadix : وادي اكسي) و (كواد اللوب guadalupe : وادي اللب يعني « نهر الذئب » من حيث أن لفظـــة lupes هي لاتينية) .

وفي اللغة البرتغالية صارت كلمـــة « الوادي » هكذا : اودي odi أو أودي ode ، مثـــال ذلك : odivllas, odiana, odeleites, ribra de odelova وان البحـــيرات والـــبرك الكبـــيرة في اسبـــانيـــا والبرتغال ظلّ اغلبهـــا حـــافظاً اسمه العربي (اعني البحيرة) فنجـــد مثـــلا البفييري albufiere البـــويرة albuera البهيرة albuhera بنالبوفـــار banalbufar والكلمـــات : البركـــة alberca والفركـــة : alverca ومثيلاتهمـــا تتعلقان باسماء البرك وخزانات المـــاء والاحواض . امـــا الكلمـــة العربية (الجبّ) فمرتبطة بالآبـــار والصهاريج مثل اسم « الجبي algibe » . أما القنوات التي تدل عليهـــا كلمة (الساقية) العربية . فتراها في لفظة (اساكية acequia) وكل هـــذه الكلمـــات اسماء جغرافية شائعة مألوفة في اسبانيا . وكلمـــة (الخندق) الفارسية يمكن ان يربطهـــا الفكر بأمثـــال الكلمات « لاغوانـــا دلا خوندا lagnna de la junda و « خندولا jandula » و « خنـــدوليلاّ jondulilla » وفي المكـــان الذي يطلق عليه اول هذه الاسماء الثلاثة هلك القسم الاعظم من الجيش الفيزيقوطي في النصر الحاسم الذي ناله « طارق بن زياد » ٧١١ م. وهنالك مكان معروف لنبع مياه حارة اسمه « الهما alhama » وهو من (الحمى) العربيـــة .

إن الغابات والاحراش نجد فيهـــا مقطع (الغاب algab) وهي من كلمـــة (الغاب) العربيـــة . كذلك (الغيد algaida) من (الغيظة) . امـــا المزوج فقد ظلت محتفظة باللفظ العربي : المرج . وذلك في كلمـــة

(المرجم almargem ، وهي لشبونية) و (المرجن almargen : وهي مـــا لقية) و (المرشا almarcha : وهي لاَمَنْكية) . وتذكرنا الحدائق بأصل اسمائهـــا العربي .(جنة العريف generalife ومعناهـــا حـــديقة المهندس او المراقب) . وتركيب (المينـــا دي دونـــا almina de dona فيه كلمـــة (المينة) وهو سوق الحديقة . أمـــا حقول الشعير (القصيل) فقد اشتق منه اسم (الكاصر داسال) في البرتغـــال . أما زهر دوار الشمس (العُصفر)فقد دخل على اسم فنتادي لوس الأزوريس venta de los alozores) واشتق مـــن زهر اغصان الطرفـــاء اسم (طرفـــة tarfa) وقـــد ورد عن الزنبق البري (الزُنج) كلمـــات مثل (زمبوجيرا وازمبوجا) وهما برتغاليتان . و (ازمبق) و (بيوترا دل ازمبج) وهو مكان في زفرا zafra . وهناك مصطلح جغرافي كثير الشيوع اخذ من اسم لون هو (البيدا : albaida — البيضاء) . أما القصر الذي كان يعيش فيه ملك بني الاحمر ، فهو (الهمبرا — الحمراء) .

وثم اسماء جغرافية شائعة اشتقت من كلمـــة (المعدن) بهذا الشكـــل almaden . ومن الحقـــل (القرية) جاء اسم (الكريه دي كوني alcaria de cune) . وفي البرتغـــال يوجد (الكريـــه رويفي) وفي اسبانيـــا عدة اماكن يطلق عليهـــا اسم (القورية algueria) . واصبحت كلمة القرية (بمعنى الضيعة) alcidia شائعة في شبه الجزيرة بأسرهـــا . ومن التعابير التاليـــة يظهر نصفها العربي (اي المدينة) بكل وضوح :

مادينادل كامبتو ، مادينادي ريو ثيكو ، مادينادي بومـــار ، مادينادي سيدونيا ، مادينـــا سيلي لاكويادي مارينا .

ويظهر لفظ المسجد (المكسيدو mezquito) في عدة تراكيب ، كـــا أن لفظ (السوق) (وإن كان [٣٩] يعرف رسمياً بالمركادو elmercado)

---

٣٩) *En el azogue qnim mal dice malaye* ومعناها : « من يتكلم في السوق شرا يسمع =

فهو مـــا زال شائعاً على السنة سكان الريف بهذا الشكل : (ال ازوك el ozogne) مثل « بورت ازوك » وقد ظـــل موجوداً إلى الآن في مثل شهير كما بقي في اسماء الاعلام ايضاً ، مثل ازوكسادي هينارس.وازو كودفر الطليطلي (وهو سوق الدواب في تلك المدينة المعروف في العصور الوسطى باسم : سوق الحيوان zoco de las bestias) وخـــرج من الاسماء العربية للقلاع والحصون اسمـــاء جغرافية عديدة في اسبانيا ، فمن لفظ « القلعة » جاءنا ما يأتي :

الكالادي هينارس ، الكالادي جسبرت ، الكالادي كاديرا وغيرهـــا من الاسماء . ومن هذه الكلمـــة نفسها – بعد حذف اداة تعريفهـــا العربية – صدر : قلعة ايوب ، وكالاستوراو ، كالاتروفي كالاتانزور ، كالاتورارو . ومن تصغيرها (قليعة) ، جاءتنـــا (الكليئة alcolea) وعلى هذا المنوال جاءتنا من (كلمة – القصر العربية : باللاتينية : كاستروم castrum) اسمـــاء جميع الامكنة الاسبانية المتضمنة مقطـــع (الكزار alcazar) بينمـــا جاء من تصغيرهـــا (القصير) : لفظة (الكوزير alcocer) وفي كلمـــة القصبة ، تظهر جليـــاً الكلمة الاسبانية (الكزبة) والكلمة البرتغالية (الكاسوفاز) . وبالطريقة نفسها اطلق لفظة (القنطرة) الغربية ، الاغريقية الاصل – على كثير من النقط الجغرافية الاسبانية المعروفة باسم « الكنطرة alcontara » . انهـــا اطلقت على كل مكان وجد الفاتحون المسلمون جسراً رومانياً . وصار لفظ « الطليعة » العربي – وهو برج المراقبة – لفظاً اسبانياً هو« أتاليه atalaya » ولصق بأمكنـــة عدة من جملتها « اتاليا

=شراً » . هذا وإن المعنى العربي المألوف لكلمـــة (ازوك *azogue*) هي الزئبق (الفضة الرجراجة) وعربيتهـــا (الزاووق او الزوقة) . (المؤلف)

دي الكالا » وورد من غير اداة التعريف العربية هكذا « تاليور ، تالا يولا ، وتالايولس » وان الطرق المعبدة او المرصوفة التي ربما كانت رومانية الاصل اطلق عليها الفاتحون المسلمون اسم الرصيف ، ومنها جاءت كلمة « الرصيف arracife » و « رزافة » ومن كلمة الضواحي « الربض » اشتق اسم اسباني شائع هو « الربل arrabel » . وانّ لفظ « الرابطة » من الناحية الثانية يدل على الحُجْرة او الصومعة التي يتوقع المرء أن يجد فيها حارساً ربما كان شاكي السلاح « مرابطاً » . اما « الصومعة » فهي دار مبنية بالحجر تخفرها حامية يقظة قوية وهذا اللفظ ينم عن « الرابدة . الرابيدة ، الرابدي ، الرابتة » الآن . وتعرف ضواحي المدينة باسمي البرا والبلد » ولهما مشابه باسماء عديدة منها « البلات والبلاتي والبلوت » واحياناً تعرف الابراج الواقعة خارج الاسوار باسماء منها : تروّ « البرج البراني terres albarranas » بينما يجي اسم « البراسين albarracin ذكر الحقيقة القائلة ان القبلية البربرية المسماة « بني رزين » هي التي خلعت اسمها على ذلك المكان الذي نزلت فيه ، فبقي يحمل اسمها حتى الآن .
أما الاسماء التي تبدأ بأحرف « بنا bena وبني bini وبيني beni » فهي كثيرة وشائعة جداً على الاخص في اقليم بلنسية وجزر البليار من امثال : بناداليد ، بنالكسبون ، بنالوكسيل ، بنا جرافي ، بنا ميجي ، بناوجان ، بنارّابا ، بناو دلاّ ، بني أجان ، بني كارلو ، بني كاسم ، بني فياد ، بني جينم ، بني مامت ، بني سيد ، بني سالم ، بني أدريس ، بني خلف ، بني ميموت ، (ميمون) بني صفوا (صفوة) ، بني جرنس : وكلمات اخرى غيرها لا حصر لها .

ترينا اسماء الامكنة والالفاظ الشائعة التي بقيت في اللغة الاسبانية حتى الآن مدى تأثيرها باللغة العربية في خير اوقات نموها . إذ ما اهلّ القرن

العاشر ، حتّى كانت بسائط الحياة الاسبانية قد تأثرت بالاسلام اعمق تأثير . هذا التأثير امتد بسقوط طليطلة ـ فشمل سائر انحاء اوربا . ومنذ أن خرب البربر قرطبة في مفتتح القرن الحادي عشر ، صارت طليطلة تتسنم بالتدريج مركز الصدارة في العلوم الاسلامية باسبانيا . وبقيت محتفظة بهذا المركز إلى ما بعد الفتح المسيحي ١٠٨٥ م.

ثم وان كان بلاط الملك الفونسو بلاطاً مسيحياً بالاسم (كما تأثر خطاه في هذا المضمار بلاط فردريك الثاني في بالرمو بعد ذلك الزمن بمائتي عام تقريباً) فقد كانت مسحة المدنية الاسلامية تغلب عليه . ولقد اعلن الملك الفونسو عن نفسه قائلا : انه ملك الديانتين .

كانت مدارس طليلطة تجتذب طلاب العلم من جميع انحاء اوربا . وبضمنها انكلترا ، ونبغ من تلامذتها الاوربيين روبرتس انكليكوس Robertus Anglicus اول من ترجم القرآن الكريم . ودانييل مورلي Daniel Morly وميخائيل سكوت، وادرلاد الباثي وهؤلاء وُصفوا في جزء آخر من هذه السلسلة (٤٠) بدقة وتفصيل انباء مغامراتهم وجهودهم وحيلهم وتدابيرهم التي كانوا يحكمون نسجها للظفر بمترجمات لاتينية لآثار ارسطو واقليدس وغيرها من الكتب التي لم تكن ميسورة الا بالعربية . فلا حاجة لتكرار ذلك هنا .

واعظم هبة قدمها المسلمون الاسبان للفكر الاوربي ، هي آثار الفلاسفة الغابرين (كما كنا قد اوضحنا في فصل آخر من الكتاب) وانهم ولو كانوا قد تبنوا الالهيات الاسلامية الأكثر تعصباً والأضيق فضاء ، فقد اطلقوا الفكر حراً يجوس في التيارات الفلسفية والفكرية . وانه ولو كان حكام البربر من مرابطين وموحدين قد اتصفوا بشدة وغيرة على الدين ، فانهم تسامحوا

٤٠) راجع كتاب تراث اسرائيل : ص ٢٠٤ وما بعدها . (المؤلف)

في امور التفكير الفلسفي الحر لا بـل شجعوا الفلاسفة على ذلك ببعض تحفظ وبذلك ترك الفلاسفة احراراً لا يحد من عملهم الثقافي عائق ، شريطة الا تذاع هذه التعاليم على الدهمـاء او تنشر بين العامة .

ان اعظم مفكري الاسلام في اسبانيا هم ليسوا من ابناء عصر الخلافة اللامع في قرطبـة . فقد نبغوا في عصور التفكك والانهيار التي تلته . هؤلاء الفلاسفة احيوا فلسفة اليونان ومزقوا عنهـا أكفانها وبالاخص آثـار ارسطو . والظاهر أن مؤرخي اليونان وكتابهم المسرحيين كانوا غير معروفين عند هؤلاء الفلاسفة العرب ، ولكنهم قدموا للغرب ارسطو قبل انتعاش حركة احياء الدراسات الاغريقية بعدة قرون ، تلك الحركة التي جاءت على اعقابها مباشرة حركة احياء العلوم ، التي كانت احدى الاسباب المباشرة لحركة الاصلاح الديني . هؤلاء الفلاسفة كمـا يظهر — لم يعرفوا او يكادوا ، النصوص الاغريقية ولم يتراجعوا من هذا الاصل ، مباشرة فقد كانوا — كقاعدة ثابتة — يترجمون عن منقولات سريانية وسيطة بين الاصل الاغريقي وبين الترجمة العربية . فاذا رغب الطالب الاسكتلندي أو الانكليزي ، الاستزادة من ارسطو والتعمق فيه ، اكثر ممـا يسنح له من المترجمات اللاتينية الميسورة ، فلا مندوحة له من الرحيـل إلى طليطلة ليتعلم هناك كيف يقرأ كتب اليونان باللغة العربية . ان انتقال العلوم اليونانية إلى الغرب بدأ من بغداد وجاء به وسطاء مسلمون ويهود إلى مسلمي اسبانيا ومن هناك حمـل إلى الطلاب والتلامذة الجوّالين ثم إلى اوربا المسيحية بواسطة اليهود ايضاً .

التأثير العربي على الادب الاسباني

الاول

فصلنا فيمـا سبق ، المظاهر الادارية والاقتصادية والفنيـة لمدنية الاسلام

في اسبانيا ، كما أن فصلا آخر من هذا الكتاب قد تناول بحث تأثيرها على الادبيات الاوربية . على كل – فثم بعض ما يجب قوله فيما يتعلق بتأثير الفكر الاسلامي على الادب الاسباني .

في عصر شعر الفروسية « ١٠٥٠ – ١٢٥٠ » كانت المؤثرات فرنسية وتيوتونية اكثر مما كانت عربية . والملحمة القشتالية المسماة « قصيدة سيدي » هي شكل من اشكال نشيد جهاد الفرسان ، ولو ان البطل كاد يكون معاصراً لاول مغن اشاد بجهاده ومآثره ؛ ولم يكن (كما هو الحال عند رولاند) بطلا نصف خرافي ، مات قبل ذيوع اناشيده بمئات من من السنين . يرجع تاريخ هذه القصيدة إلى حوالي ١١٤٠ م بينما مات روي دياز دي بيفار Reuy Diaz de Bivar اي السيد – سنة ١٠٩٩ (ولقبه عربي بالطبع فهو يقرأ بالشدة على كرسي الياء في العربية الفصحى ، وبالسكون عليها في الدارجة) . ان امتزاج اللغتين الجاريتين إذ ذاك على الالسن لا يمكن ان يكون خيراً من اللقب المألوف الذي كان اتباع السيد ينادونه به (يامو سيد yamio cid) ولو كان تابعه ممن يتكلم العربية لقال (يا سيدي) وفي الفترة الثانية (١٢٥٠ – ١٤٠٠) تقريباً كان أحد المؤثرات الخارجية الرئيسية على الادب الاسباني ، عربياً لا شك في عربيته . فقد فتحت ابواب العلوم الشرقية واقاصيصه – على مصاريعها لتغترف منها اسبانيا واوربا على حد سواء بعد احتلال طليطلة ١٠٨٥ م . هذه المدينة آضت مدرسة للترجمة والنقل عن اللغات الشرقية . وكان بطرس الفونسي (وهو اسباني يهودي متنصر عمّده اشبينه الفونس السابع) اول من قدم لاسبانيا الحكايات الهندية قبيل ١١٢٠ م بمجموعة الاقاصيص الشهيرة المعروفة (التأدب الاكليريكي) . واخذت الترجمة الاسبانية للحكايات الهندية المعروفة (بكليلة ودمنة) من النص العربي

مباشرة ١٢٥١ [٤١] فسجلت بذلك اسبق محاولة لنشر الأدب القصصي باللغة الاسبانية . امـــا قصة الحكماء السبعة (سندباد أو سندبار) ، فقد ترجمت من العربية للامير الصغير دون فادريك حوالي ١٢٥٣ م باسم (كتاب مكائد النساء وحيلهن) [٤٢] وعقيب النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، صارت كتب الحكم ومجموعة الحكايات في اسبانيا — لا تعد ولا تحصى : منهـــا ترجمة مفقودة للاسطورة البوذية (برلام ويوشافاط) . وكتاب امثـــال للحروف الابجدية (الذي جمعه كليمنت سانجيث دي فرسيال)[٤٣] . والكاتب الغريب العنوان (كتـــاب القطط libro de los gatos) الذي ربمـــا كان تحريفاً الأصل كتاب القصص (libro de los qetos: quentos) المأخوذ من مصدر عربي منقولا عن « الاحاديث » للراهب الانكليزي اودو الجريتوني Odo of Cheriton [٤٤] . والقصص التي تضمنتها هذه المجموعات تردد ذكرها دومـــاً في الادب الاسباني حتى عصر الكتاب الدراميين في القرن السابع عشر . وان اعظم المسرحيات الاسبانية « الحياة حلم lo vida es sueno » انمـــا هي قصة « كرستوفر سلاي »

---

٤١) نشره ج. اليماني *J. Alemany* (مدريد : ١٩١٥) و : ا. غ. سولا لنيده *A. G. Solalinde* (مدريـــد : ١٩١٧) (المؤلف) .

٤٢) نشره د. كومباريتي *D. Comparitte* (ابحـــاث عن كتاب السندباد *Researches Respecting the Book of Sindibad* — ليدن ١٨٨٢) و : أ.بونللا *A. Bonilla* وسان مارتان *San Martin* (مدريـــد : ١٩٠٤) (المؤلف) .

٤٣) نشره أ. موريـــل فاشيو *A. Morel Fatio* في رومانيـــا السنة ١٨٨٨ . (المؤلف)

٤٤) نشره س. ي. نورثب *S. E. Northop* في « فقه اللغات الحديث » ١٩٠٨ . (المؤلف) امـــا اودو الجريتوني المتوفي سنة ١٢٤٧ فهو واعظ انكليزي وكاتب حكايـــات حكميـــة انجزهـــا العام ١٢١٩ . (المعرب)

في مسرحية « ترويض الوُقاح [٤٥] » ، (وهي ايضاً قصة النائم يصحو) في الف ليلة وليلة . والاصل في الاثنين على كل حال هو قصة (برلام) الهندية .

الفونسو الحكيم

كان الفونسو العاشر « الحكيم el sabio » اعظم تلامذة العلوم الاسلامية في اسبانيا المسيحية . فقد بوشر تحت رقابته ورعايته المباشرة ، بتأليف عدد من الكتب الجليلة ، جمع اكثرها من مصادر عربية يسرها له اعوان من اليهود [٤٦] . وآثاره النثريـة (أن نثره السهـل البسيط الشبيه بالنثر الشرقي هو اصل اسلوب الدراسات الاسبانية في القرون الوسطى التي تخلف في نفوس متداريسهـا اعظم اللـذة والاستمتاع) هي مجموعة قوانين الاحزاب الستة las siete partid اشبـه بمنجم حفـل بمعلومـات عجيبـة عن الحياة الاسبانية وعادات ذلك الزمان ولقد خصص من كتابه (التاريخ العام) فصلا ترجم فيه حياة النبي محمد (ص) [٤٧] العجيبـة تقع مـا

---

٤٥) في مسرحيـة شاكسبير المسمـاة (ترويض الوقاح *the taming of the Shrew*) تنبغ شخصيـة الحداد المدعو كرستو فرسلاي *Cristopher Sly* عمـد المؤلف إلى نسج اضحوكة عنه وجعلهـا مقدمة لمسرحيتـه ، وعرض فيها كيفيـة التقاء سيد نبيل اثناء خروجه للصيد بهذا الحداد ، وكيف نقلـه غائبـاً عن وعيـه إلى قصره وأحاطه بمظاهر الترف والتعظيم وأوصى أن يعامل معاملة رب القصر سخرا به ، حتى إذا شبع منه هزؤا نقله غائباً عن الوعي إلى دكان حدادتـه . وتذكرنا هذه القصة طبعـاً باصلها العربي في الف ليلة اعني قصة « الحمال والسبع بنـات » (المعرب) .

٤٦) انظر كتاب تراث اسرائيل ص ٢٢٢ – ٢٢٥ (المؤلف) .

٤٧) منيديث بيدال « مقدمة في التاريخ العام *Primer Cronico General* طبع في مدريد في العام ١٩٠٢ ص ٢٦١ – ٢٧٥ كذلك انظر ا . غ سوليلانده (الفونسو العاشر . الحكيم : مقتبسات *Alfonso X el Sabio : Antologue*) ج ١ ص ١٥٢ – ١٧٢ طبع مدريد ١٩٢١ . (المؤلف)

بين صحائف ٤٦٦ — ٤٩٤ ، كذلك هناك (التاريخ العام الكبير) وهو مفصل مسهب بوشر الآن بطبعه للمرة الاولى [٤٨] . وثم دراسات الفونسو الفلكية ومن ضمنهـا « الازياج الالفونسية » وهي مجموعة من نتائج الارصاد المأخوذة في طليطلة ، وقد شاع استعمالها في جميع انحاء اوربا ، وظلت موضع اعتماد عدة قرون . وبمعرفة الفونسو المذكور الفّ كتاب « الجواهر » وهو عبارة عن رسالة في فضائل الاحجار الكريمة . وثم كتاب في الالعاب ، يتضمن العاب النرد والطاولة bockgammon وضروباً من العاب الشطرنج ، اداؤها يقتضي رقاعاً مختلفة الاشكال متفاوتة الحجوم .

يمثل الشطرنج الطابع الاصيل للتراث الاسلامي بحيث يستأهل منـا أكثر من الذكرى العابرة . فالشطرنج الاوربي الحديث هو الخَلَف المباشر للعبة الشطرنج الهندية العتيقة . اخذها الفرس ثم نقلوها إلى العالم العربي واخيراً اقتبستهـا اوربا المسيحية من المسلمين [٤٩] . اننـا نجد هذه اللعبة قد سميت في اغلب اللغات الاوربية باسم الملك : الشاه (بالفارسية) وسكاشي scaci بلاتينية القرون الوسطى (ومعناها رجـال الشطرنج) . لكن الكلمـة الاسبانية : الجدريز ajidrez (كانت اولا axadrez او acederex) مع الكلمة البرتغالية xadrez ، همـا مشتقتان من (الشطرنج) العربي . وهذا اللفظ استمد من الفارسية . واصله سنسكريتي بلا جدال . وكثير من مصطلحات الشطرنج المستعملة هي فارسية كقولك (جك ميت check mate) فهي مثلا تعبير : الشاه مات . ولا يعني هذا ان الملك مات حقاً .

---

٤٨) « مدريد مركز الدراسات التاريخية » ج ١ سنة ١٩٣٠ . (المؤلف)

٤٩) انظر مورى *H. J. R. Murrey* في كتابه « تاريخ الشطرنج *A History of Chess* » ط . اكسفورد ١٩١٣ (المؤلف) .

لكنهـــا دلالة على انه في وضع حرج او انه قد اندحر [٥٠] . وان قطعة القلعة (الرخ rook ، castle) هي (روخ roque) الاسبانيـــة وهي اللفظة الفارسية (الرخ) ، الجبار المخيف الذي لقيه السندباد البحري . ولقد تبين على كـــل حال ، ان هذه الكلمة كانت شائعة الاستعمال بين المسلمين في اسبانيا حيث اطلقوهـــا على عجلـــة الركوب المسمـــاة (chariot) [٥١] وفكرة العجلة تفسر بالبداهة الحركة المستقيمة والقوة المدمرة (للرخ) في الشطرنج الحديث . وفي عدّة شطرنج قديم منذ القرن السابع عشر سرت اشاعة عنه بأنه يعود إلى عهد شارلمان ، مثل الرخ rook فعلا بعربة فيهـــا رجل . ونجد في الوقت نفسه ان عجلة النصر المستعملة في حفلات دينية معينـــة ببلنسية ما زالت معروفة إلى الآن بالروكة roca اما القطعة المسماة بالاسقف bishop فتعرف في اسبانيا باسم الالفليل el - alfil وعربيتهـــا (الفيل) وهي بالفرنسية فو fou عندما يقصد بهـــا التعبير الشطرنجي وهي محرفة من الكلمة نفسها ، ولا علاقة لها البتة بحركة أو سلطة مقام من مقامات الكنيسة الرفيعة .

كانت اسبانيا هي التي امدت اوربا بأوائل الاسانيد عن الشطرنج . واقدم ما نجده حول الموضوع هو توارث شطرنج في وصيتين لشخصين من اسرة كونتات برشلونة يرجع تاريخهـــا إلى ١٠٠٨ او ١٠١٠ ، و ١٠١٧ . واول وصف للعبة الشطرنج في اللغة الاوربية هو وصف الفونسو الحكيم .

---

٥٠) « قف ، صد *check* أو شك *xaque* » ، انما هو شكل للاعتراض « الفيتو » القانوني على السيد او الملك ، فاذا ما اضيف إلى ذلك ، حركة « ميت *mat* » فمعنى ذلك ان الملك قد لحق به ذل عظيم ، حتى لكأنهم يريدون تنحيته او قتله . انظر كتاب « الالعاب » لالفونسو الحكيم (المؤلف) . ونقول واقرب العبارات إلى هذا المصطلح الافرنجي هو تعبير « كش » الشائع على السنة لاعبي الشطرنج في العراق . (المعرب)

٥١) هذه العربة هي ذات عجلتين يجرها حصان واحد ، على طرز العجلات الحربية اليونانية والرومانية . (المعرب)

والواضح أن كتابه (٥٢) قد جمع من مصادر عربية . والصور التوضيحية فيه كانت تظهر اللاعبين عادة – وهم في ثياب شرقية ومعهم كان يظهر موسيقيون شرقيون ، وانك لترى بين آن وآخر الموسيقيين انفسهم يتلاعبون وهم قابضون على آلتهم الموسيقية باليد اليسرى ليكونوا مستعدين في حالة ما لو طلب منهم العزف (شكل ٧) وقد تبين من شروح اللعبة كما اوردها الفونسو ، انه لم يكن يجري وفق القواعد التي كان يجري عليها المسلمون تماماً . على أن المسائل الشطرنجية التي يذكرها ، تكاد تكون اسلامية بحتة ذلك لان (المشكل الشطرنجي) هو ضرب من ضروب الرياضة العقلية ، وهذا هو الطابع الذي يميز تراث الاسلام في اوربا . وقطع الشطرنج عند الفونسو ، هي قطع شطرنجنا نفسها خلا قطعة واحدة وهي (الملكة) فقد ناب عنها قطعة اخرى سمّاها (شوسر) فرز fers وسماها الفونسو (الالفرز ell alfers) واصلها في الحقيقة ، من « الفرزان » اي الوزير وليست من « الفارس » . وللفرز ان يتنقل من مربع إلى آخر على خط منحرف ولكن له أن يقفز في الحركة الأولى إلى المربع الثالث ، أما بانحراف أو باستقامة . و (الفرز) هو سلف (الملكة) الحالية ، ويرجع الفضل في تطور قوته واسلوب حركته هنا إلى لاعبين اسبانيين بصورة بصورة رئيسة هما لوسينا ١٣٩٧ ، وروي لوبيث ١٥٦١ .

ان العاب الفونسو العاشر الشطرنجية ، بمربعات رقعتها التي يربو عددها على عدد مربعات الشطرنج المعروف الآن ، امر يثير اعمق الاهتمام واغربه في عصرنا هذا حيث نجد فيه صدى مقترحات لتحسين اللعبة (تقليلا لمجال حركة قطع الشطرنج) تقدم بها استاذ باقعة هو سان

---

٥٢) انظر ج.و . وايت J. G. White « الرسالة الاسبانية في لعب الشطرنج كتبت بأمر الملك الفونسو الحكيم» ١٢٨٣ منقولة عن مخطوطة في الاسكريال في ١٩٤ لوحة بالفوتوتايب « ليبزك ١٩٣٠ » . (المؤلف) .

كابابلانكا St. Cablanca . ومن هـذه التصاميم رقعة تحتوي على مئـة مربع بدلا من الرقعة ذات الاربعة والستين مربعـاً المعروفة لدينا . كذلك نجد شطرنجاً آخر هو شكل مضاعف عن الشطرنج المعروف ، أللعبة فيه تجري على رقعة تحتوي ستة عشر مربعاً من طرفين ، واثني عشر مربعاً من الطرفين الآخرين . ومن الغريب اننـا لا نرى تنويهاً باسم الفونسو الحكيم عند مناقشة هذه المقترحات والتصاميم . فاللعبة المعروفة في زمـانه كانت تتم على رقعة مؤلفة من مئة مربع . وفي شطرنجه هذا قطعتان جديدتـان اطلق على الوحدة منهـا اسم (القاضي) كل منهـا على جناح من الشطرنج . وفيها ايضاً جنديان (بيذقان) اضافيان . امـا الشطرنج الذي كان يفضله على غيره ، فهو (الشطرنج العظيم) ويتم بموجبه اللعب على رقعة فيهـا مئة واربعة واربعون مربعـاً باثنتي عشرة قطعة واثني عشر جندياً . ويلي (الملك) في هذا النوع من الشطرنج قطعـة تسمى (العنقاء) ثم يقوم إلى جانب كليهما (تنين) ثم زوج (زرافة) ثم (خرتيتان) ثم أسد ثم رخّ . ويتحرك الملك حركته المعهودة في اللعبة الشائعة إلى مربع مجاور. ومع أن «الترخيخ» لم يكن مبتكراً انذاك ، فقد كان للملك هنا ان يثب الى المربع الثالث في اول حركة له . وكان يجوز للعنقاء « بالاسبانية آنكا : aanca » أن تتعدى مربعاً واحداً على خط منحرف ثم إلى أي عدد من المربعات على خط مستقيم : أما التنينـان فيعملان عمل الفيلين الحاليـين وان كان اتساع الرقعـة يمنحهما مدى اوسع وقوة باطشة تفوق قوة الفيلين المعروفين . وكانت حركة الزرافة شبيهـة بحركـة « الفرس » الحالية ، خـلا ان قفزتها كانت اطول حيث أن الفرسين تتحركان مربعاً واحداً على خط منحرف ، ثم مربعين على خط مستقيم . أمـا الزرافتان فتتحركان على خـط منحرف مربعاً واحداً ثم باستقامة ، اربعة مربعات . وكان للخرتيتين حركة معقدة وهمـا لهذا قد اعتبرا اقوى قطعتين في الرقعة بعد العنقاء — انهمـا يبدآن

كالفرس وينطلقان كالفيل ، إلا انهمــا لا يستطيعان قتل قطعة من غير اكمال حركتهمــا ، والمجال فسيح للاسد ان يثب إلى المربع الرابع من كل جهة . ويتحرك الرخ كالمعتاد في الشطرنج الحالي على خط مستقيم في كل ناحية . وتتحرك الجنود كما تتحرك في اللعبة الحالية اي مربعاً واحداً إلى الامام في كــل دور ما عدا التصفيف الذي كان يبدأ في امثال هذه الرقع من الخانات الرابعة بدلا من الخانات الثانية كما هو المعتاد ، فاذا وصل احدها الى المربع الثاني عشر ، وصار « فرزاً » ــ أخذ قوة ومكــان القطعة التي بدأ الحركة من صفهــا .

ولألفونسو الحكيم صلة اخرى بتراث الاسلام في اسبانيــا . فقد كان له الفضل في تأليف واحدة من اعظم المجاميع الشعرية في القرون الوسطى الا وهي « اناشيد او مدائح العذراء مريم Contigar de Santa Maria » وقد بقيت حتى الآن مع نوطاتهــا الموسيقية الملحقة في مخطوطة بمجلدين محفوظة في مكتبة الاسكريال ، وبمخطوط واحد في مدريد . وليست لغة هذه القصائد قشتالية بل هي لهجة غاليسية شائعة في شمالي البرتغال كانت في القرن الثالث عشر لغة شعر البلاط القشتالي والارغوني فضلا عن بلاد البرتغال وظلت كذلك حتى صارت اللغة الاسبانيـة القشتالية على درجة كبيرة من الصقل والتهذيب بحيث اتسعت لمصطلحات الشعر الغنائي البليغة الجيدة السبك . وزعم الاستاذ « ريبرا » أن موسيقى هذه الاناشيد هي اندلسيــة اسلامية الاصل وهو ادعــاء لا يجد مؤرخو الموسيقى في أنفسهم كبير استعداد لاقتباله والرضا به ومع ذلك فان كثيراً من آلات الموسيقى التي ظهرت في الرسوم الصغيرة في المخطوطة هي عربية لا بل صور بعض الموسيقيين أنفسهم فقد كانت في ثياب عربية .

اما الصياغة الشعرية ــ فنجدهــا اجنبيــة عن اسبانيا المسلمة ولكننا نجد

في أغلب قصائدهـا مصاريع اشبه شكلا بالموشح أو الزجـل الذي كان أول من أحدثه « ابن قزمان Abencuzman [٥٣] اتينـا إلى وصفه في جزء آخر من كتابنا هذا . وقد راح بعضهم يقول أن هذه القصائد هي من الايحاء المسيحي الصرف وعليه فلا مساغ لنـا أن نشك في انها اسلامية لكن شكل الموشح والزجـل قد تطور فصار شبيهاً بالشعر القشتالي المعروف باسم ڤيلانسيكو Villancico الذي درج استعماله في نمط من انماط الشعر المسيحي : منهـا تراتيل عيد الميلاد . وما موضوع « مدائح مريم العذراء » الا تطور منطقي لمدح شعراء التروبادور في « السيدة النبيلة » والاشادة بشرفها . وفي الوقت نفسه نجد اشعار التروبادور « كما سيتضح لنا من الجزء الثالث » انمـا هي متصلة بالاتجاهات العربية وبالشعر العربي المدون في اسبانية من ناحية الاغراض والشكـل والاسلوب .

دون غواند مانويل وعظيم كهنة هيتا

انّ فترة التجميع والترجمة من المصادر الشرقية المتمثلة في مدرسة الفونسو

---

٥٣) اول من ابتدع الموشح هو مقدم بن معافر من شعراء الا مير عبد الله محمد المرواني حوالي ٢٧٥ هـ = ٨٨٨ م . واول من ابتكر الزجل العامي : ابو بكر محمد بن قزمان ذكره ابن بسام قائلا « ان المتوكل اول من اتخذه كاتباً » عرف بأنه امام الزجالين وكانت وفاتـه ٥٥٥ هـ = ١١٩٥ م . يقال انه حين كان صغيراً بالمكتب دخل عليه صبي مثلـه صغير وناداه واجلسه بجانبه وصار يحيه فرآه الفقيه فضربه فكتب في اعلى اللوح :

المـلاح اولاد امارة والوحاش اولاد نصاره
وابن قزمان جا يغفر ما قبل له الشيخ غفاره

فاطلع الفقيه على اللوح فرأى المطلع فقـال : هجوتنا بكلام مزجول (يعني مقطعـاً يترنم به) فسمـي زجـلا طبع ديوانه في برلين السنة ١٨٩٦ نقلا عن النسخة الوحيدة الموجودة في لينـنغراد باعتنـاء البارون دافيد غوتزبرغ مع ترجمـة فرنسية وشروح وبحث عن المؤلف ، وعن اللغـة الدارجة في بلاد الا ندلس . (المعرب)

الحكيم اعقبتهـا فترة زاهرة من الآثـار المبتكرة في نثر الامير دون خوان مانويل ١٢٨٢ ـ ١٣٤٩ [٥٤] وفي شعر عظيم كهنـة هيتا [٥٥] المتوفى قبيـل العام ١٣٥١ وكلاهمـا تعلم الشيء الكثير من القصة الشرقيـة ، تعلمـا كيف يستخلصان من الحكايات الخرافية عبرة ودرساً اخلاقيـاً ، تعلما كيف يصبانها في قالب جذاب . ففي أثر (دون خوان مانويل) المسمى « كونت لوكانور[٥٦] » يطلب الكونت وهو احد شخصيات الكتاب المذكور ـ النصح من مستشاره (باترونيو) في امور تمتّ إلى حياة البشر ، والحكومة . فيجيب (باترونيو) على كـل سؤال ، مدعماً اجاباته بقصة موضحـة . ولقد امكن تعقيب الاصول الشرقية لهذه الاقاصيص في عدة احوال . كانت هذه القصص في موضعين او ثلاثة تحتوي على جمل وعبارات

٥٤) *Infante Don Juan Manuel* : كاتب اسباني يشغل مكانة عظيمة في آداب القرن الرابع عشر . واعظم آثاره بلا نزاع « قصة الكونت لوكارنو » وتسمى ايضاً (حامي الحمى) او (الا مثال) . (المعرب)

٥٥) عظيم كهنـة هيتا : كاتب وشاعر اسباني ربمـا كان مولده الذي لا يعرف زمنه في الكالا . لا يعرف شيء عن تاريخ حياته خلا انه كان قساً خليعـاً اودع السجن سنينـاً طويلة بأمر من رئيس اساقفة طليطلـة الكردينال دى البورنوث . وكتبه وقصائده ربمـا تفرغ إلى كتابتها وهو في السجن . جمعت في المجلد المعروف (بالحب الصالح) وهو عبارة عن ترجمة حياة ، اختلطت فيهـا حوادث ومواضيع نثرية وقصيدة شعرية مختلفـة الا وزان وورد فيهـا عن غراميات (الدون ميلون والدونا اندرينا) ومواضيع : كفاح الصوم والمرافع ، ونصر الحب ، واشعار غنائية شعبيـة الاسلوب ، وتراتيـل دينية ودعوات للعذراء وحكايات اخلاقيـة مأخوذة من كتب الاقدمين ومن الآداب الشرقية وخصوصاً العربية منهـا . واشعاره العجيبـة التي امتزج فيهـا الاسلوب القديم بالتفكير الجديد انما هي نسيج وحدها في الادب الا سباني الكـلاسي . (المعرب)

٥٦) نشره هـ. كونست *H. Kunst* في لا يبتسيك ١٩٠٠ ، وف. ج. سانشز كانتون لندن ١٩٢٤ . (المؤلف) .

من العربية الشائعة في ذلك الحين . وكان الطابع الاخلاقي سامياً في كل تلك الاقاصيص على حد سواء . والكاتب – وهو ابن عم لالفونسو الحكيم – كان يدرك بكـــل وضوح انه ينجز واجباً وطنياً عاماً بكتابه هذه .

اما (خوان رويث) عظيم كهنـــة هيتا ، فهو رجل من الدهمـــاء لم يكن يشعر بواجب الخدمـــة العامة أو بواجبه كمواطن حيال المجتمع . وكان الدافع الديني فيه اقـــل من ذلك ايضاً ، ومع ذلك فقد كان شاعراً مطبوعـــاً يعدّ من اعظم شعراء اللغـــة الاسبانية وديوانه الموسوم « كتاب الحب الحقيقي Libro de buen amor » [٥٧] مختلفـــاً عن الحب الارضي loco amor انمـــا هـو عبارة عن مذكرات شخصية وهجـــاء لنفسه وتنديد بأعماله ، فيهـــا يقص بصراحة استسلامه البشريّ ووقائع غرامياته وعشقه . وليس في كتابه أي مجـــال للظن بأنه كان يرمي به ضرب الامثال التكفيرية والندامة . فالحب الذي اوحى لعظيم كهنـــة هيتا بشعره هو الحب الارضي ، وإن كانت قصائده التي يشع منهـــا اخلاص عاطفي – تفصح عن مبلغ تفانيه في حب العذراء مريم . على انّ اغراضه في الحب السامي هذا ، لم تتحقق جميعهـــا بدليل وصفه لبعض السيدات وصفـــاً دقيقاً وتصويرهن تصويراً رائعـــاً ساحراً ، كالدونا اندرينا . ولقد صارت حاملة رسائله الغرامية « تروتاكونفنتس Trotaconventus » (وهي اصل شخصيتي : مرضع جولييت ولا سيليستينا [٥٨] La Celestina (من

---

٥٧) نشره ج. سيادور وفراوكا *J. Cejador y. Frauca* في سلسلة الكلاسيات القسطلانية *Clasicos Castellanos* رقم ١٤ و ١٧ (ط . مدريد ١٩١٣) . (المؤلف)

٥٨) في روميو وجولييت الشهيرة لشاكسبير . شخصيـــة المرضع التي كانت تنقـــل الرسائـــل بين هذين المتحابين ، كذلك لا سيليستينـــا فهي تلعب الدور نفسه في مسرحيـــة كوميديـــة اسبانية اسمهـــا (كايستو ومليبيـــا) تقع في ٢١ فصلا ويرجع تأليفها إلى السنة ١٤٨٣ أو ١٤٩٧ والمظنـــون انها للكاتب اليهودي الاسباني فرناندو دي روجـــاز . وقيل انها مبنيـــة بالاصل على الشخصيات التي ابتدعهـــا خوان رويث المذكور في المتن . (المعرب)

الع الشخصيات الروائية . كان هذا الكاهن يخالط حثالة المجتمع ويعاشرها . يرعى المنبوذين والفجرة والاوباش ورعاع القوم ، كالمغنيات والراقصات المغربيات . وقد نقل كثيراً من الاحاديث والاجابات باللغة العامية العربية حرفياً وضمنها كتابه ، فكتابه من هذه الناحية شرقي الطابع إلى حدّ ما احاطه باطار فيه ما لا يحصى عده من الحكايات الخرافية والاساطير . اما لغته فهي بمثابة خزان عظيم للكلمات المأخوذة من العربية ولو أن عظيم الكهنة هذا ، امترى من موضوعات اقتبست من اللغتين الفرنسية واللاتينية التي كانت شائعة في القرون الوسطى . استخدم قس هيتا كل ما تعرّف عليه من الأوزان الشعرية بعبقرية وحذق عظيمين ، غير مستثن من استعماله وزناً ، حتى لكأن فكرةً ما كانت تلازم ضميره وهي ، انه قد يجيء يوم فيه ينشد المغنون مقطوعات زجلية من كتابه هذا في قارعة الطريق . ولقد صدقت الايام وصار الامر حقيقة في غضون القرن الذي عقب وفاته . إذ أن نساخاً كان جالساً يوماً في صومعته ينسخ تاريخاً ، فشرد ذهنه فجرى قلمه بلا شعور منه — بدور غناء كان يؤديه مطرب جوال في الشارع المطل عليه . فبين سلسلة من الاخبار والاغاني التي كان يؤديها ، وبعد وقفة أو وقفتين ، سمعه النساخ ينادي محاولا جلب انتباه سامعيه المشتت . « والآن نبدأ بأغان من كتاب عظيم كهنة هيتا »(٥٩) .

ومن معاصري دون خوان مانويل ، وعظيم كهنة هيتا ، يأتي مؤلف أول كتاب اسباني في الفروسية واسمه « تاريخ الفارس سيفر (٦٠) » الذي

٥٩) منيديث بيدال (اشعار غنائية ومغنون *Poesia Juglaresca y. Juglores*) ط .مدريد ١٩٢٤ ص ٢٧٠ — ٧١ و ٤٦٢ — ٦٧ . (المؤلف) .

٦٠) نشره هـ. ميشلانت *H. Michelant* مكتبة فيريانس الادبية في شتوتكارت ط طوبنجن ١٨٧٢ و س. ب. فاغنر *C. P. Wagner* جامعة مشيغان ١٩٢٩ . (المؤلف) .

ربمـــا كان فراغ صاحبه من تأليفـه مـــا بين العامين ١٢٣٥ و ١٢٩٩ ، وقد زعموا انه مأخوذ – ككل كتب الفروسية – من أصـــل « كلداني » اي عربي . ثم أن فكرة الكتاب الأصلية مأخوذة من قصة في الف ليلة ، كمـــا انّ التفاصيل هي خليط عجيب من الاسطورة الذهبيـــة ، والرواية الآرثريـــة والخرافة الشرقية . امـــا الاسم سيفر Cifer ، فهو بالعربية (سفر) ومعناهـــا (رحلة أو سفارة) وعليه يكون معنى اسم الفارس سيفر Caballero Cifer مهمـــة الفارس أو بعثة الفارس . واسم زوجتـــه كريمـــا Crima وهو (كريمة) اسم شائع عند المسلمات ومعنـــاه (الشيء الثمين ، أو ذات الاصل الرفيع ، أو البنت) كمـــا لوحظ في الكتاب مظاهر شرقية اخرى [٦١] .

(١)

هناك مؤلف آخر عاصر عظيم الكهنـــة ، وهو صاحب قصيدة يوسف [٦٢] قصيدة بناهـــا صاحبهـــا المجهولة هويته على قصة يوسف الصديق وميزتها انهـــا مكتوبة بالاحرف العربية مع ان كلماتها اسبانية (اللهجة الارغونية منهـــا) اما ورن شعرهـــا ففرنسي . وموضوع القصيدة مستمد من القرآن الكريم ، وغيره من المصادر الاسلامية العربية وهي مثـــال لما عرف في اسبانيـــا والبرتغال باسم « الادب العجمي Literature Aljamid والمقصود بالعجمي ، التكلم العربية الدارجـــة (العجمة) ومنهـــا الاعجمي

---

٦١) ا . كونزاليس بالانشيا *A. Gonzolez Palencia* تاريخ الادب العربي الاسباني *Historia de la Literatura Aràbigo - Espànola* مدريد١٩٢٨ ص ٣١٦–٣١٧(المؤلف).

٦٢) منيديث بيدال (مدريد ١٩٠٢) : النصوص العربية ، بالاحرف اللاتينية (المؤلف) .

وهو الأجنبي ، والعجميــة هي اللغة الأجنبيــة . هذا اللفظ كان يستعمل بالاصل في اسبانيا للدلالة على الاسبان الذين يتكلمون العربية ويكتبونهــا بالاسبانيــة . ثم استعمــل بعدئذ للدلالة على كتابات الموريسكيين الذين استخدموا الاحرف العربية في الكتابة الاسبانية ومخطوطات من هذا النوع كثيرة . ومنذ حين ، عثر على مجموعة منهــا مخفية تحت ارضية بيت قديم في (الموناسيد دي لاسيرا) بأرغونة . قد دفنت عمداً خشية أن تقع عليها عليهــا انظار رجال ديوان التفتيش (٦٣) . وهذه المجموعة محفوظة الآن في مكتبــة « اتحاد نشر الدراسات والابحاث بمدريد » (٦٤) . وقد وجد بينها

٦٣) يعزى تأسيس دواوين التفتيش المعروفــة في التاريخ الحديث إلى البابــا غريغور السابع الذي أمــر بهــا بعد سحق الالبيجيين الهراطقة في طولوز ١٢٣٣ . أمر بتشكيــل لجنة في كــل قرية أو بلــدة يرأسهــا قس وبعضوية شخصيتين بارزتين ، وذلك للتفتيش عن الهراطقة واحضارهم امام الاساقفــة . ثم ما لبث ان تسلم هذه الدواوين جماعــة الدومينيكان والجزويت وغيرهما من الرهبانيات . كان الناس المتهمون بالزيــغ يقبض عليهم ويحقق معهم عن التهمــة سراً اولا ، فاذا قامت الادلة على زيغهــم ، فرضت عليهم العقوبات الكنسيــة ، وتتراوح بين السجن آماداً طويلــة وبين القيام باعمــال نافعــة . فاذا أصروا على جحودهم ، سلموا إلى السلطات المدنيــة لتتولى أمر ايقــاع افظع العقوبات بهم ، وهي غالبــاً الموت . اما اسماء المخبرين فتبقى سراً مكتومــاً . وادخل التعذيب في التحقيق لغرض انتزاع الاعترافات ، وقد اسست دواوين تفتيش في ايطاليا وفرنسا ولكن أهولها وأشدها نكالا ماكان منهافي اسبانياوالبرتغال ومستعمراتهمــا ، وقد امتدت وظائف هذه المؤسسة فشملت احراق الكتب واتــلاف كل ما يؤدي إلى نشر ما يضر الدين السائد ، واعطيت لدواوين التفتيش سلطات واسعة خاصة ايــام فرديناند وايزابيلا وفيليب الثاني ، وشمــل التقتيــل والموت جماعة اليهود ثم المسلمين الذين تنصروا ظاهراً واقاموا على عقيدتهم وظلــوا يمارسونها في الخفــاء ، وذكر المؤرخ بتشل ان ٢٠٠٠ نسمــة اعدموا الحياة في اسبانيا لهذ السبب خلال فترة ١٤٨١ — ١٥٠٤ . وجاء نابوليون فحــل ديوان تفتيش اسبانيا وكان آخر ما بقي في الوجود منهــا لكن احياه فرديناند السابع بعده حتى ١٨١٤ ثم الغــاه كورتيز نهائيــاً ١٨٣٤ . (المعرب)

٦٤) « المخطوطات العربيـة والعجمية لمكتبة لا يونتا *Textos em aljomia Portuguesa* » طبع مدريد ١٩١٢ . وانظر ايضاً (و. لوبيز) « نصوص العجميــة في البرتغالية *Mss. àrabes y aljamiados de la Biblioteca de la Junta* طبع لشبونة ١٨٩٧ . (المؤلف)

وثائق قضائية مهمة وقصائد في مدح النبي (ص) منظومة باشكال من الموشحات، وتاريخها يعود إلى القرن الرابع عشر. ومن بين المجموعة ايضاً مواعظ واساطير وحكايات وشعبذات طبية تعود إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وتجد كذلك مخطوطاً من احفل واغنى المخطوطات بثقافة ذلك الزمن هو رسالة دينية من مفتي وهران، ينصح فيها المضطهدين الموريسكيين – بعد سقوط غرناطة بقرن، ويحدد لهم اقصى مدى يصلون اليه في مطامنة الفاتحين (يبدو أن هؤلاء الفاتحين كانوا يعتبرون كل تطهّر في حياة المسلم – حتى الاغتسال – هرطقة ومن ثمّ جريمة عظيمة).
ان استعمال الحرف العربي حتى بعد سقوط غرناطة يرينا كيف تمسك المسلمون الاسان المغلوبون بالكتابة التي تمت إلى دينهم باوثق صلة حتى حين تخاطبهم باللهجة الرومانسية وإن كانوا من سلالة اسرة اسبانية مسيحية (وقد وجد الكثير من هذا). ان قاعدة اثبات مخارج المفردات الاسبانية اللغوية بالاحرف العربية تثير فينا عظيم اهتمام وتبعث في اوصالنا اعمق النشوة واللذة. وتتجلى قيمة ذلك بصورة خاصة في تنويهنا بكيفية نطق مسلمي اسبانيا العربية والاسبانية وهما لغتا البلاد يؤيد ذلك ما نقله بدرو دي ألكالا Pedro de alcala من اللغة العامية العربية بغرناطة كما كانت دارجة على الالسن بالشكل الروماني في العام ١٥٠٠، والآثار التي تلت بعدئذ للنطق الموريسكي ما زالت ملحوظة حتى الآن.

وهنا لا حاجة لنا باعادة سرد قصة طرد الموريسكيين المؤلمة. لم يتم اخراجهم الا في ١٦١٤ وعليه فان اللغة العربية كانت تتداولها الالسن في شبه الجزيرة ايام سرفانتس Cervantes (٦٥)، لذلك لم يكن مصدر

---

٦٥) بدرو لونكاس *Pedro Longas* « الحياة الدينية لجماعة الموريسكيين *Vida religiosa de los Moriscos* مدريد ١٩١٥ ص ٣٠٥ – ٣٠٧. والمجلة الاسيوية (جدول ٢١٠) ص ١ – ١٧ عدد كانون الثاني آذار ١٩٢٧. (المؤلف)

دهشة لمعاصريه ان يجدوا في تصريحه — بـأن اصل (دون كيخوتي (إنما هو كتاب لمؤلف عربي اسمه « سيدي حامد بن انقالي » وان روايتـه كانت مكتوبة اصلا باللغة العربية — شيئـاً مستحيلا لا يمكن تصديقه ، إذا ادخلنـا في حسابنا ان جميع قصص الفروسية قد أثر عنهـا بانها مأخوذة من اصل عربي او كلداني .

ج. ب. ترنـد

الحُروبُ الصَليبيَّة

بقلم

الاستاذ سر أرنست باركر Prof. Sir Ernest Barker (١٨٧٤ – ١٩٦٠)

من كبار الباحثين حاز عدة القاب ودرجات شرف علمية وفخرية من اشهر جامعات العالم . كان استاذاً للعلوم السياسية في كمبردج ١٩٢٨ – ١٩٣٩ ، واستاذاً لنفس المادة في جامعة كولون ١٩٢٧ – ١٩٢٨ . له عدة مؤلفات هامة منها « الفكر السياسي لافلاطون وارسطو» ١٩٠٦ ، الفكر السياسي في انكلترا منذ أيام هربرت سبنسر حتى الآن ١٩١٥ ، نظرات في الحكم ١٩٤٢ ، بريطانيا والشعب البريطاني ١٩٤٢ ، مبادىء النظرية الاجتماعية والسياسية ١٩٥١ ، العمر والشباب – مذكرات ، التراث الاوروبي ... الخ ... (المعرب) .

يفكر الجنس البشري كثيراً فيما يصح نعته بالحواسم التاريخية . ويعد الصدام بين الشرق والغرب من جملة المواقف الحاسمة . بدأ هيرودوتس [1] تاريخه بتسائله « علام كان هذا الصدام ؟ » وما زال شعراؤنا حتى يومنا هذا يذكرون بزراية ، الأحتقار الصامت العميق الذي يستشعره الشرق للجحافل الغربية المغيرة الجامحة ، أو يشيدون بذكرى ذلك النزاع المستعر الاوار الذي يباعد فيما بين هذين العالمين حتى قيام الساعة . ان حروب طروادة والفرس[2] الاولى ومعارك كراسوس[3] وهراقليوس [4] في سوريا والحروب الصليبية والفتوحات العثمانية كلها تبدو وكأنها تضرب على وتر واحد وتوحي بتكرار تلكم الاحداث في فترات رتيبة . ولكن تعبير (الصدام بين الشرق والغرب) يقصد به التبسيط الجغرافي لسلسلة معقدة من الاحداث التاريخية . والتاريخ سجل لما هو اكثر من نضال للاستيلاء على رقعة ارض . ويزداد الامر وضوحاً بله عمقاً حين يصبح الكفاح الظاهر بين الشرق والغرب قاصراً على مناوشات حقيقية بين ديانات

---

١) *Herodotus* (٤٨٤ – ٤٢٥ ق.م) أول المؤرخين من الاغريق ويعرف بأبي التاريخ. (المعرب)

٢) افتتحت بغارات عسكرية من طروادة في سورية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . (المعرب)

٣) *Crassus* (١١٥ – ٥٣ ق.م.) احد قناصل رومة اشتبك في حرب طاحنة طويلة الامد مع البارثيين ، وقتل في شمال سورية (المعرب)

٤) *Heraclius* (٥٧٥ – ٦٤٢ م) امبراطور الدولة البيزنطية اشتبك مع كورش الثاني في حروب انتهت في العام ٦٢٨ بعد ان دامت ثماني عشرة سنة ، اي قبل اندحار هراقليوس في اليرموك السنة ٦٣٦ م . (المعرب)

وجنسيات ومدنيات يختلف طابعهـا جيلا عن جيل . ومما لا نزاع فيه أن ساحل البحر المتوسط الشرقي الممتد من القسطنطينية حتى الاسكندرية كان - لاسباب جغرافية عديدة - منطقة للنزاع التاريخي من اقدم الازمان التاريخية . ففيه كانت اوربا على تماس تجاري او روحي مع آسيا ، سواء أتم عن طريق البحر الاسود أو الاحمر ببيروت أو عبر الصحراء . في هذه في هذه البقاع (اعني مصر أو كريت أو أورشليم أو اثينـا (وجدت الحضارات والاديـان ومدارس الفلسفة مهدهـا ومرتعهـا . فلم يكن هناك مفر من وقوع صدام مرير دائم في هذه المنطقة : بعضهـا اقتصادي وبعضها ديني وبعضهـا سياسي وبعضها عنصري واغلبهـا مزيج من هذه العوامل . ويحسن فهم كل صراع منهـا إذا ما درس بدقائقه .

الصدام الذي حصل بين بيعة الغرب المسيحية وشعوبه ومدنيته وبين دين الاسلام ومدنيته وشعوبه هو من اعظمها واكبرهـا خطراً . وربما جاز لنا القول انه بدأ بهزيمة هراقليوس (اول الصليبيين) في موقعة اليرموك في العام ٦٣٦ م امـام قوات الخليفة عمر . ولكن من يدلنا على تاريخ نهاية ذلك الصدام ؟ . كان في وقت من الاوقات دينيـاً بالدرجة الأولى وفي وقت آخر ذا مسحة سياسية غالبة . كان نضالاً بين شعوب مختلفة نخص منهـا بالذكر الرومان والسلاف من جهة والعرب والترك من جهة ، ولكنه بقي على الدوام صراعاً مختلطاً اشتركت فيه حضارتان بصورة رئيسة .

وكانت الحروب الصليبية صفحة من صفحات ذلك النزاع بدأت في ١٠٩٦ وانتهت في ١٢٩٠ م إذا مـا حددنا ختامهـا بفقدان الصليبيين آخر معقـل مسيحي في ارض سوريا . أمـا إذا نظرنا إلى الآثار المتخلفة عن بواعث الحروب الصليبية فقد يصح لنـا القول انها استمرت حتى ظهور الملاحة البرتغالية واكتشاف كولمبس العالم الجديد .

للحروب الصليبية وجهـان همـا في الحقيقة باعثاها الاصليين (وان داخلتهمـا في البداية بعض البواعث الاخرى) فهي اولا حركة روحية او ضمت نفسهـا بنظام روحي . هي حرب مقدسة ، حرب عادلة عند رجال الدين من الوجهة النظرية ، فضلا عن انهـا حرب مباركة يصح ان يقف الناس مصائرهم عليهـا ، حرب اعلنت في سبيل القضية النصرانية Res Christiana وحدت مصدر قوى المسيحيـة كلهـا في اطـار من عداء جمعي ضد خصمهـا الالد في الدين . ولكن الحروب الصليبية كانت ترمي إلى استنقاذ الارض المقدسة ! كانت بموجز القول محاولة تفوّق الغرب المسيحي على الشرق الاسلامي وآضت اساساً للدولة المسيحية المسماة (المملكة اللاتينية في أورشليم) التي ترامت على سواحل لبنان وأطلت على تخوم بغداد والموصل شرقاً وامتدت حتّى القاهرة في مصر غربـاً . والوجه الاول هو الاكبر وأمـا الثاني فله اهميته الخاصة وآثاره . لقد كان للحروب الصليبية في مملكة القدس اللاتينية طابع ظاهر ونتائج خاصة ، منهـا قيام العهد الفروسي وانشاء البنادقـة والجنوبيين مؤسسات تجارية في الثغور السورية ونمو الروابط التجاريـة والتبشيرية في قلب آسيا . في هذه البقعـة ايضاً كمـا في (اسبانيا) كان الصدام والاحتكاك الوثيق بين النصرانية والاسلام مستمراً لكنه لم يكن كذلك في اسبانيا لأنه لم يسترع اهتمـام اوربا قاطبة كما استرعـاه هنا ، ونحن نتبين الجذور العامة حين نسرح ابصارنـا في مملكة اللاتين : الجذور الجغرافية لحوض البحر المتوسط والجذور التاريخية للقرون الاولى : وهي عبارة عن اخذٍ وردٍ وجزرٍ ومدٍ بين قوى الاسلام والنصرانية في حوض ذلك البحر ، ويستعدي بصرنا هذه الجذور العامة فيستشف الجبـال القاصية الواقعة خلف المناظر المترامية امامنا .

يصح لنا القول جغرافيـاً أن ثم بحرين متوسطين : هما البحر المتوسط العربي يتاخمـه من جهة الشرق ايطاليا وصقلية وبمر بحري عرضه مئـة ميل يقع بين رأس سوريللو (Sorello) في جنوب غربي صقليـة وبين رأس

بون (Bon) في الشمـــال الشرقي من تونس . وهناك البحر المتوسط الشرقي يمتد من سواحل صقليـــة الشرقية التي كانت بين آن وآخر وفي مختلف عصور التاريخ ميدان قتال ونقطـــة التقاء البحرين حتى سواحل آسيا الصغرى وسوريا . هذان نصفـــا البحر الواحد ، أعني النصفين الشرقي من البحر المتوسط الذي كان في فجر التاريخ وعصوره السحيقة موطن حضارتين . وبنـــاء على هذا لمـــا عقد لواء النصر للمسيحيـــة ظهرت الكنيسة الرومانية والامبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب . وكان الشرق مثوى الحضارة الهيلينية وفيه ظهرت الكنيسة الارثوذكسية اليونانية والامبراطورية البيزنطية . ومن بين هذه التجزئة نبغ الاسلام في بداية القرن السابع وسرعـــان ما امتد التيـــار الكهربائي بسرعة خاطفة من مكة ينبوع قوّتـــه . فلمع كالبرق الخاطف في سوريا وتعداها إلى شمالي افريقيا ثم نط إلى اسبانيا من مضيق جبل طارق حتى وصل سفوح جبال البرانس . وفي اوائـــل العصور الوسيطة افلح في تثبيت قدمـــه في كلا البحرين على السواحل الجنوبية والغربية من بلاد الغرب ، والسواحل الجنوبية والشرقية من بلاد الشرق . وفي نصفي حوض المتوسط دخلت المسيحية في مصادمات معه . هذه المصادمات كانت ذات طابع صليبي قبـــل أن تبتدىء الحروب الصليبيـــة فعلا على أن هدف الحروب الصليبية عندما اشتعلت نيرانهـــا في نهاية القرن الحادي عشر هي نصرانية الغرب اللاتينية على الشرق وكانت قبله لا ترتبط بعلاقة معه وانمـــا احتكت به هنـــا من جهة عن طريق الكنيسة الارثوذكسية والامبراطورية البيزنطية كحليفين لهـــا وبادأت المسلمين في الشرق بعدوانهـــا من الجهة الاخرى . وربمـــا كان العنصر الرئيسي المثمر أكثر من غيره في الحروب الصليبية هو هذه الحقيقة البسيطة ، أعني غزوة الغرب للشرق . ومع ذلك فهذا العامـــل البسيط له شؤونه الشديدة التعقيد . وعلّتـــه أن الشرق الذي

اجتاحه الغرب كان يمور بالمشاكل والامور المعقدة . ولم تكن مهمة النصرانية اللاتينية قاصرة على تسوية خلافها بالكنيسة الارثوذكسية البيزنطية وتجديد علاقتها بها فقد كان المسلمون منقسمين احزاباً وشيعاً فالاتراك بمذهبهم السني وطدوا دعائم حكمهم في غربي آسيا الصغرى من البحر الاسود شمالا حتى البحر الاحمر جنوباً يصاولهم المصريون في ارض سوريا (ميدان الكر والفر وساحة المعارك العتيدة) بمذهبهم الشيعي وعلى رأسهم الاسرة الفاطمية . وكان على الغرب الصليبي أن يتبين هذا النزاع الاسلامي وان يعمل لاجتناء اعظم الفوائد منه وان لم يكن ليدركه الا بمشقة (٥) .

ان عبور المسيحية اللاتينية البحر لمنازلة الاسلام يمكن اعتباره تأريخياً ، أعلى قمة وصلت اليها الاعمال العدوانية بين عالم الاسلام والنصرانية في شرق البحر المتوسط . وهذا ميدان رحيب من الاصل التاريخي الذي ينبغي لنا ان نضع الحروب الصليبية في مجاله . لقد تم للعرب في نهاية القرن السابع الميلادي اخضاع سكان أفريقيا من البربر . وتعاون العرب والبربر معاً على فتح بلاد اسبانيا حتى جبال البرانس (٧١١ — ٧١٨م) وبسقوط سيراقوز

---

٥) كانت الحالة في ١٠٩٦ شبيهة نوعاً ما بحالة السنة ٢٠١ ق.م . حيث اصطدم الرومان حين بدأوا بنشاطهم في الشرق بقوى ثلاث ؛ مملكة مقدونيا التي كانت تسيطر على اليونان وشمال الارخبيل حتى البسفور . ثم مملكة السلوقيين في آسيا الصغرى . ثم أسرة البطالسة حاكمة مصر . على ان ثم اختلافات جوهرية بين الحالين فقد يمم الرومان شطر الشرق تحدوهم الرغبة في التعليم ويدفعهم الاعجاب بكل ما هو ثمرة للثقافة الهيلينية . اما المسيحيون اللاتين فقد كانوا يتمتعون في نهاية القرن الحادي عشر بحضارة خاصة متقدمة حيث سنحت لهم الفرصة بالاخذ من علم المسلمين اكثر مما استطاعوا أخذه وهم في أوطانهم جاثمون . زد على ذلك ان الرومان جاؤوا عالماً يختلف عن عالمهم . اما فرنجة القرن الحادي عشر فقد وجدوا في الامبراطورية البيزنطية ما ينسجم ويتصل بعاداتهم وحضارتهم وان كان مسلكه يختلف عما هو لديهم وربما كان ما تعلموه من البيزنطيين يفوق ما تعلموه من سوريا ومصر كما سنرى في هذا البحث (المؤلف) .

في غضون القرن التاسع ٨٢٧ – ٨٧٨ تم للاغالبة القيراونيين سكان شمالي افريقيا فتح جزيرة صقلية وصاروا يهددون كامبانا وأبروزي الواقعتين إلى الشمال من ايطاليا ، وذلك عن طريق القيام بغارات متقطعة ثم اقامة دويلات يترأسها مغامرون افاقون . أما مسلمو اسبانيا فقد شنوا الغارة على بلاد البروفنس وعلى شمال ايطاليا حتّى سويسرا . وكانت سردينيه وكورسيكا هدفاً دائماً لغارات فرسانهم . ووصلت حضارتهم درجة متقدمة في اسبانيا وصقلية لا بل تسامت إلى الجوزاء ، حتّى انتقل تأثيرها منهما إلى فرنسا وايطاليا . وامتدت فلسفة قرطبة وعلى رأسها معلمها الاعظم (ابن رشد) حتّى دخلت جامعة باريس وازّينت بالرمو بمغانٍ عربية وحفلت بجغرافيين وشعراء عرب إبان حكم ملوكها النورمان وخليفتهم فردريك الثاني ، فصدق القائل ان ثمار الثقافة التّي كسبها الغرب من العناصر الاسلامية التّي لم تبق طويلاً كانت على الاقل – تعادل بأهميتها التأثير الذي خلفه الشرق في الغرب اثناء الحروب الصليبية [٦] لكن مهما كانت المكاسب التّي جناها الغرب ، فانها لم تغير من الحقيقة وهي كره الغرب أن يحتل اراضي النصارى اتباعُ دين آخر . وشاهد القرن الحادي عشر تقلصاً تدريجياً في نفوذ المسلمين العسكري امام تقدم المسيحية على طول ساحل البحر الابيض المتوسط الغربي . فبعد وفاة الخليفة العظيم المنصور (١٠٠٢ م) اخذت بعض دويلات اسبانيا الشمالية (ليون وكاستيل واراغون ونافار) تدخل في فترة توسع وفتوح . فسقطت طليطلة ١٠٨٥ م بيد الفونسو السادس القشتالي [٧] واستولت اراغون على سرقسطة ١١١٨ م. اما شمال ايطاليا

٦) الاستاذ بيكر *Prof. Baker* في « تاريخ كمبردج عن العصور الوسطى » ج ٢ ص ٣٩٠ (المؤلف) .

٧) اصيب تقدمه بنكسة وتقهقر خطير في غزوة دولة المرابطين السنة ١٠٨٦ ولكن تبين فيما بعد ان هذا التقهقر وقتي (المؤلف) . عرف الفونسو السادس وهو من ملوك ليون وكاستيل (١٠٦٥ – ١١٠٩) بانه زعيم المقاومة الغربية المنظمة للعرب في اسبانيا (المعرب).

الذي مزقـه النزاع بين الحكام البيزنطيين والمغيرين العرب فقد سقط في ايدي النورمـان خلال النصف الاول من القرن الحادي عشر . وكرّ هؤلاء كذلك على صقلية فيمـا بين ١٠٦٠ — ١٠٩٠ م وفتحوهـا . ودفع البابا بندكتس الثامن [٨] البيزبين إلى احتلال سردينيـة حوالي ١٠١٦ م وبظهور الجنوبيين والبنادقة خُفِدت شوكة القراصنـة العرب فلم يعودوا رمـزاً للرعب في البحر المتوسط . وفي نهايـة القرن الحادي عشر لم يعد في قبضة العرب غير القسم الجنوبي من اسبانيا وشمال افريقيا . وفي غضون القرن الثاني عشر صاروا هدفاً لهجمات النورمـان من صقليـة ثم نوزلوا حتى في معاقلهم الافريقية ذاتها . وهكذا بدأ الغرب الذي اشتـد ساعده صلب عوده يجعـل من نفسه ربـاً لبيتـه وسيداً .

هذا مـا كانت عليه الحال في الغرب حينمـا تناهى إلى السمع نداء من الشرق يدعو إلى الحروب الصليبيـة . كانت دعوة مزدوجة وإن رمت إلى إلى غاية واحدة . فقد أدى ضغط الاتراك السلاجقة — الذين بدأوا جنوداً مرتزقـة وانتهوا في الواقع إلى صيرورتهم سادة لخلفـاء بغداد وإلى فوزهم في سورية بالقدس من الفاطميين المنحلين السنة ١٠٧٠ . هذا من جهة ومن جهة اخرى تمخض ذلك الضغط بهزيمـة ساحقة للبيزنطيين في العـام ١٠٧١ في وقعة مَنازِجرد وكانت ضائقـة القدس والبيزنطيين تستصرخ الغرب بأجهـر الاصوات فكانت الحرب الصليبيـة الأولى (١٠٩٦ — ١٠٩٩) تلبيـة لهذا النداء المزدوج .

تعاونت تقاليد الدين والتقدم الاجتماعي في اوربا الغربية على إعداد هذه هذه النجدة . كان الحج إلى بيت المقدس للاستغفـار والتكفير عن الزلات من أقدم العادات في بلاد الغرب ، والقدس هي اقدس مكان لذلك وابعدها مزاراً عن اوربا في الوقت نفسه . فالوصول اليهـا واللوذ بحماها ينطوي عهلى بركة مزدوجة . وهي في الواقع ومنذ زمن سحيق قبلة هؤلاء الحجاج . هذه القبلة يحيق بها الآن خطر عظيـم ، وإزالة هذا الخطر أمر ألا بد منه . وهكذا

٨) كان بابا لروما ما بين ١٠١٢—١٠٢٤ وعرف بدأبه على مقاومة النفوذ الاسلامي(المعرب).

كانت الحرب الصليبية الأولى مجرد قافلة حجيج شاكية السلاح تستهدف تطهير طريق الحج وتحرير محط رحل القادمين منهم . فكان الفرسان الحجاج هم الذين خلقوا مملكــة بيت المقدس ، وهم الذين توارد وا سنــة بعد أخرى لاحتلال تلك المملكة وحكمهــا .

ان التقدم الاجتماعي في نظام الاقطاع بتأثير الكنيسة كان سبباً مباشراً آخر للحروب الصليبية . فعاطفة الجماعات العسكرية المستوفزة لاثارة حروب موضعية (Geurra) ، استرعت انتباه البابوات والمجامع الكنسية في بداية القرن الحادي عشر . فحاولوا اول الأمر ان يكبحوا جماح هذه العاطفة بتأليف جمعيات السلام (Pax) وسلام الله (Treuga Dei) ثم عمدوا أخيراً إلى ارخاء العنان لها في « حروب عادلة » او « مقدسة » إما على شكل تقديس شكّة الفارس الحربية في حفلة انتمائه إلى طبقة الفرسان للدفاع عن العدل ومحاربة الظلم (فاعانت بذلك على خلق طبقة جديدة من الفرسان) واما بقلب هذه الحروب والمنازعات الاخوية الخاصة إلى حرب عامة مقدسة ضد الكفرة كما طلب البابا أوربان الثاني [9] بدعوته إلى الحروب الصليبية في كليرمونت العام ١٠٩٥ . وهكذا ارتبطت قضية السلام الداخلي بقضية الحرب المقدسة وكانت المجامع الكنسية المتتالية تلهج بذكر (سلام الله) وتشيد بالحروب الصليبية .

إلى هنا كان للحروب الصليبية طابع مزدوج : سفرات حج ، وحرب مقدسة . على انها كانت ايضاً شيئاً اكثر من هذا واقل منه ، كانت بالدرجة الاولى حلا لمشكلة السكان الذين ضاق عصر الاقطاع بعددهم المتكاثر . كما وان صغار نبلاء الاقطاع مــا عادوا واجدين لهم أي مطمح في بلادهم . وقد كان الدهر سيعفي على كثير أخبار لعدد من أفراد سلالة (تنكريد هوتفيل)[10]

---

٩) بابا رومة ١٠٨٨–١٠٩٩) الذي بشر بالحروب الصليبية في أنحاء أوربا . (المعرب)

١٠) رافق هذا النبيــل الفرنسي اول حرب صليبيــة السنة ١٠٩٦ وفتح طرسوس وحده ، ثم استقــل بانطاكية للسنة ١١٠٤ ، ثم تفرقت اسرته فكان منهم روجر الاول والثاني وتنكريد الثاني وهما من ملوك صقلية « النورمان » . (المعرب)

لو لم تنشأ مملكة النورمان في صقلية ، ومملكة اللاتين في القدس مثلا . امثال هذه الممالك كانت مستعمرات اقطاعية استوعبت مهاجري الاقطاع . وقد اوجدت الحروب الصليبية بالدرجة الثانية اسواقاً تجارية ارضاء لمطامع الموانيء الايطالية المتعاظمة القوة . وأنشأت مؤسسات ومصالح للبيزيين والجنويين والبنادقة على سيف سوريا، استخدمت بمثابة مستودعات لمسالك التجارة الآسيوية العظيمة . ولم يكن هذا الحدث عاملاً صغير الشأن لاستقرار اللاتين في تلك البقاع بعد أن فتحوها . ولقد كانت السفن الايطالية تساهم في نقـل المغيرين في اول الحروب الصليبية . وصارت مدن ايطاليا خير معوان في حرب الحصار التي مدت في عمر مملكة المقدس وأتمتها . وهكذا اخذت السفن الايطالية تنقـل الحجاج المتدفقين سنة بعد سنة ، ولسنا ندري ألحسن الحظ أم لسوئه اقترن سبب الحروب الصليبية الروحي بسبب جديد آخر هو العامل التجاري .

يضاف إلى هذه الاسباب المختلفة فرصة نادرة سنحت بظهور بعض التفكك في تماسك عرى الحكم الاسلامي ، كل هذه الاسباب اجتمعت فاعانت « بلدوين الاول والثاني » على تأسيس وتوطيد دعائم مملكة القدس مـا بين ١١٠٠ ـ ١١٣١ ولكن ما كادت هذه الدولة تشب عن الطوق وتتحامل على قدميها حتى هددت بالانتقاض . فقد ولّد الضغط المسيحي رد فعل في المسلمين وكان مركز الثقـل مدينة الموصل ، فقد برزت منهـا حوالي السنة ١١٢٧ شخصية أتابك زنكي[١١] على طول امبراطورية السلاجقة التي تناثر حطامها قطعاً واشلاء صغيرة قبيل بدء اول الحروب الصليبية.ظهر هذا (الاتابك) على سائر اقرانه وبسط عليهم سلطانه واستخلص مدينة الرهـا من اللاتين في السنة ١١٤٤، فكان اول نكسة خطيرة حلت بهؤلاء .

١١)لفظة اتابك ، كردية الاصل ، وهي مؤلفة من « اتـا » و « تـا » ومعناها « انت » ومن « بك » وهو لقب التعظيم . اطلق هذا اللقب على افراد الأسرة الاتابكية التيحكمت شمال جزيرة العرب حتى مصر وكانت حاضرتها الموصل . (المعرب)

وعرف خلفه نور الدين زنكي (١١٤٦ ــ ١١٧٤) بحميته الدينية وبجهاده الصادق ضد الصليبيين . واستطاع قائداه شيركوه الكردي وابن أخيه صلاح الدين أن يضمـــا في عهده القطرَ المصريَّ برمته إلى مملكته . فمـــا عتمت مملكة اللاتين وقد هُددت بالموصل من جانب وبالقاهرة من جانب وابتليت بالحماسة الجديدة لمقارعة الجهاد الصليبي ، ما عتمت أن خرت على ركبتيها واسلمت روحها بسرعة ، إذ منيت بهزيمة (حطين) الفاصلة في تموز ١١٨٧ وطردت من اورشليم في شهر تشرين الثاني من العام نفسه . وبلغ صلاح الدين اقصى منيتـه بتحرير المسجد الاقصى ألذي اسرى الله اليه بعبده « محمد » ليـــلا .

وعجزت الحروب الصليبية أن تنال قيد شعرة مما بناه صلاح الدين الايوبي ، على أن اللاتين ظلوا محتفظين بولايتي انطاكيـــة وطرابلس في شمالي سوريا مدة من الزمن وافلح الامبراطور فردريك الثاني في استعادة القدس بالمفاوضات السياسية لا بالحرب . وبقيت في حوزته برهـة (١٢٢٧ ــ ١٢٤٤) . على أن مملكة بيت المقدس كان الدهر قد جرّ عليهـــا ذيول النسيان تماماً . واكتظ القرن الثالث عشر بالحملات الصليبية . وأصاب كبد الحقيقة من قال « كانت الحرب مستعرة الاوار في كل بقعـــة عدا فلسطين ، وهي الغرض الاول والرئيس والغاية الاخيرة » . لم يكن لتلك الحملات هدف معين . كانت تهيم على وجهها ، صائلة جائلة ، كارة فارة ، من القسطنطينية (١٢٠٢ ــ ١٢٠٤) إلى مصر (١٢١٨ ــ ١٢٢١) و (١٤٤٩ ــ ١٢٥٠) ، إلى تونس (١٢٧٠) وفي الحقيقة لم تفلح اكثر الحملات الصليبية توفيقاً ، الا في الاستيلاء على القسطنطينية البلد المسيحي وفي تقسيم الامبراطورية البيزنطية زهـــاء سبع وخمسين سنة (١٢٠٤ ــ ١٢٦١) بين الفرنسيين والبنادقة. وإن كانت هذه الامبراطورية قد تحاملت على نفسهـــا وعاشت بأنفاس لاهثـــة مبهورة (١٢٦١ ــ ١٤٥٣) فقد تم لها ذلك بعد أن تخلت للفرنسيين عن شبه جزيرة

المورة ، وللبنادقة عن كريت وجزر ارخبيل اليونان . كانت اول حرب صليبية أشبه بحلف جرى بين الاقطاع الفرنسي وبين المدن الايطالية ذوات القوى البحرية . وبمجيء القرن الثالث عشر انتقــل الاقطاع الفرنسي إلى اليونان . وشرع الجنويون والبنادقة ينشئون قواعد تجارية للتبادل الاقتصادي مع الشرق في كـــل من شبه جزيرة القرم وبحر آزوف . حتى لكأن فلسطين هجرت تماماً ، وحول مركز الثقل إلى بقايا اطلال الامبراطورية البيزنطية الشرقية .

ولكن املاً جديداً انبلج قبيــل منتصف القرن الثالث عشر . فقد أهلّ على الغرب بشير يعلن حدوث تبدل جديد في الأوضاع الآسيوية مؤذن بتبدل الاحوال . فقد اقام (جنكيز خان) امبراطورية عظيمة لا هي اسلامية ولا هي مسيحيــة امتدت من بكين شرقــاً حتى الدنيبر والفرات غرباً . وكانت (الخانات) الأربعة التي انقسمت اليها تلك الامبراطورية كل واحدة منهـــا تؤلف امبراطورية قائمة بحد ذاتهـــا . نخص منها بالذكر القسم الفارسي وكانت عاصمته (تبريز) قريبة من البحر المتوسط بدرجة أخذت معها تتدخل في شؤونه

كان المغول متسامحين . لذلك نبَّه شأن النساطرة المسيحيين[١٢] في آسيا اثناء حكمهم؛ فلِمَ لا يُهدى هؤلاء إلى دين المسيح ؟ ولمَ لا تتحقق الغاية الأساسية المنشودة من الحروب الصليبية على نطاق جد واسع ما كان متصوراً ؟ صارت الرسل تذهب غادية رائحة . وبعث البابا (انوسنت) [١٣] الرابـــع (جون دى بيان كاربيني) برحلة طويلــة في ١٢٤٥ وبعث القديس لويس[١٤]

---

١٢) نسطورس (٣٨٠-٤٥١م)بطريرك القسطنطينية قال بوجود طبيعتين للمسيح : آلهية وانسية . وحرمه المجمـــع الأفسسي (٤٣١) وانتقــل واتباعه إلى بلاد فارس ثم الصين . والكنيسة الشرقيـــة القديمة (الاثوريون) ما زالت مقيمـــة على هذه العقيدة. (المعرب)

١٣)كان انوسنت الرابع « ١٢٤٣ – ١٢٥٤ » شغوفــاً بنشر الديانة المسيحية ، وقد وجد متسعاً له لذلك مع الخلاف الذي نشب بينه وبين فردريك الثاني وانتهى بانتهاء حياته . (المعرب)

١٤) يقصد به لويس التاسع ملك فرنسا « ١٢١٤ – ١٢٧٠ »الملقب بالقديس الذي قـــاد حملتين صليبيتين الأولى إلى مصر حيث أخذ أسيراً وأفتدي ، والثانية في ١٢٧٠ حيث توفي في تونس . (المعرب)

في السنة ١٢٥٠ (وليام الروبروكسي) في رحلة أخرى . ونشطت البعوث التبشيرية وشيدت الكنائس حتّى في بقاع الصين . كل ذلك كان اشبه بالخيال أو الحلم . ولم يعد يصل فلسطين أي عون أو مدد . وتنوسيت إلى حين امور انطاكية وطرابلس وبعض المحميات التي تخلفت للاتين على ساحل مملكة بيت المقدس . ووقع الشقاق والخصام بين خلفـــاء صلاح الدين . فانتعش اللاتين بفضل تلك الخلافات . ولكن العسكريـــة الاسلامية الجديدة برزت بظهور سلاطين المماليك المصريين الذين استولوا على عرش القاهرة السنة ١٢٥٠ م وقد سحق اعظم سلاطينهم (بيبرس) محاولة وحيـــدة لخانات المغول الفارسيين لوضع قدم لهم في سوريا ، ثم جعل دمشق مقره في السنة ١٢٦٠ وسحق امارة انطاكية وضمهـــا إلى ملكه في العام ١٢٦٨ وفتح خلفه السلطان (قلاوون) مدينة طرابلس في العام ١٢٨٩ وضمها إلى ملكه ايضاً . امـــا خلفه وابنـــه « خليل » فقد استولى على مدينة عكا آخر معقـــل للاتين على ساحل سوريا في ١٢٩١ . ومـــا أن اوشكت شمس القرن الثالث عشر على الأفول حتّى كانت المسيحية اللاتينية قد طردت تمامـــاً من اراضي آسيا الرئيسة .

على انها استمرت باقية في الجزر ، وآضت جزيرة قبرص التي انتزعهـــا (ريتشارد) الاول من اليونان في الحرب الصليبية الثالثة ، تحت حكم ملوك اسرة لوسينيان [١٥] الذين هاجروا من الاقطاعات الفلسطينية . وهنـــا استمرت مباديء الحكم الديني الاقطاعي الأسيزي Assizes للقدس تمارس وتقنن وبقيت مملكة قبرص تحيا حياة دولة مستقلة حتّى العام ١٤٨٨ وبعدهـــا انتقلت إلى ايدي البنادقة [١٦] . وبالطريقة نفسها احتل فرسان الاسبتارية [١٧] جزيرة

---

١٥) *Lusignan* اسرة فرنسيـــة مشهورة حكم احد فروعها القدس . وثم بلدة في فرنسا سميت بأسم الأسرة منذ القرن الحادي عشر ولا تزال . (المعرب)

١٦) راجع محاضرتي ستوبز *Stubbs* عن قبرص ومحاضراته في تاريخ العصور الوسطى والحديثة (المؤلف) .

١٧) هذا الاصطلاح لاتيني وهو مشتق من : « ضيف : *Hospes* » اخويات خيرية وجدت =

رودس في ١٣٠٩ بعد أن خسروا عكا نهائيـاً وظلوا حكاماً على الجزيرة حتى العام ١٥٢٣ ثم نزحوا بعدها إلى جهة الغرب وإلى مالطا . هذا وإن آثار اللاتين الرائعة الناطقة بحكومتهم في شرق البحر المتوسط خلال العصور الوسيطة مـا زالت باقية إلى الآن . وفي الوقت الذي كان نبلاء الاقطـاع يشيدون صرح حكمهم في قبرص ورودس ، استولى البنادقة على كريت وعلى عدد من جزر الشمال ممـا تخلف عن الحرب الصليبية الرابعة . امـا الجنويون الذين أعـانوا باليولوغي [١٨] على استعادة عرش القسطنطينية في ١٢٦١ فقد كوفئوا بضاحية بيرا Pera فضلاً عن اطلاق يدهم في جزيرتي ليسبوس Lesbos وخيوس Chios وهكذا بقيت المسيحية اللاتينية مستحوذة على شرق البحر المتوسط حتى نهاية العصور الوسيطة وإن كانت قد انحصرت في الجـزر . ومع أن أغلب ممتلكاتهـا هي من بقايا الامبراطورية البيزنطية ومن بعض فتوحات ومغانم اسلامية ، فقد استمرت تشن الحرب على الاسلام من قواعدهـا المتناثرة ولم تنكص عن النضال حتى جعلت انتصارات العثمانيين شرق البحر المتوسط بحراً مسدوداً Mare chnsum ولم تفقد البندقية في الحقيقة آخر معقل عظيم لهـا في شرق البحر المتوسط الا بسقـوط كانديـه Candia في ١٦٦٨ .

=في مختلف العصور والبلاد ، كانت مهمـة اعضائها في القرن الحادي عشر رعاية الحجاج المسيحيين في زياراتهم القدس وحمايتهم . بلغت تنظيماتهم الحربية درجة لا مزيد عليها من الاتقـان واحتلوا في القرن الرابع عشر جزيرة « رودس » وبقيت في يدهم حتى ١٥٢٣ حيث انتزعهـا الاتراك منهم ثم انقلبت الأخوية إلى منظمات دينية بحتة وانتقـل مركزها إلى روما في ١٨٧٩ . واصبح (فارسها) لقباً من القاب الشرف يمنحه البابا لمن يقوم بخدمات دينية واجتماعية ممتازة . (المعرب)

١٨) *M. Palaeologe* . ميخائيل باليولوغي : ملك بيزنطة منـذ ١٢٦١ م بقيت سلالته التي عرفت بهذا الاسم تحكم الدولة البيزنطية حتى سقوط القسطنطينية في ١٤٥٣ . (المعرب)

— ٢ —

ماذا كانت نتائج المغامرة الطويلة التي لعبتهـا المسيحية الغربية في شرق البحر المتوسط ؟ ماذا كانت نتائج احتكاكها الطويل بمسلمي الشرق ؟ إنه والحق يقال سؤال ذو شقين ، أولاً عن مدى تأثير الحروب الصليبية باعتبارها محض شكل من اشكال الاحتكاك مـا بين الشرق والغرب ، أعني مسألة تأثير العوامل والاختبارات التي نالها الغرب من الشرق ، وثانياً عن تأثير تلك الحروب بوصفها حركة ايجابية فعالة في مجالات المجتمع العربي . مسألة تأثير ذلك المجتمع من حركة انبثقت منه وارتدت اليه في الوقت نفسه فخلفت فيه اقوى التأثير . ولقد تخبط المؤرخون في هذين المشكلين كثيراً وضربوا في ارجائهما على غير هدى فنجم عن هذا التخبط أمور مبالغ فيها كثيراً كان بالامكان اجتنابها لو عملوا على فصلها . وبامكاننـا ان نستشهد — كمثل لهذه المبالغات — بفقرة من كتاب « تاريخ الحضارة الالمانية » لـ (همه آن راين Hemme - an Rhyn) بخصوص الحروب الصليبية [١٩] . اننا نجدها تفرد فضل جميع التقدم الذي تمخضت به العصور الوسيطة إلى الحروب الصليبية فقد عملت في ناحية الدين على محو نفوذ البابوية ، ونالت من قوة الرهبانية واصابتهـا بطعنة في الصميم ، وساعدت في قيام الهرطقة والالحاد . امـا من الناحية الاجتماعيـة والاقتصادية فقد أدت إلى تقليل الفروق بين الطبقات ونمو المساواة ، وقيـام طبقة الفلاحين الحرة وطوائف الحرفيين وتقدم الصناعة والتجارة ، اما في الناحية السياسية فقد تمخضت بقيام نظام الاقطاعات والدويلات وبنمو المركزية الحكومية وظهور

---

١٩) *Kulturgeschichte des Mittelalters* المجلد الثالث — الكتاب السابع : اقرأ بصورة خاصة الص ٤٩٨ — ٥٠٠ (المؤلف) .

القوانين المسطورة ، والادارة القضائية المنتظمة . أما في عالم الثقافة الوسيع فقد دفعت الفلسفة بأعظم مفكريهـا عقيب الحروب الصليبية وبعيد التماس مع العرب الذين جيء بهم من بلادهم ، حتى التصوف فقد اصطبغ بصبغة العلم . واتسع نطاق دراسة الفلسفات القديمة وخصبت تربتهـا ودب في علمي التاريخ الجغرافي والجغرافية الوصفيـة نشاط جديد . وظهر الشعر المتسم بالطابع المحلي واحتلت الهندسة المعمارية القوطية Gothic مكان العمارة الرومانسية[٢٠] Romanesque واستجدت اذواق سليمة في فني النحت والرسم. ويظهر شيء شبيه بهذه المغالطة المنطقيـة « بجعل ما سبق علة حتمية لمـا لحق Post hoc ergo propter hoc » في كتاب ككتاب (هانز بروتز[٢١] Hans Prutz) الجليـل العلمي الطابع المسمى « تاريخ الحروب الصليبية Kulturgeschichte de kreuzzüge » وهو ينم عـن سعـة اطـلاع واحاطة غزيرة لكنه لا يميل من بعض النواحي إلى التمحيص والاستخلاص الدقيق . كان (بروتز) يكتب اولا كمن يريد أن يجعل الحروب الصليبية العامل الأوحد في تطور اوربا خلال القرنين الثـاني عشر والثالث عشر (١١٠٠ ــ ١٣٠٠) وكما لو كانت جميع العلل الفعالـة causae causantes

---

٢٠) العمارة الرزمانسية طرز من البنـاء انتشر في اوربا الغربية بعد انهيـار روما وحتى ظهور الطاق المدبب الرأس في القرن الحادي عشر .وتمتاز هذه العمارة بأقواسها نصف الدائرة مربوطة بأعمـدة ثلاثية الأضلع او مفردة وبعقود نصف كروية وخير مثـال له كنيسة « سان مينياتو » في فلورنسا و « سان امبروجيو » في ميلان. وفي أواخر القرن الثاني عشر بطلت الموضة الرومانسية وراجت العمـارة القوطية بأقواسهـا المدببـة العالية وأبراجهـا المقرنصة الشبيهة بالمنائر المزخرفة من كـل جوانبهـا وباتساع ابوابهـا واضمحل هذا النمط في أواخر عصر النهضة في القرن الخامس عشر وخير مثـال لذلك كاتدارئية نوتردام دي باريس ، و « سان بورغو » باسبانيا و « سالزبوري » ببريطانيا . (المعرب)

٢١) طبع ببرلين ١٨٨٣ في ٥ اجزاء منهـا الرابع (في التراث الاقتصادي) والخامس (في تأثير الحروب الصليبية على تاريخ الثقافة) فهمـا يستأهلان اهتماماً خاصاً . (المؤلف)

لهـــذه السنين المئتين اسبابـــاً ساعدت على خلـــق اوربا الجديـــدة في عصر الميلاد الجديد (الرينسانس) واظهـــار عهد الاكتشاف ، وعهد الاصلاح الديني كنتيجة لهذا العامل الأوحد . على انها في الواقع كانت عاملا واحداً من بين عدة عوامل مختلفة وإننـــا لنضيف مغالطة (العلة الوحيدة) إلى مغالطة (جعـــل ما سبق علة حتمية لما لحق من تفاعلات) عندما نعتبر الحروب الصليبية التفسير الوحيد المفرد . (وبروتز) من الناحية الثانية وإن أقر بأن اسبانيا وصقلية هما (معبْران) انتقـــل بهما التأثير العربي إلى اوربا فقد وجد نفسه بالأخير ناسياً اقراره هذا إذا راح يجعل من فلسطين (المعبر) الاكبر بل كاد يجعلهـــا المعبر الوحيد فقد كتب ما يأتي :

« في اغلب نواحي التطور الثقافي نجد التماس القوي الاول الحاصل بين العناصر الشرقية والغربية قد تم على يد افرنج فلسطين وانهذا التمازجوالاختلاط يجب اعتباره اولى الصلات المستديمة بين الشرق والغرب [٢٢] . وهنا كذلك لا نملك الا ان نلاحظ مغالطة ما يدعى (بالعلة المفردة) . وتبدو لنا المغالطة اعظم حين نعيد إلى اذهاننـــا ان العلة الأخرى (أي امتزاج العنصرين الشرقي والغربي في صقلية واسبانيا) كانت اشد اثراً وأعظم خطراً . ونحن في النهاية لا يسعنـــا عند قراءة كتاب (بروتز) إلا أن نشعر بتقليله من شأن الحضارة اللاتينية الغربية في مستهـــل ١١٠٠ م والارتفاع بحضارة الشرق العربي إلى السماكين في الوقت نفسه متوخيـــاً بذلك تقليد الحروب الصليبية فضل التأثير الاعظم وتجريد اسواق الغرب وجعلهـــا أخوى ممـــا تبسطه امامنا الروايات التاريخية الموثوقة . كانت اوربا الغربية تكاد تستبق العصر الغريغوري المجيد . كانت تشهد نهضة فكرية وصلت منتهاها بظهور فيلسوفهـــا « ابيلار » [٢٣]

٢٢)ص ٤٥٢ من الكتاب السالف . والانصاف يحملنا على أن نزيد قائلين ان (بروتز) يعترف بوجود عامل آخر يختلف عن ذلك اختلافاً جوهرياً في ميدانالحياة العمليةالحقة(المؤلف).

٢٣) *P. Abelard* (١٠٧٩ – ١١٤٢) فيلسوف ولا هوتي فرنسي اضطهدتـــهالكنيسة البابا وية بسبب آرائـــه التقدمية التي ضمنهـــا كتابه (ممقدمة في اللاهوت) . (المعرب)

وقيام الامارات الفرنسية ونشاط المدينة النورمانية والعمـــار النورماني واندلاع الثورتين الصناعية والتجارية اللتين يمكننـــا تحسسهمـــا في نهاية القرن الحادي عشر . هذا كله لم يكن لوحـــاً خاليـــاً tabula rase لا ولم تكن الثقافة العربية في الشرق ١١٠٠ في يومهـــا الأغر بلى عل الضد كما سنرى ، فعندما بدأت الحروب الصليبية كانت شمس تلك الثقافة على شفـــا الأفول . وبقدر مـــا يهم التاريخ من أمر ، علينـــا أن نذكر دوماً أن ثمّ غرباً جديداً متحفزاً دهم شرقاً عتيقـــاً ادركته يد الخراب .

الحروب الصليبية ، كلمة سحرية . والكلمات السحرية قد تكون مغانط تجتذب قطعاً كبيرةغريبة عنها إلى دائرة تأثيرها الجذبي . فليس كل ما حصل في اوربا الغربية خلال الحروب الصليبية يصح نسبته اليها وربطه بها ، وجعله من جملة افضالها ، حتى وان لم تقع الحروب الصليبية فربما كان غرب اوربا الذي اخذت حياته المدنية والتجارية تسير في مضمار التقدم السريع مـــا بعد ١٠٥٠ ، يستطيع ان يدفع بتجارته إلى شرق البحر المتوسط ، ربمـــا كان يحاول تثبيت نفسه في نهايات مسالك قوافل الشرق ـ شمال ساحل البحر الاسود حيث يمكنه أن يمس الطريق المتجه إلى شمـــال بحر قزوين وغرب بحر آرال حتى بخارى وسمرقند ، او ان ينثني إلى موانيء سورية ليصل منهـــا إلى بلاد فارس وخليج فارس وبهذا يلمس الطريق البحرية المؤدية إل الهند ثم يعبرها إلى الصين . وكل مـــا فعلته الحروب الصليبية هو انهـــا انشأت دولة سورية الاقطاعية ـ يحتـــل جانباً من اراضيها بعض افراد إقطاعيين وجانباً آخـــر فرسان الدّويـــة [٢٤] والاسبتارية Hospitallers وهمـــا جمعيتان تمتازان

---

(٢٤) *Templars* اخوية عسكرية دينيـــة . اشتق اسمها من (الهيكل : *Temple*) وعرفوا ايضاً باسم « اخوة الهيكل » او « جنود الهيكل او جنود المسيح » . اسسهاتسعـــة من الفرسان الفرنسيين ١١١٨ وعلى رأسهم (هوج دي بين) . واعطاهم صفة الشرعيةالقديس برنار . وكان هدفهم تطهير طريق الحج إلى بيت المقدس. وكان الاسم الأول الذيعرفوا به=

بطابع اقطاعي ايضاً . كانت صفـــة التجارة هي الغالبة في هذه الدولة — لوقت مـــا على الاخص ، ووجد فيهـــا عدة مناطق سكنهـــا البنادقة والجنويون والبيزيون مبثوثة في الموانيء الواقعة على طول الساحل . وعلينـــا ان نذكر بأن هذا الميل التجاري لم يكن محصوراً في المناطق السورية مطلقـــاً فقد تعداها الاحتكاك ووصل حتى القسطنطينية والبحر الاسود . هذه الصلات صارت اوسع وانشط مما كانت عليه بعيد الحرب الصليبية الرابعـــة وفي غضون القرن الثالث عشر . مجمـــل القول ، كانت سوريا اثناء القرن الثاني عشر — ما بين الحربين الأولى والثانية الصليبيتين ، مركز الثقـــل الرئيسي للعلاقات المسيحية الاسلامية في البحر المتوسط الشرقي . هنـــا افلح الاسلام اولا في أن يخلف تأثيره على الغرب المسيحي بضغطه على دول الاقطاع وبمـــا كان يحدثه هذا الضغط من آثـــار على الغرب . وثانياً بشدة وطأته على طول الطرق التجارية ، هذا العامل يقتضينا ان نوليه حقـــه من الدرس .

لكن علينـــا أن نذكر ونعيد القول بأن الاسلام قد سبق فثبتت اصوله في الغرب واستطاع أن يخلف آثاره في اسبانية وصقلية . كان ثم صراع بين قوى متناثرة . هذه القوى التي وان عجزنا عن تحديد مداها بالضبط كلاً على حدة — ففي امكاننـــا أن نرى تأثير الاسلام في الغرب المسيحي في قاعدتيه صقلية واسبانيـــا كان اشد مما هو في مراكزه (الموصل وبغداد والقاهرة) . هناك سببان يدعمـــان هذا الغرض اولهمـــا انه لم نر في سوريا ذلك التأثير الناجم عن امتزاج الثقافات كمـــا نراه في صقلية ابان حكم روجر الثاني وفردريك الثاني . وثانيهمـــا هو أن لاتين سوريا عجزوا تماماً عن التشرب بثقافة الاسلام الغنية ؛ وهي بعد ثقافة اجنبية ولكنهـــا قريبة في متناول ايديهم لا كمـــا افلح

— (الجنود الفقراء) ولا تزال اخويات كاثوليكية في انحاء اوربا تبشر برسالتهم وتعاليمهم حتى الآن (المعرب) .

مسيحيو غرب البحر المتوسط في الاستفادة من ينابيع ثقافة قرطبة واسبانيا المسلمتين .

ان انعدام الامتزاج الثقافي او بالاحرى عدم وجود أي مستوى من الثقافة مهما كان شكله في مملكة اللاتين بأورشليم ، لامرٌ يدعو إلى العجب حقاً . فالخليط الجنسي المتكون من شعب النورمان والاغريق واللومبارد في صقلية جبل بامتزاجه بالعنصر العربي البربري — حضارة مختلطة عظيمة الشأن . ففي بلاط ملوك النورمان كنا نجد الجغرافيين والشعراء العرب يلقون حفاوة وتشجيعاً . كما نجد فضلاً عن ذلك كاتم سر وليم الاول يترجم له محاورتي افلاطون فيدو Phaedo ومينو Meno وجانباً من كتاب ارسطو (في الآثار العلوية) وكتابات ديغينيس ليرتيوس Degenes Laertuis وكان بلاط فردريك الثاني اعظم شأناً من سلفه . فهنا كما نوه دانتي في كتابه (لغة العامة[٢٥] De Vulgari Eloquio) خطا الشعر الايطالي اولى خطواته . كان الملك يثير او تثار له مسائل عسيرة في تفسير الفلسفة الارسطية مما دعي فيما بعد بالمسائل الصقلية Quaestiones Sicilianae وقد حُفظت لنا بشكل مخطوط عربي في المكتبة البودلية وكانت المملكة اللاتينية في اورشليم معسكراً حربياً خشناً لا روح فيه ، او بكلمة اخرى معسكر لا وقتَ كافٍ لديه للمساهمة في بناء الحضارة . كانت جحافل اجنبية تعسكر في الحصون والقلاع لا تكلف نفسها عبء انشاء صلة وثيقة بمزارعي حقول القرى السورية ولا بالصناع المهنيين الذين كانوا في المدن مشغولين كما هم الآن بنسج السجاجيد وصنع اوعية الفخار وصياغة الذهب . وكان اللاتين قد انتشروا على امتداد الساحل بخط رفيع ضيق ، فوجب عليهم الدفاع عنه بوجه

---

٢٥) رسالة دانتي كتبها في مفتتح حياته ولم يتمها (المعرب)

عالم اسلامي واسع الجنبات مُظلم . ومهما كان شعورهم اللذيذ بدفء اورشليم مشعل ايمانهم وموقده ومركز الارض المستديرة umbilicus terrae ، فهم على كل حال يحسون بانهم قد انتزعوا من احضان المراكز العظيمة لمدينة العصور الوسيطة كباريس وروما .

حتى إذا كان لديهم استعداد للتشرب بشيء من مدنية الاسلام — على قصر مدة مكوثهم التي ما كانت لتسمح لهم بذلك ، وطبيعة دور احتلالهم القلق المحفوف بالاخطار أفكان هناك حضارة اسلامية مجاورة يستمدون منها ؟ كانت الثقافة العربية في اسبانيا على قيد ابصار من غرب البحر المتوسط . فثمّ ابن رشد القاضي والطبيب والفيلسوف يعلّم حتى نهاية القرن الثاني عشر . هناك احتك اليهود بالفلسفة العربية حتى حاول اتباع موسى بن ميمون ، بتأثير منها التوفيق بين التوراة وفلسفة ارسطو . هناك استفادت المسيحية اللاتينية (١٢٠٠ تقريباً) من التعمق في معرفة الفلسفة الارسطية إلى درجة فاقت ما وصلته عندما كانت تعتمد على ترجمة (بويوس) الوحيدة لمنطق ارسطو وآضت المكتبة المشهورة في مسجد طليطلة التي ضبطها الاسبان عند احتلالهم المدينة ، كعبة الباحثين والعلماء . وكان ارسطو (العربي الاسباني) احد مصادر البحث في القرن الثالث عشر [٢٦] وليس هذا كل شيء . فان معارك الحدود التي نشبت جنوب جبال البرانس ، صارت موضوعات لمنظومات شعرية . وكما تمخضت حرب الحدود بين انكلترا واسكتلندا بملاحم الحدود الشعرية Bords Ballads ، أثمر الصراع بين اليونان

٢٦) قارن كتاب « ت . ج دي بوير *T. J. de Boer* » المسمى تاريخ فلسفة الاسلام *Geschichte der Philosophie im Islam* بكتاب رينان الموسوم « ابن رشد والرواشد » *Averrous et Averroism* . (المؤلف)

والاتراك في طوروس بألاغاني البيزنطيـة الشبيهـة (بأغاني المجد chanson de geste [٢٧] ، كذلك معارك المسيحيين والمسلمين « الكفرة Paynim [٢٨]» فقد صارت موضوعـاً لأغنيـة رولانـد [٢٩] ولاسطورة (السيـد القمبياطور Cid Compeador [٣٠]) وكانت الحالة في الشرق تختلف عن ذلك . فقد دخلت الفلسفة دور الاضمحلال منذ ابتداء الحرب الأولى الصليبية ونضب معين الشعر المحلي بتأثير معارك الحدود خلال القرن الثاني عشر وكان ابن سينـا العظيم قد قضى نحبه في همدان ١١٣٧ م . امـا الغزالي الشاكّ الذي اتّهم بهدم فلسفـة بشّر بهـا هو نفسه ، فقد توفي في خراسان ١١١١ م. كمـا كان خليفة بغداد يلقم المكتبة الفلسفيـة فم النار ، ومن محتوياتها مؤلفات ابن سينـا نفسه . في ايام كهذه كان من الصعب جداً أن يتتلمذ لاتين الشرق

---

٢٧) اسم اطلق على ملحمـة شعرية طويلة الفهـا شعراء التروفير من شمال فرنسا خلال اربعة قرون (١٠٠ – ١٥٠٠) يشيدون فيها بتاريخ ملوك فرنسا وابطالهـا ، ثم صار الاسم يطلق على أغلب الملاحم الشعريـة الوطنية على سبيل المجـاز . (المعرب)

٢٨) كان الاسبان الكاثوليك يطلقون على مسلمي اسبانيا والبربر هذا الاسم ومعناها بلغتهم (الكفرة) . (للمعرب)

٢٩) اغنيـة رولاند هي مقطوعة من ملحمـة « اغاني المجد » السالف ذكرها . ربما كان تأليفهـا ١٠٦٦ – ١٠٩٥ واقدم نسخة لها محفوظة في المكتبـة البودلية بانكلترا . وتدور الملحمـة حول البطل رولاند ابن اخ الملك شارلمان الذي حاصره الملك (مرسايل) العربي مع اثنين من رفاقـه وبعد دفاع مجيد قضى عليه . وقبـل ان يسلم روحه نفخ فيصوره فسمعه شارلمان وكان على بعد ثلاثين فرسخاً منه، وفي الحال خف اليهوانتقم لهمنقاتليه. (المعرب)

٣٠) لم ينسج من الاساطير والقصص والشعر كـما نسج حول شخصيـة « السيد » ولولا استطراد في كتاب عربي لابن علي الطيب المراكشي اكتشف مؤخراً لبقيت هذه الشخصيـة خيالية . من هذا الاستطراد نفهم ان « السيد » مواطن اسبـاني ظهر حوالي ١٠٤٠ وصار يبيع سيفه وشجاعتـه الفائقة لامراء العرب والاسبان . وتاريخ اسبانيا الحديثة ينظر اليه كبطل وطني . وقد احصي اكثر منمائتي ملحمـة شعرية وكتاب يشيد بمآثره وأمجاده، وثم بقيـة من أغنيـة اسبانية شائعة اسمها (السيد *elcid*) يظن انها مقطوعة من ملحمـة تبلغ أربعـة آلاف بيت شعر . (المعرب)

على المسلمين او أن تحملهم شؤون الحياة الجديدة التي يعيشون فيهـــا إلى إبداع أي شيء . فلم يظهر شعر وفن جديدان في الارض المقدسة . وكان المغنون الذين أرّخوا ملاحم الحروب الصليبية ، من أهل الغرب . وإن كان علم التاريخ الجغرافي قد ازدهر بمجـــيء فولكر الشارتري Fülcher of Chartres أو وليم الصوري William of Tyre وإذا كانت كتب القانون قد ألفت بفضل حنـــا الابليني John of Abelin او فيليب النافاري Philip of Novara فهذا كل ما يجدر ذكره من المآثر وليس ثمّ غير ذلك .

لذلك لم يتعلم لاتين مملكة اورشليم في ميدان الحضارة ، الا القليل من مدنية الاسلام أما مـــا كان لديهم فلم يتقدموا به إلى درجة التأثير بها على الغرب ، والواقع أن الخدمة الكبرى التي اسدتهـــا الحروب الصليبية لتطور مدنية الغرب لم يكن سببهـــا احتكاك المسيحية اللاتينية بمسلمي الشرق ، بقدر مـــا كانت اهميتهـــا في إنشائهـــا علاقات مع امبراطورية بيزنطية ومسيحيي اليونان . كان الانفصال التـــام قائماً بين الكنيسة والامبراطورية الغربيتين وبين الكنيسة والامبراطورية الشرقيتين ببرزخ من النسيان قبيل الحروب الصليبية . وحدث احياناً أن رحـــل رجال امثال لوتبراند القرموني Luitprand of Cremona في سفارة شهيرة لأوتو الاول [٣١] إلى القسطنطينية في ٩٦٨ م أو شوهد رسل (ليون التاسع [٣٢] في شوارع القسطنطينية ١٠٥٤ م ولكن العلاقـــات بين الغرب والشرق ظلت منسية نادرة عدة قرون ، وأضحى لاسرة كومنيني بعد السنة ١٠٩٦ [٣٣] علاقات دائمة بالدول الغربية واستقر اللاتين عقيب السنة

---

٣١) ويلقب بالاكبر ٩١٣ – ٩٧٣ : امبراطور الدولة الرومانية المقدسة (المعرب)

٣٢) البابا ليون التاسع ١٠٤٩ – ١٠٥٤ (المعرب)

٣٣) كان مؤسس هذه الاسرة المالكة على امبراطورية الشرق هو الامبراطور اسحق الاول (١٠٥٧ – ١٠٥٩) الملقب كومنينس (*Comnenus*) ومنه اشتق اسم الاسرة (المعرب)

١٢٠٤ في الامبراطورية الشرقية . وإننـــا لنجد في القرن الثالث عشر وليم الموربيكي William of Moerbeke اسقف كورنث الفلمنكـــي يـــترجم مع وصيفه هنري البرابنتي كتابي : (السياسة والاخلاق لأرسطو) بمعونـــة القديس تومـــا ؛ ففتحا بذلك للغرب طريقاً اخرى إلى الفلسفة اليونانية غير طريق اسبانيا . وفي نهاية القرن الرابع عشر وخلال القرن الخامس عشر حمـــل علماء بيزنطية إلى ايطاليا تراث العلم اليوناني بكامل ثروته . فزودا عصر النهضة الايطالية بموادهـــا الأولية ولم تكن القسطنطينية واقعة على طريق الصليبيين الرئيس ، على أن الصليبيين كانوا يبعثون إلى الغرب من القسطنطينية بالسفن التجارية الموقرة بضائع وسلعاً .

الا ان الصليبيين كان عندهم سبـــل أخرى للتأثير في تطور اوربا الغربية نجمت عن توجيه اهتمامهم إلى سورية وأعانهم على ذلك دولة اللاتين التي اسسوها هناك . وبامكاننا الرجوع باديء ذي بدء إلى الشواهد اللغوية . اعني الكلمات الغربية التي تسربت إلى لغة العرب والكلمات العربية التي دخلت لغات اوربا . ويورد (بروتز) نماذج على ذلك منها (انْبرِور imperator) [٣٤] و (قَسْطل castellum) و (بُرْج burgus) و(غِرْش grossus) اما الكلمات العربية التي دخلت اللغات الغربية فأكثر بكثير وليس علينا الآن الا أن نتأمـــل (jar, dragoman, caravan) [٣٥] في لغتنـــا الخاصـــة . أما إذا جئنا اللغات الأوربية ذات الاصل الروماني التي استمدت من لغة العرب رأساً (حال اننا استمددنا اكثر كلماتنا عن طريق هذه اللغات) فسنجد قائمة طويلة جداً من المصطلحات العربية التي دخلت على الغـــرب واليك طائفة

---

٣٤) كلمـــة لاتينية معناها الحاكم القاسي ، ومنها اشتق لفظ الامبراطور (*emperor*) قس عليها الكلمات الاخرى فهي لا تينيـــة الاصل ايضاً . (المعرب)

٣٥) اصلهـــا العربي بالترتيب : كروان (من كرى ومكار) وترجمان ، وجرة، وشروب . (المعرب)

من الشواهد : (douane, chébec, felucca, gabelle) [٣٧] ومثلها كثير . ولكن تعرض لنا صعوبات فيلولوجية واضحة في رد هذا الدخيل من الكلم إلى الامكنة التي تسربت منها الينا . لم تكن فلسطين المكان الوحيد ولم تكن الحروب الصليبية العصر الوحيد الذي تم فيه ذلك ومن المحتمل أن تكون صقلية واسبانيا مكانين آخرين جرى فيهما هذا الاستمداد اللغوي كما ان اتصال الغرب الدائم خلال اجيال سحيقة بالعالم الناطق باللغة العربية من جهتي سويس الشرقية والغربية عن طريق التجارة والقرصنة كانت ايضاً ظروفاً زمانية ومكانية محتملة لهذه الاستعارة . الحق يقال أن الغرب مـا زال يستخدم مصطلحات عربية في عالم التجارة أمثال(bazaar, [٣٨] zechin, tariff, dinar) وكذلك ثبتت مصطلحات بحرية ملاحية أمثال admiral, arsenal [٣٩] وبقيت مصطلحات منزلية مثـل (sofa, mattress, carafe, alcove) [٤٠] كذلك هذه المصطلحات (amulet, elixir, julep, talisman) [٤١] وثم بعض اسماء لآلات الموسيقى (lute, nakar .) [٤٢] هذه الكلمات ما زالت

---

٣٧) اصولها العربية بالترتيب : ديوان وشبك وفلكة وجعلة (وهي الحصة ويراد بهذه اللفظـة في اللغات الغربية ضريبة حكومية معينـة) (المعرب)

٣٨) الاصل فارسي اكثر مما هو عربي (المؤلف) في لغة العامة عندنا . — البزار (في اللغة هو بائع البذور او التوابـل— وربما كان الاشتقاق من المفهوم العربي لا كمـا ذهب اليه المؤلف) زكين تاجر القطن ، تعرف . دينار (المعرب)

٣٩) اصلها العربي امير الماء ، ودار الصناع او « الصناعة » (المعرب)

٤٠) اصلها العربي (صفة) بتشديد الفاء وبضم الصاد — اي الدكة او التخت — مطرح ، غرافة — من فعل غرف — القبة : قبة الحجرة وسقفها العالي (المعرب)

٤١) وأصلهـا بالترتيب : الملاءة ، الاكسير ، جلاب — فارسية مؤلفة من كلمتين جل : ورد وآب : ماء ، — طلسم — فارسية طلسمان — (المعرب)

(٤٢) عود ، نقارة (المعرب)

تستعمل او انها كانت دارجة الاستعمال فيما مضى . ولكن قبل أن نعزو وصول هذه المصطلحات إلى الحرب الصليبية ، علينا أن نتثبت من زمان ومكان دخول هذه التعابير ونتحراها بكل دقة . كانت الحروب الصليبية سلسلة حروب . حروب وجهت إلى اعداء جدد باسلحة جديدة وبخطط عسكرية جديدة احياناً . لذلك يحق لنا أن نجد لهذه الحروب بعض الأثر في تطور فنون الحرب في الغرب. ويعتقد بعض الكتاب ان بناء القلعة الململمة(concentric castle)(٤٣) الذي شاع في انكلترا اثناء حكم الملك ادورد الاول (٤٤) ما هو الا نموذج مأخوذ من فن العمار العسكري للملكة اللاتينية في بيت المقدس . وهؤلاء بدورهم قد ساروا في عمارتهم على نهج التعديلات التي ادخلتها العرب على القلاع البيزنطية فقد عرفوها ووجدوها في سوريا . وباتباع هذا النسق من التحليل يرى بروتز انه « في الوقت الذي سار الاسلوب العام للدفاع الحربي في فلسطين على نهج الدفاع والتحصينات النورمانية (كتلك التي نراها مثلا في اراضي المستنقعات بويلز وجنوبي ويلز) فان التأثير العربي يمكن اقتفاء خطاه في اشكال الاقسام المختلفة للقلاع الضخمة مع زيادة اقسام ما كان يعرفها الغرب من قبل في العمار الحربي القديم ، وفي عدد من انظمة وقواعد جديدة دفاعية استلزمها فن حركات الحصار العسكرية الذي تقدم في الشرق كثيراً (٤٥) وتبعاً لذلك يعزو (بروتز) إلى المصادر العربية استخدام الحيطان المزدوجة (وهو اساس طراز القطعة الململمة) وتشييد برج اضافي

٤٣) هو طراز من القلاع العسكرية متحد المركز . يؤدي جميع ابراجها الفرعية وابهائها الدفاعية إلى نقطة في وسط القلعة ، سميكة الجدران جداً لا منافذ فيها الا شقوق ضيقة ليتسرب اليها الهواء وبعض النور ويكون مدخلها من الاسفل احياناً (المعرب)

٤٤) كان ادوراد الأول ملك انكلترا (١٢٤٩ – ١٣٢٧) احد الملوك المسيحيين الذين ساهموا في الحروب الصليبية (المعرب)

٤٥) راجع ص ١٩٤ من كتاب بروتز السالف ذكره . (المؤلف)

او نقطة حصينة بين الجدارين المزدوجين[٤٦] ويرى ايضاً في قصر (غيّار) الشهير (Château Gaillard) الــذي بنــاه ريتشارد الاول في فِكسن (Vexin) بعض دلائــل وسمات لا جدال فيهمــا تشير إلى تأثير الشرق . راح المؤرخون – من جهة اخرى – يؤكدون بان القلعة الملمومة قضت فترة تطورها في الغرب ونقلهــا الصليبيون إلى الشرق . وممــا لا نزاع فيه ان المهارة الهندسية التي اظهرها مغامرو النورمان والتي تجلت في اوربا الغربية قبــل أن تتجلى في فلسطين ، كانت قمينة ببلوغهــا هذا الشأو من التقدم ، في منابعهــا الخاصة دونمــا تأثير خارجي ولنا ان نؤكد بكثير من الاطمئنان ان الحروب الصليبية قد ساعدت على إنمــاء حركات الحصار العسكري ، واستخدام طريقة اللغـم ، وحفر الخنادق الكاذبة واستخدام آليات المهداد كالمنجنيق والكباش وربمــا استخدام مختلف اشكال النيران وآلات قذف اللهب . ومع ذلك فربمــا كان الاصل هنا بيزنطياً أكثر ممــا هو عربي . وربما لم يكن المهندس الألمعي الذي استقدمه فردريك الأول من الأرض المقدسة إبــان حصار كريما Crema ١١٥٩ م من تلامذة العرب بــل من تلاميذ اليونان . وقيل أن القوس المصلبة cross - bow جاءت من الشرق ، وعزي استخدام الدرع لحماية الفارس وجواده إلى تأثير الحروب الصليبية . وعزي كذلك استخدام بعض الوسائد والثياب القطنيــة الواقية تحت الزرد . وعلى كــل حال فان الفارس الفرنكي تعلم اثنــاء حربه في فلسطين، استعمال الكوفية العربية وقاءً لرأسه وعنقه من حرور شمس الشرق، واستخدام الحمام الزاجل لنقل المعلومات العسكرية انمــا هو اختراع عسكري أُخِذَ عن العرب ويحق علينــا القول

---

٤٦) والبرج المتقدم من هذا النوع على الاخص إذا كان مشيداً فوق المدخل او الباب يعرف باسم الباربيكان (*barbican*) وقيل ان هذه الكلمة قد تكون مشتقة من كلمات عربية او فارسية ، ومعناها : بيت على جوار او غرفة المدخل – استخرج هذه الكلمة من اي قاموس انكليزي حديث ، وتأملها (المؤلف) .

بأننـــا كثيراً ما عثرنا على تنويهات بهذا في اخبار صقلية النورمانية ومن المحتمل أيضاً إنّ عادة الاحتفـــال بالانتصارات العسكرية بطريق التنويرات ونشر السجاجيد الملونة على الجدران والنوافذ (وإن كانت عادة طبيعية ملازمة لما جبلت عليه تربة البشر من نوازع وعواطف) فربمــا كانت من جملة ما استقينـــاه من المصدر نفسه . ومناورات الكر والفر والطعان والضرب المشابهة لالعاب (الجريد) [٤٧] ربمـــا تم نقلهـــا بوساطة الصليبيين . ويمكن أن يعزى كثرة استعمال البيارق والرنوك إلى احتكاك بالبائـــل العربية في سورية .
وقد ثبت انهم استعملوا بعض اشكال من الرايات الحربية كالنسر ذي الرأسين وزهر الزنبق والمفتاحين (شكل١٠) وكثير من رسوم الرايات فضلا عن تسميات لبعض الرايـــات لا يمكن تجاهلها مثل (الآزور azure) وربما (غوليس [٤٨] gules) إذ يبدو انها استمدت من المصدر نفسه . ويبدو أن توحيد شارات الدروع في اوربا سببته الحروب الصليبية . كذلك رسوم الرايات الخاصة ورموزها وانظمتهـــا المتشابهة في جميع دول اوربا .

اما التجارة فقد اقتفت آثار الحروب اثناء الحروب الصليبية . إذ سرعان مـــا احتثّ التاجر الايطالي خطاه في اعقاب الفارس الفرنجي . ولم يقتصر امر التجارة على محاصيل سوريا وسلعها بل تعداها إلى سلع الهند والصين وجزر البهار ومنتجاتها . والحق يقال ان هذه التجارة الشرقية لم يكن بد من ظهورها واتيان ثمارهـــا — على نحو ما المعنـــا اليه — حتى وإن لم تنشب الحروب الصليبية وعلينـــا أن لا نغفل بأن البندقية كانت اسبق إلى شق طريقهـــا للاسواق الشرقية عن طريق بيزنطية قبيل اندلاع الحروب الصليبية . بعدة سنين . لذلك

---

٤٧) الجريد « الجريدة » وهي قضبان النخل المجردة من خوصها وللعرب فيها العاب كثيرة (المعرب)

٤٨) « آزور » مأخوذة من لازورد ، وكليس مأخوذة من لفظة كل (بالكاف المعجمة الفارسية) ومعناها الوردة أو الزهرة (المعرب)

ليس لنـــا أن نعزو إلى الحروب الصليبية وحدها (لا يمكننا ان نعزو اليهـــا وحدها على كـــل) فضل تزويد اوربا بكل السلع التي وردتهـــا خلال القرون الوسيطة أو أن نقلدهـــا فضل ازدهار الاسواق وطرق التجارة الغابرة الذي عقب ذلك التموين السلعي . ولا يمكننا في الوقت نفسه ان ننكر مطلقـــاً الحافز التجاري العظيم الذي تسبب عن استقرار اللاتين في سوريا والمعرفة بكل منتجاتها وصناعتهـــا المحلية ، وبالاقتراب (الذي اعقب هذا الاستقرار) نستطيع ان نفسر انتقال نباتات وحبوب واشجار شرق البحر المتوسط إلى اصقاعه الغربية . كالسمسم والخرنوب والذرة والأرز والليمون والبطيخ والمشمش والثوم shallot [٤٩] وبالطريقة عينها يمكننا ان نفسر انتشار الأزياء والصناعات الجديدة في الغرب . أو على الاقل الطراز المتقدم للثياب والازياء القديمة كالملابس القطنية وانواع الموسلين الـــوارد من الموصل . والبلدكان الوارد من بغداد . والدمقس والدمشقيات الـــواردة من دمشق والسميتي samite والدمياطي dimities والديابر diapere مـــن بيزنطية والاطلس atlas العربي — وهو نوع من الحرير الساتان يصنع في الشرق أيضاً والسجاد البسيط والبطاطين من الشرق الادنى واواسط آسيا وادهان الصقل وألوان جديـــدة كالقرمز والليلق carmine, lilac (هما عربيتان كمـــا يدل اللفظ) والاصباغ والادوية والتوابل والعطور كالشبّ والعُود والقرنفل واللُّبان والنِّيل وخشب الصَّنْدل وبعض الأزياء من الثياب والالبسة امثال الكاملت camelt [٥٠] والجوب jupe (من الجبة العربية) والمساحيق ومرايا

---

٤٩) الثوم بالفرنسية *Echalot* هو بالاتينيـــة *Allium Ascalonicum* ومعنـــاه البصل العسقلاني (المؤلف) .

٥٠) « الكاملت » نوع من اللباس يتخذ من وبر الجمـــال كما ينم عنه اسمه ، او ربمـــا كان من الحملـــة او المخمل . و « الدايميتي » نسيج يوناني كما ينم عنه اسمه الا غريقي ومعناه النسيج=

الزجاج والاواني الخزفية الدقيقة الصنع والزجاج والذهب والفضة وشغل المينا حتى السبحة نفسهـــا التي قيل بأن مصدرها البوذيون وانها وصلت عن طريق سوريا إلى اوربا الغربية .

هذه التجارة الشرقية التي نشطتها الحروب الصليبية — إن لم نقـــل اوجدتها — فأضحت مركّزة بالدرجة الأولى في سوريا خلال القرن الثاني عشر ، لم يكن تأثيرها قليلا على تقدم مسالك التجارة وظهور وسائل جديدة للتبادل المالي والشؤون المصرفية . ولقد تغذى بهذه التجارة الشرقية الطريق التجاري الأوربي العظيم في العصور الوسطى — المبتدىء بالبندقية والممتد عبر ممر بْرِنَر ثم كولمبيا ومنهـــا يتفرع فيعرج فرع على لوبيك lubeck الواقعة على البلطيق وينتهي فرعه الثاني ببروغس bruges الواقعة على بحر الشمال وكان هذا الطريق مزدحماً — على طوله — بمدن القرون الوسيطة واتحاداتهـــا الصناعية ، ولومبارد على امتداد نهر الراين والفلاندرز وشمـــال فرنسا . وفي الوقت نفسه كان ثمّ خط ملاحة ثابت منتظم عبر البحر المتوسط لشحن البضاعة أو لنقل الحجاج . واضحت البندقية ومارسيليا مركزين لادارة هذا الخط الملاحي وانضمت الجماعات العسكرية إلى اصحاب السفن من المـــدنيين وشركات النقل البحري لتشغيل هذا الخط. واستدعت الحاجات المالية لتجارة الشرق البعيد وتنقلات الفرسان المبحرين منهم والمقيمين في سوريا إلى ايجاد نظام اوراق الائتمان والتحاويل المالية . ونشأت المصارف والبيوت المالية (في جنوا وبيزا وسيينا) وامتدت فروع لها ونشرت اعمالها عـــلى طول ساحل الشام وقد صارت الجمعيات العسكرية وخصوصاً جماعة التمبلارية

=ذو الخيط المضاعف ويستعمل للستائر والأغطية . وعن الخطط للمقريزي : « الدمياطي هو الأقمشة الحريرية والكتانية المقصبة » و « الديابر » هو نسيج ذو زخارف منشورية ومعينية ومصدره بيزنطه . و « الساميت » نسيج حريري اغريقي كما ينم عنه اسمه (المعرب)

الدوّية (بمثابة مصارف للايداع والتسليف . ومن النتائج المالية العجيبة التي تمخضت بها الحروب الصليبية في شؤون التجارة الشرقية التي شجعتها ؛ هي أن سك البنادقة في الارض المقدسة عملة نقدية اسموها (بيزنطيني ساراسيناتي byzantini saracenati) وهي سكة ذهبية) ربما كانت اقدم ما ضرب اللاتين من مسكوكات ثمة وذلك للتعامل بها مع الاقطار الاسلامية الداخلية وظلت هذه المسكوكات محلاة بزخارف عربية وبآيات قرآنية قصيرة واشارات إلى النبي (ﷺ) وتاريخ هجري بقيت حتى السنة ١٢٤٩م وبعدها اعترض عليها البابا انوسنت الرابع وإننا لنستطيع الوقوف على مسكوكات من الشكل نفسه حتى في جنوبي فرنسا يرجع بها العهد إلى اواخر القرن الثالث عشر .

اما عن البناء والفنون والصناعات اليدوية وعن شؤون الحياة اليومية والمجال المنزلي بصورة عامة ، فبوسعنا أن نتأثر خطى بعض الآثار التي انتقلت من الشرق إلى الغرب خلال القرنين اللذين تصرما بالحروب الصليبية . وربما لم نجد والحق يقال الا القليل من الاسباب التي تجعلنا نظن بأن الحروب الصليبية كانت ذات تأثير كبير في تطور بناء القلعة الملمومة بصورة عامة في بلاد الغرب . ليس ثمّ طابع معين يميز العمارة العربية عن غيرها فهي تختلف باختلاف البلاد نظراً إلى طرز الأبنية المحلية التي يجدها العرب الفاتحون في البلاد المحتلة أمّا التماثل المشترك الوحيد في الأبنية فهو وجود الزخارف والنقوش . استعمل العرب شكلا من القوس العماري المدبب لكنه كان يختلف عن القوس الذي نجده في العمار القوطي.واستخدموا زخارف هندسية لأن دينهم كان يمنعهم من نقش اشكال الحيوانات على أنه لا يوجد دليل بأن زخارفهم هذه كانت ذات تأثير على ما يدعى بالتريفول والسنكفويل [٥١] في العمار القوطي

---

٥١) التريفويل *trefoil* مصطلح يطلق على الأوراق النباتية المثلثة في الغصن الواحد ، والسنكفويل *cinguefoil* على المخمسة منها (المعرب)

اثناء مرحلته الهندسيّة (٥٢) وتكاد تكون بقايا العمـــار الكنسي في الارض المقدسة غريبة الاسلوب تمامـــاً ، شيدت وفق قواعد البناء الغربي وعلى غراره . وغاية مـــا يمكن قوله ان عوامل محلية أدت إلى تحليات ومزخرفات. كأن أدى عدم وجود الخشب في فلسطين مثلا — إلى بناء الكنائس بسقوف مسطحة او كأن يدخل البناؤن والمعمارون — خاضعين طبعاً لتأثير التقاليد الشرقية — تحريفاً أو تغييراً طفيفـــاً في بناء شيد وفقاً للذوق الغربي بصورة عامة (٥٣) . اما الزخرفة العربية على الجدران فهي مغربية لا تمت إلى الشرق بصلة . وإن كانت الحروب الصليبية قد ادخلت عناصر جديدة في فنون النحت الغربية فهي بيزنطية لا عربية بالاحرى . أمـــا الرسم فليس فناً عربياً اما الفسيفساء (الموزاييك) في كنائس الارض المقدسة فقد كان مستمداً من البيزنطيين . واننـــا لنستطيع اقتفاء التأثير العربي في مجالات اضيق مما ذكرناه سابقاً أعني في دائرة الفنون المنزلية والصناعات اليدوية ، فهنـــا يتضح اكثر من أي مكان آخر . ففي مملكة اورشليم نفسها كانت بيوت الاقطاب والزعماء تبنى على الانماط العربية فيمـــا يختص بباحة الدار والدكاك ، والفسقية وفي خرير المياه الجارية . وسارت الزخرفة الداخلية وتوزيع الاثاث في الدار على هذا المنوال ، ولا سيما في البندقية . وربما كان لقطع العاج والمينا والسجاد والبسط الشرقية التأثير نفسه في الغرب بصورة عامة . وقد نتحدث فيمـــا بيننا عما يدعى بالنمط

---

٥٢) يخيل لبروتز (ص ٤١٩ من كتابه السالف لكنه يقر بأن قوله لا يعدو الظن) أن التأثير العربي قد يكون له الفضل في كسب الغرب القوس المعماري الشبيـــه بحدوة الحصان او القوس نصف الدائري المركب من عدة اقواس صغيرة . وهكذا كانت ممهدة لا بتداع (السنكفويل) والاشكال المختلفة من الزخرفة الهندسية (المؤلف) .

٥٣) ان الكنائس ذوات الهياكل المستديرة (ما يزال في انكلترا اربع منهـــا ويمكن ترسم آثارهـــا في فرنسا وإسبانيـــا) انما هي تقليد دقيق (لكنيسة القبر) والمعبد في القدس . كما نجده ايضاً في الـــدهاليز *labrinths* أو (مسالك القدس) عند بعض الكنائس الغربية ، أو في الاورشليمات لدى بعض مدن العصر التيوتوني في بروسيا (المؤلف) .

العربي rebesk ، arabasq في العصور الوسيطـة باللهجة والنغمـة التي نتحدث عن النمط الصيني chinoiserie (عندمـا نشير إلى ورق تزيـين الجدران ودهـان الاخشاب اللماع lacquers [٥٤] والاثـاث في القرن الثامن عشر) وربمـا حدث فاشترى الحجيج صناديق وعلباً عربية لحفظ التذكارات المسيحيـة والعود بهـا إلى أوطانهم وربمـا آبوا إلى بلادهم مرتدين الاحزمة الشرقية ذات الصرر والجيوب كيمـا يتقلدونها في مدينة باريس ولعلهم نقلوا إلى الغرب (النفير) المصنوع من قرن الحيوان الذي رددت اجواء سوريا صداه في زمن ما .

ولقد كان عرب اسبانيا بالاحرى ، لا عرب الشرق هم الذين اهدوا إلى الغرب اللاتيني هباتهم النفيسة في ميادين العلم والفلسفة . على أن الشيء الذي لا يمكن نكرانه بحال ، أن بعض المعلومات الرياضية انتقل من الشرق فأثر عن(ادلارد الباثي)الذي درس فلك العرب وهندستهم ، انه سافر إلى مصر وآسيا الصغرى فضلا عن اسبانيا في غضون النصف الاول من القرن الثاني عشر . وأثر عن (ليوناردو فيبوناشي) اول عالم جبري بين النصارى ، المعاصر لفردريك الثاني وهو الذي قدم له هذا العالم رسالته الجبريةفيالاعدادالتربيعية (Square Numbers) بأنه زار مصر وسوريا كذلك . ربما كان الفضل في انتشار الارقام العربية والحساب العربي إلى نشاط التجارة مـا بين سوريا والمرافيء الايطالية . وكان الطب كالرياضيات من مفاخر العلوم العربية واركانه الوطيدة . على ان موطن المفاخر العلمية العربية ومصد اشراقهـا كان اسبانيا اكثر من سوريا . وغاية مـا يمكن أن نجيزه في موضوع تأثير سوريا هو أن

---

٥٤) والعامة عندنا يسمونه (كوملكه) وهو الدهان الشائع في تلميع الخشب وصبغه . والمعلوم انه عبارة عن قشور شفافة مأخوذة من الشجرة المعروفة باسم (لا كيه) هذه القشور قابلة للذوبان بالكحول وهو صناعة صينية بالاصل (المعرب)

نقلدها فضل قيام مدرسة الطب في مونبلليه بسبب التجارة الي كانت قائمة آنذاك بين فرنسا وساحل سوريا .

ان الفلسفة المدرسية التي ظهرت في القرن الثالث عشر كما وجدنا — لا تدين بشي مباشر إلى فلاسفة العرب الشرقيين . فما اتخذته من مواد الدرس هو مواد « ارسطية العرب الاسبان » او « المعرفة بارسطو » التي وردت مباشرة من بيزنطية (٥٥) دعك من المؤثرات المسيحية وتعاليم القسس التي دخلتها . ولعل تأثير الحروب الصليبية في الفنون وأدب الكتابة كان اعمق نفوذاً وأبعد غوراً . فمن احدى نتائجها المباشرة ، قيام دراسة اللغات الشرقية . ونستدرك فنقول ان فضل هذه الظاهرة على كل حال لم يكن راجعاً إلى الحروب الصليبية نفسها بقدر ما كان راجعاً إلى البعثة الآسيوية التي وردت على اعقاب تلكم الحروب واستهدفت هداية المغول إلى دين النصرانية . وكان رايموندس للوس Rymondus Lullus القطلاني اول من حاول أن يرقى بسير الدراسات الشرقية لجعلها اداة حرب صليبية سلمية تستخدم فيها اسلحة روحية فقط. ولذلك أنشأ في العام ١٢٧٦ معهداً رهبانياً لدراسة اللغة العربية في مدينة (ميرمار) . وفي السنة ١٣١١ قرر مجلس (يفينا) ربما بايعاز من رايموندس — ان ينشيء في جامعات (باريس ولوفان وسلامنكا) كراسي استاذية للغات الشرقية (العربية والتترية) ولكن روحه الوثابة التي لا تعرف الكلل دفعته إلى الاستشهاد في تونس العام١٣١٤ ولمّا تتمخض مجهوداته إلاّ بالقليل . وظلت رسالة الشرق الذي حمل رايتها وناضل عنها نضالاً عنيداً باقية . لكنها خلفت — كما سنرى — نتائج في نمو الدراسات الشرقية اقل مما خلفته في

٥٥) يرى البروفسر سي . اج. هاسكنز *C. H. Haskins* في مقال له عن (العلوم العربية في اوربا الغربية) نشر بمجلة (ايزيس) مجلد ٧ ص ٣ : ان الحروب الصليبية على أهميتها ، كان نصيبها في نقل العلوم العربية إلى اوربا المسيحية تافهاً بشكل عجيب (المؤلف) .

تقدم المعلومات الجغرافية [٥٦] وقدمت الحروب الصليبية في ميدان الأدب تراثاً عظيماً . كانت هي بحد ذاتهــا قصيدة رائعة تغنى بها كثير من شعراء الغرب . ومن بين مؤرخي الحروب الصليبية الغربيين يأتي ذلك النورماندي الفخور الذي ألف كتاب (تاريخ الفرنجة Gesta Francorum ووصف الحروب الصليبية الأولى ، ثم يليه فولكر الشارتري [٥٧] الذي وصف في كتابه « تاريخ الحج « Historia Hierosolymitana » الحرب الصليبية الأولى فضلا عن تاريخ مملكة اللاتين حتى وصل بحوادث كتابه إلى العام ١١٢٧. ويبذ سائرهم في هذا المضمار(وليم الصوري) رئيس اساقفة صور الذي صار كتابه « تاريخ ما تم من حوادث في بلاد مــا وراء البحار » ذو الثلاثة والعشرين جزءً التي تصل بالاحداث إلى ١١٨٣ وبترجمته الفرنسية — من اعظم الكتب المعروفة في العصور الوسيطة ومن اهم مصادر قصة الحروب الصليبية . ولم يقتصر وليام الصوري [٥٨] على تدوين اعمال اللاتين وحدها بل تعداها إلى تآليف أخرى عن « امراء المسلمين منذ ظهور النبي » ومع أن كتابه هذا الاخير مفقود وقد وصلنــا منه نتف ومقاطيع بفضل كتاب وليم الطرابلسي « ابحاث في احوال العرب Tractatus de Statu Saracenorum » الـــذي الفه

---

٥٦) ان الاستاذ هاسكنز المشار اليه معتمداً في ملاحظاته على(كتاب رايت *G. K. Wright*) الموسوم بـ « المعلومات الجغرافية في عهد الحروب الصليبيـــة » ، يرى انه إذا كانت الحروب الصليبيـــة قد وسعت المعلومات الجغرافية عند اوربا المسيحيـــة ، فقد تم لها ذلك عن طريق التجارب العملية والممارسة اكثر مما تم عن طريق وقوفها على كتابات جغرافيي العرب الذين جهلهم الغرب خلال العصور الوسيطـــة (المؤلف) .

٥٧) *Fulcher of Chartres* (١٠٥٩ — ١١٣٠) احد مؤرخي الحروب الصليبية ممن رافقوا الحملـــة الأولى (المعرب) .

٥٨) كان وليم الصوري (١١٣٠ — ١١٩٠) احد كبار الشخصيات الدينية اللاتينية في الشرق ومن مؤرخي الحروب الصليبية (المعرب) .

في العام ١٢٧٣ . كل هذا ارانا مدى معرفة المؤلف بالعالم العربي ونفاذ بصيرته في طباع المسلمين وعاداتهم . ومن بين المصادر العربية الموثوق بهـا ترجمة حياة « اسامة بن منقذ » احد امراء شمالي سوريا ، استعرض بهـا تاريخ القرن الثاني عشر . وثم ايضاً (تاريخ الاتابكة) لابن الأثير (وحياة صلاح الدين الأيوبي) لبهاء الدين . على كل حال فان قصة الحروب الصليبية مـا عتمت في الغرب أن تحولت من تاريخ إلى جملة اساطير . وقد سبق لنا فاوضحنـا ذلك في كلامنا عن « نشيد رولاند » الذي كان ثمرة لمسرحية ذات خيال شعريّ وصفت الحياة العسكرية لحروب الحدود بين المسلمين والنصارى شمال اسبانيا في اوائـل الحروب الصليبية (ربما خلال الحروب الصليبية الأولى) . هذه المسرحية الخيالية خلقت اسطورة سارت مع التاريخ جنباً لجنب لكن وقائعهـا ناقضت وقائعه على خط مستقيم ، تعود لتظهر مرة اخرى ألسنة ١١٣٠ في « نشيد الضعفـاء Chanson de Chétifes » وفي « نشيد انطاكية Chanson d'Antioche » السنة ١١٨٠ مُشيدة ببطرس الناسك وبغودفري البـويوني « Godfrey of Boullion كما اشاد نشيد رولاند ببطله « رولاند واوليفر » . والدور الذي لعبته هذه الاناشيد اثناء الحروب الصليبية هو دور تسرية وتسلية . كمـا انها نشرت ضوءها الباهر مرة هنا ، ومرة هناك ، فخلقت احدوثة تاريخية شهيرة ظلت تحتـل مكان الحقيقة قرونـاً عدة ، عبرت الازمان مع التاريخ حتى وصلت « تاسو » [٥٩] فألبسها البطولة المأثورة عن القرن السادس عشر في ملحمته الشعرية « اورشليم المحررة » Gerusalemme Liberata وليس ثمّ خير منهـا في تعريفنا بالمدى الذي وصل اليه مفهوم الحروب الصليبية البعيد عن الحقيقة في حبّة فؤاد اوربا .

---

٥٩) *Torgato Tasso* (١٥٤٤ – ١٥٩٥) من شعراء النهضة الايطالية (المعرب)
انظر : فون سيبل *Geschichte des ersten Kreuzzuges , Von Sybel* (المؤلف)

كان « تاسو » كما يقول دي سانكتز de Sanctis يريد ان ينظم ملحمة تذكي بطولتُها الخارة نارَ الحماسة الدينية . فما هذا الذي جاءنا به ؟ جاءنا بعالم يعج بالفرسان والخيال والرومنتية ، بجو يسوده مختلف النوازع وضروب الشهوات [٦٠] » لم تصر الحروب الصليبية في الواقع من المواضيع العظيمة التي تناولها الشعر في القرون الوسيطة كموضوع « شارلمان » او « موضوع بريطانيا والمائدة المستديرة [٦١] » . ان الحروب الصليبية قد اثرت حقاً في هذين الموضوعين فجعلت شارلمان مجاهداً صليبياً قام بعدة رحلات إلى القسطنطينية وانه وصل حتّى اورشليم . اما شعراء المدرسة الآرثرية [٦٢] فقد عرفوا كيف يكسون قصتهم مسحة صليبية . وما كانت قصيدة موت آرثر Morte d'Arthur لتتبوء مكانتها الادبية لو لم تشغل الحروب الصليبية حياة القرون الوسيطة . ولكن ليس ثم شيء مستمد من الاسلام فيه هذا الطابع والتأثير . فالموضوع بابسط عبارة هو قتال المؤمنين الكفرة بخير ما يمكن من القتال في عصر قتالٍ . هذا المبدأ عتيق يرجع إلى فترة الحروب

---

٦٠) ج٢ ص ١٦١ و ١٦٨ من كتاب دي سانكتز « قصة الادب الايطالي » *Storia della Letterature Italiana* (المؤلف) .

٦١) يرى بروتز (ص ٤٩٤ : المرجع السالف) ، ان كتاب اعمال الفرنجة الذي الف في مفتتح الحروب الصليبية والذي اثار في حينه اهتماماً وحماسة عظيمين ، فقد هذا الاهتمام في ختام الحروب الصليبية . اما (جمس الفيتري ت ١٢٤٠ م) مؤلف مجموعة قصص وامثال فكان يرى ان كل شيء هو قمين بالاهتمام عدا ما يمت إلى الحروب الصليبية (المؤلف)

٦٢) ظهرت قصص بطولة هذه الشخصية في المصادر الغالية البريطونية والسكسونية وفي اشعار بلاد ويلز وانحدرت إلى القرون الوسطى فكتبت عنها القصص والملاحم والقصائد المشيدة بالنخوة والشجاعة والاخلاص بحق ذلك الملك الخرافي واجملها قصة موته ومائدته المستديرة التي يجتمع حولها فرسانه، باقلام ما لا يحصى من الشعراء والكتاب الأوربيين لم ينقطع سيلهم حتّى القرن القرن التاسع عشر (المعرب)

التي نشبت بين بلاد الفرس وبلاد طوران . والاسلام نفسه لم يضف إلا القليل إلى منظومات الشعر في القرون الوسيطة باعتباره شيئاً تقمص الكفر فيه . ولعل مؤلف القصة الشعرية « أوكاسين (القاسم) ونيقوليت Aucassin and Nicollette » (٦٣) كان قد استعار شيئاً من المصادر العربية . فان كان قد فعل ذلك فلا علاقة لاستعارته هذه بالحروب الصليبية (٦٤) كذلك ان كان ثمّ ظل من الحقيقة في النظرية العربية التي تنسب إلى الشرق اصل الموشحة الغنائية المسماة « sonnate » فضلا عن الشعر الغنائي الموزون المقفى lyric فلا علاقة للحروب الصليبية بهذا أيضاً وانما هو جزء من التاريخ الصقلي حتى ليكاد يخيل لنا ان قصة طروادة ووقائع الاسكندر امدتا شعراء القرون الوسيطة بصورتهم عن الشرق اكثر مما امدتهم بها الحروب الصليبية . والمرء هنا ليتعجل في القول مجازفاً ان الحروب الصليبية لم تصر المادة الحقيقية للرواية الغربية الا في ايام وقائع قصتي « الكونت روبرت اوف باريس ، والطلسمان (٦٥) ولقد صارت الوقائع المستقاة من تلك الحروب (هذا ان لم تكن الحروب نفسها هي المواضيع) جزءاً من التقاليد القصصية للقرون الوسيطة . فهنالك مثلا واقعة الفارس الذي سجن في ارض العرب ،

---

٦٣) قصة كتبت في القرون الوسطى عن حبيبين هما اوكاسين « القاسم » ابن الكونت بوكيه ونيقوليت حبيبته بنت ملك قرطاجنة حيث كانت سبيت وهي صغيرة . وبعد فراق ومشاق يلتقي الحبيبان ويتزوجان . ويقول مؤرخو الأدب ان اصل القصة عربي (المعرب)

٦٤) يخيل لبروتز « ص ٤٥٠ » ان مجموعة الحكايات الهندية (كليلة ودمنة) قد نقلتها الحروب الصليبية إلى اوربا الغربية . ويضيف إلى هذا ان شعراء التروفير في شمال فرنسا طعموا اشعارهم بعناصر عربية وكانوا بمثابة جسور عبرت عليها حكايات الشرق واساطيره إلى بوكاتشو وقصصيي ايطاليا (المؤلف) .

٦٥) روايتان للسير ولترسكوت الفهما على التوالي في ١٨٢٥ و ١٨٣٢ عن وقائع الحروب الصليبية (المعرب)

وتم انقاذه على يد اميرة عربية احبته . انك لتجد فيها الحبكة الفنية لزوج قطعت أملها بعودة رجلها الفارس الصليبي بعد طول حزن عليه ، فهمّتْ بزيجة اخرى فاذا بها تفاجأ بعودته وحده او بصحبة سيدة عربية . لكن هذا كلّه ، خيال روائي مُنمّق لا يمس جوهر الحروب الصليبية ولا يمت إلى حقيقتها بصلة .(٦٦)

(٣)

ألا دعنا من موضوع الأثر الذي احدثه الشرق الاسلامي في غربي اوربا عن طريق الحروب الصليبية أو من مسارب مملكة اورشليم (ان كان مسموحا لنا ان نطلق عليها هذا الاسم) فما زال ثمّ القضية الكبرى ، وهي تأثير الحروب الصليبية العمومي (بوصفها حركة واسعة لاوربا الغربية) في موطنها الاصلي ومركز نشوئها . هذه القضية تخرج عن موضوعنا . ولكن ربما ساغ لنا أن نضيف بعض الملحوظات القليلة كملحق او كخاتمة . لتثير بصورة خاصة الاهتمام بهذه النتائج العامة للحروب الصليبية التي أثرت في العلاقات بين الشرق والغرب .

أثرت الحروب الصليبية في مجتمع اوربا الغربية المسيحي بطرق أربع تقريباً : فبالدرجة الأولى أثرت في الكنيسة وفي البابوية على الاخص . وأثرت بالدرجة الثانية في الحياة الداخلية والاقتصادية لكل من تلك الدول العديدة ، ويمكننا أن نقتفي قسماً من هذا الأثر في عمل الحكومة (الحكومة الحقيقية ذات الكيان) كما يفصح عن نفسه وقسماً يتجلى في وضعية الطبقتين المدنيتين — طبقة الاشراف وطبقة العامة (طبقة العامة في المدن على الاقل) وبالدرجة الثالثة اثرت في العلاقات الخارجيةبين مختلف الدول ؛ ويمكن تتبع هذا الاثر

٦٦) ربما يجمل ان نضيف بأن موسيقى الغرب قد تأثرت إلى حد ضئيل بموسيقى الشرق اثناء الحروب الصليبية (المؤلف) .

في تغييرات توازن القوى فيمـــا بينها ، واهمية تلك العلاقات ، والتطور العام لمظاهر النظام والحكم لمجموعة دول اوربا . بالاخير أثرت الحروب الصليبية في العلاقات الأوربية مع قارة آسيا ، في اتساع دائرة المكتشفات وارتياد المجهول من البقاع منذ القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر وربمـــا كان علينا ان نقتفي خطى هذه المراحل المتعاقبة بحركة كانت الحروب الصليبية اول من اطلقتها في حلبة السباق .

الكنيسة والبابوية

كان الاكليروس (رجال الدين) طبقة دولية . والبابا الذي يقوم على رأسهم ، هو شخصية اوربية ذات خطر . فمشروع دولي اوربي كالحروب الصليبية ، كان مقدراً له بحكم الواقع أن يقع تحت الاشراف البابوي ، الاكليروسي وذلك لتثبيت الاتجاهـــات الثيوقراطية (٦٧) الــتي استبطنتهـــا الحركة الغريغورية وقد ارتأى البابا (اوربان) الثاني ان وظيفة البابا هي القيادة العليا للحرب المقدسة . لذلك وجب ان تكون الحروب الصليبية بمثابة سياسة البابوية الخارجية . فهي التي تديرها وهي التي تحرك دفتهـــا ؛ والنائب الرسولي يجب أن يرافق عسكر الله ويسوسه . ولكن هذا المطمح الرئيسي كان ابعد ممـــا يمكن التوصل اليه كما حصل ذلك فعلا . فقد كانت مطامع الامراء المدنيين واضحة تطغى على طبيعة الحروب الصليبية الأولى فعلا . وليس ادل على ذلك من انشاء مملكة اورشليم الدنيوية في العام ١١٠٠ بدلا من انشاء ثيوقراطية اكليروسية ؛ الحلم الذي يبدو انه كان يراود بعضهم . وفي الحروب

---

٦٧) التيوقراطية كلمـــة يونانية معناهـــا « حكومة بواسطة الله » وهو تعبير اطلق على شكل الحكومة الاسرائيلية التي أسسهـــا « موسى » ثم سار على نهجه خلفاؤه من بعده . ورئيس الحكومة قد يكون ملكـــاً ورجلا دينياً (كاهناً) في الوقت نفسه يقوم في الحكومة الثيوقراطيـــة بمهمة الوسيط بين الله وشعبـــه (المعرب)

الصليبية الثانية والثالثة ، لعب امبراطور الغرب وملوكه الذين لم يشاركوا في الحروب الأولى — دوراً عظيمـاً . وستتاح لنـا الفرص فيمـا يلي لنذكر كيف أن (دولة الارض) هذه كانت تمارس نظام ضرائبهـا الخاص لتوطيد حكم اورشليم . ومهمـا يكن من امر ومع وجود هذه الجهة الـدنيوية والانتقال الدنيوي (ولم يكن اوضح منهمـا كما ظهرّا اثناء الحرب الصليبية الرابعة) فقد بقي جوهر الحروب الصليبية موصولا بحبـال البابوية . فالباباوات هم الذين نظموا تلك الحروب ودعوا لها . والباباوات هم الذين وجهوها لا على مسلمي الشرق وحدهم بل على الالبيجيين(٦٨) الهراطقة في الغرب ذاته . حتى حان الوقت (في حكم فردريك الثاني) لتوجيهها ضد امبراطور مخطيء . انها لم تكن سلاحاً لتنفيذ السياسة البابوية ليس غير ؛ بل كانت كذلك جزءً من الموارد المالية للبابوية . فاذا كانت الحكومة الدنيوية قد فرضت عشر (صلاح الدين) فقد كان من حق البابوية أن تفرض ضريبة خاصة بها. وقد فرضت جماعة الاكليروس عشرات من الضرائب الكنسية بسبب الحروب الصليبية بشكل منتظم عقيب بداية القرن الثالث عشر ، أول الأمر عن طريق اصدار مراسيم المجامع الكنسية واخيراً بموجب السلطة البابوية . هذه الضرائب ظلت سارية المفعول في انكلترا ابان عهد الاصلاح الديني وكمـا اكسبت الحروب الصليبية ضرائب جديدة للكنيسة فقد خلقت فيهـا طرقاً دينية واخويات تعبدية جديدة . ففرسان الاسبتارية والتمبلرية (الدوّية) بتطبيقهـا قواعد مستمدة من القوانين الوضعية ،

٦٨) الالبيجيون — هم سكان مقاطعة لا نجدوك في شمال اسبانيا وجنوب فرنسا ظهروا في القرن الحادي عشر وعقيدتهم غنوصية هرطقيـة مخالفة لتعاليم الكنيسة الغربية . حكم بهرطقتهم مجمع اللاتيران المنعقـد في ١١٧٩ وأمر البابا انوسنت الثالث بشن حرب عليهم وافنائهم وقـد قاد الحرب عليهم سيمون دي مونتفورد في العام ١٢٠٨م ودامت سجالا عشرين سـنة وانتهت باخضاعهم (المعرب)

اعطت اوربا شكلا جديداً ، شكل القس المحارب الذي يجمع في شخصه قوانين التنسك في الاديرة ، وحياة الجندي المحترف في الوقت نفسه .

ان الاوصاف المختلطة لانواع المراتب والصنوف العسكرية لوّنت الصفات المختلفة للحروب الصليبية تلويناً رائعاً ، فجعلت تلك الحروب – بابوية أم غير بابوية ، أكليروسية أم لا اكليروسية – دعامة تسند السلطان الكنسي ولُغمــاً موضوعاً تحت اساسه في الوقت نفسه . وإن لم تكن الحروب الصليبية قد ازالت تماماً التمييز الواضح السابق بين ما هو مقدس وما هو وثني ، بين ما هو روحاني مخلد وبين ما هو جسدي زائل ، فهي على كل حال قد اضعفته . لقد كانت بركة لرجال الدنيا المحاربين ومغفرة . وبطريق سيرها ادت إلى تحرير رجال الدنيا . ان رجال الدنيا في الحروب الصليبية قد يستحيلون إلى اشباه قسيسين وأن بعض الحكومات الدنيوية تستطيع أن تنقلب إلى حكومات مقدسة مباركة نوعاً مــا عن طريق المساهمة في تلك الحروب . تلكم هي حركة انبثقت من خُلقٍ مغاير لكل ما عرف من خلق ولد في عصر يميل إلى الثيوقراطية . فكانت الحروب الصليبية على كلٍ ؛ قوة مساعدة لنمو الروح الدنيوية والسلطان الزمني . فالتماس اليومي مع مسلمي الشرق ، التماس الذي ادى إلى الائتلاف الاجتماعي – والتسامح الذي نجم عن ذلك الائتلاف ؛ اضعف عداء الايمان الغابر للكفر ، كمــا اضعفت الحروب الصليبية التمايز بين ما هو ديني وما هو دنيوي ضمن نطاق العقيدة الدينية . ولم يكن جميع رجال القرن الثالث عشر في حدة وعناد (فردريك الثاني) الذي حارب البابا بجيش عربي وانشأ مراسلات مع علمــاء العرب وفاوض حكامهم حتى في الوقت الذي كانت اورشليم محور النزاع . ومهما يكن فقد ابدى العلمــاء أنفسهم استعدادهم للاستعارة من فلاسفة العرب . وقد بدأ بعضهم يدرس اللسان العربي وظهرت روح تفاهم جديدة . كان ثَمّ فرق بــين القديس

لويس (٦٩) الذي تتمثـــل فيه عقلية عصر غابر ممن لا يرى جدوى في التعامل مع الكفار الا باغماد ذبابة سيفه في احشائهم . وبين موقف جامعة باريس التي كانت تعتمد على كتاب ارسطو « في الطبيعة ومـــا وراء الطبيعة fisica et metafisica » من مصدره اسبانيا العربية . وظهرت روح الاستقصاء العلمية وامتدت مبادئها في نجوة عن الحروب الصليبية . ولكن الحروب الصليبية لم تستطع أن تفعل شيئاً لخلق تلك الروح العلمية وتحاول اداء مهمتها العظمى وهي الملاءمة بين حكمة ارسطوالدنيوية وبين التعليم والقواعد المنزلة في الكتب المقدسة والكنيسة – الا في العصر الجديد للتفاهم بين الجانبين .

الدولة والممتلكات الزمنية

من ابسط واوضح نتائج الحروب الصليبية على الحياة الداخلية لدول الغرب هو ظهور انواع جديدة من الضرائب . كان فرض الضرائب إلى ذلك الحين مقصوراً على الأرض فقط ، فمـــا أن جاءت الحروب الصليبية حتى صرنـــا نرى بدايـة فرض ضرائب على الدخـــل الفرديّ . وكان لويس السابع (٧٠) اول من فرض « ضريبـــة اعانة الارض المقدسة porpter sustentationem terrae hierosolymitana » وذلك في العـــام ١١٤٦ ثم انـــه عـــاد ففرضهـــا في السنة ١١٦٥ واخذهـــا عنه هنري الثاني ملك انكلترا في السنة ١١٦٦ ففرض (بنسين) على كل (باون) من الدخـــل في تلك السنة ؛ (وبنساً) واحداً على كـــل (باون) في السنوات الاربع التاليـــة

٦٩) لويس التاسع ملك فرنسا ولد في ١٢١٤ وارتقى العرش وهو ابن احد عشر سنة وقاد حربـــاً صليبية في ١٢٤٩ فهزم في مصر وأسر ثم أفتدي وذهب إلى فلسطين حيث بقي حتى ١٢٥٢ ثم عـــاد إلى فرنسا . وفي ١٢٧٠ قـــاد حملة صليبية ثانية إلى شمـــال افريقيا ولكنه توفي في تونس في السنة نفسهـــا (المعرب) .

٧٠) لويس السابع ويلقب بالصغير « ١١١٩ م » قاد الحملـــة الصليبية الثانية في السنة ١١٤٧ وقد دام حكمـــه حتى ١١٨٠ (المعرب) .

على كـل فرد في البلاد بدون استثنـا . وجعلهـا منصبّة على « الملكيـة العقارية والدخل الفرديّ Catalle et Bedditus » وفي العـام ١١٨٤ اتفـق فيليب الثاني اغسطس (٧١) وهنري الثاني على فرض ضريبـة شبيهـة بتلك للسنوات الثلاث التاليـة على سائر الاقطار التي يحكمانهـا . (ولو كان يبدو ان هذا الاتفـاق بقي دون تنفيـذ) وفي السنة ١١٨٨ – بعد سقوط بيت المقدس فرض كلا الملكين الضريبـة المسمـاة « عشر صلاح الدين » . ولم يقف سريـان هذه المسابقـة في انكلترا . ففي القرن الثالث عشر صارت ضريبة الدخـل والعقار ، الطابع المأمون للنظام الوطني المالي – حتى قيـل « تنشأ الضرائب الجديدة من حاجات الارض المقدسة » .

إن آثـار الحروب الصليبية في الممتلكات الدنيوية لدول الغرب أقـلّ وضوحـاً وثباتاً ولقد قيل أن الحروب الصليبية اعانت على انحلال نظام الاقطاع وخضد شوكة (البارونيات) . ومن المحقق انهـا جذبت الى الشرق انفساً قلقة غير مستقرة تبحث لهـا عن عقارات وضياع جديدة في ارض سوريا او لتنضوي تحت عضوية تلك الجمعيات العسكرية . وربمـا نجم عن هذه الحروب أيضاً بيع بعض الممتلكات العقارية وبعض اختلال في شرعية القاب النبـل المتوارثة . ولكن البارونيـة الاقطاعية ظلت قادرة على الظهور كقوة مؤثرة مهابـة الجـانب حتى نهايـة القرن الخامس عشر . وربمـا بدا تأثير الحروب الصليبية على هذه الطبقة اقـل بروزاً في ان يتسبب بأي تزعزع في مكانتها وسلطانها ممـا سبب في اساليب الحرب الحديثة التي استمدوها من شيوع العاب الفروسية واستخدام الرايـات والرنوك كمـا مر بنا فيمـا سبق . وكثيراً مـا عزي إلى الحروب الصليبية – بالطريق نفسهـا – قيام الادارة البلدية والبلديات ، واستقلالها عن السياسة الادارية . ولقد عزي منح

---

٧١) شارك فيليب الثاني اغسطس ملك فرنسا « ١١٨٠ – ١٢٢٣ » في الحرب الصليبيـة الثالثة ١١٩١ وشارك ايضاً في قيادة الحرب الصليبية ضد الهراطقة الالبيجيين فكسب منهم اراضي ضمهـا إلى فرنسا (المعرب) .

البراءات الرسمية بانشاء البلديات إلى حاجة نبلاء الصليبيين للمـال العاجل . وهنـا ايضاً يغلب الحدس والتخمين على الثابت الاكيد . ومن الاسلم لنا ان نقول هذا فقط . إذ مـا دامت الحروب الصليبية قد ساعدت في نمو التجارة ومبادلة البضائع فالنتيجة المحتمـة لهذا ، أنها ساعدت في نمو المدن . ومن المحقق أن الثغور الايطالية الكبيرة كانت مدينةً بالكثير من رقيّها وازدهارها الغابرين إلى الحروب الصليبية وان طريق التجارة الداخلي الذي كان سبيلا لنقل بضائع البندقية إلى حوض الراين ثم مجرى البلطيق والشمال هو الآخر — كما رأينـا — السبيل بـل البؤرة التي انبثق منهـا نمو المدن الحرة ، واتحادات الصناع الحرة .

العلاقات الخارجية للدول والنظام الاوروبي

لقد اثرت الحروب الصليبية في نظام اوربا لا بطريق تأثيرها على الكنيسة وعلى وضعهـا العام وحدهمـا بل بايجادها رابطة جديدة لوحدة اوربا السياسية وربمـا جاز لنا القول بأن فكرة وحدة غربي اوربا بعد السنة ١٠٩٦ لم تتمثل نظرياً في نظام الامبراطورية الرومانية المقدسة وحدهـا بل تمثلت ايضاً في الواقع العلمي للحروب الصليبية مجتمعة . والحق يقال أن حكام الدول الأوربية لم يأتلفوا في حروبٍ صليبيةٍ مـا الا ليختلفوا ، ولم يلتقوا إلاّ ليختصموا . والثابت أيضاً أن الفروق الجنسية الوطنية اخذت تزداد خطراً وتعظم بالمنافسة الوطنيـة التي رافقتهـا كما حصل مثلا في الحرب الصليبية الثالثة . ومع ذلك فان الشعور بوجود وحدة مصالح وقضيـة عامة يشارك الكل فيهـا لم يُمحَ قط . لم يكن ثم توجيه عـام من بغداد ولا نداء من خليفة المسلمين من شأنه التوحيد مـا بين مسلمي الشرق . فغاية مـا كان موجوداً إذ ذاك السلطان الفعلي الذي تتمتع به مدينة الموصل . وتعصّب(نور الدين)

« البيوريتاني [٧٢] » وشهامة (صلاح الدين) وحميته على الدين . ولقد كان لنصرانية الغرب بابويتهـا . وكان ايضاً الاشراف البابوي على الحروب الصليبية ، فاتخذت شكلا دوليـاً واتحدت بنظام شامل منطقه الهجوم على العدو . ان فكرة الاتحـاد الدولي الأوربي أو إيجـاد مملكة مسيحية عمومية respublica christiana تعمل لقضيـة مسيحية خـالصة وهـي شن هجوم على الاتراك او التزام وضع الدفاع تجاههم ، ظلت تنبض بالحياة خلال العصور التالية . وكتب باحث هولندي اسمه تيرمولر Ter Meuler كتابـاً عنوانه : « فكرة ايجاد منظمة دولية der Gedanke der Internationalen Organistation » اقتفـى فيـه آثـار مختلف الخطط الـتي رسمت لايجاد نظام يوحد ما بين اوربا أو يعمـل على تكوين « عصبة امم » منها منذ ايام دبوا Dubois ١٣٠٠ [٧٣] حتى ايام القس دي سان بيير [٧٤] Abbé de Saint Pierre و (كَانتْ) ١٨٠٠ . وتكاد تكون مجمـل القواعد المقترحة ضرورية تدفعهـا الحاجة إلى القيـام بعمل جمـاعي ضد الاتراك كمـا كنا نجد فكرة الحروب الصليبية متجسمة في كـل ما نتتبعه من آثار .

في الوقت نفسه في أثناء استمرار الحروب الصليبية اخذ التوازن الأوربي

---

٧٢) البيوريتان *Puritans* او المتطهرون هم فرقة من المسيحيين ظهـرت في انكلترا ايـام الملكـة اليزابت وأوائـل حكم آل ستيوارت . وكانت مبادئهـا ترمي إلى تطهير الكنيسة الانكليزية من الادران التي لحقت بهـا وقد استعرت الحرب بينهـا وبين السلطات وصمدت للاضطهاد والتشرد والنفي وهي الآن شيع ومذاهب كثيرة (المعرب) .

٧٣) بيير دبوا « حوالي ١٢٥٠ — ١٣١٢ » كاتب ومؤرخ ومحام وسياسي فرنسي عاش أيـام حكم (فيليب الطيب) وخدمه وألف عدة كتب عن السياسة وفي التاريخ منها كتابه عن الحروب الصليبية(استعادة الأراضي المقدسة *de recuperatione terrae sanctae*) (المعرب)

٧٤) « ١٦٥٨ — ١٧٤٣ » كاتب واقتصادي وسياسي كبير اختير عضواً في الاكاديمية الفرنسية في السنة ١٦٩٥ . كانت آراءه في السياسة والاجتماع والاقتصاد ذات أثر عظيم في ارتقـاء الأفكار وعلى الاخص مـا يبحث في التطور فكرة حفظ سلام عالمي وقد أثرت ايضاً على روسو وغيره من الكتاب الاجتماعيين (المعرب) .

يختــل حيث لم تعد الامبراطورية البيزنطية تعدل في وزنهـا الامبراطورية الغربية فقد سقطت اولاهمـا في السنة ١٢٠٤ . وان حدث فوجد في القرن الثالث عشر امبراطوريـات يونانية مركزها القسطنطينية وطرابزون فمـا كانت الا مجرد ظلال لاسم عظيم غابر . هكذا قدر لرجحان الميزان الأوربي أن ينتقـل إلى الغرب . وكانت فرنسا السباقة إلى الطليعة من بين الدول الأوربية ولقد لعبت الحروب الصليبية دورها في هذا السبق : بشر بهـا في في ارض فرنسا وقام فرسانها بتحمل اعبائها . وفرنسا هي التي انجبت — في شخص القديس لويس — مثال المجاهد الصليبي الكامل ، والمستعمرون الفرنسيون هم الذين استقروا في مملكة اورشليم ثم ثبتوا اقدامهم في قبرص عندما ضاعت من ايديهم . واستقروا كذلك في (المورة) وفي دوقية اثينا . ولقد قال كاتب فرنسي من كتاب القرن الرابع عشر « أن أشرف فرسان العالم هم فرسان (المورة) . حيث كانت الفرنسية الفصحى يتكلم بهـا كما يتكلم اهالي باريس » . ولم تكن لغة فرنسا lingua franca الشائعة على ألسُن سكان ساحل سوريا ، من جيّد الفرنسية . إذ ما دامت هذه اللغة ذات اصول لاتينيـة فقد اشتقت تلك الاصول ولا غرو من التجار الايطاليين والجنوبيين والبنادقـة ولكن إن لم تعش اللغـة الفرنسية في شرق البحر المتوسط فالتقاليد الفرنسية لن يعف عليهـا قط . ان حق حماية الارض المقدسة الذي مارسه شارلمان ، ادعى به وبرره فرنسوا الاول في القرن السادس عشر وإن عقد المعاهدات اعطى اللاتين حق الاستيطان والاستيلاء على موضع ولادة المسيح والقبر المقدس في اورشليم ، تلك الشروط والاتفاقات ظلت سارية المفعول حتى كانت — في القرن التاسع عشر — احـد اسباب اندلاع حرب القرم . وبامكاننا الآن ان نعزو انتداب فرنسا عـلى سوريـا إلى آثـار الحروب الصليبيـة .

علاقات أوروبا بآسيا

بقي علينـــا اخيراً أن نتكلم عن نظام العلاقات الجديد بين اوربا وقارة آسيا الذي بدأته الحروب الصليبية . إن اوربا فضلا عن وجدانها في الحروب الصليبية شكلا جديداً للوحدة الداخلية ، ومؤثراً جديداً على حياتها الداخلية نفسهـــا ، فانها صارت تنظر إلى العالم اثنـــاء دوران رحى تلك الحروب نظرة جديدة واسعة . كانت هذه النظـرة الواسعة مع نمو حركة الاستكشاف والمعلومات الجغرافية التي رافقتهـــا ، آخر واعظم نتائج للحروب الصليبية بمـــا خلفتـه من آثـــار جسام . كانت الجغرافية سابقاً (اي خلال القرن الثاني عشر) من اغزر العلوم وانفعهـــا لادلاء الحجاج [٧٥] بضبطهـــا أوصاف مسالك الاماكن المقدسة والسبـــل المؤدية اليهـــا ، ولغرض السوق العسكري وميادين التعبئة (على الاخص الواقعة بين فلسطين ومصر) . تلك المسالك التي تم مسحهـــا ومعرفتها في ذلك الحين كانت تمس حدود آسيا وسواحلهـــا القريبة . ولكن حركة الاستكشاف والمسح الجغرافي اتجهت في القرن الثالث عشر — كمـــا سنحت لنا الفرصة بذكره — فشملت الجزء الاقصى من آسيا بأسره . وان العصر العظيم للاكتشافات الآسيوية الموازية — إن لم نقـــل المساوية لعصر الاستكشاف الامريكي في القرن السادس عشر ابتدأ حوالي السنة ١٢٤٠ وانتهى بعد قرن من هذا التاريخ [٧٦] .

كانت آسيا خلال ذلك القرن مرتبطة ارتباطاً غير محكم بعجلة امبراطورية المغول التي امتـدت من القرم وتبريز حتى (بخارى وسمرقند)حتى (كمبالوك

٧٥) انظر كتاب بروتز بخصوص مناسك الحج وامكنته الذي سبق لنا وذكرناه . (الصحائف ٤٧٠ ومـــا يليها) مثلا في جمعيات اصدار الكتب الدينية اللاتينية *Itinera Hierosolymitana* ومطبوعات جمعيـــة اصدار كراريس الحج إلى فلسطين . (المؤلف) .

٧٦) انظر الفصل المعنون « افتتاح الطرق البرية إلى الصين » من كتـــاب ايلين باور الموسوم « رحلات ورواد العصور الوسطى » الذي راجعه الاستاذ ا. ب. نيوتن *A.P. Newton*(المؤلف).

بكين) و (كنساي : هنكاو) ولقد بقي المغول متمسكين بدينهم (الشاماني) ؛ على انهم كانوا متسامحين مع اصحاب العقائد الاخرى . انهم لم يكـونوا مسيحيين ولكنهم آووا طوائف مسيحيـة في امبراطوريتهم . كانت الحماسة المسيحية تأمـل أن تهديهم . أمـا النشاط التجاري فقد كان يبحث له عن طريق إلى رؤوس الينابيع التجارية في الشرق من بين ممتلكات المغـول . وكانت اغراض البعثات إلى المغول مبنيـة على الأمل الاعظم وهو انجـاز الرسالة التي استعرت الحروب الصليبية لاجلهـا ، أعني هداية هؤلاء الوثنيين إلى النصرانية واستخلاص الاراضي المقدسة نهائيـاً من يد اولئك الذين استحوذوا عليهـا . ولكن قدر لهذه البعثات – مع انهـا لم تفقد ارتباطها مع الحروب الصليبية – أن تبتعد عن محورهـا ومركز ارتباطهـا . وكان ثمّ امثال « ريموند لل » الذي اعتقد بوجوب وقف الحروب الصليبيـة والاستعاضة عن الحملات العسكرية بالتبشير السلمي . وبهذه الامور صارت هداية آسيا إلى المسيحية هدفاً مستقلا قائمـاً بذاته ، هدفاً يرمي إلى نشر المعرفة الآلهية على الارض كمـا تنساح المياه على وجه البحار . قطعت هذه البعثات في مهمتهـا شوطاً بعيداً واعانهـا على ذلك تسامح المغول الديني ووجود طائفة النساطرة المسيحيين في آسيا . وفي مطلع القرن الرابع عشر سيم « جون المونتكورفيوني » John of Monte Corvino منشيء الكنيسة اللاتينية في الصين رئيساً لاساقفة كمبالوك (بكين) مع ثلاثة من الاساقفة الفرنسسكان مرتبطين بـه .

ورافق تلك البعثات التاجر الايطالي كمـا رافق الحملات الصليبية الأولى ملاحو الثغور الايطالية . ولم ينفرد « آل بولو »[٧٧] بالرحلات العظيمة ، فقد مخرت شركة جنوية ميـاه بحر قزوين واستقر قنصل بندقي في تبريز (وهذا

٧٧) رواد ايطاليون من البندقية اشهرهم ماركو بولو (١٢٥٤ – ١٣٢٣) رحل مع ابيه نقولا إلى بلاد المغـول حتى الصين وبقي في بلاط قوبلاي خان وعـاد إلى بلاده عن طريق سومطره دون رحلاته في كتاب مرجعي (المعرب) .

دليل على استقرار موطد) . ولكن قضي على كـل أمل منشود في تحقيق المطمح الاكبر . أما المشروع الذي كان يهدف إلى تنصير جماعي عظيم للمغول ومن شأنه أن يجعل الدين الاسلامي ديناً قليل الاتباع ويحصره في رقعة صغيرة من أرض اسبانيا وزاوية في ساحـل البحر المتوسط الشرقي فقد لفه النسيان وصار أثراً بعد عين . ولكن خانات ايران اعتنقوا الاسلام في السنة ١٣١٦ وحوالي منتصف القرن الرابع عشر سارت اواسط آسيا على النهج نفسه وصارت مسلمة واقفلت اسرة (منج) الوطنية الحاكمة على عرش الصين ابواب البلاد في اوجه الاجانب في السنة ١٣٦٨ — ١٣٧٠ وكانت النهاية ، قطع سبيـل التقدم على المسيحية وفتحه على رحبه في وجه الاسلام فسار بعيداً ووصل شأواً لا يدانى بازدياد شوكة الاتراك العثمانيين ولكن فجراً جديداً لاح للغرب الذي لا يقهر . هذا الفجر : أول الامـل الجديد كان مقدراً له أن يتمخض باحدى ثورات التاريخ الكبرى . إن كانت تلك البقاع اوصدت ابوابهـا في وجه المسيحية فماذا يمنعهـا من اتخاذ البحر سبيلا ؟ لم لا تنفذ ملاحتهـا إلى الشرق وتهاجم الاسلام من المؤخرة وتستولي على اورشليم من الخلف ؟ كانت هذه فكرة الملاحين العظام الذين نقشوا رسم الصليب على صدورهم وآمنوا بصدق الغاية التي يجاهدون في سبيلهـا . ألا وهي استنقـاذ بيت المقدس . وإذا كان (كولمبس) قد وجد نفسه في الجزر الكاريبية بدلا من أن يصل إلى الصين كمـا تكهن — فلا يسعنـا على كل حـال الا أن نعترف بأن الأسبان الذين اقتفوه ، غنموا للمسيحية قارة وان الغرب جعـل في الاخير كفة الميزان ترجح إلى جانبـه بشكـل ما كان يحلم بـه .

* * *

لو فكرنا في الحروب الصليبية من اوسع نواحيهـا وتدبرنا ما تم على يدها من فتح آفـاق جديدة نتيجة للدافع الاصلي الذي انجبهـا فلن نجدها عملا فاشلا . انهـا لم تخفق تماماً حتى في تحقيق بواعثها الاصلية (اعني الدفاع عن

النصرانية بأسرهـــا ضد الخطر الاسلامي في شرق البحر المتوسط) . ويحق لنـــا القول بأن الحروب الصليبية بدأت حركاتها الحربية مع الأتراك السلاجقة المعسكرين في بقيـــة ارجاء آسيا . وختمت بالاتراك العثمانيين الذين عسكروا في اوربا نفسهـــا على ضفاف الدانوب . ويحق لنـــا القول أيضاً من الناحية الاخرى بأنـــه لم تمر خمسمائة سنة حتى كان كل شيء قد انتهى مثلمـــا ابتدأ ، أعني بحماية فرنسية على الاماكن المقدسة في اصقاع يحكمهـــا الاسلام . الا أن الاصقاع ليست كل شيء ، فان لم تكسب الحروب الصليبية أو تستولي على ما يمكن قياسه بخريطة فقد ظفرت باشياء اخرى معنوية لا تقل عن مساحات الاراضي قيمـة انها دافعت عن نصرانية الغرب خلال الفترة الحرجة المهمة جداً لنمو الحضارة الغربية في غضون القرون الوسيطة وبذلك انقذتهـــا من الانطواء على نفسهـــا والانحصار في بقعـــة ضيقة . لقد اعطتهـــا مجالا حيويـــاً ومطمحاً « والشعب الذي لا مطمح له محكوم عليه بالفناء » . وإنه وإن كانت الحروب الصليبية مطمحـــاً قلّ أن شعر به سكان اوربا بصورة استمرارية (ربمـــا لم يشعروا به مطلقاً) فقد كان في الواقع وعلى كل حال المثل الأعلى الذي عمل على انقاذهم مما هم فيه .

ارنست باركر

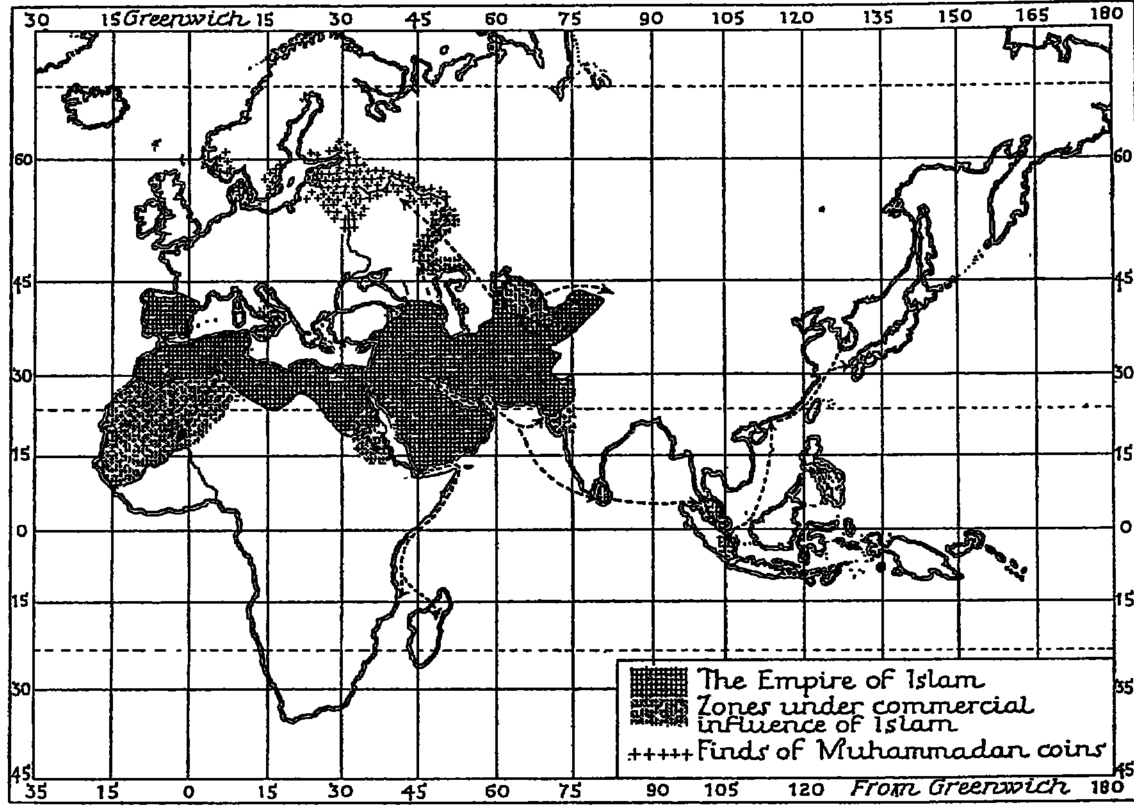
الجغرافية والتجارة

بقلـــم

البروفسور جي . أج . كرامرز Prof. J. H. Kramers

ولد المستشرق الاستاذ كرامرز في (١٨٩١) بهولندا ، وكان استاذاً للتركية والفارسية في جامعة ليدن حتى ١٩٣٩ حيث خلف الاستاذ (ونسنك) على منبر اللغة العربيـــة هناك . اشتغل من ١٩١٥ حتى ١٩٢١ مترجماً للسفارة الهولندية في الآستانة . وفي اثناء هذه المدة دعي من قبل عصبة الأمم للالتحاق باللجنة التي أوفدتها في ١٦ كانون الثاني ١٩٢٤ لفض النزاع الناشب على ولاية الموصل بين تركيا والعراق بوصفه مستشاراً وخبيراً . وانتدب ١٩٢٥ على نشر مطبوعات الامير يوسف كمال في مجموعته (آثار افريقية ومصر) (المعرب)

كان أحد المساهمين بكتابة كثير من الموضوعات في دائرة المعارف الاسلامية ، كمـا انـه أعـــاد طبع جغرافية ابن حوقل باسم (صورة الارض) ١٩٣٨ – ١٩٣٩ ، ونشر مجموعة صوفيـــة من جاوه في القرن السادس عشر (ليدن ١٩٢١) ، وألف كتاب (فن التاريخ عند الاتراك العثمانيين) ١٩٤٤ (المعرب) .



خريطة تبين التوسع الجغرافي للحكم الاسلامي ونفوذه التجاري في القرن العاشر الميلادي : (المظلل بحبر كثيف هو رقعة الامبراطورية الاسلامية والمظلل بنقاط أخف هي أقاليم خاضعة للنفوذ التجاري الاسلامي اما المظلل بصلبان صغيرة فهي مناطق اكتشفت فيها نقود محمدية)

لو رسمنـــا خريطة تبين الاحوال السياسية الأوربية والافريقيـــة وغربي آسيا في حوالي منتصف القرن العاشر من زماننـــا هذا ، لوجدنا أن القسم الاعظم من العالم المسكون الذي يدعوه الاغريق « أويكوميني Oikoumene » كان مسكوناً بامم تخضع للحكم الاسلامي وتسودهـــا الحضارة الاسلامية . انها لم تكن في ذلك الزمن وحدة سياسية متينة العرى ، بـــل كانت مرتبطة فيمـــا بينهـــا برباط قوي من الدين والحضارة ، حتى أن سكانها – مع انهم لم يكونوا من المسلمين فقط – كانوا يشعرون بأنهم رعايا دولة اسلامية مترامية الأطراف مركزهـــا الديني مكة ومحورهـــا السياسي بغداد . هذه الامبراطورية العظيمة نمت وبلغت أشدّها في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الاسلام بسلسلة من الفتوحات ابتدأت بالمدينة المنورة ، وكان ميدانهـــا ومركز ثقلهـــا شبه جزيرة العرب . لكنهـــا ما لبثت أن شملت مصر وساحل افريقيـــا برمته ، بالاضافة إلى الساحل الاطلسي إلى أبعد مـــا يمتد حتى اسبانيا برمتها (خلا النمسا) ومـــا يلحق بهـــا من جزر كصقلية وكريت . وكانت سردينية وقبرص عرضة لهجمات المسلمين المستمرة وكذلك الساحل الايطالي حيث كانت بعض المدن مثـــل (باري) واقعة تحت الحكم الاسلامي الفعلي . وكانت بعض المدن الاخرى مثـــل (أمالفي Amalfi) خاضعة للنفوذ الاسلامي . هذا من الجهة الغربية ، أمـــا إلى شمال جزيرة العرب ، فقد كانت بلاد الآراميين والارمن والجنوب الشرقي من بلاد القفقاس تحت حكم المسلمين المباشر الدائم . أمـــا من جهة الشرق ، فقد امتد الفتح الاسلامي إلى ما وراء النهر (تركستان) فاكتشف رقعةايران الحديثة وافغانستان . وإلى الشمـال من هذه الأصقاع كانت بلاد المغول كلها في قبضة الاسلام ومن

ضمنهـا اقليم الدلتـا المسمى (خوارزم) إلى شرقـه وادي فرغانـه وجبالها . وقد سبق للجيوش الاسلامية أن عبرت جبـال الأندس في القرن الثامن الميلادي ودخلت البلاد الواقعة على سفحهـا الادنى ومنهـا أراضي السند التي انضوت تحت لواء الامبراطورية الاسلامية . أمـا من الناحية الجنوبية لافريقية ، فان امتداد التخوم الاسلامية لم يكن يجاوز خط العرض الذي تقع عليه اليوم (أسوان) المدينة المصرية .

« ... ومملكة الاسلام في حيننـا هذا ووقتنا ، فان طولها من حد فرغانه حتى يقطع خراسان والجبال والعراق وديـار العرب إلى سواحل اليمن فهو نحو خمسة أشهر ، وعرضهـا من بلد الروم حتى يقطع الشآم والجزيرة والعراق وفارس وكرمان إلى أرض المنصورة على شط بحر فارس ، نحو اربعة اشهر . وانمـا تركتُ في ذكر طـول الاسلام ـ حدّ المغرب إلى الاندلس ، لانه كالكُمّ في الثوب . وليس في شرقي المغرب ولا في غربيه اسلام ، لانك إذا جاوزت مصر في ارض المغرب ، كان جنوبي المغرب بلاد السودان وشماله بحر الرُّوم ثم ارض الروم [1]» .

هذا مختصر لوصف جغرافي كتبه ابن حوقل المتوفى في ٩٧٥ م. [2] .

ومع أن الأقاليم التي عددناها الآن تختلف إذا قورنت بالبلاد التي يسكنهـا المسلمون الآن فضلاً عن انها أوسع رقعةً ، فالحقيقة التي لا يمكن دحضها انها كانت تؤلف كتلة دينية واحدة فضلاً عن وحدة سياسية متينة العرى متراصة البنيان جمعت بينهـا قوة السلاح وجعلت سكانها يقفون في العالم كأعظم قوة مركزية متحدة عرفها البشر .

ولو اننـا فكرنا من الجهة الاخرى في الأوضاع السياسية والجغرافية التي

---

١) صورة الارض من المسالك ج١ ص ١٦ طبع ليدن ١٩٣٨ - كرامرز (المؤلف) .

٢)ابن حوقل (نبغ حوالي ٣٦٧ هـ=٩٧٧م.) أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي التاجر والسائح . تجول في البلاد الاسلامية ودون أخبار رحلتـه في كتابه « المسالك والممالك والمفاوز والمهالك » طبعت أقسام منه قبل السنة ١٨٧٤ ، وبعدها طبع في ليدن (المعرب) .

كان يعانيهـا العالم الاوربي المسيحي آنذاك ، أدركنا حالاً مدى اعتماد هذا الجزء من العالم على امبراطورية المسلمين العظيمة . فمن الجنوب كان البحر المتوسط في أيام سيطرة الامراء المسلمين على سواحله الاسلامية يقف سداً منيعـاً صعب الاقتحام . ومن الشرق كانت امبراطورية البيزنطيين تقف بمواجهة المسلمين في أرض أرمينيـا . وكان شمال القفقاس وشرق اوربا موطنـاً لشعوب بدوية نصف متحضرة واقعة تحت نفوذ المسلمين اكثر من المسيحيين ، خلا الكفرة ، أهـل الشمال من سكان اوربا الشمالية فقد كانوا آنذاك في مبدأ توسعهم العظيم الذي ربمـا عزي إلى تردي التفوق الاسلامي السياسي والاقتصادي في القرن الثاني عصر .

أما عن الوضع الجغرافي لمراكز الحجّ المسيحية واليهودية فقد كان الامر مختلفـاً . إن اورشليم المركز الديني الأسمى لأوربا النصرانية دخلت منذ السنة ٦٣٨ م في حوزة الاسلام . إلا أن الفتح الاسلامي لم يمنع من زيارة القبر المقدس او يحـل بين الاوربيين المسيحيين وبين انجـاز هذه الفريضة الدينيـة . وأول مـا وصل الينا من أنباء تلك الزيارات هي زيارة (فرانك اركولف Frank Arculf)حوالي السنة ٦٨٠ م. وزيارة (فلليبولد Willibold السكسوني حوالي السنة ٧٢٥ م. وزيارة حاجٍ آخر اسمه برنار Bernard الذي شرع في رحلته من رومة حوالي السنة ٨٧٠ م. ولا شك وان هؤلاء ليسوا وحدهم ممن ساعد على التعريف بالبلاد التي فتحهـا الاسلام . ولا بد وأن علاقات مسيحيي الامبراطورية البيزنطية باخوانهم سكان مصر وسوريا وبلاد مـا بين النهرين ، كانت عظيمة الاهمية من هذه الجهـة أيضاً . أما حقيقة الحـال في العالم الاسلامي فكانت تختلف عمـا ذكرناه . فمكة ملتقى الحجيج تحتـل مركزاً جغرافيـاً وسطاً بين بلاد الاسلام الاصيلة ، والحج إلى بيت الله الحرام هو أحد فرائض الاسلام الخمسة في الشريعـة الغراء . وفي تلك المدينة يجتمع آل محمد (ص) من شتى أنحـاء امبراطورية المسلمين . وكان الحج عاملاً قويـاً في تنمية الوحدة الدينية — فضلاً عن

مساعدته مادياً على تقوية أواصر العلاقات التجارية بين الاقطار الاسلامية جمعاء ، ونشره جانباً كبيراً من المعرفة والثقافة في أنحاء العالم الذي يدين بتلك الديانة .

وإلى الحج يعود الفضل في تصنيف كتب عديدة مرشدة للرحلات . ذكرت فيها المحطات والمراحل والسبل المؤدية إلى مكة من مختلف الاقطار . إلا أن الجهل العظيم والاهمال التام في وصف الاقاليم المعروفة من العالم غير الاسلامي كان يسود تلك الكتب . وقد مرّ زهاء الف سنة منذ أن استطاع المسلمون تحديد العالم المسيحي الاوربي المتمدن من شتى جهاته . في تلك الاثناء كانت اوروبا قد أفلحت في أن ترتاد بسفنها وتنفذ من الحواجز الفاصلة المنيعة إلى الاقسام الجنوبية والشرقية من العالم المعروف حينذاك . وكان الفضل الأول في ذلك يعود إلى قوة اوروبا المتنامية ومبادأتها ، على أنها استفادت كثيراً من خبرة اولئك الذين كانوا في زمن ما سادة العالم . لذلك وجب على اوروبا أن تعدهم أسلافاً مثقفين كاملي العدة في العلوم الجغرافية من ناحيتي الاستكشافات والتجارة الدولية . إن تأثير الاسلام الذي يمكن تلمسه في مدنيتنا الحاضرة في هذه النواحي العملية الجغرافية ، يظهر لنا في الكثير من المصطلحات ذات الأصل العربي في قاموسَيْ التجارة وعلم الملاحة . وقياس هذه الفترة من التاريخ لا يمكن الوقوف عليه إلا بدراسة التطور التاريخي للحضارة العامة وبضمنها معلوماتنا الجغرافية التي برهنت الحوادث على صحتها . إن الجغرافية الحديثة إنما هي علم ايجابي مستقل عن الابحاث الفكرية والنظرية المجردة بدرجة انه يَستبعِد كلَّ شيء خلا النظرات الصحيحة التي توصّلتْ اليها القرون الغابرة . أقول ذلك لان جوبرت [3] Jaubert عندما طبع في السنة ١٨٤٠ ترجمته الفرنسية لكتاب

---

٣) بيير اميدي اميليان جوبرت (١٧٧٩ – ١٨٤٧) مستشرق فرنسي وأحد تلامذة المستشرق المشهور (سلفستر دي ساسي) قام برحلات سياسية وعلمية إلى الشرق في مختلف مراحل حياته ، وكان مترجماً في حملة نابليون على مصر . وصل إلى التبت ، ثم صار عضواً =

الادريسي ساد الظن بان هذا الكتاب سيزيد في معلومات البشر في امور الجغرافية وعلى الأخص عن افريقية .

إن دراسة التأثير التاريخي لحضارة أسلافنـــا المسلمين في معلوماتنا عن الكرة الارضية لا تخلو من صعاب ؛ ذلك لانه ليس من السهل دائمـــاً أن نتأكد من مدى اعتماد معلومات المسلمين الجغرافية على الملاحظة الشخصية ، إلى أي بعد من العالم وصلوا في رحلاتهم وسياحاتهم ؟ إلى أي مدى بلغتـــه علاقاتهم التجارية ؟ قد يثير كلامي هذا شيئـــاً من الدهشة بالنظر إلى أن مؤلفات جغرافية نفيسة لا تحصى ظهرت باللغة العربية ما بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلاديين . ولكن مـــا اتحفتنا به هذه الآثار لم يكن إلا المعلومات السائدة المعروفة عند الباحثين والمتأدبين . ومهمـــا كان هؤلاء الكتاب شديدي الملاحظة والتتبع لوصف البقاع والشعوب التي يرتادون ، حريصين دقيقين في الاصغاء إلى المسافرين والبحارة لاستمداد المعلومات الجغرافية منهم ، فقد كانت العقائد الدينية والآراء التقليدية تحـــد من نشاطهم وتفتن عقولهـــم فتمنعهم عن توضيح الحقائق ورؤيتهـــا على حقيقتها . نقول هذا مع العلم ان النقد الموجه إلى آرائهم هو أقـــل بكثير من النقد الموجه إلى آراء الباحثين المسيحيين في القرون المظلمـــة . ولنترك جانبـــاً العلم المعروف ورواياته المتداولة ، فثمّ تجارب وخبر عمليـــة في الملاحة والجغرافية لكثير من التجار والملاحين الذين شاهدوا بأعينهم ومارسوا بأنفسهم ، فاستفاد من تلك الخبر والمشاهدات الباحثون والكتاب أنفسهم . ولكم يبدو أحياناً — من كتبهـم الخاصة ، بان أقـــل الملاحين والتجار ادعاءً بالعلم ، هم أزهد في التمويه والإغراض من أولئك الكتاب . هذه الفئـــة المتواضعة الزاهدة في الفخر والادعـــاء هي التي يجب أن نعدها همزة الوصل الأساسية للعلاقات بين الاسلام وبين اوروبا القرون الوسطى . ويحق لنـــا اعتبارهم الاساتذة الحقيقيين

=في الاكاديمية الفرنسية ، وقد ترجم الادريسي . ولديه مذكرات وأبحاث عن الشرق ، تاريخية وجغرافية (المعرب)

لمسيحيي تلك الحقبـة من الزمن . هذا وإن الابحاث الجغرافية العربية العظيمة لم يكن يبدو لها تأثير مباشر في الآراء الجغرافية التي سادت القرون الوسطى إلا من ناحية الجغرافية الفلكية وعلم النجوم .

ومهمـا يكن من أمر ، فيجب ألاّ نغفـل عن إعطاء صورة عامة شاملة للشكل الذي انعكست به المعلومات الجغرافية الاسلامية الواسعة على كتب العرب وأخبارهم . ففي الخمسين والمئة سنة الأولى من حكم المسلمين لم تكن الجغرافية – بوصفها علمـاً – تزيد عما يعرف منهـا العالم المسيحي . لقد وصلت الينـا أخبار غريبة عن صحابة الرسول (ص) بخصوص سعة الأرض وأقاليمهـا . ومنابع النيل وهلم جراً ، وفيهـا مقارنة الارض (بطائر) رأسه في الصين وذيله ينتهي في شمالي افريقية . وفي القرآن الكريم إشارة جغرافية في آيتين منه (ج ٥٥ آ ١٥، ٢٠ (و) ج ٢٥ آ ٥٢) [٤] عن كيفية فصل الله البحرين بحاجز لا يمكن اقتحامه . وتنـاول المفسرون هذه الآيات باعتبارها اشارة إلى البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي بمـا فيه البحر الأحمر . التفسير الذي ربمـا اقترب من الصحة . وثمّ بعض الشك في أن الفرس كانوا قد عرفوا (نظرية البحرين هذه) قبل نزولهـا في القرآن الكريم . وبوجود هذه النظرية في آي القرآن تسامت إلى منزلـة العقيدة الثابتة وسادت بشكـل واسع جميع الكتب الجغرافية وعلم رسم الخرائط عند المسلمين .

بدأت دراسة الجغرافية (كعلم) عند الاسلام بتأثير الاغريق وعلى هداهم . وكان نتيجة من النتائج التي تمخض بهـا النشاط العظيم في ترجمـة المؤلفات الاغريقية في مفتتح القرن التاسع الميلادي وعلى الأخص في غضون حكم الخليفة

---

٤) « فبأي آلاء ربكمـا تكذبان . رب المشرقين ورب المغربين . فبأي آلاء ربكمـا تكذبان . مرج البحرين يلتقيـان . بينهما برزخ لا يبغيان » الرحمن .

ومن سورة الفرقان : « وهو الذي مرج البحرين . هذا عذب فرات . وهذا ملح أجاج . وجعل بينهمـا برزخاً وحجراً محجوراً (المعرب)»

المأمون (٨١٣ – ٨٢٣ م) . ذلك العمـل الذي جعل من العرب وارثي الحضارة اليونانية الروحيين . فصاروا على معرفة تامة بأبحاث بطليموس ونظريته الجغرافية القائلة بان ساحل افريقيا الشرقي يمتد إلى اقصى الشرق . وهذا مـا كان يتفق تمام الاتفاق ونظرية البحرين المنفصلين .

لا توجد لدينا ترجمة قديمة لكتاب بطليموس ، لكن يوجد مختصر من هذا الكتاب عمله (الخوارزمي)[٥] الفلكي حوالي السنة ٨٣٠ م وإن الخريطة التي كان يجب أن تكون في كتابـه هذا مفقودة لا أثر لهـا . إن خطوط الطول والعرض التي وصفهـا الخوارزمي ، مستمـد أكثرها من آراء بطليموس كمـا وأن كتابه يعين المواقع الجغرافية للأمكنة والأقاليم كمـا وجدت عقب الفتح الاسلامي . وليس من الثـابت لدينـا ان التعيين الجغرافي قد تم بفضل الأرصاد الفلكية . ولسنا نعلم في هذا الباب سوى أن الخليفـة المأمون أمر بقياس درجة الارض في صحراء سوريا واليه نفسه يعود الفضل في إكمـال العلماء السبعين (ومنهم الخوارزمي) صورة الارض التي تجدها بأوصافهـا في كتاب حديث التأليف بعض الشيء .

لذلك لا مفر لنـا أن نقر بأن كتاب الخوارزمي جمع نتائج أبحاث المسلمين الأوائـل . فضلاً عن انه يظهر جهات خاصة ومنهـا تقسيم العالم المسكون إلى سبع مناطق أو أقاليم ممـا لا نجده لدى بطليموس . ويمكن تتبع نظرية الاقاليم السبعة هذه عند الباحثين اليونانيين ولا شك . وربمـا كانت سائدة عندهم قبـل مجيء « ايراتوستينس[٦] Eratosthenes » وربمـا كـانت نظرية تقسيم العالم المسكون هذه بدعة فارسية الأصل او بابليـة . والميل

٥) ان كتاب الخوارزمي (صورة الارض او رسم افريقيـة) طبع ١٩١٦ بالالمانية في فيينـا مع خرائط وملحوظات . (انظر المزيد عن الخوارزمي في باب الرياضيات والفلك من هذا الكتاب) (المعرب)

٦) إيراتوستينس (٢٧٦ – ١٩٥ ق.م) : كان من مشاهير الفلكيين والجغرافيين والرياضيين اليونان ، وقيل انه قاس انحراف سمت الشمس بدقة ، ووضع مصنفاً بأسمـاء النجوم الثابتة وصفاتها ، وقد ذكر له المؤرخ الكبير (سترابو) رسالة في الجغرافية الوصفية (المعرب)

إلى هذا الرأي مبعثـه المكانة السامية التي كانت تحتلهـا النظرية في آثـار العرب المسلمين الجغرافيين وكانوا أشد احترامـاً للتعاليم الشرقية من اليونان .

إلا أن صورة الأرض التي قبلتها العالم الاسلامي وبطليموس معـاً ، ما كانت تتفق تمامـاً والفكرة التي كونها سكان امبراطورية المسلمين عن العالم . انهم لم يعترضوا على شكل الارض الدائري بـل قبلوا هذه الفكرة على علاتها . بينمـا أنكرها وسخفهـا بعدهم كثير من لاهوتيي النصارى . وهذا ما يوضح لنـا سر السرعة في سلوك علميْ الفلك والجغرافية الاسلاميين سبلهمـا الخاصة . وقد استمر الفلكيون أمثـال « الفرغاني » (٧) الذي عاش حوالي السنة ٨٦٠ م والبتاني الذي عاش حوالي ٩٠٠ م . وابن يونس (٨) (حوالي ١٠٠٠ م) والبيروني العظيم (في حدود ١٠٣٠ م) . يصدرون أزياجاً جغرافية في الاطوال والعروض (خطوط الطول والعرض) متبعين نظرية تقسيم الارض إلى مناطق سبع ، لكنهـا أضافوا القليل التافه او لم يكلدوا يضيفون شيئاً من متحقق الاخبـار والمعلومات عن الأقطار . هذه الأخبـار يمكن الظفر بهـا من أوصاف البلاد والرحلات المدونة ذات الفائدة الجمة في تسهيـل إدارة الامبراطورية الاسلامية . فقد سبق لنـا أن

---

٧)الفرغاني (نبغ في حدود ٢٤٧ هـ = ٨٦١ م) : هو أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني المنجم الفلكي . وعن ابن النديم : كان مقدماً في صناعة النجومية ، له من الكتب : كتاب الفصول ، كتاب اختصار المجسطي ، كتاب عمـل الرخامات . نشر له يعقوب غوليوس *J. Golius* الهولندي١٦٦٩م فيأمستردام كتاباًبعنوان (في الحركات السماوية وجوامع علم النجوم) (المعرب)

٨)ابن يونس (ت ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م) : هو أبو الحسن علي بن أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصري الجغرافي صاحب (الزيج) الحاكمي ، الذي أمره بعملـه العزيز أبو الحاكم صاحب مصر . عني بنشره العلامـة (كوسان دي برسيفـال) وطبعـه بباريس ١٨٠٤ م وفي السنة ١٨٢٢ م طبع في ليدن القسم الجغرافي من الكتاب المذكور بعنوان الاطوال والعروض لبعض مدن الجبال من كتاب الزيج الكبير) ومعه ترجمـة إلى اللاتينية لبطرس يوحنا بولنبروك (المعرب)

ذكرنا شيئاً عن الرحلات المؤدية إلى مكة . على انه ورد الينـا مما ورد من القرن التاسع ، عدة معلومات لمختلف الأمصار منهـا كتاب (البلدان) وكتاب (المسالك والممالك) . وأشهر من كتب في هذه الحقبـة من التاريخ هو ابن خُرّادذبّة (٩) (نبغ في حدود السنة ٨٧٠ م) واليعقوبي (١٠) (نبغ حوالي السنة ٨٩٠ م) . وابن الفقيه (حوالي السنة ٩٠٣ م) (١١) وابن رسته (حوالي السنة ٩١٠ م) (١٢) . فأصدروا وصفـاً ادارياً وطبوغرافياً منظماً بعض التنظيم لمختلف البلاد الواقعـة تحت الحكم الاسلامي . الطرق والمسالك في هذه المؤلفات تحتل مكانـاً بارزاً ، على أن النقص هو في الابحاث وفي تولية جـل الاهتمـام إلى البلاد غير المسيحية ظل كمـا كان عليه في بحوث الأولين ، فأسهبوا في وصف الأقطار والجزر الواقعـة في الشرق الأقصى وأغفلوا البلاد المسيحية الاخرى وأفسحوا أرحب مكان لروايـة مختلف انواع الأساطير والحكايات . ولنـا أن نضيف إلى ابحاث هذا العصر المعلومات

---

٩) ابن خرادذبة (٢١١ — ٣٠٠هـ = ٨٢٥ — ٨٩٠ م) هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن أحمـد خرادذبة الخراساني من جغرافيي العصر العباسي الأول ، وكتابه (المسالك والممالك) تضمن إحصاء جباية المملكـة العباسية في ذلك الزمن ، طبع ضمن مجموعة من الكتب الجغرافية العربية في ليدن سنة ١٨٨٩ باعتناء الاستاذ دي غويه (المعرب)

١٠) اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ = ٨٩٧ م) : هو أحمد بن جعفر بن وهيب بن واضح المعروف باليعقوبي الرحالة العربي ، دخل أرمينيـا السنة ٢٦٠ هـ = ٨٧٤ م . ثم رحل إلى الهنـد ومصر وبلاد المغرب ، والف كتابه (البلدان) ، طبع باعتناء البروفسور ويليام جوينبول *W. Juynboll* في ليدن ١٨٦٠ م (المعرب)

١١) ابن الفقيه : هوأبو بكرأحمد محمد بن اسحق بن ابراهيم : ذكره ابن النديم والحاج خليفة ، وكتابه « مختصر تاريخ البلدان » الفه بعد موت المعتضد ٢٧٩ هـ = ٨٩١ م وصف بـه الأرضين والبحار في الصين والهند وبلاد العرب وغيرها ، طبع باعتناء الاستاذ دي غويه *M. J. du Goeye* مع تعليقات عربية ولاتينية ١٨٨٥ م في ليدن (المعرب)

١٢) ابن رسته (ت ٣٢٢ هـ = ٩٣٣ م) : أبو علي أحمد بن عمر بن رسته كتابه(الأعلاق النفيسة) الذي ألفـه في أصفهان ٢٩٠ هـ = ٩٠٢ م ، طبع منه جزء واحد مع كتاب البلدان لأحمـد بن أبي يعقوب بن واضح من جملة المكتبة الجغرافية ج٧ طبع ليدن سنة١٨٩٢م(المعرب)

التي أدلى بهـا الملاح « سليمـان السيرافي » (١٣) عن رحلاته إلى الهند والصين .

وفي القرن العاشر الميلادي نجد تقدماً عظيمـاً في أبحاث « مدرسـة الجغرافيين » كان من شأنه أن خلّف أعمق الأثر في كتب المسلمين الجغرافية وآرائهم . إن محتوياتهـا كانت تعتمد بصورة رئيسة على الكتب القديمة مضافاً اليهـا بعض المعلومات والاوصاف للبلاد الاسلامية التي ضمهـا الفتح إلى امبراطورية المسلمين . وهذه المدرسة تمتـاز بانهـا تضم أغلبية من الكتـاب السائحين والملاحين وانهـا لم تول اهتماماً كبيراً لوصف البلاد التي لم تكن خاضعة لحكم المسلمين . وتمتاز أيضاً بمعالجتهـا الدقيقة المنظمة للامور الجغرافية وتبسيطهـا للابحاث بعدد من الخرائط المفسّرة ممـا يطلق عليه اسم « الوصف » . وأول خريطة جاءتنـا منهـا هي خريطة العالم مرسومة على شكل دائرة مركزها « مكة » ويحيط بتلك الدائرة سوار مائي (محيط) يتفرع منه خليجـان ينفذان إلى اليابسة ويقتربان بعضهمـا من بعض في نقطة واحدة هي (برزخ السويس) . هذان الخليجان همـا : البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي او بحر الروم وبحر فارس ، ونظراً إلى تفاسير القرآن الكريم وإلى خريطة العالم تلك ، فقد كانت بلاد العرب مركز العالم المسكون ، تليهـا افريقيا الشمالية ثم الاندلس ثم مصر وسورية . ويتم هذا القسم بوصف بحر الروم . أمـا القسم الثاني من الوصف الجغرافي فقد خصص للشرق الاسلامي مبتدئـاً بالعراق ومنتهيـاً بما وراء النهر (تركستان) وأول كاتب أثر عنه أنه الف رسالة جغرافية على هذا النمط هو (ابو زيد البلخي) المتوفى

١٣) سليمان السيرافي : رحالة عربي، كانت العرب تكنيه بـ (سليمان التاجر) ، وعرف بوصفه لسياحته البحرية التي قام بها من مرافيء البحر الفارسي إلى بلاد الهند والصين . صنفها مع أبي زيد حسن السيرافي ، وكلاهما من أبناء القرن الثالث الهجري . هذه السياحة طبعت باللغـة الفرنسية ، ولم نقع عليها . كان سليمان ، أول ملاح وجغرافي عربي وصل سواحل الصين ، ووصف (الشاي) وطريقة صنعه واستعماله ، وذكر أن الصينيين يسمونه (ساخ) (المعرب)

٩٣٤ م [١٤] الذي كان عالماً شهيراً في بلاط ملوك آل سامان حكام خراسان وما وراء النهر (٨٢٢ – ٩٩٩ م) نال البلخي أعظم الحظوة لدى الوزير الجيهاني [١٥] الذي جاراه هو الآخر في تأليف رسالة جليلة الشأن في الجغرافية لم تطلع عليها اوربا إلى الآن . ولكن بعض الآثار الجغرافية التي ألفت بعدها وسمت بالنظام الذي اختطته . منها كتاب الاصطخري [١٦] (عاش حوالي ٩٥٠ م) ، وابن حوقل (عاش حوالي ٩٧٥ م) ومصنفٌ آخر « للمقدسي » [١٧] مستقل التأليف بعض الشيء (في حدود سنة ٩٨٥ م) . ومن المحتمل جداً أن مدرسة الجغرافيين هذه ، ورثت بعض الآراء والمعلومات الفارسية يرجع تاريخها إلى أيام الساسانيين كما يبدو مثلاً من تسمية المحيط الهندي ببحر فارس . إن هذه الخرائط في الحقيقة أقرب إلى الصحة في تصوير الحقائق والمواقع الجغرافية مما كان سائداً في اوربا من الخرائط في الوقت عينه كما نجد ذلك بالأخص في خريطة

---

١٤) ويدعى كذلك ابن سهل البلخي (في حدود ٢٣٦ – ٣٢٢هـ = ٨٤٩ – ٩٣٣م) طبع له كتاب (البدء والتاريخ) مع ترجمة إلى اللغة الفرنسية وصدر في خمسة أجزاء (١٨٩٩ – ١٩٠٦ في شالون – پاريس) باعتناء البروفسور كليمان هوار ، على أنه (المطهر بن المطهر المقدسي – من علماء أواخر القرن الرابع الهجري) وليس للبلخي كما يزعم الحاج خليفة . ويورد البروفسر المذكور حججاً وتعليقات يدعم بها رأيه هذا . (انظر معجم المطبوعات لسركيس ص ٢٤٢) (المعرب)

١٥) ابو عبد الله الجيهاني وزير (نصر بن احمد الساماني) صاحب خراسان ذكر له ابن النديم كتاب (المسالك والممالك) وهو مفقود (المعرب)

١٦) ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري ويعرف بالكرخي . طبع كتابه (صورة الاقاليم) مع تسع عشرة خريطة وصورة بعناية السيد موللر *J. H. Muller* ١٨٤٩ . أما كتابه (مسالك الممالك) فقد طبع ضمن المكتبة الجغرافية العربية الشهيرة بعناية مسيو دي غويه في ليدن ١٨٧٠ – ١٨٩٤ (المعرب)

١٧) ابو عبد الله شمس الدين محمد المقدسي الحنفي المعروف بالبشاري (نبغ في حدود ٣٧٥ هـ. = ٩٨٤ م ساح في أكثر بلاد الاسلام . وكتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) طبع اولا في ليدن ١٨٧٧ م باعتناء دى غويه مع ترجمة لا تينية . وثانياً في ليدن ١٩٠٦ م (المعرب)

العـالم التي رسمهـا الراهب الاسباني بيأتوس Beatus [18] (٧٣٠ ـ ٧٩٨ تقريبـاً) . إننـا لا نجد في خرائط المسلمين صوراً للبشر او للحيوان ، الامر الذي يعزى ولا شك إلى تحريم إظهـار الكائن الحي بالصور ، وان زخرفة الخرائط بالتهاويل والتصاوير جعلت أغلب الخرائط الأوربية ـ كخريطة هيرفورد Hereford الشهيرة تبـدو زاخرة بالحياة والجاذبية . على اننـا من الجهة الاخرى نلاحظ في خرائط الاسلام المرسومة في القرن العاشر، ميلاً إلى تمثيل الخطوط الساحلية والانهـار بأشكال مأنوسة . لذلك ظهر البحر المتوسط في أغلب خرائط الاصطخري على أشكـال دائرية او إهليليجية (بيضية) . وثمّ مؤلفات اخرى ذات طابع جغرافي كتبت في هذه الفترة ، واقتصرت على وصف اقليم او بلد واحد ليس غير ، وخير مـا عرف منها وصف لشبه جزيرة العرب بقلم ابن الفقيه الهمداني . ووصف البيروني الشهير للهند . كثير من أمثال هذه المؤلفات لم تصلنـا كاملة سليمة ، لكننـا عرفناهـا من المجموعات والتصانيف المتأخرة كالتقرير الذي كتبـه ابن فضلان [19] عن نتيجة سفارة له كلفه بهـا الخليفـة المقتدر العباسي السنة ٩٢٩ م إلى البلغـار الساكنين على حوض نهر الفولغا . كمـا أن لمصنف المسعودي مكانةً خاصةً ، كان المسعودي قد جاب آفاق العالم الاسلامي ،

---

١٨) راهب فالكفادي اشتغـل بالجغرافية وكتب ٧٧٦ م كتاباً اسمـه (مركز العالم) فيه خريطة للعالم تعد من أقـدم خرائط المسيحيين الجغرافية . جعـل رأسها القديس بطرس في روما والقديس اندراوس في اليونان والقديس توما في الهند والقديس لوقا في اسبانيا . وتبلغ النسخ الموجودة من كتابه ، حوالي العشرة تتراوح تواريخهـا من القرن التاسع حتى الثالث عشر (المعرب)

١٩) ابن فضلان : هو أحمد بن فضلان بن العباس بن أسد بن حماد . أنفذه المقتدر بالله العباسي السنة ٣٠٩ هـ = ٩٢١ م إلى ملك الصقالبة (البلغار) بمهمة . فكتب رحلة عرفت باسمه ذكر فيها ما شاهده منذ انفصل من بغداد إلى أن عاد اليها ، وفيها وصف مملكة الصقالبة وعاداتهم وغير وغير ذلك ، ورسالته (في الروس) عني العلامة فراهن بنشرهـا مع ترجمة المانية ، وأضاف اليهـا ما وجده في كتب العرب عن قبائل روسيا ، طبعت في لينغراد السنة ١٨٢٣ م (المعرب)

فاجتمعت له من رحلاته معارف ومعلومات لا تحصى في امور الجغرافية والأجناس البشرية ، وكتب مؤلفات عديدة ، اثنين منهما كتبهما في ٩٥٦ م ووصلا الينا كاملين لا نقص فيهما . على ان نقص التبويب الجغرافي فيهما واضح كبير ، لكن أهميتهما تظهر في تفريقهما بين جغرافية الامبراطورية المعروفة سابقاً ، وبين الملاحظات الشخصية الجغرافية للملاحين والسائحين . فبعد أن يقدم المسعودي خلاصة للآراء السائدة بين الباحثين المسلمين عن امتداد المحيط الهندي مثلاً ، يذكر أن الناس المشتغلين في شؤون الملاحة والبحر في المرافيء الواقعة على الخليج الفارسي والذين خبروا هذه البحار ، لا يقرون مطلقاً أبعاد ومساحات البلاد التي وضعها اولئك الباحثون ولا يتفقون معهم في ادعائهم بان تلك البحار لا نهاية لحدودها في بعض جهاتها . وهذا ما يناقض النظرية السائدة القائلة ان بحر فارس ما هو إلا خليج يتفرع من البحر المحيط ، وان له مدخلاً ضيقاً بعض الشيء كالبحر المتوسط . ويشبّه (المُقدّسيّ) هذا البحر عند بحثه في شكل المحيط الهندي بقوله إن بعض الناس يشبهونه بالطيلسان (الجبة الفارسية) وبعضهم بالطير ، ولكن شيخاً لقيه رسم له على الرمل شكل هذا المحيط مستعيناً بتحقيق ، فلم يكن شبيهاً بالطيلسان ولا بالطائر ، وكانت أشكاله غير منتظمة تحيط بها الخلجان وتتحاشد فيها أشباه الجزر . والظاهر ان (المقدسي) زار الصين وظفر بمعلومات جمة عن الساحل الافريقي الشرقي ، لكنه يبدو من الجهة الثانية فقير المعلومات في الجغرافية الفلكية ، حيث اننا نجد رأياً غريباً في أحد كتبه مؤداه ان كل المدن المهمة في الاقليم الواحد لا بد وأن تقع على خط عرض واحد !

وسار القرن الحادي عشر على هذا المنوال الذي سار سلفه ولكن تألقه كان أقل منه . وخير كاتب معروف في هذا العهد هو (البكري) [٢٠]

٢٠) البكري (٤٣٢ – ٤٨٧ هـ = ١٠٤١ – ١٠٩٦م)هو أبو عبيد الله بن أبي مصعب =

الجغرافي العربي الاندلسي (عاش في حوالي السنة ١٠٦٧ م) . ولم يطبع من أثره النفيس إلا القسم الخاص بأفريقية . في هذا المؤلف نجد معلومات دقيقة عن الطرق والمسالك ، ولاسيمــا معلومات قيمة عن خط الساحل بمرافئه العديدة وخلجانه . ووصلنــا من ذلك العهد أخبار عن رحلات ناصري خسرو (٢١) الفارسي الذي جاء من خراسان وزار مصر ومكة . كان هذا الرجل يكشف في كتاباته عن دقة ملاحظة ، لكنه في الوقت نفسه يعتنق آراء خاصة في تكوين العالم وأسباب نشوئه .

شهد القرن الحادي عشر أحداثــاً وجهت ضربات قوية إلى الوحدة المعنوية للعالم الاسلامي فقد أغــار الأتراك السلاجقة حوالي السنة ١٠٥٠ م على نصفه الشرقي . أما من جهة الغرب ، فقد استعاد ملوك المسيحيين جزيرة صقلية وجزءاً كبيراً من اسبانيا ، وغزوا بعض بقاع الساحل الافريقي . وفي الوقت نفسه كانت اوربا تتأهب لشن الحروب الصليبية . بدأت في هذا الزمن وحدة العالم الاسلامي بالتصدع والانحلال ففقد قوتــه السياسية التي عادت إلى الظهور لفترة قصيرة الأمد أثنــاء حكم السلاجقة والأيوبيين أثناء نضالهم العنيف الصليبيين . لم يكن لهذه الأحداث عظيم أثر في الآراء الجغرافيــة المستمدة من الأبحاث الاسلامية ، إلا أن المرء لا يسعه إلا أن يلاحظ انحرافاً

=البكري المرسي الوزير . له كتاب « معجم مــا استعجم » وهو قاموس جغرافي للبلاد التي جاء ذكرها في أشعار العرب . والظاهر المعروف بين الباحثين ، أنه اقتبس من رحلة تاجر يهودي اسمه ابراهيم بن يعقوب الاسباني ورتبه على حروف المعجم . طبــع بعناية العلامة وستنفلــد ١٨٧٣ م . وله أيضاً كتاب (المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب) ، وهو جزء من كتابه « المسالك والممالك » وفيــه وصف لا فريقية الشمالية ، طبع باعتناء البارون دي سلان *Baron du Slane* في الجزائر سنة ١٨٥٧ م (المعرب)

٢١) ناصري خسرو (٣٩٤ – ٤٥٣هـ = ١٠٠٣ – ١٠٦١م) رحالة من بلخ قــام بأسفار عديدة في ايران وتركستان وبلاد العرب ، وقلد منصبــاً كبيراً في بلاط السلاجقة بمدينة مرو وقام برحلة أخرى أمدها سبع سنوات (من ٤٣٧ هـ. = ١٠٤٥ م) . ورجع بعدئذ وانهمك في الدعوة إلى الفاطميين . طبــع كتابه « سفرنامه » في باريس ، وترجم إلى العربية مؤخراً (المعرب)

طفيفاً إلى الجغرافية الفلكية ، فنجد مثلا في فصل من رسالة جغرافية (لابن حوقل)يعود تاريخها إلى حوالي (١١٦٤ م) ، أن خريطة العالم لم تعد مستديرة الشكل بل اهليليجية مطابقة لهيئة العالم المسكون الفلكية . وألمع شخصية نبغت في هذا العصر هي شخصية الادريسي (يلقب بادريسي سابقاً) . هذا الجغرافي يستحق منا عناية خاصة تفوق أي عناية اخرى نبذلها لجغرافي اسلامي ، وذلك لسببين : أولهما انه كان يعمل في بلاط ملك النورمان المسيحي روجر الثاني Roger II صاحب صقلية (١١٠١ — ١١٥٤م) ايام كانت هذه الجزيرة نقطة الاتصال بين العالمين المتمدينين الكبيرين ، وثاني السببين ، لأنه معدود من قديم الزمان بأنه أفضل ممثل للتفكير الجغرافي الاسلامي. ومن دراسة بعض الكتب العربية الجغرافية القديمة يتضح لنا أن الادريسي كان يعتمد على من سبقه بكثير من معلوماته . ولكن التقاء الملك (روجر) بالادريسي ووضع ثقته فيه لدليل واضح على مدى الاقرار بتفوق الثقافة الاسلامية آنذاك . ومما لا ينكر ان البلاط النورماني الصقلي كان بلاطاً نصف شرقي ، وإن اهتمام(روجر)بتصنيف كتاب جغرافي خاص به انما هو عادة شرقية بحد ذاتها . لقد كان من امتياز الملوك العظام منذ أقدم العصور كالاسكندر الكبير وبعض أباطرة فارس) أن يعمل لهم مجملٌ لوصف العالم يوضع تحت أقدامهم كناية عن السؤدد والرفعة . كانت هذه الفكرة نفسها التي حدت بالخليفة المأمون إلى الاهتمام بالامور الجغرافية ، كما كانت أيضاً أيضاً تحدو المدرسة الجغرافية التي نشأت في القرن العاشر الميلادي في بلاط آل سامان . ويستخلص من مقدمة الادريسي أن الملك روجر كان قد بعث رسله إلى جميع الجهات للظفر بالمعلومات الجغرافية تمهيداً لادراجها ضمن الكتاب . وأمر أيضاً — كالمأمون — برسم خريطة كبيرة للعالم [٢٢] . إن كتاب

---

٢٢) جاء في كتابه الجغرافي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) المعروف بجغرافية الادريسي « ... أمر روجر أن يفرغ له من الفضة دائرة عظيمة ... وان ينقشوا عليها صور الأقاليم السبعة في بلادها وأقطارها واطوالها وسبلها وريفها وخلجانها ومجاريها ونوابع انهارها=

الادريسي يحوي جملة خرائط هي أهم أجزاء كتابه ، لان المتن نفسه عبارة عن شروح وتعليقات على الخرائط ويبلغ عددها في خير ما لدينا من نسخ كتابه ، سبعين خريطة (هنالك خريطة واحدة مفقودة من كل ما لدينا من النسخ) . وكل خريطة منهـــا تمثل عشر جزء من أجزاء الاقاليم السبعة التي قسم العالم بموجبها جرياً على عادة الفلكيين المسلمين . فإذا وضعت هذه الخرائط بالترتيب جنباً إلى جنب لخرج لنـــا منها مستطيل قائم الزوايا على نمط خرائط بطليموس (٢٣) . وقد تقيد الادريسي بالوصف الاسلامي المحدد للبحرين الكبيرين واثبتـــه كمـــا هو ، لكنه كان أقرب منهم إلى الحقيقة بالتفاصيل التي أوردها وعلى الأخص عن الخط الساحلي للبحر المتوسط ، وبزت خريطته خرائط المسلمين السابقة جميعها ، من حيث الدقة والتفاصيل .

يظهر من كتاب الادريسي مبلغ اعتماد هذا الكاتب على المؤلفين الأقدمين . والكتاب بجملته صورة حية للتوفيق بين الجغرافية الفلكية والجغرافية الوصفية . ومهمـــا يكن فمن المشكوك فيه انه استخدم نتائج القياس فيه انه استخدم نتائج القياس الذي قام به الفلكيون العظام أمثال البيروني . وإننـــا لنجد في الطبعة المختصرة لكتاب الادريسي المسماة (الادريسي الصغير) إقليماً ثامناً فوق الاقاليم السبعة وموقعه جنوب خط الاستواء . ثم إن خارطة العالم التي التي هي اولى خرائط كتاب الإدريسي الكبير مصورة بشكل دائري ،أي على النمط التقليدي القديم .

يصعب الحكم بان كتاب الادريسي بقي مجهولاً من العلماء المسيحيين في صقلية وايطاليا وغيرها من البلاد المسيحية ، مـــا دام الفه كمـــا نعلم في مركز الاحتكاك الجغرافي والتاريخي للحضارتين الاسلامية والمسيحية . ومهمـــا

=وعامرها وغامرها ، ومـــا بين كل بلد من الطرقات المطروقة والاميال المحدودة والمسافات والمراسي المعروفة ولا يغادروا فيه شيئاً ، ثم أمر ان يؤلفوا كتاباً مطابقاً لاشكالها وصورها ويزيدوا عليها في وصف البلاد والا رضين » (المعرب)

٢٣) نشر المجمع العلمي العراقي هذه الخريطة بالالوان في العام ١٩٥٣ ، وهي ميسورة(المعرب)

يكن فلا دليل لنـــا على وجود تأثير له في ذلك العصر ، إذ أن أول ترجمة معروفة للادريسي انمـــا طبعت في روما السنة ١٦١٩ م وهي مأخوذة عن مختصر ناقص للكتاب الأصلي . والمترجم نفسه كان يجهل اسم المؤلف الذي نقـــل عنه .

إن الآثار الجغرافية التي وردت بعد الادريسي لا يمكن ان تفخر بعظيم ابتداع ، خلا أخبار الرحلات التي كثر عددها في ذلك الحين . وأشهر ما عرف منهـــا (رحلة ابن جبير) الأندلسي الذي سافر السنة ١١٩٢ م إلى مكة والعراق . ويليه بأكثر من قرن ، السائح ابن بطوطة المراكشي (٢٤) الذي تجوّل في كل بلاد الروم وأمعن في وحلته شرقـــاً حتى جزيرة سرنديب (سيلان) وجزر ملديف ، وأمّ القسطنطينية ايضاً . أمـــا في رحلته الثانيـــة فقد جاب مجاهـــل افريقيا السنة ١٣٥٣ م. وثمّ سائح آخر خلّف وصفـــاً نفيساً لهذا الجزء من العالم حوالي السنة ١٢٥٠ م هو ابن فاطمة (٢٥) ولكن ولكن كتابه لم يصلنـــا . إلا أن ابن سعيد الكاتب (٢٦) (حوالي السنة ١٢٧٤ م)

---

٢٤) ابن بطوطة (٧٠٣ – ٧٧٧ هـ = ١٣١٣ – ١٣٧٦ م) : هو شرف الدين محمد بن عبد الله بن يوسف . ولد بطنجة ، وكان خروجه من موطنه في العام ٧٢٥ هـ أخذ يتنقـــل في بلاد العراق ومصر والشام واليمن والهند ، ودخل مدينة دلهي واتصل بملكهـــا ونصب فيهـــا قاضياً مدة سنتين ، ثم ساح الاقطار الصينيـــة والتترية وأواسط افريقية في بلاد السودان ثم الاندلس وانقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عثمان من بني مدين فأكرمه كثيراً وأمره أن يكتب له مـــا شاهد في رحلتـــه وما علق بحفظه منهـــا ، فكتب له رحلته الشهيرة (تحفـــة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) المعروفة برحلة ابن بطوطة ، ترجمت إلى الفرنسية وطبعت بباريس ١٨٥٣ م ، ولها طبعات مختصرة وكاملة عربية (المعرب)

٢٥) الذي نعرفه عن ابن فاطمـــة ورد فيما رواه عنه ابن سعيد (انظر الملحق رقم ١) عرفنا منه انه كاتب اندلسي ورحالـــة من القرن السابع الهجري ، قام بأسفار عديدة في افريقية ، وربمـــا كان قد دون اخبار رحلاته بكتاب لم يصلنـــا شيء منه (المعرب)

٢٦) ابن سعيد (٦١٠ – ٦٨٥هـ = ١٢١٣ – ١٢٨٨م) : هو نور الدين أبو الحسن علي الوزير بن أبي عمران بن سعيد المغربي الغرناطي الاندلسي . ولد بغرناطة وتوفي بمدينة تونس . ورد =

استفاد منه جم الفائدة أثناء وضع كتابه النفيس جداً . فقد عولج موضوعه بالنظام والاسلوب الذي عالج به الادريسي كتابه . ومع كونه أقل تفصيلاً من سالفه ، فهو يكشف لنا عن نمو المعلومات العربية عن افريقية ، وهو فضلاً عن ذلك أقرب إلى الجغرافية الفلكية نظراً لدقته العظيمة في تعيين مواقع الأمصار والمدن الرئيسية تعييناً جغرافياً . وكان كتاب ابن سعيد أحد المراجع الرئيسية لأبي الفداء صاحب حماة في كتابه « تقويم البلدان » الذي ألفه السنة ١٣٢٧ م. إن هذا الكتاب كان إلى ما قبل مائة سنة تقريباً أحسن الآثار الجغرافية المعروفة عند العرب بعد الادريسي . غير أنه في الواقع مقتبسات ضحلة فقيرة من المصادر القديمة . وأعظم أثر جليل يهم موضوعنا هو المعجم الجغرافي العظيم (معجم البلدان) الذي ألّفه ياقوت الحموي السنة ١٢٢٨ م [٢٧] ، فقد جمع فيه كل الأسماء الجغرافية مرتبةً على الحروف الأبجدية . إن علم التاريخ مدين لهذا الكتاب ، أكثر من علم الجغرافية ، فقد كان همّ المؤلف له أن يوضح الكنى والمسميات والألقاب لمشاهير الناس الذين وُسِمت أسماؤهم بمحلات ولادتهم او سكناهم وثمّ مصنف آخر من هذا النوع للقزويني الذي عاش حوالي ١٢٧٥ م ، هذا الكاتب هو بليني العرب ، فقد كتب في علم نظام الكون والجغرافية والتاريخ . وثمّ كاتب آخر في الجغرافية يفضله دقةً ونبوغاً هو الدمشقي الذي عاش

=من بلاد الغرب وجال في الديار المصرية والعراق والشام ، وجمع وصنف . وهو صاحب كتاب (المغرب في حلى المغرب) يقع في نحو ١٥ مجلداً توارثت أسرته تأليفه حتى وصل اليه فأكمله (المعرب)

٢٧) لمعجم البلدان ، فضلا عن طبعته العربية الميسورة (سنة ١٣٢٣ هـ) ، طبعة اخرى في السنة ١٨٦٦ م باعتناء العلامة وستنفلد بستة اجزاء . لقد علمنا ان صديقنا الاستاذ وديع جويدة قد انهى في الولايات المتحدة من ترجمته إلى الانكليزية (المعرب)

في حدود السنة ١٣٢٥ م (٢٨) ولكن اتجاهه كان كالقزويني بصورة عامة .

إن عدد الجغرافيين المسلمين العظيم الذين تعاقبوا بعد الادريسي دلّ على أن المعلومات الجغرافية كانت جيدة واسعة الانتشار . ولكن ألم يأن لنا أن نتكلم عن وجود مدرسة جغرافية اسلامية في تلك الفترة ؟ إن العالم الاسلامي — بعد غارات التتر والمغول عليه ، فَقَدَ مُثُله العليا ووحدته الثقافية ، وإن ثبت لنا تاريخياً أن الاسلام حقق توسعاً جديداً في آسيا الصغرى وأواسط آسيا عن طريق الغزوات التركية وانتشر في افريقية بطرق سلمية تبشيرية وتجارية . وقد استمرت الكتابات العربية والفارسية تقدم كثيراً من المعلومات الجديدة عن تلك البلاد ، وكانت الشعوب المسيحية إذ ذاك ، وفي مقدمتها الطليان ، ناشطة في الرحلات والاكتشافات . وعمد كاتب مصري من كتاب القرن الرابع عشر (وهو ابن فضل الله العمري) (٢٩) إلى جعل رسالة أحد الجنوبيين مرجعاً له في وصف آسيا الصغرى . وفي هذه الفترة زاد الوصف الجغرافي اتقاناً ودقة واقتصر الأمر على وصف قطْرٍ ما وبلدانه كما وصفت مصر في عهد المماليك الأول ، وصفها مؤلفون عديدون بكثير دقة . وخير ما عُرف ، الوصف الدقيق الذي جاء به المقريزي العظيم عن مصر في حدود السنة ١٤٢٠ م .

ذكرتُ آنفاً أن الكتابات الجغرافية الاسلامية لم يظهر منها عظيم تأثير مباشر على الفكر الأوربي للقرون الوسطى ، على أن ثمّ براهين عديدة تُبدي

---

٢٨) الدمشقي (٦٥٤ — ٧٢٧ هـ. = ١٢٥٦ — ١٣٢٦ م) هو ابوعبد الله بن محمد ابي طالب الانصاري الدمشقي الصوفي المعروف بشيخ الربوة كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) طبع باعتناء الاستاذين فراهن *Farhn* وميرين *M. A. Mehren* في بطرسبرغ ١٨٦٦م (المعرب)

٢٩) العمري (٧٠٠ — ٧٤٩ هـ. = ١٣٠١ — ١٣٤٨ م) هو شهاب الدين ابو العباس الكرماني العمـــري ولد بدمشق وكان كاتب السر في مصر للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كتاباه (مسالك الابصار في ممالك الأمصار) طبع بدار الكتب المصرية ، ورسالة عن اشهر ممالك عباد الصليب ، طبعهـــا بروما مع ترجمة لا تينية ، ميخائيل اماري ١٨٨٣ م (المعرب)

لنا تقدير الكُتّاب المسيحيين لآراء جغرافيي الاسلام ، منها خريطة العالم المثبتة في كتابات (وصف الارض المقدسة opus terrae sanctae) لمؤلفه مارينو سانوتو Marino Sanoto سنة ١٣٢١ المَهدى إلى البابا . كانت تلك الخريطة دائرية الشكل يقوم في وسطها بيت المقدس ويبدو منها بكل وضوح ، البحران الكبيران خارجين من المحيط الحلَقي . ويظهر امتداد الساحل الافريقي نحو الشرق . فترى أن هذا المجاهد المشبع بروح النضال الصليبي الصارم ، يبدو كتلميذ من تلاميذ الشعب الذي عمل على مقارعتهم السيف .

نوهنا سابقاً بالآثار الجغرافية لفلكيي المسلمين . لقد كان لهذا العلم تأثير مباشر يفوق تأثير الجغرافية كثيراً على علوم القرون الوسطى ، فترجمت بعض آثار هؤلاء إلى اللاتينية في أعصر متقدمة مثل (زيج البتّاني) الموضوع حوالي السنة ٩٠٠ م ترجمه بلاتو التيفولي Plato of Tivoli الذي نبغ حوالي السنة ١١٥٠ م . وكانت طليطلة مركزاً رئيساً كشف عن ثمار القرائح العربية لعلماء النصارى الذين تقاطروا اليها من مختلف البلاد المسيحية بعد أن فتحها الملك الفونسو السابع . ولقد كان لدراسات هؤلاء المسيحيين – بقدر ما يهم الناحية الجغرافية – الفضل في احياء النظرية القائلة بكروية الارض بعد أن تنوسيت وعفي عليها تقريباً في القرون المظلمة والتي كان اكتشاف الاميركتين بدونها ضرباً من المحال . إن جميع الفلكيين العرب ما كانوا يعالجون امور الجغرافية إلا بهدي وتحديد الاطوال والعروض الجغرافية لعدد معين من الاماكن ، دون محاولة منهم على ما يبدو لرسم خريطة ما . وان جداولهم الطولية والعرضية رُتبت على أساس وجود أقاليم سبعة في العالم . فكان اهتمام الغرب بهذه الناحية من العلم أكثر من اهتمامهم بعلم الجغرافية الصرف ويرد سبب ذلك إلى طابع العمومية الغلاّب الذي يسم ذلك النوع من العلم دون غيره . فبدأت تظهر باللغة اللاتينية خلال

القرن الثاني عشر الميلادي جداول فلكية مختلفة مصحوبة أحياناً بجداول جغرافية . وقد قبل بعض علماء النصارى بمبدأ تقسيم العالم إلى أقاليم سبعة . اما التراث الذي يفوق ما سبق أهميةً فهو الفكرة القائلة بأن نصف الكرة الارضية له مركز او قمة أرضٍ تقع على بعدٍ متساوٍ من الشرق والغرب والشمال والجنوب كالجزيرة تماماً . ويسمي ابن رُسته هذا المركز (بقمة آرين) ، وآرين كلمة معربة عن اسم المدينة الهندية (أوجيئيني Ujjiyaini) وهي (أوزيني Ozene) في جغرافية بطليموس ؛ إذ كان يوجد في تلك المدينة مرصد فلكي ، وقد ساد اعتقاد هندي الأصل بان قمة الأرض تقع في تلك المدينة لوقوعها في دورة نصف النهار . وتبين التلاميذ النصارى — كأساتذتهم الفلكيين العرب — أهمية هذا المبدأ العظيمة ومنهم أدلارد الباثي Adelard of Bath الذي ترجم جداول الخوارزمي في المثلثات إلى الانكليزية في السنة ١١٢٦م ، وجيرارد القرموني (١١١٤—١١٨٧ م) ، وروجر بيكن ، والبرت الكبير .

إن نظرية (الآرين او الآريم) ظلت منتشرة ، ووجدت قبولاً واحتفاء من الكردينال بطرس الأليائي في كتابه (صورة العالم) المطبوع السنة ١٤١٠ باسم Imago Mundi . ومن هذا الكتاب نفسه ، درس (كريستوفر كولمبس) هذه النظرية التي تطورت ، الى أن حملته على الاعتقاد بان الارض هي على شكل الكمثرى ، وأن في نصف الكرة الغربي قبالةَ قمة آرين مركزاً او قمةً أرضية أخرى هي النصف المفلطح من الكمثرى . ولذلك يحق للنظرية الجغرافية الاسلامية أن تدعي بسهم في اكتشاف العالم الجديد . واننا لنجد تأثير هذه النظرية في مجال آخر . فمن المحتمل جداً انها حملت دانتي — الذي ثبت تاريخياً اعتماده على الفكر الاسلامي في تأليف الكوميديا الآلهية — على وصف المطهر purgatorio [٣٠] بشكل جبلٍ يقع في نصف الكرة الغربـي ،

---

٣٠) ما هو قريب من شاطىء الأعراف في الدين الاسلامي . (المعرب)

موفقاً في ذلك بين النظرية وبين العقيدة المسيحية القديمة القائلة ان الفردوس الارضي يقع في أقصى نصف الدائرة الشرقي من العالم فيما وراء البحر ، وكان توفيقه في ذلك رائعاً . (لقد كـــان يرمز إلى الفردوس في كثير من خرائط العالم القديمة باسم بياتوس Beatus) [٣١] .

وصلت الملاحة الاسلامية ذروتها في القرن التاسع الميلادي . لكن في الوقت الذي كانت ملاحة المحيط الهندي تستمد عظمتها وازدهارها من العلاقات التجارية الناشئة بين سواحل المسلمين وسواحل آسيا وافريقية الاخرى ، كانت الملاحة التجارية في البحر المتوسط مقصورة على الأجزاء الخاضعة لحكم المسلمين لا تتجاوزها ، وكانت العلاقات مع المرافيء المسيحية ذات صبغة حربية ، او مُعرضة لهجمات القراصنة . لذلك بقي المحيط الهندي المجال الحيوي الأوحد للقيام بأعظم الصفقات التجارية . قاعدته خليج فارس في مدينة سيراف والبصرة (بضاحيتها الأبلة) ومرافيء اخرى على ساحل عمان (كان هذا الساحل ذا مركز مهم للملاحة والتجارة قبل ظهور الاسلام) . إن ظهور الاسلام وثبات مركزه السياسي في العراق على الأخص ، شجع روح المغامرة وجميع ضروب النشاط التجاري الأخرى ، فوصلت سفن المسلمين في أواسط القرن العاشر إلى مدينة الصين خانفو (كانتون) وعاشت في تلك المدينة (جالية) اسلامية كبيرة صارت فيما بعد قطباً للمتاجرة مع الصين . ومن هناك شرع بعض التجار والملاحين المسلمين يمعنون في التقدم شمالاً ، ومن المحتمل انهم وصلوا كوريا وجزر اليابان . هذا النجاح التجاري السريع لفظ آخر أنفاسه في ٨٧٨ م بوقوع الاضطرابات التي أدت إلى خراب مدينة (خانفو) .. ومن ذلك التاريخ لم تعد تتعدى الملاحة الدورية المنتظمة مدينة أطلق عليها العرب اسم (كالا Kala) اشتهرت بمناجم القصدير ، ويمكن تثبيت موقعها الآن على الساحل الغربي من جزيرة (ملقا) .

---

٣١) الكلمة لاتينية ، معناها « سعيد » من *Beatum* أي السعادة . (المعرب)

كانت (كالا) تدين بالخضوع السياسي لصاحب (زابج) ، وزابج هي الكلمة العربية القديمة لجزيرة جاوة ، وكانت تقوم مقام سومطرة ، وتمثل مركز الامبراطورية المزدهرة والمعروفة باسم (شريفيجايا) ، ويظهر أن العلاقات التجارية لم تكن متوقفة بين تلك الدولة وبين المسلمين ، فقد روى بعض الكتاب المسلمين أمثال « ابن رسته » و « سليمان السيرافي » وصاحبه « أبي زيد » بأن الملاحين المسلمين كانوا على معرفة تامة بهذه البحار وإن لم تذكر كتبهم مسالك واضحة للطرق البحرية المستخدمة آنذاك . كانت سفن الاسلام نشطة ، دائمة الإبحار إلى جزيرة سيلان (سرنديب) وسواحل الهند . وكان في الهند إذ ذاك جالية اسلامية غنية مفلحة تقطن مدينة (صيبور) المجاورة لمدينة (بومباي) . وكانت (ديبول) الواقعة في بلاد السند من جملة التخوم الاسلامية هي الاخرى مركزاً تجارياً مهماً لتلك النواحي .

ومن جهة الساحل الافريقي الشرقي حيث كانت التجارة بصورة عامة أقل أهمية ، وصل المسلمون في مفتتح القرن العاشر إلى بلاد (سوفالا) المشهورة بمناجم الذهب والواقعة على الساحل الافريقي مقابل جزيرة مدغشقر . وجزيرة مدغشقر معروفة عند العرب باسم (واق واق) وعرف الكتاب المسلمون المتأخرون جزر (واق واق) اخرى تقع بمواجهة الصين ، وربما كانوا يقصدون بها جزر اليابان نظراً للأوصاف التي اثبتوها عنها . ونجم عن ذلك بالطبع تناقض عظيم في الكتب الجغرافية سببه وَهْم المذهب الجغرافي القائل بأن ساحل افريقية الشرقي يمتد باتجاه الشرق حتى ينتهي إلى محل قريب من الصين وهو ليس الا فتحة في الخليج الفارسي[٣٢] . إن معلومات الملاحين وأخبارهم لم تستظهر عليها الآراء الجغرافية القديمة . فقصصهم المستخلصة من رحلاتهم كانت شائعة في تاريخ العرب بحيث ما لبثت أن كسيت ثوب

---

٣٢) يقصد الخليج العربي . (المعرب)

الخيـــال والرواية ووردت الينا بمثابة قصص (السندباد البحري) الشهيرة في كتاب الف ليلة .

إن تراث الملاحة المتمركزة في الخليج الفارسي والتي عاشت زهاء قرن من الزمن ، مهدت الطرق لتلك الشعوب التي أقبلت بعدئذ ماخرةً عُباب تلك المياه وبسطت سيطرتها عليهـا كالبرتغاليين والاتراك والبريطانـيين والهولانديين . ولما وصل (فاسكو دي غامـا Vasco de Gama) إلى (مالـندي) الواقعة على الساحل الشرقي من افريقية في طوافه حول هذه القارة استعان ببحـّار عربي لارشاده إلى طريق الهنـد . وتقول المراجع البرتغاليـة ان هذا البحـّار كان يعتمـد على خريطة بحرية دقيقة وكثير من عُدد البحر والملاحة . ولم تكن مصادر العرب في ذلك الزمان تجهل هذه القصة ، إذ قالت ان ذلك البحار المعروف باسم أحمـد بن ماجد (٣٣) لم يتطوع مختاراً

٣٣) المتوفى بعد السنة ٩٠٠ ﻫ = ١٤٩٥ م هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن معلق السعدي الملاح الملقب بأسد البحر ، وله تصانيف في علم فن البحر نثراً ونظمـاً. كان الربان العربي الذي سير الاسطول البرتغالي على ساحل افريقية الشرقي بقيادة « فاسكودي كاما » من مالندي إلى كلكتا في الهند . له كتاب « الفوائد في اصول علم البحر والقواعد » ، نشر في باريس بالروتوغراف السنة ١٩٢٢ م . فيه الارجوزة المعزوة له المسماة بالسبعيـة واما الحادث الذي نوه به المؤلف فها نحن نورده هنا (نقلا عن كتاب البرق اليماني في الفتح العثماني : لقطب الدين النهروالي مخطوط في الخزانة التيـموريـة) .

وقع في أول القرن العاشر (الهجري) الحوادث النوادر ... ودخول البرتقـان (البرتغال) اللعين من طائفـة الفرنج الملاعين إلى ديـار الهند ، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق بيته (سبتـه) في البحر ويلجون في الظلمـات ، ويمرون خلف جبال القمـر ويصلون إلى الشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق أحد جانبـه جبل ، وبجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الامواج لا تستقـر به سفائنهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد ، واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى أن خلص منهم غراب إلى بحر الهند . فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر ، إلى أن دلهم شخص ماهر من أهـل البحر=

لارشاد (دي غاما) إلى السبيل الصحيح ، بل اضطر إلى ذلك بعد أن سقاه البرتغالي خمراً حتى ثمل . ويغلب الظن ان هذه القصة مختلقة ، لكنها تظهر لنا أن المسلمين كانوا يدركون تمام الادراك النتائج الوخيمة التي سيتمخض بها مجيء البرتغاليين . وأثر عن أحمد بن ماجد بأنه كتب رسالة بحرية عن المحيط الهندي والبحر والأحمر والخليج الفارسي وبحر الصين الجنوبي وجزر الهند الشرقية . ويقول سير ر. ف. برتون Sir R. F. Burton (٣٤) « ربما كان ابن ماجد هذا هو الذي ذاع اسمه في القرن الماضي على طول الساحل الافريقي بوصفه مخترع البوصلة . إن فكرة شق برزخ السويس نسبت إلى بعض الخلفاء العباسيين الأوائل . ولم يكن يظن منذ الحروب الصليبية بأن قناةً كهذه تعتبر خطراً عظيماً على الاسلام . ولهذا السبب كانت ملاحة الاسلام في البحر المتوسط معزولة تماماً عن المياه الشرقية . وبقيت التجارة في تلك البحر مقصورة على المرافيء الاسلامية . فالعلاقات التجارية مع بلاد النصارى كانت محرمة من كلا الجانبين المسيحي والاسلامي منذ (عمر بن الخطاب) . ونجم عن ذلك أن فقد ميناء الاسكندرية أهميته العالمية وأصابه الخراب التام . كما خمل ذكر كثير من المرافيء القديمة على ذلك الساحل . وصارت تونس

=يقال له (أحمد بن ماجد) صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له الملندي (آل ملندي أو الميرانتي بالاسبانية ومعناه الا ميرال) وعاشره في السكر فعلم الطريق في حال سكره ، وقال لهم تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر ثم عودوا ، فلا تنالكم الامواج . فلما فعلوا ذلك ، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا في بحر الهند . وبقوا في(غوه) اسم لموضع من داخل الدكن هو تحت الفرنج الآن من بلاد الدكن ، قلعة يسمونها (كوثا) ، ثم أخذوا (هرموز) وتقدموا هناك . وصارت الامداد تترادف عليهم من البرتقال » إن رواية السكر هذه مختلقة ، بدليل ما سطر في سجلات مراكب البرتغاليين وقائدها من التفاصيل الدقيقة عن دخولهم بلاد الهند بهداية أحمد بن ماجد الذي كانوا يطلقون عليه اسم « المعلم » (معجم المطبوعات لسركيس ص ٢٣٠) . (المعرب)

٣٤) سير رتشارد.ف . بريتون (١٨٢١ - ١٨٩٠) م : مستشرق ورحالة بريطاني زار مصر ومكة والمدينة وترجم الف ليلة مع تعليقات جغرافية شيقة تتسم بطابع الغرابة . (المعرب)

المركز الجديد للحركة التجارية العظيمة المستمرة من شمالي افريقية إلى الموانيء الاسبانية . ولم تكن الملاحة الاسلامية بنظر المسيحيين تعني غير القرصنة والعكس بالعكس .

لم يعد البحر المتوسط منذ بدء الحروب الصليبية ملكاً حلالاً للمسلمين او وقفاً على ملاحتهم . كان الاسلام قد خسر جزءً كبيراً من اسبانيا وخرجت من يده جزيرة صقلية والساحل الايطالي . وكانت بعض المرافيء البحرية الايطالية (كجنوا وبيزا) آخذاً في النمو والازدهار ويؤثر عن الرحالة (ابن جبير) أنه استخدم في رحلته ١١٩٢ م سفينة مسيحية للابحار من (كوته) إلى الاسكندرية . وهكذا انتقلت السيادة البحرية بأقل ما يمكن من الصدام والعنف . لكن هذا لا يعني إلا أن المسيحيين — الذين كانوا يركبون البحر قبلا كبحارة او عبيد أرقاء في سفن المسلمين — أعتقوا الآن ونالوا الحرية التامة في ركوب متن البحر بأنفسهم ، وان المصطلحات البحرية الحديثة فيها كلمات غير قليلة أصلها عربي ومنها يتضح لنا مدى سيادة المسلمين على تلك البحار ، ومن هذه الكلمات ، حبل : cable ، العواريات : average أمير الماء : admiral ، سلوب : sloop، shallop ، بارجة : barque ، وفي اللغة البحرية للمحيط الهندي الرياح الموسمية : monsoon(٣٥) .

ورد فيما مرّ اشارة حول « البوصلة » مقترنة باسم الرّبان (احمد بن ماجد) الذي عزي اليه فضلُ اختراعها . لكن هذا الملاح نفسه يرى في كتابه أن مخترع البوصلة هو (الملك داؤد) وفي الوقت نفسه لا يمكن أن ينهض دليل بأن المسلمين كانوا على معرفة بالبوصلة قبل أن يعرفها العالم المسيحي بزمن

٣٥) لم يذكر مؤلف هذا البحث الاصل العربي لهذه الكلمات المحرفة واكتفى بسردها ، فأثبتنا أصلها نحن ، اكمالا للفائدة وان اختلفت في بعضها . للمزيد من معرفة هذه الأصول العربية للكلمات راجع مقالا لنا المتسلسلة عن الألفاظ العربية في اللغة الانكليزية — مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٦—١٩٥٧ (المعرب)

طويل . قد يصح القول أن الصينيين عرفوا هذه الآلة واستخدموها في القرن الثاني الميلادي وانهم نقلوها إلى ناحية الغرب . ولكن ليس ثم اشارة ثابتة واحدة تؤكد أن الربابنة المسلمين عرفوا البوصلة إلا في مؤلف عربي واحد يرجع تاريخه إلى السنة ١٢٨٢ م ، وفي هذا الزمن نفسه يمكننا أن نتتبع « البوصلة » في فرنسا وايطاليا . على أن بعض المصطلحات الشرقية (غير العربية) التي ثبت استعمالها في المصطلحات العلمية للبوصلة ، جعلت فكرة أخذ اوروبا إبرة المغناطيس من الشرق أمراً محتمل الوقوع . ولا يبدو أن المسلمين كانوا معلمي المسيحيين وأسلافهم في هذا الشأن . إن مدى علمهم برسم الخرائط (المشوشة من نواحٍ كثيرة) يحملنا على الاعتقاد بأن سفنهم لم تكن تبتعد عن السواحل او تنفذ إلى قلب البحار لذلك يحمل بنا القول انه ولو سبق المسلمون المسيحيين إلى معرفة البوصلة ، فإن معرفتهم هذه لم تكن تتعدى السنة ١٢٠٠ م ، ومنهم انتقلت إلى أيدي الربابنة المسيحيين حالما أصبحت معروفة لديهم .

إن قضية ظهور اولى الخرائط البحرية للبحر المتوسط في نهاية القرن الثالث عشر تشبه قضية البوصلة تقريباً . وأقدم ما عُرف من كتب الملاحة في هذا الشأن ، تظهر بوضوح صورةً لوضع السواحل والجزر أدق مما جاءت به الخرائط السالفة . إن رسمها وتنظيمها لم يكن مستطاعاً لولا وجود البوصلة . وهذه الكتب تبدي أيضاً وصفاً مفصلاً للخط الساحلي ويصعب القول بأن هذه الأوصاف هي من منتوج جيل واحد . ولا نحتاج الآن إلا أن نتذكر الوصف الدقيق لساحل افريقية في كتاب (الادريسي) وسلفيه (ابن حوقل والبكري) لندرك ثبوت تجارب الملاحين المسلمين فيما سبق ذكره ولنتبين كيف أعانت هذه التجارب على وضع الكتب المنقحة في علم الخرائط وعلى تأليف أقدم كتب الملاحة .

لقد كان من شأن الطرق المائية العظيمة أن وصلت الخليج الفارسي ببغداد

مركز الامبراطورية الاسلامية ، وبذلك صارت ملاحة المحيط الهندي تَعِلّة للتجارة العالميـة وتوصل تجار بغداد الكبار عن هذا الطريق إلى حرير الصين وتوابل الهند وعطورها وأنواع الأخشاب وجوز الهنـد وجوز الطيب الهندي إلى القصدير من مدينة (كالا) . كل هذه السلع شقّت طريقها إلى اوروبا عبر الأراضي الاسبانية ثم تخلصت بعدئذ من كل اتصال تجاري مع تلك البلاد ، ذلك لأن هذه البضائع التجارية البحرية لم تكن تدخـل خليج فارس ، بـل تنقل إلى عدن وموانيء البحر الاحمـر وهي جدة والقلزم (كْليزما Clysma) الواقعـة قرب السويس وعيذاب (زمن الحرب الصليبية) وهي محطة قديمة لقوافل الحج تقع مقابل جـدة . ومن هنا كان الجزء الغربي من العالم الاسلامي يأخذ بضائعـه وسلعه . ومنهـا أيضاً كانت تأتي السلع الافريقية كالعاج الذي يوسق من زيلع مرفأ الحبشة البحري الواقعة قبالة عدن .

وأشبه بالملاحة التجارية عند المسلمين ، تجارتهم البرية ، وآيتها الكبرى الجمـل (سفينـة الصحراء) . ولقـد اعتدنا وَسم الاسلام بطابع تجارة القوافل منذ القديم . استمرت الحـال على هذا المنوال إلى بضع عشرة سنة من الوقت الحاضر ، دخلت بعدها حضارة الغرب ووسائل النقـل العصرية للسيارات وما أشبه جزيرة العرب عبر صحراء سوريا وبلاد فارس والصحراء العربية . ومُدت السكك الحديدية في أواسط آسيا ، وانشئت الخطوط الجويـة ، والفضل في شق هذه الطرق يعود إلى مسالك القوافل القديمة وترسُّم آثارها والسير على هديها الخالد . كانت القوافل التجارية أكثر وسائط التجارة والسفر شيوعاً في القرون الزاهرة التي مرّت على امبراطورية المسلمين ، وكانت تربط بين مختلف الأقطار العربية وعلى الأخص قوافل الحـج التي كانت تنتهي بمكـة . وكان يوجد في الوقت نفسه بعض السبـل المهمـة المؤدية إلى خارج الامبراطورية ، أولها الطرق المؤدية إلى الهند والصين ، وثانيتها الطرق

المؤدية إلى جنوبي روسيا وأواسطها ، وثالثتها طرق التجارة الافريقية . وكان في الامكان السفر إلى الهند والصين بحراً . لذلك لم تكن تجارة القوافل مهمة في هذه النواحي كما هي الحال في الاماكن الاخرى ثم ان الطريق البري إلى الهند كان وعراً صعباً بمسالكه التيسه ومفاوزه في جبال أفغانستان ، وكان من الضروري اختراق الاقاليم التي تسكنها شعوب التتر للتجارة مع الصين . والحرير وهو أهم منتوج لهذه البلاد ، كان يأتي من بلاد فارس في القديم من الزمان . وبعد أن سقطت دولة آل سامان في القرن الحادي عشر ، أمست الظروف السياسية غير ملائمة للمتاجرة مع الصين براً . فكان المغول هم الذين أحيوا طرق التجارة الآسيوية في القرن الثالث عشر ، لا الاسلام .

أما معلوماتنا عن اتساع نطاق التجارة الاسلامية في الاقاليم الشمالية ، فلا يسعنا أن نقصر اعتمادنا على المصادر الكتابية ، بل علينا ان نستقصيها من الكميات الكبيرة من النقود الاسلامية التي عثر عليها في أماكن متعددة من روسيا وفنلندا والسويد والنرويج ، دعك من بعض المكتشفات المتفرقة في نواحي الجزر البريطانية وايسلندة . وقد كشف عن كمية كبيرة من هذه النقود في أواسط حوض (الفولغا) باقليم (قازان) إلا أن ما عثر عليه في منطقة البلطيق يفوق ما ذكرناه بكثير . ففي اسكنديناويا اكتُشِفت كميات لا تحصى في كل من الساحل الغربي الجنوبي السويدي والمنطقة الجنوبية من النرويج . ويعود تاريخ هذه النقود إلى الفترة الواقعة بين نهاية القرن السابع وبداية القرن الحادي عشر . ومن المستبعد جداً ان يكون التجار المسلمون قد قطعوا في أسفارهم هذا الشوط البعيد فوصلوا إلى تلك البقاع ، إذ يبدو لنا من المراجع العربية الخطية أن اقليم الفولغا البلغاري الواقع وسط حوض هذا النهر كان آخر مرحلة لحملاتهم التجارية وتمثيلهم الدبلوماتي . ثم ان الدين الاسلامي كان قد وصل إلى تلك الاصقاع في التاريخ المتقدم فوقف عندها .



(الشكل : ١٤)

قطعة نقـد ذهبية ضربها أوفا *Offa* ملك مرسية (٧٥٧ – ٧٩٦ م) مقلداً الدينار العربي بدقة وإن عبارة (أوفا ملكاً : *Offa Rex*) محفورة على الوجهين بأحرف عربيـة . تقوم هذه العملـة شاهداً على التأثير الواسع والنفوذ العظيم للعملـة الاسلامية آنذاك .

أما الطريق الاعتيادي الذي كان مسلكاً للتجارة ، فيبدأ من تركستان وينتهي إلى اقليم الدلتا من خوارزم (خيفا) عند مصب نهر (سيحون) وكان طريق الصعود بمسايرة نهر الفولغا ابتداء من مصبه ، طلقـاً قليل الاستخدام ، ومهما يكن فإن اكتشاف النقود الاسلامية في بقعة عظيمة الرقعة كهذه ، ينهض دليلاً على مدى انتشار الثقافـة الاسلامية ، ويقوم برهانـاً على أن المسلمين كانوا يستبضعون مختلف السلع من الشعوب الشمالية الغربيـة ، وأخص منها بالذكر : الروس والاسكندناويين . وقد ورد في الكتب الجغرافيـة ككتاب (المقدسي) اسمـاء السلع التي كان التجـار المسلمون يستبضعونها من تلك الجهات كجلد السمّور والصنصار وفراء السنجاب والثعالب وكلاب المـاء والارانب وجلود الماعز والكافور والقِسي والسهام وفراء القلانس وقشر شجر البتولا وغراء السمك وأسنانهـا ، وزيت كبد الحوت والكهرمان والسختيـان والعسل والبندق والصُقور والسيوف والاسلحة وخشب القيقب والعبيد والمواشي صغيرةً وكبيرةً . كانت شحنات العبيد ترد من الشعوب السلافيـة ، هؤلاء الذين بقيت أسماؤهم تشهد بالدور الذي لعبوه في مدنية العالم وعلى الأخص في بلاد المسلمين . وكان ثمّ سبيل آخر لشحن العبيـد وهو عبر اسبانيا إلى بلاد المغرب ثم إلى مصر وأكثريته من الخصيان الذين يستخدمون في حـرم المسلمين . والمعروف جيداً أن للعبيد على اختلاف

جنسيات فضلاً غير قليل في نشر حضارة الاسلام في اوروبا . وفضلا عن تجارة الاسلام مع البلغار وقطعها شوطاً بعيداً في هذا المضمار ، وجدنا آثاراً تنطق بوجود تعامل تجاري اسلامي مع قبائل الجرمان وعلاقات تجارية لهم مع امبراطورية الخزر في جهات بحر قزوين ومصب نهر الفولغا حيث كانت (إيتيل أو إتِل) عاصمة تلك الامبراطورية . هذه التجارة لم تكن مهمة نظراً إلى طبيعة السلع المتبادلة . إلا أن تلك الامبراطورية ساعدت على ترويج كثير من المنتجات الاسلامية والشرقية وبالعكس لموقعها المتوسط بين الامبراطوريتين الاسلامية والبيزنطية .

كانت التجارة البرية الافريقية تنقسم إلى منطقتين شرقية وغربية ، وكان الذهب بضاعة التصدير الرئيسة للمنطقتين معاً . ففي بلاد (البُجة) الواقعة شرق اسوان فيما وراء التخوم الاسلامية كانت (العلاّقي) مركز التجارة العظيم لمنطقة مناجم الذهب الكبيرة في عهد الفراعنة . ونشطت تجارة عرب افريقية مع بلاد الذهب وعاصمتها (غانة) الواقعة على نهر النيجر . كان التجار المسلمون من مراكش وتونس والجزائر يقومون برحلة أمدها عدة أشهر إلى الجنوب ، فيمرون عادة (بأودأغشت) وهي تقع على مسيرة أربعة عشر يوماً إلى شمالي غانة . وكدليل على أهمية التجارة في هذه الربوع نذكر ما قاله الجغرافي ابن حوقل السنة ٩٧٩ م عن رؤيته في اوداغشت صكاً[٣٦] (ومنه جاءت الكلمة الشائعة الحديثة cheque) بمبلغ قدره اثنان وأربعون الف دينار مسحوبة على تاجر بمدينة في جنوبي مراكش .

٣٦) كان الصك في الأصل ، سند دين ثم صار وسيلة من وسائل معاملات التجارة والاقتصاد ، كان الرجل إذا اشترى عقاراً ، كضيعة – كتب صكاً بشرائها (صحيح البخاري ج١ ص ١٤) (الاغاني) ج١ ص ١٤) . وكان الاصطلاح أن يقال صك فلان على فلان كذا (الوزراء ص ٧٧) . (المعرب)

وقيل أن التجارة كانت في القرن السالف أوسع نطاقاً لوجود طريق مستقيم يربط ما بين الاقاليم الجنوبية ومصر . هذا الطريق صار غير مأمون ، فهُجِر وأهمِل . وظلّت افريقية فيما بعد ذلك مجالاً تجارياً نشيطاً للمعاملات الاسلامية تمارس فيه بحرية ودون أن تخشى مز احمة . وقد تلقى ابن سعيد أحد كتاب القرن الثالث عشر من ابن فاطمة معرفته التامة بساحل الاطلنطي الممتد حتى ساحل السنغال وكان يظن انها مرتبطة بالنيجر الذي يصدر من حوض منابع النيل . كان المسلمون من الناحية الاخرى يجهلون منابع النيل لأنهم بقوا متمسكين بآراء بطليموس دون ان يتحققوا من صحتها بأنفسهم . وبقيت اوروبا في عهد إحياء العلوم Renaissance لا معلومات لديها مطلقاً في هذا الصدد إلا ما استمدته عن المجاهل الافريقية (القارة المظلمة) من المصدر الاسلامي ذلك لأن وصف افريقية الذي كتبه المسلم المتنصر (ليون الافريقي Leo Africanus)في السنة ١٥٢٦ م كان آنذاك ، وإلى زمن متأخر، مصدر المعلومات الوحيد تقريباً . ولقد سبق لنا فأشرنا إلى الفضل الذي عُزي إلى المسلمين في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

لقد أظهرت التجارة بين المسلمين وبين اوربا المسيحية تنافراً بيّناً مع مبلغ التقدم العظيم في التجارة الذي وصفناه ، وذلك أول الأمر ، حيث يجرِ اتصال مباشر بين العالمين كما كان متوقعاً . وكل ما مَتَّ إلى التجارة في ذلك العصر ، كان محصوراً في أيدي التجار اليهود في جنوب فرنسا . كان اليهود في ذلك الحين الشعب الوحيد الذي يمتهن التجارة . ويعود ذلك إلى الحرية التي كانوا يتمتعون بها في العالمين المسيحي والاسلامي . وقد روى لنا ابن خرداذبة بأن التجار اليهود من جنوب فرنسا ، اجتازوا البحر إلى مصر وعبروا قنال السويس براً وأبحروا لى الهند ، وبعضهم عبر مصر إلى (كوتة)، ورحل من سوريا إلى الأندلس ع‍ن طريق البر . وكثيراً ما وصلوا

الى القسطنطينية . وبهذه الوسيلة كانت الامصار الاسلامية تحصل على كفايتها من العبيد (ومصدرهم اوربا كما سبق بيانه) فضلاً عن ورود أنواع الحرير والفراء ومختلف الأسلحة من الامبراطورية البيزنطية وروسيا . هؤلاء التجار أنفسهم عرّفوا اوربا بالمِسك واللوز والكافور والدارصيني [٣٧] وغير ذلك من السلع ، ولا تزال أسماء هذه السلع تنم عن أصلها العربي او الشرقي . ومن الطرق الاخرى التي وصلت بواسطتها تلك البضائع إلى اوربا ، امبراطورية الخزر التي كانت تقع بين اقليم قزوين والامبراطورية البيزنطية وشعب روسيا نصف المتحضر ، هذه الطرق ، أبقت التجارة مستمرة مع أواسط اوربا . وكانت مدينة (طرابزون) الواقعة على حدود مملكة البيزنطيين ، مركزاً هاماً للتجارة بين الأقطار الاسلامية واليونان في القرن العاشر . وكان يقطنها عدد من التجار المسلمين ، فتجني دولة البيزنطيين من جباية الرسوم الكمركية جم الفائدة . وكان ثمّ تجارة مباشرة مع اوروبا في القطاع الاسباني .

لذلك يحق لنا أن نشير إلى العزلة التجارية التي سادت العالمين الاسلامي والمسيحي ، ومما لا ريب فيه أن الرحالة والتجار المسلمين كانوا يؤمون مدن ايطاليا والقسطنطينية منذ القرن الثامن ، وكانت هذه الصلات جرثومة لعلاقات تجارية حية نشطة توضحت وبرزت في القرن الحادي عشر ، ثم لفظت آخر أنفاسها بعد زمن وجيز ، أعني حين ابتدأت الحروب الصليبية . وبعد أن كسر الحاجز الذي أقامته العصور الاسلامية الأولى ، صارت

---

٣٧) دارصيني *cinnamon* ، كافور *camphor* ، اللوز *aloes* ، مسك *musk* . يسقط في يد المرء إذ يعمد إلى احصاء الكلمات العربية التي دخلت اللغات الغربية بهذه الطريقة . فحامض التارتاريك هو الملح التتري (النوشادر) ، والفرش المسماة طنفسة هي *tapetes* و *tapestry* ، وكلمة القرمز *crimson* هي (القرمس الاحمر) احدى المادتين الاساسيتين في الصباغة (ابن حوقل ص ٣٢٨) . وثم الاقمشة الحريرية المسماة *dimitus* وهي الدمياطي نسبة إلى دمياط المشهورة بصنع هذه الأقمشة (انظر الخطط للمقريزي ص ٩٦) .

التجارة من أقوى العوامل وأشدها فعالية في نقل الفكر والثقافة إلى شعوب اوروبا التي كانت تتوق اليها وتتقبل بحماسة منافعها وفوائدها بفضل ملوكها أمثال (روجر الثاني) صاحب صقلية . ومن الوسائل العديدة التي أوجدتها العلاقة التجارية لاحلال التعاون الوثيق بين المسلمين والمسيحيين عوضاً عن الجفاء ، انشاء الشركات التجارية الموحدة ، وإبرام المعاهدات التجارية ، مما لا يمكن بحثه هنا باسهاب . فما عتمنا أن رأينا الثروة الثقافية العظيمة التي جمعها العالم الاسلامي خلال خمسة قرون تنصب على اوربا انصباباً ، تلك الثروة لم تكن مقصورة على منتوج الصين والهند وافريقية مما جمعته روح التبادل الاقتصادي الاسلامية من أقاصي البلاد ودانيها ، انما كانت في الحقيقة تمثل البلاد الاسلامية بما تنتجه من مواد خام وسلع مصنوعة . ولقد نشأ الانتاج الصناعي الاسلامي بطريقة خاصة فالطابع الرئيسي الذي وسمه هو خضوعه التام لرقابة الامراء والحكام وعدم اعتماده على قوة رأس المال الجبارة وقلة اهتمام ذويه بالتنظيم الحرفي النقابي القديم . هذا الشكل غير المألوف للتطور الصناعي حقق ضرراً وخساراً عظيماً للاسلام عندما وصل في الأزمان المتأخرة إلى ميدان المزاحمة الاقتصادية قبالة الصناعة الأوربية . لكن فترة الرخاء التي مرَّ بها الاسلام جعلت تقدم الصناعة الاسلامية ممكناً من جهة اتقان صنع البضاعة ، الأمر الذي رفع القيمة الفنية لها إلى مستوى لا يُدانى . ولنذكر بالدرجة الأولى الانتاج السلعي إن عدداً من الأسماء التي ثبت استعمالها في لغات الغرب ترينا أية بضائع كانت تستورد من البلاد الاسلامية . فالموسلين muslin (مشتقة من الموصل) ، والدمسق damask (دمقس : مشتقة من دمشق) ، وبالداجين baldachin (أصله نسيج يصنع في بغداد) وغيرها من المنسوجات ذات الأسماء العربية أو الفارسية مثل (الكوز gauze والقطن cotten والساتان :

الشيطان satin (الخ ... ويرجع تاريخ استيراد السجاد الشرقي أيضاً إلى العصور الوسطى . ومن المفيد أن نذكر هنا أن أنواعاً من الثياب التي كان يرتديها ملوك الجرمان في القرون الوسطى فيها نقوش عربية وربما كانوا يوصون أن تخاط لهم في صقلية ، حيث الصناعة والفن الاسلاميين مزدهران فيها بعد أن عاد المسيحيون إلى احتلالها بمدة طويلة . إن المحاصيل الطبيعية تفضح أسماؤها البلادَ الاسلامية التي جاءت منها كالفواكه (البرتقال والليمون والمشمش) . والخضار (كالاسبيناج والخرشوف وكذلك الزعفران ، وأهمها طراً العفص) ، والاحجار الكريمة (البيروز واللازورد) والآلات الموسيقية (كالعود والقيثارة) وغير ذلك مما لا يحصى . إلا أننا لا نستطيع إقامة الدليل الدامغ على فضل التجارة في إدخال هذه التعابير إلى لغاتنا . والقول يصدق أيضاً على دخول بضاعة نفيسة القيمة هي الورق ، فإن اوربا تعلمت صناعته ولا شك من الشعوب الاسلامية في حدود القرن الثاني عشر . وبالأخير فقد حفظت لنا معاجم المصطلحات التجارية أبلغ الشواهد والأدلة على حقيقة النفوذ الذي كانت تمارسه التجارة العربية والنقل التجاري العربي ، ومبلغ أثره في تقدم التجارة المسيحية ، ففي كلمة (ستَرلنك sterling) مثلاً توجد لفظة (stater) الاغريقية القديمة ، ولم تصل إلى اللغة الانكليزية إلا من طريق اللغة العربية . وكلمة (ترافيك traffic) ربما كانت مشتقة من الكلمة العربية (تفريق) . وثمة كلمة شائعة الاستعمال كثيراً في لغاتنا هي (تاريف tariff) ولم تكن سوى تحريف للكلمة العربية (تعريف) الدالة على وصف البضاعة وطريق الاعلان عنها ، وإلى الأصل نفسه ترجع كلمات (قالب calibre ، طَرْح tare ، رِزْق risk) ثم الكلمة التي لا يمر يوم دون أن ينطقها المرء منا مرات (magzine) المشتقة رأساً من اللفظة العربية (مخازن) والكلمة الفرنسية

المستعملة لهـا هي أقرب إلى اللفظ العربي الحقيقي (magasin) الشائعة اليوم للمخزن والحانوت . والصك هو (الجيك cheque)[٣٨] كما مرّ علينا في بحثنا عن التجارة الافريقية ، ويدل على أصله العربي أيضاً لفظتاه الالمانية والهولندية (wissel ، wechsel) [٣٩] فانهما عربيان أيضاً . وعلى هذا

---

٣٨)ولعل ذلك سبق معرفة العرب بالنقود الورقية او ما كان يدعى بدراهم الكاغد،وقد كان ابن بطوطة اول كاتب عربي ذكر التعامـل بالكاغد في بلاد الصين . ومن الا كيد الثابت أنها لم تستعمل في عهد الخلافتين العباسية والفاطمية ، ولعلهـا لم تنشأ إلا في دولة المغول بعد سقوط بغداد . وأول من ذكر ظهورهـا في أيامهم على ما وقفنا عليه ، عبد الرزاق الفوطي في أخباره عن القرن السابع للهجرة ودعاهـا « الجاو » . وحكي أن صدر الدين أحمد بن عبد الرزاق الخالدي صاحب ديوان الممالك في تبريز وضع هذا الجـاو في السنة ٦٩٣ هـ. = ١٢٩٤ م عوض السكـة من الدنانير والدراهم وأمر أن يتعاملوا بـه ، وعليه تمغـة السلطان ، قال « وكان من عشرة دنانير إلى دون ذلك حتى ينتهي إلى درهم ونصف وربع . فتعامـل به أهل تبريز اضطراراً لا اختياراً بالقسر والقصر ، فاضطربت أحوالهم اضطراباً أضر بهم وبغيرهم حتى تعذرت الأقوات وسائر الاشياء ، وانقطعت المواد من كـل نوع فكان الرجل يضع الدرهم في يده تحت الجاو ويعطي الخبـاز والقصاب وغيرهمـا ويأخذ صاحبه خوفاً من أعوان السلطان . ثم حمل منـه عدة أحمال إلى بغداد صحبـة الامير (لكزى بن ارغون أقا) فلمـا بلغ ذلك أهلها استعدوا بالاقوات وغيرها حيث عرفوا مـا جرى من تبريز . فلمـا أنهي ذلك إلى السلطان كيغاتو أمر بابطاله ، فابطل قبـل وصول لكزى إلى بغداد ، وكفى الله العالم شره (الحوادث الجامعة في المئة السابعة لكمـال الدين عبد الرزاق الفوطي ص ٣١٣) (حبيب زيات الخزانـة الشرقية ج٢ ص ١٣٩ .

مـا زال بعض المتقدمين في السن من أبنـاء البلاد يذكرون وقوع ذعر اقتصادي كهـذا في أواخر القرن التاسع عشر عندمـا استبدلت الحكومة العثمانيـة سكتّهـا المعدنية بالورقية . فقد أبى الناس التعامل بها وأضرب البائعون ولم يعد لتلكالنقود ثمن ، وأصبح الناس يتعاملون بالذهب سراً أو بالمقايضة .

من العجيب أن نجد دولا شرقة تبلغ درجة من القوة ويشعر أهلهـا بالطمأنينة والأمـن الاقتصاديين لتعتمـد آنذاك على نقود الورق عوض (قاعـدة المعدن) حيث لا تستمد النقود قوتّها من قيمة المعدن الذي فيها بل من قوة الحكومة (المعرب)

٣٩) قارن بين اللفظتين ولفظـة (وصل) العربية (المعرب)

فقس المصطلح التجاري (آفال aval) [٤٠] . وعرف الغرب أيضاً (الحوالة التجارية) [٤١] و (شركة البيع الموحدة : joint stock company) التي ظهرت نتيجة لمشاركة المسلمين المسيحيين الايطاليين في التجارة . إن قانون التجارة الاسلامي بني نظرياً على الشريعة الاسلامية . وهو كذلك مستمد من تعاليم القرآن والاحاديث النبوية . أما عملياً فإن أحكامه ضبطت بالنظام المتطور للعادات التجارية ، حيث تقوم الاحوال التي تقدم وصفها ، شاهداً ودليلاً . إن احدى أشكال ابرام الصفقات التجارية للمواد المصنوعة عندنا هو ما ندعوه (mohatra) التي لم تكن إلا (المخاطرة) العربية التي دخلت لغات اوربا كذلك .

وكلمة أخرى شائعة إلى اليوم هي dounce (ومعناها دائرة تحصيل الرسوم) انما هي في الواقع كلمة (الديوان) العربية [٤٢] . هذه اللفظة تذكرنا بالزمن الذي اتسعت فيه المعاملات التجارية وانتظمت في كثير من مرافيء البحر المتوسط . ومن المعروف جيداً أن هذه العلاقات كان لها أعظم الأثر في التنظيم التجاري لشعوب الغرب . فالاتفاقات والمعاهدات التي عقدوها مع ملوك المسلمين وأمرائهم ، ومجالس الشورى والقنصليات ولجان

---

٤٠) قيل ان أصل كلمة آفال هي الكلمة الفرنسية *à valiore* المدغمة ، وقيل انها مشتقة من كلمة (حوال ، حوالة) العربية التي استعملها تجار العرب أيام كانوا يجوبون أقطار الشرق في القرون الوسطى ومعناها القانوني والتجاري هو الكفالة الشخصية لوفاء الصك او السفتجة ، تزيد عدد الملزمين بدفعها ليسهل تداولها (المعرب)

٤١) وتدعى بالسفتجة : لما خرج ناصري خسرو الرحالة الفارسي من اسوان بمصر ، أخذ خطاباً من صديق له كتبه إلى وكيله في عيذاب بان يعطي ناصراً كل ما يريد ويأخذ منه مستنداً ليضاف إلى حساب الصديق (رسالة السفرنامة طبعة شيفر ص ٦٤) . كذلك يروي ابن سعيد في كتابه (المغرب ص ٣٢) أن الاخشيد صاحب مصر أرسل إلى نائبه ببغداد سفاتج بثلاثين الف دينار لتسليمها للوزير ابن مقلة أيام كان وزيراً (المعرب)

٤٢) اصلها فارسي على كل حال وليلا حظ أن بعض الكلمات التي اوردها المؤلف في السطور السابقة ذات اصل فارسي او هندي على انها لم تنتقل الا بواسطة العرب (المعرب)

التحكيم في مرافيء الشرق كانت من العوامل المهمة في تطوير القواعد التجارية التي تحكم التجارة العالمية في وقتنا الحاضر .

وفي وسع القاريء أن يرى مما أوردناه ، أن الغُنْم الثقافي الذي نالته اوربا من العالم الاسلامي في صعيدَي الجغرافية والتجارة لم يكن ثمرة ساعة واحدة ، انما قام على العلاقات المتبادلة التي ظلت متواصلة منذ مطلع القرن الحادي عشر حتى الآن ، فوصلت إلى ذروة مجدها أثناء حكم المغول في القرن الثالث عشر . كذلك يجب أن نضع نصب أعيننا حقيقة واحدة وهي ان الحضارة الاسلامية بنموها وازدهارها عن طريق الدول التي أعقبتها في الحكم كتركيا وايران وشعوب الهند المسلمة وسكان جزر الهند الشرقية المسلمين) جعلت كثيراً من الآراء والعادات الاسلامية معروفة مطبقة في البلاد الاوربية . ولكن لم يبدُ من فترة تاريخية تفوق ساحق عظيم للشعوب الاسلامية على العالم المسيحي كفترة القرن العاشر ، أعني عندما وصل الاسلام إلى أوج السؤدد والتقدم ، وعندما كانت اوربا المسيحية في ركود وظلام حالك .

جي . اج . كرامرز

مصادر الفصل

A. Reinaud, Introduction Générale à la Géographie des Orientaux,in Tome I of Géographie d'Aboulféda, Paris 1848.

C. Schoy, The Geography of the Moslims of the Middle Ages in « The Geographical Review » (published by the American Geographical Society of New York) 1924, pp. 257-69.

K. Miller, Mappae Arabica, Vols. I-IV, Stuttgart 1926-9.

Monumenta Geographica Africae et Aegypti, par Youssouf Kamal, Tome III (Epoque Arabe), Fasc. i, 1930.

إن هذا أول مطبوع سهّل القيام بمسح كامل للنصوص الكثيرة والخرائط التي نظمت بترتيب تاريخي دقيق . ومكنت أيضاً من إجراء المقارنة بين المعارف الجغرافية العامة الأوروبية والاسلامية لذلك العهد) .

J. Lellwel, Geographie du Moyen Ages, avec cartes. 2 vols. Bruxelles, 1852. Atlas, Bruxelles, 1850.

C.R. Beazley, The Dawn of Modern Geography, Vols. I-II. London 1897-1901; Vol. III. Oxford, 1906.

G. Jacob, Studien in Arabischen Geographen, Vols. I-IV, Berlin, 1891-2.

Ch. De La Ronciere, La Découverte de l'Afrique au Moyen Age, 3 vol. Cairo, 1925-7.

Sir Arnold T. Wilson, The Persian Gulf. Oxford, 1928.

G. Ferrand, Relations de Voyages et textes geographiques arabes, persans et turcs relatifs a l'Extrême-Orient des VIIIe au XVIIIe siècles, 2 vol. Paris, 1913-14.

A. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, 3 vols. Leipzig, 1885-6.

W.A. Bewes, The Romance of the Law Merchant, London, 1923.

L. De Mas Latrie, Historical introduction to Traités de Paix et de Commerce et Documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'afrique Septentrionale au Moyen Age. Paris, 1866.

AL-Muqaddasi, translated from the Arabic and edited by G.S.A. Ranking and R.F. Azoo, Vol. I, 1-4 (incomplete), Calcutta (Bibliotheca indica).

Edrisi, Géographie traduite de l'Arabe en Français d'après deux mss. de la Bibliothèque du Roi et accompagnée de notes par Amédée Jaubert. Paris, 1836-40, 2 vols.

C. Barbier de Meynard, Dictionaire géographique, historique et littéraire de la Perse et contrées adjacentes, extrait du Modjem al-Bouldan de Yaqout et complété a l'aide de documentes arabes et persans, Paris, 1861.

Ibn Battuta, Travels in Asia and Africa, 1325-54; translated and selected by H.A.R. Gibb (The Broadway Travellers, edited by Sir E. Denison Ross and Eileen Power), London, 1929.

Pierre D'Ailly, Ymago Mundi, ed. Par Edmond Burn, Tome I, Paris, 1930.

الفنون الفرعيّة الاسلاميّة وتأثيرها على الفنون الاوروبيّة

بقلم

اي. اج. كريستي A. H. Christie

وبآخره

الفن الاسلامي وأثره على التصوير في اوروبا

بقلم

سر توماس ارنولد Sir Thomas Arnold ١٨٦٤ — ١٩٣٠

من أعاظم المستشرقين البريطانيين . صاحب فكرة كتاب (تراث الاسلام) هذا ، والمشرف على تنسيقه واخراجه . تعلم في كمبردج وقضى عدة سنوات في الهند استاذاً للفلسفة في كلية عليكره الاسلامية وهو أول من جلس على منبر الاستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ذاع صيته بكتابيه (١) الدعوة إلى الاسلام الذي ترجم إلى التركية والأردية وإلى العربية مؤخراً . و (٢) الخلافة . كما إنه نشر عدة كتب قيمة عن الفن والرسم الاسلامي .

قدر للاسلام حين بدأ بالسير في نهجه المجيد من ناحيته الغربية أن يزرع شكلا من الفن جديداً في المدن المتاخمة للاطلنطي . وكانت مرحلة الشروع في أقاليم ألفنُ فيهـا بدائي متأخر . إن هذا الفن كما وجد في جزيرة العرب كان إما اثراً فقيراً من آثار الماضي البعيـد ، وأما محض تقليد في طبيعته لانعكاس خارجي لاح في امكنة تأثرت بالتطورات الخارجية تأثيراً سطحيـاً . ولم يبد أن فناً محلياً بارزاً قد ظهر حتى في البقاع الخصبة التي غمرتهـا مجتمعات مستقرة آمنة مفلحة في ظروف تختلف تمام الاختلاف عن تلك الظروف التي أبقت القبائل الرحالة في عزلة خاملة . استمد الفن الاسلامي روحيته من جزيرة العرب ولكن شكله المادي قد فُصل من مكان آخر : في بقاع كان الفن قوة تنبض بالحياة .

احدثت النصرانية في سوريا ومصر تغييرات عميقة من الفن الوثني الذي كان سائداً لدى ظهورها ، واتحدت العوامل العديدة التي كانت متأصلة في تلك التربة أو التي جلبت وتطورت بقوى سيطرة الاجانب لتولد فنـاً جميلاً ملتحماً عظيم الروعة . كان اطراد الامور فيما وراء دجلة والفرات يجري في سبيل مختلف . فقد تصرمت بضعة قرون منذ أن أقام الفرس الاسرة الساسانية الوطنية بعد ثورتهم في وجه الفرثيين (١) حكامهم الطغاة ودخلوا

١) حكم الفرثيون أو البارثيون من ٢٤٧ ق.م إلى ٢٢٦ ب. م ، والساسانيون من ٢٢٦ – ٦٣٦ م . واردشير الاول وهو عميـد اسرة آل ساسان ، تزعم فئـة فارسية متبرمة فقاتل سادتهـا الفرثيين ، وانتصر عليهم في ثلاث معارك ، ونودي بـه ملكاً على خراسان . وقد ثـل الفتح الاسلامي العرش الساساني (المعرب)

بذلك عهد احياء وطني ساطع . أن فنهم هو موغل في القدم غذته العناصر اليونانية المستمرة في التمثّل منذ غزوة الاسكندر وبالاخير ممـــا ورده من قلب آسيا والذي طعمتـه العبقرية الايرانية . هذا الفن بلغ الآن اشده وصيغ بابداع عظيم لا يدانى . وقد اخذ الفن الاسلامي ينمو تدريجياً في وسط هاتين المدنيتين المتعاديتين فيما بينهما من جهة واللتين كان الاسلام يمقتهما معاً .

كان الفن في القرون الوسطى اولا وآخراً مجرد افصاح عن اغراض دينية . واننـــا نستطيع بالغريزة أن نميز بين الاتجاهات الفنيـة عن طريق المذاهب الدينية التي صاغهـــا . إذ مهمـــا كانت بعض العناصر الداخلة في تكوينها واسلوب صناعتهـــا تربطها بجذور مشتركة ، فانها صبت في قوالب متمايزة ذات طابع ديني غلاب . كان الفن المسيحي بالدرجة الرئيسة واسطة للتثقيف الديني ، ورسالتـه كانت على الدوام بينـة ظاهرة من مجموعة من الصور والتهاويل الخفية الفن ، صيغت بشكل يفهمه الأمي كما يفهمه المتعلم . ولكن صناعة الايقونات الفاخرة كانت تبدو محض اعمـــال وثنية في نظر العرب الذين لافتقارهم إلى راث فني – كانوا ينظرون إلى الفن بارتياب وقرنوها ككل الناس البدائيين إلى السحر ، فضلا عن ذلك فان الترف كان يعـــد بنظرهم في اول حميتهم الدينيـــة وتمسكهم باهدافها حراماً بصورة خاصة أو هو نتيجة طيش كفري لا طائـــل تحته أو من حبائل ابليس بحيث يجب ألا يكون للمؤمن به اية صلة . كانت فخامة الفن الفارسي بـــل وروعة مهارة الصناع الفرس التي مـــا عتمت أن أثرت التأثير [ا]لعميق على الدين الاسلامي . هذه الصفات كانت في بادىء الامر مكروهة للغاية منهم بقدر مـــا كان يظهرون من البغضاء للابتذال الوثني الذي مثلته تلك الفنون .

بدأ الفن الاسلامي في الجامع . هنـــا ولد في رائعـــة النهار وربي بكل وضوح تحت رعاية عامة الجمهور وكان أولُ جامع ابنيـــةً عاريةً خلت

من أية نزعة معمارية وجعلت للعبادة والوعظ فقط . أمــا أثاثها — لو كان وجد لأنه لم يؤثث في مبدأ الأمر — فهو ابسط مــا يمكن وكل تجديد فيه يغدو موضوعاً لنقد مرير . ولقد قيل بأن أول منبر اقيم في مصر — هدم بأمر من الخليفة عندما طرق سمعه نبــأ الفضيحة لأن ذلك من شأنه أن يرفع الخطيب أعلى من أخوته في الدين . وأول محراب بني ليعين جهة معاكسة أثير حوله لغط عظيم جداً لانه كان شديد الشبه بالحنيــة المسيحيــة (المذبح aspe) الذي عنه اخذ بلا شك . ولكن سرعان ما ظهر جيــل أكثر تدقيقاً في ملاحظة التباين بين فقر المسجــد وغنى كنيسة الكفـار . وبسير الزمن في مجراه اصبحت المنارة والمحراب ؛ الزخرفين الرئيسيين في بنايــات عدت بسبب براعة التصميم وتلون الزخارف من بين فتوحات فن العمارة الخالد .

وباتساع رقعة الاسلام اخذ التماس مع الامم الغربية نظرته الفنية وانتجت القيود الصارمة الدائمة التي تفرضها العقيدة اتجاهات جديدة للعمل الفني الاعلى . زد على ذلك أنّ اتساع النظرة الاسلامية ادى إلى دخول عنصر ثقافي جديد دنيوي خالص في طبيعته وتركزه على حساب التفوق الروحي . وعندما أخذت العادات الاجنبية تصيب بعدواهــا الحاكمين الذي لم يكونوا أساطين الدين الحنيف ، صارت الصبغة الدينية تنصل من جدران القصور وزحفت انواع من الفنون مــا كانت من الدين في شيء عندما بدأ الخلفــاء المثقفون يكتسبون اذواقــاً دقيقة في الكتب الجميلة والمنسوجات المزركشة بالزخارف وامثالها من الأشياء اللائقة بملك لا بخليفة الرسول ؛ عندما وجدت ميول الحاكم الفنيــة هذه مُقلِّدين من النبلاء ومن أولئك الذين قلدوا تصرفات اسيادهم تقليد القرود ، ظهر فن ذو ميزة هو (فن البلاط) الذي لم يكن يخلو من ربح للصناع لكنه كان مصدر احتجاج رجال الدين .

كان الانفصال الارستقراطي مستحيلاً في زمن الخلفاء الاولين الذين

ثبتوا اركان مبدأ المساواة الأجتماعية بوصفه مبدءً لا يمكن خرقه قائلين بألاّ حجاب يفصل عند الحاجة بين الفرد والحاكم الذي يجب أن يكون اسلوب حياته وداره ووجوه انفاقه فوق الشبهات . ولم يطـل العهد بهذا ، حتّى اخذت طبقة حاكمة مرفهة ناعمة تبتعد عن سواد المجموع فاصبح القصر مكاناً منفصلاً ساد فيه مستوى عيش وخلق جديدين . أما عن وجود فن بلاط دنيويّ الصبغة في عهد بني امية فهذا ثابت من رسوم حائطية دقيقة الصنعة ذات صور آدمية متقنة على طراز هو مزيج من الهيليني والشرقي ما زالت موجودة في كهف ضيد في صجراء شرق البحر الميت (٢) وهو بناء يظن أن الخليفة الوليد الاول كان قد شيده بين السنوات ٧١٢ — ٧١٥م . كان لفن البلاط اصوله الثابتة عندما نقـل العباسيون عاصمتهم من دمشق إلى المدينة الحديثة بغداد التي فرغ من بنائها فعلاً في ٧٦٦م . هذا التغيير في عاصمة الملك يشير إلى بداية فترة في تاريخ الفن الاسلامي إذ من ذلك الحين اخـذ التأثير الفارسي يتغلغـل فيه ويفرض سلطانه على تطوره .

* * *

لا تقتصر غايتنا على تتبع نمو الفن الاسلامي خطوة خطوة بـل تتعداها إلى رسم صورة مختصرة لبعض تطوراته الناضجة وان نقتفي ، عن طريق تركيز اهتمامنـا في مستحدثاته المحضة ، إثر النجاح الآنيّ السريع الذي خلفته في اوروبا المسيحية . وليكن معلوماً أن قصارنا هنا هو البحث عن الفنون الزخرفية في عمـل أولئك الصنّعة الذين يُستدعون عند اشادة بنـاء لاكماله من كـل ما يحتاج من البداية حتّى آخر التفاصيل ليكون مناسباً للشيء الذي أقيم له .

---

٢) ان صوراً ملونة لهذه النقوش وردت في كتاب (*Alois Musil*) المسمى « قصر عمرا *Kusejr 'Amra* » ط فيينـا سنة ١٩٠٧ (المؤلف).

سرعان ما اصبح المسلمون اعظم البنائين . كانت عبقريتهم قد أنبتت آراء هندسية ذات مفاهيم فنيــة دقيقة ووقف التحريم الديني للتصوير البشري حائلاً دون أي تطور في عمـــل نحت التماثيل . لكن النحاتين على الصخر والحفارين في الخشب وغيرهـــا من المواد كانوا عظيمي المهارة . ومع أن النقش على الجدران يبدو أنه قد وجد منذ الازمان الاولى . فالنقش الاسلامي المعروف تحدد بمـــا يسمى الميناتور Miniature [٣] وهي صور وتهاويل صغيرة ورسوم ومخططات وما أشبه ، تنبيء عن قدرة فنيـــة وبراعة دقيقة واحساس عميق بالالوان . لكن ينقصهـــا بعض المقومات التي يمكن اكتناهها عند مقارنتها بأحسن آثار القرون الوسيطة الاوربية التي صنعت في ظروف شبيهة بظروفهـــا . كان المعمارون العباقرة العظام كثيرين عند الاسلام ولكننا نحاول عبثاً أن نجد جبابرة يطاولونهم في فني النحت والتصوير . وإذا كان المسلمون قد فشلوا باستثنـــاء فن العمارة وحده في مطاولة التقدم الغربي في فنون الزخرف فإن نجاحهم ما كان له نظير في الفنون التي أُطلقت عبقريتهم من عقالها تسرح وتمرح كما تشاء خلال القرون الوسطى . كان الاسلام الوارث المباشر لكثير من تقاليد الصناعات الدقيقة الغابرة غير المعروفة عند الغرب وبالطريقة نفسها نقل العلماء لأخلافهم، الدَّيْنَ العظيم من الثقافة الغابرة . وقد حفظ الفنانون المسلمون ورفعوا ونشروا في الخارج تقاليد فنون اشغال الدكاكين الرائجة في الشرق ، التي اما لم تتسلّل إلى اوروبا أو انها(لو عرفت في ازمان سابقة) ، كانت مندثرة خلال فترة الاعصار والضغط الذي كان بشيراً بالقرون الوسطى .

---

٣) اصل هذه الكلمـــة لاتينيـــة *mino* ومعناها (لون بالجأب) . وهو الرسم على الورق او الخزف او المعدن بالوان واحدة بسيطـــة خاليـــة من التضليـــل والتجسيم . ومنه جـــاء « المينا » ونقش الميــنـــا (المعرب)

اتخذ الفن الاسلامي وهو في سبيل تقدمه من جديد بهذا الفن القديم شكلاً متمايز المعالم وطابعاً خاصاً واضحاً حتى ليمكن عده طبيعياً يمّر النظر به مر الكرام غير متشكك . كان كل شيء سواء أأعِدّ للاستعمال الاعتيادي أو عمل لمناسبة خاصة — يكسو الزخارف النابضة بالحياة باسراف عظيم الدقة وبأشكال تبدو وكأنها طبيعية كالرسوم التي تخلعها الطبيعة على الاحياء اكثر مما تبدو زخارف اصطناعية . والاشكال التي اخذتها هذه التصاميم وإن هي غريبة تماماً عن الذوق الغربي فانها ليست بدرجة من النبوّ عن التقاليد الاوربية يتعذر معه تحقيق المواءمة في بينها .

كانت غرابتها جاذبة خيالية . كانت عناصرها المكوّنة مصوغة بدرجة من الدقة والنظام حتى ليكاد يستولي علينا الوهم بأن تحت هذا المظهر المتناسق حيوية دافقة لا يدرك كنهها . هذا الاسراف الزخرفي لم يكن تَعِلّة لملء فراغ أو اخفاء اشكال ظاهرة المدلول ، لكنه جزء رئيس من اجزاء الصناعة الدقيقة التي لا يمكن أن نعد العمل كاملاً بدونها . فاطراد النسق الايقاعي في الزخرف هو للعين الشرقية ضرورة ايناسية صرفة كضرورة اللحن للاذن الغربية . وكان الصناع الشرقيون مولعين بالتأليف الزخرفي إلى درجة انهم كانوا يقتلون مسائلها درساً وتمحيصاً وينظمون قواعد شغلها على الخطوط التي ما زال الصناع منهم يحتذونها حتى الآن . ان ازهد دراسة للفن الاسلامي ستبين بأن الاشكال الزخرفية يجب أن توضع في صف اعلى الفنون الصغيرة التي تفتقت عنها العبقرية الاسلامية . ومع أن الشرائع الدينية حرمت تحريماً باتاً على واضعي التصاميم المسلمين أن يبرزوا في اشغالهم الصور الآدمية أو المخلوقات الحية ؟ مع ذلك فان نقوشاً كهذه ما كانت في الواقع تخلو منها الزخارف الاسلامية غالباً . على أن الزعم القائل بأن بعض المذاهب الاسلامية قد اجازت ذلك ، هو زعم لا اساس له كما لم يسمح له بأي حال

من الاحوال في المساجد . وعليه فظهورها الفجائي في الحاجات التي تزينها يدل على انهـا صنعت لغرض غير ديني . ان الجرم الذي كان يرتكب بسبب كسر حدود الشريعة ذات القواعد الصارمة كان يغض الطرف عنه من قبل الناس الواسعي العقل ولكنه كان دائماً يثير حفيظة المتزمتين الذين قد ترتفع عقائرهم في أية لحظة بالاحتجاج الغضوب . وفي متاحفنا ومجموعاتنا الأثرية الفنية نجد تحفاً كثيرة عليهـا آثار الغضب الفجائي ، من ضربة سريعة أو تشويه آنيّ ، وكلهـا دلائل ثابتة بأن النعرة الدينية قد تدفع يد القصاص إلى الامام أحيانـاً .

وثم مظهر آخر بارز من مظاهر الزخرف الاسلامي وهو استعمـال الخطوط العربية : آية من القرآن أو بيت شعر جميل لاحد الشعراء أو عبارة من عبارات الترحيب أو الدعـاء كثيراً مـا تجدها تحيط حافة أو افريزاً أو تملأ شكلا هندسياً انيقـاً . ونرى ايضاً بين آن وآخر اسم ولقب التعظيم للمالك الامير ، تزين ممتلكاته النفيسة مقدمة لنـا بهذا قرينة ودليلاً نادراً على تاريخ الحاجة ومصدرها . وكانت تدرج وتثبت لنـا الوقائع احياناً بدقة عندما يضع الصانع الفنان ختمه على أثره مع اسم المدينة التي تم فيهـا الصنع . كان نقش الخط العربي وهو الهبة الوحيدة العربية للفن الاسلامي دليلاً كونيـاً على السلطان والتأثير الاسلامي اينمـا انتشر . ان الخط الذي كتب به القرآن كان يعتبر مقدساً في عهود الاسلام كافة وكان الخطاطون ينافس احدهم الآخر في التفنن بكتابة حروفه الجميلة . وصارت اجيال أئمة من الخطاطين والنساخين تزاول عملهـا هذا بنجاح وتشجيع حتى اصبح الكتاب الديني كنزاً لا يقدر بثمن فضلاً عن أن اصغر عبارة مخطوطة لخطاط مشهور لتكون قبلة جمّاعي التحف .

اخذ الصناع الاوربيون يألفون بالتدريج شكل الخطوط العربية وإن لم

يكونوا قادرين على قراءتها وثم شاهد قديم على المعرفة بها والجهل بقراءتها تقدمه له عملة ذهبية ضربهـا (أوفا ملك مرسية ٧٥٧– ٧٥٦ م) هي الآن محفوظة في المتحف البريطاني (انظر ما سبق) تشبه هذه القطعة الدينار الاسلامي شبهاً عظيماً الا من كلمتي (اوفا . ملك) قد ثبتّا على وجهيها وسط كتابة عربية منقولة نقلاً اميناً بحيث اننا نجد تاريخ القطعة الاصلية بالعام الهجري ودعاء دينياً اسلامياً ظاهراً للعين في النسخة . إن هذه القطعة لا مثيل لنوعها فهي تثبت لنا كم كان واسعاً تداول العملة الجيدة التي تخرجها دور الضرب الاسلامية . وفي المتحف نفسه شاهد آخر للتماس الغربي بالصناعة الاسلامية في شخص صليب ايرلندي مطلي بالبرنز يعود إلى حوالي القرن التاسع في وسط زجاجة عليها العبارة العربية (باسم الله) بالخط الكوفي . في كلتا هاتين الحالتين لم يكن الصناع يدركون مغزى الكتابة العربية التي ينقشونها أو التي يقلدونها إذ لا يمكن لكتابات اسلامية بحتة كهذه أن تنقش بدراية وفهم على عملة ملك مسيحي أو تثبيتها فوق شارة مقدسة كشارة الصليب .

منذ هذا الوقت فصاعداً اخذ نقش الخطوط العربية يتسع مدى استعماله في اوربا المسيحية وإن كان نقله مشوهاً في أغلب الاحيان حتى لم يكن بالامكان قراءته . كذلك التفاصيل الزخرفية المستمدة من الجهات المسلمة فقد ازدادت وتعقدت . ان الدافع الديني الجاذب إلى الاماكن المقدسة والتوقان الشديد الى المعرفة التي ورثها المسلمون وحدهم كذلك المشاريع التجارية وغيرها من المصالح ؛ اجتذبت عدداً كبيراً من السياح إلى اراضي المسلمين ليعودوا فيما بعد منها ؛ محملين بعاديات وتحف تجلت فيها المهارة الاسلامية شاهداً على القصص التي حفظوها عن ترف العرب وعظمتهم .

كان الاسطرلاب [٤] من الاشياء الرئيسة التي جلبهـا رواد العلم الجوالون اثنـاء تجوالهم في حواضر ومراكز العلم الاسلامية لينهلوا مما حرمته بلادهم من المعارف . والاسطرلاب آلة فلكيـة من مخترعات الاغريق حسنهـا الجغرافي الاسكندري بطليموس ووصل بهـا المسلمون حد الكمـال . دخل الاسطرلاب اوربا في غضون القرن العاشر وكان استعماله في الشرق لتعيين وقت الصلاة وقبلة مكة بالدرجة الاولى لكنـه استخدم أيضاً لاغراض أخرى كالتي وصفت في (القصة التي حكاها الخياط) [٥] حيث أخر الحلاق المتعيلم ضحيتـه المستشطية غيظـاً ريثما يعين بأسطرلابه الوقت المناسب للحلاقـة الميمونة . ومهمـا يكن فاقتران ذكر الاسطرلاب بالتنجيم كسب لـه ولاولئك الذين مهدوا في استعمـاله ، شهرة رديئة وذكراً غير حميد في القرون الوسطى عندما كان الاعتقـاد سائداً بأن الفلك والتنجيم همـا سميان لشيء واحد . ان العالم الكبير في القرن العاشر (كربرت الاوفيرني) الذي تسنم عرش البابوية باسم سلفستر الثاني ٩٩٩ م أثر عنه اشتغاله بأمور الفلك ووقوفه عليه وقيل أنه كان على اتصال بالشيطان ايام وجوده في قرطبة . وعندما ابدى (وليم السالسبري) اشارة سوداء عن براعـة كربرت في مناجاة الارواح بذكره كيف انه (وهو الذي تفوق على بطليموس في استعمـال الاسطرلاب) احيـا العلوم الرياضية المشروعة في بلاد الغـال (فرنسا) بعد أن كانت خاملـة . في مدينة فلورنسا أثر مهم يعود إلى القرن العاشر هو اسطرلاب عمـل لقياس عروض روما ويظن بعض المتتبعين أن يعود للبابا سلفستر .

---

٤) انظر ادواردو سافدرا *Eduardo Saavedra* « ملاحظات حول الاسطرلاب العربي» «*Note sur un astrolabe arabe* و *Atti del iv*» « المؤتمر الدولي للمستشرقين » ١٨٧٨ فيرنزي *Firenze* ١٨٨٠ .

٥) انظر هذه القصة في حكايات الف ليلـة وليلة (المعرب)

ان الاسطرلاب المحفوظ الآن في اكسفورد هو اقدم اسطرلاب معروف ، عمل ٩٨٤ م بتعاون اثنين من الاساتذة (احمد ومحمود) ابـني ابراهيم الاسطرلابي الاصفهاني . ومن بين ما هو محفوظ في المتحف البريطاني تقليد انكليزي له يرجع إلى ١٢٦٠ م. وتحتفظ مكتبة كلية مرتون Merton بآلة أثر عنها انها تقرن إلى (جوسر) الذي كتب رسالة عن الاسطرلاب لصغيره . كان الاسطرلاب للملاحين آلة لا تثمن فقد استمر يستعمل في الغرب لرصد الانواء حتّى القرن السابع عشر حيث حلت محله متبدعات جديـدة . ان الاسطرلاب الانيق هو عبارة عن عمل جميل من اعمال الفن يصنع ويحفر بدقة وبراعة لا مزيد عليهما وبشكل يظل محافظاً على قوامه عدة قرون دون أن يحصل تغيير في معدنه . وثم واحد صنع تحت نَظَارة (ابراهيم بن سعيد) في طليطلة السنة ١٠٦٦–١٠٦٧ يظهر في (الشكل١٥)ويمكن أن يقارن باسطرلاب آخر (الشكل١٦) شبيه به لكنه مغطى بزخارف دقيقة من عمل الفنان الايراني عبد الحميد في ١٧١٥ . ومن بين المصنوعات المعدنية الاسلامية التي وصلتنا صندوق في كاتدرائية جيرونا Gerona (الشكل١٧) مصنوع من الخشب ومصفح برقائق من الفضة تتزاحم فيه الزخارف المرصوعة البارزة على شكل عساليج واغصان وفيها نقش خطي ينطق بأنه لـ (بدر ، وطريف) صنعاه لاحد رجال حاشية الحكم الثاني (٩٦١ – ٩٧٦) ليكون هدية لولي العهد هشام الذي عقب اباه في الخلافة بقرطبة . وهذا هو احد تحف فضية عدة بقيت حتّى زماننا . ولكن مع الاعتراض الديني على استعمال المعادن الثمينة في هذه الحياة الدنيا لكونها معدة للصالحين في الحياة الاخرى ، فان صحاف الاكل الذهبية والفضية لم تكن محظورة قط في قصور الخلفاء .

وتصف السجلات التاريخية المصرية ببعض الاسهاب ، كنز الذهب الذي جمعه الخلفاء الفاطميون في القاهرة والذي نهبه بكامله جنود الاتراك

المأجورين الثائرين في فتنة العام ١٠٧٦ . لقد سجل المقريزي المؤرخ – معتمداً على السجلات القديمة التي كانت متوفرة في زمانه – نقلا لمفردات الامتعة والاثاث التي كانت القصور تمتلىء بهـا منذ اشادتها . هذه المنقولات تعيننا على تكوين صورة لمواد الترف الغريبة التي كان يتفنن صاغة البلاط في عملهـا . انها لوثيقة طويلة تصف بلهجة تجارية دقيقة التفاصيل – مواد عدة كالمحابر الذهبية والفضية وقطع الشطرنج ومقابض المظلات واواني زهر النرجس والبنفسج وطيور ذهبية وشجيرات مطعمة بالجواهر باعداد هائلة مذهلة لو اطرحنا عدة مئات أو نحوها من مفرداتها البالغة حد الآلاف التي ربما اثبتهـا بعض المؤرخين المتحمسين بلا تدقيق ؛ فالباقي على كل حال يكفي لتسليم المتأمل إلى الدهشة والعجب وفضلاً عن ذلك فان ثروة الفاطميين المأثورة قد شهد عليها شاهد معاصر هو الرحالة الفارسي (ناصري خسرو) الذي قام بناء على توسط احد كتاب السلطان له عند صاحب السر بجولة في قاعات السراي فذكر حين دخوله من الباب رؤية (اثني عشر جناحاً ابنيتها مربعة وكلها متصلة بعضها ببعض – كلما دخلت جناحاً منها وجدته احسن من سابقه .... وكان بالجناح الاخير تخت يشغل عرضه بتمامه وعلوه اربع اذرع وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاثة وعليه صور المصطاد والميدان وغيرها كما أن عليه كتابة جميلة .... وحول التخت درابزين من الذهب المشبك يفوق حد الوصف وبلغ هذا التخت من العظمة اني لو قصرت هذا الكتاب على وصفه ما استوفيت الكلام وما كفى .... [٦] .

اختفت صناعة الذهب والفضة الاسلامية القديمة بالفعل . وبقيت بصورة

---

٦) انظر (سفرنامه) وهي رحلة ناصري خسرو ، ترجمها إلى الفرنسية وطبعها شارل شفير *Charles Schefer* باريس ١٨٨١ (المؤلف) . نقلنا هذه الفقرة من الترجمة العربية للسفرنامه ت – الدكتور يحي الخشاب ١٩٤٥ (المعرب) .

رئيسة فيمـــا تخلف لنـــا من آنيـة واثاث برنزية ونحاسية وصفرية [7] كان يستعملهـــا اغنياء المسلمين . ومنها وحدها يمكن دراسة الصناعة المعدنيـــة الآن . والعقاب البرنزي العظيـــم (الشكل ١٨) الذي ينتصب قائمـــاً في (كامبوسانتو Campo Santo)في مدينة بيزا ، انمـــا هو مثال باق لصنف الطيور وصغار الحيوان هي في الاغلب تقوم بمثابة اجزاء من فسقيات أو آنية يدوية لحمـــل الماء وعنهـــا اخذت الآنية المسماة في أوروبا بالاكوامانيل [8] هيآتها العجيبة. ان جسم هذا الحيوان الهائل الخلقـــة وفيه كل ما في الحيوانات المدللة من اعتداد بالنفس وغرورآنف— مغطى تماماً بنقوش محفورة على العنق والجناحين يمثـــل ريشاً اشبه بفلوس السمك . وقفاه يبدو للناظر اشبه برداء مسرود عليه سرداً محكماً مزخرف بنقوش دائرية . وحول حافة هذا الرداء كتابة كوفيةتستمر صعداً إلى شريط ملفوف حول صدره وورَكَيْه. وثم اطناف رفيعة رسم فيهـا أُسودٌ وصقور تحيط بها خطوط لولبية . أما الكتابة فهي عبارات مدح وثناء للمالك لا تدل على تاريخ هذه القطعة البرنزية البديعة او أصلها ؛ لكن اقرب الاحتمالات ترجح انها تحفة جيء بهـــا من احد القصور الفاطميـة في القرن الحادي عشر .

هناك طرق اخرى مارسها الصناع المسلمون بنقش المعدن ، غير الزخرف المحفور أو المرسوم . انهم برزوا في فن التكفيت على الذهب والفضة والبرنز والصفر وهو صنعـة تم بأساليب عدة معروفة بصورة عامة باسم الصناعة الدمشقية Damascening وهو مصطلح مشتق من نسبة الاوربيين هذه الصناعة إلى مدينة دمشق حيث كانت تمارس على وجه التأ كيد وان لم تنشأ فيها

---

٧) (الصفر) : معدن اصفر باهت هو مزيج من النحاس والزنك . (المعرب)

٨) *Aquemaniles* : اباريق نحاسية او صفرية تستخدم لسكب الماء والخمر في القداس وتعمـــل على اشكال الحيوان (المعرب)

وادق النماذج واقدم ما وصل الينا يدل على أن النقوش كانت تحفر حفراً في وجه المعدن بالازميل ثم تملأ المنخفضات بالذهب أو الفضة أو بكليهمـا احياناً . وكثيراً ما كان يسمو بجمـال القطعة ملء بعض الحفر الاخرى بمادة لينة مركبة سوداء وفي بعض الاحيان تكون هذه المـادة هي الوحيـدة المستعملة في الزخرفة .

ان فن التكفيت المعدني الاسلامي وصل حد الكمـال في حوالي منتصف القرن الثاني عشر واستمر محافظاً على منزلته الرفيعة هذه طوال قرنين . واصدق نموذج هو ابريق نحاسي من ابدع ما وصل الينـا محفوظ الآن في المتحف البريطاني (شكل١٩) مغطى تماماً بالنقوش المكفتة بالفضة . إن اسطح عنقه وجسمه العشرة مقسمة افقياً إلى مناطق ذات اشكال متنوعة بتنوع المناطق . وكل جزء من اسطحه هذه مثقل بالرسوم والصور والاشكال الهندسية أو الزخارف النباتية والكتابات . وبالقرب من قاعدته يوجد مسحال من نقوش كالعقد تنتهي باقراط كالازرار وبها يكمل الزخرف . ان صفائح الفضة الصغيرة المكفتة التي تمثل الوجوه قد نقشت بابداع ودقة تظهر دقائقها. مثال ذلك تقاطيع الوجه والأيدي وطيات الثياب كلها حفرت فوقهـا بدقة لا مثيل لها وتجد كتابة تحيط بالعنق فيهـا . وهو من صنع شجاع بن هنفر [٩] في الموصل ١٢٣٢ م .

هذا الابريق يمثل نتاج مدرسة يرجح انها تركزت في (الموصل) المدينة القريبة جداً من مناجم النحاس القديمة الغنيـة والمتخمة بالفنانين من الصناع

٩) هكذا اثبت الاسم السيد رينو الذي كان اول من قرأ الكتابة سنـة ١٨٢٨ . ولكن تصحيحاً للسيد ماكس فان برجم *M. Max Van Berchem* (ملحوظات آثاريـة عربية *Notes d'Arehéologie Arabe*) في المجلـة الاسيوية المجلد (١١) باريس ١٩٠٤ اظهر ان لفظة « منعة » هي التي يجب ان تقرأ بدل (هنفر) (المؤلف) .

الذين اشتهروا في كل نوع من هذه الفنون . وعلى الأخص بانتاج اواني الطعام النحاسية كما صرح بذلك احد كتاب القرن الثالث عشر واقتبس تصريحه هذا (م.رينو M. Reinaud) ولكن طريقة الصنع والزخارف المشابهة نفسها تظهر في آنية اقدم تاريخاً منها مصنوعة في مكان ما شرقي وشمالي الموصل . يظهر منه أن تأثيراً أرمنيـــاً وفارسياً لم يعرف مداه حتى الآن قد غلب على صناعتها .

ولما كانت بعض الطرق الفنية والاتجاهات الزخرفية في القطع المتأخرة بعض الشيء ترجع إلى المنحى الهيليني للقرن الثاني ، فليس بمستبعد أن يكون أصل الصناعة الاسلامية مستمداً من الفن الذي كان سائداً في تلك البقاع من ازمان عريقة في القدم .

ان تأثير هذه المدرسة انتشر سريعـــاً في كل سوريا وانتقل إلى مصر وعجلت بذلك هجرة سببها غزوة المغول الذين دوخوا مدن ما بين النهرين وحولوها انقاضاً وشتتوا رجـــال الصناعة . وباحتلال هولاكو حفيد جنكيز خان بغداد وبموت الخليفة المستعصم قضي على حكم العباسيين ١٢٥٨ م .

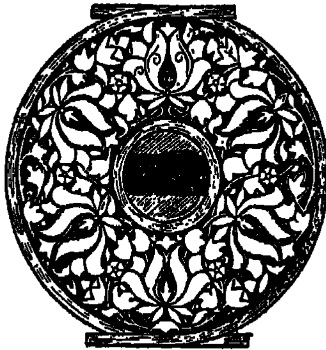


الشكل ٢٢ : مخطط لداخل المقلمة المعدنية

توجد مقلمة في المتحف البريطاني (الشكل ٢٢) مصنوعة من الصّفْرْ ومكفتة بالذهب والفضة عليها اسم صاحبها (محمود بن سنقر) البغدادي ولكن لا يمكن أن تكون قد صنعت في مدينة آبائـــه إذ انها مؤرخـــة ١٢٨١ عندمـــا كـــان سكان بغداد الوحيدون من القرويين الفلاحين الذين استقروا في خرائبها . انهـــا لقطعة جميلة جداً تلك المقلمة التي لا ينقص تصميمها وصنعها دقةً عن صنعة الاناء الذي سبق وصفه . فنجد فيهـــا اشارات البروج الاثني عشر مجتمعة اربعـــاً اربعاً في ثلاث رصائع مستديرة هي التحليـة الرئيسية في الغطاء الذي

نقش في باطنه صف من الدارات تتضمن تعابير فلكية . فالدارة الوسطى فيها شمس مشعة صورت بشكل وجه آدمي . وعلى جانبي هذه الدارة صورة تمثل القمر و(عطارد)قابض على قلم وطِرْس؛و(الزهرة)ممسكةبعود،و(المريخ) يقبض على سيف ورأس مقطوع ، ثم (المشتري) قاعداً كالقاضي ، و(زحل) بيده صرة من المـــال وصولجان . كلها نقشت على أرضية احتشد فيهـــا الزخرف احتشاداً لا مزيد عليه وتكتنفها حاشية ذات زخارف متداخلة . هذه العلبة مثل ممتاز لكثير من الحاجات اشباهها . كان فيها بالاصل دُوَى لوضع الحبر وعلب للرمل والغراء وحجرات مستطيلة لاقلام القصب . كل هذا موضح في (الشكل ٢٢) .

وبانتشار فن التطعيم في الجنوب ، طرأ تغيير على زخارفه وظهر تطور جديد في طابعه الخاص على يد مدرسة ثانية مركزها القاهرة خلال القرن الرابع عشر . ان الرصائع التي كانت تتوالى على مسافات في الاشرطة الزخرفية ، ادخل عليهـــا حواشي نباتية رقيقة . واصبحت الكتابات التي كانت شيئاً ثانوياً ـــ تحتـــل مركز الصدارة . وفي (الشكل ٢٣) نموذج رصيعةذات حافة منقولة من جفنة صنعت (للناصر محمد بن قلاوون) سلطان مصر الذي حكم فترة تبدأ من ١٢٩٣ حتى ١٣٤١ م ، تخللها انقطاعان .



الشكل ٢٣ : تفاصيل من جعبة نحاسية مكفتة بالفضة. مصر في القرن الرابع عشر ، المتحف البريطاني .

هذان المثالان يجب أن يكون فيهما الكفاية لاعطاء بعض فكرة عن عدة قطع جميلة كثيراً ما وصلتنا بحالة ممتازة ومن بينها اباريق وجفان واوعية

انيقة اخرى كانت كما تم عليه اسماءالالقـــاب المحفورة عليها ، تزين موائد السلاطين والامراء . أما الادوات الاخرى كعلب الاحجـــار الثمينـة والمقلمات والشمعدانـــات والمباخر واواني الزهـــر وممـــا يستعمـــل في بيوت فهي كثيرة جداً لا تُعدّ ولا تحصى كماً وكيفاً بل وتتخطى حدود التصنيف . كان فن التكفيت الجميل هذا ، مرغوبــاً جداً خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر وكانت النماذج الرائعــة التي يتفنن في عملها الاساتذة الكبار يتهافت الجماعون الاغنياء على اقتنائها ، وكثيراً ما كان هؤلاء يوصون بعمل اشياء خاصة لهم . وفي متحفي (بريطانيا)و(فكتوريا والبرت) توجد قطع أثريـة كل واحدة تتعلق بحادثة تاريخية مهمـة . ومنهـــا عدة قطع شهيرة لا مثيل لها ولا مضاهٍ في العالم .

في نهاية القرن الرابع عشر اخذ فن التكفيت بالاضمحلال . فاندفاع المغول في سوريا ونهب تيمورلنك لدمشق السنة ١٤٠١، جر ذيول الدمار على على المراكز الصناعية النشيطة . وشتت الفتح العثماني لمصر في ١٥١٧ البقية الباقية من الاساتذة القاهريين القليلين ولكن في الوقت الذي كان هذا الفن يموت في مسقط رأسه أخذ يلقى في اوربا اهتماماً متزايداً حيث قدر له أن يولد ميلاداً باهراً . ففي القرن الخامس عشر اخذت التجارة الشرقية التي استعدتها المدن الطليانية اثناء الحروب الصليبيـة تزدهر للغاية . واضحـــت المنتوجات الشرقية شائعة الاستعمال عند امراء ايطاليا الصغار عشاق الفخفخة والمظاهر الذين اخذ صناعهم يتخذون من تلك المصنوعات نماذج يحتذونها ويخرجون ما يصح أن يكون نصراً مبينــاً لتقليدهم اياها . وكان للصناعة المعدنيـــة الاسلامية أثرها العميق على صناع البندقية المحليين حتى ظهرت مدرسة بندقية ــ شرقية قائمة بذاتها ، فيهـــا حورت التصاميم والاتجاهات

الاسلامية إلى مـــا يوائم ذوق عهد النهضة الايطالية . ومثال ذلك التطور ما يرى في (الشكل٢١) وهو صينية نحاس تعود إلى حوالي منتصف القرن الخامس عشر طُعمت بالفضة مع خطوط متشابكة اسلامية تذكر المرء بالزخرف القاهري الصريح في عصوره الأولى . ومركزها منقوش وهو ترس فضي مزدان بشعار اسرة (أوجّي دي كاني Occhi di Cane النبيلة من مدينة فيرونا . وثم قطع اخرى على طراز مثيلات لها فارسية معاصرة كانت قد صنعت آنذاك في البندقية نفسهـــا ، صنعها اساتذة فارسيون مقيمون هناك . وفي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر سلكت صناعة المعدن في بلاد فارس سبيلاً شبيهـــة بتلك التي سلكتها المدرسة الموصلية وهي معهـــا في ارتباط محكم ولكن تقدمهـــا كان ممتازاً بدقة اشكال الاواني وتعديلات محدودة في النقش . وفي بداية عهد الاحياء الوطني للفن الفارسي الذي يصادف تاريخه قيام الدولة الصفوية في مستهـــل القرن السادس عشر ، وصلت هذه التغييرات كامل تطورها باسلوب مستحدث جديد ، فيه لعب التكفيت دوراً قاصراً على خطوط أو كتابات في وسط ارضية مغطاة بزخارف لعساليج واماليد بنائية دقيقة . ومثال لهذا الطراز يظهر في (الشكل٢٤) وهو غطـــاء طاس وقعها (محمد الكردي) الاستاذ المشهور الذي زاول عمله في البندقية في السنوات الأولى للقرن السادس عشر .

ان التكفيت بالذهب والفضة بالشكل الذي استعمله الصناع المسلمون في القرون الوسطى كان إلى حد ما يقابل صناعة الميناء المعدنية التي يقوم بهاصناع اوربيون معاصرون كان عملهم المعروف بـ (شامليفي Champlevé)وهو حفر النقوش وملئهـــا باللدائن الزجاجية الملونة في عدة حاجات اعتاد المسلمون ملئها قبلا بذوب المعادن الثمينة بالطريقة نفسها التي كانت تمارس على وجه التحقيق في

الشرق والامثلة الاسلامية القاطعة عليهـا نادرة . وقد ذكرت قائمة المقريزي عن صفائح ذهبية مكفتة بالميناء الملونة اثناء وصفها كنوز الفاطميين . وثم قرص معدني عليه زخارف نباتية وكتابة بالمينـا على طريقة كلوازوني[١٠] . استخلص من ركام خرائب الفسطاط وهو الآن محفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة ويظهر انه يعود إلى هذه الفترة ايضاً . ولكن اهم نموذج معروف للمينـا الاسلامية المنزلة بالمعدن ، هو جفنة نحاسية في متحف (فرديناندیوم) بمدينة انزبروك . على اسلوب الشامليفي مزينة برصيعـة في الوسط تحتوي على صورة صعود الاسكندر وتحيط بهـا رصيعات اخرى ممتلئة بوحوش الأساطير على أرضية حفلت بالنخيل وبأناس قائمين . ومع انها بيزنطية الطراز ، ففيها كتابة تدل على انها عملت لأمير أرتقي[١١] من بلاد ما بين النهرين حكم في حوالي أواسط القرن الثاني عشر .

ومن النماذج القليلة التي وصلتنـا يبدو أن حفر المينا لم يلق تفضيلاً لدى صاغة المسلمين ومعدنييهم . وفي مجيء القرن الخامس عشر فقط ، وجد في اسبانيا سيف حفـل بزخارف المينا حيث عاد هذا الفن إلى الظهور عند الاسلام ، ومن هذه النماذج قطع المينا التي عملت فيمـا بعد للاباطرة المغول

---

١٠) ان اسلوبي الـ (*Cloisonné* و *Champlevé*) في التكفيت همـا اثنان من أصل خمسـة اساليب التكفيت المسمى *enamel* الاول وهو حفـر الصورة المطلوبة على المعدن مع ابقـاء اسلاك وخطوط رفيعـة من المعدن نفسه بين الحفر لاظهار القسمات وحدود النقوش ومن ثم املاء المحفورة بالمـادة . اما الاسلوب الثاني فهو ان يحفـر المكان المطلوب زخرفته وتنزل المادة اللينـة مع خطوط القسمـات في المعدن نفسه كاسلاك رفيعـة وتقوم المادة الملونـة بدور تثبيتها ولصقها (المعرب).

١١) مؤسس هذه الدويلـة (ارتق بن كسب) السلجوقي وعرف ملوكهـا في التاريخ باسم ملوك (ماردين) او ملوك (حصن كيفا) نشأت حوالي ١١٠٨ وقضي عليها في ١٤٠٨م (المعرب)

في الهند التي ربما كانت انعكاساً للموضة الاجنبية أكثر مما هي تطورات محليـــة .

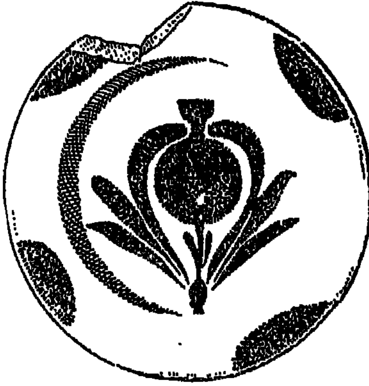
وفي صنعة مينـــا من نوع آخر وهو طلاء الخزف بالمينا الملونة . كان المسلمون في القديم أساتذة خبراء ، وقد انتعشت وارتقت صناعة الخزف الوطنية اثناء الحكم الاسلامي في مصر والشرق الادنى وسلكت سبيل التفنن والاتقان والزخرف ، وهي الصنعة التي كانت منذ العصور الغابرة تتأرجح بين الانتعاش والخمول . فالقاشاني الذي كان يرصف على أوجه الجدران بسطحه اللامع الأزرق المخضر يرجع تاريخه إلى أقدم زمن في مصر . وقد استعملت أشباه هذه القطع ذات الالوان المتعددة بتفنن وإبداع في بناء قصر (داريوس) في(سوسه) السنة ٥٠٠ ق.م[١٢]. في هذه الأصقاع كان الفن قد جر عليه النسيان ذيوله حتى الفتح العربي حيث أخذت صناعة الأواني الخزفية بالتأثير الاسلامي تبدوللوجود بطراز واتجاهجديدين وبزخارف ونقوش مستحدثة.

إن أول تاريخ لصناعة الخزف الاسلامي لم يكتب بعد . ومع أن عدة قطع هامة قـــد استخرجت من أطباق الثرى مؤخراً ، فتاريخ صنعهـــا ومصدرها شيء تخميني على الاكثر . من الواضح بان هناك موضات مختلفة قد انتشرت بسرعة في شتى أرجاء العالم الاسلامي من مراكز تقع في بلاد فارس وما بين النهرين وسوريا ومصر ،لكن من المتعذّر البت برأي حاسم عند تحديد الموضع الذي نبغ فيه هذا الطراز على وجه الدقة . لقد انتشرت الانواع المشهورة منها بدرجة أن قطعاً متشابهة في الصنع والتصميم وجدت في عدة أماكن قديمة ، في بقاع تفصلهـــا عن الاخرى مسافات شاسعة . وقد يصلح نموذج أو اثنان ليبيّنا درجة رقيّ صناعة الخزف الاسلامية .

---

١٢) يقصد دارا او داريوس الاول ٥٢١ – ٤٨٥ ق.م الذي عرف في التاريخ بحملتـــه الفاشلة على بلاد الاغريق . (المعرب)

نجد في (الشكل ٣٠) صحفة خزفية صقلية عثر عليها في سوسه [١٣] يزيّنها رأس نبتة الخشخاش بلون الكوبلت الأزرق على أرضية بيضاء وتعزى إلى القرن التاسع . وقد عثر على قطع شبيهة بها في خرائب أحد قصور سامراء بناه أحد أبناء الرشيد في ٨٣٦م وُهجِر بعد ذلك بخمسين سنة. هذه الصحفة إنما هي مثال سابق لأسلوب التلوين الأزرق والابيض الآن في فن الفخار الغربي ، وهو طراز جاء أوروبا الحديثة من الصين في الأزمان الاخيرة .



الشكل ٣٠ صحفة خزفية مطلية من سوسه تعود للقرن التاسع – متحف اللوفر (باريس)

كان أمراء بني العباس في القرن التاسع يستوردون سلعاً صينية ؛ ولقد عثر في سامرا على أوعية وصيني (بورسلين) مصنوع في وقت حكم أسرة تانغ [١٤] للصين مع قطع واضحة التقليد لها عُملت محلياً . إن الشكل الطبيعي المرسوم على الصحفة يعود إلى هذا التقليد الاجنبي ولكنّ اللون الازرق الجميل الذي رُسمت به إنما هو لون من الانتاج المحلي ، لون كان أحياناً يصدّر إلى الصين حيث عرف ثمّ باسم (الازرق

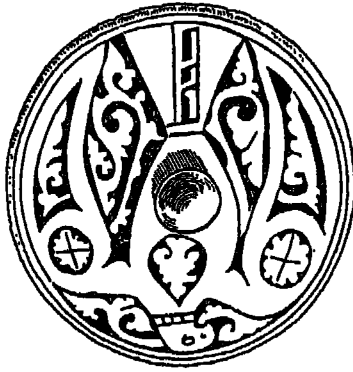
---

١٣) سوسة او السوس هي اقدم العواصم الفارسية تقع في القسم الجنوبي من ايران على مقربة من مصب نهر دجلة في شط العرب . (المعرب)

١٤) حكمت اسرة تانغ *Tang* من سنة ٦١٨ حتى ٩٠٨ م الصين وكان عميدها الامبراطور الشهير في تاريخ الصين باسم (كو – أر– تسو) . (المعرب)

المحمدي) . وكان جد ضروري للصين لتصدير الخزفيات الزرقاء والبيضاء ، حتى انه عندما كان يقف التوريد لسبب ما ، يقف الانتاج في الصين أيضاً . وهكذا ففي الوقت الذي كان الغرب يعزو الازرق والابيض الصيني إلى الشرق الاقصى ، قُرِنَ الازرق المذكور بالإسلام هناك . إن الفخّارين المسلمين استعملوه بنجاح لا مزيد عليه في عمل خزفيات بمدينة (كوتاهيه) في آسيا الصغرى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

في الوقت الذي كان الفخّارون المسلمون يمتصون بكل شوق كل الآراء التقدمية الموافقة ، فانا نجدهم محافظين على أصول فنهم العظيم باتقانهم أخذ نماذجهم من الخارج وصبها في قوالبهم الخاصة باساليب توضحها أمثلة رائعة عديدة . فثمّ غطاء جرة يمثلها (الشكل ٣١) وهو مما يدعى بخزف (كبْري) وهو نوع من الخزف يظن أنه من مصنوعات عبدة النار الذين بقوا في بعض جهات من بلاد فارس متمسكين للغاية بدينهم القديم بعد الفتح العربي من طويل وتجد النقش فيها خشناً ، لكنها ظاهرة التعبير بالحفر في طبقة طين بيضاء رقيقة غطّت السطح بحيث ينفذ الحفر إلى القرميدة الحمراء تحتها ، ثم غطيّ الكل بعد ذلك بمادة لامعة شفافة صفراء وخضراء وقرمزية او سمراء قاتمة أو بألوان تدفع في بعض المواضع كيفما اتفق بشكل يذكر بالاسلوب



الشكل ٣١ : غطاء جرة خزفي ذو زخارف منقوشة ومحفورة — من ايران القرن الحادي عشر (المتحف المتروبوليتاني — نيويورك)

الصيني المعاصر من سيادة الاتجاهات الساسانية أمثال رسوم الصيادين الراكبين ، والغول ، والزخرف النباتي المأثور عن الفرس . نسب الخزف (الكبري) أولاً إلى مفتتح التاريخ الاسلامي . ولكن لما كان قد عثر على نماذج مطرزة بالكتابة الكوفية السائدة في القرن الحادي عشر والثاني عشر ، فان أغلب هذا النوع يبدأ تاريخه من هذه الفترة . إن طريقة حفر الرسوم المعروفة باسم (كرافيتو graffito) كانت شائعة الاستعمال في الصين لكن ليس من الضروري أن تكون قد نشأت هناك حيث انها ظهرت في الفترة السابقة على ظهور الاسلام . استعملت هذه الطريقة في القرن الخامس عشر بنجاح عظيم واستعملها الفخّارون الطليان الذين ربما استمدوها من الجهات الاسلامية ، إذ أنهم استحصلوا على آراء ومفاهيم فنية ناضجة منها كانت مفيدة لهم جداً لاحياء فن صناعة الخزف في عهد الرينساس .

حقق المسلمون نصرهم العظيم في كل ما يدعى « بالخزف اللامع lustred pottery » في هذا كان المصنوع يُطلى أولاً بملح معدني على سطح صقيل ويثبت هذا الملح على السطح بتدخينه على النار بحيث يكسبه بريقاً معدنياً تختلف ألوانه باختلاف المطلب ، فهو بين النحاسي الاحمر البراق وبين الاصفر المائل للخضرة . وفي بعض الاحيان ينعكس منه مزيج براق من شتى الالوان . اكتشفت قطع منه في الشرق الادنى وشمالي افريقيا واسبانيا تعود إلى القرن العاشر ويتضح من سعة انتشارها هذا كم كانت قيمة الخزف عظيمة في بلاد المسلمين كافة . لكنها أبقت موطنها الاصلي محل شك وحدس . وسواء أظهرت أول الأمر في مصر أم في فارس فتلك مسألة فيها نظر انقسم عندها الباحثون إلى

فريقـين . إن الصحفـة الكبيرة في (الشكل ٢٦) قـد استخلصت من ركام الفسطاط وخرائبه ويرجح انها فاطميـة العهـد تعود للقرن الحادي عشر . والشكـل (٣٢) هو طبق مطـلي بالمعدن الباهت البراق فيـه صورة تنين ورسوم نباتيـة وتقليـد للحروف الكوفية وجـد في أطلال (الري) وهـي مدينـة فارسيـة عتيقة خربها المغول في السنة ١٢٢٠م.



الشكل ٣٢ : طبق خزفي مطلي بالمعدن البراق ايران ، القرن العاشر في متحف اللوفر باريس.

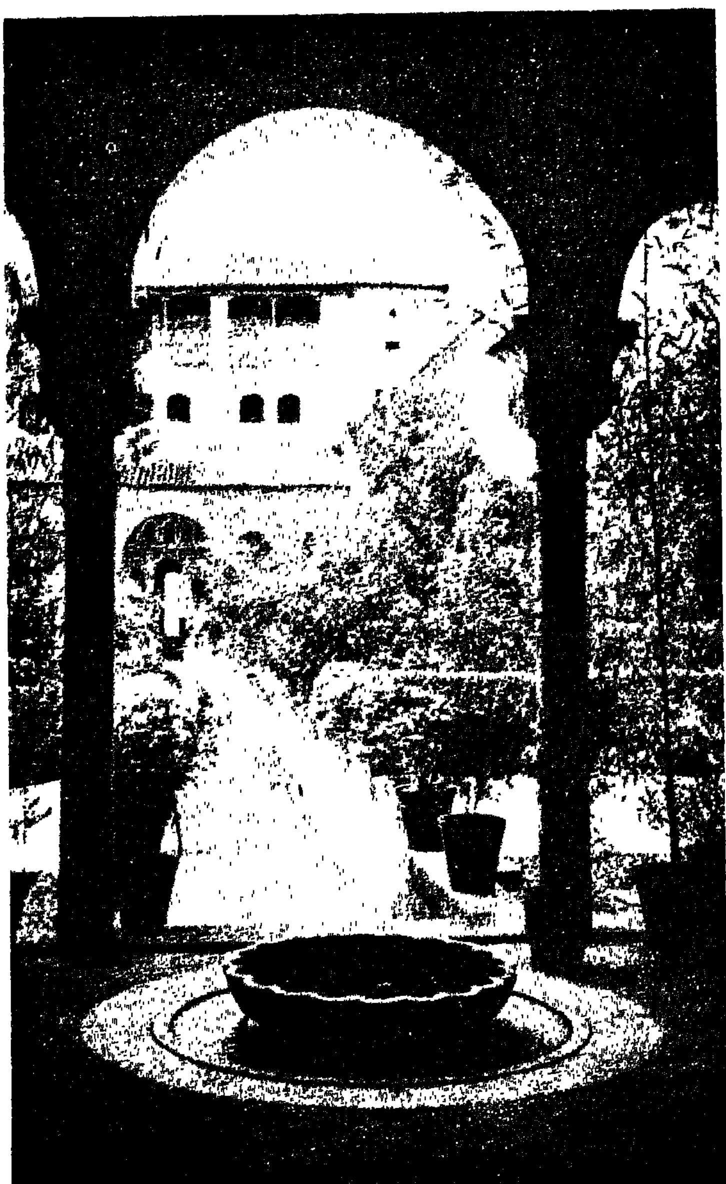
كانت مدينة (الري) مركزاً عظيمـاً لصناعة الخزف حيث ظهرت فيها أساليب وأشكـال ذات طابع خاص . وأطلالهـا منجم لنماذج رائعـة . وإلى هذه المدينـة ينسب على وجه التحقيـق بعض الأوعية والاطباق ذات ألوان غامقة كالازرق ، والاخضر ، والاحمر القاتم ، والارجواني تزينها هنـا وهناك ورقة نباتيـة مذهبة على أرضيات بيضاء مع أشكال آدمية ونقوش اعتيادية تمتـاز بدقة الصنعة وتشبه شبهـاً تاماً الرسوم التي تحتويها مخطوطات معاصرة بحيث يبدو وكأن الفنانين قد تأثروا بهـا . إن الكأس في (الشكل٢٥) المزينـة برسم أبي الهول وبموسيقيين جالسين منقوشة باسلوب يفصـل الصور بعضهـا عن بعض خطوط منحنيـة على هيئـة حرف (S) انمـا هو المقياس الأمثل لخزف المينـا وهي التسمية التي غلبت عليـه وانه أعلى مـا وصل اليه الفن في الري عندما اجتاحها المغول .

ويمثل الاناء في (شكل ٢٧) المطلي بلـون الفيروزج ، والازرق الغامق ، والاسود نموذجـاً من الخزف من مصنوعات (سلطان آباد) بايران خلال

القرن الثالث عشر . وقد عرف انـاء بهذا الشكل عنـد الطليـان باسم (الباريللّو albarello) وهو مصطلح ربمـا كان مشتقـاً من اللفظة العربية (البرنيّة) أي وعـاء الدواء . والاسم يفصح عن الغاية التي كانت تستعمل هذه الاوعية لها في الشرق وفي ايطاليا فيما بعد . كان يوجد في دكاكين العقاقير الايطاليـة في القرن الخامس عشر عدد كبير من هذه الاوعية مملوءة بالادوية المستوردة من الشرق . هذه التجارة جلبت إلى الغرب النماذج الايطالية لزجاجات الادوية كمـا لا تزال تأتينـا بأباريق الزنجبيل الصينية . وفي (شكل ١٦ (يرى تقليد ايطالي لنموذج شرقي : برنيّة خزفية ذات لون ترابي رمادي منقوشة بالازرق الغامق من مصنوعات فاينزا Faenza في حوالي منتصف القرن الخامس عشر .

حصل الطليان على أوعيـة الادوية البرّاقة من فلنسية مركز انتاج هذا الخزف الاسلامي في الغرب حيث كانت تصنع أشكال من أبدع ما وجد منهـا في العالم أحياناً بناء على طلبات وتوصيات تجار أجانب كانت شعاراتهم تنقش عليها . وفي (شكل ٢٩) يظهر طبق مطلي بالاصفر والازرق البراق صنع في فلنسية في القرن الخامس عشر لأحد أفراد أسرة (دغلي اغلي Degli Agli) من فلورنسا ، وقد نقش عليه شعارها . إن الخزف الاسباني البرّاق نجح كثيراً وأثـار غيرة ايطاليا حتى أن الفخّارين المحليين عرفوا كيف يضيئون نماذج عهد الرينساس المأثورة بنور لا ينطفيء وباسلوب يناقض تماماً التقليد المتبع قبلاً . وفي غبيّو Gubbio وهي مركز مشهور حيث كان يعمل الصانع الاعظم « جيورجيو أندريولي Giorgio Andreoli » بقيت خزفياته ذات البريق الذهبي والاحمر نسيج وحدها سواء في ايطاليا أم الشرق

في مفتتح القرن السادس عشر أخذ نظام الفن الخزفي القديم يعتوره التغيير ،



غرناطة : حديقة جنّة العريف

اسبانيا

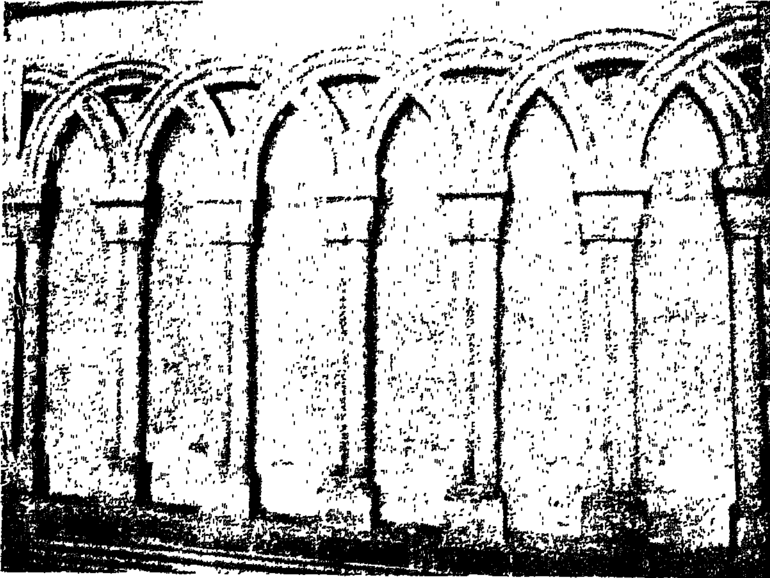


الشكل ١ — الحمراء

رواق في بهو السباع (التصوير أرخيف ماس)



الشكل ٢ : كريستو دلالوث (طليطلة) .



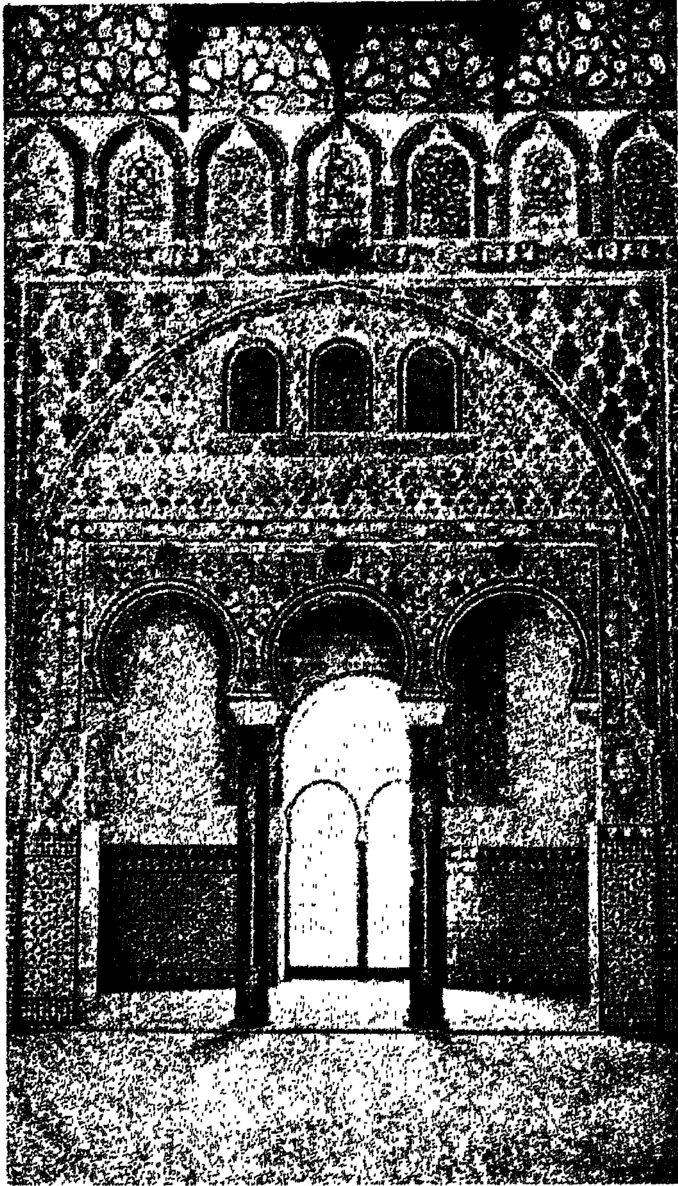
الشكل ٣ : بواكٍ مسدودة ذات اقواس متشابكة

(بيعة درهام *Durham*)



الشكل : ٤ البناء المدجّني الأجرّي

(برج سان جيل : ساراكوسا Torre de San Gil. Saragossa)

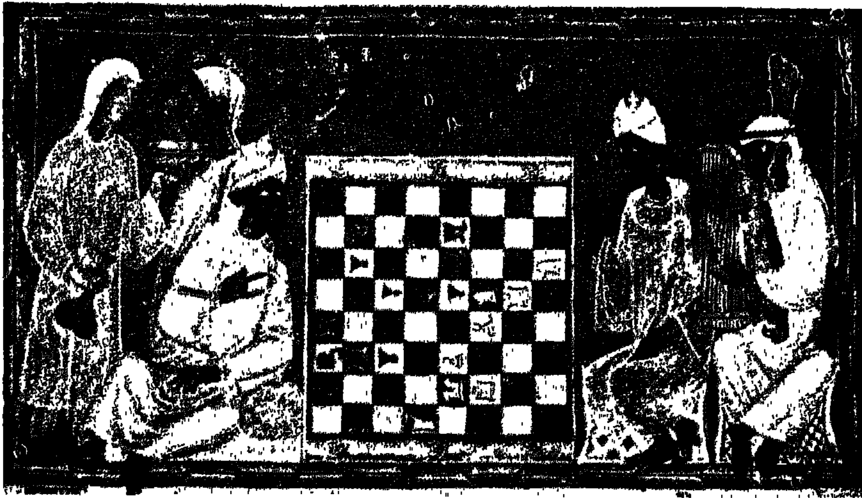


الشكل ٥ : القاشاني الملون في اسبانيا

بهو السفراء في القصر (الكازار)



شكل ٦ : صحفة اسبانو مراكشية يُرى فيها عبارات مسيحية
افي . ما . ريا . غرا . بلي . ثا (تصويو ارخيف ماس)



شكل ٧ : مسألة شطرنجية من مخطوط الفونسو الحكيم
(الأسكريال مخطوطة رقم ١ و ٦ رسم ٢٢ أ ، من القرن الثالث عشر)

الحروب



الشكل ٨ : الحروب الصليبية بوصفها حروباً مقدسة

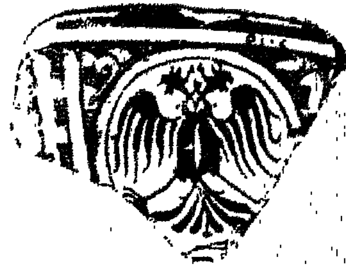
تاج باب نورماني في فوردنكتون (دورسيت *Dorset*) يمثل تدخل القديس جرجس في معركة انطاكية

الحروب

قلعة حلب من المدخل الرئيس مع الباب الكبير ، بنيت في عصر صلاح الدين الأيوبي

الشكل ٩ : عمارة عسكرية اسلامية

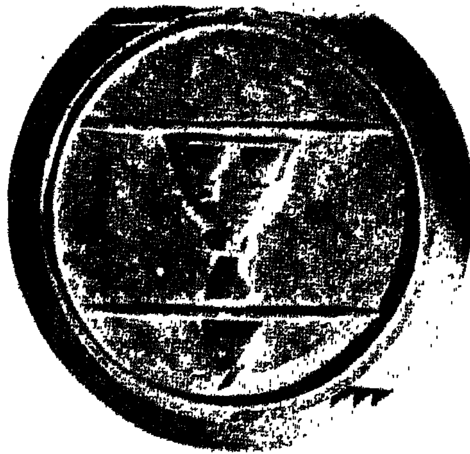




نسر ذو رأسين



زهرة زنبق

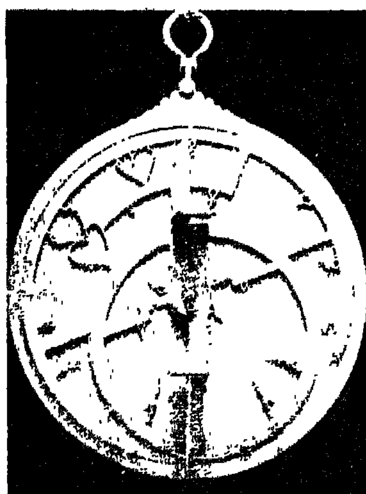


أقــداح

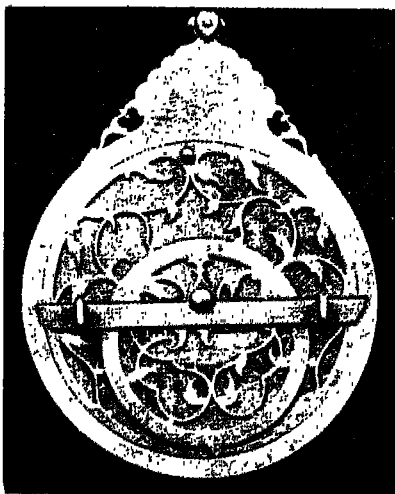


صوالــج

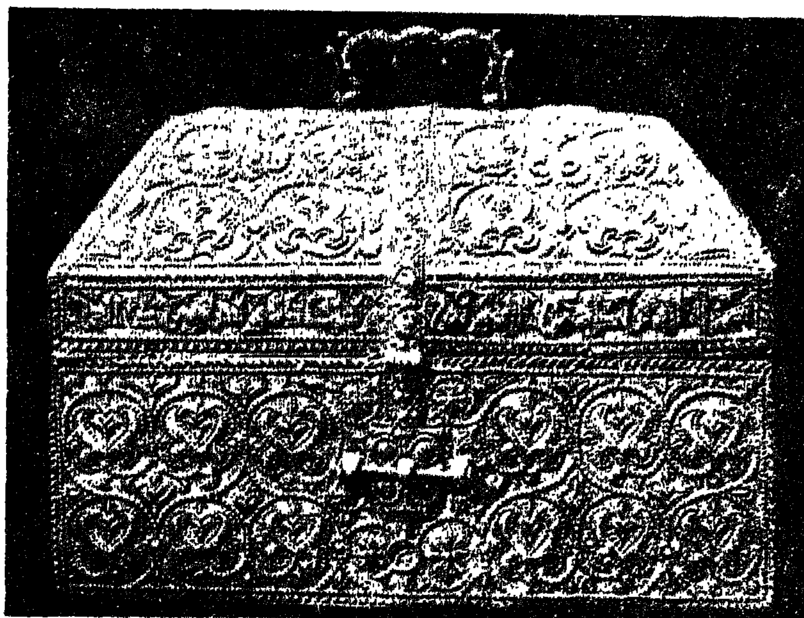
الشكل ١٠ : امثلة من البيارق الاسلامية



الشكل ١٥ : اسطرلاب يعود إلى ١٠٦٦–١٠٦٧
المتحف الارخيولوجي — مدريد



الشكل ١٦ : اسطرلاب
يعود إلى ١٧١٥ . متحف فكتوريا والبرت



الشكل ١٧ : صندوق مطلي بالفضة
(قرطبة : القرن العاشر كاتدرائية جيرونا — تصوير ارخيف ماس)



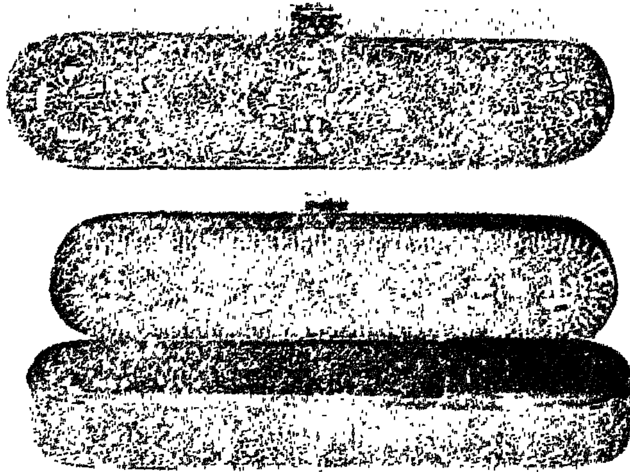
الشكل ١٨ : غريفين في كامبو سانتو بيزا

(حيوان خرافي نصفه عقاب ونصفه اسد : العصر الفاطمي — القرن الحادي عشر)



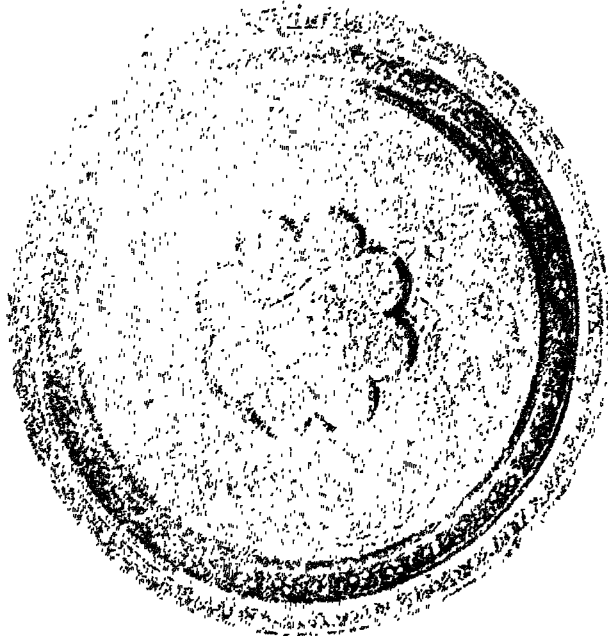
الشكل ١٩ : ابريق نحاسي مكفّت بالفضّة

الموصل — مؤرخ في ١٢٣٢ م (المتحف البريطاني)



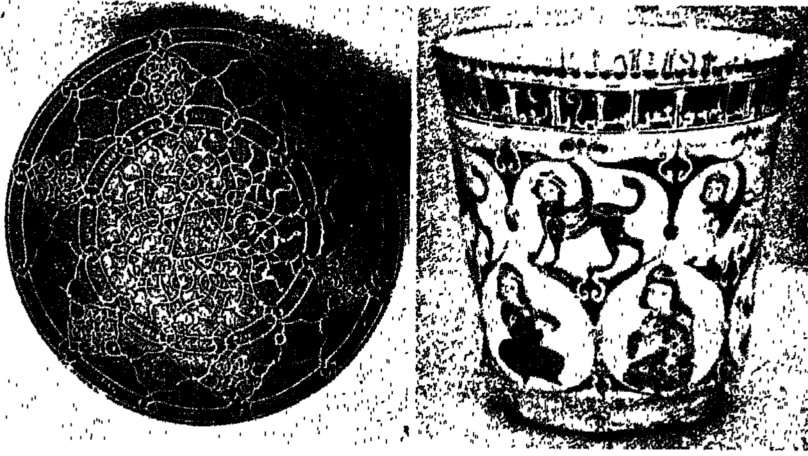
الشكل ٢٠ : مقلمة نحاسية مكفتة بالذهب والفضة

(من مدرسة الموصل مؤرخة ١٢٨١ م – المتحف البريطاني)



الشكل ٢١ : صينية نحاسية مكفتة بالفضة

(صناعة البندقية في القرن الخامس عشر – متحف فكتوريا والبرت)



الشكل٢٥: قدح خزفي ملون ومذهب مدينة الري في القرن الثالث عشر (متحف اللوفر - الاركيف الفوتوغرافي - باريس)

الشكل٢٤: غطاء طاس مكفت بالفضة (صنع البندقية من يد استاذ فارسي في اوائل القرن السادس عشر - المتحف البريطاني)



الشكل٢٦: جرّة فاطمية خزفية مطلية طلاءً لماعاً من القرن الحادي عشر
(متحف اللوفر — تصوير الاركيف الفوتوغرافي — باريس)

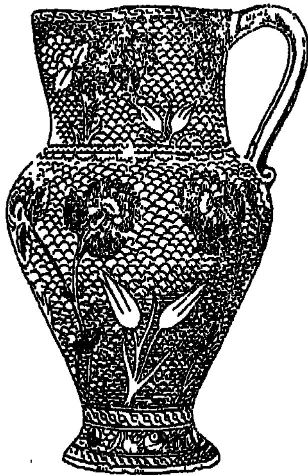
فمن بين الضروب الجديدة التي انتحاهـا ، ضربان متحالفان تحالفاً وثيقاً نبغا ببطء في آسيا الصغرى وسوريا وازدهرا بروعةلاتدانيهاروعة. كانتالأواني تعمل من الفخار وتغطى بقشرة بيضاء صقيلة وتنقش باللون المعدني الأبرق تحفٌ بمناظر وصور خضراء وزرقاء وحمراء غامقة مظللة بالاسود ، وكثيراً ما كانت مصانع آسيا الصغرى تضيف لوناً آخر أحمر يشبه لون الطماطا . ان اكساء الحيطان هو أبرز ما استخدمت له صناعة هذا النوع من الخزف ، فقد كان يصب مربعات وينقش بنماذج هندسية أو أشكال متكررة ، أو أجزاء كبيرة كاملة بنفسها متفرقة ، لو اجتمعت معاً لكونت صورة زخرفية كبيرة متقنة كاملة بنفسها . وفي القسطنطينية وبروسّه وغيرها من المدن الكبيرة في الامبراطورية العثمانية ، عدة أبنية تبرق حيطانها بهذه النقوش الزاهية .



(الشكل ٣٧) : قمقم خزفي مكتظ بالرسوم – آسيا الصغرى ، القرن السادس عشر (المتحف البريطاني)

وفيما يلي ثلاثة أمثلة اختيرت لتكون نماذج لكسي الحيطان ذي النقوش المتكررة . ففي النموذج الاول (الشكل٣٣)جعل المصمم في وسط كل بلاطة شكلاً اهليلجياً حاد النهايتين وصار يكرر ربع هذا الرسم في كل زاوية ، فبجمع هذه البلاطات إلى بعضها تظهر شرائط بيضاء تمتدُّ متعامدة من قمة الفراغ الذي تزينه حتّى قاعدته . وعلى العكس من هذا

التصميم نجد النموذج الثاني (الشكل ٣٤) فهو شكـــل طبيعي بحت ؛ قوامه سيقان متموجة متوازيـة تحمـــل على وجه المناوبة أوراق عنب وعناقيد عنب ثم أزهار اللوز . ولكن هذين المنحيين احدهمـــا هندسي والآخر طبعيي تجدهمـــا مجتمعين في النموذج الثالث (الشكل ٣٥) الذي أضيف اليه نقش شبكي لأوراق الاقنْتا acenthus الدقيقـــة تتخللها زهرات هذا النبات . إن نقشاً على هذا المنوال البسيط المؤدي بالاخير إلى زخارف معقدة تتجلى فيهـــا عبقرية بارعة في حسن التأليف والنظم بين الرسوم المختلفة بعضهـــا عن بعض انمـــا هو الطابع المميّز لهذه المدرسة ، ومنهـــا نرى كيف أن المصممين المسلمين كانوا يبتدعون الآراء الزخرفية ابتداعاً . إن اللوح الجميـل في (الشكل ٣٦) يتجلى فيه النوع الثاني من الزخرفة الخزفية ، وهي قطعـة كبيرة جداً كاملة النقش والزخرف ، مثـــال رائع للصناعـة الدمشقيـة بالالوان الازرق ، والاخضر الارجواني ، التي لا تعكس بريقاً ، وهذا مـــا يميّز السلعة السورية منهـــا عن التركية .


(الشكل ٣٨) : ابريق نقوش خزفي من دمشق ، القرن السادس عشر المتحف الا شمولي اكسفورد

احتذت الخزفيات التركية والسورية الحذو الفني نفسه الذي استخدمتاه في صناعة الكاشان ، واتخذت الزخارف نفسها في الصحاف الجميلة ، والجفان ، والكاسات ، والآنيـة المختلفة الانواع . إن القمقم الرفيع الذي يرى في (الشكل ٣٧) المزّين بخليط عجيـــب من الغول

والطيور والوحوش ، اونها أبيض على أرضيـــة خضراء تفاحية ، انمـــا هو أصدق مثال لشكل متمايز نجد فيـــه مسحـــة من العناصر الغابرة . فالظلال الحمراء التي ترّنق مجموعة الالوان هي ذات أصل تركي . ولم يكن الاحمر يظهر دائمـــاً في القطع المعمولة في آسيا الصغرى ، على أنه لم يكن يوجـــد في القطع السورية قط .

ان اعظم ما يسترعي الاعجاب من العناصر الزخرفية المستعملة في هذا النوع من الفخـــار هو بدون شك الاشكال الزهرية ، كالتي ظهرت محتشدة بلـوح دمشقي (الشكل ٣٦) حيث تجد زهر الخزامى ، والورد ، والنرجس ، والسوسن وزهر اللوز تبـدر من وعائين بديعين بحشود رائعـــة ، وتصوير متقن . كان الزهر يرسم دائماً باتقان عجيب وبأحساس التأنق بحيث أن دقة تفهم رساميه للطبيعـة لن يتردى في أي وقت إلى صور جامدة . كانت بلاد فارس البلاد التي أخذ المصممون عنهـــا العناصر الزهرية وتعلموا كيف يرسمونها رسماً جميلاً فاتناً ولدينا في (الشكل٣٨) قطعة من الشغل الدمشقي الجميل تجد فيهـــا تأثير الاسلوب الفارسي وهي ابريـق مزخرف بالخزامى والورد على أرضية زرقاء مرقطة ، يقدّ برسمه الدقيق وألوانـــه الحيّة ، نسيج وحده بين التحف .

ومن بلاد فارس حصل الغرب — عن مسارب تركية وسوريـــة في أغلب الاحيان — على عدة نبتات أزهار شاع زرعها في حدائقنا الآن . هذه الازهار لم تكن معروفة لدى اوربا إلى زمن بعيد إلا من الخزفيات والفخاريات المستوردة من الشرق الاسلامي . كان أول من جلب زهر الخزامى إلى الغرب هو السفير الامبراطوري إلى القسطنطينية بوزبك Busbecq في حوالي منتصف القرن السادس عشر .

وفي سوريا حيث كان يوجد افضل المواد الخام الصالحة للزجاج التي استغلت منذ الزمن القديم ، تقدم المسلمون بمنحى جديد مبتكر في زخرفة الزجاج ترى

ظاهرة في ما لا يحصى من القوارير والكؤوس والصراحيّات وغيرها من الآنية المنقوشة برسوم الاشخاص والزخارف الهندسية بالمينا الملوّنة ، والمحلاة في أغلب الاحيان بالذهب . إن بعض النماذج المحلاة بأساليب تذكّرنا بانواع معينة من الخزف الفارسي والعراقي ، يظنّ لأسباب فنيّة أنها أقدم تاريخاً من كل ما لدينا ؛ ربمـــا كانت من صنع أساتذة عراقيين هاجروا إلى سورية في غضون غارة المغول الاولى وأسسوا صناعتهم هناك حيث ازدهرت بشكل لا نظير له خلال القرن الرابع عشر حتى حاق بها التلف عندما اجتاح تيمورلنك سورية في ١٤٠١ م .

ان الكأس في (الشكل٣٩) منقوشة بشريطين زخرفيين أفقيين وبينهمـــا امير جالس على عرش بحاجبين كل على جانب ، انما هو مثال للموضة السائدة في آخر القرن الثالث عشر ، يشعّ منه سناء المينـــا الحمراء والبيضاء الذهبية . لا بدّ وأن هذه الكأس قد جاءت اوروبا بعد أن تمّ صنعهـــا مباشرة ، لانها استعملت كأساً كنسية بعد تنزيل قاعدة عريضة وساق ممشوقة كلها من الفضة المذهبة ، مزخرفة زخرفة ثقيلة بالحفر المسمى repoussé على طراز القرن الرابع عشر الفرنسي ، مما يدل على انهـــا كانت ذات قيمة عظيمة . ومن وثائق ذلك الزمن يبدو ان الزجاج السوري كان ذا شأن واي شأن في اوربا النصرانية اثناء هذه الفترة . ونجد في قائمة تحف الملك شارل الخامس الفرنسي ١٣٩٧ م ، ثبتين بهذا النوع من الآنية الزجاجيـة بوصف واضح جداً :

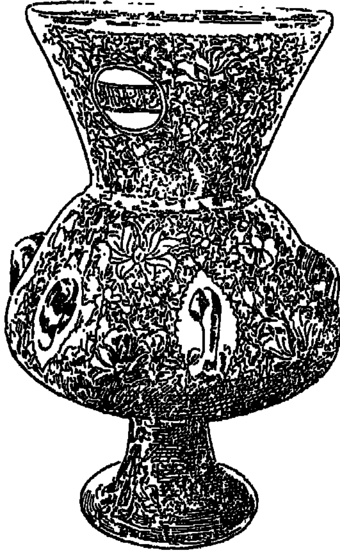
« ثلاثة كؤوس من زجاج منقوشة من الخارج بصور على الاسلوب الدمشقي
« سلطانية مسطحة من زجاج منقوشة على الاسلوب الدمشقي (١٥) » .

وثم كأس دمشقية اخرى في المتحف البريطاني لا بد وانها، صنعت لنصراني

---

١٥) وهذا نص العبارتين بالفرنسية القديمة :
Trois potz de voirre ouvré par dehors a ymages à façon de Damas.
'Ung bassin plat de voirre paint à la façon de Damas.

بصورة خاصة ، لأنهـا تظهر صورة العذراء والطفل والرسولين بطـرس وبولص مع كتابات لاتينيـة . في القرن الخامس عشر حول الزجّاجون البندقيون الذين اشتهر امرهم في كل اوروبا منذ القرن الثالث عشر ، كل اهتمامهم إلى الاساليب الشرقية ، وتمكنوا من امتلاك ناصية نقش المينـا بشكل لم يعد معه وقفاً على المسلمين . أخذ هذا الفن ينتشر من البندقية إلى إلى مراكز اوروبية اخرى ويبرز بمبتكرات جديدة . فقوارير الكحول الزاهيـة الالوان ، التي شاعت في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، انما هي أنسالٌ شوهـاء للابداع والدقة الاسلامية في القرون الوسطى .



الشكل ٤٤ : مصباح زجاجي مكفت صنع سوريا ، القرن الرابع عشر – متحف الفن العربي بالقاهرة

ان تقايدهم النماذج الشرقية، وإن لم يخلُ من طرافة سواء في جمال الشكل أو دقة النقش ، لا يمكن أن يضاهي بالأصل قط . ومن أمثـال هذه القطع ذات الأعنـاق الطويلة الكأس المبّين في الشكل(٤١) والطأس الدقيق الصنع في الشكل (٤٢) اللذين ينهضان انموذجاًصادقاً لكؤوس المائدة الاسلامية ، فالكأس مزينّة بجامات وكتابات، ومزخرفة بالنقوش المكفتة على شكل شرائط أفقية ، وعليهـا اسم أمير من خاصّة الكامل سيف الدين شعبان أحد سلاطين المماليك في مصر العام ١٣٤٥م . أمـا السلطانية ، فشكلهـا شبيه بالنموذج السابق وهي مكفتة بالاخضر والازرق والاحمر والابيض ومموهة بمـاء الذهب في مواضع . هذه التحفة الجميلـة ذات

شكل غير مألوف ، ولا اسم عليها خلا عبارة « عز مولانا السلطان » .

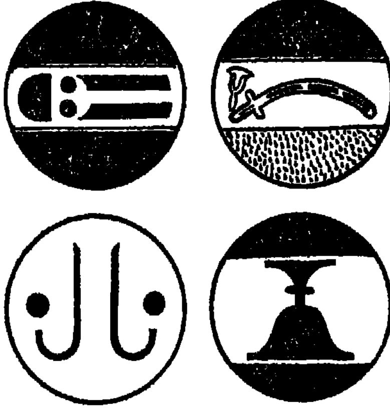
إن أروع ما تفتّقت عنه قرائح الزجّاجين السوريين هي المصابيح الزجاجية او بالأحـرى أوعية المسارج والمصابيح حيث كانت توضع في أوساطها مسارج ثابتة بأسلاك تتصل بحافاتهـا وهي معلقة بثلاث سلاسل او اكثر إما من الفضة او الصّفر ،تتدلى هذه السلاسل من عرى صغيرة على الجوانب. كانت هذه المصابيح تنير عتمة عدة مساجد عظيمة بضوء يشبه ما يشعّ من اللآلىء . هذه الأوعية مزدانة عموماً بنقوش شريطية حافلة بالجامات التي تتخللها أغصان واشكـال نباتات . وترى سطوح بعضها قد حفلت بالازهار والرياحين كالحرير الديباج كما في (الشكل ٤٤) وهناك مسرجة اخرى (الشكل ٤٠) تمثل هذا المنحى ، ترى فيهـا درعاً عليه شعـار الواهب الذي أوقفهـا على مسجـد لا يعرف اسمه .

كثيراً ما يأمر نبلاء المسلمين — متبعين بذلك السنة القديمة — بنقش رسوم شعاراتهم على ممتلكاتهم . إن استخدام هذه الرسوم كان ذا تأثـير على تطور نقش الشعارات في اوروبا الغربيـة فأصبح علمـاً مستقلاً منظماً له قواعده ومصطلحاته الغريبة الخاصة في أبان الحروب الصليبيـة ، ومنهـا المصطلح الدال على الازرق (أزور azure) فهـو مشتق من الكلمة الفارسية التي تطلق على الحجر الازرق المعروف باللازَوَرد Lapis Lazuli . هنالك صلات أخرى بين صفـات الشعارات الغربية والشعارات الشرقيـة ، كصورة النسر ذي الرأسين الغريبة التي كـان أول ظهورها في آثـار الحثيين [١٦] . فأصبحت شعار سلاطين بني سلجوق في أوائـل القرن الثاني عشر واقتبسه أباطرة الدولة الرومانية المقدسة في القرن الرابع عشر واتخذوه لهم شعاراً .

---

١٦) ازدهرت الامبراطورية الحثيـة في آسيا الصغرى ، في حوالي منتصف الالف الثاني قبـل المسيح . (المعرب)

كانت الشعارات الاسلامية تنقش على دروع إما مستديرة كما في المصباح (الشكل ٤٠) وإما مدببة النهاية كما في الشعار المنقوش على القارورة في (الشكل ٤١) . فضلاً عن هذا فإنّ الطيور الرمزية والوحوش كالنسر الشائع جداً والاسد الذي اتخذه الظاهر بيبرس سلطان المماليك شعاراً . كان ثم نماذج عديدة واخرى ذات أشكال مختلفة لبعض كبار رجال الحاشية



الشكل ٤٥ : شعارات اسلامية اربعة (سيف ، قدح ، صوالج وأكر ، مقلمة)

كحامل الكأس ورئيس الصوالجة ، وبعض القادة العسكريين ووزراء الحرب هذه الشعارات التي يحملونها بحكم وظائفهم . ففي (الشكل ٤٥) ترى بعض هذه النماذجُ جمعت معاً . وانك لواجد شبهاً واضحاً بينها وبين كأس القربان والصوالج . ولكن معنى الرسم الاخير من المجموعة ظلّ مدة طويلة لغزاً محيّراً . لقد ظُنّ حيناً انه الاثر الوحيد الباقي من الكتابة المصرية الهيروغليفية القديمة في الفن الاسلامي . أما الآن ، فقد استقرّ الرأي بانهما رسمان تخطيطيان لمقلمة تُظهر التجاويف الداخلية كما في (الشكل٤٢) .

إن الدرع المدبب الرأس على الزجاجة الطويلة يظهر كيف أن هذه البدعة الخصوصية (النسر) تكون احياناً مصحوبة بالشارة الرسمية . ان (الرُنوك) الاسلامية ذات ألوان زاهية دائماً إذا كانت مواد النقش وألوانه تسمح بذلك ، لان ألوان النبيل هي جزء مهم من شعاره .

إن الافتنان في صنع الاقمشة الفاخرة بايران وسوريا ومصر — وهو الفن

الذي سننتقــل إلى الكلام عنه الآن ـ كان قد وصــل شأواً بعيداً في ميدان الاتقــان والتقدم عندما استولى العرب على البلاد . ففي البلاد المتاخمــة للامبراطوريـة البيزنطية كانت ثمّ مراكز نسيــج مهمة تنتج أقمشة حريرية ذات أصناف عجيبـة ممتازة تتحـد بأشكالها ونماذجهــا مع عـدة عناصر ساسانية أخذهــا الصناع المسيحيون عندما شرعوا يبارون مهــارة جيرانهم . مع ان الاكتساء بالحرير كان قد حرّمـه الرسول (١٧) ، فان المسلمين لم يقتصروا على تشجيع المصانع الحريرية التي كانت موجودة بــل صاروا يُنشئون مصانع اخرى جديدة أينمــا حلّوا . ان اهتمامهم ورغبتهم في هذا الترف المحرّم جعلهم يغرقون فيــه حتى لم يعودوا يشعرون بحيــاء أو خجل فحصلوا على مركز قيادي في هذه الصناعة خاطفة وسيطروا سيطرة تامة على تجارة الحرير في العالم الوسيط . يدل على هذا أسمـاء أقمشة ومنسوجات عديدة عرفتهــا العصور الوسيطة ، والمصطلحات التجارية التي ظلّ بعضهــا حياً في مجـال الاستعمـال حتى يومنــا هذا . هذه المصطلحات تعيّن لنــا الاماكن النائيـة التي كانت ترد منهــا مواد مينة امّــا لانها البلاد المنتجة وإمــا باعتبارها الاسواق التي تُستبضع منهــا لتوزّع إلى انحــاء العالم . وعليه فالقماش المعروف في وقت (شوسر) باسم (فوستيـان Fustian) مصدره مدينة (الفسطاط) اول عاصمة اسلامية في مصر . أمــا المنسوجات التي ما زالت تسمــى (دمسكس damasks) فقد جــاء اسمها من (دمشق) وهي المركز التجاري العظيم الذي عزا اليه الغرب عدة أشياء تصنع فيه . و (الموسلين Muslin) ، هو mussolina الذي كان يستورده التجـار الطليان من الموصل . وحرّف الطليان لفظـة بغداد إلى (بلداكو Baldacco) وأطلقوه على المنسوجات الحريرية الثمينـة التي كانت تُجلب منهــا آنذاك ، وكذلك اطلقوا على المظلة

---

١٧) قال الرسول : « هذا محرمان على أبناء أمتي » مشيراً إلى الحرير والذهب . (المعرب)

الحريرية التي كانت تُرفع المذبح فوق في عدة كنائس ، اسم (البلداجينـــو baldachino) . وعُرفت في أزمنة متأخرة الثياب الواردة من غرناطـــة باسم (كرنادين grenadines) في أسواق أوروبا حيث كانت السيدات يشترين كذلك القماش الايراني المسمى بالتافتة ويسمينه taffeta .

إن (حيّ العتّابية) في بغداد ، حيث كان يسكن نسل(عتّاب)،ابن حفيد أحد صحابـــة الرسول ، اشتهـر في القرن الثاني عشر بنسيـج خاص قُلّد في اسبانيـــا وعرف هناك باسم الحرير (الأتّابي) . وعرفته فرنسا وايطاليا باسم (تابيس tabis) واشتهـر أمره باسمه التجاري هذا خلال اوروبا كلهـــا .

في يوم ١٣ تشرين الاول ١٦٦١ الموافق يوم الاحد (يوم الرب) ، ارتدى مستر بيبايس [١٨] ، سترته الحريرية العتابية بشرائطهـــا المذهبـة غير مدرك اصول هذه الكلمة العريقة . وفي السنة ١٧٨٦ حضرت الآنسة (بيرني) حفلـة ميلاد ملكية في وندسور مرتديـــة فستانـــاً من العتّابي الليلاكي ، وهو صبغـة معروفة في بلاد فارس باسم (الليلق) . وقد انتقـــل إلى الغرب مع الشجيرة المزهرة المسماة بهـــذا الاسم . هذه الحرائر الجميلة المنقوعة بالماء ، بطلت موضتهـــا الآن ولكن « عتابيـاً » بُنّيـــاً وأصفر ، مـــا زال (يلبسه) صديقنا القطّ المعروف باسم « القطّ العتابي ! tabby cat [١٩] » .

ومع وجود قطعة من الحرير في برلين كتب عليهـــا اسم الخليفـة هارون الرشيد الروائي فالاقمشة الحريرية المنسوبة إلى بغداد قليلة جداً . وثمّ قطعـة قطعة محفوظة في كنيسة القديس ايزيدور في مدينـة ليون (الشكل ٤٣) فيهـــا

---

١٨) *Samuel Pepys* ١٦٣٣ – ١٧٠٣ . مرب انكليزي وكاتب مذكرات . مذكراته الشهيرة عثر عليهـــا بين مخلفاتـــه في مكتبـــه ١٨١٩ . وتحوي تفاصيـــل دقيقة جداً لحالة انكلترا في ذلك العهد المسمى عهـــد الاستقرار . (المعرب)

١٩) انظر جي . لوسترانج « بغداد في اثنـــاء الخلافة العباسية » اكسفورد ١٩٠٠ (المؤلف)

كتابة تدلّ دلالة قاطعة بانهـا صُنعت في بغداد ، صنعها استاذ اسمـه « أبو نصر [٢٠] » الاسم الذي يظهر في خطّ متقطع مشوّه في المحل المخصص لوضع اسم الصانع . يمثـل هذا النموذج النسيج الاسلامي الاول الشائع في حوالي نهاية القرن العاشر بألوانه المؤلفـة من الاحمر والاصفر والاسود والابيض ، وبرسومه من مختلف الوحوش والطيور والزخارف النباتية التي ورثت عمـا غبر من الفنون ، كلهـا رُسم داخل سطوح دائرية وحواليهـا . كان ثمّ عنصر دائم الوجود هو صورة الفيـل ؛ ربمـا مصدره الهند . ظهر هذا الحيوان في منسوجات ايرانية يعود تاريخهـا إلى ما قبل هذا الزمن بعض الشيء . ولقد اكتشف قطعة منها قبيل بضع سنوات في كنيسة احدى القرى قرب (كاليه) وهي احدى التحف الثمينة التي يعتزّ بهـا متحف (اللوفر) . كما وجدت هذه الصورة أيضاً على أقمشة بيزنطية مقلدة عن المنسوجـات الفارسيـة ، منها القطعة الحريرية الفاخرة التي بقيت في قبر الملك شارلمان (بآخن)

في اوروبا زاد الطلب على الاقمشة الحريرية الفاخرة زيادة سريعة بتقدم التجارة مع الشرق وأخذت الشفوف والحرائر الرقيقة الآتيـة من البلاد الاسلاميـة تجيء بكميات بلغت من الوفرة إلى الدرجـة التي رأى الاقتصاد الاوروبي في هذه الصناعة الرائجة مصدر ثراء لا يستهـان بـه ، فأنشئت معامل نسيج في مختلف المراكز التجارية ، وبدأت تزاحم مزاحمة جديـة المعامـل الشرقية والاسبانية . ان المحـل الذي استقى منه الصناع الطليان الأول أسرار الصنعة وأخذوا عنهـا النماذج والاشكال ، هو بالدرجة الاولى جزيرة صقلية حيث كان الفاتحون المسلمون قد أسسوا في القصر الملكي ببالرمو معمل نسيج مشهور بقيَ مزدهراً حتى عادت الجزيرة إلى الحكم المسيحي ايـام

---

٢٠) توهم المؤلف في قراءة النص فهو ابو بكر وليس ابا نصر كمـا هو واضـح من الرسم مكبراً . (المعرب)

النورمان . ففي غضون احتلال النورمـــان للجزيرة اشتدَّ أزر المدرسة الصقلية بالاحتكاك مع الاساليب الشائعـــة البيزنطية ووصلت اليهـــا عندما أُسر عدد من الحيّاك اليونانيين في الخلجان الايجيـــة السنة ١١٤٧ واستُخدموا في مصنع البلاط . مـــا جاء القرن الثالث عشر حتّى كان نسجُ الحرير ، الصناعة الرئيسيةَ في عدة مدن ايطالية غنيـــة ، حيث كانت الاقمشة التي يصعب جداً تمييزها من الاقمشة الصقليـــة التي حاكتهـــا ، تنتج وتصدر بكميات كبيرة .

في القرن الرابع عشر عكست الحرائر الايطالية آثاراً جديدة ، كانت هي نفسهـــا تؤثر في الفن الاسلامي . ويرى في النسيج الحريري الازرق والابيض الموشى بالذهب (الشكل٤٦) فضلاً عن الاسود ، وشجيرات النخيل والزخارف النباتية والكتابة العربية وغيرهـــا من العناصر الشرقية الاخرى المألوفة في الصنعة الايطالية لذلك الزمن ، بعض الطيور ذات الطابـــع الصيني . إن فضل ظهورها في اوروبا يُعزى بالدرجة الكبرى إلى الحوادث التي أدت إلى حصول تغييرات عظيمة في الشرق الاقصى . ففي السنة ١٢٨٠ ، غزت الصين قبائل المغول البدوية بقيادة (قوبلاي خان) شقيق (هولاكو) الذي قوّض صرح الخلافة العباسية السنة ١٢٥٨ وأقاموا هناك أسرة (يُوانْ) التي حكمت حتّى السنة ١٣٦٧ ، وكان من نتيجة هذه الفتوح أن خضعت مساحة شاسعة من الارض الآسيوية ، تمتد من بلاد فارس حتّى المحيط الهادي لمدة قرن من الزمن إلى حكم أفراد من الاسرة المغولية الملكية نفسهـــا . ظروف أدت إلى تبـــادل وتداخل عظيم في أساليب مختلف الفنون الآسيوية الشرقية والغربية . ففي الصين برزت جالية اسلامية مهابـــة الجانب من المستعمرات التي زُرعت هناك خلال حكم أسرة (تانك) تتخاطب باللغة العربية ، شأن الاسلام حيثمـــا انتشر . وكان من بين هذه الجالية عدة صناع . إنهم حيّاك متفننون ، أصدروا في مراكز مجهولة أقمشة كانت لها قيمتها في جميع البلاد الاسلامية نسجوها ، بمهارة

التقاليد المتوارثة عن البلاد التي عاشوا فيهـــا . كانت أقمشتهم الجميلة مرغوبة من اخوانهم في الغرب ، ومؤثرة في كل مكان عـــلى تطور أساليب النسج والحياكة الاسلامية ، ومن ثمّ على حياكة اوروبا الغربية . لقد وصل الينا بعض النماذج النفيسة جداً من المنسوجات الصينيـــة في القرون الوسيطة ؛ اشهرهـــا وأنفسهـــا قطعة محفوظة في (الدانزغ) يبدو انها عملت خصيصاً لسلطان المماليك الناصر محمد بن قلاوون الذي حيك اسمه عليهـــا . يرى في (الشكل ٤٧) قطعة حريرية موشاة بالذهب صينية الاصل ذات نقوش مؤلفـة من عدة صور للعنقـــاء وشجيرات النخيل . والكتابة العربيـة على هيئة أشرطة بين خطوط من الزخارف الهندسية المتكررة . وهي شكـل ربمـــا اشتقّ منه نقش الطير في الشكل الظاهر فوقه .

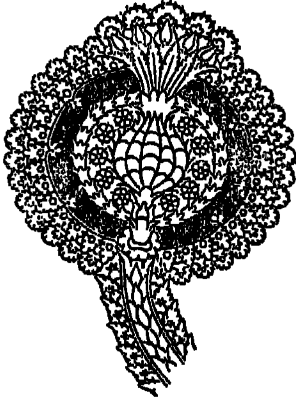
لم يقتصر استخدام الحرير الشرقي للحلل الكنسية على القرون الوسطى ، بل تعداه إلى العصور التي عقبتهـــا . فحلـّة القداس في (الشكل ٤٨) فصّلت من قماش فارسي من مصنوعات أواخر القرن السادس عشر وبداية السابع عشر ، بنقوش لا تليق قط بخدمـــة الغرض الذي فُصّلت لأجله . فكيف يُتسامح بالظهور فيه في المسجد ؟ فقوام النقش بصورة رئيسة صف من الشباب الواقفين مرتدين ثياب القصر ، قابضين على كؤوس وقوارير خمر . صُوّروا واقفين وسط سيقان نباتية رفيعة متسلقة تحمل أوراقـــاً وأزهاراً ، كالنموذج الذي احتذاه الفخّارون الاتراك الذين كانوا آنذاك يقلدونهـــا تقليداً دقيقاً . وفي الفراغات كان يوجد صور طيور حيّـــة مرسومة وفق الخطوط والاساليب ذات الاصول الصينيـــة . إن النموذج يعود إلى مجموعة شبيهـــة بالنماذج الزاهية التي شاعت موضتها خلال فترة الحكم الصفوي . وثمّ نماذج رائعـــة قد تحتشد فيهـــا التصاوير البشرية ، مظهرة بعض مواقف من وقائع غرامية تاريخية ، مثـــل مقابلة (خسرو وشيرين) أو المأساة الغرامية الشهيرة لليلى

ومجنون . وأحياناً ترصّعها مناظر طبيعية رائعة النقش دقيقته ، من أشجار مزهرة ، وشجيرات يجوس فيها كل أنواع الحيوانات المفترسة والأليفة كلها رُسمت بألوان واتجاهات ساحرة رائعة .

ان النموذج النقشي الموجود على الشريط الحريري المستخدم لتزيين بذلة القداس يقوم مثلاً على مجموعة رائعة من نماذج المنسوجات ظهرت في الفترة التي نشط الاتراك والطليان ونجحوا في تقليد منسوجات بعضهم بعضاً ، حتى كان يتعذّر على الخبراء في أحيان كثيرة أن يفرّقوا بين المنسوجات ذات الاصل الاوروبي من المنسوجات التي صدرت من الشرق . ومع أن هذه القطعة متأخرة العهد أوربية الشكل ، فنقوشها تركية من الانواع التي برزت في آسيا الصغرى في فترة ما من القرن الخامس عشر . وقوام هذه النقوش بأبسط مظهر لها شرائط خالية من النقش أو شرائط . مزخرفة تمتدّ عمودياً بانحناءات متضادة وتتحد في مسافات فتغطي القطعة بما يشبه الشبكة . في بعض الامثلة توجد زخارف متقنة هندسية أُطلقت بين خيوط الشبكة كما في نقوش البذلة الكنسية . بينما تبدأ من نماذج مشابهة اخرى — من الشرائط عندما تتلاقى . هذا النموذج الاخير أُلحق في نسيج حريري فاخر كما في (الشكل ٥٠) بزخرفة الكوبلتي على أرضية قرمزية . اشبكة ثانوية ، يبدّر منها زهر الورد ، والزنبق ، والقرنفل ، والنرجس .

ومن براعم الزهر التي هي العنصر الرئيسي في هذا النقش ، أخذ الطليان عناصر الزهر الموضحة في (الشكل ٤٩) واستعملوا أشباهها التامة في قماش المخمل الذي يعود تاريخه إلى أواخر القرن الخامس عشر كما يُرى في (الشكل ٥١) . وفي القرن السادس عشر أخذ الحياك الاتراك والاوربيون وكل فريق يسبق منافسه بالمناوبة على مرور الزمن يخرجون عدة أشكال معقدة على الاسلوب الشبكي والبرعمي مكسبين النسيج المخملي الفاخر الذي كان موضة

تلك الحقبة من الزمن – الطابع الخاص به الذي أصبح طابعهم لا ينازعهم فيه أحد . من هذه النماذج ألّف وليم موريس [21] زخرفة تلك القطيفة النفيسة الموشاة بالذهب التي تألفت فيها ألوان الازرق ، والبرتقالي ، والابيض ، والذهبي (الشكل ٥٢) . وهذه هي المحاولة الوحيدة منه لإحياء عهد تلك المنسوجات الانيقة.



الشكل ٤٩ : نقش من نسيج حريري ايطالي ، القرن السادس عشر المتحف الوطني في فلورنسا

أما السجاد الذي هو الآن من ألزم البضائع العالميـة ، فقد ورد إلى اوروبـا من الشرق كحاجة شرقية كمالية للسراة والاغنياء الذين أحلّوه في باديء الامر محـل القيميات التي يصبح اكتنازهـا لا كشيء معد للاستعمال . إن السجاد في الشرق هو من قبيـل التحف النفيسة بنوعيه الناعم الملمس الرخص الوجه مثل السجاد . والغليظ النسج الكث ذي الخيوط النافرة المقصوصة من السطح بشكل يبدو معه شبيهاً بالقطيفـة المخملية ؛ فقد كان يُستعمل كأبسطة للنوم أو زينة للجدران فضلا عن استخدامه فرشاً على الارض . ولقد عُلم من صُور السجاد الشرقي الظاهرة في لوحات مشاهير الرسامين الايطاليين أن هذه البضاعة وردت اوربا قبيل القرن الرابع عشر وما لبثت بعدها بقرنين أن أصبحت مادة تجارية مألوفة في الاسواق . ولقد سجـل التاريخ ان الكردينال وُلزي [22] استطاع في السنة

---

(٢١) *William Morris* (١٨٣٤ – ١٨٩٦) أديب وشاعر ومفنن وزخرفي انكليزي مـا زال بعض قطع الآثاث والزخارف والمنسوجات التي ابتدعهـا تحمـل اسمه وتنسب اليـه . (المعرب)

(٢٢) *Thomas Wolsey* (١٤٦٥ – ١٥٣٠) وزير الملكين هنري السابع وهنري الثامن ومن كبار الدبلوماتيين الانكليز . (المعرب)

١٥٢١ بفضل المعونة القيمة التي أسداها اليه السفير البندقي أن يحصل على ستين سجادة شرقية لقصره في (هامبتن كورت) . ربما كانت أمثلة مشابهة لما شوهد في لوحات هولبين [٢٣] مما يمكن مضاهاته بسجاجيد لا زالت باقية حتى يومنا هذا ثمّ صنعه في آسيا الصغرى آنذاك . وفي دار (بوتون) بـ (نورثامبتنشاير) توجد ثلاث سجاجيد نافرة الخيوط صُنعت خصيصاً للسر (ادورد مونتاغيو) مع شعار آله وتاريخ ١٥٨٤ حيك على حاشيتها. كانت كالسجاجيد المعروفة آنذاك (وتعرف الآن بالسجاجيد التركية) مزدانة بزخارف هندسية ملونة بالازرق مع تفاصيل ودقائق صفراء فوق أرضية حمراء

وفي القرن السادس عشر رفع صناع فارس فن حياكة السجاجيد إلى مراقٍ لم يصلها من قبل ، فأنتجوا بأعجوبة من أعاجيب العبقرية ، أنماطاً لا تضاهبها أنماط اخرى في سحرها وجمالها . وفي متحف (فكتوريا — البرت) نجد الآن واحدة من هذه الخرائد العجيبة جُلبت من (أردبيل) حيث كانت مفروشة لعدة قرون في مسجد (شيخ صفي) الجدّ الاعلى لشاهات الصفويين. وفي (الشكل ٥٣) جزء من هذه السجادةالهائلةالتي هي أدق ماحاكته اليد، تتألف من ثلاثين مليون عقدة خيط دقيقة ، لكل بوصة مربعة ٣٨٠ عقدة خيط ، وفي الوسط جامة مسننة الحافة تحيط بها طغراءات بيضية مدببة النهاية وكلها مزدانة بزخارف ذات ألوان تأخذ بمجامع القلوب . كان ربع النقش الوسطي يتكرر في كل زاوية من زوايا السجادة المستطيلة الشكل ذات الارضية الشديدة الزرقة المغطاة بأزهار زاهية اللون ، خارجة من فروع ملتوية يقوم في وسطها مصباحان كأنهما معلقان في الفضاء ، يمثلان شكلاً آخر من المراكز الثانوية في السجادة . أما الحافة او الاطار فهو عبارة عن هوامش

---

٢٣) *Hans Holbein* (١٤٩٧ — ١٥٤٣) ويسمى بالاصغر تفريقاً له عن سميه الاكبر وهو رسام الماني عظيم له لوحات شهيرة منها اللوحة المعروفة بـ (رقص الموتى) . (المعرب)

مستقيمة الخطوط رفيعته ، في داخلها دوائر مقرنصة او اشكال اهليلجية مفصّصة ومدببة محتشدة الزخارف كالارضية ذات اللون الانجاصي التي رُسمت تحتها . وفي حافة أحد الأضلاع حيك بيت شعر (لحافظ) وتحته نُقشت العبارة التالية بالفارسية :

« عَمَل عبد العَتَبة الشريفة مقصود الكاشاني في السنة ٩٤٦ هـ »

ومع وجود سجاجيد أقدم من هذه السجادة ، فقد ظلّت مدة طويلة تبذّ في العراقة والقدم جميع السجاجيد الاخرى ذات التاريخ ، وفي هذا يجب أن نسلّم بسمو مصدر محلي آخر لسجادة ايرانية نفيسة ، وهو متحف (بولدي بيزولي — Museo Poldi - Pezzoli) بميلانو . ذُكر ان حائكها هو غياث الدين جامي في السنة ١٥٢١ .

تعلم الفنانون الاوروبيون من المسلمين حياكة السجاد ذي الخيوط النافرة مستخدمين في اول الأمر السُّدى الشرقية التقليدية وبعدها بأزمنة متأخرة ، اعتمدوا الوسائل الآلية البحتة . وقد اعتدنا أن نجد في السجاد والبسط المصنوعة بالآلة — المنتشر عملها في سائر انحاء العالم الآن — أنماطاً مأخوذة من الاصول الاسلامية ، لكنها نزوة من نزوات الموضة لا بقية من بقايا الانماط التقليدية الغابرة . إن السلف الأقدم للسجاد الحديث كتب له الخلود بجدارة واستحقاق بسبب نسجه المخملي أكثر مما هو بسبب أنماطه وزخارفه .

عندما ننتقل من الزخارف التي تكسو السطوح المستوية ، إلى النقوش النافرة ، نجد الحفارين والمصممين المسلمين قد اتبعوا الاساليب والانماط التي حكمت فروعاً أخرى من هذه الفنون الدقيقة . والتفنن في الاسلوب ، ذلك الذي تعوّدناه في صناعة الحفر الاوروبية حيث ان أساليبه وأنماطه التقليدية كادت تكون مجهولة تماماً في البلاد الاسلامية — لا تجد له أي أثر في فني الحفر والصياغة الاسلاميتين ، فهنا تجد ترديداً لأنماط ونقوش زخرفية شبيهة

او مطابقة تماماً لتلك التي استخدمت في الحياكة والتكفيت والرسم بصورة عامة . أنماط كهذه كانت تستخدم لغايات تزيينية بعيدة كل البعد عن الذوق الاوروبي واستعمالاته . فكانت زخرفة لتزيين الصفحة الاولى من مخطوطة مذهبة ، تصلح في الوقت نفسه ان تكون رسمـاً لقماش حريري لا بل تكون مناسبة للحفر على المرمر في ظاهر قباب الابنيـة او على حيطان المساجد . إن حوض الفسقيـة المرمري في (الشكل٥٥) يرجع تاريخه إلى (١٢٧٧ — ٧٨) المحرَّر باسم « محمد الثاني » سلطان حمـا — عمّ أبي الفداء المؤرخ ، يُظهر كيف اختـار النحات نمطاً من النقش مشهوراً في صناعـات متعددة هو منوال متكرر يمتد إلى ما لا نهاية إمـا على الجانب كحـد وكإفريز ، وإمـا يمتد أُفقياً او عمودياً بزخرفة تغطي سائر القطعة.وثمّ زخارف مشابهة عديدة حُفرت في افريز طويل على هوامش ضريح شيخ توفي السنة ١٢١٦م . تبدو في (الشكل ٥٦) وقد حفظت واجهة واحدةمن هذا الضريح النادر في (ساوث كنكستن) أمـا الباقي فهو في القاهرة . كان التقحيف في القطـع المحفورة خلال العهد الفاطمي عميقـاً جداً إلى درجة ظنّ انه تثقيب لا حفر كما في الاطار المحفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة (الشكل ٥٤) . والحفر في السقف الخشبي



الكشل ٥٤ : لوح خشبي محفور . مصر في القرن العاشر او الحادي عشر (متحف الفن العربي — القاهرة)

(الشكل ٥٧) وإنْ تمّ في صقلية ، لكنه فاطمي الطراز . ومع حسن الأثر الذي تخلّفه هذه الحشيات المحفورة حفراً عميقـاً ، ففيها زخارف لشتيت من الطيور والوحوش تجوس بـين الاوراق النباتية ، فضـلا

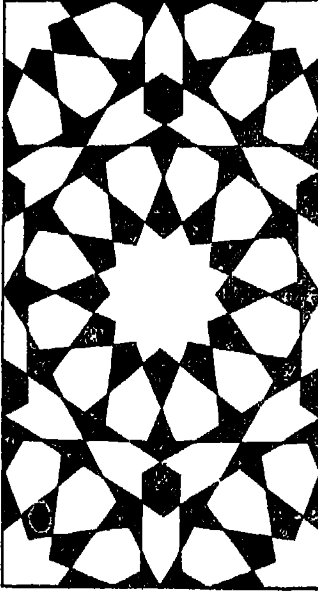
عن صور آدمية ، كثيراً ما تجدها في القطع الفاطمية المصنوعة للبلاط ، او للتجميل الدنيوي حيث ظهرت صورة الآدمي بحرية وجراءة .

هذا السقف يتبع اسلوب البناء الخاص الذي اتخذه النجارون المسلمون ، وهو اسلوب جاءت به اعتبارات عملية وزخرفية في الوقت نفسه . ان الاحوال المناخية جعلت الخشب ذا قابلية عظيمة للتقلص والاعوجاج . وقد أدت ندرة الخشب المناسب إلى تصغير تلك الحشيات إلى أقل فضوة ممكنة وإلى زيادة مقابلة في الأطر التي تشدُّ إزر القطعة الخشبية بعضه إلى بعض .

إن تنويع النقش ومتانة الصنع في هذه القطع الخشبية ، أوصل النجارين المسلمين إلى طريقة فذّة عجيبة في تحشيد وتصفيف هذه الحشيات الخشبية والتأليف فيما بينها بشكل زخرفي استلطفه المسلمون ووقع في أنفسهم أجمل وقع ، فأولعوا به وعملوا زخارف من عدة مضلعات منبثقة من أشغال نجمية . وهو طرز في الزخرفة ربما كان من ابرز واعظم ما ساهم به الفن الاسلامي في ميدان فن الزخرف العالمي . ولقد وجد هذا الفن مجال بروزه الاعظم في الاعمال الخشبية وهو المجال الذي لعب دوراً هاماً في تطوّر ذلك الاسلوب ، لكن هذه النقوش كانت مما استخدمه أساتذة يشتغلون في غير هذا الفرع من الزخرف . فقد لقي هذا النوع من التصاميم احتفاءً كبيراً من جميع المحافل الاسلامية ، وإذا كان قد تطرّق اليه الانحلال والفساد في الازمان الاخيرة فآض مجرد مناظر هندسية رتيبة مملّة ، فإن أشكالها البسيطة الأولى ظلّت دائماً واسطة فعّالة الأثر لنقل النظام التلويني الذي برّزت فيه العبقرية الاسلامية أيّما بروز .

قدّمنا نموذجاً لهذا الاسلوب في (الشكل ٦٠) وهو تأليف بارع لنجوم مدببة الرأس اثني عشرة دُفنت وسط مضلّعات سداسية . هذا الرسم اجتزيء من الرسم (٦١) المستوحى من احدى ملاحظات (ميرزا أكبر) مهندس

شاه ايران في مفتتح القرن التاسع عشر . وكثير من هذه الرسوم محفوظ في متحف (فكتوريا والبرت) . نجد في الرسم الاصلي خطوطـاً ودوائر مطموسة خفيفة رُسمت بآلات هندسية رفيعة الطرف فوق الورق. وبعد القياسات الضرورية عمد مهندسها إلى إجراء قلم الحبر الغامق فوق الاشكال التي انتوى ابرازها والمتكوّنة من تلاقي تلك الخطوط الهندسية . هذه القاعدة التي اتبعها ، هي قاعدة مدرسية ربما نهضت برهاناً على تقليد قديم في تلك الصناعة ، مُظهرة كيف أن المصممين الشرقيين كانوا يشرعون بتنظيم تصميم قد ينجز بطرق مختلفة كما شهدت بذلك أدبيات كثيرة بحثت في موضوع هذه بالنماذج [٢٤] .

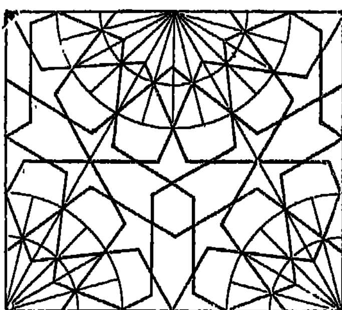


شكل ٦٠ تصميم زخرفي اسلامي .

في الباب ذي الصفاقين المبّين في (الشكل ٥٨) الذي يرجع عمله إلى القرن الرابع عشر او الخامس عشر، تجد المضلعات بدرجة من الصغر بحيث صار في الوسع استخدام العاج فيها بدلاً من الخشب وبذلك كسب الباب جمالاً

٢٤) حلل ام. جي . برجوان *M. J. Bourjoin* في كتابه « تشابك الزخارف *Le traite des entrelacs* (ط . باريس ١٩٢٥) نحواً من مائتين من هذه الاشكال انظر الدكتور اي اج هانكن *Dr. E. H. Hankin* « في مخططات رسوم هندسية في الفن العربي » *the Drawing of Geometric patterns in Saracenic Art* (ط كلكتا ١٨٧٩) وفيه شرح ببراعة فائقة بعض أمثلة معقدة جداً من هذه الاشكال (المؤلف)

بديعـاً لا نظير له . انلك لتجد في أحد الصفاقين تلك المضلعات وقد حُفرت بأشكال زخرفية نباتية حفراً عمودياً نافراً . وترى الصفاق الآخر قد كُفّت على نظام هندسي . ربما كان كلاهما أثرين متخلفين من منابر شبيهة زخارفها بزخارف ذلك المنبر المحفوظ في متحف (فكتوريا والبرت) الذي أقامـه في جامع القاهرة سلطان المماليك المدعو (قايتباي) ١٤٦٨ — ١٤٩٥ . فهـدم الجامع في القرن التاسع عشر بسبب شق شارع جديد .



الرسم ٦١ : التخطيط الاساسي الذي بني عليه الشكل (٦٠) من رسم (ميرزا اكبر) الفارسي في أوائل القرن التاسع عشر

صنع المسلمون عدة حاجات جميلة كلها او أكثر أجزائهـا من العاج وهي المادة التي كانوا يُجملونها بزخارف محفورة او مكفتة او بنقوش بحتـة . وقد تمركزت في القرن العاشر مدرسة لحفر العاج في قرطبة ، وأخذت تشتغل على الاسلوب الذي أفصح عن تجربة سابقة ناضجـة . ومن بين النماذج الميسورة ، علبة اسطوانية (الشكل ٦٢) مـن كاتدرائيـة زامورا Zamora محفوظة الآن في متحف الآثـار بمدريد ، يحيط بغطائهـا المقبب كتابة تنص بأنهـا عملت في ٩٦٤ للخليفة (الحكم الثاني) هديـة منه لزوجه أُمّ الامير عبد الرحمن . إنهـا أروع مثـال للمجموعة التي تشتمل على عدة رسوم متشابهة لقد عمل في قرطبة خلال تلك الفترة من الزمن تقريباً وتجده مغطى تماماً بعساليج النخيل ، وبأشكال الطواويس والطيور وما شاكل من الحيوانات . وهنالك تحف أخرى معروضة الآن في دور عاديـات لندن وباريس وغيرهما ، تختلف في نقشهـا عن هذه العلبة ولكنها شبيهة بها من حيث الشكـل والصنعة . فقد حفرت بدوائر مفصصة مشتبكة تتضمن صوراً آدمية كما هو مرسوم

على العلبة العاجيـــة المستطيلة في (الشكل ٦٣) . هذه القطعة هي من عمـــل عدة أساتذة أمكن قراءة اسمين من أسمائهم المحفورة على الحافات وهمـــا « خيرْ » و« عُبيدة » . وقد تمّ صنعها في السنة ١٠٠٥ م لأحد موظفي البلاط ، ثبت اسمه وألقابه بصورة واضحة فوق الغطاء .

وثمّ انموذج آخر للصناعة العاجية مبيّن في (الشكل ٦٤) ؛ علبة دائرية الشكل ذات نقوش هندسية مبصومة في جسمها وفي غطائهـــا المستوي . انها لتقوم مثلاً على مجموعة من النماذج يُظن انهـــا صنعت بالقاهرة في القرن الرابع عشر . وهنالك عـــدة صناديق عاجية اسطوانية وطولانية ، عارية عن النقش ملونة بألوان مختلفة او مموّهة بالذهب فيهـــا دوائر مملوءة بالاشكال الآدمية وبالطيور والوحوش والازهار والشجر مرسومة على شكل عقـــد على اسلوب يُذكرنا بالمخطوطات المذهبة. هذه العلب يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر . وقد وصفت وصفـــاً غامضاً بكونها (علب صقلية — عربية) وثمّ نموذج آخر لها عليه صور قنّاص راكب جواداً وخلفه فهد أليف كما يلاحظ في (الشكل ٦٦) .



شكل ٦٦ : علبة عاجية . صقلية — عربية منقوشة . القرن الثالث عشر — مجموعة خاصة — باريس

كانت العلب العاجية المنقوشة والمحفورة ، والمنقورة تثقيباً ، التي تستعمل لوضع الحلى والعطور والحلوى وما شاكل ذلك كثيراً ، تصنع بمثابة هدايا — كما تدل الكتابات المحفورة عليها — وأقدمها وهي أنفَسُها وأعلاها كعباً يعود إلى بداية الفن الاسلامي. وصلنا كثير من هذه التحف في أكمل حالة وأتمّهـــا . ويبدو من بقايا الالوان الاصليـــة التي مازالت تبدو ظاهرة أن

نقوشها المحفورة كانت ملونة ومذهبة أيام كانت جديدة . وما زال بعضها محافظاً على مقابضه ومفصلاته المعدنية ، وهي بحد ذاتها أمثلة طريفة لفرع صغير من فنون الصناعة المعدنية .

كمثال أخير للمهارة الاسلامية في فن الحفر ، ابريق البلّور الحجري الذي هو من جملة ما تعتزُّ بحفظه كنيسة (سان مارك) في البندقية (الشكل ٦٥) ، هذا الأثر النادر مهم من الوجهة التاريخية ، إذ تجد اسم (العزيز) الخليفة الفاطمي الثاني في مصر قد كُتب عليه . وربما كان ثمّ احتمال كبير في انه من جملة الاباريق البلورية التي ذكرها (المقريزي) في قائمة الكنوز المشتتة ١٠٦٧ م ، حيث كانت تلك الاباريق موقعة باسم الخليفة . قد يقوم هذا النموذج بصنعته الدقيقة وشكله الأنيق تذكاراً رائعاً لفترة من أزهى فترات الفن الاسلامي . وتستعمل الكتب في الحياة اليومية وتدين بشيء من مادتها وفنها وصنعتها إلى الاسلام — فهي أوسع الحاجات انتشاراً . وربما بدا لأول وهلة أن احتمال ارتباطها بالشرق بعيد . إن الطرق الحديثة لتجليد الكتب وانتاجها قد استفادت اكثر من الكثير من صناعة الاسلام ومهارته في القرون الوسطى . ولنذكر هنا أنه لم يُبدأ في نشر المؤلفات الاسلامية بأساليب آلية الا في العصر الحديث ، إما بالطباعة المعروفة واما بالطبع الحجري . والطريقة الاخيرة كانت المفضّلة ، إذ انها صانت بأمانة كليّة خطوط النساخين وهم أشرف طبقة من الصناع في سائر العصور الاسلامية . لكن ، مع أن اوروبا قد أتقنت فن الطباعة ووصلت به حد الكمال قبل وصوله الاقطار الاسلامية ، فنحن مدينون للشرق بمادة كانت العامل الاكبر ، إنْ لم يكن الأوحد ، في ارتقاء فن الطباعة وبلوغه مرتبة الكمال . لقد عرف الاسلام الورق — وهو اختراع صيني قديم — عند استيلائهم على سمرقند ٧٠٤ م وتعلموا انتاجه من الصناع الصينيين وانتشر استعماله في الغرب

بفضل الاسلام . وثمّ مقدار كبير من المخطوطات العربية المكتوبة على الورق يعود تاريخها إلى القرن التاسع ، لكنها لم تأتِ اوروبا المسيحية حتى القرن الثاني عشر . وأول المصانع الورقية التي أنشئت في اوروبا ، أسسها المسلمون في اسبانيا وصقلية ومنها امتدت الصناعة إلى ايطاليا .

عندما اصبح منتوج الكتب في القرن الخامس عشر من جملة البضائع التجارية بفضل الطرق الآلية التي تمّ اتباعها ، أصبح الورق مادة جوهرية في انتاج الكتب بالطرق الآلية التي لولاها ما استطاع فن الطباعة تحقيق تقدمه الراهن . وعلى كل حال فالناشر الحديث ليس مديناً للمسلمين بالورق وحده ، ففي غضون القرن الخامس عشر عندما كانت البندقية منهمكة في امتصاص الثقافة الاسلامية ، وموضة الاسلام الفنية في اوروبا ، اتخذت صنعة تجليد الكتب في ايطاليا مظهراً شرقياً لا شائبة فيه . في هذه الفترة اتخذت بعض الكتب المجلدة مظهراً يشبه مظهر التجليد الاسلامي شبهاً غريباً . فشفة الغلاف التي كانت تُطوى لحماية حواف أوراقه ما زالت موجودة حتى الآن في دفاتر الحساب الجاري التي يستعملها الصرّافون الآن . وهي تذكرنا بأصلها الشرقي .

وثم بدعة أخرى استُلهمت من الصناعة الاسلامية وهي طريقة جديدة في تزيين غلاف الكتاب الجلدي . كثيراً ما كان مجلدو الكتب في القرون الوسيطة يزيّنون أغلفة الكتب بزخارف مبصومة بصماً عليها بوساطة كعوب معدنية ساخنة ، وهي طريقة أصبحت ذات شأن عظيم وانتشار واسع بفضل اتقان الزخرف والتوصل الى طرق فعّالة بتكبير حجم الكعوب الكاسية والتفنن في نقشها واللجوء إلى ترسيم غلاف الكتاب وحوافيه بنقوش رتيبة متكررة. على ان الزخارف التي ترسم بطريقة (الكنس الأعمى Blind Tooling) كما تسمى في انكلترا ، كان زخرفها يتمّ بمجرّد اخراج رسوم نافرة ،

حتى بدأ الصناع الشرقيون يزيّنون هذه الاشكال المطبوعة بمـلء منخفضاتها بمـاء الذهب وهي طريقـة أدخلها إلى اوروبا مجلدو الكتب المسلمون الذين استقرّوا في البندقية . وبنهاية القرن الخامس عشر ، استعيض عن هذه الطريقة بأخرى جديدة : كان الذهب يُكبس على هذه المنخفضات مرة أخرى بآلات محماة على صفيحة ذهب وبذلك يبقى التذهيب ثابتـاً غير قابل للزوال . ويبدو ان هذا التحوّل الجديد في الصنعة ، قرطبيُّ المصدر . في القرن السادس عشر أصبح هذا الاسلوب عام الاستعمـال عند مجلدي الاسلام والمسيحيين على حدٍ سواء ، مع أن الطريقة الشرقية الأولى باستعمـال الذهب في التمويه لم تندثر اندثاراً كليـاً .

تُرى النماذج التي تمخّض بها الاستعمال الشرقي للذهب في المجلدات الرائعـة التي يعود تاريخ عملهـا إلى القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الذي قدمنا زخرفتـه الباطنيـة في (الشكل ٦٧) ألا أنه أعجوبة في الوضوح والدقة أخرج بعد بصمات عديدة قامت بهـا يد حاذقة صبورة لا تعرف الكلل وبآلات ساذجة قليلة ! ويُظهِر (الشكل ٦٨) عدة نماذج زخرفيـة إستعملهـا المجلدون الشرقيون ، قواعد ترجع إلى ما قبل القرن السابع عشر (وهو تاريخ صنع النموذج) بأحقاب مديدة . في الغلاف الجلدي الاحمـر هذا ، زخرف وسطي مبصوم ومموّه بالذهب وتحته وفوقه وعلى أركانه الأربعة قُرنيات أنيقـة منخفضة عن سطح الغلاف ومزدانـة بزخارف تشبه تعريشات الدانتيل ، وهي مصنوعة من جلد ابيض دقيق ألصق على الارضية السوداء . وثم منظر طبيعي من أشجار وطيور وحيوانات — بينهـا تنين من الشرق الاقصى ، منقوش بالذهب على الارضية المستوية . وفي الغلاف البندقي من أعمـال القرن السادس عشر (الشكل ٥٦) ، زخارف منخفضة متشابهـة ونقوش ملونة هي تقليـد واضح للأنماط الفارسية .

ترى في الجلد المصري (الشكل ٦٧) رسماً بيضوي الهيأة مدبب الرأسين رُبعه مرسوم في كل زاوية من زواياه الاربع . والغلاف الفارسي عادة يزدان برسوم على المنوال نفسه وهو اسلوب احتذاه كثير من الصناع كما رأينا سابقاً . وثم نموذج مشابه برسوم منقوشة في المركز والزوايا ، اسلامية الاصول وزخارف هندسية ، شرقية الطراز رُسمت بالذهب على غلاف بندقي تاريخه يعود إلى ١٥٤٦ كما يشاهد في (الشكل ٧٠) . وفي (الشكل ٧١) وهو نموذج ألماني متأخر التاريخ يبدو الاسلوب نفسه ظاهر الاتباع وإن كانت التفاصيل قد انتابها تحوير وفقاً لمتطلبات الموضة الاوروبية المعاصرة .

من هذه الأغلفة الأربعة يمكننا أن نقتفي ببعض تعسُّر ، تطور الاساليب الفنية التي ظهرت اصولها في بلاد اسلامية ، ثم شقّت طريقها إلى دكاكين اوربا جالبة معها أساليب وأنماطاً وعناصر زخرفية أصبحت بعد قليل من التعديل ، مندمجة اندماجاً كلياً في الصنعة الحديثة . إن كبس الذهب وبصم الكتابات أصبح الآن عملاً شائعاً في أنحاء العالم يتم فوق أغلفة الكتب الناعمة بأساليب أوصلها الصناع المسلمون درجة الكمال . ثم بدأت في القرن التاسع عشر الصناعة الآلية في انتاج أغلفة الكتب تحلُّ محل الصناعة اليدوية القديمة ، الصناعة التي لم تستطع التحررمن احتذاء الاساليب القديمة ، والاقتباس من أنماطها الزخرفية القديمة التي ترجع إلى أصول اسلامية بحتة . إن الرسوم الزاهية المعرّقة الشبيهة بالمرمر التي توضع في الكتب بين الغلاف وجسم الكتاب ، او تستعمل كأغلفة ورقية او حواف الكتب المجلدة في دكاكين اوروبا في خلال القرن الثامن عشر ، إنما استمدت رأساً من المعين الشرقي . وثم أمثلة دقيقة لهذه النماذج في أشرطة ورقية كانت تُلصق على حواشي الرسوم الاسلامية والرقاع الخطية المصنوعة في القرن السادس عشر للهواة والجمّاعين الذين كان ذوقهم الرفيع يتطلب اطارات جميلة أنيقة لتحلية كنوزهم

ومجموعاتهم . كان الورق المعرّق معروفاً في انكلترا منذ وقت (فرنسيس بيكن) ، فهو يخبرنا « بان الاتراك كان عندهم فن جميل لتعريق الورق بما يشبه عروق المرمر بطريقة نجهلهـا ، تتم بأخذهم ألواناً زيتية والقائها في الماء تباعاً (قطرة قطرة) ثم يحركون الماء تحريكـاً هيناً ثم يغمسون الورق السميك بعض الشيء فيه فتبدوعليه العروق والتموجات كما في نسيج الكاملت chamolet »

ان تجليد الكتب في الغرب بقي يستخدم هذه الاوراق المعرّقة المجلوبة من الشرق حتى نهاية القرن السادس عشر . ولكن مـا مرَّ قرن واحد من الزمن حتى بدأ المجلدون الاوروبيون يصنعونه بأنفسهم . إن الورق المعرّق المصنوع باليد ، نادر الاستعمال في أيامنا هذه ، ولكن ما زال تقليد لـه يستعمل في مختلف الغايات بصورة محدودة .

* * *

بقيت اوروبا اكثر من الف سنة تنظر إلى الفن الاسلامي كما تنظر إلى أعاجيب ، لانه كان بالدرجة الاولى مرتبطاً ارتباطاً محكماً بالأراضي التي طمحت المسيحية ان تسترثهـا . لكن مصدر الاعجاب أصبح بالاخير متأتياً من جمال الفن بذاته . وان عدة تحف نفيسة من تحف هذا الفن مدينة لبقائهـا في حالة سليمة جيدة إلى تقوى الناس في القرون الوسطى . فقد بقيت آمنة مطمئنة عدة قرون في حرز الكنائس ، حيث أصبحت العلب التي استخدمت فيمـا غبر لحفظ حلى الخليفة ، احرازاً وصناديق لمختلف الذخائر المقدسة . ومن يدري ؟ فربما جيء بتلك الذخائر من الاراضي المقدسة ، ملفوفة بقطعة من الحرير الفاخر اقتطعت من حلة اسلامية شريفة ووجدت الرهبـة والهيبة التي تواكب التفكير في مثل هذه الاشياء معاني متفقة مع التهاويـل الغريبة والكتابات المبهمة المنقوشة عليها التي ظن أحياناً أنها طلاسم او كلمات من أقوال سليمان الحكيم او أنهـا اشياء جاءت من أيامه ، وما ذلك إلا لان علم آثـار القرون الوسطى

ليس شيئـاً إنْ لم يكن محض خيال ورواية . وفي القرن الماضي فقط اجترأ البحث الرصين الهاديُ على إلقـاء بذور الشك فيما اكتنف هذه الكنوز النفيسة من خزعبلات وأوهام جوفاء بخصوص رجوع بعضهـا إلى هارون الرشيد وشارلمان واشتهار بعضها بأنها مما جلبه معه القديس لويس التاسع من الشرق .

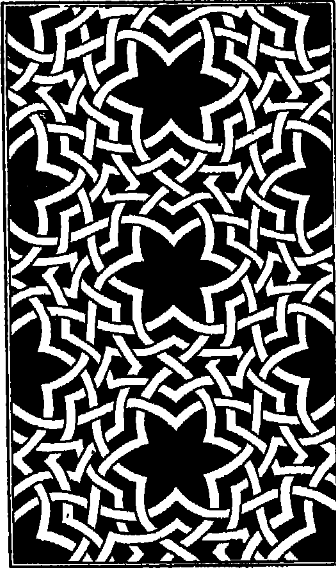
وسواء أعرضت أمثال هذه الاشياء تحت ألوان زائفة أم لا ، فيكفينا منها نفاستهـا الحقة . لقد أصبحت هذه الفرائد التي يقدرها كل خبير حق قدرها مصدر إلهام روحي لاولئك الذين أوقفوا حياتهم على فنون كانت مهملة في الغرب .

بدأ التماس بين المسيحيين والمسلمين من أوقات سبقت الحروب الصليبية بأزمان طويلة . ففي اسبانيا ركز الاسلام نفسه على تخوم اوروبا الغربية ، ومارس من البداية نفوذاً عميقـاً على الثقافة المسيحية . وفي صقلية عاش الدينان في صعيد واحد . بينمـا كان شمالي افريقيا كله محكومـاً من المسلمين وكانت سفنه تمخر عباب البحر الابيض المتوسط من نهاية إلى نهاية .

وكانت الحروب الصليبية فاتحة عهد جديد . فأصبح الصيت الرفيع شبه الخرافي الذي كان يشار به إلى العرب ، حقيقة واقعة أمام المسيحية الحائرة المتعجبة . ومـا لبثت حملات المتطوعين المتقاطرة بين أرجـاء اوروبا أن وجدت نفسهـا فجأة وهي على تماسّ مباشر بالنظام الاجتماعي الذي كان يضيق من كل جهة بحدود تجاربهم وعقاباتهم المحدودة . كانت ردود الفعل الناجمة عن هذا الاتصال واضحة في كل ضرب من ضروب النشاط الاجتماعي وفاق نجاحه في النواحي الفنية نجاحه في النواحي الاخرى بما لا يمكن قياسه ، وطد التجار اللاتين بمرور الزمن صلات تجاريـة بالمرافيء السورية ، فأصبحت التجارة مع الشرق منتظمة في قواعد ثابتة دائمة . وأخذ يصـل الاسواق الاوروبية كـل أنواع المصنوعات الاسلامية النادرة . تلك الصادرات صارت

تسد حاجات لم يكن من قبل يدركهـا او يفطن إلى ضرورتهـا مستعملوها الجدد ، وأثارت روح المحاكاة وفتحت اينمـا حلّت اتجاهات للتطور بصورة مباشرة او بطرق غير مباشرة قدّر لها ان تؤتي ثمارها الناضجة فيما بعد .

في خلال الفترة الحرجة حيث كان الغرب يجاهد للتخلص من أوضاع القرون الوسطى ، نجمت قوى متكتلة بدافع الحماسة الدينية ما لبثت أن ولجت دوراً آخر من أدوار النشاط المتمركز بكليته في أعمال التجارة . وفي القرن الخامس عشر تجد الصناع الاوروبيين قد استفزهم النجاح الاسلامي في فنون الصناعات التحافية المربحة التي اصبحت شيئـاً جوهرياً لجلال عصر الرينسانس يتوجهون إلى الشرق وقد انتابهم إهتمام مجدّد . فأخذوا بدافع دراسة أعمق الاساليب الاسلامية يصلحون ويوسعون اساليبهم الفنية الخاصة ، وبعملهم هذا لم يعودوا يكتفون باقتباس عناصر زخرفية كهـذه التي جاءت عفواً ، بـل بدأوا يستكشفون بدقـة ونظر حديـد — قوانين الزخارف الاسلامية ويقتبسونها بروح جديدة ، في آثار اوروبية بحتة الصبغة .


الشكل ٧٢ نقش اسلامي استخرج من رسم لليوناردو دافنشي ، من il codice Atlantico

ولم تقتصر ممارسة النماذج الشرقية على صغار الصناع ، بل تعدّتها إلى شخصيات فنيـة كبيرة امثال (ليوناردو دافنشي) . فالشكل (٧٢) مقتبس من مخطط تمهيدي وُجد بين مسودات هذا الرسام ، يبرهن على مـدى اهتمامه بمثل هذه الدراسات.

هذا التجديد لم يكن دائماً نتيجة للملاحظة المباشرة . فقد برزت في مستهل القرن السادس عشر قاعدة جديدة ذات طابع تعليمي وذات قابلية للانتشار وهي (كتب النماذج) : النتاج المباشر لآلة الطباعة . فعن طريق مجموعات كهذه ، اصبحت البدع التخطيطية لمشاهير المصممين على الاسلوب الحديث ، معروفة لاولئك الذين صعب عليهم ان يتحرّوا عنها من اصولها ومصادرها الاولى . ومن أهم (كتب النماذج) هذه ، المجلّد النادر الذي عمله « فرنشسكو دي بللكرينو Francesco di Pellegrino [٢٥] الذي اقتبس نماذجه على الاغلب من الانماط الاسلامية . هذا المجلد ومجلدات اخرى معاصرة له (كالكتب التي عملها بيتر فلوتنر Peter Flötner ، وفرجيل سولس Virgil Solis ومارتينس بتروس Martinus Petrus وغيرهم) انما كانت خطوة تمهيدية للوصول إلى نماذج (هولبين) الذي استطاع برسومه لصاغة الفضة ، وغيرهم من الصناع أن يحول بمهارة وعبقرية ، بالاهتمام الالهام الاسلامي إلى انماط اوروبية خالصة كانت نسيج وحدها .

أخذت المشاريع الصناعية الهولندية والانكليزية في القرن السابع عشر والثامن عشر تجني ثمار مغامرات (فاسكو دي غاما) في جزر الهند ، فطغى سيل جديد من التجارة مطّرد الاتساع من الشرق مباشرةً وأثرّ في صناعات ذات صلة وثقى بالحياة اليومية بحيث ازداد عليها الطلب فنظمت بطرق شبيهة بتنظيم التطورات الصناعية الحديثة . وقد جاءت من آسيا المسلمة إلى اوروبا

٢٥) رسام فلورنسي ونحات اشتغل في (فونتنبلو) للملك فرنسوا الاول وهو معروف في فرنسا باسم فرانشسك بليغران *Francesque pellegrin* « كتابه » زهرة علم الزخارف : نماذج من البرودري على الطرزين العربي والايطالي : *La Fleur de la science de Pourtraicture : Patrons de Broderie, Façon arabisque et ytalique*» يعود تاريخه إلى ١٥٣٠ . نشرت طبعة فوتوغرافية له مع مقدمة بقلم غاستون ميجيون *Gaston Migeon* في باريس ١٩٠٨ (المؤلف)

حاجات عديدة كانت تبدو لأول وهلة تافهة ، لا أهمية لها لكنهـا اصبحت ضروريات . ولم يقتصر التكالب عليهـا في اوروبا ، بل أصبحت لازمة للعالم المتمدين بأسره . وجاء في ركاب شحنات المنسوجات القطنيـة و « الشيت chintzes » المطبوع بزخارف ملونة زاهية ، موضات جديدة في المنسوجات تطور إلى ما يسمى بـ persiennes المنسوب إلى باريس ، مانحاً سيدات عصر الملكة الانكليزية حنّة (٢٦) أقمشة جميلة لثيابهن ، وجالباً بالاخير الثروة لمدينة (مانجستر) . وورد الشال (shawl) الجديد — كمـا يدل عليه اسمه — من ايران ، ووصلت أشكال جديدة لأوعية مما يستعمل للشاي والقهوة ، ربما محاكيةً أباريق المغول التي اقتبسها من الهند المغامرون الغربيون من طلاب الحظ والثروة في الشرق . هذه الاوعية مـا زالت مألوفة على موائد الفطور ذات الطراز الفكتوري بعد أن طرأ على شكلها شيء من التحوير .

من ظهور الاسلام وتقوى الغرب وثقافته وتجاربه بل وفضوله ، تجد في نتاج عبقرية الاسلام شيئـاً يلائم ذوقهـا . ولكن أسرار ميزاتهـا الفنية وجمالها لم يكشف إلا للصفوة من عباقرة الصناع مثل (ود يريكوس) Odericus من روما الذي رسم في ١٢٨٦ النماذج الاسلامية على بـلاط من الرخام المكفت في افريز من أفاريز هيكـل كاتدرائية (وستمنستر آبي) . و (وليام موريس) الذي حاك نماذج اخرى من القطيفة في ١٨٨٤ مع مجموعة اخرى من الفنانين قبلهما او بعدهمـا او معاصرة لهما . اولئك الذين توفر لديهم الوقت بين فترة واخرى ليمدوا الفن العربي بِـصَيِّـبٍ ، هو عندنـا اشبه براتب لمدى الحياة منه بميراثٍ .

أي. إج. كريستي

---

٢٦) *Ann Stuart* ملكة انكلترا ١٧٠٢ – ١٧١٤ (المعرب)

الفن الاسلامي واثره على التصوير في اوروبا

ليس ثم أدلة تثبت وصول صور اسلامية إلى اوروبا قبل القرن السابع عشر ، والمظنون ان رامبراندت (٢٧) هو اول رسام في الغرب اهتمّ اهتماماً جدياً بالفن الاسلامي وذلك بنقله رسوماً عن صور أفراد الاسرة المالكة بدلهي وصلت هولندا من الشرق الاقصى (٢٨) .

ونحن نستبعد وجود أي أثر مباشر لفن التصوير مصدره العالم الاسلامي على أي رسام من رسامي اوروبا . ونستبعد وجود أكثر من دليل على تأثير من الشرق الاسلامي في أي نهضة كبيرة لفن التصوير بأوروبا . من المستحيل مثلاً أن نتأثر في الاسلام أي اتجـاه جديد في فن التصوير شبيه بما بان على التصوير الايطالي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر نتيجـة للاهتمام المجدد بالفن الكلاسي . لذا فكل التأثير الاسلامي الذي يمكن استكناهه يكاد يكون سطحيـاً . لكنه شرع يبدو في اوروبا اول ما أخذ المسلمون يسيطرون على مياه البحر الابيض المتوسط . فمن المنسوجات الشرقية اقتبست صور عدة حيوانات ، كما يظهر ذلك من مخطوط (سفر الرؤيا) لـِ (بياتوس) (٢٩) المحفوظ في المكتبة الوطنية (٣٠) وفي مخطوطات عديدة اخرى خاصة ، تلك

---

٢٧) *Rambrandt* (١٦٠٦-١٦٦٩) رسام هولندي شهير برع في رسم المناظر التاريخية (المعرب)

٢٨) انظر ف. سار *F. Sarr* « الكتاب السنوي للمجموعة البروسية الملكية الفنية » ، *Jahrbuch des Kgl. Preussischen Kunst - Sammlungen.* للسنة ١٩٠٤ ، ص ١٤٣ (المؤلف)

٢٩) المخطوط رقم ٨٨٧٨ جي. ابرسول *J. Ebersolt*) الشرق واوربا *Orient et Occident*) ص ٩٩ طبع باريس ١٩٢٨ .

٣٠) *Beatus* : ٧٣٠ — ٧٩٨ راهب فالكفادى : مؤرخ وجغرافي تقدمـت ترجمته . وكتابه هذا ألفـه في ٧٧٦ م . (المعرب)

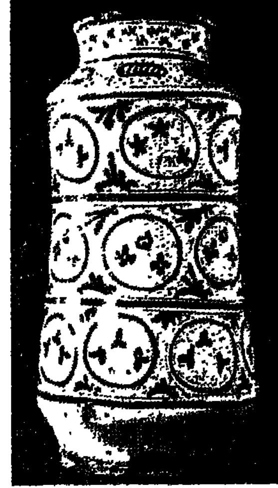
التي تنسب إلى مدرسة ليموج limoges [٣١] في مفتتح العصور الوسطى ولكن تأثير تماس مباشر للعالم المسيحي بالثقافة الاسلامية وتصدير بعض البضائع من نتاج الفن الشرقي لم تخلف أثراً قوياً في فن التصوير كما خلفته في فنون النحت والعمارة وشغل المعدن . إن أبرز التأثير ظهر في اقتباس الاتجاهات الشرقية في شؤون الزخرف . وهذا على الاغلب ثانوي المكانة . ومع ان انتباه الفنانين الغربيين إلى هذه الأنماط الزخرفية تمّ بفضل الحرائر الاسلامية المستوردة وغيرها من المصنوعات فانها لم تكن قاصرة على ما أنتجه المسلمون بالأصل بل شمل كذلك كل ما اقتبسوه من أسلافهم . ومن هذا التراث الفني المستمد من الماضي ، توجد عدة نماذج متوارثة ذات عراقة وقدم ، كالشجرة الكلدانية المقدّسة التي انحدرت عن طريق الفن الساساني إلى العهد الاسلامي . شجرة الحياة هذه بشكلها الاصيل البدائي كانت على الاغلب قائمة بين وحشين متقاربين . وكثيراً ما حذف الفنانون المسيحيون المركز من الرسم أي الشجرة . ومن بين الاشكال الغابرة الاخرى لما قبل الاسلام حيوانان أحدهما يفترس الآخر ، وحيوانان برأسين وجسم واحد ، وكلها ظهرت في النحت أكثر مما ظهرت في التصوير ، فذلك يعني انها على الاغلب مستنسخة من أشباه لها منقورة على تيجان أعمدة . او من صور منقورة نافرة في الكنائس[٣٢] أما عن وجود فنانين مسلمين اشتغلوا لعملاء مسيحيين في القارة الأوروبية خلال الازمان الاولى من القرون الوسطى ، كالذين زخرفوا بيعة بالاتينا Palatina في بالرمو للملك صقلية روجر الثاني (١١٠١ — ١١٥٤) ،

---

٣١) مدينة فرنسية اشتهرت بالتحافيات الصناعية الدقيقة والمنسوجات . (المعرب)

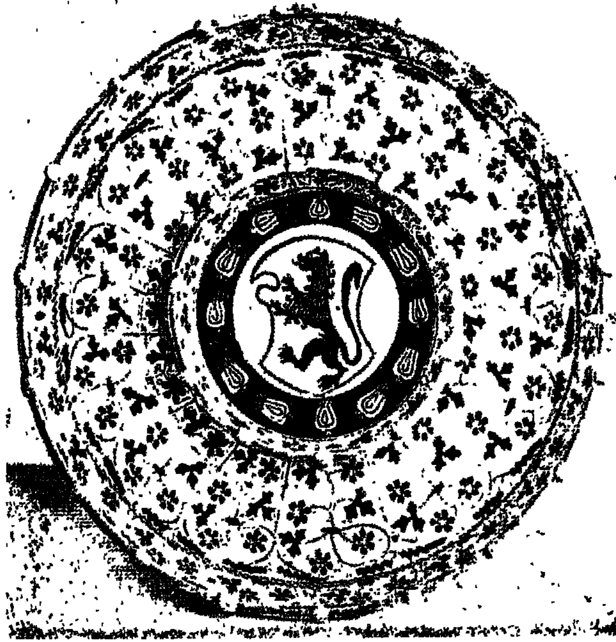
٣٢) نظمت لذلك قائمة طويلة . انظر اندريه ميشيل *André Michel* « تاريخ الفن : *Histoire de l'art (t. i 2me partie)* مجلد (١) القسم (٢) ص ٨٨٣ وما بعدها . (باريس ١٩٠٥) » . وانظر أ. مارينيان *A. Marignan* « مؤرخ للفن الفرنسي *Un historien de l'art Français* وانظر لويس كوراجو *Louis Courojod* «الفصل الرابع : تأثير الشرق على اقاليم ايطاليا الشمالية والوسطى *L'influence Oriental sur les provinces de nord et de midi dI'talie* (باريس ١٨٩٩) » .



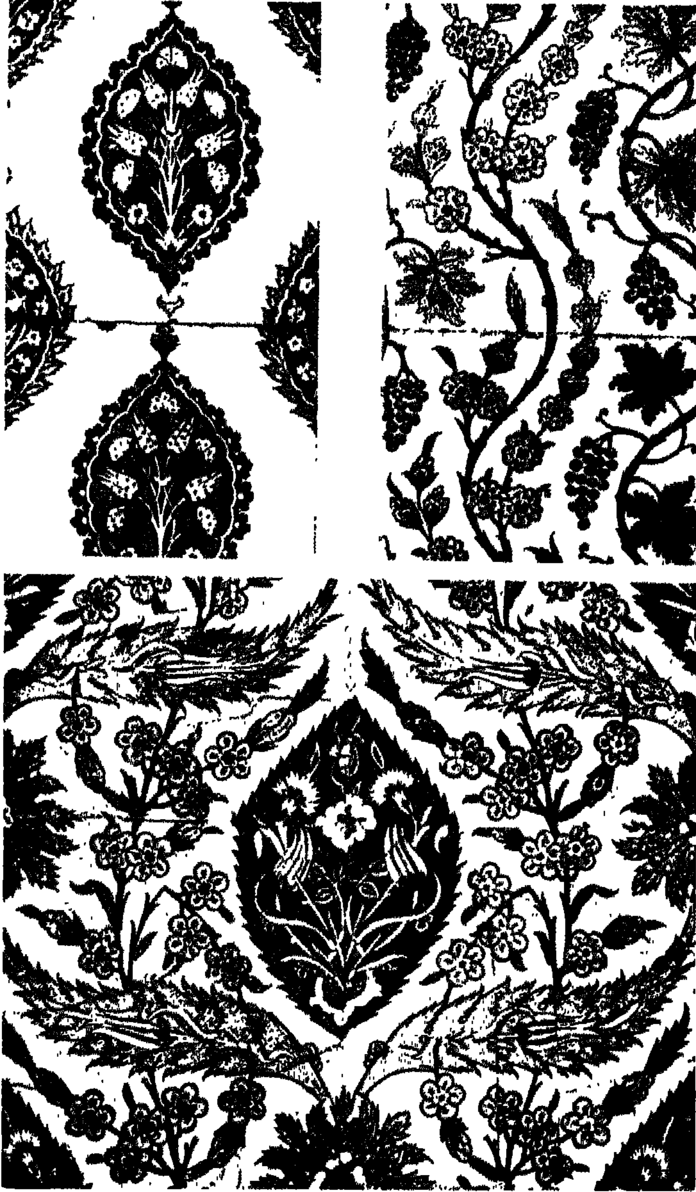


الشكل ٢٨ : برنية خزفية
مطلية بالازرق الغامق
من مصنوعات فايزا حوالي منتصف
القرن الخامس عشر متحف فكتوريا والبرت

الشكل ٢٧ : جرة دواء
ملونة خزفية
سلطان آباد (ايران القرن الثالث عشر والرابع
عشر – متحف فكتوريا والبرت)

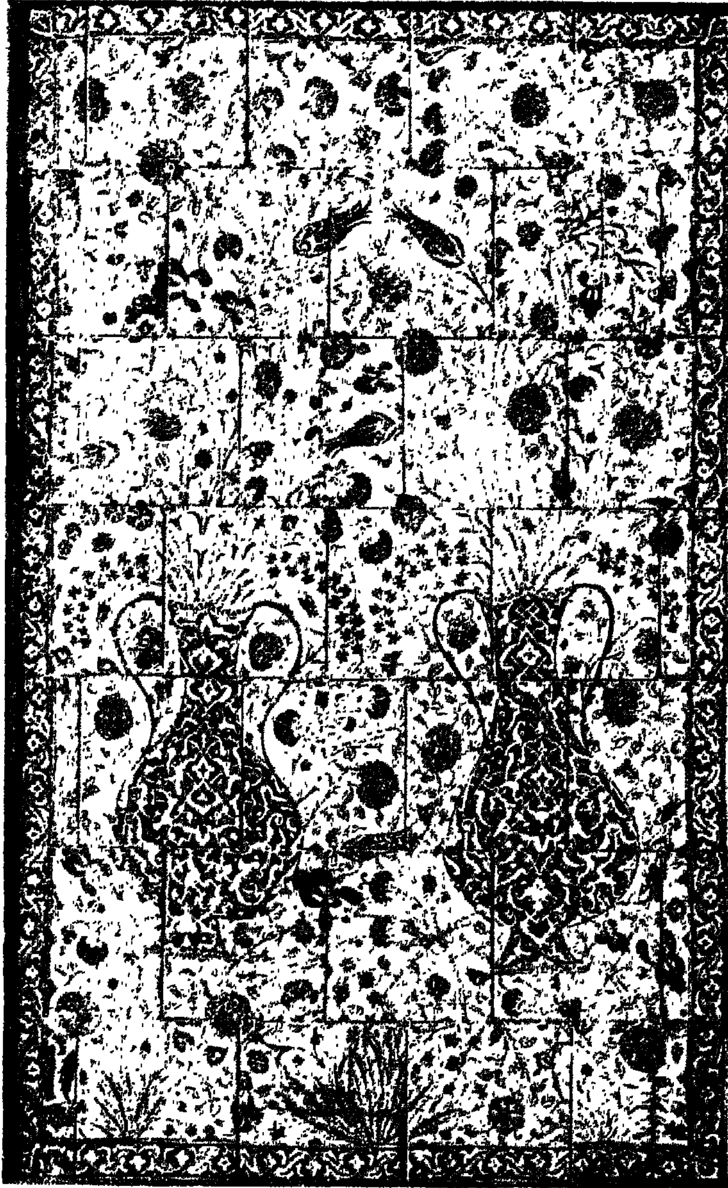


الشكل ٢٩ : طبق خزفي مطلي بالازرق والاصفر
(فلنسية – القرن الخامس عشر – متحف فكتوريا والبرت)



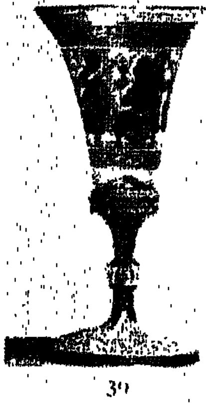
الشكل : ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ ، الواح من القاشاني المنقوش بالوان متعددة

(آسيا الصغرى في القرن الخامس عشر – متحف الفنون الزخرفية – باريس)

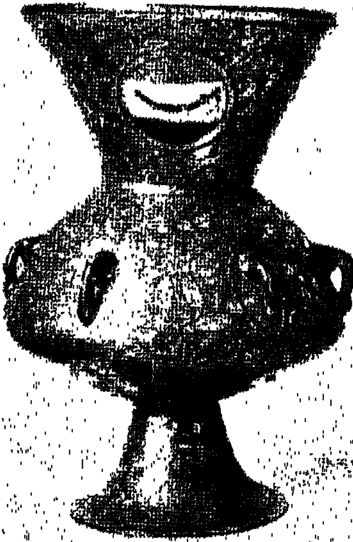


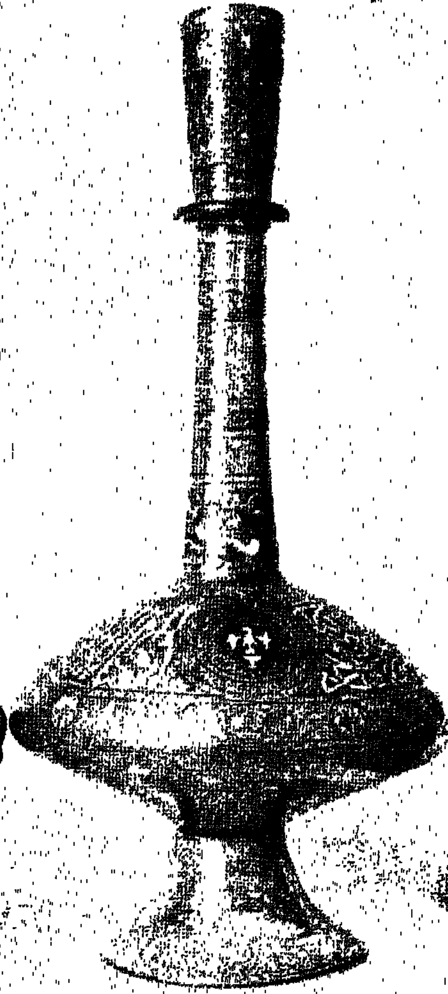
الشكل ٣٦ : لوح من مربعات القاشاني المتعدد الألوان

دمشق في القرن السادس عشر (متحف الفنون الزخرفية – باريس)



39





40 41

الشكل: ٣٩، كوب زجاج مكفت سوري الهوية (القرن الثالث عشر – المتحف البريطاني)

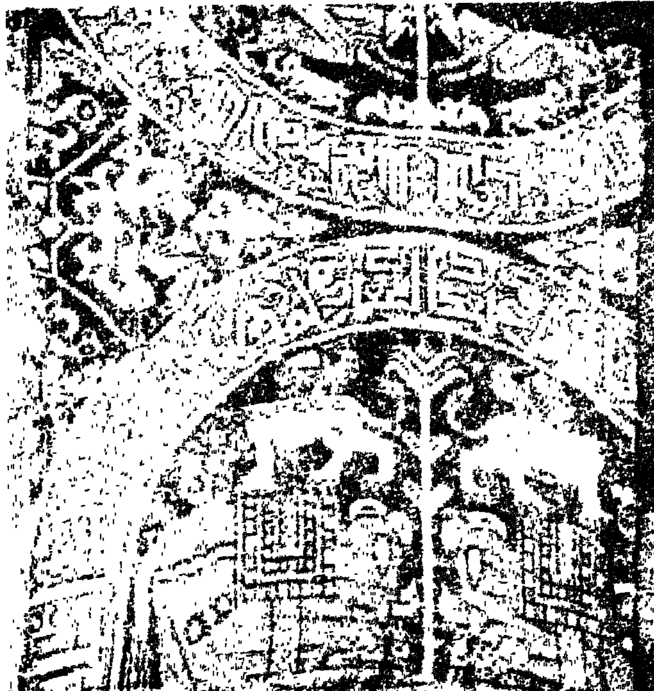
الشكل: ٤٠ مصباح زجاجي – مكفت سوري الهوية (القرن الرابع عشر – متحف اللوفر)

الشكل ٤١ قنينة زجاجية مكفتة سورية الهوية (القرن الرابع عشر – متحف اللوفر)



الشكل ٤٢ : وعاء زجاجي ، مكفّت مع غطائه

سوري الهوية – القرن الرابع عشر المتحف البريطاني

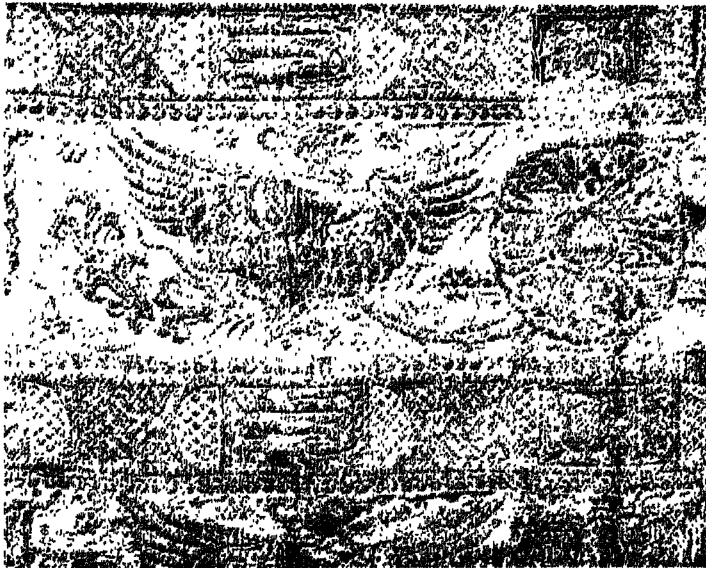


الشكل ٤٣ ، نسيج بغدادي حريري

اواخر القرن العاشر واوائل القرن الحادي عشر كوليفياتا دي سان ايزيدور –
ليون – تصوير ارخيف ماس



الشكل ٤٦ : نسيج حريري ايطالي من القرن السادس عشر
(متحف فكتوريا والبرت)

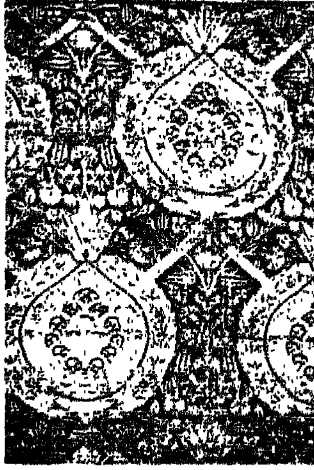


الشكل ٤٧ : نسيج حريري صيني
(القرن الرابع عشر – متحف فكتوريا والبرت)

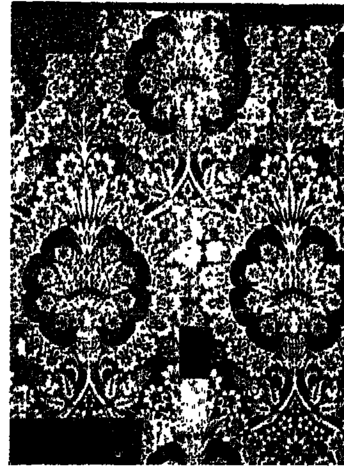


الشكل ٤٨ : حلة كهنوت احتفالية من الديباج الفارسي

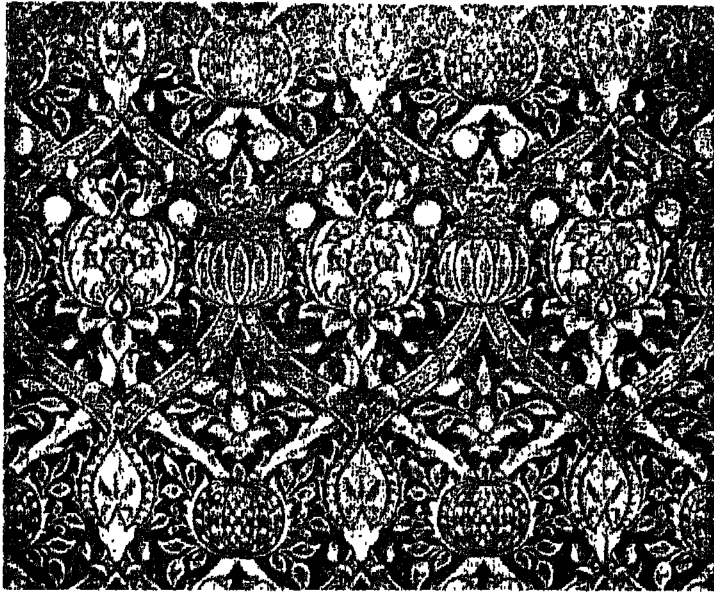
القرن السادس عشر – متحف الفنون الزخرفية بباريس – ولعل الشريط هو من الدمقس التركي



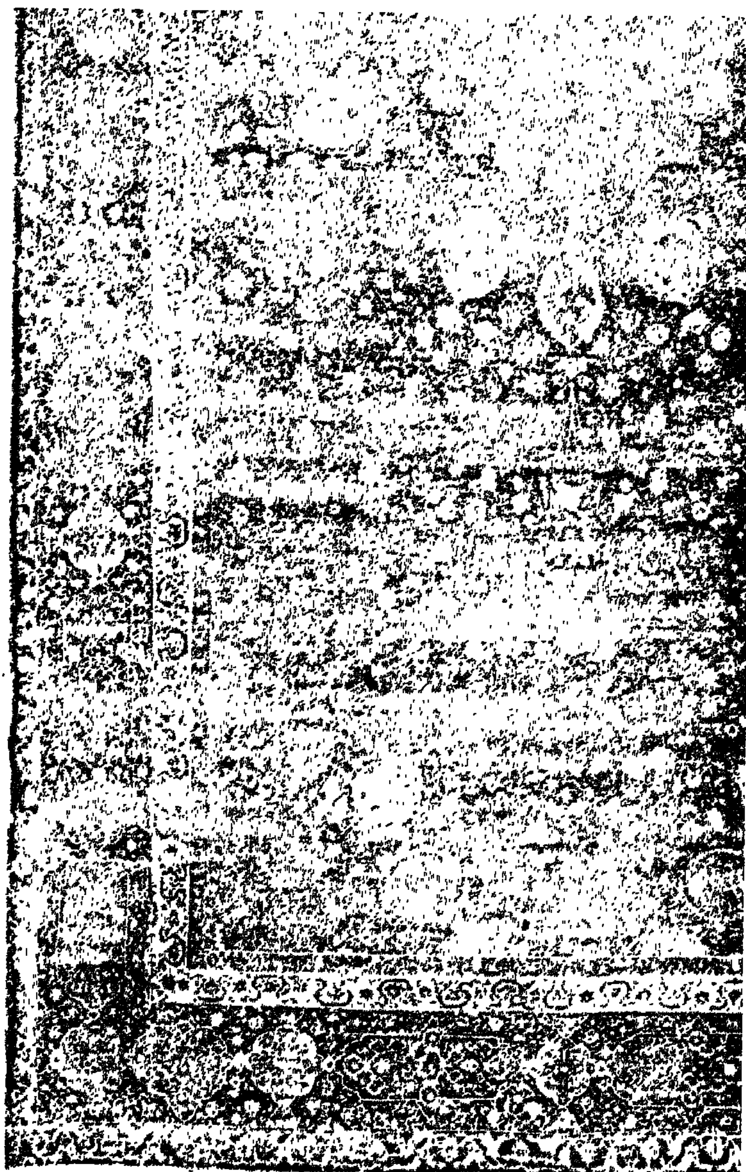
الشكل ٥٠ : قماش حريري
(آسيا الصغرى — القرن السادس عشر —
متحف الفنون الزخرفية بباريس)



الشكل ٥١ : قطيفة حرير ايطالية
(القرن السادس عشر —
متحف فكتوريا والبرت)



الشكل ٥٢ : قطيفة حريرية من حياكة وتصميم وليام موريس في ١٨٨٤
(متحف فكتوريا والبرت)

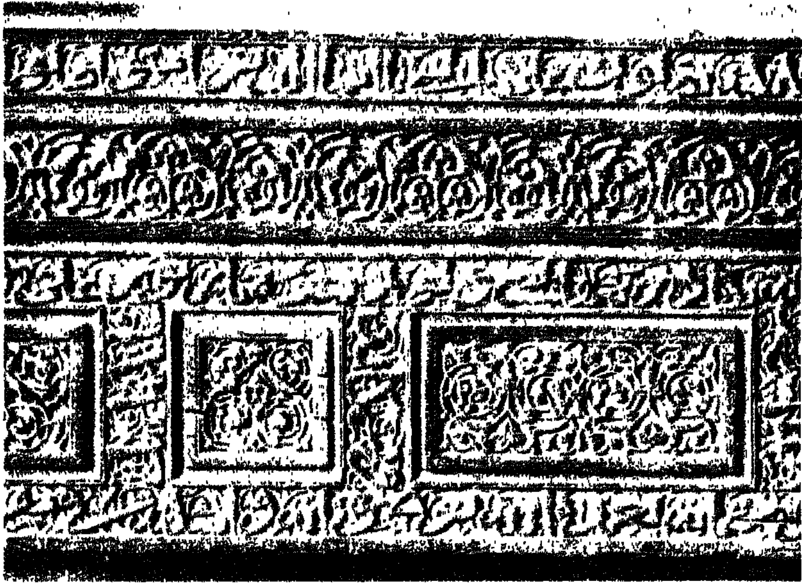


الشكل : ٥٣ سجادة نافرة النسج من مسجد أردبيل

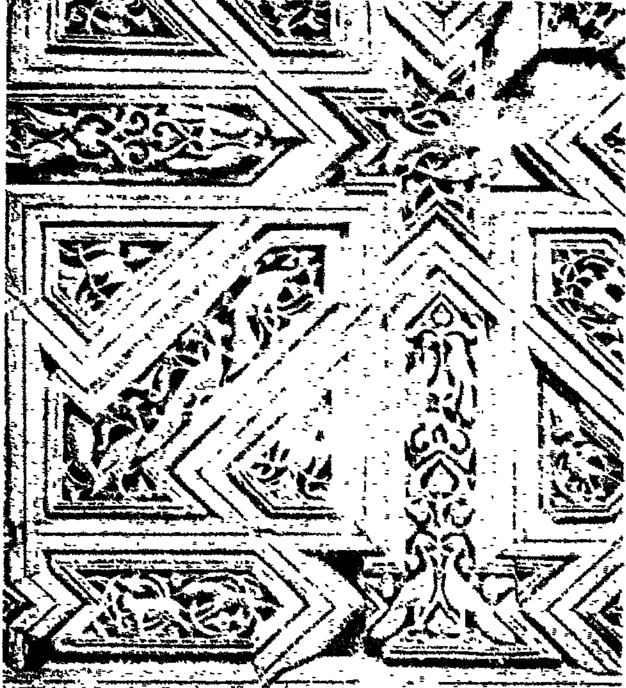
(فارسية المنشأ تاريخها ١٥٤٠م – متحف فكتوريا والبرت) .



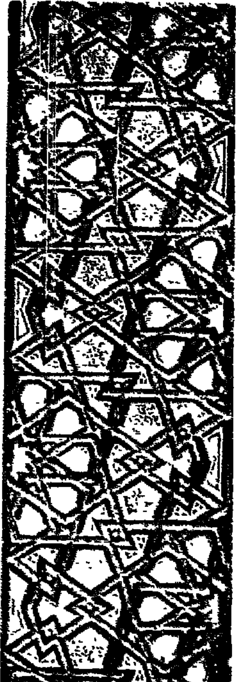
الشكل ٥٥ : حوض فسقية مرمري مؤرخ ١٢٧٧ – ١٢٧٨ م
سوري الصنعة (متحف فكتوريا والبرت)

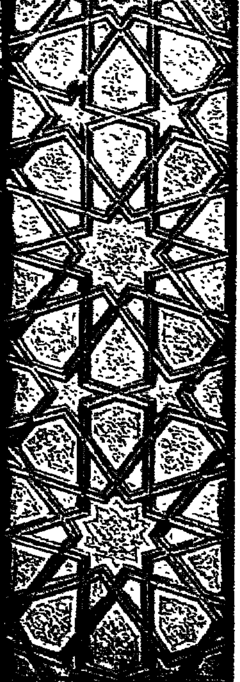


الشكل ٥٦ : حفر وتطعيم خشبي من ضريح في القاهرة تاريخه ١٢١٦ م
(متحف فكتوريا والبرت)

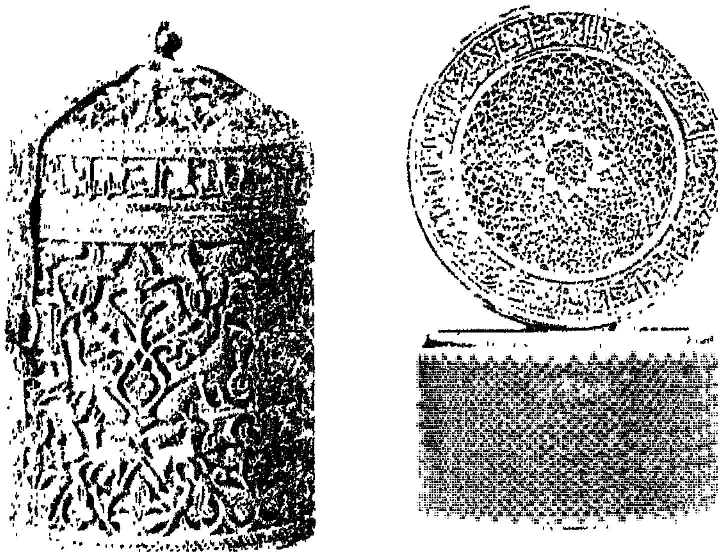


الشكل ٥٧ : سقف خشبي محفور ومكفت .
(القرن الحادي عشر – المتحف الوطني في بالرمو)



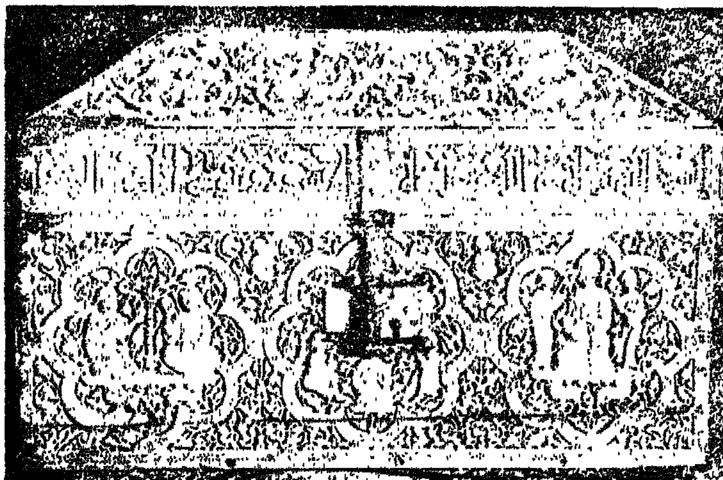


الشكلان : ٥٨ و ٥٩ لوحان من صفاقي باب فيهما تطعيم عاجي
(القاهرة – القرن الخامس عشر – متحف فكتوريا والبرت)



الشكل ٦٤ : صندوق من العاج المخرم (القاهرة — القرن الرابع عشر — المتحف البريطاني

الشكل ٦٢ : صندوق عاجي محفور — قرطبة تاريخه ٩٦٤ م (المتحف الاركيولوجي بمدريد)

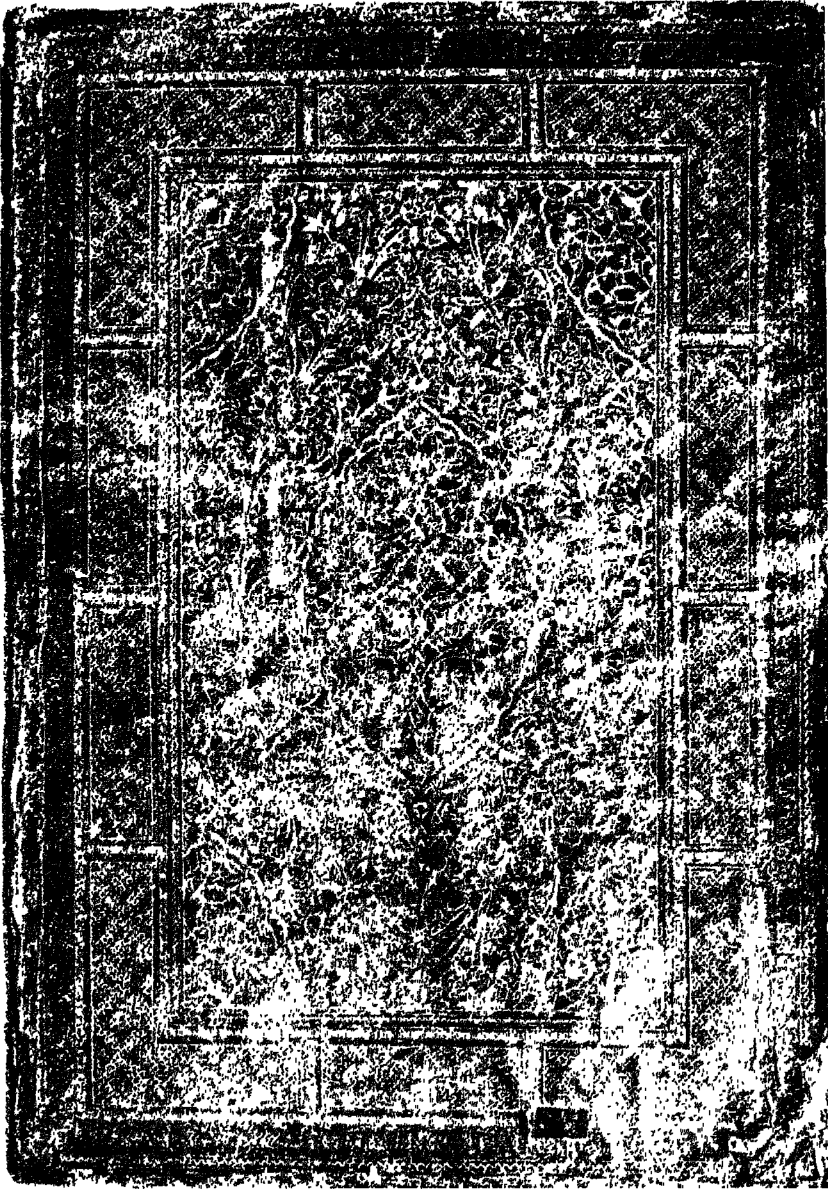


الشكل ٦٣ : صندوق عاجي محفور من قرطبة تاريخه ١٠٠٥ م
(كاتدرائية بامبلونا — تصوير ارخيف ماس)



الشكل ٦٥ : ابريق من الكريستال الحجري يعود إلى العهد الفاطمي

(القرن العاشر من محفوظات بيعة سان مارك بالبندقية)



الشكل ٦٧ : باطن غلاف كتاب مجلّد بالجلد

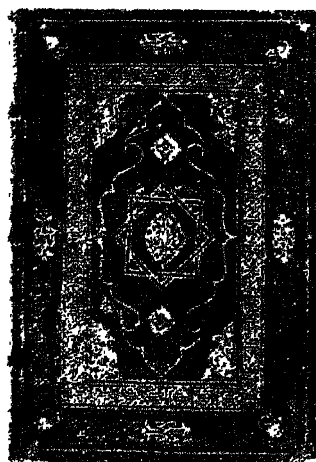
(القاهرة – أواخر القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الخامس عشر – متحف فكتوريا والبرت



٦٨



٦٩



٧٠



٧١

اغلفة كتب جلدية من متحف فكتوريا والبرت

الشكل ٦٨ : فارسي من القرن السابع عشر . الشكل ٦٩ : بندقي من القرن السادس عشر الشكل ٧٠ : بندقي تاريخه ١٥٤٦ م . الشكل ٧١ : الماني تاريخه في حدود ١٥٨٣ .





الشكل ٧٣ : استخدام الاحرف العربية لغايات زخرفية . المنظر الأساسي مأخوذ من صورة تتويج العذراء (متحف اوفيزي فلورنسا) للرسام فرا ليبوليبي وفي الاعلى صورة مكبرة لجزء منه ترى فيه احرف عربية فوق الوشاح الذي تحمله الملائكة .

فالظاهر ألا شاهد لدينا على ذلك (٣٣) .

وفي خلال الحروب الصليبية حصل تماس اكثر من ذلك مع مسلمي الشرق مما أدى إلى تسهيل استيراد الحاجات ذات الطابع الزخرفي الاسلامي المتمايز . وفي بلاد مراكز الارتباط التجاري مع الشرق كجنوا وبيزا والبندقية ، دخل هذا النموذج في التصوير واستتبع ذلك أن ظهر الاهتمام بالعالم الشرقي ، ذلك الاهتمام الذي اشتد كثيراً بعاملي الفضول والافتتان بما خالف المألوف وبدا ذلك في اول نتاج لمدرسة رسم في مدينة سيينا Siena وأصبح ثابتاً مستقراً في الفن التوسكاني . أخذت الرؤوس المعتمرة بالعمائم ، والسحنات الشرقية ، تبدو في صور ايطالية قبل النصف الثاني من القرن الرابع عشر . هذه الشخوص الأجنبية كانت تحتل مكانة ثانوية في رسم المنظر المقدس . ولم يلمس وجود وجود التأثير الشرقي بصورة خاصة إلا في التوابع لا الاصول كمحاكاة الفارسي من السجاد وغيره ، وإكساء الاشخاص في الصورة حتى الرئيسين منهم — ثياباً شرقية ، واقتباس الحيوانات الأجنبية كالفهود والقردة والببغاوات ، كذلك في تفاصيل المناظر الطبيعية أيضاً فمن الممكن ملاحظة دقائق صغيرة في الاشجار وأوراق النباتات تبدو تقليداً محكماً للأنماط الشرقية .

ظهر اقتباس شرقي الطابع في التهافت الكثير على الحروف العربية باستخدامها لغايات زخرفية . وهذا أحد أوائل الامثلة لتأثير الفن الاسلامي المباشر على الصناع المسيحيين الذي استرعى انتباه الباحثين الاوروبيين . ومنذ أن نشر ادريين دى لونكبيرييه Adrien de Longperier مقالتــه في « استخـدام الاحرف العربية في الزخارف عند شعوب اوروبا المسيحية » في المجـلة الاركيولوجيـة Revue Archeologique للسنة ١٨٤٦ ، منذ ذلك الحين

---

٣٣) انظر بافلوفسكي *L. Pavalovsky* (زخارف سقف كنيسة بالا تينـا) . (مجلة الفنون البيزنطيـة المجلد الثاني ١٨٩٣) .

وعدد من القرائن آخذ بالتجمع . إن أنفس مجموعة من تلك القرائن يمكن استخلاصها من مقالات السيد (أ. ج. كريستي) في مجلة برلنكتن مجلد ٩٠–٩١ والموسومة : « تطور الزخرفة من الكتابات العربية » . استعمال زخرفي كهذا للأحرف العربية ظهر في لوحات ايطالية قبل عصر (غيوتو)[٣٤] ، مثال ذلك الكتف اليمنى لصورة المسيح في قيامة لعازر بكنيسة (أرينا Arina) . إن (فرا انجليكو)[٣٥]، و(فرا فليبي سيبو)[٣٦] (الشكل ٦١) كانا مغرمين بصورة خاصة بهذا النوع من الزخرفة واستعملاه حتى في تزيين أكمام العذراء مريم وحاشية ثوبها – جاهلين تمام الجهل كما يدل ظاهر الحال ، اصول تلك الاشكال . إن مصادر فكرتهما عن هذه الكتابة يجب ان ننشدها في عدة قطع من الحرير وغيرها من المنسوجات التي جلبت إلى اوروبا من الشرق . او في المصابيح او غيرها من الأواني الصفرية .

سر توماس ارنولد

المصادر :

Sir Thomas W. Arnold, Painting in Islam, a stady of the place of pictorial art in Muslim Culture, Oxford 1928

---

٣٤) *Ambrogio Giotto* ١٢٦٦ – ١٣٣٦ رسام ايطالي ونحات ومعمار نبغ في فلورنسا . (المعرب)

٣٥) *Fra Angelico* (١٣٨٧ – ١٤٥٥) رسام فلورنسي شهير كان راهباً دومينكياً برز في رسم الصور المرمرية ومن اعظمها ما خلدته ريشته في كنيسة سان مارك بالبندقية . (المعرب)

٣٦) *Fra Philippi Sippo* (١٤٠٦ – ١٤٦٩) رسام ايطالي ولد في فلورنسا ، اعظم اعماله مجموعة من الصور الحائطية في مصلى كاتدرائية براتوا تمثل شيئاً من حياة يوحنا المعمدان والقديس سطيفان . (المعرب)

الهندسة المعماريّة

بقلم

مارتن . اس . بريكز Martin. S. Briggs

من المستشرقين المتخصصين في فن العمارة العربية وهو استاذ في جامعة اكسفورد. صاحب كتاب « فن العمارة الاسلامية في مصر وفلسطين » طبعه باكسفورد السنة ١٩٢٤ . وله جملــة مقالات استشراقية في هذا الباب . (المعرب)

ربما يستطيع الجيل الآتي بعدنا ان يحدّد بشيء من الثقة مقدار تراث العالم الاسلامي الذي خلّفه في الهندسة المعمارية . ولكن شكاً كثيراً يحوم حول عدة مسائل مهمة في العمارة الاسلامية نظراً إلى أحوال وأوضاع البحوث العلمية الراهنة . بحيث لا يستطيع ان يزعم لنفسه قوة الحجة وتحدي الغير إلا المتحمس الغيور . ولسوء الحظ إن أكثر الابحاث الاخيرة التي كان المفروض فيها ان تلقي ضوءً على نقاط هي محل أخذ ورد ، قُدمت لنا على شكل محاورات جدلية . هذه المحاورات لم تهتم بطبيعة العمارة الاسلامية في فترة نضوجها ولا بمدى تأثيرها على تقدّم فن العمارة في عالمنا الغربي ، بل كانت تدور حول اصولهما وبنيتها الاولى . ومهما يكن فلهذه البحوث مقامها المباشر في موضوع تراثها للجنس البشري لاننا لا نستطيع أن ندرك ادراكاً وافياً ما ورثنا من الاسلام إلا بقيام بعض الادلة المثبتة أن للاسلام الحق في هذا الوصف . وبكلمة أخرى فلقد قيل أن أشياء كثيرة من العمارة الاسلامية اختلس من شعوب غير اسلامية حتى ان بعض الباحثين لا يرون في المسلمين اكثر من مستعيرين لأشكال معمارية ، وليس لديهم فن معماري خاص يستحق تسميته بهذا . وللوصول إلى نتيجة في هذه النقطة الجوهرية ، من الضروري أولاً ان نحاول دراسة الخطوط الاساسية ، للعمارة الاسلامية والسمات التي تدمغها بصورة عامة .

إنّ العرب الذين اكتسحوا في غضون نصف قرن كزوبعة صحراوية بلاداً تمتدّ من الحجاز إلى أعمدة هرقل غرباً ، وإلى حدود الهند شرقاً فتحوا بلاداً كانت المدنية قد وصلتها . امتدت سيطرتهم فشملت رقعة من الارض أوسع من رقعة الامبراطورية الرومانية في أعظم فترة من سلطانها .

واحتضنت عدة شعوب ، كان فنها المعماري يختلف عن فن روما . وهو أحياناً أعرق من روما وأقدم .

ومهمـا كانت طبيعة الموقف الذي يقفه المرء في الجدال العنيف بين أولئك الذين يعتقـدون ان عمارة القرون الوسطى الغربية هي رومانية الاصل بالدرجة الاولى ، وبين اولئك الذين يعزون كل شيء إلى ايران وأرمينيـا ، فمن المناسب ان نبدّد هذا الغموض بقولنا إن مدرسة الرأي الأخير هي مدار اهتمامنا الجدي . لقد أوضحت سلسلة المستكشفات الخطيرة في أرمينيا وبلاد ما بين النهرين وتركستان وفصّلت لنـا بشكلٍ منفر عدائي ، مع ذلك فقد أضعفت من ثقتنـا بوجهة النظر التي تعزو كل شيء إلى روما . وربما جاءت وجهة النظر هذه من تعضيد الكنيسة – قروناً عديدة – للفكرة القائلة بأن أبنيتنـا الرومانسكية والقوطيـة برزت من رماد روما الامبراطورية وبقاياها . او ربمـا كان انسانيو الرينسانس المتحذلقون ، هم الملومون لسوء فهمنـا هذا . ولكن مهما كان السبب فلا منجى لنا من التطلع إلى الشرق بضمير منصف حيادي ؛ مبتدئين بالتخلص من عادة النظر إلى (الشرق) كوحدة قائمة بذاتها . لا أحد يكاد يشك شكـاً جدّياً في مقدار ما ندين به لروما . لكن الوقت حان لاعادة النظر في التزاماتنا تجاههـا كمّاً وكيفاً .

من البلاد التي أخضعها الفاتحون العرب ، سورية وقسم من أرمينيا والجزء المأهول من افريقيا الشمالية بضمنه مصر . هذا كله انتزع من يد الامبراطورية الرومانية الشرقية . ثم إنهم استولوا على اسبانيا وأدالوا دولة(الفيرغوط) وقد كانت في السابق اقليمـاً رومانياً . أما الاراضي التي تمتدُّ من بلاد ما بين النهرين حتى تركستان وأفغانستان فهي ما عرف قبلاً بالمملكة الساسانية التي حكمهـا كورش الثاني . انتشرت المسيحية في كل هذه الاصقاع المترامية حتى الحدود الشرقيـة لأرمينية وسورية . وهناك كاتدرائية يرجع تاريخهـا

إلى القرن السادس – في أقصى حدود اليمن غرب صنعاء جنوب شبه جزيرة العرب [1] . وهكذا وجد الفاتحون بنائين وصناعاً مهرة في كل بلد من البلاد التي أخضعوها وهم رهن اشارة منهم، كما وجدوا عدداً هائلاً من الأبنية التي استعملوها كما استعملهـا الفيرغوط والاقباط المسيحيون من قبلهم ، كمصادر تمدهم بحجر البنـاء ومواده لبناء عمارات جديدة . لقد ابتني كثير من الفروض على هذه الحقيقة التي لا يمكن نكرانهـا مطلقاً . لكن ما على المرء إلا أن يذكر أيضاً أن العرب وجدوا أساتذة محليين في البلاد الشرقية الخاضعة لحكمهم . كان طرز بنائهم يختلف تمـام الاختلاف عن الطراز الروماني . اولئك الاساتذة الذين علّموا المعمارين البيرنطيين على حدّ زعم الباحثين كل ما جعـل العمارة البيرنطية تختلف عن عمارة روما .

لا حاجة ثمّ تستدعي مناقشة الرأي الشائع الوجيه القائل بان الفاتحين العرب الاولين كانوا معدومي الذوق والمهارة المعمارية، كانت طبيعة الامور تقتضي ذلك . ففتوحات كالتي أنجزهـا العرب لم تكن ممكنة إلا لامة مجنـدة ألهبتها الحماسة الدينية ، لا تملك وقتاً لغير الجهاد والصلاة . فضلاً عن ذلك كله فانهم لم يكونوا حضراً ، بل بدوا . حتى انهم – عندما تركوا الجهـاد للنهوض باعباء الحكم – لم يروا مفرّاً من الاعتماد في فنون العمارة ، على صناع محليين او (وهذا مهم) على صناع جيء بهم من مختلف الامصار المفتوحة . وهكذا فقد علم بان البنائين الارمن استُخدموا في اسبانيـا فضلاً عن مصر . وربما استُخدموا في بناء كنيسة جرميني دي بْـري Germigny-des-Prés في فرنسا إبان القرن التاسع . وهي كنيسة تجد في بنائهـا مسحـة اسلامية غلاّبة [2].

١) *B. and E. Whishaw* « اسبانيا العربية *Arabic Spain* » لندن ١٩١٢ ص ١٢٢ .

٢) ستريجوكوسكي *J. Strzygowski* « فن عمارة الكنيسة المسيحية » *Origin of Christian church Art* (اكسفورد ١٩٢٣) ص ٦٤ .

ولكن مع احتمال جهل العرب في أمور الهندسة المعمارية في أوائــل عهد الفتوح فان الحقيقة الساطعة عن العمارة الاسلامية هي انهــا بقيت نسيج وحدها في كل البلاد وكل العصور التي مرَّ بهــا الاسلام ، مع بقاء اصولها معقـدة غاية التعقيـد . هنالك شيء يميزهــا عن آثار جميع المدارس المعماريـة المحلية التي كانت أداة فنيـة لخلقها .

وربما كان الدين الاسلامي هو العامل الذي حوّر في مجموعة أساليب البناء المختلفة وربط فيما بينهــا ، مُخرِجاً اسلوباً ذا نمط واحد متمايز . ذلك ان الابنيـة التي شادها العرب في أوائل سنوات حكمهم كانت مساجد وقصوراً بالدرجة الأولى . وأهم أثر معماري للعصور التي تلتهــا ظلَّ أيضاً لا يعدو المساجد والابنيـة الدينية كالمدارس والتكايا التي لم يخلُ احدها من مسجد . فالمسجد هو البناية الاسلاميـة الرئيسة والأصيلة ، تختلف إلى درجة ما من ناحية الشكل باختلاف أمكنة بنائها . على انها متحدة دائماً بتخطيطها العام . إن الحج السنوي إلى مكة من جميع أنحاء العالم الاسلامي قد أثر بدون شك في تثبيت هندسة المسجد شكلاً ، حيث كان يتحتّم على الحجـاج وهم في رحلتهم الطويلة ، أن يؤدّوا صلاتهم في مسجد المدينة التي يمرون بهــا . فاذا كان الحاج بنّاء مهندساً معمارياً فسرعــان ما يدرس تصميم المسجد .

يُعتبر مسجد (المدينة) البسيط الذي بناه الرسول في السنة٦٢٢الطراز المحتذى للمساجد الاخرى . فهو قطعة ارضٍ مربعـة تحيطهــا جدران مبنية بالآجر والحجر . الا الجزء الذي يؤم فيه الرسول المصلين (ولربما ركنه الشمالي) فقد كان مسقفــاً . وربما كانت السقوف تصنع من جريد النخــل المغطى بطبقة من الطين ، وتستقـر على دعامات من جذوع النخيل . وكان المصلون يركعون مقتبلين جهة الشمال . وهي ناحيـة اورشليم المديــنة المقدسة . وكانت هــذه (القبلة) تُحــدَّد بطريقة مــا . وفي السنة ٦٢٤ غيّرت

قبلة المصلين هذه من اورشليم إلى مكة أعني غيرت (بالنسبة إلى المدينة) من الشمال إلى الجنوب . في بناية بدائية كهذه ، لم يكن ثم ضرورة تدعو إلى استعارة فنون معمارية من أي مصدر ، إذ لم يكن ليتطلب الامر شيئاً من ذلك . والمسجد الثاني الذي بني في الكوفة (٦٣٩م) كان سقفه يرتكز على أساطير رخامية جيء بهـا من قصور ملوك الحيرة والفرس السابقين، وكان هذا المسجد مربع الشكل لكنه محاط بخندق بدلاً من جدار . وبنى عمرو بن العاص مسجداً آخر أصغر منه في الفسطاط (القاهرة ٦٤٢ م) مربع الشكل أيضاً ، وقيل انه كان خالياً من فناء مكشوف (صحن) وانه يحتوي على شيء جديد هو منصّة مرتفعة (منبر) . وبعدها بسنوات قليلة استحدثت (المقصورة) وهي حجاب فاصل او شباك من خشب يحجب الامام عن الجماعة . وقيل ان المنابر ظهرت في نهاية هذا القرن . وظهر المحراب (لتعيين القبلة) بعدها بقليل (الشكل٧٤) . وهكذا تكونت — في ظرف ثمانين او تسعين سنة من بناء أول مسجد في المدينة ، كل الميزات الرئيسة لمسجد الصلاة (الجامع) اما الليوانات (جمع ليوان وهو تحريف الإيوان) فكانت من الامور التفصيلية التي اضيفت فيما بعد . وهي أروقة او أطواق تحيط بالصحن لغرض الاحتماء بهـا ولتسهيل (الوضوء) . تشمل قائمة الملاحق والتفاصيل هذه ، ألزم ما يحتاجه مصلو الجامع في أي عصر من العصور .

لم يبق بناء واحد من الابنية التي ألمعنا اليهـا آنفاً محافظاً على شكله الاول . حتى على تصميمه الهندسي الذي ضاع تماماً بفعل الاصلاحات والترميمات المستمرة . لكن التصميم هو كـل ما يهمنا هنـا . حيث أن أول مسجد لا يصح إطلاق صفة (بناء) عليه ، وهو ليس عملاً معمارياً على وجه التأكيد كما نفهمه . وعلى أية حال فالسيد فان برجم [٣] يرى ان التصميمات الاصلية

---

٣) *M. Van Perchem* : دائرة المعارف الاسلامية : مادة العمارة .

حتّى لهذه المساجد البدائية مقتبسة من الكنيسة المسيحية الاولى : فالصحن قد اقتُبس من القاعة الكبرى Atrium [٤] والجزء الرئيس للايوان من المصلى الكنسي ، والمقصورة من الحاجز القائم بين المصلين والمذبح ، والمنارة من برج الكنيسة [٥] والمحراب من صدر المذبح . ولكن مثل هذه الرابطة تكاد لا تستدعيها ضرورة او مناسبة إذ لم توضع مسألة فن العمارة على بساط البحث إلا بعد أن أخذ العرب يحولون هذا المأوى والقاعة الساذجة المخصصة للعبادة إلى فن عمارة .

ان الانتقال من الضرورة المجردة إلى محاولات للتسامي والطموح كان سريعاً جداً بشكل يدهش له المرء حين يتأمل التزمُّت الذي صحب الدين الاسلامي . وصرامة حياة الجهاد التي كان يحياها العدد العظيم من المسلمين . فأعيد بناء مسجد محمد في المدينة بعد عشرين سنة من وفاته ، باقامة جدران وأساطين من الحجر المنحوت ، وبني في السنين الاخيرة من القرن السابع قرب المسجد الساذج الذي شاده الخليفة عمر في اورشليم بعد فتح العرب للمدينة (٦٣٩) مسجداً رائعاً ، هو المسجد المشهور بقبة الصخرة . بناية ذات مساحة كبيرة ، وطابع فخم ، وزخارف بديعة . عند هذه النقطة لا يسعنا إلا النفوذ إلى قلب كل الجدل الحاد الذي ما زال مستعر الاوار حول أصل فن العمارة الاسلامية . ان قبة الصخرة بناء رائع من الحجر ، هو بمثابة بمثابة (مشهد) حيث يطوف الحجاج بالصخرة وهي المكان الذي يعتقد ان محمداً (ص) قد عرج منه إلى السماء فضلاً عن ذلك فقد بقي هذا المسجد فريداً في بابه ، ولم تبدر محاولة خلال أربعة قرون على الاقل — للعزوف عن مسجد الصلاة المربع بصحنه المفتوح . ولذلك فلقد قيل من دون تبصر

٤) القاعة التي يدخل اليها من الباب وهي الغرفة الكبرى في البيت الروماني . (المعرب)
٥) هذه النظرية منبوذة الآن . (المؤلف)

او فطنة بان مسجد (قبة الصخرة) مـــا هو إلا تقليد للعمارة الرومانية او البيزنطيـة نُقل نقلاً عن أمثاله من الابنيـة الوثنية والمسيحية . نقله المعمارون المسيحيون ولذلك كان بناءً هندسياً غريباً بعيداً عن مجرى الفن العربي الرئيسي .

هنالك نصيب من الحقيقة بـــل من الاصابة الوجيهـــة في هذه الفكرة . ولكن علينا الاّ نحمِّلها اكثر مما تستأهل من التقدير في شرح تفاصيل هذا الطر ز الجديد من البناء وأعني القبة المجنحة aisled rotunda . هناك غاية معينة واحدة كانت تواكب التفكير العربي ، وهي الرغبة في تمجيد وحماية صخرة اورشليم المقدسة العتيقة التي سبقت فحظيت بالتقديس من اليهود والمسيحيين على حد سواء . بل كان يحدوهم كذلك الشوق إلى إقامة بنـــاء ينافس بـــل يفوق الكنيسة المسيحية الشهيرة القريبة منه والمعروفة باسم كنيسة (القبر الأقدس) وجعـــل (المشهد) الجديد في وسط هضبة صخرية عظيمة عُرفت بالحرم الشريف على قَدَمة كبيرة الجرم . او مـــا يُدعى بـ poduim (على محاذاة المحور الوسطي لهـــا يقوم المسجد المعروف بالمسجد الاقصى وهو بناء بسيط تاريخه شديد الغموض والتعقيد لا مجال للخوض فيه هنا) . أظهر العرب رجاحة واصابة فكر في اتخاذ القبة — وبكلمة أدق القبّـــة الدائرة annular rotunda — شكلاً رئيساً لأماكن عبادتهم . صحيح أن الرومان والبيزنطيين قبلهم استخدموها لهذا الغرض،أي لتكون الجزء الارفع والأشد إحكاماً من البناء الذي صُمّم ليحمي ضريحـــاً او أي مكان شريف ، ولكن هؤلاء لم يكونوا بناة القبة الوحيدين على وجه البسيطة ، فستريجوسكي بطل الدفاع عن التأثير الايراني يرى أن القبة الشرقية أصلهـــا من آسيا الصغرى او أبعد منهـــا إلى الشرق . عبرت من أرمينيا إلى بيزنطية ومنهـــا إلى البلقان وروسيا تحت رعايـــة الكنيسة اليونانية [٦] ولهذا فإذا كان العرب هنـــا

٦) انظر : ي. ستريجوسكي *Strzygowski* المرجع السالف ذكره ص ٢٧ .

استعملوا (قبة) للمرة الاولى فقد استعملوا طرزاً لم يكن مسيحياً خالصاً او حتى رومانياً بحتاً. وربما نُسخ نسخاً من قبة كنيسة القيامة الشهيرة التي تجاورها وتساويها في المساحة. مما لاشك فيه انه وجدتْ كنائس مقببة في سوريا وأرمينيا قبل نهاية القرن السابع وقد وجدت كنائس على طرز قبة الصخرة أعني قبة مجنحة مثمنة الجوانب. اما سائر البناء فالجدران مبنيـة بالحجر الأصم. اما البوائك الخاصة بالاقـواس الداخلية وفتحات النوافذ فهي نصف دائرية وكل الاساطين التي استخدمت في سلسلة البوائك انمـا هي أساطين أثرية أخذت من أبنيـة مسيحية او وثنية قديمة ولذلك تجد ان كلا الاساطين نفسها وهاماتها من طراز غير موحد. وعند بدء نقطة القوس ترى جذوعاً خشبية رابطة ربمـا كان الغرض من استخدامهـا هو لمقاومة هزات الزلازل التي كثيراً ما تحدث في تلك البلاد او ربمـا لان البنائين كانوا يخافون الاعتماد على التقويس وحده. احتياطات شبيهة بهذا كانت تتخذ ايضاً في الأبنية البيرنطيـة. والقبة نفسهـا مضاعفة، مصنوعة من الخشب لا غير ومغطاة من الخارج بالرصاص أما من الداخـل فمغطاة بالجبس المزخرف والملوّن. ولكنه ليس البناء الاصلي. فأغلب شغل الموزاييك (الفسيفساء) هو أصلي. ولكن أغلب النقوش والزخارف الباقية حتى الآن هي من تاريخ متأخر. ولذلك نجد من طراز (قبة الصخرة) اسلوب استعمال القبة، واستعمال الاقواس نصف الدائرية والعوارض الخشبية الرابطة وربما الفسيفساء. مما لا ينكر أن القوس نصف الدائرية لم تكن بدعة عربيـة قط. أمـا أصـل العوارض الخشبية الرابطة فمشكوك فيـه وأول استخدام للفسفسياء كان قبـل مجيء الاسلام.

بعد مسجد قبـة الصخرة يأتي المسجد الجامع بدمشق حسب التسلسل التاريخي (الشكل ٧٦) بني في السنوات الأولى من القرن الثامن. والايوان

الرئيس فيه هو جناح فخم بأبواب او ستائر مشبكة في الاقواس الـتي تفصله عن الصحن . إن البدع الجديدة في هذا الجامع عديدة . فالايوان الرئيس يتألف من ثلاثة مماشٍ يقطعهـا جناح مركزي تعلو وسطه قبة . وفي نهاية الجناح أعني في وسط الجدار الجنوبي من الايوان الاكـبر يُرى محراب لتعيين قبلة مكة . ان الاقواس التي تحيط بالباحة محمولة على دعائم وعلى أساطين . هذه الاقواس هي من طرز (حدوة الفرس) الذي قدّر له أن يصير من أهم مميزات فن العمارة الاسلامي في الغرب لعلةٍ غير معروفة . قد تكون حدوة الفرس هذه ، إما دائرية او مدببة الوسط ولكن تقوسها على أية حالة كان مستمراً إلى ما تحت خط نصف القطر . وقد استُعمل في دمشق تقويس حدوة الفرس الدائري . وفوق الاقواس الرئيسة يوجد — على مدار الصحن — صف من النوافذ ذات الرؤوس نصف الدائرية : نافذتان في كل تقويسة ، بقي واحد من الابراج الرومانية الاربعة التي كانت في يوم ما تنتصب في زوايا (الهيكل Temenos) مخَطِطةً حدوده وقد استخدمها العرب بمثابة منائر . هذا البرج الباقي يقع في الزاوية الجنوبية الغربية. أما المنائر الثلاث الأخرى فقد بُنيت في وقت متأخر . زيّنت داخلية البناء برخارف ونقوش من الرخام والفسيفساء . ويظهر ان الزجاج الملوّن كان يكسو نوافذه . إن التصميم غير الاعتيادي لهذا المسجد ربما عاد تأثيره إلى أساليب عمارة الكنائس السورية التي حوّلت الى مساجد . وربما ظهر اقتباس الرواق والقبة في وسط المحراب ، شاهداً على الرغبة في إظهار أهمية (القبلة) التي مثلها (المحراب) للمرة الثالثة في هذا الجامع أيضاً (٧) والمحراب ربما كان فكرة مبتدعة أصيلة في هـذه الاقسام من المعمورة حيث تكثر أوجاع العين إلى درجة عظيمة يحتمل أن يكون سبب بناء المحراب بشكل تجويف مقوّس في الجدار ، لتمكين الأعمى

٧) اول محراب محفور كان في المدينة والثاني بالفسطاط « القاهرة » . (المؤلف) .

من التعرُّف اليه عندما يدبُّ متلمساً سبيله بمعونة الجدار كما أخبرني بذلك شيخ في مناسبة من المناسبات [٨] أو ربما استعيرت من حنية ما وراء المذبح المسيحي. وجدت القوس الشبيهة بحدوة الفرس في أبنية ما قبل الاسلام محفورة في الصخور . ولكن ظهورها في دمشق كان من أوائل المناسبات التي استخدمت لأداء وظيفة معمارية حقيقية . إن الغرض من المنارة هوواضح جداً [٩] : بُنيت لكي تكون مكاناً مشرفاً للمؤذن الذي يدعو المؤمنين الى الصلاة — هذه الدعوة ابتُدعت لغرض مقصود وهو مقابلة عادة المسيحيين في دعوة المصلين بدق الصَّنْج الخشبي (قبل ايجاد النواقيس) او استعمال اليهود للنفير . ويبدو أن أول استخدام يرجع لهذا الغرض كان في دمشق .

إن أقدم منارة بقيت قائمة حتى الآن ، هي منارة المسجد الجامع في القيراون قرب تونس فقد أثر عنها أنها بنيت في زمن خلافة هشام بن الحكم (٧٢٤ — ٧٤٣م) وهي أشبه ببرج ضخم هائل مربع يضيق قليلاً كلما ارتفع في الجوّ . وهامة هذا البرج متوجة بشرفات يعلوها طابقان أحدهما بني في وقت متأخر . وانه لو صحّ أن كانت البروج المربعة الاربعة في مسجد دمشق هي اولى المآذن المستخدمة لهذا الغرض ، فلايبدو ثم حاجة إلى أن ينسب الى سورية بناء بسيط كل البساطة كبناء مسجد القيروان او الى أي محل آخر بو صفه محل المنشأ . ان المنارة متطلّبة لغرض ديني ، عولج بأبسط الطرق وأكثرها صراحة . وفيما خلا ذلك فمسجد القيروان ذو طابع عمومي . كثيراً ما تعاورته يد التغيير . لكنه بقي على الشكل الرئيس الذي تمّ لدى اعادة بنائه في نهاية القرن التاسع .

---

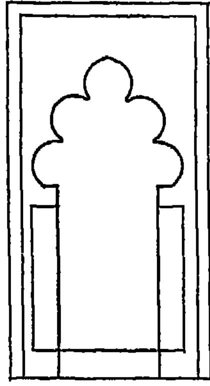
٨) من رأي أحد الفضلاء وفيه وجاهة : قد يكون سبب وجود المحراب اقتصاداً في فسحة المسجد حيث يشغل الامام صفاً كاملا من المصلين لولا وجوده . (المعرب)

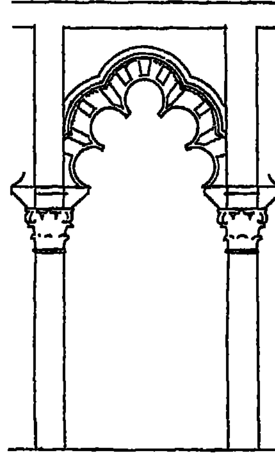
٩) ان الكلمة العربية للمنارة (المأذنة) تشير الى الموضع الذي يدعو منه الى الصلاة (آذان) والمؤذن هو الذي يقوم بتلك الدعوة (المؤلف) .

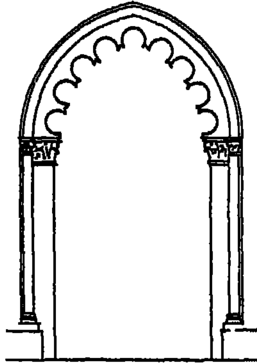
ومسجد الزيتونة في تونس المبني (٧٣٢م) انما هو مثال طريف آخر قديم للمساجد الجامعة ببوائك ذات أقواس ارتفاعها غير لطيف تتركّز على أساطين أثرية . وفوق هامات الاعمدة توجد أفلاق خشبية او تكعيبية abacus يصل بعضها ببعض دعائم خشبية ؛ البدعة التي كانت عاملاً في تشويه الكثير من الابنية الاسلامية الأولى .

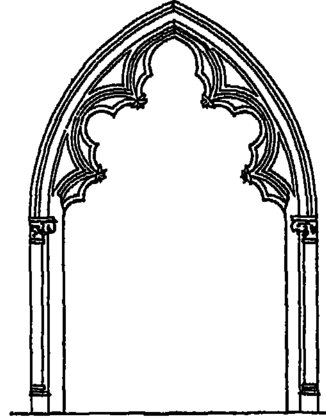
وواصلت عمارة المسجد الجامع بقرطبة في اسبانيا(بـُوشـِربه في العام٧٨٦)هذا المنوال الرتيب(شكل٧٧). وما جاء القرن العاشر حتى كانت مساحة هذا المسجد أكثر من ضعف مساحته زمن البدء ببنائه . على أن شكله الاصلي يمكن التثبت منه بعد مدارسة دقيقة لهيكل بنائه الحالي . فهو مسجد جامع ذو رواق عميق ، يحتوي على أحد عشر جناحاً، منفصلاً واحدها عن الآخر ببوائك تحتوي كل واحدة على عشرين عموداً . هذه الاعمدة أخذت كما أخذت أعمدة من قبلها حسبما أوردناه — من أبنية رومانية قديمة — . إن سعة الرواق العظيمة جعلت من المناسب أن يكون سقفه كثير الارتفاع ، أعلى بكثير — في الحقيقة — من أطوال الاعمدة الميسورة . فأقيمت فوقها أقواس حدوة الحصان المعتادة وفي أعلاها بـُني صفٌ ثانٍ من الاقواس في مستوى أرفع من الصف الاول . فتألف من كل ذلك منظر شديد التعقيد غير متناسق يخلّف في النفس أثراً بعيداً عن البهجة كل البعد . لذلك فاننا نجد الاعمدة الاثرية الجاهزة هي التي أملت على البوائك شكلها هذا في القيروان وفي قرطبة حيث ساعد على إدخال دعائم اللبن والحجر او الاساطين الاكثر ارتفاعاً التي صُنعت خصيصاً للبناء نفسه.واعان المعمار على الاستغناء عن تلكم الوسائل الساذجة التي تقذي العين . ولقد كان مسجد قرطبة كله محاطاً بجدارٍ عالٍ مدعوماً بأساطين وببوائك على مدار صحنه .

علينا الآن أن نتعقب خطواتنا الاولى إلى بلاد مـا بين النهرين حيث كان









(الشكل ٧٨) نماذج كوى وعقادات مقرنصة للمقارنة دون مراعاة لمقياس

A – سامراء : في رواق المسجد الجامع (٨٤٦ – ٨٥٢ م) ، (ومدخل الرواق في كاتدرائيي ويلز وسالزبري القرن ١٣ يشبهه إلى حد كبير) .

B – في قرطبة : رواق المسجد الجامع (٩٦١ – ٩٧٦ م) .

C – في كنيسة لاسوتيران *La Souterraine* (فرنسا) حوالي السنة ١٢٠٠ م .

D – في كنيسة كلي *Cley* بنورفولك *Norfolk* القرن ١٤ .

ثم عدة مساجد مبنية باللبن على الاسلوب المعتاد في البلاد . تقوم هذه المساجد بمثابة همزة وصل بين مسجد المدينة ومسجد ابن طولون في القاهرة . من أمثال هذه المساجد (المتوسّطة) نذكر مساجد الأخيضر[١٠] ، والرقة [١١] ، وأبي دُلَف [١٢] ، وسامراء [١٣] . والاثنان الاولان يرجعان حسبما قيل : إلى القرن الثامن الميلادي ، أما الآخران فيعودان إلى أواسط القرن التاسع وكلها تحمل طابع العمارة الساسانية ، وفي كلها تصميم المسجد الجامع .

إن المسجد في قصر الأخيضر الذي وصفته الآنسة (بـل) [١٤] وصفاً متقناً في رسالتها عنه، هو ذو أهمية جوهرية لنا لان المرء يجد فيه جرثومة الاقواس الحادة الذي أصبح فيما بعد أهم طابع لفن العمارة القوطية في الغرب . والقوس الساساني المأثور هو نصف دائري . ولكن قد يصادف المرء في بعض الاحيان أمثلة متباعدة قديمة للأقواس المدببة . ومن المحتمل ان الاقواس الشبيهة بحدوة الفرس قد استُعملت في بلاد العراق قبل هذا الزمن . وثم عدد منها في كنائس سوريا (مثال ذلك كنيسة نصر بن وردان حوالي ٥٦٤م) [١٥] كما يوجد فعلاً مِثالٌ هلّيني في شويزي [١٦] بايطاليا . في

١٠) انظر نشرة دار الآثار القديمة في العراق عن قصر الاخيضر – ط ١٩٣٧ . (المعرب)

١١) الرقة مدينة تقع قرب ديار بكر ومسجدها بني في قصر هارون الرشيد نفسه (المعرب)

١٢) يبعد نحواً من « ٥٠ » كيلومتراً عن سامراء الحالية. ويستدل من هيئته وشكله ومن بعض الاسانيد انه من عمل الخليفة العباسي « المتوكل » (المعرب)

١٣) يستدل من الاحجار انه من ابنيـة المتوكل بناه بعد ان ضاق مسجد المعتصم بالناس فهدم وبنى على انقاضه وقد ابتدأ به ٢٣٤ = ٧٨٩ م وانتهى منه بعد ثلاث سنوات (المعرب)

١٤) كروترود.ل. بل « قصر الاخضير ومسجده ط اكسفورد ١٩١٤ » . (المؤلف) دبلوماسية شهيرة انكليزية ورحالة (١٨٦٨ – ١٩٢٦) عرفت بدورها الهام في تكوين دولة العراق الحاليـة . (المعرب)

١٥) يقع بين سلمية وحمـاه في الشام وأول من وصفه هو « مورتمان » في المجلة الاثرية الالمانية . يتألف هذا القصر من ثلاثة ابنيـة ويقرب طرز عمارته من المباني الملكية في القسطنطينية على عهد جستنيان ٥٢٧ – ٥٦٥ م . ويرجحون ان مهندسه(ايزدور) . واهم ما فيـه كنيسته الكبيرة التي حفر في بلاطات منها تاريخا ٥٦١ و ٥٦٤ م وليس ثم سبب معروف لتسميـة الموقع بابن وردان . (المعرب)

١٦) *Chuisi* مدينة ايطالية من اقليم « سينا » بتوسكاني شهيرة بآثارها الاتروسكانية(المعرب)

الأخيضر كانت الاقواس مدببة بيضية مرتفعة بعض الشيء كما في قصر المشتى ، امـــا في بغداد ومسجد الرّقة ، ومسجد أبي دلف قرب سامراء ، فقد اتخذ القوس انحنـــاءً كان فيما بعد الطابع الذي يدمغ الفن الاسلامي ، وفي نهاية القرن الثامن ، حلّ محل كل أشكال الاقواس في سائر انحاء العراق . وقد تجد القوس المدبب الأقدم من هذا بكثير في الهند أحياناً ، منحوتـــاً على الصخر الأصم . وهكذا كانت الاقواس بالاصل منحوتة على الصخر مطلقاً ، لا مبنيـــة .

والمسجد الجامع بسامراء ذو سعـــة هائلة وأهميـة تاريخية جليلة . يتألف من صحن ذي رواق طويل من جهـــة مكة ومن أروقة جانبيـة طويلة بعض الشيء على مدار الجوانب الثلاثة الباقيـة من الصحن . وفي الجدار الخارجي العظيم أبراج اسطوانية الشكل في كل زاوية من زواياه الاربع . وبينهـــا من الخارج أيضاً أبراج نصف دائرية . وفي الجدار الجنوبي أي من الجهة القِبْلِيّة ، صف من الكوى ذات رؤوس مقرنصة multifoil . وربما كان هذا الشكل غير الاعتيادي الذي نجده ايضاً في قرطبة منبته الهند البوذية . كما ألمع اليه هافل[١٧] وإلا وجب علينا أن نعزو وجوده في الفن العربي بكل ماطرأ عليه من تنوع وتغيير ، إلى الاسلام (الشكل ٧٨) . وأهم من كل هذا هو الاستعاضة بدعامات الآجر لحمل الاروقة ، عن الاساطين الاثرية التي سبق ان ساهمت في بناء مسجد قرطبة وغيره من الامكنة . هذه الدعامات مثمنة الاضلع ، تقف على قاعدة مربعة . وفي كل دعامة منها أربعة أعمدة رخاميـــة مستديرة او مثمنة الشكل تربط فيما بينها دُسُر dowels معدنية ، وهاماتها ناقوسية الشكل . وهنـــا تمّ لدينا نمط آخر انتقل إلى العمارة الغربية . أما المنارتان الحلزونيتان الغريبتا الشكل : اولاهما ملويـــة سامراء ، وثانيتها منارة جامع ابن طولون (المبنية

---

١٧) *E. B. Havell* » العمارة الهندية *Indian Architecture* « الطبعة الثانيـــة – لندن ١٩٢٧ ، ص ٨٥ – ٨٦ . (المؤلف)

فيما بعد) فلم تثمر هندستهما شيئاً في مجالات التقدم العماري . وبقيتا عقيمتين .

وصف جامع ابن طولون الذي بديء ببنائه في ٨٧٦ م ، عدةُ كتاب بتفصيل وإسهاب.[١٨] ولكن أهميته في تاريخ فن العمارة الاسلامية قد تناقصت إلى حد مـا ، منذ أدركنا ان بعض مظاهره الهامة قد وجدت في بنايات عراقية أقدم منه تاريخاً . هذا المسجد عظيم المساحة يكاد يكون مربع الشكل ، ذو صحن تكتنفه من جميع جهاته أروقة ذات اقواس (الشكل٧٩) اما الرواق الاكبر (الايوان) ، فهو أطول بكثير من الأروقة الاخرى ، وتوجد خارج الجدران الرئيسة باحة مكشوفة تسمى (زيادة) . وهي طاريء جديد على العمارة لم نره من قبل في المساجد . والجدران الخارجية ضخمة جداً تتوجها شرفات مرخرفة قد تُعتبر — كما سيظهر فيما بعد — النموذج الاصلي للاسوار القوطية ذات الشرفات والكوى(وجدت شرفات من عدة اشكال عند الآشوريين قبل القرن الثامن ق. م. ووجدت ايضاً في مصر قبـل ذلك بزمن أبعد) . واستحدث تحت الشرفات صف من الشبابيك ذات الاقواس المدببة مملوءة بالمخرمات الجصيـة او مـا يسمى بـ (claire - voies) ، تتعاقب بين كوى ذات هامات مقرنصة أو مدببة وتتألف البوائك من اعمدة قرميدية ضخمة مع دعائم ثانوية مساعدة في الزوايا وفوقهـا اقواس مدببة ليس فيها إلا انحناء محسوس شبيه بحدوة الفرس عند بداية التقويس ولهذا كان كل البناء حتّى سطح السقف الخشبي ، مبنيـاً بالآجر المغطى بطبقـة جصية عاطلة او مرخرفة . وقد يقال بلا مبالغة ان هذا المسجد هو عراقي الطراز ، من كل الوجوه ، وانه مقتبس من نماذج له في سامراء وبغداد ، عرفها بانيه (أحمد بن طولون) ايام شبابه . وبجانب هذه الملامح التي نوهنـا بها آنفاً ، ظهرت بدع اخرى منهـا الكتابات الكوفية المحفورة على الخشب (وهو تكييف بارع في استخدام أحرف الكتابة لأغراض زخرفية) ، والنقوش الملونة على كل

١٨) انظر الفصل الثالث من كتابي« العمارةالاسلامية»وما بعده (اكسفورد ١٩٢٤)المؤلف

سطح منه بادٍ للعيان ، وفي الاغلب على سطوح الجص الابيض . كما نجدها كذلك فوق عوارض السقف الخشبية . هنالك أيضاً محراب ظاهر الزخرفة اعتورته يد التغيير ، وفوّارة في وسط الصحن (لم تكن ضمن البناء الاصلي الذي علته قبة خشبية) ، ومسارج ضخمة تتدلى من السقف .

إن عدد المساجد الاسلامية الذي انحدر الينا من الفترة المحصورة بين نهايتي القرن التاسع والثاني عشر ، لم يكن كثيراً . ففي غضون هذه الحقبة اقيمت عدة بنايات عسكرية . ومن المسلم به ان الصليبيين اقتبسوا بعض الآراء المعمارية من قلاع سوريا ومصر حيث بلغ فن العمارة في سوريا وارمينيا شأواً بعيداً من السموّ قبل هذا العهد بعدة قرون . واستعمال الاوروبيين للمشربية [١٩] مثلاً جاء من هذا المصدر .

في مؤلّفٍ لمستر كرزْوِل عن قلعة القاهرة [٢٠] ملحق اتى فيه إلى شرح اصل المشربية . فقال : هنالك ستة او سبعة امثلة متخلفة لها في سورية من اصل عشرة ، كانت في الواقع مراحيض حجرية نافرة ، من طرز بقي شائعاً حتى زمن متأخر . والحق انه يوجد مثيلات لها إلى الآن في رصيف ميناء

---

٢٠) ان ما يسمى بـ *Machicolation* هو إبرز عوارض او دعامات ذات مسافات متقاربة من الجدار لتحمل شرفات بارزة خارج البناء وبين كل زوج من الدعامات فتحة تسمى بالفرنسية « *mâchicoulis* » تقفل عن طريق باب قلاب ، ومنه تفوق السهام ويصب الزيت المغلي او الماء الفائر او غير ذلك من الحمم على رؤوس ضاربي الحصار الذين يحاولون لغم الجدران من اصولها . حلت هذه المشربيات محل المقصورات الخشبية المعروفة بـ *hourdes* (*hoarding*) أو *bretéches* (*brattices*) والمستعملة للاغراض نفسها ، (المؤلف). نقول : ظلت هذه المشربيات في العراق تسيطر على فن بناء دور القرن الماضي مطلة على الشوارع محلياً وتسميها العامة « الكوشك » بتسكين الشين ، أو الشناشيل (المعرب)

١٩) ظهر في نشرة المعهد الاركيولوجي الشرقي الفرنسي مجلد ٢٣ القاهرة ١٩٢٤ .(المؤلف)

غوري Gorey بجرسي [٢١] . أما الثلاثة الباقية من العشرة فربما كانت تُستخدم لتفويق السهـام من فوق ويعود تاريخ أقدمها إلى منتصف القرن القرن السادس للمسيح أي قبل الاسلام . ومنذ أزاح مستر كرزوِل الستار عن حقيقة هذه المظاهر ، اكتُشف انموذج اسلامي لهـا في قصر (الحيَر) قرب الرُصافة في سوريا يرجع تاريخها إلى ٧٢٩ م. وهنالك مثالان آخران يقومان فوق باب القصر (١٠٨٧) الذي هو باب من أبواب القاهرة بناه معمارون أرمن ، من الواضح انهمـا مشربيتان وضعتا للدفاع عن المدخل (الشكل ٨٠) تاريخهما يسبق أقدم مـا عُرف منهما في أوروبا بمائة سنة . كما في شاتوغيار Chateau Gaillard (١١٨٤) وشاتيون chatillon (١١٨٦) ونورويج Norwich (١١٨٧) وونجستر Winchester (١١٩٣) ولذلك كان واضحاً أن الصليبيين اقتبسوا هذه الفكرة من العرب ، وليس العكس . وهكذا أصبحت المشربيات المقامة فوق صفوف من الدعامات : من المظاهر الأنيقة في القلاع الفرنسية والانكليزية في القرن الرابع عشر (الشكل ٨١) .

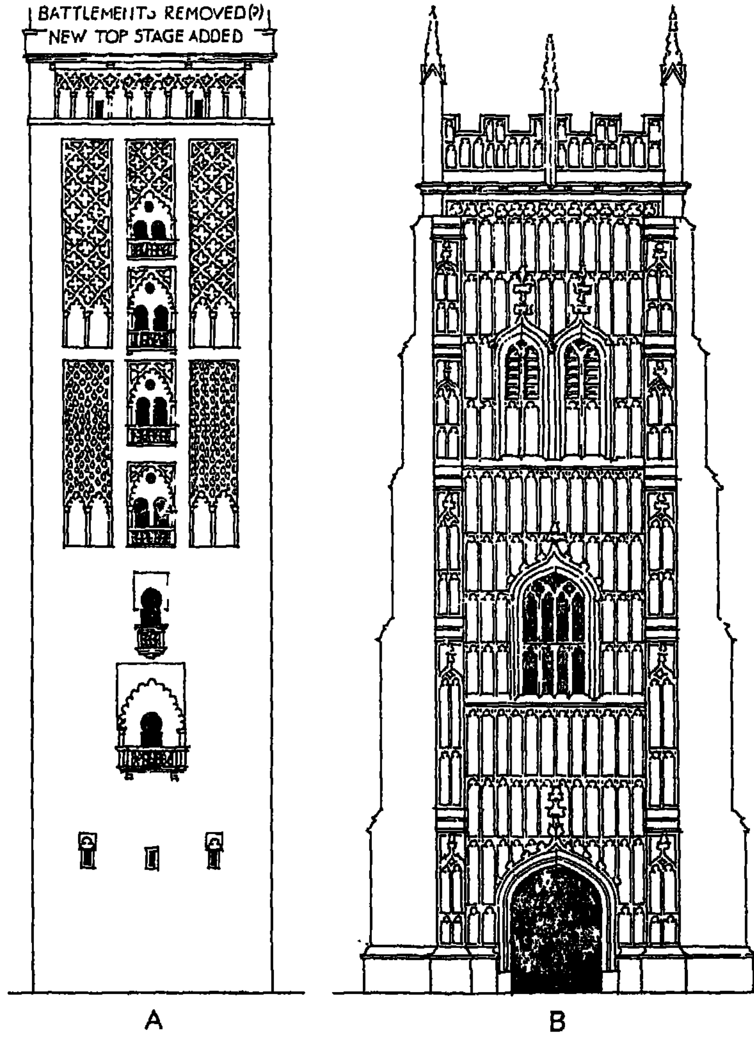
وثمّ ظاهرة أخرى في هندسة البناء العسكرية اقتُبست من مصر وسوريا وهي مدخل القلعة الملتوي او المدخل ذو الزاوية القائمة خلال مدخل في الجدران وبهذه الطريقة لا يتمكن العدو الذي يصل باب القلعة من الرؤية والرمي باتجاه المدافعين في الباحة الداخلية . مدخل من هذا الطراز لا يبدو انه كان معروفاً في الفنون العسكرية الرومانية او البيرنطية ، فقد كان لديهم عدة مداخـل دفاعية متوالية مقامة على خطٍ واحدٍ . منفصل بعضها عن بعض بفراغ يُعرف اسم (بروبونياكُلُوم propugnaculum) . هذه المداخل الملتوية استُعملت اول مرّة ، بأبعد ما عُرف — في مدينة بغداد المدوّرة

---

٢١) جزيرة في القنـال الانكليزي كبيرة الحجم سكانها نورمان وفرنسيون ، تقع في أقصى الجنوب الشرقي . (المعرب)

(القرن الثامن) ثم في قلعة صلاح الدين بالقاهرة (بديء بهـا ١١٧٦) . وبلغت شأوهـا الأقصى في مثال بديع لهـا هو قلعة حلـب ، وليس في انكلترا مثيـل لهذه المداخل إلا في النادر القليل وإن كان يوجد مثـال حسن لها في بوماريس Beaumaris . أما في فرنسا فهو أكثر شيوعاً . مثال ذلك في كركسّون Carcassonne ، ولكن هذين القطرين كانا يفضلان مدخلاً مـائلاً لقلاع أكثر تحصيناً واتقاناً . مثـال ذلك بيرّيفون Pierrefonds وكونوي Conway .

ليس في الهند بنايات اسلامية ذات أهميـة قبل أن يُشرَع ببناء دلهي القديمة في مستهـل القرن الثالث عشر . كما لا يوجد شيء منهـا في تركية الآسيوية حيث بديء بتشييد جملـة من الأبنيـة السلجوقيـة في (قونية) خلال تلك الفترة نفسهـا . أما في اسبانيا وشمالي افريقيـا فأهم ما تخلّف — باستثناء الابنيـة العسكرية — هو العمارة المتأخرة في المسجد الجامع بقرطبة الذي أُحدثت فيه أبنيـة اضافيـة كثيرة في النصف الثاني من القرن العاشر . والمنارة البديعـة باشبيلية (برج جيرالدا ١١٧٢ — ١١٩٥) وفي الرباط (١١٧٨ — ١١٨٤) ، وكلتاهما مزدانتان ببوائك نافرة شبيهـة وموطِئة للتشبيك القوطي في القسم الأعلى من النوافذ (الشكل٨٢) . هذان البناءان مهمـان من حيث طابعهمـا الغريب . ترى فيهمـا قباباً عجيبة الشكل والصنع . لكن لم يكن لهما أي تأثير بيّن على العمارة خارج اسبانيا . وفي صقلية بُنيت كنيسة بالاتينا Palatina في ١١٣٢ ، وكنيسة مارتورنا Martorna في ١١٣٦ ولازيزا (العزيزة) La Ziza في ١١٥٤ ولاكيوبا (القبّة) La cuba في ١١٨٠ . هذه التواريخ المقبولة من الباحثين كلهـا تخرج عن حدود الهيمنة الاسلامية على الجزيرة التي انتهت ١٠٦٠م ، بالنسبة إلى بالرمو وفي ١٠٩٠م ، بالنسبة إلى صقلية كلهـا . ولكن حتى لو كان النورمان بُناتها ، ففيها ما لا



(الشكل ٨٢)

نموذجان للمقارنه بين برجين مزخرفين (دون مراعاة المقياس)

A – برج الناقوس في ايفرشام *Eversham* (١٥٣٣) .

B – منارة جير الدا *Giralda* باشبيلية (١١٧٢ – ١١٩٥ م) (رفعت الشرفة منهـا ، اضيفت اليهـا قمة جديدة)

يحصى من معالم الفن العربي الخالصة التي توجد في أراضي ايطاليا الأصيلة بأمالفي Amalfi وسالرنو Salerno . والابنيــة الرئيسة في ايران خلال هذه الفترة هي (مسجد الجمعة في اصفهان) والجامــع الكبير في الموصل ١١٤٥ — ١١٩١ م [٢٢] وكلاهما مسجدان جامعان واسعان ، انتاب الاول منهمــا كثير من التغيير . كانت المساجد الايرانية تُشاد باللبن وتزخرف بنقوش جصيّة بارزة ، وبتربيعات قاشانية ، وهذا الاسلوب الاخير أُتبع فيما بعد حتى في البلاد التي استعملت الحجر في البناء ، كسورية ومصر . وكانت المآذن بصورة عامة تُشاد زوجاً زوجاً متخذة شكلاً اسطوانياً ، يستدق قليلاً من اعلى ، وسطحهــا مغطى ببلاطات برّاقة ملوّنة . ولقد قسا مسيو سالادان Saladin قسوة عظيمة في تشبيهها بمداخن المعامل ، ومن المؤكد انها لا تُقارن في الأناقة والروعة بالمآذن القاهرية . رحبت ايران ايضاً متحمسة بالزخرف الشبيه بالستالاكتيت [٢٣] الذي أتينــا إلى شرحه في العبارة الآتية :

ان الامثلة الرئيسة للمدرسة السورية — المصرية كلهــا توجد في القاهرة وهي مساجد جامعة واسعة كالأزهر (٩٧٠) وكمسجد الحَكَم (٩٩٠ — ١٠١٢) والمسجد الجامع الصغير الاقمر (١١٢٥) والمشهد الصغير المهم : الجيوشي (١٠٨٥) . بُنيت البوائك في الازهر والأقمر على أساطين أثرية . وفي مسجد الحكَم أقيمت فوق دعائم قرميدية . ولم يُستعمل الحجر في المسجد أول الأمر في(القاهرة)العربية . وإن كان حجر المرمر الممتاز متوفراً بكميات كبيرة في تلول المقطم المجاورة . ومن الواضح أن(القاهرة)اعتمدت

---

٢٢) توهم المؤلف ان الموصل تقع في ايران وان جامعهــا الكبير من نتاج الفن الايراني فنرجو ملاحظة ذلك . (المعرب)

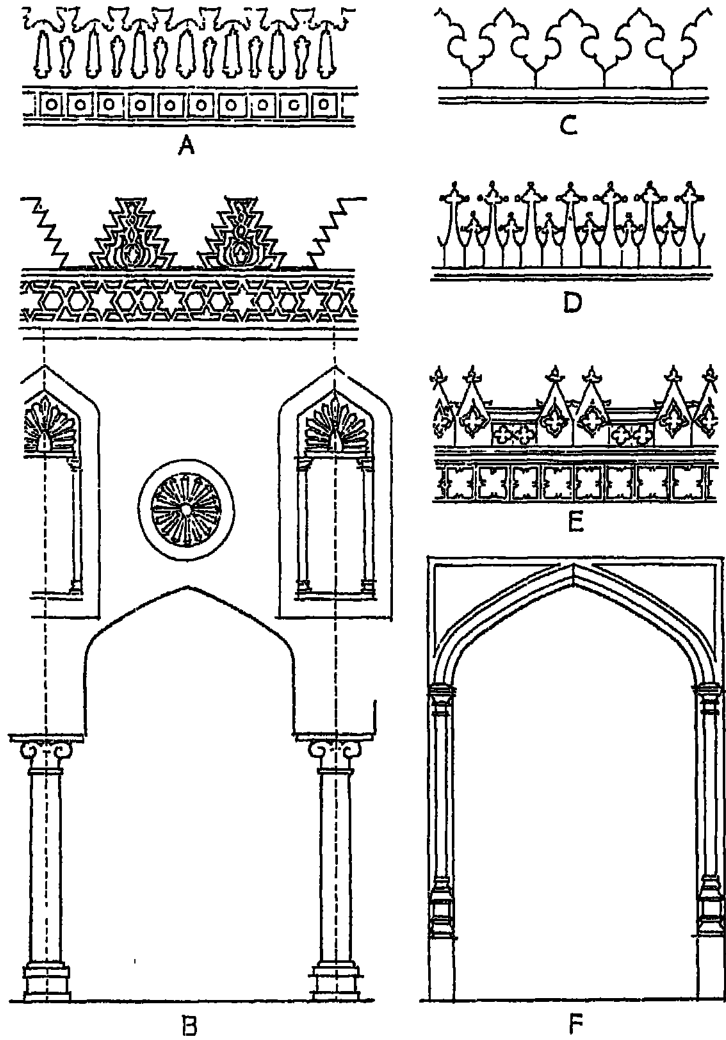
٢٣) *Stalactite* : هي الرواسب الكلسية المتدليــة من سقوف الكهوف والمغــاور بشكل الجليد المتحجر . (المعرب)

اعتماداً كلياً على التقاليد المعمارية العراقية حتّى هـذا الزمن . ان مسجد (الجيوشي) هو أول مثال للمشاهد (المزارات) . تطور فيما بعد إلى أبنية فخمة رائعة بقبة فوق ضريح منشئه وبمحراب في جداره الجنوبي . والصحن صغير وبينه وبين القبة ممر معقود وفيه مئذنة مربعة على ثلاث طبقات هامتها مرتفعة كالقباب التي يراها المرء في كنائس صقلية . إن لتطوّر القبة اكبر أهمية في تاريخ العمارة الاسلامية لكن لم يكن لديها أثر ظاهر على تراث الاسلام في البنايات الغربية الاوروبية فعلينا ان نضرب عنها صفحاً في هذا المجال القاصر . وللسبب نفسه لا جدوى لنا من البحث في أصل هذه الظاهرة الفريدة (الستالاكتيت) التي تبعت المسلمين إلى كل مكان وصلوه وأصبحت طابعاً لقاعات بناياتهم من الهند حتّى اسبانيا . ويحتمل ان تكون عراقية الأصل وإن كان أقدم ما وُجد منها هو مئذنة مسجد (الجيوشي) . والظاهرة الثانية هي شرفة المسجد الأقمر التي استعملت كزخرف . وثم ايضاً فجوات محفورة على أمثال قشور الاصداف ، من المؤكد انها نموذج لفجوات الصدف المألوفة من عهد(الرينسانس). وثم ايضاً حزام من زخرف الكتابة الكوفية يحيط بأعلى جزء من الواجهة . وظهرت قرينة اخرى في المساجد القاهرية خلال هذه الفترة ، الا وهي الشرفات الشبيهة بسنّ المنشار التي ربما اقتُبست أيضاً من العراق . ويحتمل ان هذا الاسلوب فن استهوى مهندسي (قصر الدوج) وغيره من قصور البندقية فاقتبسوه من هذا المصدر .

من القرن الثالث عشر فصاعداً ، وكثير من الأبنية الاسلامية قد بني وبقي قائماً في كل أقطاره ، وهنا علينا أن نضيف الهند وتركيا إلى قائمته ، ونخرج منها صقلية . واستأثرت اسبانيا بقصرين شهيرين على درجة عظيمة من الأهمية هما قصر الحمراء Alhambra والكازار Alcazar . جديران بالذكر هنا نظراً للزخارف المحتشدة فيهما والتي لا تشوّه جمالهما في

الوقت نفسه . أمـا البنايات المغربية الأخر التي بُنيت في زمن متأخر فلا يمكن أن تُعد من الصنف الاول . وفي القاهرة أبدع مجموعة من المساجد والأضرحة استمر بناؤها حتى السنة ١٥١٧ ، وهو زمن استيلاء الاتراك على تلك المدينة . وبعدها غلب اسلوب البناء العثماني على المساجد القليلة التي بُنيت . وبمدينتي قونية وبروسة في بلاد الأناضول ، مجموعة من النماذج المعمارية الطريفة حقاً تعود إلى الفترة المنحصرةمابين ١٢٠٠ ـــ ١٤٥٣ ، أيعند صيرورة القسطنطينية عاصمة للاتراك.وبعد هذا التاريخ أخذ المعمارون العثمانيون يقتبسون من الفن البيزنطي والارمني بلا حساب وإن كان ما شيدوه في القاهرة او دمشق مثلاً ،بعيداً كل البعد عن مسقط رأس هذين الفنين. إن لبلاد ايران والهند وتركستان ثروة لا تنضب من الابنية الاسلامية المتأخرة. وفي الهند ظلت معالم الفن الاسلامي إلى الآن . وعلى أية حال فثم ميزات وتأثيرات محلية قوية جداً تفصل بين تراث المدارس الخمس الرئيسة للعمارة العربية وهي : السورية المصرية ، والاسبانية الغربية ، والفارسية ، والعثمانية ، والهندية . هذه الميزات وإن عادت بعض الشيء إلى طبيعة المواد الانشائية الميسورة محلياً ، فانها تنسب غالباً إلى التقاليد الوطنية في فن العمارة .

شهدت القرون الوسطى تنوعاً وتطوراً عظيمين في تصميم المساجد . واستمرت بعض الأقطار على بناء المسجد الجامع ، وشاعت موضة المساجد المقببة . وفي القرن الثاني عشر وُجدت المدرسة (وهي مسجد مصّلب الشكل يستخدمللتدريس)وهومما يجب ألاّ ننسى ضمّه إلى القائمة : وقُدّر للقبة ان تصبح الميزة المفضلة الكبرى للعمارة الاسلامية . كان شكلها في القاهرة مرتفعاً في العادة . أما في ايران وتركستان فقد اعطيت الأفضلية للقباب البَصَليّة المنحرفة ، بينما اتخذت قباب مساجد القسطنطينية شكل القباب البيزنطية المنخفضة . وكانت قباب مصر الحجرية في القرن الخامس عشر مزدانة



الشكل ٨٣ : نموذج متسق لأقواس وشرفات

A – جامع ابن طولون بالقاهرة (٨٦٨ م)
B – قوس فارسي في جامع الازهر بالقاهرة (٩٧٠ م)
C – جامع زين الدين يوسف بالقاهرة (١٢٩٨م)
D – قصر كادورو في فينا (١٤٣١) *Palazzo Ca'd'Oro*
E – كنيسة كرومر *Cromer* في نورفولك (القرن الخامس عشر)
F – القوس التيودوري في بهو كنيسة المسيح (اكسفورد: القرن السادس عشر) .

بزخارف مُخرَّمة من الخارج ، أما في ايران فقد كان يُعمد إلى تغطيتها بتربيعات من القاشاني اللامع الملوّن . وإلى تركيزها على عواميد ستالاكتيتية . استُعملت هذه العواميد بالواقع – في كل مكان ، وغالباً بافراط يفوق الحد وكانت أحياناً تتدلى من السقف كما تتدلى ركائز pendents أقبيتنا الانكليزية ذات الشكل المروحي . ولكن في الوقت الذي لم يكن للقبة الاسلامية كبير تأثير على قباب الرينسانس في الغرب فيبدو محتملاً ان المآذن الاسلامية الموجودة بأبدع نماذج لها وخاصة القاهرية التي تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر منها قد أثرت على معالم فن الرينسانس المعماري في برج الناقوس campanili للكنيسة الايطالية . وقد أخذ عنها (رن)[24] مسلاته الرائعة التي زيّنت مدينة لندن . من المؤكد ان المعمارين المسلمين في هذا العصر ، بدأوا يدركون امكانية حسن التأليف بين وضع القبة والمنارة معاً . مثلما عمل (رنّ) تماماً فيما بعد باستعماله القبة والأبراج في صعيد واحد وتأليف حسن بكنيسة القديس بولص . ولم يشع بناء المئذنة الفارسية الاسطوانية ذات الشكل الجهم ، ولا المئذنة التركية الشبيهة بالقلم ، خارج موطن الأصل .

بتقدم فن العمارة العربي ، ارتفعت أسهم الأقواس الشبيهة بحدوة الفرس المدببة منها وغير المدببة . وقد كثر استعمال الاقواس نصف الدائرية والعادية المدببة او ذات المركزين ، وما يُدعى بالقوس الايراني الذي ينتهي التقويس فيه بصيرورته خطين مستقيمين عند النهايتين استُعمل بكثرة في موطنه وغير موطنه . وهو شبيه بعض الشبه بقوسنا التيودوري (الشكل ٨٣)

---

٢٤) *Wren* سر كرستوفر رن(١٦٣٢–١٧٢٣) من ألمع المهندسين المعماريين الانكليز بنى كثيراً من البنايات العامة الكنائس في لندن خاصة و في مقدمتها كنيسة (سانت بول و ميخائيل) و ما زال أغلب عماراته قائماً حتى الآن . (المعرب)

وعم استعمال الاقواس ذات الحنايا المتعددة ، او الاقواس المقرنصة كأقواس عميـــاء ، وبوائك لغرض زخرفة الاسطح . وكانت الشرفات تعمـــل بشكل زخرفة نباتيـة او على نمط سنّ المنشار في ملء فتحات النوافذ بشبابيك او مخرمات على الحجر او الجصّ يزينهـــا زجاج ملوّن تلوينـــاً ساذجاً خشناً ربما ظهر قبل استعمـال الزجاج الملوّن في بلدان الغرب .

ولما كانت الصورة الآدميـة محرمة من الفقهـــاء فقد سدّ مسدها أحزمة الكتابات الزخرفية جصيةً كانت أم محفورة على الحجر او الخشب والواردة بالتعاقب مع نقوش هندسية سطحية . أما الحفر البارز كثيراً ، فنادراً ما وجد في الأبنيـة المصرية الاسلامية ، وإن وجد في الهند أحياناً . في هذا الحفرتستعمل نماذج هندسية سطحية في غاية الدقـة ، وبدون تقيّد ، هذا الحفر يكاد يكون حراً لقلـة عمقـه . ولو ابتعدنا شرقاً وخاصة في ايران وتركستان حيث كان الآجر مادة البناء المعتادة ، لوجدنا ان بلاط القاشاني اللامع قد استعمل في مجالات كثيرة ببراعة وتفنن . فأشكاله المؤلفـــة من أنمـــاط هندسية مقتبسة ظلّت رائجة الاستعمال لأزمنة متأخرة حتى استُبدلت بقاشاني ذي أشكال تقرب من مظاهر الطبيعة كهيئات ضروب النبات والزهر . ويدل تعبير « الارابسك arabesque » الذي يُطلق على الحفر الزخرفي ذي البروز القليـل الرائج استعماله في انكلترا العهد الاليزابي — ومـــا بعده — يـــدلّ بأننا مدينون لعرب القرون الوسطى بشيء [٢٥] . وثم شكل آخر من الزخارف شاع استعماله في القاهرة ، ولم يشع كثيراً في غيرها وهو تعقيب رصف الحجر الابيض ،مع الحجر القاتم صفوفاً أفقية فوق صفوف . إن أصل هذا الافتنان قد يُعزى إلى روما او بيزنطية حيث كانوا يتبعون هذا الاسلوب التعقيبي

---

٢٥) في كل هذه النقاط : انظر الفصل العاشر « طبيعة الزخرفة العربية » من كتابي (العمارة الاسلامية *Mohammadan Architecture* و ما بعد الفصل ايضاً (اكسفورد ١٩٢٤).(المؤلف)

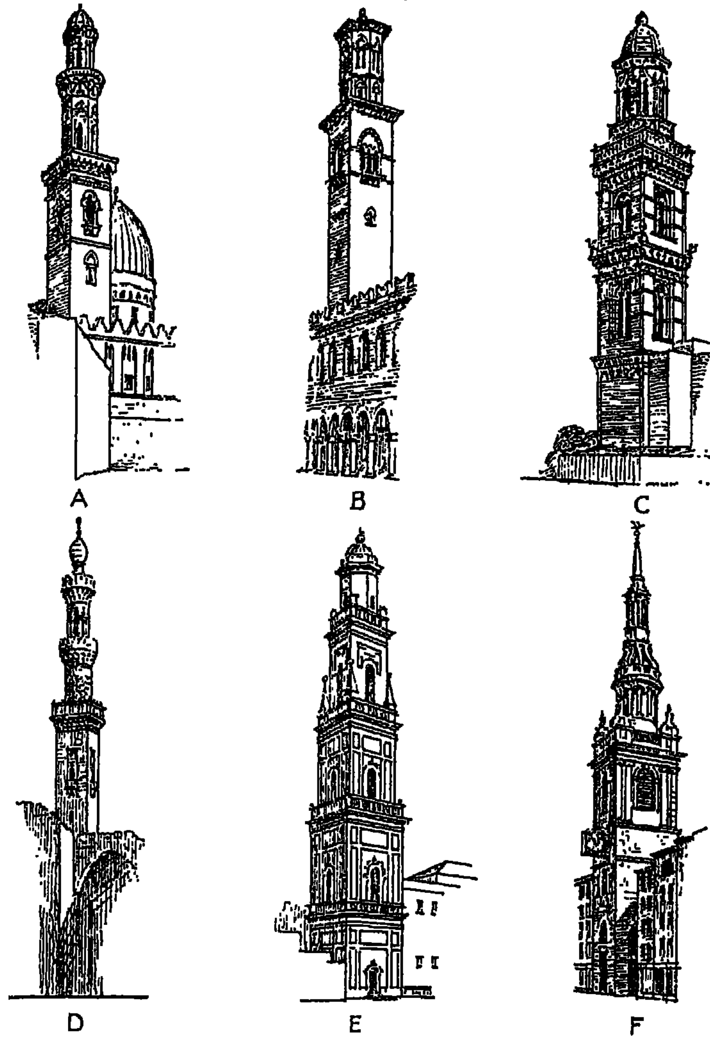
برصف الآجرات على مسافات في الجدران الحجرية . Lacing Course
ولكن الموضوع ما برح يكتنفه الشك . لذلك فواجهات المباني الرخامية المخططة في « بيزا، وجنوه ، وسْيينا، وفلورنسا»[٢٦] وغيرها من المدن الايطالية قد تكون على أكثر احتمال من تراث القاهرة التي ارتبطت معها بوشائج تجارية في القرون الوسطى ، وترى أبنية ملوّنة بهذا الاسلوب في لوباي Le Puy [٢٧] بأوفيرن Auvergne . وأقرب من ذلك كنيسة القديس بطرس (بنورثامبتن) في بلدنا انكلترا .

وبتلخيص كل النقاط التي وردت في هذا البحث ، يتضح لنا أن دَيْن الاسلام المتراكم على العالم الغربي في فن العمارة هو ديـن كبير . ففي ميدان الهندسة العسكرية وحده ، نجد الصليبيين الذين خلّفوا لنا عدة كنائس وقلاع رائعة في الاراضي المقدسة قد تعلموا هم أنفسهم شيئاً من فن التحكيم من خصومهم العرب الذين استفادوا بدورهم من عبقرية البنائين الارمن .

وإذا أخرجنا من حسابنا ما ندين به إلى أبنيـة ما قبل الاسلام الحجرية الارمنية والسورية وأبنية الآجر الايرانية ، تلك الابنية التي يزداد ميل الباحثين إلى أن يقلدوها فضل بداية اسلوب تسقيف القرون الوسطى عندنا ، فلنا أن نعزو بكـل إنصاف اختراع القوس المدبب إلى البناء الاسلامي في سورية وغيرها . إن الاقواس الأوكية Ogee [٢٨] على وجه التأكيد ، والثيودورية على أغلب الاحتمال قد وردتا من أصل واحد أيضاً . كذلك استعمال

---

٢٦) مدن عتيقة ايطاليا مازالت تفخر حتى يومنا هذا بأبنية جميلة من عصر الرينسانس (المعرب)
٢٧) مقاطعة تقع في اقليم اوفيرن وهي في وسط فرنسا . (المعرب)
٢٨) طاقات مضلعة ذات تقحيفين على حافاتها احدهمـا فوق الاخر وتدعى بالفرنسية *Ogive* . (المعرب)



الشكل ٨٤ : نماذج من المآذن (والابراج Campanili)

(دون مراعاة للمقاييس)

A – مدرسة سنجَر الجولي – القاهرة ٣٠٣ – ١٣٠٤

B – توري دل كوميوني *Torre del Comune* ١١٧٢ (قبة الجرس ١٣٧٢)

C – قبة سوليتو *Duome Soleto* جنوب ايطاليا ١٣٩٧

D – ضريح السلطان برقوق قرب القاهرة (١٤٠٠ – ١٤١٠) .

E – قبة ليجـــي *Duome Lecce* جنوبي ايطاليا (١٦٦١ – ١٦٨٢)

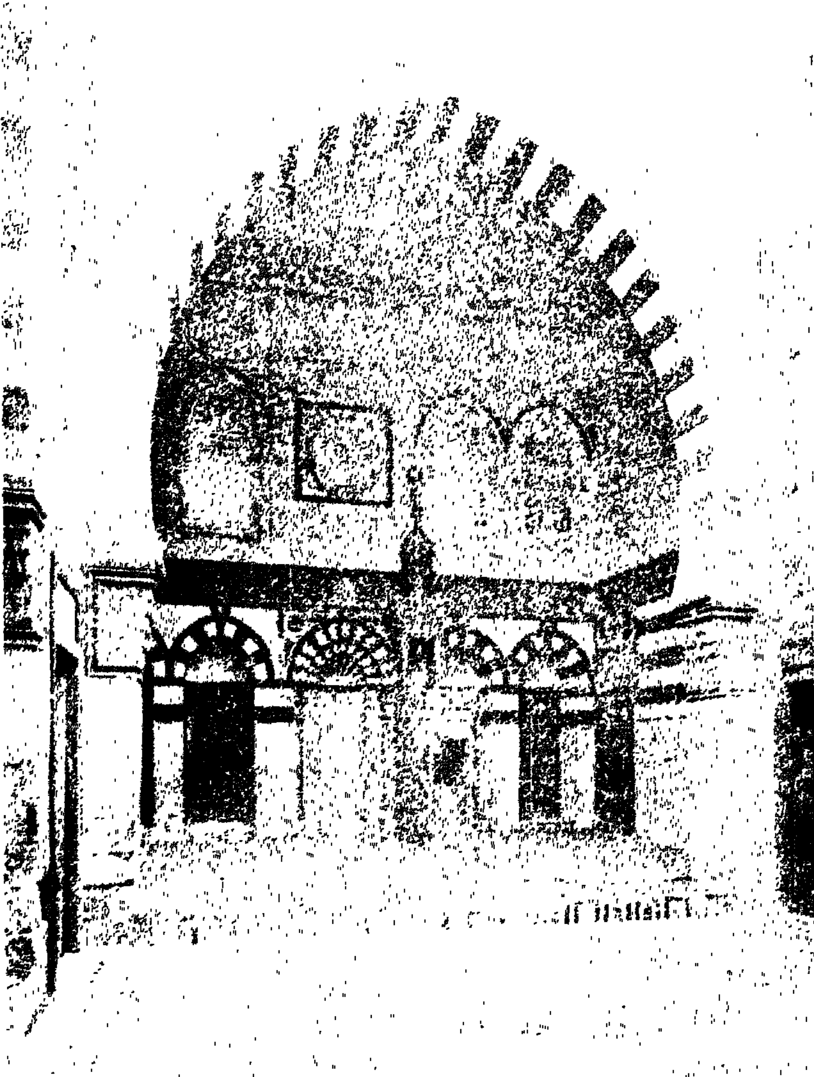
F – كنيسة سانت ماري لوباو *St. Mary - le - Bow* ، لندن ١٦٧١ – ١٦٨٣ من هندسة المهندس (رن *Wren*) .

الزخرف السائب cusp [٢٩] والاقواس والمقرنصات المزخرفة على هذا النمط ، فكلهـا جاءت من الاصل نفسه . كمـا يحتمل صدور الزخارف المخططة المحفورة على السطوح منه أيضاً او ربمـا استعمال زخرف التشبيك في النوافذ . أما زخرفة الصفائح فربما اقتُبس من التخريم الهندسي على الحجر او الجص وقد كثر وجودها في المساجد الاولى او ربما كان أصلها أبعد من ذلك ، أي أبنية سوريا والعراق لمـا قبل الاسلام . إن اختراع الزجاج الملوّن يُعزى أحياناً إلى الشرق ولكن هذه النسبة لم تتأيد حتى الآن . أمـا استعمال الاعمدة المندغمة عند زاوية الاساطين وهي ظاهرة ذات أهمية كبيرة في تاريخ التسقيف القوطي ، فانها بدعة عربية لا يرقى الشك اليها من بدع القرن الثامن والتاسع . جاءت الزخارف المحفورة او النافرة إلى القاهرة من العراق ، ثم انتقلت منهـا إلى ايطاليا لتصير بعدها من معالم فن العمارة القوطية البارزة ، وان الكتابات المحفورة التي كانت تقوم بمثابة زخارف في أنماط قوطية لزمن متأخر ، لها شبيهها في جامع ابن طولون بالقاهرة (القرن التاسع) لكن الكتابة بالأحرف الكوفية امتدت إلى فرنسا خلال فترة احتلال المسلمين أقاليمهـا الجنوبية [٣٠] . وثـم أمثلة نادرة جداً من الزخارف في انكلترا يُعتقد انها تأثرت بالاساليب العربية (الشكل ٨٥) وقد يمكن ان يكون مصدر الواجهات المخططة ، القاهرة . وربما جاء منها أيضاً شكل أبراج النواقيس campanili لعهد الرينسانس ، والحنايا الخشبية الشبيهة بقشور الصدف .

---

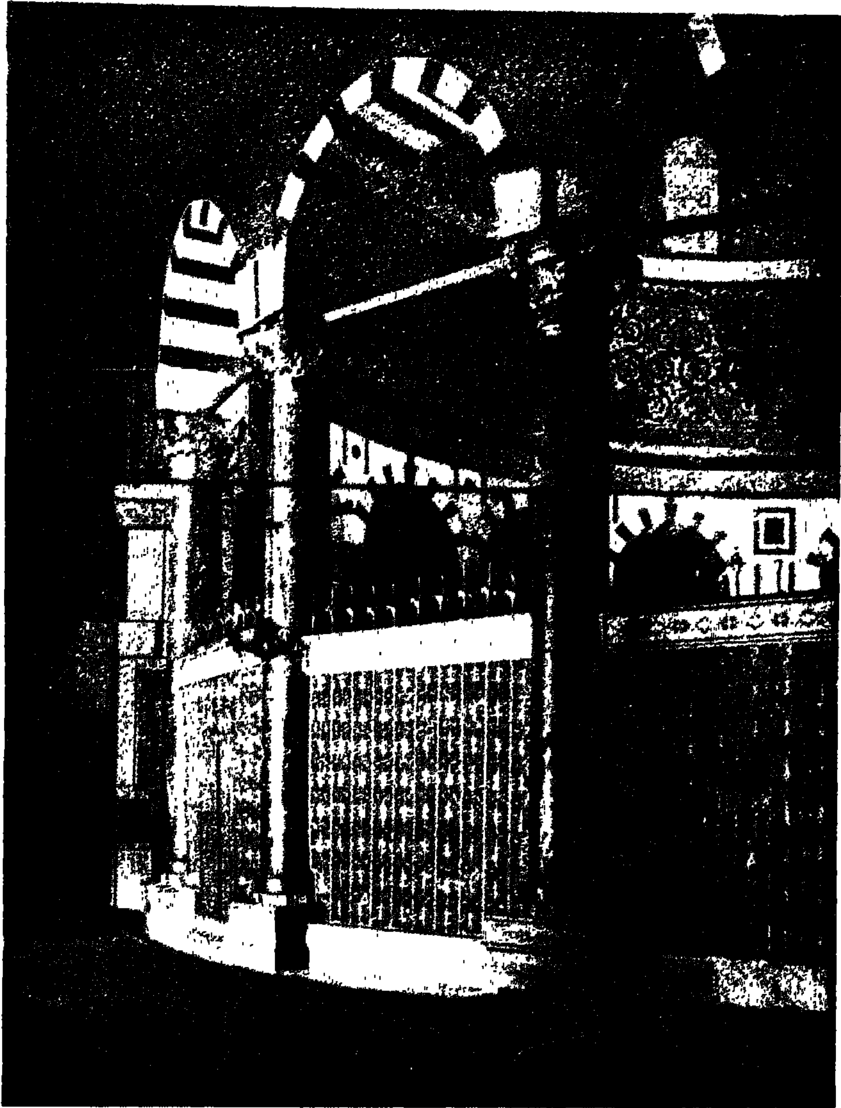
٢٩) وهو الزخرف المتدلي من نقطة التقاء نهايتي قوسين وغالباً ما يتخذ شكلا نباتياً . (المعرب)

٣٠) مثال ذلك الابواب الخشبية التي حفرها استاذ الحفر النصراني (كوفريدوس *Gaufredus*) في بيعة صغيرة من مشتملات كاتدرائية *Le puy* ، وباب آخر محفور في كنيسة لافوت شيلاك *Le Voute Chilhac* . وثم احزمة من الزخارف على رف كنيسة (وستمنستر ابي) وعلى شبابيك قديماً ملونة يعزوها الاستاذ ليثابي *Prof. Lethaby* إلى الاصل نفسه ، انظر أ. اج. كريستي « تطور الزخرفة من الكتابة العربية » مجلة برلنكتن مجلد ٤٠ — ٤١ السنة ١٩٢٢ (المؤلف)

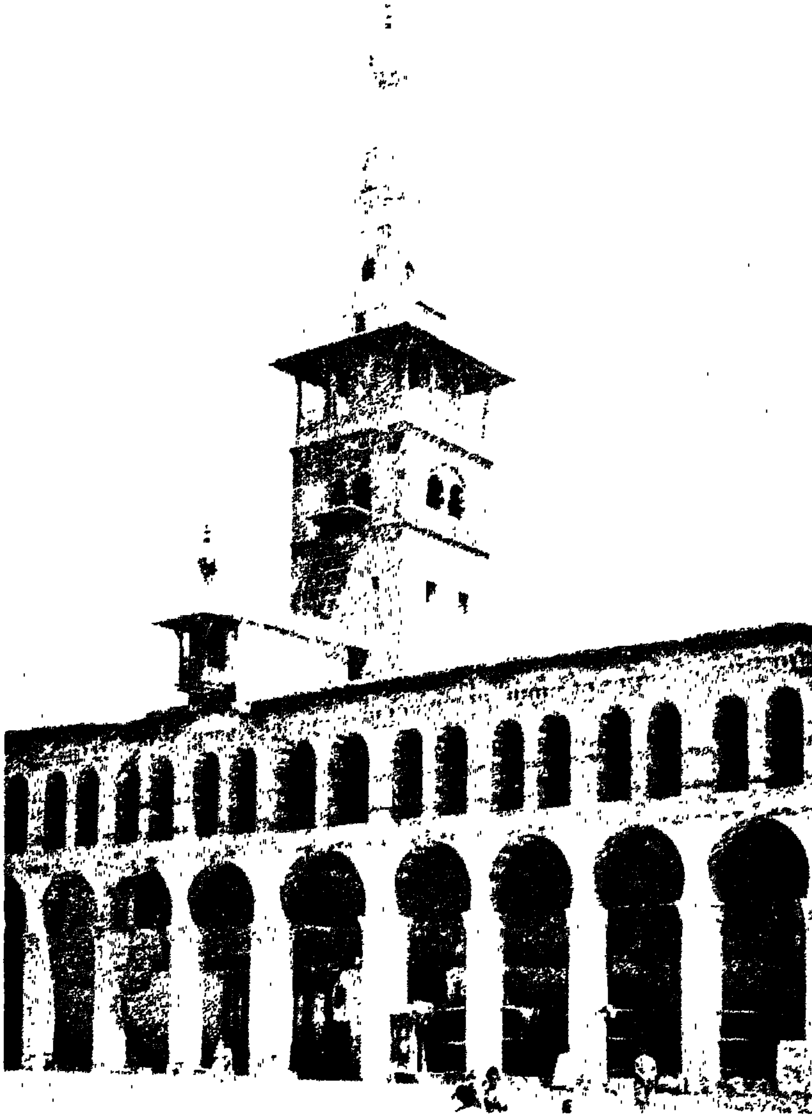


الشكل ٧٤ : داخل جامع قايتباي في القاهرة

(يرى المنبر نافراً في الوسط وعن يمينه المحراب إلى يسار الصورة)



الشكل ٧٥ : داخل قبة الصخرة في القدس



الشكل ٧٦ : المسجد الجامع في دمشق



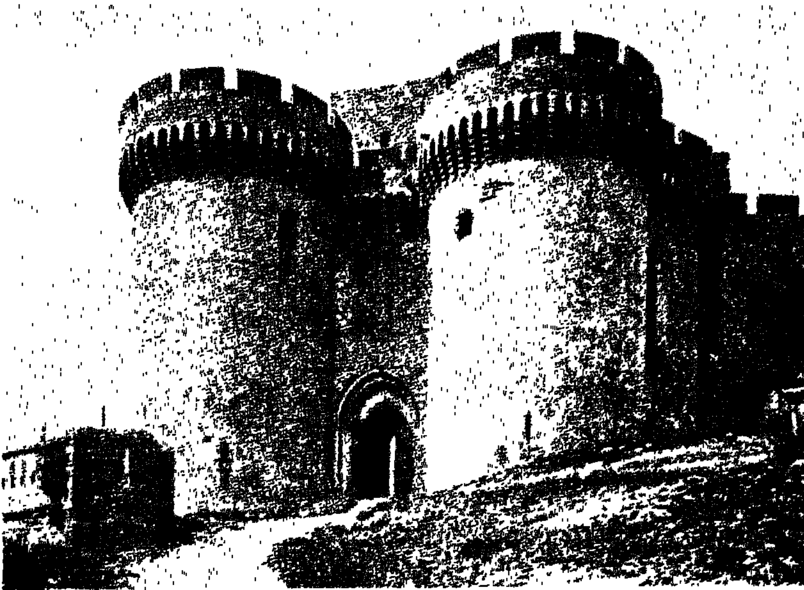
الشكل ٧٧ : داخل المسجد الجامع بقرطبة
(تصوير ارخيف ماس)



الشكل ٧٩ : جامع ابن طولون في القاهرة
(واحد من الأروقة العديـــدة)



الشكل ٨٠ : باب النصر – القاهرة (١٠٨٧ م)



الشكل ٨١ : مدخل قلعة فيللونوف – ليزافينيون
القرن الرابع عشر (لاحظ الكوى)



الشكل ٨٦ : الحمام



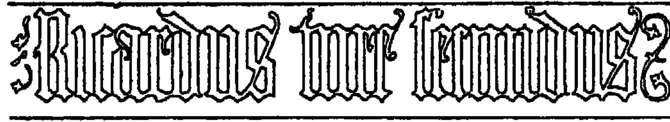
الشكل ٨٧ : اشكال رمزية للامزجة

(صورتان من مخطوط عربي كيميائي حديث)



الشكل ٨٨ : ابن سينا يلقي درساً في التشريح

من مخطوطة تشريح « المنصور » تعود للقرن السادس عشر ، الفت في بلاد فارس في العام ١٤٠٠ .
والرسم مأخوذ من مجموعة الدكتور ماكس مايرهوف صاحب هذه المقالة



E



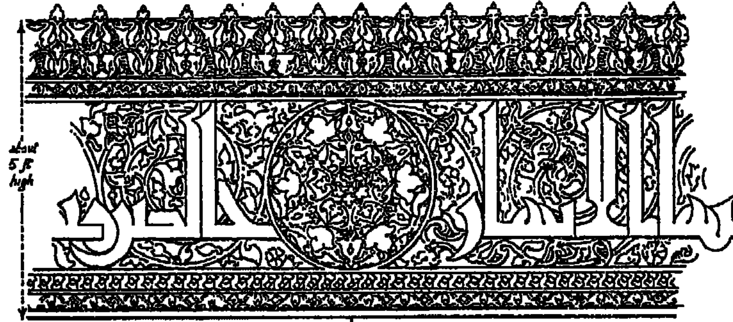
D



B



C



A

الشكل ٨٥ : نماذج من الكتابات الكوفية والقوطية

A – جامع السلطان حسن بالقاهرة ١٣٥٦ – ١٣٦٣ . مصنوعة من الجص .

B – محفوظ في دار الآثار العربية بالقاهرة القرن ١٢ .

C – في كنيسة ساوث ايكر *South Acre* بنورفولك حوالي السنة ١٥٥٠ .

D – في ضريح (فيش ليك – يوركشاير *Fish-lake - Yorkshire*) ١٥٠٥

E – قبر رتشارد الثاني . وستمنستر ١٣٩٩ .

إن المشربيات العربية الخشبية التي كانت تُستعمل لاخفاء جناح الحريم من الدار أو كستار في المسجد ، نسخهـا الانكليز فجعلوا منهـا أسيجة وحواجز من القضبان المعدنية المتشابكة . ومن المحقق ان السطح المرخرف بنقوش قليلة النتوء على طريقة الارابسك arabesque او على النموذج (الدبابري) (٢٨) واستعمال النقوش الهندية للزينة هو جزء من دَيْننا للشعوب الاسلامية التي كانت أيضـاً مصدراً او وسطـاً ناقلاً لكثير من معرفتنـا في العلوم الهندسية .

كل هذه النقاط التي تطرقنا اليهـا ، انما هي مظاهر عامة ، لكن الاتصال الوثيق بين الشرق والغرب إبان الحروب الصليبية ، ثم الاتصال الاكثر من هذا خلال القرون الوسطى فيمـا بعد ، لا بدّ وأنه خلّف آثاراً اخرى في فن العمارة ، أخطأته عين الملاحظة في هذا البحث السريع . وفي اسبانيا ، بقيت التقاليد المغربية في امور الرخرف — حتى آخر زمن من عهد الرينسانس وساعدت على إبراز الكثير من عجائب وطرائف العمارة الاسبانية القوطية . وأخيراً ربمـا كان حرياً بنا القول ان تطور الابنية الاسلامية ما زال مستمراً في كثير من البلاد النائية التي ظلّ بها مزدهراً أكثر من الف سنة .

مارتن اس. بريكز

مصادر الفصل :

M. S. Briggs, Mohammadan Architecture in Egypt and Palastine. (Oxford, 1924).

E, Diez, Die Kunst der islamischen Volker. (Berlin, 1915)

J. Franz. Die Baukunst des Islam. (darmsted, 1887)

A. Gayet, L'arte Arabe. (Paris, 1893).

G. T. Rivoira, Moslem Architecture : its origin and development. (Oxford, 1918).

Richmond, E. T. Moslem Architecture ; 623 - 1516 : some causes and consequences. Royal Asiatic Society. (London, 1926).

H. Saladin, Manuel d'art musulman : tome I, Architecture. (Paris, 1907).

٣١) انظر جزء « الجغرافية » (المعرب) .

الأدبُ

بقلـــم

البروفسر كب" (سر هاملتون الكساندر روسكين)

Prof. Sir Hamilton A. R. Gibb

١٨٩٥ – ١٩٦٧

ويعد إمام المستشرقين الانكليز العاصرين . استاذ اللغة العربية في جامعـــة لندن سنة ١٩٣٠ واستاذ في جامعة اكسفورد من السنة ١٩٣٧، وعضو مؤسس في المجمع العلمي المصري حاضر بالعربية في مدرسة المشرقيات بلندن . وتفرغ للادب العربي فطبع السنة ١٩٢٦ كتابـــاً في « دراسات الآداب العربية العصرية » ومن ابحاثه « الفتوحات الاسلامية في آسيا الوسطى وعلاقتها ببلاد الصين » ومنها « ترجمة الادب العربي لابن القلانسي ». وهو احد محرري دائرة المعارف الاسلامية ورئيس مركز دراسات الشرق الاوسط ١٩٥٧ – ١٩٦٦ . ومن اثاره رحلات ابن بطوطة واتجاهات الاسلام المعاصرة . (المعرب)

ربمـــا بدا لنا أدب الشرق المسلم بعيد الشقة عنـــا حتى أن قارئاً واحداً من ألف قد لا يعثر على حلقة تربط ذلك الادب بادبنـــا . وان رائد تاريخ الادب الّذي يعرف كم من الادب ذي الاصل الشرقي قد نسب إلى الادب الاوروبي في مختلف الازمان وكم هو ذلك القليـل الذي ثبت دخوله ــ سيكون جد ميـال إلى أن يرمق القضية كلهـــا بشك ساخر . الحق يقال أن ثم حقائق دامغة لا يماري فيها احد : فالامثال الشرقية ، والحكايات الشرقية وما لف لفهـــا من المصنفات ــ تمتعت بشهرة واسعـة في القرون الوسيطة . واول كتاب طبع في انكلترا : « حِكَـم الفلاسفة واقوالهم The Dictes and Sayings of the Philosophers كان مترجماً عن نسخة فرنسية مأخوذةمن ترجمة لاتينيةمترجمة عن اصل عربي.وللمرة الثانية نجد في القرن الثامن عشر ما لا يقل عن ثلاثين طبعـة من قصص الف ليلة وليلة باللغتين الانكليزية والفرنسية . ومنذ ذلك الحين نُشر اكثر من ثلاثمائة طبعة لهذه القصص في جميع لغات اوروباالغربية.وطار صيت عمر الخيام في انكلترا وامريكا اكثر ممـــا اشتهـر اسمه في بلاد فارس . لكن هل كانت هذه الظواهر حالات طارئة شرقية المنبت ، متباعدة المكان لا صلة تربط بينهـــا ؟ ام هي تمثل اتجاهاً عاماً ؟ وإذا كان الأمر هذا فكيف ظهرت تلكم الاتجاهات ؟ مـــا مدى تأثيرها على مراحل سير الادب بصورة عامة ؟ لا يمكن أن نظفر باجابات قاطعة الا على اسئلة قليلـة ممـــا ذكرناه . ولا مندوحة لنـــا الا أن نقوم بمجرد محاولات تغنينا عن اعطاء رأي جازم بقدر ما يتيسر لنـــا من الادلة والمشاهدات ولربما توصلنا عن طريقها إلى الجواب الشافي لو تتبعنـــا خطوطها وتأثرنا معالمها .

ليس ثم مسألة أصعب وادق من مسألة تحرّي العوامـل المحددة لطبيعـة الأثر

الذي يخلفه أدب أمة في ادب امة أخرى ومن ثمّ تقدير درجة هذا التأثير . والواضح أن وجود تماس تاريخي وثيق ، ليس بالامر الضروري فيما نحن بسبيله وإن كانت مثل تلكم الصلات تخلف بالطبع آثارها في ادب الامة او الامتين ذوات العلاقة . ليس من المهم كذلك ان تغلب على علاقتهما التاريخية صفة المودة وحسن الجيرة ، او صفة الجفاء والشنآن . فتاريخ كل الآداب الاوروبية هو برهان ساطع على أن اساليب الادب وانتقالاته لا تقف عند الجبهات الحربية. والأعظم اهمية من الصلة التاريخية ، بل الاصعب اثباتاً عن طريق الادلة التاريخية هو حقيقة وجود المبادلة الادبية بين امتين سواء في ذلك أكانت المبادلة ذات صفة فردية أم ذات.صفة مزدوجة الجانبين او كما يحدث في كثير من الاحيان ان تكون علاقة مدرسية الصفة ، ذات وجهين . فبالتحليل الادبي فقط– كآخر ملاذ لنا – نستطيع أن نثبت وجود ذلك التأثير او أن ننكر وجوده.

واهم عامل هو اشدها روغانا . فقبل أن يكون أي شكل من اشكال النقد الادبي في متناول اليد ، من الضروري أن يتوفر هنا شرط الاقتبال من الجانب الواحد او من الجانبين . اي الرغبة والتهيوء لقبول عطاء بعضهما لبعض ، والاقرار الضمني بتفوق هذا الجانب على ذاك في هذا الميدان او ذلك . والامر لا يتطلب منا التحقيق الدقيق ليتضح لنا ان التهيوء الاوروبي لقبول الاساليب العربية او الفارسية ، كان ضيق النطاق محدوداً إلى آخر درجة بالزمان والمكان ، وليس ثم مجال للمقارنة بين الايغال الدائم لاثر الادبين اللاتيني لعصر النهضة والاغريقي ما بعد النهضة – في جسم الادب الاوروبي ، وبين اقتباسه المقنع لبعض العناصر من الادب الشرقي.ونكاد لا نجد شيئاً قريباً للاقتباس التام من أي فن من فنون الادب الشرقي ودخوله الادب الاوروبي بشكله واغراضه نفسها . على أن عناصر متفرقة منفردة منها تتعلق بالاساليب وباتجاهات موضوعية ادبية معينة ، شقت لها طريقاً

ناجحة بين آن وآخر إلى الادب العربي . والسبب إلى انتقائها واستخلاصها من المجموع دون سواها ، انما هو امر يعود على اغلب الظن إلى نفسية الشعوب والآراء الآنية السائدة . وعلى كل حال فالامر الذي يستوجب الملاحظة هو ان الادب الشرقي قد مارس تأثيراً ظاهراً ونفوذاً على الآداب الغربية في المسائل التي تميزهما وتفرق فيما بينهما ، اكثر مما كان في المسائل التي تقربهما ولا تميزهما . كان الذوق الادبي الاوروبي لا ينفك يمج الاساليب والاشكال الغريبة غير المألوفة من الادب الشرقي . ومال بدلا من ذاك — إلى العناصر التي سبق بجرثومتها ان وجدت أو ابتدأت تتطور بشكل محاولات تجريبية في الفكر الاوروبي والاداب الاوروبية . في مثل هذه الاحوال صارت العناصر الشرقية تقوم بدور مفتاح الباب الذي كان اهل الغرب يقرعونه . أو ان اشراق ديباجتها ودقتها الوصفية انالاها ذلك الحب العام بحيث صارت تنير السبيل التي كان على الحركة الاوروبية ان تسلكها . ولا يستفاد من هذا انها اوجدت مستوى ادبياً وصاغت قوالب ادبية وكانت بمثابة انماط مبتكرة قلدها الغرب تقليداً اعمى . ان الامر على الضد ، ففروع الآداب التي تأثرت بعدئذ بالآداب الشرقية ، تطورت أو اتسعت بطرقها الخاصة حتى لم تجد ضرورة للرجوع إلى الشرق وكثيراً ما كانت تسير على هذا المنوال وهي جاهلة تماماً الطلائع التي سبقتها ظهوراً .

ان كل محاولة يقصد بها تقريب المشابهة بين الآثار التي تمسح وجه الادبين الشرقي والكلاسي [1] (المدرسي) بطابع واحد ، انما تفصح بصورة نسبية

---

١) يدهشني كثيراً اني أجد بعض المتأدبين العرب يعمدون إلى اثبات كلمتي (رومانتيك *Romantic* وكلاسيك *Classic*) بطريق النسبة هكذا : (رومانتيكي) و (كلاسيكي) باضافة ياء النسبة العربية إلى الاسمين . بينما الاضافة (*ic*) بالانكليزية) و (*que*) بالفرنسية وغيرهما تقابلان اداة النسبة العربية ، فبقولنا رومانتيكي وكلاسيكي نجعل للكلمتين اداتي نسبة . والصحيح ان نقول رومانتي وكلاسي . (المعرب)

والاصرار على القول بأن الادب الاغريقي إنما هو أدب ابتكار وتوليد ، وان الادب الشرقي اساساً هو ادب محاكاة وتقليد بادي الفقر بالمعاني والامور العقلية ؛ قول وإن لم يكن يخلو من بعض حقيقة ، فهو في الواقع تعميم واشتاط فيه تسرع كثير . وتوفيق الكاتب المسلم للابداع يكمن في اكسائه الحقيقة الجوهرية من افكاره ، رداء من لغة الخيال . ولكن من الغلط ان نستنتج من هذا وجود تنافر جوهري بين الروح الشرقية والروح المدرسية (الكلاسية). إن النزعة الكلاسية في الادب الاوروبي كانت تأتي من الاعلى دائماً . أما ادب العامة في الشمال والغرب على الاخص — فينم عن صلة قربى وثيقة بروح الادب الشرقي . فشعورها المتبادل بالجفوة والتباعد يعود سببه إلى عزلة كل واحد منهما وجهل احدهما بأخيه . فكلما تم فتح قناة بينهما فان فيضان التأثير الشرقي ، يجلب على العموم زيادة في قوة التيارات الشعبية للآداب الغربية بحيث يعينها على مقارعة التفوق والسيادة الكلاسية ببعض نجاح .

ان واقع الميل الشعبي إلى الآداب الشرقية ، وانتقال العناصر الشرقية خلال العصور الوسطى أمران زادا من اخفاء هذا النقل وجعلا معرفة تأثيره معقداً جداً وفي أغلب الاحيان صعب الاثبات عن طريق قواعد النقد التاريخي المألوفة ، لاسيما وان اكثر أدب العامة عند الجانبين قد اندثر وعفي على أثره ولم يعد في متناول يدنا . ثم أن تواريخ آدابنا تفصح عن سمات الازدراء المترفع الذي كان يدخره كتاب الغرب وباحثو اوروبا بصورة عامة ، لأغاني الدهماء واقاصيص العامة . ان جميع الاسباب تؤدي بنا إلى الجزم بأن الدراسة الحديثة لآداب الدهماء ستلقي ضوءً باهراً على مدى شيوع المواد والصنائع المستمدة مباشرة من الشرق — في اوروبا الغربية . ومن المحتمل أن يكون هذا التأثير

قد شرع يفعل فعله منذ القرن الثامن الميلادي [٢] ، لكن – وبصورة رئيسة – لم تبرز مشكلة الاحتكاك بالشرق الا حين قطعت الآداب الاقليمية الشعبية شوطاً في حلبة التقدم . وربما كانت اولى المشاكل ، اصعبها واعسرها تحليلا ومناقشة . فقد ظهر في جنوب فرنسا فجأة وفي نهاية القرن الحادي عشر – شعر ذو طابع جديد ، بقالب جديد ونفسية اجتماعية جديدة واغراض مستحدثة ، وليس في الأدب الفرنسي الغابر العتيق ما يشير إلى هذه الفترة الا النزر اليسير . هذا الشعر وجد من الناحية الاخرى – بعض مشابه قوية بنمط معين من الشعر الذي عاصره في اسبانيا العربية . فما هو وجه العجب ، أو ما هو اقرب إلى الطبع من قولنا أن أوائل شعراء اقليم البروفنس قد تأثروا بالانماط العربية ؟ بقيت هذه النظرة عدة قرون تلقى ترحيباً وقبولا لا جدال فيهما . ولم يتفق متشيع لهذا الرأي – اشد تفانياً واستقتالا من « جياميريا باربييري »[٣] ، وذلك ايام وصول حركة احياء الآداب الكلاسية في القرون الوسطى أقصى مدها [٤] ، وفي حركة احياء العلوم الوسيطة حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ايام كان الخيال الشعبي خاضعاً للادب الروائي الشرقي استقر الرأي العام الذي كان ينتزعمه سيسمندي [٥] وفورييه [٦] على وجود تجاذب وثيق

---

٢) تدبر البراهين القاطعة التي أتى بها ليوفاينر *Prof. Leo Wiener* عن الوساطة القوطية في نقل التأثيرات العربية ، بكتابه «ايضاحات عن تاريخ الحضارة العربية القوطية » *Contribations towards History of Arabico - Cothic Culture* . طبع نيويورك ١٩١٧م وليعط اهتمام خاص بالفصل الذي يبحث في أعمال النحوي « فرجيليوس مارو » *Virgilius Maro* (المؤلف)

٣) *Giammeria Barbiere* (١٥١٩ – ١٥٧٤) باحث واديب ايطالي ألف فيما يتعلق باصول الشعر الفرنسي والبروفنسي الايطالي . (المعرب)

٤) انظر كتاب جياميريا « اصول القافية الشعرية *Dell Origine della poesia Rimata* » (طبعه تيرابوشي في مودينا – ١٧٩٠) . (المؤلف)

٥) *Sismondi* ١٧٧٣–١٨٤٢ كاتب ومؤرخ ايطالي ولد في جنوا وعاش في انكلترا (المعرب)

٦) *Fauriel* ١٧٧٢–١٨٤٤ مؤرخ ولغوي وناقد فرنسي وعضو الاكاديمية الفرنسية . اختص بالكتابة عن الادب الروماني والشعر البروفنسي وله فيهما مجلدات عديدة . (المعرب)

بين الشعر العربي والشعر البروفنسي . وفي منتصف القرن التاسع عشر تحول كل من فئتي المستشرقين وتلامذة فقه اللغات الرومانسية عن هذا الرأي . كان النقاد يتـطلّبون شواهد وأدلة خطية تثبت حصول الاحتكاك بين اقليم البروفنس واسبانية فلم يجدوها فتحزبوا لهذا الرأي الاخير بكل قواهم .

وإذا عزا احدهم – من دون تحيز – جانباً من هذا التحزب الرجعي إلى الشعور الوطني المتنامي الذي شمل امم الغرب كافة ، فيجب علينا الاقرار باذعان كلي أنه لا يوجد باحث رومانسي يحترم نفسه – زعيم ان يدافع عن نظرية المؤثرات العربية ويصمد في وجه التصريح الهازيء الذي ادلى بـه المستشرق الشهير « دوزي » حين قال :

« نحن نرى هذه المسألة اشبه شيء بالعبث الذي لا طائل تحته . اننا لا نريد بعد الآن أن نجعلها موضع نقاش . نقول هذا وإن كنا واثقين بأن هذا النقاش سيبقى امداً طويلاً . ومهما يكن فلكل امرء حصان معركته » (٧) .

وعلى هذه الدعائم بدت الفكرة السائدة وكأنها اطمأنت في مستقرها ، وجمدت في وقفتها . فالمسيو (انغلاد) مثلا يدلي برأيه الجازم الذي لا يقبل الجدال وهو : « ان الطروبادور هم وحدهم خلقوا لاشعارهم الشكل والموضوع » ولكن الفريقين ، مع هذا التأكيد الذي يلوّح به كل من المنكرين والمؤيدين في تصريحاتهم ، يعتمدان على شيء أكثر قليلاً من التخمين . أما عن بحث منظم في القضية من وجهة نظر المستشرق ، فلم يظهر الا القليل التافه حتى زمن متأخر ، لا بل لم يظهر شيء مطلقاً . على أن الادلة الجديدة التي غمرها الضياء الآن ، سارت بعيداً بنا حتى لكأنها ازالت كل شك في أن جانباً على الاقل من المستحدثات الشعرية الخاصة بالجنوب قد اثرت فعلا في شعراء البروفنس الأولين (٨) .

---

٧) « ابحاث في تاريخ ... اسبانيا » ط ٣ (١٨٨١) م٢ ملحق « ٦٤ » ملحوظة٢ .(المؤلف)

٨) لا حاجة بنا إلى القول بأننا لا ننتوي انكار أثر المصادر الثقافية الاخرى كاللاتينية والكلتية وغيرها ، ولا ان ننفي مقداراً معيناً من التقدم المحلي . (المؤلف) .

ان الابداع المستجد في الشعر البروفنسي لا يكمن في الموضوع ، بـل يتعداه إلى الشكل واعني به اسلوب معالجة ذلك الموضوع بالذات . هذا الحب النابض الذي تعبر عنه ثروة عظيمة من الوصف الخيالي الدقيق والديباجةالادبية الرقيقة ، لم يكن ذلك الحبّ الذي افصحت عنه اغاني الشعب الساذجة الملأى بالعاطفة . انه مذهب وجداني بل قاعدة رومانتية أوحالة سقم (باثولوجي) تثيرها دواع طارئة ، إنه عاطفة تجد مثلها الاعلى لا في الفتاة العذراء بل في الزوج التي كانت حياة الشاعر تستمد من خدمتهـا والغرام بها – قوةً ومتانةً خلقية تجعلهـا حياة مشرفة حافلة بكل مـا هو نبيل . فمن اين جاء فنّ الحبّ هذا ؟ من اين جاءت عبادة السيدة ؟ انه لم يأت من اخلاق ذلك الزمان كما قد ظهرت منعكسة على صفحة الآداب الشعبية التيوتونية [٩] منهـا او الرومانتية . ولقد كتب (برونيتير)[١٠] يقول « يبدو ان المرأة في حياة برجوازية القرون الوسيطة كانت قد احنت رأسها إلى قانون الطغيان والقسوة بدرجة لم تدانها فيها امرأةعاشت اي عصر من العصور أوسكنت أي بقعة من بقاع الارض».ولم يكن يتضمن هذا النوع من الحب المثل العليـا للفروسية التي بدأت تنفخ روحها في الطبقات الاجتماعية العليا . هذه الاحاسيس الطارئة ، لا رباط يشدها بعقيدة المحارب الذي ابتلي بها . ان المثل العليا هي في العُذْرَة والطهارة . ولو أن هذه العاطفة قد نشأت عن العلاقات الطبيعية بين الشاعر المحترف وبين السيدة التي تكلأهوترعاه لكانت جاءت نغمة هذا الحب اكثر خضوعاً وذلة . والآداب اليونانية اللاتينيـة – سواء أفي عصرها الذهبي أو الفضي – لا تتحفانا إلا بالقليل

---

٩) *Teutons* : هم القبائل الجرمنيـة التي ظهرت في اوروبا في أواخر عصور ما قبل الميلاد . استوطنوا المانيا وشمـال الدانوب واختلطوا بالهون . فعندما يذكر الادب التيوتوني يكون المقصود به هو الادب الجرمني الاول . (المعرب) .

١٠) *F. Brunetiere* (١٨٤٩ – ١٩٠٦) كاتب فرنسي . عرف بكتابه « تطور الشعر الغنائي الفرنسي خلال القرن التاسع عشر » . (المعرب) .

الطريف الذي قد يكون اساساً سيكولوجياً لهذا الحب لكن الواضح – مع ذلك – انه يعتمد على تقاليد ادبية ثابتة ، والمصدر المحتمل لهذا التقليد يمكن على اقل تقدير أن ننشده في شعر اسبانية العربية [١١] .

كان من حق الشعر العربي في القرن الحادي عشر أن يلقي إلى الخلف نظرةَ عجب واعتداد ليتبين المسافة التي قطعها في حقل النماء والدرجات التي رقيها في سلم التطور . ولكن لم توجد في غضون مرحلته الطويلة فترة فيه خلت من أن يكون الحبّ احد ينابيعه الرئيسة . ففي فن الشعر الحالي لبادية جزيرة العرب بصوره التقليدية المصاغة بجزالة لفظية ، وبلغته المصقولة وتشبيهاته المنمقة وأوزانه المعقدة وقافيته المتقنة (ذلك لان العربية هي اولى اللغات الأجنبية التي كانت تتشدد في القافية التامة بوصفها عنصراً أساسياً في الشعر (كان يجب أن تستهل كل قصيدة بالبكاء على فراق المحبوب الذي أثارت ذكراه زورةُ الربع أو مرورٌ بالطّلل البالي. ولما هاجر الشعر إلى المدن ، أثبت عاطفة الحبّ نفسه بقوة تفوق ما كانت عليه في الجاهلية واستعيض عن هيدونية [١٢] البادية الصريحة ، بطلاوة ورقة جديدتين ، وافسح القصد سبيلا للمقطوعة الغنائية التي صار الشاعر يعبر بها عن احاسيسه وشخصيته نفسها . وظل الشعر العربي بضع عشرات من السنين يرتوي من نبع جديد فيه الحرية والحب المجوني والصدق في التعبير عن الحياة قبل أن يأتي على الشعر الغنائي دور ينقلب فيه إلى شعر محاكاة ، إلى جمود لا يعبر عن الحياة الا تعبيراً زائفاً . وظهر على لسان شعراء البلاط ايام الخلفاء، شعر غنائي وجداني فيه شيء

---

١١) لمناقشة هذا الموضوع ، وبغية التعمق فيه ، انظر بورداخ *K. Burdach* في مقال له منشور بمجلة الاكاديمي العلمية البروسية ١٩١٨ بعنوان حول « اصول الاغاني الشعرية للقرون الوسيطة *Uber den Ursprung der mittelälterlichen* (المؤلف)

١٢) كلمة اغريقية معناها السرور وتطلق على فلسفة اللذةو الانانيةالتي بشر بها ابيقور (المعرب)

من الخفــة والمجون الظريف ؛ فيه اتحدت موسيقى الحس ّ بالصنعة الادبية فخرج من هذا المزيج بديل عن حرارة العاطفة الخالصة البدويــة . هذا الشعر دفعته العامة فكان خادم فن ّ جديد ، هو القصة الخياليــة لعاشق مدنف جعل حياته وقفاً على حب ّ طاهر لمعشوقة مثالية لا سبيل للوصول اليهــا . أما عناصر المثالية في تلك الصور التي يقدمهــا عن الحب الروحي السامي ، فقد اقبل عليهــا المتصوفة بلهفة فكانت لهم نعم المعبر المجازي عن تعلق الروح تعلقاً دائمــاً بالمحبوب . ولقد كان التصور الحسي الشهواني للحب الجنسي يسود الشعر الصوفي العربي والفارسي على حد سواء . هذا الشعر المشرق البهيج الذي يمتاز بكثرة المبالغــة والذي يعبر عنه بعض شعراء الغرب بالخيــال العربي التقليدي بعد أن صقلته التأملات وزادته عمقــاً وفلسفة عند الفريق الآخر من الشعراء ؛ اكتسب عند الفرس حلاوة وبساطة تُوجتا بصور غنية انبثقت بحكم الطبع من الخيال الفارسي . ولقد كتب لكل شكل من شكلي هذا الشعر الغنائي ان يلعبــا دوراً في تاريخ الآداب الاوروبية .

واهم ميزة جديرة بالذكر في هذا الشعر الغنائي الجديد ، هي ظهور اسلوب ادبي ملحوظ للحب الافلاطوني امتزج بنظرية حب اخلاقيــة هي رسالة بلاد العرب إلى العالم . وقد حدث في نهاية القرن الثامن الميلادي ان بعض شعراء بلاط الخلفــاء في بغداد صاروا يوقفون ملكــة الشعر فيهم على هذا الضرب من الحب . وبعد مرور اقــل من نصف قرن على هــذا الزمن ظهر صبي لم يتعد العشرين من عمره هو ابنٌ وخلفٌ مؤسس اشد المدارس الدينيــة الاسلامية صرامة ، فقنن هذه القواعد في كتاب فريد في سحره وروعته هو كتاب « الزهرة » نظم فيه (ابن داود) ونسق وصوّر كل صور الحبّ وطبائعه وشرائعه ومعبراته وتأثيراته نظماً . مستهدياً بروحه المُثُل َ العليــا التي اختطتهــا سُنة الاسلام على لسان النبي (ص) « من حبّ ، فعفّ ،

فكم ثم مات ، مات شهيداً [١٣] .

ان وحدة الثقافة في العالم الاسلامي شجعت على تقدم هذه الفنون الشعرية في اسبانيا ايضاً . لكنهـا سلكت في تطورها هناك ، سبلا مستقلة وقطعت شوطاً ابعد عن طريق تشرب السكان باللبان العربي والاسباني وتمثله فيهم بسبب وطأة النضال المثير الدائم بين العرب والدول المسيحية في الشمـال . لم تأت فترة في تاريخ الادب العربي كهذه الفترة انتشرت فيهـا الروح الشعرية بين مختلف طبقات الشعب اوسع انتشار ، وحفلت بالتحفز العقلي والقلبي للتأثر بالجمـال وبقوة اكساء صور التأثير تلك لغةً نفسية اخاذة . ومن بين العدد العديد من الشعراء المعروفة اسماؤهم او المجهولة ، قد تنهض اشعار الفارس سعيد بن جودي [١٤] الغنائية التي استشهد بهـا دوزي كأمثلـة لمـا نحن

١٣) يقصد المذهب الظاهري . سمي بهذا نظراً إلى تمسك اتباعه بحرفيـة وظاهر نصوص السنة تمسكـاً دقيقاً . ازدهر المذهب في ايران ثم انتشر في الهند وعمـان وذر قرنه في المغرب على يد ابن حزم . ومن تعاليم مؤسسه ، انكـار كل توسط او نقل او اقتباس من اي امام ، وانكار مـا فعلـه الشافعي من محاولة التوفيق بين نهجي الفقـه القديم والجديد ، « مفاتيح العلوم ص ٨ » . والشخصان اللذان يشير اليهما صاحب البحث همـا : ابو سليمان داود بن علي بن خلف الاصبهاني (٢٠٠ أو ٢٠١ – ٢٧٠ هـ = ٨١٥ م ٨٨٣ م) المولود بالكوفة والذي دعـا إلى مذهبـه باصبهان . خلفه ابنه في زعامة الظاهرية وهو ابو بكر محمد بن داود (٢٥٥ – ٢٩٧ هـ = ٨٦٨ ٩٠٩ م) في سن السادسة عشرة . وكتب مؤلفات فقهيـة وكلامية يرد فيهـا على ابن السراج وجرير الطبري وغيرهم . على ان اعظم مـا وصل من آثاره الينا هو كتاب « الزهرة » طبع الجزء الاول منه في مطبعة الآبـاء اليسوعيين ١٩٣٢ – بيروت نقلا عن الدكتور لويس نيكـل البوهيمي وقد اعلمنـا الاستاذ كوركيس عواد ان الجزء الثاني منه (الذي كان يظن انه مفقود) هو من جملة مخطوطات انستاس الكرملي . وعن (الحديث) انظر الارشاد لياقوت ص٣٠٨ ج١ . (المعرب)

١٤) (من القسم الثالث المطبوع من كتاب – المقتبس في تاريخ رجال الاندلس – للمؤرخ ابي مروان بن حيـان بن خلف ط باريس ١٩٣٧ بعنايـة الاب ملشور.م . انطونيـة ، عن نسخة محفوظة في المكتبـة البودلية – باكسفورد) . الفارس الشاعر سعيد بن جودي : امرته عرب غرناطة في حوالي اوائـل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، من كورة البيرة ايام الفتنـة ، وكان بطلا باسلا ، واديباً شاعراً ، قتـل بيد جماعة من اصحابه غيلة السنة ٢٨٤ هـ = ٨٩٦ م . وكان قيامه بأمر العرب سبع سنين ، واكبر ما نقمـه عليه اصحابه استهتاره باحرار النساء وكان له فيهن ما لا يحصى من قصائد الغزل والنسيب . (المعرب)

بصدده[١٥]. فهنا ايضاً وجد المثل الاعلى للحب الافلاطوني قبول اجماع . ويضرب المثل في الاسلام بابن حزم في الحماسة الدينيـة والجدال العنيف . عرفه الغرب كمؤسس لعلم (مقارنـة الاديان) ومع ذلك فقد كتب هذا الرجل رسالة [١٦] مطرزة باشعار من نظمه عن الحب ، تنافح أو ربما تفوق كتاب (الزّهرة) نفسه ولقد قبـل ابن حزم بالنظرية الافلاطونية القائلة أن الحب هو وسيلة بهـا يلتئم شقان منفصلان للجوهر الآلهي الواحد في اتحاد ارضي . وفي هذه الروح التي هي من انقى الرومانتيـة واصفاها ينكشف تحليل للحب شبيه من عدة اوجه بتحليل (الطروبادور) له في القرن الذي تلاه لكن يقصر عن أن يطال الاول ويبلغ مـا بلغه من رفعة وسمو . ولئن كان كثير من الشعر العربي الاسباني بسيطاً مرسلاً على السحية فالذي وصل الينـا منه كان الشعر المصقول الديباجة لشعراء وشاعرات البلاط وهم ارستقراطيو صناعة الشعر ممن لم يكن يرى الوزراء والامراء غضاضة في مجاراتهم لا بل كان هؤلاء الامراء والوزراء هم الشعراء . في هذا الازدهار المبارك للثقافة العربية — الاسبانية اخذ ينهض بالتدرّج صرح صناعة شعرية جديدة . فالى جنب المقطوعة الشعرية والقصيدة ذات القافية الموحدة بابياتهـا ذات الوزن

---

١٥) تاريخ عرب اسبانيا *Histoire des Muslmans de L'Espagne* ج٢ ص ٢٢٧ (الترجمـة الانكليزية بقلم غ. ستروك *G. Stroke* الص ٣٣٢ — ٣٣٥) .

١٦) طوق الحمامة *Le Collier de la Colombe* باعتناء بتروف *Pétrof* مع مقدمة ط.ليدن ١٩١٤ (المؤلف) . ومحمد علي بن احمد بن سعيـد بن حزم القرطبي (٣٨٤ —٤٣٨هـ = ٩٩٤ — ١٠٤٦ م) هو من مفكري العرب العظام وفلاسفتهم . ويشير المؤلف هنا إلى كتابه (طوق الحمامة في الالفة والالاف) ألفه على غرار كتاب الزهرة ، وتناول فيه العشق وألوانه المختلفة واوضح انظاره النفسية باقاصيص ، كمـا تمثل فيه باشعار من نظمه ، كشف عنـه المؤرخ (دوزي) وله الآن عدة طبعات عربية . (المعرب) .

الواحدوالبحر الواحد «بدأ الشعر الغنائي الاندلسي يكشف عن تفصيل لاشكال نظم جديدة بقواف متغايرة في المقطوعة نفسهـا وبموازين شعرية معقدة» ومع أن هذه البحور ظلت على الأوزان المعروفة ، فالظاهر انهـا كانت خطوة نحو اشعار الطروبادور وذلك ايضاً كان فنـاً شعرياً من منتوج رجال البلاط وشعراء البلاط — ذا قواعد جديدة ومصاريع واقفال معقدة . بقيت صعوبة واحدة وهي انه لم يؤثر عن واحد من (الطروبادور) الاوائل انه كان يعرف اللغة العربية . فمن هم الوسطاء الذين نقلوا هذا الفن من الاندلس إلى البروفنس ؟

علينا ان نقر صراحة ان حلا كاملا لهذه المشكلة غير ميسور الآن مع أن كثيراً من الباحثين تصدوا لهذا الموضوع بعد « دوزي » . ولقد ثبت الآن ثبوتاً لا يقبل الدحض [17] ان مغاربة الاندلس هم اسبانيون يغلب الدم الاسباني عليهم ، فضلا عن انهم كانوا — من اعلى طبقة إلى ادناها — يفهمون الرومانسية ويتكلمونها بحكم العادة والطبع . في الوقت الذي تشرب هؤلاء المسلمون الاسبان بالثقافة العربية ، افادوا هم بدورهم . وبتعاونهم هذا صارت الثقافة الاسبانية العربية مدينة بميزات تفوقهـا ونفوذها . ان مسيحيي الاندلس الذين صاروا نصف عرب (كمـا يدل على ذلك اسمهم ، مستعربة : Mozarab) والذين وقفوا على الادب العربي في اكثر الاحيان ، هم بدورهم نقلوا كثيراً من بذور الحضارة الاسلامية إلى الممالك الشمالية وشمـل قسم شبيه بهذا التوسط والنقـل ، تاريخ الشعر الاندلسي وكثيراً من الشعر الاسباني ، ولعبت العبقرية الاسبانية دوراً كبيراً في تطور عروض الشعر . وبرجوعنا إلى التحسينات النظميـة التي فرضتهـا قوانين الشكل والوزن العربية على المقطوعة الشعرية بشكلهـا الادبي (الموشح) ، نجدهـا قد دخلت في الاغاني الشعبية المطلقة

---

١٧) اثبت ذلك دون خوليان ريبرا في كتابه *Disertaciones y Opusculos* (مدريد ١٩٢٨) ج ١ : ص ١٢ – ٣٥ و ١٠٩ – ١١٢ (المؤلف)

من القيود (الزجل) . ومن ثم شقت تلكم المحسّنات طريقها إلى الشعر القصصي . ومما لا يمكن الجدال فيه ، أن هويـة الشعر الشعبي المسمى « الفلانثيكو villancico » ترتبط (بالزجل) العربي ، وليس ثم مـا يحملنا على الظن بأن مثل هذا الانتقال كان مقصوراً على طرز الصنعة ، أو على شكل واحد من اشكال الشعر ، ومهما كانت العناصر العربيـة التي ثبت دخولهـا في شعر « الرومانسيرو الاسباني » قليلة بصورة عامة . ان اسلوب التاريخ العام من جهـة النشر الادبي الاسباني ينهض مثالا مشابهـاً لاتحاد الاساليب العربية والاسبانية معاً (١٧) .

وعلى ذلك فقد كان الوسط الناقل هو (الزجل) العامي ونظيره الشعر الغنائي المعروف « بالفيلانثيكو » . ولحسن الحظ خلصت من البلى مقطوعة نفيسة واحدة من هذا الادب الشعبي . وهي مجموعة تحتوي على مائة وخمسين قصيدة مكتوبة باللغة العامية الخليطة من لهجات عدة دُوّنت في الجزء الاول من القرن الثاني عشر ، لشاعر اندلسي اسمه « ابن قزمان » الذي وان كان هو نفسه معاصراً لشعراء الطروبادور الاولين ، فانه اعترف اعترافـاً صريحاً لا مواربة فيه باتباعه اسلوبـاً معروفاً راج استعماله في الاندلس إذ ذاك . وطريقة نظمه هي عربية من ناحيـة الروي والقوافي . لكن الثورة على العروض عنده بلغت اوجها ، وآض ميزانه يعتمد على النبرة لا التقطيع المعروف . أما مقطوعاته واسماطه فقد صيغت ببراعة تتفق ومتطلبات غنائها الجماعي حيث اغلب اشعارها (كما اوضح ريبرا) هي مآس درامية ينشدها المغنون الجوّالون في الطرقات . وبمضاهاة هذه المقطوعات بالانظمة الوزنية لشعراء البروفانس الاوائل ينكشف

١٧) انظر فيتزموريس – كيللي *Fitzmaurice - Kelly* في كتابه «تاريخ حديث للأدب الاسباني *A New History of Spanish Literature* » ط ١٩٢٦ ص ٢٤ . كذلك انظر كتاب منيديث بيدال في « الرومانسيرو *El Romancero* » ص ٥٨ . (المؤلف)

الامر لنا عن مّشّابه عظيمة القدر . فاشعار وليم بواتييه[١٨] منظومة احياناً بأوزان قريبة من اوزان « ابن قزمان » باختلاف طفيف الجأته اليه في الظاهر ضرورات صياغتهـــا للغناء الفردي ، حيث كانت اصلاً معدة لغناء الجماعة (غناء الجوق) . ونجد فضلا عمـــا تقدم أن تحرر شعراء البروفنس من القواعد الشعرية وسيرهم وراء اهوائهم في ذلك ، اوضح لنـــا انهم كانوا يستعملون اوزاناً ذات قيم معترف بهـــا أو ذات ذوق متفق عليه raison d'etre بينمـــا كان جوق الشعر الاندلسي محافظاً على قيوده الايقاعية والموسيقيـــة مخلصاً لاسلوبه بحيث لا زلنا نميز تأثيره عن تأثير الشعر البروفنسي وذلك في اشعار الفونسو الحكيم وعند الشعراء الاسبان [١٩] .

بقيت نقطة اخيرة نرى وجوب بحثها . فأزجال (أبن قزمان) لم تكن تعكس ابداً الاغراض العالية لشعر البلاط الاندلسي ، أو الهوى العميق الذي تفصح عنه الاغاني الشعبية . ومع ان بعض آثـــار « وليم بواتييه » ما كانت لترتفع عن هذا المستوى الخلقي الزقاقي ، فثم فرق بيّن ، بين رنّة هذا الشعر الشعبي الاندلسي وبين المثاليات التقليدية لشعر البلاط البروفنسي . لكن « ابن قزمان » يمثل انحطاطاً وتفسخاً مفزعين في المجتمع العربي — الاسباني ، ومن المحتمل جداً ان المثل العليا لشعر البلاط انعكست بشكـــل ادق واقرب في الآثار الشعبية الاخرى (على الاخص في القرن الحادي عشر عندما بلغت الثقافة الاندلسية اوجهـــا الاقصى (نستدل على هذا من الاشارات العرضية التي كانت تُرد بمحض الصدفة لدى كتاب العرب اثناء تناقلهم روايات العامة ، وتحريفات هؤلاء العامة للقصائد المشهورة .

---

١٨) *William of Poitiers* « ١٠٢٠—١٠٩٠ » مؤرخ وكاتب رومانسي ، كان كاهناً لوليم الفاتح . ذكر المؤرخ (فيتالس) في كتابه « التاريخ الكنسي » انه كان ينظم شعراً عجيباً لم يتقدمه فيه أحـــد . (المعرب)

١٩) انظر « ريبرا » : الكتاب المار ذكره ج١ ص ٣٠ — ٩٢ . (المؤلف).

يبدو من هذا العرض المختصر للشواهد ـ أن نظرية انتقال بعض المؤثرات من شعر البلاط الاندلسي وشعر البروفنس ، لا يمكن نبذها واطراحهـا بكل بساطة نظراً إلى عدد وطبيعة الاشياء التي تربط ما بينها . وما زالت هناك عدة نقاط تحتاج إلى جلاء كما أن هنالك اسئلة اخرى (بخصوص المُراسلـة الموسيقية) في تلاوة الشعر الاندلسي والبروفنسي [٢٠] مثلا قد تلقي ضوءاً باهراً على المسألة . أما الآن فثم مـا يبرر الادعاء القائل ان الشعر العربي له الفضل إلى حد مـا في قيام الشعر الجديد باوروبا وان كنا لا نستطيع السير طول الطريق مع البروفسر ماكيال Prof.Mackial الذي يقول مؤكداً « كانت اوروبا مدينة بدينها إلى اليهودية ، وكذلك هي مدينة بادبها الروائي إلى بلاد العرب »[٢١] .

---

٢٠) انظر ريبرا « تاريخ الموسيقى العربية في القرون الوسيطة *Historia de la musica àrabe midieval* ١٩٢٧. وهنري جورج فارمر في (حقائق تاريخية عن التأثير الموسيقي العربي) في ١٩٣٠ . ونشير ايضاً في هذا الاستطراد البسيط للهامش بأن المصطلحات الفنيـة للشعر الرومانسي يمكن درسهـا ثانية على هذا الضوء . وقد اظهر فوريــه (ج٣ ص ٣٢٦) الاصل العربي للفظة (*galaubia*) وذكر (سنكر) في *Senhal* كلمتي *midons* و *guardador* (بالعربية = رقيب) . وألمع هازلوك *F.W. Hasluck* إلى أن كلمة (*Stanza*) في الشعر الرومانسي ، مرادفة لكلمـة (بيت) في الشعر العربي وقد جرى استعمالها تشبهاً بالعرب ، فكلمة (تانزيو *Tanzio*) تقابل (تنازع) العربية مبنى ومعنى . وقـد أتى (ريبرا) في كتابه *Disertacione* ج ٣ ص ١٣٣ – ١٤٩ بعدد من مشتقات فارسية وعربية لعدد من الكلمات بينهـا *trobar* المشتقـة من « طرب » ، لكن حتى لو كان لهذه الكلمـة . صلة بـ *trover* ، فمن المفيد الاشارة إلى أن كلمـة « وجد » العربية ومعناها العثور على شيء تعني ايضاً « الشعور بغصص الحب ، أو البث » (المؤلف) .

٢١) « محاضرات في الشعر *Lectures on Poetry* » ١٩١١ ، ص ٩٧ . قارنهـا بما جاء في ص ١٢٥ : « ... وإلى الشعوب العربيـة الساكنة في النجد العربي السوري الذي تدخل فيه (المنطقة الفلسطينية والشعب الفلسطيني القح) ندين باكبر قسم ، او بالدرجة الرئيسة من تلك القوى الناشطة التي جعلت القرون الوسطى الأوروبيـة مختلفة روحاً وخيالا عن العالم الذي كان يخضع لرومه ... » . (المؤلف) .

وكانت مملكة النورمان في صقلية المنطقة الثانية التي انبثقت منها وبوساطتها المؤثرات العربية إلى اوروبا حيث حوفظ على تقاليد هذه المملكة بصورة خاصة ايام حكم الامبراطور فردريك الثاني . والامر الذي لا يمكن دحضه أن الشعر العربي نُظم في بلاد ملوك النورمان لكن المدرسة الصقلية لم تبرز الا في عهد فردريك (الا إذا كانت الآثار التي سبقتها قد عفي عليها ولم تصلنا) وكما تم بروزها في اسبانيا على يد الفونسو الحكيم القشتالي وفي بلاطه، كذلك برزت في صقلية على عهد (فردريك)وفي بلاطه ، وإن كنا نسمع عن كثير من الترجمات للكتب العربية ، والكثير عن الفلسفة الاسلامية والكثير ايضاً عن شعراء الطروبادور، صقليين كانوا أو بروفنسيين ، فليس هناك ذكر صريح للشعراء العرب والشعر العربي . والاكيد من الناحية الاخرى ان الراقصات والمغنيات العربيات ، كُن موجودات في حاشية فردريك .

وفي الوقت الذي يسلّم المؤرخ الحذِر لتاريخ صقلية الوسيطة بأنه لو نعرف اكثر مما عرفنا عن الشعر الشعبي (العربي – الصقلي) فربما تسنى لنا أن نكشف عن وشائج اوثق بينه وبين الشعر الايطالي الغابر في صقلية ، لا يذهب هذا المؤرخ الحذر إلى ابعد من الادعاء بانه قرضهم الشعر العامي يعود إلى احتذائهم حذو الشعراء المسلمين وإلى التأييد والحماية التي كان يلقاها ذلك الشعر من الحكام المسلمين[٢٢]، ومع ذلك فالحقيقة التي لا جدال فيها ان اوزان الاشعار الشعبية الايطالية القديمة كما تتمثل في تسابيح

٢٢) م. أماري *M. Amari* : تاريخ مسلمي صقلية *Storia dei Musulmani di Sicilia* ١٨٦٨ – ٧٢، ج٣ ص ٧٣٨ و ٨٨٩ . انظر كذلك ج. جيزاريو *G. Cesareo* : أصل الشعر الغنائي والشعر الصقلي *Le Origini della lirica e la poesia - Siciliana sotto gli Suevi* ١٩٢٤ ص ١٠١ و ١٠٧ .

جاكوبوني دي تودي [٢٣] ، واغاني الكرنفال . وتتجلى بأكثر من هذا دقة في البالّلاتا ballata التي هي نسخة طبق الاصل من اوزان الشعر العامي الاندلسي [٢٤] حتى حملات بترارك [٢٥] الوطنية العنيفة على العرب [٢٦] ، فانها برهنت ، إن برهنت – على أن الشعر العربي من النوع الاكثر شعبية ، ما زال معروفاً في ايطاليا وقتذاك .

ومهما كانت الدرجة التي عينها الباحثون لتأثير الشعر العربي في اثارة روح الابداع في جو الشعر الرومانسي ، فان الدّين الذي تحمل عبئه اوروبا القرون الوسطى للشعر العربي ، لا يمكن أن يماري فيه أحد أو يجادل وان لم يتعرض اليه بحثنا بتفصيل . ان شيوع (موْظة) اقتبال الآثار العربية : فلسفية كانت أم علمية ، جلب معه اهتماماً بنواح اخرى من الآداب العربية لا سيما الحكايات الخرافية ، والمقالات الخلقية ، والقصص : وهي بمجموعها تؤلف فن الكتابة الراقي العربي (اسلوب الحكيم) . وقبل ذلك بزمن اذاع النقل الشفوي عناصر اخرى من القصص العربي والشرقي وشمل انتشاره منطقة واسعة ، ولقد ظل الناس حتى زمن قريب يسلمون بلا جدال ، بله ينادون مقرين للشرق بأصول بعض الحكايات الشعبية التي ازدهرت في اوروبا في غضون القرن الثالث عشر

---

٢٣) *Jacoponi di Todi* (١٢٤٠ – ١٣٠٦) شاعر وناظم تسابيح دينية ايطالية . ظهرت أول طبعة لاناشيده في فلورنسا ١٤٩٠ . (المعرب) .

٢٤) انظر ج. ميللاس *J. Millàs* في تأثير الشعر العربي الاسلامي الاسباني على الشعر الايطالي *Influencia de la poesia popular hispano - musulmana en la poesia italiana* في مجلة *Revista de Archivos* ١٩٢٠ و ١٩٢١ ومن الجدير بالذكر أيضاً ان (ريشارد سان جرمانو) يضمن كتاب تاريخه منظومات تاريخية على النمط العربي (المؤلف) .

٢٥) *Petrarch* ١٣٠٤–١٣٧٤ من ألمع كتاب وشعراء حركة البعث الثقافي الايطالي (المعرب)

٢٦) المرجع السابق . السنة ١٢ جزء ٢ . (المؤلف) .

باشكال مختلفة مثــل « الخرافات والامثال والقصص الخياليــة » وغير ذلك ممــا يوجد بينه وبين القصص الشرقي والهنديّ اوجه شبهٍ لا جدال فيها . ومع ان الابحاث المضنية التي قام بها الاستاذ (بيديه) قد اضعفت إلى حد بعيد وجهات النظر المؤيـدة لهذا الرأي [٢٧] . فمــا يزال ثم جوانب كثيرة من الادب الشعبي تحوي على الاقــل مشاهــد واستطرادات مأخوذة مــن القصص الشرقي . ووجدت مشابهة شديدة بين القصص العربية وبين قصة (ايسولدي بلانشمان) وهي (رولاندسلايد) الالمانيـة [٢٨] وغيرها من القصص المنتشرة في شمال اوروبا . حتى أن كاتب احد تراجم قصة « البحث عن الكأس الاقدس [٢٩] » ذكر كاتباً عربياً كمصدر له . ان الاستيحاء العربي ، يتجلى اكثر شيء في القصة الفرنسية القديمة « فلور والزهرة البيضاء [٣٠] floire et blanchfleur وذلك لارتباطهــا بقصة « اوقاسين ونيقوليت » الشيقة وهذه القصة نفسهــا تقوم شاهداً لا يدحض على اصلهــا العربي — الاسباني ، بدليـل الاسم العربي المحرف لبطاهــا (اوقاسين : القاسم) وفي عدة تفاصيل من حوادثهــا [٣١] .

٢٧) انظر *J. Bedier* : الحكايات *Les Fabliaux* الطبعة (٥) ١٩٢٥ . (المؤلف)

٢٨) *Rolandslied* أو *Isolde Blanchemain* : هي اسطورة غرام تراجيدية كلتية ، بين ايسولدي (الايرلندية ذات اليد البيضاء) ، وتريستان (تريسيترام) وهو ابن اخت الملك مرقس زوج ايسولدي . نشأ ذلك الحب في بلاط (كورنوول) بتأثير مسحوق عجيب الأثر تناولته ايسولــدي . (المعرب)

٢٩) *Grail Saga* : وهي حكاية البحث عن الاناء الذي شرب به المسيح في عشائه الاخير والذي استقبــل به (يوسف الرامي) دمه اثناء ما كان مصلوباً . (المعرب)

٣٠) من قصص الملاحم الفرنسية ، تعود إلى القرن الثالث عشر . (المعرب)

٣١) انظر على العموم في هذا الصدد : مقال : لـ(س. سنكر) : الشعر العربي والاوروبي في القرون الوسطى *Arabische und europaische Poesie im Mittelalter* ، نشر في مجلة العلوم للاكاديمية البروسية في السنة ١٩١٨ . وانظر ايضاً : كتاب فقه اللغة الالمانية ، ص ٥٢–١٩٢٧ ، ص ٧٧ — ٩٢ . وعن القاسم : انظر طبعة بورديللون *F. W. Bourdillon* ، مانشستر ١٩١٩ ، ص ١٤ — ١٥ . (المؤلف) .

وقولنا : ان الخرافات الغنائية chante - fable تحفة الآداب الأوروبية هي شكل شائع من الملاحم العربية الشعبية ، قولٌ ليس فيه قطّ ما يسلب (الجونكلور) الفرنسي الفضل الذي استحقه لابتداعه هذه النادرة الأدبية التي تقوم علَماً مفرداً بجمالها وروعتها .

ان ادب الأسفار وأدب الجغرافية الحيوانية العربيين قد خلفا كذلك آثارهما في الادب الغربي . فالرحلات ، لم تعرف في اوروبا الا لغرض الحج إلى الارا ضي المقدسة . ويكاد يكون امراً مفروغاً منه ، ان انتشار عناصر الاساطير العجيبة والاخيلة الخرافية في رقع واسعة المدى قد تم بالنقل الشفوي . انها كانت بمثابة حلي وزخارف وشيت بها رحلات (ماركو بولو) ورحلات (سيرجون ماندفيل) (٣٢) ولكن حدودها لم تكن قاصرة على الدول اللاتينية الغربية فقد امتدت حتى اسكنديناڤيا وايرلندا — ربما كان ذلك عن الطريق التجارية لبحر قزوين — حتى البلطيق وعادت إلى الظهور في حكايات رهبانية : كاسطورة القديس برندان (٣٣) . جاء بها الجونكلير والتجار من الدول الصليبية التي اقيمت في سوريا وفي مرافيء شرق البحر الابيض المتوسط ، ومن المصادر الشفوية يمكننا الادعاء باحتمال كبير بأن بوكاتشو (٣٤) اقتبس الحكايات الشرقية التي ضمنها كتابه « ديكاميروني » كذلك قصة « سكواير » لشوسر ، فهي من الف ليلة العربية التي ربما نقلها إلى اوروبا التجار الايطاليون القادمون من البحر الاسود حيث ان محل القصة جُعل في بلاط خان المغول على نهر الفولغا ...

---

٣٢) *Sir John Mandville* . كتب تاريخ رحلات خرافي يظن انه منقول ، لاحتوائه على امور لا تصدق وقد طبع ١٤٩٩ . (المعرب)

٣٣) *St. Brendan* : بطل ايرلندي اسطوري يظن انه عاش في ٤٨٤م. كتب راهب بندكتي رحلته إلى ارض الميعاد بعد عبوره الاطلنطي . (المعرب) .

٣٤) *Boccacio* ١٣١٣ — ١٣٧٥ أحد اعلام الكتاب الايطاليين عرف بكتابه *Decamerone* المنسوجة حكاياته على غرار الف ليلة . (المعرب) .

في السراي بأراضي التتر [٣٥]

كان التناقل الشفوي بين الناس للقصص العربي في القرن الرابع عشر مصحوباً بترجمات عديدة لمجموعات القصص العربية التي عملت لتسلية طبقات عصرية من القراء . هذه القصص الشرقية كانت تفضل على زميلاتها قصص القرون الوسطى لا بكثرة تنوعها وتعدد الوانها وعرضها الادبي الفني وحده بل – واكثر من كل شيء – بخصوبة خيالها العربي وسمو اغراضها . وهنا التقت العصور الوسطى الاسلامية مع المسيحية في ارض واحدة هي الذوق الادبي والقواعد الادبية . الناس كانوا يقصّون الحكايات لانهم يحبونها ، وقصصهم بصورة عامة كانت تهدف إلى غايات اخلاقية . على ان القصة بوصفها فناً ادبياً – كان يحدق بها اطار خلقي من جميع جهاتها والغرض العام الذي يتوخاه الكاتب منها هو التعريف بآداب الملوك أو واجب الحياة الصالحة أو واجب الفضائل . كان يوجد في العربية الشيء الكثير من امثال هذه،بعضه امتير من مخزن الخرافات الهندية العتيقة وبعضه امتير من مصادر شرقية اخرى (من ضمنها ولا شك ما هو ذو اصول يونانية) وبعضه من النصوص التاريخية والخرافية للتاريخ الشرقي . لم يكن المؤلف أو القارىء لا في البلاد المسلمة ولا في البلاد المسيحية يبدي اهتماماً ما أو يقيم وزناً للابتداع في المادة أو لقوة الاختراع السيكولوجي . وبتركنا مسألة الاسلوب الادبي في الوقت الحاضر ، نجد أن فن المغازي يقوم دليلاً على المقدرة في الاختيار والسبك ، المقدرة في اظهار مواد مألوفة معروفة بقالب جيد السبك . وهكذا ، فان المغازي الاخلاقية العربية قدر لها أن تلعب دوراً عظيماً في آداب القرون الوسيطة الأوروبية وما تلاها – عابرة ارضاً قاصدة اخرى مختلطة بكثير من آثار ذلك الزمن المبتكرة ، أو دافعة بانتاجه إلى الامام .

---

٣٥) انظر : حكايات كانتربري ، لشوسر ١٣٤٠ – ١٤٠٠ . (المعرب)

ولنختر من شتيت هذه الآثـار التي ترجمهـا اليهود من العربيةعلى الأخص ، ثلاثة نماذج تقوم امثلة على الباقي : فهذا الكتاب العربي « كتاب السندباد » (ليس البحري) الذي استمد من الاصل السنسكريتي ، وهو الآن مفقود كالأصل نفسه — هذا الأثر هو مصدر من مصادر القرون الوسطى ، لعدد من المترجمات منهـا الترجمة السريانية (سندبان sindban) التي اشتقت منهـا سنتيباس syntipas اليونانية والتي كانت شائعة في القرون الوسطى . ومنهـا ايضاً ترجمة عبرانية باسم : سندبار sindabar وترجمـات ايرانية عديدة بعضها ترجم إلى العربية والتركية وقدر لـه الوصول إلى اوروبا في القرن الثامن عشر . وربمـا كانت (السندبار) العبرانيةُ الأصلَ في احـدى تراجم القرن الثالث عشر للكتاب الاسباني المسمى Libro de los Engannos من جانبٍ واحد، ثم لكتاب القرن الرابع عشر اللاتيني « تاريخ الحكماء السبعة » الذي كان مصدراً لعدة ملاحم شعرية من بينهـا الملحمة الانكليزية المسماة « حكماء روما السبعة » من الجانب الثاني (٣٦) .

أما النموذج الآخر فهو مجموعة من اقوال الفلاسفة الاقدمين جمعهـا بمصر في القرن الحادي عشر شخص يعرف باسم« مُبَشِّر بن فَاتِكْ » ترجمت إلى الاسبانية بعنوان « قطع الذهب » بينمـا كانت ترجمات اخرى غربية تعتمد على ترجمة لاتينية باسم « كتاب الفلسفة الاخلاقية » التي نقـل

٣٦) رواية خلاصتهـا كما وردت في حكايات كنتربري ان امرأة الامبراطور الروماني ديوكليتيان كانت تغـار من ابنـه الذي يحبه والذي وضع له سبعة حكمـاء لتعليمه . فاتهمت الابن البريء بأنه يراودهـا عن نفسهـا . فطلب الملك منه أن يدرأ عن نفسه التهمة فعجز لسحر عملتـه له امرأة ابيه عقلت به لسانه سبعة أيام . وكان الحكمـاء السبعة اثناء ذلك يبعدون فكرة قتلـه عن ابيه بقصهم الحكايات الممتعـة لمدة سبعة أيام حتى بطل عمـل السحر وانحلت عقلـة لسانه . قارنها مع القصة الاولى لالف ليلة . انظر المسعودي ج١ ص ١٦٢ : « ... ويقال ان مؤلفه طبيب هندي يسمى سندباد . وهو يحتوي على كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك ... » (المعرب) .

منها « كيوم دي تينيونفيل Guillaume de Tignonville » ترجمته المسماة (اقوال الفلاسفة المأثورة) ترجمها إلى الانكليزية « ايرل رايفرز »[٣٧] باسم « اقوال ووصايا الفلاسفة » وكان هذا اول كتاب طبعه كاكستن[٣٨] .

ظهر تأثير هذه الكتابات واشباهها في الادب الاسباني اكثر من ظهورها في الآداب الاخرى سيّما في الازمنة المتقدمة . فمثلا منه استوحى الانفانتي (الامير) دون خوان مانويـل الذي كان يعرف العربية ، كتابه الموسوم « الكونت لو كانور » . حتّى مقدمة هذا الكتاب ، فانهـا صيغت على طرز المقدمات التي اعتاد تدبيجهـا كتاب العرب وتصدير كتبهم بها ،[٣٩] والحق انه يوجد بعض قطع نثرية قديمة اسبانيـة لم تستمد اصولهـا من مترجمات عربيـة ، لكن الملحوظ في اكثر الاحيان بأن الانماط الادبية العربية لم يبـدأ انتشارها مباشرة من اسبانيا . فاوروبا القرون الوسطى كانت متمثلة هناك ، كمـا هي متمثلة في امور اخرى — على اكتاف ايطاليا وجنوب فرنسا ، ولم تدخـل مؤثرات عربية كهذه في الادبين الفرنسي والانكليزي كما دخلت الادب الاسباني الا في ازمنة متأخرة جداً .

هذه العزلة النسبية نفسهـا يمكن الاستدلال اليهـا في اثناء بحثنا النموذج الثالث الاكثر شهرة من زميليه الأولين : واعني به حكايات معشر الحيوان ذات الاصل السنسكريتي التي ترجمت إلى العربية في القرن الثامن الميلادي

---

٣٧) Rivers ١٤٤٢ — ١٤٨٣ من رجال القلم الانكليز . ترجم الكتاب المذكور عن الفرنسيـة في ١٤٧٧ وطبعـه له كاكستن . (المعرب)

٣٨) Caxton ١٤٢٢ — ١٤٩١ أول ناشر وطابع انكليزي . (المعرب)

٣٩) لا يمكن البرهنة بصورة جازمة على كل بأن (دون خوان) قد استمد من المصادر العربيـة مباشرة . انظر ك. مولدنهاور G. Moldenhauer : « اسطورة برلام ويوشافاط *Die Legende von Barlaam und Josaphat* » ، ط ١٩٢٩ ص ٩٠ — ٩٤ (المؤلف)

باسم كليلة ودمنة واعيدت ترجمتها إلى الاسبانية لالفونسو الحكيم ١٢٥٢ – ١٢٨٤ ، لكن اوروبا عرفتها فقط بترجمتها اللاتينية المسماة (مرشد الحياة الانسانية Directorium humanae vitae اتمها في هذا القرن نفسه ، (حنا الكابوي) وهو يهودي متنصر . هذه الترجمة كانت معيناً استمدت منه آثار كثيرة ككتاب « مفاخر الرومان » الذي لم يترجم إلى اللغة الشعبية الايطالية الا في السنة ١٥٥٢ ، حيث نهض بذلك (دوني Doni) . فالنجاح المستمر الذي كانت تلقاه هذه القصص الشرقية يظهر سحرها الجاذب وقوتها الاخاذة حتى في عجيج البحر الملتطم لحركة بعث الآداب الكلاسية . لم يكن كتاب « توماس نورث» [٤٠] المسمى (فلسفة دوني) والذي ظهر في السنة ١٥٧٠ ، الا اولى التراجم العديدة لهذه القصص إلى اللغة الانكليزية . ظلت التراجم اللاتينية والايطالية متداولة احقاباً متعاقبة، وآضت معيناً يستمد منه الروائيون والدراميون. (مثال ذلك «ماسنكر» [٤١] في الفصل الثالث من قصته المسماة : الوصي) وكان أن بُعث وتمّ احياؤه بعد ذلك باسم (خرافات بلباي Pilpay) في الترجمة الفرنسية للسنة ١٦٤٤ عن ترجمة فارسية متأخرة عملت من العربية اسمها (انوار سهيلي) [٤٢] امراً ينطوي على أهمية خاصة لكونها اشارة إلى اول تماس مباشر للادب الفارسي مع اوروبا الغربية وأحد مصادر حكايات لافونتين .

هناك لون آخر من الآداب العربية ، ربما كان له تأثير على آداب العصور الوسطى الا وهو أدب « المقامات » أجلُّ أنماط الادب العربي فصاحةً ووشياً .

---

٤٠) *Thomas North* ١٥٣٥ – ١٠٦١ كاتب ومترجم انكليزي . (المعرب)

٤١) *Massinger* ١٥٨٣ – ١٦٤٠ روائي ومرسحي انكليزي . وقد الف « الوصي » في السنة ١٦٣٣ . (المعرب)

٤٢) كشف الظنون ، للحاج خليفة : انظر ادة كليلة ودمنة وانظر مقالا لنا مطولا عن أصل كليلة ودمنة نشرناه بعنوان (قصة كتاب عظيم) في مجلة «الكتاب» المصرية السنة ١٩٥٢ المجلد ١٠ ديسمبر (المعرب)

وان كانت الضوابط الادبية العربية تحتم في أن يُتبع في المقامات اسلوب النثر المسجوع المقفى ذي الايقاع المنتظم المرصع بالحُوشيّ من الالفاظ والغريب من التعابير فان موضوع تلك المقطوعات كان من ابسط المواضيع فهي عدة حوادث متفرقة يقوم ببطولتها دائماً فارس مغامر ماكر ، احد شذاذ الآفاق من المشعبذين الدجالين ، يبرز بوطابه الملآن حيلا وألاعيب لا تمتّ إلى الشرف والوقار بصلة فيعتاش على ممارستها عندما يحزب الامر به . هذا الفارس وُهب في الوقت نفسه فصاحة وسرعة بديهة ادبية كثيراً ما عبرت عن اسمى المشاعر الخلقية . وتُعزى اوجه مشابهة بين هذا النمط وبين الروايات البيكارسكية (٤٣) الاسبانية ونزيد على ذلك ، أن المقامات قد وجد لها مقلدون بين اليهود والاسبان ، وقصة الفارس (كيفار) فضلاً عن كشفها اوجه شبه بالادب الشرقي ، فانها تحتوي على الاقل واحدة من مغامرات ريبالدو Ribaldo أو بيكارو الاسباني ، وهي اذن موضوع مقتبس من المجموعة الشرقية يمكن أن نقرنها — في النص العربي — بشخصية جحا (٤٤) . ومن المحتمل كذلك أن تكون اوجه الشبه موفورة بين وقائع المقامات وبين أوائل الحكايات الايطالية ذات الطابع القديم او الطابع الهزلي (البيكارسكي). على أن الموضوع نفسه ما زال بالغ الطراوة لم يتصد له احد للكشف عن معمياته .

إن دخول أنماط الادب العربي ، هذه الى اوروبا القرون الوسطى كان في الواقع يمثل مظهراً من مظاهر الحركة الثقافية العامة . كانت الحضارة اللاتينية تضيق ذرعاً بالقيود الضيقة التي تفرضها الانظمة الكنسية في العصور المظلمة ، واصبح الناس جميعاً وهم يشكون محتارين امام الامور التي ظلوا يقتبلونها

---

٤٣) هي قصص تصف مغامرات بيكارو الآفاق او المشعبذ من الكلمة الاسبانية *picaro* » وفي الانكليزية باضافة *on* = بيكارون . (المعرب)

٤٤) *Reuve Hispaniqne* مجلد ١٠ ص ٩١ السنة ١٩٠٣ . (المؤلف)

كحقائق منزهة لا تقبل الدحض ولما رأوا أنفسهم عاجزين عن إيجاد ما ينقع غلتهم وسط جدب ادبهم اللاتيني وضيقه وزيفه وسخفه ، فقد اضطروا أن ينشدوا ما يريدون في اصقاع اخرى . كانوا حتى ذلك التاريخ يعترفون ويسلمون حانقين ساخطين بتفوق الاسلام العسكري ، أما الآن فصاروا يدركون خجلين وجوب التسليم للإسلام بالتفوق الفكري . وبتدفق فيض العلم العربي الذي عقب هذا التسليم والايمان ، ولدت مجموعة من النثر الادبي الذي تسلل إلى جميع الآداب الأوروبية الاخرى المتحاملة على نفسها المتنامية ، قليلاً كان نموها أم كثيراً . وكان هذا مما مهد الطريق للانفجار الفكري المعروف (بالرينسانس) . على أن أهم يد أسداها الاسلام إلى آداب العصور الوسيطة هو أثر الثقافة العربية على الشعر والنثر معاً قبل كل شيء . سواء في ذلك أكان مصحوباً بالاستعارة المادية من المعين العربي أم كان بغيره . هذا الموضوع وإن كان يخرج عن نطاق بحثنا ، فلا بد لنا أن ننوه بعض التنويه بالرأي الذي كثر ترداده على أفواه المتدارسين الجدد ، وهو أن عناصر من علم الاحياء والكون وبعض الاساطير التي تدور حول الرسول (ص) — يرجع إلى اسطورة غابرة فارسية — قد دخلت (الكوميدي الالهية) مباشرةً أو عن طريق أساطير غربية متقدمة عليها أمثال اسطورة (مطهر القديس باتريك St. patrick purgatury)[45] واسطورة (توندال tundal). من حيث أن الآراء الفلسفية العربية ، واحوال الصوفية المسلمين وخيالاتهم قد انعكس بدون شك : ليس على آثار دانتي وحده بل على أهم الافكار التي جاء بها شعراء المدرسة الايطالية الحديثة المسماة (الاسلوب

---

٤٥) سانت باتريك ٣٨٩ — ٤٦١ قديس ومبشر مسيحي نسجت حوله عدة خوارق وقصص وأساطير . (المعرب)

الرشيق الجديـــد[٤٦] dolce stil nuovo) إن الاهتمـام الذي كان يرافق الدراسات العربية ايام (دانتي) ايطاليا يجعل نظريتنا هذه التي قدمناها غير بعيـدة عن الواقع ، في الوقت الذي لا يمكننا القول بثبوتها قطعاً عدا النقاط الفرعية منهـــا . لكن النظرية جذابة ، وإن لم تكن ، فلسبب واحد على الاقل : وهو أن عبقرية (دانتي) قد تعلو في نظرنا إلى السماكين لو استطعنا اثبات دمجه — في مجموعة واحدة — التراث العظيم للمسيحية والصوفية الكلاسيـة فضلاً عن اغنى واخصب مظاهر الروحانيـة في الديانة الاسلاميـة . وقبـل أن نترك القرون الوسطى ، علينـــا أن نكر راجعين إلى اسبانيا ، فنقف لحظـة واحدة لنتناول بالبحث نقطـة كنا قد تصدينا لهـــا ، اعني التأثير المستمر للتراث الشعري العربي ، والثقافة العربية في الاندلس بُعيد الفتح المسيحي لاغلب رقعـة اسبانية . هذا التأثير ، وإن كان لا يخضع ابداً للحكـم المطلق الجازم — نستطيع أن نـدل عليه في الادب الاسباني ومن اسبانيا إلى الآداب الأوروبيـة الأخرى ، قليلون هم الذين ينكرون ان الحياة والنشاط وسعـة الخيال التي تطبـع الآداب الجنوبيـة ، يعود إلى الوسط الثقافي العربي في الاندلس خلال العصور المتقدمة وإلى الانطباع الذي خلفتـه تلك الحضارة في الشخص الاندلسي . صحيـح طبعـــاً أن الاندلسيين خلال الفترة الواقعـة بين فتـح اشبيليـة وسقوط غرناطة ، كانوا يقتدون على آثار اخوانهم في الدين من أهل قشتالة في امور اللغـة وفي العادات والاساليب الادبيـة ، لكن عندما ارتفعت اسباب الشنآن الرئيسية من بينهـم بضعف دولة المغاربة في اوروبا وسقوطها ،

---

٤٦) في هذه النقطة الاخيرة انظر كتاب « الطروبادور» بقلم شايتور *H. J. Chaytor* السنة ١٩١٢ ص ١٠٦ (المؤلف) تميز القرن الرابع عشر في ايطاليا باتخاذ اللغـــة الايطالية المتداولة على ألسنة العامة من قبل الشعراء والكتاب ، اسلوباً للكتابة الادبيـــة العاليـــة بدل اللاتينية التي لم تعرفهـــا غير الخاصة ، فسميت بهذا الاسم . (المعرب) .

وحلت بين المسيحيين والمغاربة الصداقة والعلاقات الاخوية محـل العداوة ؛ حصلت ثورة ادبية عظيمة ، ويبدو كأن اهالي الاندلس أخذوا يتبينون نقصاً ما في الأسلوب القشتالي البارد الجهم الخشن مـا زال يلمس من انفسهم وتراً حساساً فكّروا راجعين إلى الماضي المغربي باحثين عنه .

ربمـا يكمن تعقيب تأثير الروح الاندلسية في التهذيب والصقل الذي يميز قصة « أمادس دي كولا » (٤٧) عن غيرهـا من القصص ليظهر باجلى مظاهره في قصص الموريسكيين (العرب) ويبلغ ذروتـه في تاريخ بـن السراج (قبل السنة ١٥٥٠) ومكملتهـا « الحرب الاهلية » لمؤلفهـا جينز بيريث الهيتي Ginés Pérez of Hita . وسواءٌ أإعتمدت هـذه القصص عـلى بعض أسس عربية أم لا ، فليس هـذا بالمهم . والحقيقة انهـا كانت قد شكلت مجموعـة من الثقافة العربيـة ــ الاسبانية الـتي قـدر لهـا أن تصير نقطة تحول في تاريخ الادب الاوروبي الحديث ، كانت ايذاناً بيوم ميلاد الرواية الحديثة novel . إلى هذا المدى كانت قصة دون كيخوتي (لسرفانتس) التي يقول عنهـا (برسكوت (٤٨)) انهـا اندلسية قلباً وقالباً باناقتها وحبكتهـا ، تدين بالكثير للثقافـة الاندلسية وإن لم تكن تدين بطبيعة الحال اليها عن طريق ــ سيد حامد بن انقالي Cid Hamete Benengeli المؤرخ العربي والجغرافي . إن هذا الحكم ذاتـه يمكن أن يسري على أسمـاء اخرى لا تقـل شأناً ومكانة عن اسم « سرفانتس » في ميدان الادب الاسباني .

* * *

ان حركة النهضة الايطالية ، دفعت بالشرق إلى الخلف . واقامت سداً

---

٤٧) اسم بطل لقصة مشهورة من أقاصيص القرون الوسطى ، وصلتنا منها النسخة القشتالية التي تعود إلى السنة ١٥٠٨ م . (المعرب)

٤٨) Prescott ١٧٩٦ – ١٨٥٩ مؤرخ امريكي اختص بدراسة التاريخ الاسباني (المعرب)

يحول دون طغيان النفوذ الشرقي ، لكن النزعة الكلاسية لم يكتب لها الدوام ، فقد أخذت الروح الرومانسية الأوروبية ، الروح التي استظهرت في قصص البريطون [٤٩] والقصائد الشعبية التيوتونية وفي الدراما الانكليزية تنشد لها متنفساً بعد أن صكها الضغط وضاق الخناق عليها . وأخذت كل المبتدعات من قصص البطولة وحكايات الرعاة الخيالية والقصص البيكارسكية بالأفول واحدة بعد الاخرى . وهدم بيرول [٥٠] مرجعاً قوياً لكن لم تستطع قصصه الشعبية هذه أن تتحمل ثقل الهجوم . ثم في السنة ١٧٠٤ ظهرت ترجمة غالاند [٥١] لالف ليلة وليلة . وابانت الابحاث الاخيرة ان هذه الترجمة لم تكن حدثاً منعزلا بل منتهى حركة طويلة الامد للتصوير الفني ، غذته القصص الموريسكية وبداية الرحلات إلى المشرق واستعماره ، كوصف تافرنييه [٥٢] وشاردان [٥٣] وبيرنييه [٥٤] وغيرهم للحياتين الهندية والفارسية . والخيال المحلي الفاتن الذي خلفته سفارات متعددة شرقية كانت تأتي مدينة باريس فتبهرها وتفتنها بعظمتها

٤٩) سكان مقاطعة بريتاني الواقعة شمال غرب فرنسا . (المعرب)

٥٠) *Perrault* ١٥٢٨ — ١٧٠٣ كاتب فرنسي معروف بكتابه « تاريخ ما غبر ، او الحكايات الخرافية » . (المعرب)

٥١) *Galland* ١٦٤٦ — ١٧١٥ آثاري ومستشرق فرنسي وأستاذ العربية بكلية فرنسا عرف بترجمته لألف ليلة وليلة . (المعرب)

٥٢) *Tavernier* جان باتيست ١٦٠٥ — ١٦٨٩ رحالة فرنسي رحل ثلاث رحلات إلى بلاد الشرق . ترجم الجزء الخاص برحلة العراق الاستاذان كوركيس عواد وبشير فرنسيس وعلقا عليه . (المعرب)

٥٣) *Chardin* ١٦٤٣ — ١٧٤٣ رحالة فرنسي عاش في انكلترا . (المعرب)

٥٤) *Bernier* ت : ١٦٨٥ رحالة فرنسي ترجمت رحلاته إلى الشرق الاقصى والادنى إلى لغات عدة . (المعرب) .

وروعتها[٥٥]. كانت كلها (في الواقع) سطحية جداً وضحلة على انها بَنَتْ خلال هاتيك السنين في الواقع تلكم الصورة الرومانتية بلونها الحار العاطفي وغرابتها وغموضها وما زالت هذه الصورة تستغل عندنا حتى يومنا هذا . كان نجاح كتاب الف ليلة وليلة الشرقي الفريد نجاحاً سريعاً ساحقاً . فالتهبت اخيلة جمهرة القارئين ، وتزاحم الناشرون بالمناكب يريدون الاستباق إلى سد هذا النهم الجديد ، وتبعت الف ليلة ، قصص فارسية اسمها (الف يوم ويوم) وعاد إلى الحياة مرة أخرى الكتاب القديم (السندباد) باسم (الحكايات التركية) . وعندما اخذ المعين الذي تستمد منه هذه المواد الخام ينضب ، نشط الكتاب الشغولون إلى العمل لسد هذا النقص فاشتغل (كوليت) [٥٦] حياة جيل بشريّ كامل بنسج وتآليف مترجمات زائفة . وابتدعت عبقرية (مونتسكيه) شكلاً جديداً من النقد الاجتماعي في كتابه (رسائل فلسفية) [٥٧] .

وفي انكلترا لم تكن الفتنة بأقل فوراناً وصخباً ، فقد ترجمت الف ليلة العربية . والحكايات الفارسية والقصص التركية حالما ظهرت في اوروبا وتوالت

---

٥٥) انظر *Pierre Martino* : « الشرق في الادب الفرنسي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر *«L'Orient dans la littérature au XVIIe et au XVIIIe siècles* ط ١٩٠٦ . انظر ايضاً م. ب. كونانت *Conant* « القصة الشرقية في انكلترا *The Oriental Tale in England* » ط. نيويورك ١٩٠٨ . وعن القصص الموريسيكية انظر : أ. جابلين *haplyn)* : القصة الموريسكية في فرنسا *Le Roman Mauresque en France* ط. ١٩٢٨ . (المؤلف)

٥٦) *Geultelte* : كاتب فرنسي من كتاب القرن الثامن عشر . (المعرب)

٥٧) قصة في رسائل نشرها مونتسكيه ١٧٢١ ، وهي خطابات لنبيلين وهميين فارسيين « اوزبك ورياكه » سافرا خلال اوروبا واستقرا بباريس واخذا يرسلان إلى أصدقائهما في فارس رسائل يضمنانها انتقاداً للمجتمع الفرنسي المتفسخ آنذاك . (المعرب)

طبعاتهـا واحدة بعد الاخرى ، وتعلم مـا لا يحصى من المقلدين (مثـل كوليت) كيف « ... يقلبون قصة لاتينيـة بنصف جنيه ... » لقـد انعكس شرق عجيب للغاية في الادب الشرقي الذي عرفه القرن الثامن عشر ، شرق اعادت الاخيلة الرومانتيـة السائـدة انذاك صقله وصياغتـه وفقـاً لمُثلهـا ، وحشدت فيه شخصيات غريبة الشكل مكسوة طيالس الخلفاء والقضاة ومعشر الجن . ولكن عبثاً ضخمـاً كهذا لم يكن بالطاقة احتماله طويلاً وسرعان مـا أخذت هذه القصص الشرقية الزائفة تتهاوى تحت ضربات سوط (هاملتون)[٥٨] (وبوب)[٥٩] (وغولد سمث)[٦٠] لم تتهاو الا بعد أن خلفت طابعهـا في الادب . ففي انكلترا امتزجت بمـا لفّ لفهـا وجاورها وهو اسلوب التوراة ، فخرج لنا من ذلك ، (رؤيـا ميرزا) الشرارة التي الهبت أول مـا الهبت – خيال (روبرت برنز)[٦١] ثم (راسيلاس) [٦٢] وفي فرنسا عادت هذه القصص إلى الاسلوب الشرقي القديم بعجيب الصدف ، فأمدت (فولتير) وغيره من المصلحين برموز أودعوا فيها نقدهم الساخر الاجتماعي والسياسي ، واخرجت انكلـترا وفرنسا معـاً كتاباً شهيراً مفرداً كان من منتوج امتزاج القصص القوطي بالموضوعات الشرقية واخيلتها . وإن خلف كتاب أثراً وشكلاً على المنتوج الفكري لنصف القرن الذي تلاه ، فهو كتاب « الواثق Vathek » لبكفورد[٦٣] ، والأهمّ من كلّ هذا تأثيرات

---

٥٨) *Hamilton* ١٦٤٦ – ١٧٢٠ كاتب انكليزي المولد فرنسي الثقافة . (المعرب)

٥٩) *Pope* ١٦٨٨ – ١٧٤٤ شاعر وناقد انكليزي معروف . (المعرب)

٦٠) *Goldsmith* ١٧٢٨ – ١٧٧٤ قصصي وشاعر ودرامي انكليزي . (المعرب)

٦١) *Robert Burns* ١٧٥٩ – ١٧٩٦ أعظم الشعراء الغنائيين الاسكتلنديين . (المعرب)

٦٢) *Raselas* قصة كتبها بالفرنسية صموئيل جونسون ، وتدور حول امير حبشي (المعرب)

٦٣) *Beckford* ١٧٥٩ – ١٨٤٤ كاتب انكليزي شرقي المنحى عرف بقصته « تاريخ الخليفـة الواثق » ، كتبهـا بالفرنسية ١٧٨٥ وهي تدور حول خادم شرقي توصل بدهائـه وحيلـه إلى الخلافة بعد مغامرات عجيبـة . (المعرب)

تلك القصص غير المباشر ونصيبها الوافر في إعداد ذوق الجمهور إلى الانقلاب اللاكلاسي ـ الوسيطي الذي عرف (بالحركة الرومانتية) لكن يلزمنا أكثر من هذا لنوضح الاسباب التي جعلت (الف ليلة وليلة) تلقى مثل هذا النجاح . وربما وجدنا السبب في الأزمة التي كانت تجتازها الآداب الفرنسية والانكليزية آنذاك نظراً لاتساع طبقات القراء وازدياد الطلب على ثمار آداب ذات طابع اكثر شعبية . وعلى الاقل ، فالنزعة إلى الادب الكلاسي في انكلترا لم تكن مطلقاً ذات صبغة شعبية . وإن القصص الثقيلة البطيئة الحركة الرتيبة التي تمخض بها القرن السابع عشر لم تكتب لعامة الشعب . لقد كان العصر عصر تجارب ، تلمّس فيه الكتاب امثال « ده فو [٦٤] وستيل [٦٥] وادسون[٦٦] » سبيلهم للوصول إلى اسلوب كتابة جديد . ان الف ليلة وهي منتوج شعبي في جوهره ، قد تنقصها عناصر البلاغة والفصاحة والصقل التي يتسم بها فن الادب ، لكنها غنية كلّ الغنى بميزة واحدة لم يكن ادباء ذلك الحين يعيرونها اهتماماً . ميزة واحدة قيمتها لا تثمن بالنسبة إلى الادب الشعبي وهي روح المغامرة . فليس من قبيل المبالغة والتهويل قولنا إنها كانت مرشداً وهادياً للكتاب الشعبيين ما فتئوا يطمحون اليه ، ولولا الف ليلة ما كان روبنسن كروزو [٦٧] ولا كانت ـ ربما ـ رحلات غوليفر [٦٨] .

---

٦٤) *De Foe* ١٦٥٩ ـ ١٧٣١ كاتب انكليزي عرف بقصته روبنسن كروزو . (المعرب)

٦٥) *Steele* ١٦٧٢ ـ ٧٢٩ كاتب ارلندي وصحافي . (المعرب)

٦٦) *Addison* ١٦٧٢ ـ ١٧١٩ منشىء وشاعر واديب، مؤسس صحيفتي السبكتيتر والكارديان . (المعرب)

٦٧) اشير إلى أن اصولاً لروبنسن كروزو قد توجد في قصة « حي بن يقظان » الفلسفية لابن طفيل التي ترجمها إلى اللاتينية بوكوك *Pocock* ١٦٧١ باسم « الفيلسوف الذي علم نفسه *Philosophus Autodidactus* » وعنها نقل (اوكلي *Ockly*) الترجمة الانكليزية ١٧٠٨ . ولقد اشبع الموضوع الآن تحقيقاً الاستاذ باستور *A. R. Pastor* انظر كتابه : (فكرة روبنسن كروزو ـ القسم الاول ط . وتفورد ١٩٣٠) . (المؤلف).

٦٨) رحلات خرافية انتقادية كتبها الروائي الانكليزي جوناثان سويفت في ١٧٢٦(المعرب)

إن مــا وصل اليـه (الولع) بالقصص الشرقيـة من شأوٍ في القرن الثامن عشر . والتأثير الذي خلفته ، كانت أموراً غضّ الطرْفَ عنهـا مؤرخو آدابنـا متقصدين متعمدين على العموم . ويمكن أن نلقى تفسيراً لهذا التجاهل ولا شك ، في رخص القيمـة النوعية الادبية للتقليد المباشـر في كــل من فرنسا وانكلترا . هذه الحقيقة حملت (برونتيير)على القـول منتقداً : « إن الاتصال بالشرق الاسلامي لم يُغذِّ الا فرعاً واحداً من فروع الكتابة ، ولذلك كان وصمـة عــار وطنية » لكن كان ثم دلائل اخرى على عمـق الانطباع الذي خلفته القصة الشرقيـة في عقلية ذلك العصر . وبدا (لوارتون)[٦٩] أثناء ما كان يكتب تاريخ الشعر الانكليزي في العقـد السابع من القرن الثامن عشر ، بأنّ الحركة الرومانتيـة في القرون الوسطى كانت بدون شك من المنتوج العربي الاصيـل قلبـاً وقالباً ، ومهما كان في نظرية (وارتون) من مبالغة ؛ فوجود مثــل هذا الرأي وقبوله يلقي نوراً باهراً على الافكار التي كان قد تشرب بهـا العصر . هذا الرأي يمكن استقراؤه في أمر اختيار(ساوثي)[٧٠] قصائده القصصية من موضوعات قد تبدو للناقد العصري بعيدة المفهوم وغير شعبية أمثال « ثعلبة thalaba ولعنة كهامة the curse of kehama لكن هــذه القصص لم تكن لجيــل رُبي على قراءة (المغربي الساحر) وغيرهـا من القصص الشرقي ؛ بعيـدة عن ذهنيتـه غريبة على مفاهيمـه اكثر من بعد (علاء الدين) و (علي بابا) عن رجال ونساء القرن العشرين . بقيت (الف ليلة وليلة) بصورة خاصة . فلقد كان فيهـا عنصر لا سبيـل للخيال إلا الانجذاب اليــه ولم تكن اهميتها الوانها الجذابة الحافلة وقوالب مغامراتها وحوادثها فحسب — هذا العنصر الاخير الذي بنى ثروات مقلديها — إذ مهما بلغ شأو مظاهر السحر

---

٦٩) *Warton* ١٧٢٨ — ١٧٩٠ شاعر انكليزي واستاذ بجامعة اكسفورد . (المعرب)
٧٠) *Southey* ١٧٧٤ — ١٨٤٣ شاعر ومؤرخ انكليزي . (المعرب)

فيها وكثرت اسرارها ومعمياتها ؛ فانها تستند على اساس متين صلد من الواقعية ؛ وإذا كان شخوصهـــا بسيطي التركيب ذوي صور واحدة فمغامراتهـــا مغامرات حقيقيـة مسرودة بهوى غريزي وميـل فطري إلى النزعـــة الدرامية ؛ فتحت سطحها الخيالي وطلاوة مغامراتها يكمن جوهر اخلاقي لولاه ما نفـذت بهذه الدرجـــة من العمـق إلى قلب اوروبا كلا ولا بقيت محتفظة طوال قرنين من الزمن بمكانة سامية في عواطف المثقفين والبسطاء معـــاً . لقد صارت صورة الشرق الحقيقي اكثر وضوحاً ودقـة ؛ وآض نفوذه اقوى أثراً حين كتب له التحرر من الآراء المتطرفة المعرقلة التي جعلته مبهماً مُغْلقاً على الافهام حتى تلك الساعة .

ويجب ألاّ يَعْزُب عن البال أن أوروبا لمـــا تزل حتى ذلك الوقت في جهل عميق بالادب والفكر الشرقيين . لكن قلبت صفحـــة جديدة في السنة ١٧٧٥ عندما نشر (وليم جونز)[٧١] كتابه اللاتيني الموسوم بـ « تعقيبات على الشعر الاسيوي » لا بوصفـه مترجمـــاً بل شاعراً ، لا بوصفه فقيهـــاً لغوياً ، بل رجلاً مذواقـــاً (على حـــد قوله) وللمرة الأولى فتح البـــاب للمثقفين ولدوائـر المشتغلين بالادب الكلاسي في أوروبا الغربية ليتفهموا ويقدروا مزايـــا الشعر العربي والفارسي . لكن الادبين الفرنسي والانكليزي كانا ينوءان بعبء التقاليـد الثقيلـــة ويئنان تحت وطأتها وهكذا أخليت الحلبـــة لقادة الحركة الألمانية الجديدة كيمـــا يظهروا امكاناتهم . فاذا هم يفصحون عن ذوق الجمهور بأصدق البيـان ؛ وإذا هم مبدعون لا خدام تابعون . وفضلاً عن ذلك ، فإن الشعر الفارسي كان قد سبق إلى ترك آثاره في الادب الالماني . فقبـــل أكثر من قرن ؛ قام الرحالة والباحث « اوليايوس Olearius »

---

(٧١) *William Jones* ١٧٤٦ – ١٧٩٤ مستشرق انكليزي ترجم قصائد« المعلقات » إلى الانكليزيـــة : (المعرب)

بترجمة كتابيْ (سعدي) الموسومين« كولِستان وبِستان » فأنعشا الادب الالماني وأمداه بدواء صحي مهيج في حينه [٧٢] . ويلاحظ تأثير الادب الفارسي المستمر مثلاً في قصة « يوسف وزليخا » التي اقتبسها « كرملسهاوزن » [٧٣] وضمنها قصته « يوسف Yoseph » . ونجد من الجهة الاخرى انه لم يكن لأدب القرن الثامن عشر منجى من أن يعكس «الاستشراق » الفرنسي . فقد اقتفى (لسنغ) [٧٤] إثر (فولتير) في اكساء كتبه الخُلُقية قالباً شرقياً . كذلك يوجد آثار اخرى قديمة من آثار المدرسة الرومانتية ، كقصة (علي ووردة الهند Ali und Gulhyndi) لمؤلفها (اولينشلاكر) الدانمركي[٧٥] فهي مثال حي لقصص القرن الثامن عشر الخيالية . وفي الوقت نفسه نرى في مسرحية الفها بعدها في (١٨٠٨) باسم « علاء الدين » — مع انها خليط من الف ليلة وقصص الجنيات والعفاريت والحِكَم الهندية — اشارة واضحة منه إلى فهم حقيقي للشرق . هذا الفهم أدى حتماً إلى دفع تلك الخرافات البعيدة عن تمثيل روح الشرق نحو عالم الاطفال ؛ فكانت لهم قصصاً .

ان (المانيا) مدينة بهذا الفهم الحقيقي إلى رهط من مشاهير الشعراء المستنيرين ؛ واصلوا العمل الذي بدأه السر (وليم جونز). فكان (لهردر)[٧٦] أثره في ازدياد الميل إلى مدارسة الادب والفكر الشرقيين وتتبعه (كان ذلك طابعاً

---

٧٢) انظر : موسوعة « الاعلام الالمانية *Allgemeine deutche Biographie* مجلد ٢٤ ص ٢٧٥ . توفي اوليياريوس في السنة ١٦٧١ (المؤلف) .

٧٣) *Grimmelshausen* ١٦٢٥ — ١٦٧٦ روائي وكاتب الماني . (المعرب)

٧٤) *Lessing* ١٧٢٩ — ١٧٨١ ناقد ومنشيء وروائي الماني . (المعرب)

٧٥) *Oehlenchlager* ١٧٧٩ — ١٨٨٥ احد كبار الروائيين والشعراء الدانمركيين .(المعرب)

٧٦) *Herder* ١٧٤٤ — ١٨٠٣ ناقد وشاعر بروسي . (المعرب)

ظاهراً يسم الحركة الرومانتيـــة في المانيا) . وكان شليغــل [٧٧] وهامرّ [٧٨] من رجال الرعيل الاول ، ويأتي بعدهما روّكيرت[٧٩]. فهؤلاء كشفوا للشعراء والكتاب الغرب عن كنوز جديدة غير منتظرة تقريبــاً . وهكذا استطاع أدب الشرق ، هنديــاً كان أم عربيــاً أم فارسياً ، الدخول إلى ادب القرن التاسع عشر الالماني بدرجة لم يكن يدانيه أدب آخر منذ الادب الاسباني في القرون الوسطى . وكان أول وأينع زهرة في « الكولستان » الغربية ، هو ديوان (غوتيه) الموسوم، « بالديوان الشرقي — الغربي Westöstliche Divan »

أما خلفاؤه الذين تدارسوا وترجموا لأنفسهم نماذجهم الشرقية التي ساروا عليها ، فقد أوغلوا واشتطوا وتمادوا . انهم مثــل (روكّيرت) قلدوا الافكار والصور الفارسية بــل قدموها للقراء ، هذا إن لم يندفعوا إلى ابعد من ذلك مثــل (بلاتن) — الذي راح إلى حــد استعمــال اوزان الشعر الفارسية . أمــا (غوتيه) من الجهة الاخرى ، فقد وجد في الشعر الشرقي — قبــل أن يجد في غيره — وسيلة للفرار والتخفي من واقع حياة ذلك العصر القاسي في عالم الخيــال . (غوتيه) هذا ، لم يكن يرضيــه أو يسد حاجته مجرد المحاكاة ، فعمد إلى ربط المثــل العليا للشعر الفارسي بالعناصر الوسيطة والرومانتيــة بانسجام واتساق تــام ، وبذلك خلق منحى جديداً للتعبير عن فكراته الخاصة . وفي الوقت نفسه لبيان وتوضيــح فكرته العالمية التي عمل على أن يجعلهــا طابع الادب الالماني [٨٠] .

---

٧٧) *Schlagel* ١٧٦٧ — ١٨٤٥ مستشرق الماني . (المعرب)

٧٨) *Hammer* ١٧٧٤ — ١٨٥٦ من اعظم المستشرقين الالمان . (المعرب)

٧٩) *Ruckert* ١٧٨٨ — ١٨٦٦ مستشرق وشاعر الماني استاذ العربيــة والفارسيــة والسنكريتية في ارلانكن وبرلين . (المعرب)

٨٠) في موضوع العنصر الشرقي في الحركة الرومانتيــة : انظر المجلد الاول رقم ٤ — ط . نيويورك ١٩٠١ .« ابحاث جرمانية — جامعة كولومبيا » بقلم ريمي: *A. J. F. Remy* (المؤلف)

بقيت الاساليب الفارسية والهندية سيدة الميدان حيناً من الزمن حتى مجيء (هاينه) [٨١] الذي لم يقتصد في صب هجائه ونقده لها . مع ذلك ما استطاع أن يبقي اشعاره في نجوة تامة عن المنحى الشرقي . لكن هذه الاساليب فشلت إذ كان مقدراً لها الفشل حتماً . كانت نباتاً من انبتة المناطق الحارة لا يستطيع ان يقيم جذوره أو يخرج شطئه في تربة اوروبا دون أن يُفسد نموُه جذورَ الانبتة الاخرى . هناك مقدار كبير من الحقيقة في وجهة النظر القائلة بأن الشاعر كلما قلّ تأثره بالافكار الشرقية كلما قلت قيمة عمله من الناحية الادبية . ولقد رفضت عبقرية (غوتيه) من تلقاء نفسها جميع عناصر « شعر حافظ » التي لم تنسجم واياها . حتى أن ديوانه(الشرقي الغربي)هذا ، يأتي بالدرجة الثانية من بين خير مؤلفاته . ولم يستطع أن يلهب خيال الجمهور غير « بونشتد » [٨٢] بروايته المقلّدة (حلم ميرزا شافعي) وعلى كل حال فسواء في ذلك أكُنّا عاجزين عن اعطاء الشعر الشرقي مكانة رفيعة في الحركة الرومانتية الالمانية بمقياس واسع جداً بوصفه ادباً ، (وإن لم يمكننا أن نقلده فضل تحقيق مزج شعر الشرقي بالشعر الأوروبي الحديث) فانه والحق يقال — أسدى الايادي الثمينة للتراث العام الذي اقتبلته اوروبا عن طريق التراجم والمحاكاة ، وفتح باباً لم يكن مقدراً له أن يوصد مطلقاً .

ان ايغال المؤثرات الشرقية جزئياً في جسم الادب الالماني ربما أثار (وقد اثار فعلاً) [٨٣] الآمال في حركة شرقية الأتجاه بمقياس جد واسع .

---

٨١) *Heine* ١٧٩٧ — ١٨٥١ من اعظم الشعراء الغنائيين الالمان (المعرب)

٨٢) *Bodenstedt* : ١٨١٩ — ١٨٩٢ شاعر الماني ترجم عن الفارسية . (المعرب)

٨٣) قارن العبارة التي نقلها (برونيتير *Brunetiére*) عن (شوبنهاور) من كتابه (دراسات) مجلد ٩ ص ٢١١ : « لم يكن القرن التاسع عشر بأقل معرفة يوماً واحداً بالعالم القديم الشرقي ، من القرن السادس عشر في كشفه وازاحته الستار عن دقائق الآثار اليونانية والرومانية » (المؤلف)

لكن هذه الآمال أُحبطت وخابت بقيام الأدبين الانكليزي والفرنسي في القرن التاسع عشر ، ولا ندري أكان ابتعاد الفكر العربي فجأة عن الشرق أكثر مما سبق له ، إن كان خيراً له أم شراً ؟ فقد انصرف الغرب عنه بفلسفاته الجديدة وآرائه السياسية الجديدة ومخترعاته الجديدة وتقدمه الصناعي الجبار . ولم يعد مزاجه يسمح له بالاصغاء إلى الشرق لم يعد يصبر كما كان سابقاً — على قتل الوقت في تفهم افكار ذلك العالم . وسحقت عجلةُ الوطنية والقومية فِكْرةَ الادب العالمي الذي كان يبشر بوجوده « غوتيه » وقضى عليه القضاء المبرم الذي لا قائمة بعده حتى في المانيا نفسها . ومع هذا ، فالمكانة التي احتلها الشرق (والاسلامي منه خاصة) في أدب القرن التاسع عشر وقرننا هذا ، لهي مكانة لا نستطيع التقليل من شأنها أو نكرانها . ويبدو من قبيل التناقض أن يُتناسى تأثير الادب الشرقي تناسياً تاماً ويهمل بالمرة في عصر اصبح الشرق مربوطاً أكثر من أي وقت مضى بالغرب ، وعندما كان الشرق يمارس هيمنةً وقوةَ جذبٍ على خيال الغربيين لا تدانيها قوة . ان قسماً من تفسير ذلك يمكن نشدانه في الفروق النوعية بين الحركة الرومانتية في فرنسا وانكلترا والحركة التي تزعمها (هردر) .

في فرنسا كانت الحركة الرومانتية اقل غزارة وخصباً ، وأقل تحالفاً مع البحث العلمي منها في المانيا . وهي في انكلترا أكثر اندفاعاً بتأثير (سكوت وبايرن) مما كانت تحت تأثير (غوتيه وشللر) ومع ذلك لم تبد الا اثاراً معتمة لحركة الاستشراق الجديد .

ان الدواعي السياسية والمسحة الخاصة في الادب الفرنسي (في وصفنا له « بالاقليمية » تَنَطُّعٌ وقسوة لا يتحملهما) جعل الشعراء والكتاب الفرنسيين يركزون منتوجهم القلمي في أمور محلية قريبة من مواطنهم . ولا يعني ذلك أن الشرق قد اصابه الاهمال وعُفيَ عنه . بالعكس ، فقد كتب (هوغو) في

« المشرقيات Les Orientales » يقول : في عصر لويس الرابع عشر كان العالم كله هلينياً (اغريقي الحضارة) أما الآن فهو (شرقي) وأظهر اتجاهات شعرية قوية نحو العالم الشرقي . والظاهر أنه توسم فيه قبساً من الفن الشعري الغني ؛ وجد فيه ينبوعاً كان يتوق دوماً إلى ارواء غليله منه . وفي الواقع هنالك تجد كل شيء غنياً ، ثرّا ، واسعاً ، كما كان في القرون الوسطى ».

لكن مع هذا التصريح ، فمن الصعب علينا أن نقتفي أثراً من الشرق في شعر هذا الشاعر. ليس ثمّ أثر لاولئك الشعراء الفارسيين الذين نفثوا سحرهم في « غوته » وسائر الادباء الالمان. كان ميله إلى الشعراء العرب اقرب منه إلى غيره حيث «اقتباس الفرس من العرب بلغ غاية العنف ، فهو اشبه بانقضاض امة من النساء على أمة من الرجال..» شعب سلافي يعمل الشعر، شعر ذلة متَلَق . يقينا أن الفرس كانوا ايطاليي آسيا ! « كان الشرق بالنسبة اليه ، شرق زِم زيزمي Zim - Zizime » كما في المشرقيات ما زال يكمن في لبابه الشرق الزاهي البربري لتقاليد القرن الثامن عشر . ولقد نحته (غوتييه) بتمثال فورتونيو Fortunio ، أو الشرق البايروني المزخرف وليس بيت التهجد والتأمل والموسيقى للشعراء والباحثين . استخدمه للتأثير الفني بسبب الوانه العميقة كما رسم (د لاكروا) [٨٥] مناظر وتصاميم جزائرية . والامر نفسه يمكن قوله عن كل الكتاب الرومانتيين الفرنسيين تقريباً . فقد شعر بعضهم كجيرار دي نرفال [٨٦] وغوتيه الأكبر [٨٧] أنهم وهم أكثر وقوعاً تحت تأثير المدرسة الالمانية بتعلق وحب حقيقيين للشرق . لكن استشراقهم كان مجرد محاكاة مكررة في اغلب الاحيان . وامور الشرق كما تعبر عنه جملة

---

٨٥) *Delacroix* ١٧٩٨ – ١٨٦٣ رسام فرنسي وزعيم المدرسة الرومانتية في الرسم (المعرب)
٨٦) *Gerard de Nerval* ١٨٠٨ – ١٨٥٥ منشيء وكاتب فرنسي . (المعرب)
٨٧) *Gautier* ١٨١١ – ١٨٧٢ كاتب وقصصي فرنسي . (المعرب)

لبرونتيير « في الوقت الذي اصبحت مألوفة ، لم تصر داخلية » .

كذلك الادب الانكليزي في القرن التاسع عشر ، فلم يكن يفترق عن وضع زميله الفرنسي . لكن الاستشراق الحديث كان هنا اكثر ظهوراً كما كان متوقعاً . لكن اسلوب الشرق بقي يستخدم في مسائل الزخرف والوشي تقريباً — فيزداد رواء وطلاوة بالعرض الرومانتي . على أن الاحتفاظ (بالطابع المحلي) تراثٌ جاء من « سْكوت » ومن الحركة الالمانية . وكان « بايرن » هو الذي جعل الشرق (الثاني) معروفاً ومَثّلَهُ الكلاسي كتاب (مور) الموسوم « لا لاروخ Lalla Rookh »[٨٨] واقتصر تأثير (الف ليلة) على صيرورتها مصدراً تستمد منه عناصر لبناء هيكل الرواية ، والاستشهادات الشعرية التي تعتمد على آثار (جونز) و (ديربلو) [٨٩] وغيرهما من المستشرقين . ولكي يُشبع (مور) رأسه بالصور والاخيلة الشرقية ، اخفى نفسه عن الانظار لمدة عامين ولكن مع اطمئنانه الخاص إلى النتيجة [٩٠] فإن اشعاره لم تفعل اكثر من أن رَحّلت نبرة (سكوت) من موطنه إلى الهند . أما عن الباقي فان الاستشراق عند الشعراء الاعاظم لم يكن له محل ظاهر ، فالقطعة الشعرية (زُهْراب ورُستم Sohrab and Rustum [٩١] و (احلام فريشتاه Ferishtah's Fancies) [٩٢] وأضرابهما لا تملك

---

٨٨) ديوان شعري على الاسلوب الشرقي الفه الشاعر الانكليزي توماس مور ١٨١٧ (المعرب)

٨٩) *d'Herbelot* ١٦٢٥ – ١٦٩٥ مستشرق فرنسي وضع معجماً عن الشعوب الشرقية ارتكز فيه على كتاب كشف الظنون للحاج خليفة . (المعرب)

٩٠) قال مور : « اني وان لم اكن شخصياً في الشرق ، فكل من هو هناك يصرح بأنه لا يوجد وصف له اكثر اتقاناً من وصفي لشعبه وحياته في لالاروخ » (المؤلف) .

٩١) مقطوعة شعرية لماتيو ارنولد ١٨٢٢ – ١٨٨٨ من ديوانه الموسوم « امبذوكل على اتنا » . (المعرب)

٩٢) كتاب من تأليف الشاعر الانكليزي روبرت براوننغ ١٨٨٤ يحتوي على اثني عشرة حكاية خرافية عن لسان الدراويش ، على طراز المقامات العربية . (المعرب)

من الشرق غير الاسم . أمـــا في الآداب النثريـــة فان قصة « شكبـــة [٩٣] shagpat » تقوم على نموذجـــاً عربياً اصيلاً مستقلاً .

اذن ، فتفسير هذا التناقض الوهمي – بقدر ما يهم الشرق الاسلامي – هو أن انشغـــال كتاب وشعراء الفرنسيين والانكليز بالمشاهد الرومانتيـة التي جاءت وليدة تصوراتهم الخاصة ابعدهم عن الحقيقة الكامنة خلف قناع كانوا انتفعوا بـــه كثيراً . وهكذا عومـــل الشرق معاملـــة منظم زخارف ومُـلوّن ، وانكروا عليه بسرعة فائقة ادعاءه انه غذى التراث الروحي لمعشر البشريـة . ولقد لحظ سر (وليم جونز) منـذ زمن بعيـد ، انه لا يمكن تقدير الشعر الاسيوي حق قدره ، الا بعد درس علمي لشعوب آسيا ولتاريخها الطبيعي وما دامت هذه الدراسة الضرورية جداً ، محصورة في فئـة من العلماء والخبراء فكـــل تحسس لتأثير مثمر تفضل به الادب الشرقي والفكر الشرقي على اوروبا ، أمر خارج عن صدد المناقشة .

أمـــا أولئك الذين فهموا الشرق وصوروه بعطف قاس مثـــل « غوبينو [٩٤] وموريـيـــه [٩٥] فهم لا شك مدينون بشيء مـــا للادب الشرقي كما هـــم مدينون إلى الحياة الشرقيـة . على أنه دين ليس من السهل تحديده . ومع ذلك فلم تأفـــل شمس القرن التاسع عشر قبـــل ان تخلف شاهـــداً على التماس الوثيق بين الشرق والغرب . فكمـــا خلق انكليزي في قصة (الواثـق) همزة وصل بين القصة الشرقيـة والقوطية ، كذلك قُدِر لانكليزي آخر في هذا العصر – أن يُظهر قوة شاعر شرقي ومقدرته الهائلة في تغلغله إلى اعماق الشعر الغربي . فعمرُ خيام (فيتزجيرالد)[٩٦] مقطوعات فارسية صرفـــة ، وهي

---

٩٣) أولى قصص الشاعر الانكليزي جورج مريديث ١٨٢٨–١٩٠٩ وهي على طراز الف ليلة (المعرب)

٩٤) *Gobineau* ١٨١٦ – ١٨٨٢ كاتب فرنسي كتب عن الشرق كثيراً . (المعرب)

٩٥) *Morier* ١٧٨٠ – ١٨٤٩ رحالة وقصصي انكليزي عرف بكتابه « حاجـي بابا اصفهاني » . (المعرب)

٩٦) يقصد بهـــا ترجمة فتزجيرالد ١٨٠٩ – ١٨٨٣ لرباعيات عمر الخيام . (المعرب)

انكليزية صرفة في الوقت نفسه ولم تكن ترجمــة بأية حال بل خَلْقاً جديداً . وإذا لم تكن روح هذه الرباعيــات أسمى واعظم مــا يكون فانها عبرت على الاقــل عن احاسيس العصر الدقيقة ، اعلنتهــا بالكمال والاتقان الذي الذي تكشفت بـه للمجتمع الاصفهاني المثقف قبلهــا بثمانية قرون .

وان نحن اعدنا نظرنا في حقــل الادب الاوروبي ، بدا لنــا لاول وهلة ان آداب مسلمي الشرق محصورة في مجرى ضيق عقيم ، ولا نجــد العكس الا حين ندرك بأنّ الشرق قد فعــل في الادب الغربي فعل الخميرة في الروح ، وعندئذ تتبدى اهميته وأثره الاعظم . ولو كانت وجهــة نظرنا صحيحة في هذا المضمار ، حق لنــا القول اننا رأينــا الشرق يؤثر في الادب الغربي في فترات ثلاث مختلفة وفي كــل مرة يتمخض هذا التأثير بنتائج متفقــة بطبيعتهــا وان لم تكن بدرجة متساوية . ففي كــل فترة ومناسبة كهذه ، كانت مهمة الادب الشرقي تحرير الخيــال من الاغلال الضيقة الشديدة الوطأة ، وقيام ذلك الخيال بشق أول صدع في جدار التقاليد . وقد ظهر فضل الادب الشرقي على الغربي في مقدرة الاول على ابتعاث ودعوة الاحاسيس الخلاّقة المبدعــة التي كانت حتى ذلك الحين ترسف في قيود الخمول والجمود . فما أن شرعت بالحركة ، حتى اخذت تُجمع موادّ مخصبة من احتياطهــا الداخلي تبني بـه نفسها بنفسها . والعناصر الشرقية من تلك التي تشبع بها ، هي الاخرى اخذت تتمثل وتذوب في العناصر المحلية ، فأصبح من العسير جداً تفريق احدهمــا عن الآخر في التطور التكاملي الختامي . وطالما كان الشرق يمد الادب الاوروبي بنماذج وقوالب فانه كان يلعب في الميدان الادبي دور التابع الثانوي . وفي القرون الوسطى عندما وجد بين مدنيــة الاسلام والمسيحية تقارب جوهري في قواعد التفكير واساليبه ، أثمــر التقليد والاحتذاء الذي استمدته الثانية من الأولى ثمراً جد طيب . أمــا

بُعَيد (الرينسانس) فلم ينتج هذا التماس الا لَطائِفَ وغرائب ادبية لا ضرر منهـا ، وللسبب نفسه كانت نتائج اتصال الافكار في القرون الوسطى بالادب الشرقي اكبر بمـا لا يقاس من اتصالات الازمان المتأخرة .

امـا الرومانتيون الالمان فقد عادوا إلى الشرق على أثر فترات الاتصالات العرضية الثلاثة وجعلوا لاول مرة في حياتهم هدفهم الوجداني فتح طريق لتراث الشعر الحقيقي حتى يدخل منه إلى شعر اوروبا . ولكن القرن التاسع عشر بروح العظمة والتعالي والقوة الجديدة التي كانت ترافقه ، بدا وكأنه اغلق هذا الباب نهائيـاً في وجه غرضهم . وتوجد اليوم من الجهة الاخرى دلائـل تشير إلى حصول التغير . فالادب الشرقي صار يدرس ثاني مرة لذاته فقط . وحصل الشرق على مفهوم جديد في ذهنية اوروبا . وفي الوقت الذي تنتشر هذه المفاهيم ويعود الشرق إلى احتلال مكانته اللائقة في حياة الانسانية قد يتاح للادب الشرقي ثانية — القيام بمهمته التاريخيـة فيساعدنا على تحرير انفسنا من الفهم الرجعي الضيق الذي يحدد كل مـا هو مهم جوهري في فن الادب ، في الفكر والتاريخ ، في حيزنـا هذا الضيق من الكرة الارضية .

هـ. ر. كب

التصوّف

بقلم

البروفسر رينولد ألِن نيكلسون Praf. R. A. Nicholson

١٨٦٨ – ١٩٤٥

بعد ان تخرج بتفوق في اللغات الشرقية من كلية ترنـتي – كمبردج وذهب إلى (ستراسبورغ وليدن) عاد إلى كمبردج ونشر ديوان (شمس تبريزي) في السنة ١٨٩٨ م. وفي السنة ١٩٠١ م عين استاذاً للفارسية في كمبردج حيث ظل فيهـا ربع قرن ، تسنم خلالها منصب كبير أساتذة اللغة العربية حتّى السنة ١٩٣٣ وكوفيء على أعماله العلمية ونشاطه بالألقاب والأوسمة وعضوية مجامع علمية كثيرة .

عد نيكلسون حجة في التصوف الاسلامي الذي أوقف عليـه حياته كذلك بسبب كثرة ما نشر وأحيا وألف فيه من دراسات . فعدا ما سيذكر له من المؤلفات والمترجمات في تعليقاتنا التالية ، نشر (تذكرة الأولياء) للعطار ١٩٠٥ – ١٩٠٧ م ، وترجم أسرار (آي خوداي) للسيد محمد إقبال ١٩٢٠ ، وترجم (لابن الفارض) ، وألف ثلاثة كتب في التصوف بالانكليزية ، ترجم اثنان منها إلى العربية . هذا عدا عن عشرات الأبحاث والمقالات في المجلات العلمية والصحف الكبيرة » . (المعرب)

قبل مدة غير بعيدة كنت اقلب الصفحات الأولى لكتاب (التصوف) الذي ألفتـه الآنسة (آندرهـــل) ، فوقعت عيناي على عبارتين مقتبستين احداهمـــا من التصوف الالماني في القرون الوسطى وثانيتهمـــا من الكاتب الانكليزي الذي أذيع نبـــأ وفاته قبل مدة وجيزة . وقد أدهشني انهمـــا ذكرتاني بشبيهتيهمـــا الاسلاميتين . إن قولة (إكهارت)[1] الشهيرة « ليس لأي مخلوق أن يلفظ كلمة (أنـــا هو) إلا الله وحده ، إذ يخلق بالمخلوق أن يشهد على نفسه بانه ليس شيئـــاً » . هذه القولة تذكرني بتعريف الاتحاد الصوفي لأبي نصر السراج قبـــل اكهارت بثلاثة قرون ، قـــال : « لا يلفظ (أنـــا) إلا الله ، فهو الشخص الحقيقي » . وقولة إدوارد كاربنتر [2] « هذا الادراك يبدو وكأن جميع المشاعر اتحدت في شعور واحد » جعلتني أنقب عن بعض أبيات من تائيـــة ابن الفارض الشاعر الصوفي المصري (ت ١٢٣٥ م) حيث وصف وجدانه الصوفي بانه تجربة اتحدت فيهـــا جميع الأحاسيس وأخذت تعمـــل في آن واحد :

فعينيَ ناحت واللسانُ مشاهدٌ وينطق مني السمعُ واليدُ أصغتِ
وسمعيَ عين تجتلي كل ما بدا وعينيَ سمع إنْ شدا القوم تنصتِ

هذا مجرد اتفاق لا ينكر أحد قيمتـــه بدون شك . أما فيمـــا يتعلق بامور

---

١) جون اكهارت *John Eckhart* (١٢٦٠ – ١٣٢٩) ويعرف بالمعلم ، صوفي الماني أرسطي المذهب ، درس وعلم بباريس واتهم بالهرطقة والزيغ . (المعرب)

٢) ادورد كاربنتر *Edward Carpenter* (١٨٤٤ – ١٩٢٩) : كان قساً ثم انتابه الشك ، فترك الكهنوت وحاضر في علم الفلك بجامعـــة يوركشاير ، ثم تركهـــا وأخذ يعمـــل كتولوستوي فلاحاً في الحقول . أصدر كتباً عدة في العقائد . (المعرب)

الصوفية من ناحيتهـا السايكولوجية والعملية ، فمـا زال الغرب مفتقراً إلى تعلم أشياء كثيرة من الاسلام ، لكن كم أخذ الغرب فعلاً من هذه الأشياء في القرون الوسطى حين كانت علوم المسلمين وفلسفتهـا تشع من بؤرتها في اسبانيا فتغمر بنورهـا اوروبا المسيحية ؟ هذا مـا يجب أن نكشف عنه بالتفصيل . على أنّ المقدار المستمد هو عظيم بدون شك ، فقد يكون عجيباً ألاّ يصل تأثير هذا المنزع إلى شخص(كتوما الاكويني وإكهارت ودانتي). ذلك لأن التصوف هو البقعـة المشتركة التي تلتقي فيهـا نصرانية القرون الوسطى بالدين الاسلامي وتقتربان كثيراً . إن الحقيقة هي في التاريخ ، فالتاريخ يكشف لنـا عن السبب الذي جعل لآراء الصوفيين — كاثوليك ومسلمين — وطرقهم وأنظمتهم في تلك الفترة ، طابعـاً واحداً وينبوعاً روحيـاً متشابهـاً ؟ ولكن في الوقت الذي حافظت الكنيسة الكاثوليكية على تراثهـا سالماً ، نجد أن المجرى الأساسي للاسلام بعد القرن الثالث عشر أخذ ينساب في قنوات من فلسفة دينية هي في نظر المتمسكين بتعاليم الاسلام ، تحتوي على كـل شيء إلا الدين .

كانت نهايـة القرن الثاني الهجري (٧١٩ — ٨١٦ م) تقترب حين ظهرت في بلاد مـا بين النهرين لاول مرة لفظة (الصوفي) التي سرعان ما عرف بهـا متصوفة الاسلام على العموم . هذه اللفظة مشتقة من لفظـة (صوف) ومعناها الرداء الصوفي الخشن غير المصبوغ ، وكان ثوب النساك النصارى . تلك إشارة من إشارات كثيرة تدلنـا على المَعين الصوفي المشترك ؛ هذه الاستقراءات تتسم بطابع العسر والتعقيد بحيث لا يمكن بحثهـا هنا . لكني سأحاول أن أبسط الوضع كمـا يبدو لي . دعنـا نعالج وجهة النظر القائلة بان اصول الصوفية هي اسلاميـة بحتة بالدرجة الأولى ، وان ادعاء الصوفيين بانهم ورثوا عقيدتهم عن النبي (ص) ادعـاء يستحق التأمـل

والاعتبار . ففي القرآن الذي نزلت آياته عليه وكان هو اول من نطقها ؛ نجد عناصر صوفية زهدية تمتزج بأهداف ذات ألوان متعددة . هذه العناصر تناولها الصوفيون بالشرح والترديد وألبسوها معاني خاصة وقلدوها دلائل بعيدة مغايرة لما جاء به القرآن الكريم . ولكن ذلك لا يبرر قولنا أن مذهب التصوف لا يدين للقرآن إلا بقليل . والمسلمون الذين يكرمون كتابهم المنزل فيحفظونه عن ظهر قلب منذ نعومة أظفارهم ويتدراسونه بدقة وتركيز بوصفه مفتاح المعرفة البشرية . تبدو لهم فكرة التصوف سخيفة كما أنها غير صحيحة تاريخياً .

ومع أن محمداً لم يخلف نظاماً مقنناً صوفياً او لاهوتاً ، إلا أن المواد الأولية لهما توجد في القرآن . ولما كانت جملة أحاديثه (ص) عن الله عديدة متنوعة لأن مبعثها الالهام لا التأمل في الوقت الذي كان فقهاء المسلمين قد أدخلوا في آرائهم صفة التسامي ؛ فإننا نجد الصوفية متأثرين خطاه (ص) ، يمزجون صفة التسامي بصفة (الحلول) ويرون في هذا المزيج أهمية أكثر مما يرون في القرآن حيث كانت هذه العقيدة أقل ظهوراً فيه :

« ولقد خلقنا الانسانَ ونعلمُ ما توسوسُ به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ١٦ ق » .

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ٣ الحديد ».

« الله نور السموات والارض ٣٥ النّور » .

« فإذا سويته ونفختُ فيه من روحي،فَقَعوا له ساجدين ٢٩ الحجر » .

« ولا تدْعُ مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالِك إلا وجهُه له الحُكم واليه تُرجَعون ٨٨ القصص » .

« ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ٤ النور » .

« فأينمـــا تُوَلُّوا فثمَّ وجه الله . إنَّ اللهَ واسِـعُ عليم ١١٥ البقرة » .

ها هنا بالتأكيـد تَكْمنُ بذْرَةُ الصوفية . والقرآن بنظر الصوفيين الأوائل ليس كلمـة الله وحـده ، لكنـه السبيـل الأول للدنوّ منـه . إنهم يسعون اليـه بالصلاة الحارة والتأمـــل العميق في معاني الكتاب باعتباره وحدةً قائمـــة بذاتهـــا ، على الأخص آياتـه التي تنطوي على معاني عميقـة مستسرة كالآية الأولى من سورة الإسراء [٣] والآيات من سورة النجم [٤] الـــتي تتعلق (بالإسراء والمعراج) ، فالصوفيون يعملون على إعـادة ممارسة هذه التجارب الصوفيـة النبوية في أنفسهم .

والآن لنبحث الظروف الزمانية والمكانية .

إن الثورة السياسية التي نقلت مركز الخلافة الاموية من الشام إلى بغداد أدَّت بالاسلام إلى التماسّ المباشر والاصطدام بافكار المدنيات التي نشأت قبيـل الاسلام . فإذا كان هذا تمخض بتغلب الفكـر الاسلامي ، فالتاريخ يخبرنا بان النصر في تلك المعركة لم يكن تاماً أبداً . ونحن هنـــا نقصد الحركة التي انتشرت في بقاع كانت قد عرفت العقائـد الهيلينية [٥] معرفة جيدة ، وحيث النقاش الديني استعر اواره بين المسلمين من جهـة ، وبين المسيحيين

---

٣) من سورة الإسراء : « سبحان الذي أسرى بعبـــده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريـــه من آياتنا ، انه السميع البصير » . (المعرب)

٤) من سورة النجم : « والنجم إذا هوى . ما ظل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى . علمه شديـــد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالافق الاعلى . ثم دنـــا فتدلى . فكان قاب قوسين او أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على مـــا يرى . وقد رآه نزلة اخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى الدرة يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » . (المعرب)

٥) يقصد بها بهـــا الحضارة اليونانية (من هيلاس)وما جاءت به فلسفتها من عقائد (المعرب)

والمانويين [٦] والزرادشتيين [٧] من جهة اخرى . هناك أخذت جماعات من الشعوب الخاضعة للحكم الاسلامي التي اعتنقت دين الاسلام . تسعى للتوفيق بين الدين الجديد وبين مصالحها الخاصة ؛ فاقرت أحياناً بدافع ديني خالص، بسلطان الرسول المسلم في العقائد والطقوس التي كانوا يقدرون قيمتها حق قدرها . اذن فمن الصحيح ان ننظر إل المتصوفة بوصفهم تلاميذ القرآن في السر ، ولكن لا يصح ان نعتبر التصوف النتيجة الخالصة المحتومة لدراسة القرآن . بعد السنة الألف للميلاد بدأ التصوف يمتص الفلسفة اليونانية ويتشربها . فالدلائل التي توفرت حتى الآن تدلنا على أن اصولها قد تأثرت بالزهد المسيحي والتصوف اليوناني . ولنا أن نثق بأن الراهب المسيحي كان شخصية معروفة من محمد (ص) . فقد صوّر لأتباع دينه نموذجاً من الحياة التي يحياها هؤلاء . والحديث الشهير الذي نطق به (لا رهبانية في الاسلام) كان في الحقيقة شجباً للعقيدة النصرانية هذه وبرهاناً على كبر نفوذها في الوقت نفسه . والمأثور عن النبي أنه شجب الرهبانية وبضمنها العزوبة كما ورد ذلك في القرآن. ولكنّ تفسير الآية السابعةوالعشرين من سورة الحديد [٨] الذي ساد حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، دلّ على أنّ النبي امتدح الرهبانية بوصفها مدرسة أمرت بها المشيئة الآلهية وان تنديده بها كان مُضباً على أولئك اولئك الذين أفسدوها .

---

٦) المانويون هم اتباع ماني (٢١٥-٢٧٦م) مؤسس المذهب القائل بوجود مبدئين مبدأ الخير ومبدأ الشر (النور والظلام) ويظن أن أثاراً له بقيت في الدين اليزيدي . (المعرب)

٧) زراد شت نبي ومصلح ولد في ميديا (شمال غربي ايران) في منتصف القرن السابع ق. م. واتباعه اليوم هم من يدعى بالبارسيين ويعيش اغلبهم في الهند وايران ويظن ايضاً ان اليزيدية في العراق هم طائفة منحرفة منهم . (المعرب)

٨) من سورة الحديد : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى بن مريم وأتينا الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ، فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » . (المعرب)

ان زهد الاسلام الاول برؤاه المخيفة عن السخط الآلهي القادم وبيكائيه ومُتزمتيه ، بتهجده وأوَرَادِه التي لا تنتهي ، كان القوة الدافعة للمتصوفة اللاحقين . فما دام (لا آله إلا هو) ومـا دامت عبادته الواجبة للخلاص من نـار جهنم ونوال الجنة لا تتم باشراك آله آخر ، أي موضع آخر للأمل والخوف ، فلا مفر للمتزهد من أن يلتجىء إل الله وحده (يتوكل عليه) ويذعن اذعاناً تاماً لارادته (الرضا بحكمه) ، وليست هذه التعابير كل شيء ؛ فالانفصال التام عن آلهة ما ، يستلزم اتصالاً تاماً (بآله) ثان . وهو في لغة الصوفيين الاتحاد بالله عن طريق المحبة ، المحبة ، هذا المبدأ هو ينبوع إلهام المذهب الصوفي وطابعه الاخلاقي الذي يَسِمه .

كانت المرأة الصالحة ، رابعة البصرية [9] (عاشت حوالي ٨٠١ م) التي تجد فيها أقوالنا أول شارح ومردد ، أمَة رقيقة مجهولة النسب . والابيات التالية (لا ندري أهي لها أم منحولة) تصور الهدف الصوفي باعتباره (عشق المحبوب) :

أحبك حبين ، حبَّ الهوى وحبّاً لانك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حبُّ الهوى فشُغلي بذكرك عمّن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمدُ في ذا ولا ذاك لي ولكنْ لكَ الحمدُ في ذا وذاكا

إن مبدأ الاتحاد الصوفي الذي يتوصل اليه ببركة الله ، لم يرد به نصّ قرآني صريح . ولكن هناك الحديث الضعيف المنسوب إلى النبي « ... وما

٩) الرابعة (حوالي ١٨٥ ه) : هي ام الخير رابعة بنت اسماعيل مولاة آل عتيك ، عاشت بالبصرة وعرفت بصلاحها وتقواها . وردت لها في الكتب العربية أخبار وأشعار يشك في نسبتها اليها . (المعرب)

يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى احبه . فإذا أحببته كنت سمعه يسمع به وبصره الذي يبصر به ويـده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بهـا ... »[١٠] . فاذا كان مبتدأنا الممارسة الاختيارية للعبادة وأهم طابع لها هو الترديد غير المنقطع لاسم الله (الذّكرْ) . وجدنا الصوفيين يطبقـون مذهبـاً سيكولوجياً ، ويسيرون في « طريق مطهر منير via purgativa et illuminativa » تؤدي او بالاحرى تُعِدْ الروح للوصول إلى المعرفـة gnosis التي عرّفوهـا بانها « الادراك لصفات الوحدانيـة الآلهية ، امتاز به الأولياء فرأوا الله في قلوبهم » . وأول مسلم أتى بتحليل مجرب للحياة الباطنيـة كان الحارث المحاسبي البصري[١١] (ت حوالي ٨٥٧ م) ورسالته (رعايـة لحقوق الله والسبيل إل الملاحظة الدينية) الموجود منهـا في مكتبة اوكسفورد نسخة فريدة من نوعهـا ، تُبدي لنا جمالاً وابتكاراً وان كان فيهـا اقتباس ونقـل غير قليل من مصادر يهوديـة ومسيحيـة بخصوص الرياضة الروحيـة .

ان (الطريقة) كمـا وصفهـا الكُتّاب المتأخرون تتضمن الفضائـل المكتسبة (مقامات) والأوضاع الصوفية (أحوال) . أمـا المرحلة الأول فهي مرحلة التوبة والهداية تليهـا سلسلة من المراحـل الاخرى وهي :

---

١٠) البخاري « عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) ان الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب . ومـا تقرب إلي عبدي بشيء أحب اليه مما افترضت عليـه . ومايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافـل حتى أحبه . فاذا أحببتـه كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وان سألني لأعطينه وان استعاذني لا عيذنه ومـا ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن نفس المؤمن من يكره الموت وانا أكره مساءته . (المعرب)

١١) هو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبي البصري الزاهد المتصوف (ت ٢٤٤هـ) . قال السمعاني : عرف بالمحاسبي لانه كان يحاسب نفسه . (المعرب)

انكار الذات ، الفقر ، الصبر ، التوكل على الله ؛ وكل حال من هذه الاحوال يهيء النفس للآخر . أما الطرق والتفاصيل فتختلف ، الا أن الطابع العام واحد لا يتغير . فالمريد (التلميذ) يتعلم ان يضع (أعمال القلب) فوق أعمال الحواس الاخرى وأن يجعل النية فوق العمل ، وحين النظر بشك إلى قواعد الشريعة ، يجب اعتبار مبادئها كاشارات تُهدي إلى الحقيقة الباطنة . هذه المباديء تخللت التشريع الاسلامي واكتنفت فلسفة الدين . ومع انها كانت تميل إلى مخالفة الشريعة ، فقد تناولها اللاهوتي الاعظم (الغزالي ، ت ١١١١م) وفصلها بالشروح أخلاقيون معروفون أمثال (سعدي [١٢] ت ١٢٩١ م) . وفي الوقت الذي يتعذر علينا أن نتهم المتصوفة بحب النفس والأثرة ، فالواقع يجعلنا نقر بأنهم أحبوا الله أحياناً بطريق حبهم لجيرتهم وعلى الاخص اولئك الذين يخالفونهم في الدين ، ولكن ادراكهم الوحدة الآلهية آخر الأمر جعل قصر محبتهم على الله من غير محبة مخلوقاته ضرباً من المحال . ولقد وضع متصوفة القرن الثالث الهجري أسس نظرية التصوف وجملة طرقه وقواعده ، فجاء ذوالنون [١٣] المصري

---

١٢) سعدي (١١٨٤ - ١٢٩١م =٥٨١ - ٦٩٠هـ) ؛ هو شرف الدين بن مصلح الدين الشيرازي من أعظم الشعراء الفارسية ، درس بالمدرسة النظامية ببغداد وخرج السنة ١٢٢٦م بسفرة طويلة أمدها ثلاثون سنة ، فأم بلخ وغزنة والبنجاب ودهلي ، وأبحر الى اليمن والحبشة ومكة والمدينة ودمشق واورشليم حيث أسره الصليبيون وقادوه الى حلب وهناك افتداه أحد الاغنياء وزوجه بنته ، ويظهر أن قسوة زوجته ، حملته على هجرها والسفر الى شمال افريقية ثم آسيا الصغرى ، ولما عاد إلى شيراز في ١٢٥٦م استقبله أبو بكر سعد بن أتابك سعد وأكرمه ، وقضى ما بقي من حياته في قرض الشعر والتأملات الصوفية. جمع أحمد بن بستون آثاره بعد وفاته في ثلاثة دواوين (بستان) و (كلستان : أي ورد الحديقة) و (غزل) . (المعرب)

١٣) (ت: ٢٤٥هـ=٨٥٩م) : هو أبو الفائض ثوبان بن ابراهيم ذو النون من أوائل متصوفة الإسلام . ولد في مصر من أب عبد ، وسار الى مكة والشام.وقيل انه عاشر رهبان =

بفكرة (المعرفة) إلى العالم الاسلامي . والمعرفة المسماة gnosis إنّما هي الادراك الذي تتأتى منه حالة الوجد الآلهية . فهو يختلف عن المعرفة الفكرية المتأتية من الدرس والعلم .

« سئل ذو النون : بماذا عرفتَ الله ؟ قال : عرفتُ الله بالله » . وصرح مثل دينوسيوس [١٤] قائلاً : « كلما تصور في وهمك فالله تعالى بخلاف ذلك » . وقال : « بمقدار ما يعرف العبد ربه يكون انكاره لنفسه »[١٥] .

من هذا نلحظ ازدياد المصطلحات الدقيقة ذات الدلائل الصوفية الغامضة لمذهب كان وقفاً على الصفوة المختارة . فلقد استشعر ذو النون بأن هذه الاسرار السامية يجب أن تبقى طي الخفاء كي لا تلتقطها آذان رجسة . إن أبا يزيد (بايزيد) البِسطامي [١٦] ربما بتأثير عقيدة الواحدية monism

---

= أنطاكية وتوصل الى رياضة نفسه بالزهد والتصوف واجتمع له تلاميذ كثيرون حتى خشي المتوكل الفتنة ، فقبض عليه وارسل الى بغداد وسجن ، ثم اطلق واعيد الى بلده . قسم (المعرفة) الصوفية ثلاثة أقسام فقال « الاول حظ مشترك بين عامة المسلمين . الثاني معرفة خاصة بالفلاسفة والعلماء . الثالث العلم بصفات التوحيد وهو خاص بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم » (تذكرة الأولياء للعطار ج ١ . ويقول القفطي انه كان من طبقة جابر بن حيان في صناعة الكيمياء (ص ١٢٧) كذلك ابن النديم (٣٠٨) ويؤيد ذلك الحاج خليفة (كشف الظنون ج ٢ ص ٥٣٨) .(المعرب)

١٤) قيل انه كان رئيساً لمحكمة اريوباغس . وهو المجلس القضائي الاعلى في دولة أثينا اعتنق النصرانية على يد بولس الرسول في أثينا ثم تنسك وتصوف، واشهر ما الف هو كتابيه (في اثولوجيا التصوف) و (في اسماء الله الحسنى) انتشرا في القرون الوسطى ودافع عنهما القديسان توما الا كويني واغسطين . (المعرب)

١٥) انظر الرسالة القشيرية ص ٤ و ١٠٤ طبع السنة ١٣٣٠ (المعرب)

١٦) (ت ٢٦٢ هـ = ٨٧٥م) : هو ابو يزيد طيفور بن عيسى بن آدم بن شروسان و بسطام مسقط رأسه في خراسان ، يعتبر المتصوف المسلم الاول الذي قدم للمسلمين فكرة فناء النفس في الوجود الكلي . (المعرب)

الهندية تقدم بعقيدة (الفنـاء) أي زوال النفس وضدهـا المباشر (البقاء) أي اتحـاد الحياة بالله . ومع أن مسعاه للوصول إلى الاتحاد الخالص عن طريق (السلبيـة) قد مضى به إلى أقصى غاية مستطاعة كما أقر هو بنفسه بكـل صراحة ، فإنه صار بطلاً خرافياً للتصوفة الفرس الذين جاؤا بعده ، فلم يدخروا جهـداً في ترديد صيحاتـه (شطحياتـه) كقولهم مثلاً « سبحاني » وقصة معراج بايزيد إلى عرش الله التي قيـل انها حصلت أثناء حلم [١٧] .

ومن الأقوال المنسوبة إلى (بايزيد) ما يأتي :

« للخلق أحوالٌ ولا حالَ للعارفِ لأنّه مُحيتْ رسومُه وفَنِيَتْ هويتُه بهويةِ غيره وغيبت آثاره بآثار غيره » و « منذ ثلاثين سنة كانَ الحقُ مرآتي ، فصرت اليوم مرآة نفسي لانني لست الآن مَن كُنتُه » و « في قول (أنا) و (الحق) إنكارٌ لتوحيدِ الحقّ . لانني عَدَمٌ محضٌ . فالحق تعالى مرآةُ نفسه ، بل انظرْ : إن الحق مرآة نفسي لانه هو الذي يتكلم بلساني ، أما أنا فقد فَنِيتُ » و « العاشِقُ والمعشوقُ والعِشقُ واحدٌ ، لأن الكل واحدٌ في عالم التوحيد » [١٨] .

وبينما كان (بايزيد) موضع اعجاب اولئك الذين يفضلون الغيبوبة الصوفية على صحوتهـا ، نجد معارضيهم يتبعون تعاليم (الجُنيد البغدادي)[١٩] الذي

---

١٧) قال ابو يزيد : « كنت اثنتي عشرة سنة حداد نفسي وخمس سنين كنت مرآة قلبي ، وسنة انظر فيمـا بينهما ، فاذا في وسطي زنـار ، فعملت في قطعه اثنتي عشرة سنة . ثم نظرت ، فاذا في باطني زنـار ، فعملت على قطعه خمس سنين انظر كيف اقطعه ، فكشف لي فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى فكبرت عليهم اربع تكبيرات ... » الرسالة القشيرية ص ٤٨ . (المعرب)

١٨) انظر في ذلك على التوالي وما فيهـا : الرسالة القشيريـة ص ١٤١ طبع مصر ١٣٣٠ ، تذكرة الاولياء للعطار ج١ ص ١٦٠ . (المعرب)

١٩) الجنيد (ت ٢٩٧ هـ = ٩١٢ م) : هو ابو القاسم الجنيـد بن محمد ، اصله من نهاوند وولد ونشأ بالعراق ، كان فقيهـاً على مذهب ابي ثور وصحب ائمة متصوفي عصره منهم السري السقطي خاله والحارث المحاسبي ، وقد تبعه كثيرون في العراق وكان الحلاج ابرز تلاميذه (المعرب)

نشر نظريته في الاتحاد فجاء تلميذه المشهور الحلاج [٢٠] وأذاعهـا مظهراً اياها على حقيقتها . ولم يكن غريباً انه لما قُبض على (الحلاّج) بتهمة الزندقة الخطيرة وزج في السجن ، أنْ نجد الجنيد يتنصل منه وينكر علاقته به بكل حذر وحيطة. ان العقيدة التي ضمنهـا الحلاج كتابه (الطواسين)[٢١] هزّت المسلمين هزاً ، حتى لو كان خلا من العبارة الثقيلة (أنـا الحق: أي أنـا الله) ، كمـا صرح بها مؤلف الكتاب الذي هو بدرجة من العمق والابداع والاهمية التاريخيـة بحيث يجب القيام بمحاولة لشرح آرائـه الجوهرية واسترعـاء الانتباه إلى بعض المسائـل المتعلقة بها . هذه المحاولة

---

٢٠) (٢٤٤ - ٣١١ هـ = ٨٥٨ - ٩٢٢ م) وردت سيرتـه في أغلب كتب السير العربية نبذاً متفرقة ، والاهتمام به متأت من أنه كان أول زعيم صوفي قتل في سبيل عقيدته . هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج من أهل البيضاء في اصطخر الفارسية . نشأ بواسط والعراق وانضم إلى أبي القاسم بن الجنيد فكان من مريديه، وقيل أنه كان يكسب قوته قبل تصوفه من حلج الصوف فغلب عليه اللقب ، ثم اتبع هذا الطريق فنبه ذكره والتم حوله خلق كثير حتى اختلف الناس في أمره ، فمنهم من يبالغ في تعظيمه ومنهم من ينكره . فخشي أهل السنة استفحال أمره وازدياد شوكته ، وعلى الاخص في وقت كانت الوحدة السياسية الاسلامية مهددة بالتمزق بظهور شيعة القرامطة الذين قيل أن الحلاج كان يدعو لهم سراً . فطرح الوزير حامد بن العباس وزير «المقتدر» على القاضي ابن عمر وغيره من فقهاء المسلمين، فافتوا بحل دمه وكتبوا بذلك الى الخليفة فأنفد حكمه بجلده الف سوط، ثم الفاً أخرى ثم يضرب عنقه وتحرق جثته ونفذ فيه ذلك علناً في الجانب الشرقي من بغداد المسمى بباب الطاق . ومن الجدير بالذكر أن الغزالي في كتابه « مشكاة الانوار » كتب عنه فصلا طويلا واعتذر عن الالفاظ الغريبة التي كانت تصدر منه كقوله (انا الحق) وقوله (ما في الجبة إلا الله) وقد حملها على محامل حسنة مع انها كانت من أسباب الحكم على صاحبها .

ومن المستشرقين الذين درسوا الحلاج ، المرحوم الاب الاستاذ ماسينيون ، فقد كرس شطراً كبيراً من حياته في درس أخباره وتعقيبها ، فنشر كتابه (الطواسين) وديوانه ، و (أخبار الحلاج) و (هوى الحلاج) و (اربعة نصوص عن الحلاج) وغير ذلك . (المعرب)

٢١) نشره الاب المستشرق ماسينيون في ١٩١٣ . (المعرب)

أصبحت ممكنة بفضل الدراسة الشاقة الطويلة لأخبار الحلاج الشعثاء المتفرقة التي قام بها الاستاذ ماسينيون استاذ جامعة باريس . يرى الحلاج ان الله — الذي هو الحب بحقيقته — خلق الانسان على صورته ؛ وأن مخلوق الله هذا ، يعاني عن طريق حبه له وتعلقه به ، تبدلات روحانية إل أن يجد صورة الله في ذاته . وبهذا يصل المخلوق إلى الاتحاد بالارادة والطبيعة الآلهية . ومن الواضح أن الاتحاد الذي قصده الحلاج هنـا والذي جرَّبه بنفسه ليس مذهباً حلولياً pantheistic ؛ مع أن المسلمين أنفسهم فضلاً عن كثير من الباحثين الاوروبيين وصفوه بذلك . إن لفظة (الحلول) تقابل عقيدة التجسد [٢٢] المسيحية . ولا يبدو لنا ان الحلاج أراد بها هذا المعنى لعقيدته الخاصة ، على أن ثمّ اتجاهاً ذا نوع خاص جِدّ دقيق يجعل الحلاج يبدو اقرب إل روح المسيح من جميع المتصوفة المسلمين . فهو يرى أن الولي المتحد بذات الله هو أسمى مقاماً من النبي الذي بُعث برسالة خارجية . وأن مثال حياة الولاية ليست حياة محمد بل حياة المسيح امثال الحياة (الآلهية الانسانية) ، أي الانسان الآله غيّر شخصيته ونقّى جوهره وظهر للملأ شاهداً على وجود الله وممثلاً لارادته وكاشفاً عن حقيقته (أي الحق) وعن الخالق الأسمى الذي كمن فيه . وفضلاً عن ذلك ، فقد لاحظ الاستاذ (ماسينيون) ان(الحلاج) توصل إلى الاتحاد الصوفي وعرفه بانه اتحاد بالكلمة الخالقة (كن) التي وردت في القرآن الكريم بخصوص ولادة السيد المسيح وقيامته [٢٣] هذا الاتحاد يمكن الوصول اليه بطريق الالتصاق الحار الوثيق لفهم أوامر الله . وبنتيجة هذا الرضا التام بالمشيئة fiat الآلهية ، يتم الوصول إل النفس الصوفية التي خُلقت « من أمر ربي » [٢٤]

---

٢٢) يقوم هذا المذهب على أساس ثنائية الطبيعة الإلهية ، او كما يعبر عنه باللاهوت والناسوت التي امتازت بها شخصية المسيح في العقيدة النصرانية . (المعرب)

٢٣) « ماكان الله أن يتخذ له من ولد من سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » مريم (المعرب)

٢٤) « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا » الإسراء (المعرب)

ومن ثم يجعل الله كـل أمر وعمـل من أعمال البشر « أعمالاً إلهيـة حقة » . كمـا لم يعجز الحلاج عن ايضاح درجـة تفهمـه الدرس التالي ، وهو ان درجة الصلاح (القداسة) يتم احرازهـا بتجرع غصص الآلام واقتباس التضحية كاملةً . تم تنفيـذ حكم الموت في الحـلاج ببغداد السنة ٩٢٢ م . ولمـا اقتيد إلى ساحة التنفيـذ ورأى آلة الصلب والمسامير ، التفـت إلى الجمهور المجتمع لرؤيتـه ونطـق بدعاء ختمه بالعبارات الآتية :

« ... وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي توصيـاً لدينك وتقرباً اليك ، فاغفـر لهم ، فانك لو كشفتَ لهم مـا كشفتَ لي لما فعلوا ما فعلوا . ولو سترتَ عني مـا سترتَ عنهم لمـا ابتليتُ بما ابتليتُ . فلك الحمد فيما تفعل ، ولك الحمدُ فيما تريد ... » (٢٥) .

في الاسلام حيث يوزن الناس بأعمالهم لا يكون عادةً محض الزيـغ عن الشريعة سببـاً لفرض عقوبة قاسية عليهم . ومهمـا كان اصطدام الحقيقة

---

٢٥) عن ابراهيم بن فاتك قال : « لما أتي بالحسين بن منصور الحلاج ليصلب ، رأى الخشبة والمسامير فضحك كثيرا حتى دمعت عيناه ثم التفت الى القوم فرأى الشبلي فيما بينهم فقال له : يا أبا بكر هل معك سجادتك ؟ قال بلى يا شيخ . قال افرشها لي ، ففرشها ، فصلى الحسين بن منصور عليها ركعتين ، وكنت قريباً منه ، فقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقوله تعالى « ولنبلونكم بشيء من .. الى قوله .. واولئك هم المهتدون » ، وقرأ في الثانية فاتحة الكتاب وقوله تعالى « كل نفس ذائقة الموت .. الى قوله .. وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » فلما سلم عنها ، ذكر أشياء لم أحفظها وكان مما حفظته : « اللهم بحق قدمك على حدثي وحق حدثي تحت ملابس قدمك ، ان ترزقني شكر هذه النعمة التي أنعمت بها علي حيث غيبت أغياري عما كشفت لي من مطالع وجهك وحرمت غيري ما أبحت لي من النظر الى مكنونات سرك.وهؤلاء عبادك الذين (أنظر أعلاه) ثم سكت وناجى سرا ، فتقدم أبو الحارث السياف فلطمه لطمة هشم أنفه وسال الدم من شيبه فصاح الشبلي ومزق ثوبه وغشي على ابن الحسين الواسطي وعلى جماعة من الفقراء المشهورين وكادت الفتنة تهيج ففعل أصحاب الحرس ما فعلوا (اربعة نصوص من الحلاج ص ٥١) راجع رواية ابن خلكان في الموضوع نفسه . (المعرب)

الصوفية بقواعد الدين شديداً حاداً ، فلا ينجم عنه أمر خطير ما دام الصوفي يؤدي فرائضه الدينية مع اخوانه المسلمين جنباً إل جنب .

على أن مـــا أجمع عليه المؤرخون هو أن الحلاج كان يشك في صحة فرائضه الدينيـــة وصلاحهـــا للممارسة . انه لم يزدرِ بهـــا ، لكن ثبت في الوقت نفسه انه لم يكن يمتدحهـــا او يوصي أتباعه بممارستهـــا . ان « الدرجات الدنيا » التي يتخذهـــا المؤمن سلمـــاً للوصول إل الدين الصحيح تتألف من الصلاة الحارة المتواضعة للقلب الخاشع الطاهر . وهذا يمثـــل موقف كثير من المتصوفة ازاء الشريعـــة الاسلامية . هذا الموقف يبدو خير طريق لخدمة سيدين في آن واحد . لكن الحلاج كان أسمى وأشد اخلاصاً لعقيدته من المساومة بوجدانه . فقد أقـــام في وجه السلطة العامة — وهي الدولة والهيئة الدينيـــة — سلطانـــاً مستمداً من الله مباشرة . هذا السلطان هو والرجل الصالح (الولي) شيء واحد . ولم يكن الحلاج نظرياً (كالجنيد) ولذلك حام الشك في انه كان يدعو(للقرامطة)[٢٦]وانه بشّر بمذهبه بين المؤمنين

---

٢٦) حركة دينية سياسية (فرقة من الاسماعيلية) دعيت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها حمدان ابن الاشعث قرمط نشأت فرقة شيعية في نواحي (٨٩٠ م) في عهد الخليفة (المعتضد) واتبعت تنظيماً سريـــاً (باطنياً) تعاليمها فرع من تعاليم الشيعة الاسماعيلية والعقائد المجوسية والفلسفة اليونانية . وتذهب إلى أن التنزيل (القرآن) والسنة غامضان لهما معنى لا يمكن ادراكه لأنه محل خفاء — الا بالتأويل . وهنا يأتي دور الامام المستتر الذي يجب له ان يخضع الاتباع والمؤمنون خضوعاً مطلقاً . اتخذوا موضعاً بالكوفة مقراً وسموه (دار الهجرة) ثم نزحوا إلى (سلميـــة) في شمالي سورية . ونادوا بالشيوعية والمساواة في الاموال والنساء ومن اشهر دعاتهم(عبدان وذكرون الدنداني)وقد بايعوا ابا عبد الله محمد المعروف بصاحب الناقة خليفة لهم في (٩٠٠) . ثاروا على الطولونيين وهاجموا دمشق ثم رجعوا عنهـــا خائبين اذ قتل خليفتهم (٩٠١) وانشأوا لهم دولة في (البحرين) وانطلقوا منها فغزوا (مكـــة) ونقلوا معهم الحجر الأسود في (٩٣٠م) بعد ان=

والكفرة على حد سواء فضلاً عن اجتذابه الناس إل مذهبه بطريق عمل معجزات آنية . من هذه النواحي كان حكم الموت عليه عادلاً . لم تكن جريمته كما صورها بعض الصوفيين بعده من أنه كشف عن سر (القدرة الالهية)، لكنه أعلن بدافع من ايحاءات داخلية ودعا إلى حقيقة تكمن فيها الفوضى الدينية والسياسية والاجتماعية . هذه الحقيقة وضحت لكثيرين من المتصوفة ، ولكن (الحلاج) انفرد عنهم بأنه عاش فيها ومات في سبيلها . ومن هنا جاءت الرقة والعاطفة الجائشة التي يندر وجودها عند غيره من المتصوفة في أبياته التي توسل بها إلى الاتحاد بمحبوبه والتي يحاول بها أن يعبر عن أحاسيسه بانسجام تام مع ذلك المحبوب :

بيني وبينك انيٌّ يزاحمني ... فارفع بأنك أنيَّ من البيّن[27]

=انتهكوا حرمة الكعبة واغاروا على العراق وحاصروا بغداد في أيام(الموفق) وكادوا يستولون عليها وغزوا عمان واليمن وخراسان وقطعوا طرق الحجاج ثلاثين عاماً (٩١٤ – ٩٤٣) . ومن زعمائهم القيرواني الذي قال في رسالة له إلى سليمان بن الحسن القرمطي « اني اوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والانجيل وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع وإلى ابطال المعاد والنشر من القبور وابطال الملائكة في السماء وابطال الجن في الأرض ... وفي هذا تحقيق دعوانا الباطنية واوصيك بان تدعوهم إلى القول بأنه كان قبل آدم بشر كثير فان ذلك عون بقدم العالم .... » قضى عليهم الموفق في ٩٤٥) بمذبحة الا أن بقاياهم الا سماعيليين المؤمنين اليوم لا شبه لهم باجداده الجاحدين . (المعرب)

٢٧) (ديوان الحلاج– المجلة الآسيوية آذار ١٩٣١ جمع وتحقيق ماسينيون)واليك التكملة :

آه أنا ام أنت هذين آلهين ... حاشاي حاشاي من اثبات اثنين

هوية لك في لائيتي أبداً ... كلي مع الكل تلبيس بوجهين

فأين ذاتك مني حيث كنت أرى ... فقد تبين ذاتي حيث لا أين

واين وجهك مقصور بناظرتي ... في ناظر القلب ام في ناظر العين (المعرب)

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فاذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

ربما حق لي أن أشير في سياق بحثنا إلى أن ثاني شطر من هذه الابيات الثلاثة لا يمكن أن يكتبها حلولي . إن التعبير الصوفي الذي يرمي إلى الفكرة نفسها موجود في عبارة (الجيلي) :

« نحن روح واحدة وإن كنا نتقمص جسدين » . وفي شعر جلال الدين الرومي :

ما أسعدها لحظةً حين نجلس في القصر معاً أنا وأنت
رسمين وجسمين لكن بروح واحدة أنا وأنت

ان اعلان (الحلاج)نفسه بأنه في أوقات معينة وأحوال خاصة تحوَّل إلى (الله)إعلاناً لم يكن (الحلاج)يقف لحظة عن تأكيد سموه بأقوى المعاني،لايكون باعثاً على دهشة أحد يعلم أن المتناقضات المنطقية هي عند المتصوفة في أغلب الاحيان حقائق صوفية. ومع أن عقيدة (الحلاج) الأصيلة لم تعش طويلاً بعده ، فقد كانت حجر الزاوية التي بنيت عليها مباديء صوفية كثيرة فيها ما يمت إلى طبيعة (الانسان الكامل) ذلك المبدأ الذي لعب دوراً هاماً في كتابات (ابن العربي) وفي الشعر الصوفي الفارسي . لكننا لن نصل منها إلى فهم تام لخلقه ولا إلى الأزمة النفسية الأليمة التي صورها في البيت التالي ذي الصدى العميق :

القاه في اليمّ مكتوفاً وقال له : « اياك اياك أن تبتلّ بالماء »

وكان العصر التالي (للحلاج) مجدباً بمقارنته مع سلفه،ومع ذلك فقد صدرت فيه أول البحوث المنظمة العمومية في عقيدة الصوفية ، ككتاب (اللُّمَع) لابي نصر السراج [٢٨] وكتاب (قُوتُ القُلوب) لابي طالب المكي [٢٩] الذي

---

٢٨) هو عبد الله بن علي بن محمد بن يحيى السراج الطوسي الصوفي (ت ٣٧٨هـ = ٩٨٨) =

حفظ لنـــا مواد نفيسة جداً استمدها من مصادر مفقودة الآن . وهـنـــا أخذ التصوف يبتعد عن مرساه (الدين الاسلامي) ويقترب من مذهب الحلول pantheism والتحلل الآلهي antinomianism (٣٠) اقترابـــاً حث خطاه التأثير المتعاظم للافكار الفلسفية اليونانية وعلى الأخص مذهب الفيض (٣١) . كل هذا صور باسلوب جميـــل في سيرة وتعاليم الصوفي الفارسي (أبي سعيد (٣٢) : ٩٦٧ — ١٠٤٩ م) . كانت تعاليمه من بعض النواحي تستثير

طبع كتابه « اللمع في التصوف » باعتناء الاستاذ نيكلسون صاحب هذا البحث السنة ١٩١٤ مع مقتطفات مترجمة الى الانكليزية . (المعرب)

٢٩) هو محمد بن علي بن عطية الواعظ المشهور بالحارثي (ت ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م) كتابه « قوت القلوب في معاملة المحبوب » طبع بمصر السنة ١٣١٠ هـ . تعلم في بغداد وسلك ثم مسلك التصوف وتوفي بها ولم يبرحها . (المعرب)

٣٠) تتألف هذه الكلمة من مقطعين : ضـــد *anti* وشريعة *nomianism* وتدل على مذهب من المذاهب المسيحية يقضي بتحرر المسيحيين من الخضوع لارادة الله . ويقول مشايعوه ان اتباع شريعة المسيح ليس شيئاً ضرورياً في المستقبل اذا استطاع المرء ان يعصم نفسه من الزلل وبفعل الخير . والمسألة هي هذه : هل ان نفس المرء تخلص بإيمانه أم بأفعاله ؟ هذه المعضلة من اقدم وأهم المعضلات التي دار النزاع والخصام حولها في الكنيسة وبسببها انقسم النصارى شيعاً . على ان هذه اللفظة لم تستعمل في الكتابة إلا على عهد(مارتن لوثر)حيث وصم بها (يوحنا كريكولا) واشياعه . وقد تجاوزنا الى تسميتها بالتحلل الالهي او ربما كان تسميتها لها (بالتحلل في الله)اقرب الى المعنى . (المعرب)

٣١) مـــذهب الفيض *emanation* مذهب فلسفي يرى معتنقوه ان جميـــع الموجودات قد انبعثت تدريجياً من الروح الاسمى (الله) . ويمكن إرجاع اصل هذه العقيدة الى مـــذاهب المصريين والهنود ومذهب الافلاطونية الحديثة . (المعرب)

٣٢) ابو الخير (٣٥٧ — ٤٤٠ هـ)شاعر فارسي خراساني اعتنق الصوفية متتلمذاً على السراج ، ورحل الى مسقط رأسه وبقي معتكفاً حتى موته . وكان معاصرا لابن سينا ، وقيل انهما التقيا . يعتبر اول من صاغ الأفكار الصوفية في الصور الشعرية التي شاعت في اقوال الصوفية بعده (المعرب)

الاعجاب لمـا تنطوي على روعة . فمن أقواله : « ان الولي الحقيقي يخرج إل الناس ويخالطهم ويأكـل معهم وينام بينهم ويبيع ويشتري في السوق ويتزوج ويشارك في أعمال المجتمع لكنه لا ينسى الله لحظة واحدة » .

لقد رأى جميع المخلوقات بأعين الخلاق وأوجد ينبوعـاً للخير والاحسان والمحبة الرقيقة ، فلم يجد سبيلاً للوصول إلى الذات الآلهية خيراً من ادخال المسرة إل قلب أخيه المسلم . أمـا أقواله بخصوص علاقة الولي بالشريعة ، فربمـا حملتنا على مقارنته بالحلاج . ولكن اختلافهمـا بالممارسة والجوهر جد عظيمين . فإذا كان الحلاج قد بقي محافظاً على تعاليم الشريعة بمـلء اختياره فجوبه بصراع جبـار استعر اواره بين اخلاصه للشريعة وبين طاعته للقوة الآلهية العليـا التي شعر بوجودها في ذاته . فان أبا سعيد يرى الشريعة ، حالة من حالات العبودية لكنهـا ضرورية لاولئك الذين مـا زالوا يسيرون في (الطريق) ولكنهـا تفيض على حاجة اولئك الذين بلغوا خاتمة المطاف . وهو يرى ان الاتحاد بالله ليس تجربة عرضية متقطعة بل النتيجة الحتمية الثابتة لفناء النفس الانسانية واكتسابهـا صفات الآلوهية . وقد زعموا انه كان يوصي تلاميذه بعدم الحج إلى الكعبة التي كان يسميها هازئـاً (بيت الحجر) . وقيل انه لمـا سمع مرة دعوة المؤذن للصلاة ، أبى أن يقطع رقص الفقراء الصوفي قائلاً « تلك هي طريقنا في الصلاة » . ان لم تثبت هذه الرواية تاريخيـاً فهي انموذج لمـا كان سائداً على الأ قل .

إن رسالة القُشَيري (٣٣) التي كتبها في العام١٠٤٥م لا تخدم المدرسة

---

٣٣) (٣٧٦ – ٤٦٥ هـ = ٩٨٢ – ١٠٦٨ م) : هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن ابن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري إمام المتصوفة . سلك مسلك المجاهدة والتجريد وأخرج مصنفاً باسم (الرسالة القشيرية) جمع فيها معلومات عن تاريخ التصوف والمتصوفة وأقوالهم وآرائهم محارباً الفلسفة التي كانت تهم بدفع التصوف من أحضان الاسلام الى التجريد.طبعت =

الصوفية القديمة التي قامت مبادؤهـا على أسس حفظ أحكام السُنة وتطبيقها حرفيـاً وبأمانة تامة بسبب مـا كان سائداً في زمنه من التمرد الشديد على الشريعة او الخضوع الكبير لهـا ، والرياء الذي كان سائداً بين الصوفيين في عصره . وبعد ذلك بثلاثين سنة ، أعلن صاحب (كشف المحجوب) (٣٤) بان اخوانه في العقيدة أطلقوا اسم الشريعة على لذاذاتهم ونعتوا أخيلتهم السخيفة (بالمعرفة الآلهية) . أمـا أهواء القلب ونزعات النفس الحيوانية . فسموها بـ(الحب الآلهي) ، والضلال الديني فهو في نظرهم (الفقر) والالحاد هو (الطهـارة) ، والشك في عقائد الشريعـة السائدة هو (أخذ النفس بالشدة) . وبينمـا كان الأولياء بأتباعهم وتلاميذهم العديدين يهددون الاسلام في تاريخه وتراثه ووحدته ، انقسم حزب المتزمتين على نفسه ، فتمسك فريق منهم بحرفية القرآن أشد تمسك ، وأخذ الفريق الآخر يجادل في تفاصيل الشعائر والقواعد الدينية ويمعن في تحليل القواعد اللاهوتية على ضوء فكري محدود ، صار يفقد بسرعة صلته بالروح الباطنية وبالحياة التي تجعـل الدين حقيقة من الحقائق . وسأل كثير من المسلمين المخلصين أنفسهم إلى مَ تدوم هذه الحـال ؟ وبحثوا عن الوسائل لصيانة الايمان في جوهره بشرط عدم احداث صدع يقسم الامة شطرين . هذا التساءل والبحث تقرر بظهور أحدى الشخصيات الاسلامية العظيمة وهو ابو حامد الغزالي (١٠٥٨ — ١١١١ م) المعروف عند اوروبا القرون الوسطى بـاسمي Algazel او Abuhamet .

=رسالته عدة طبعات ولها ترجمة الى الفرنسية . (اعتمدنا في المراجعة والتعليق على طبعة مصر سنة ١٣٣٠ هـ) . (المعرب)

٣٤) هو اقدم مؤلف فارسي في التصوف ينسب الى المتصوف المعروف(علي بن عثمان الجلابي الهجويري) حوالي ١٠٧٥ م ترجمه الى الانكليزية نيكلسون صاحب هذا البحث ١٩١١.(المعرب)

ان قصة هداية الغزالي إلى التصوف كما رواها بنفسه هي قصة فريدة في بابها[٣٥]. وليس علينا إلا أن نعيد إلى ذهننا بان الغزالي كان أيام صباه (دهرياً) فشفاه التصوف من علته هذه وجعله يكرس كل مجهوداته ومجال نشاطه للبحث عن الحقيقة . إن دراسته الفلسفية واصول الفقه أقنعته بأنه لن يجد ما ينير له السبيل ، حتى التعاليم الدينية ومبادؤها ذات الأحكام المنزهة فإنها تعجز عن سد حاجته ، وكفايته مطلوبه حين توضع موضع الفحص والاختبار . وإذ ذاك صرف همه إلى سلوك سبيل التصوف ، فكشف النقاب عن كتابات (الحارث المحاسبي (وجميع الاساتذة المتقدمين من القرن الثالث الهجري . وكان فجر الحقيقة ينبلج له كلما أمعن في القراءة فقال : « وظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات » او بكلمة اخرى (بالتصوف) . ووجد أيضاً أن خلاص نفسه كان معلقاً في كفة القدر وكانت مطالب الحياة في الوقت نفسه قوية عنده ، فبدأ هذان العاملان يصطرعان في نفسه اصطراعاً هائلاً حتى استطاع التغلب عليهما. واعتلّت صحته بنتيجة المجهود الذي بذله ، لكنه « لما أحسستُ بعجزي وسقط بالكلية اختياري ، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهّل عليّ قلبي الاعراض عن الجاه والمال والأهل والوُلد والاصحاب .. » وغادر بغداد ولم يكن سنه قد بلغت الاربعين مصمماً ألا يعود اليها أبداً .

---

٣٥) جاء (في المنقذ من الضلال) : « .. ثم اني لما فرغت من العلوم ، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية .. فابتدأت في مطالعة سبلهم .. فعلمت يقيناً أنهم أرباب احوال لا أصحاب أقوال ، وظهر عندي ان لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى .. ثم لاحظت احوالي فاذا أنا منغمس في العلائق ، وقد احدقت بي من كل جانب ، ولا حظت اعمالي واحسنها التدريس ، فاذا هي غير خالصة بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، فتيقنت اني على شفا جرف هار واني قد اشفيت على النار ان لم اشتغل بتلافي الاحوال .. » ص ٢٥ وما بعدها . (المعرب)

إذن فالمعرفة هي عند المتصوفة . وان تجربة الغزالي لهذه الحقيقة هي التي تمخضت « بالإحياء الديني » العظيم . كان أثر شخصية الغزالي لا يقل عن أثر كتاباته وأخصها بالذكر (إحياء علوم الدين) ذلك بنفوذه إلى مجتمعات ما كانت تحفظ للتصوف أي مودة حتى ذلك الحين . وإذ ذاك دخل التصوف في نطاق الديانة الاسلامية دخولاً تاماً . فالغزالي وأغلب من تلاه رأوا ان الوحي الذي خُصّ به الأولياء والصالحون وبضمنه ما أوحي به للانبياء ، انما هو مصدر وأساس (المعرفة الحقيقية).لكن (الصلاح) في الوقت نفسه منبثق من النبوة . لذلك فقد بقي الغزالي يلهج دوماً بسمو رسالة محمد (ص) ويشدد بوجوب الخضوع للشريعة وتطبيقها مبنى ومعنىً . ومع أن فكرته القائلة بان الروح هي مادة تعكس الله وصفاته كالمرآة يضيئها الشعاع الآلهي قد تؤدي بالصوفي الجريء إل استنتاج مضل ، فانه هو نفسه وقف في نجوة عن هذا الخطر الماحق وربما شمل ما فكر فيه جميع المعلومات المسطورة في كتبه . مع انه يقول مثلاً في كتابه (مشكاة الانوار) بان الله هو الشمس وليس ازاء الشمس إلا نور الشمس . ولكن استعمال اللغة الحلولية في الدين الاسلامي لا تعني ان مستعملها يجب أن يكون حلولياً . وفي الوقت الذي كان الغزالي يدفع مبدأ الاتحاد أحياناً إل أقصى حدوده ، فإنه لم ينس أبداً بان الله هو الخالق الذي اخرجت ارادته المطلقة هذا العالم إل حيز الوجود ، وانه بذلك وفّى دَيْنه العظيم للتصوف كاملاً . على أن أغلب المتصوفة يرون بحقٍ أن الغزالي ليس من شيعتهم بقدر ما هو من مدرسة المسلمين المحافظين ، تلك المدرسة التي لجأت اليها تقواه العميقة وحماسته الادبية العظيمة وتمكنه الشديد من الشريعة وطريقته الفلسفية الانتقادية فاستقرت فيها آمنة مطمئنة مهما بلغت ريبة المتصوفة به . لقد نال أعظم النجاح في جعل الدين القويم صوفياً ، ولكن طبيعة الاحوال تجعل من التعذر

علينـــا أن نعـده ناجحــاً في جعل التصوف دينــاً قويماً . فقد أشاع في التصوف روحــاً محافظة وآراء قويـة شديدة التماسك كانت بمثابـة اشبه (بكابحات) في ذلك الزمن العاصف الذي عقبه . لكن قوتهـــا الدافعة جاءت من صعيد آخر . فالافكار التي كانت تدفع بهذه العقيدة إلى الامام وهي صاغـرة بحيث بسطت نفوذها عليه بعدئذ ، ما كانت تمتُّ إلى آرائه نفسها بكبير صلة . إن الولاء والاحترام الذي كان يكنـــه كثير من افراد المدرسة الجديدة لشخص الرسول لم تخف حقيقته فقبِلْتهُم الروحية لم تكن مكة بل مدينتي أثينا والاسكندرية . وبالغزالي ينقضي عصر من تاريخ التصوف ، وإلى هذا الزمن كان الصوفيون يمثلون بصورة عامة فكرة العلاقة الوثقى الفردية بين الله والروح باعتبارها ضد العبادة المألوفة المرتكز على الحديث والسُنة وقد ألحقوا بها (لاهوتاً) ، بعضه مستمد من القرآن ، وبعضه من آثار أرسطو ومن الافلاطونية الحديثة التي وصلت اليهم . وكلما ضعفت قوة الاتحاد الاسلامي وتماسكه كلما كانت العناصر الغريبة تنفذ الى جذوره حتى صيرها سقوط الخلافة سيدة الميدان . وكان من نتيجة ذلك بروز فكرة (وحدة الوجود) التي ظلت مسيطرة بعد مرور سبعة قرون ومن أول مجيئها ، على جزاء واسعة من العالم الاسلامي كما أوضحهاوجلاها(جلال الدين الرومي) أو(حافظ) وغيرهما من شعراء الفرس الذين سحروا بأشعارهم كثيراً ممن وجدوا كتابة: (ابن العربي ١١٦٥ — ١٢٤٥ م)[٣٦] مبتدعها الأصلي مستغلقةً غامضةً . وقبل أن نتصدى له يجمل بنا أن نصف طابعاً آخر امتازت به تلك الفترة .

---

٣٦) ابن العربي(٥٦٠-٦٤٣هـ = ١١٦٥-١٢٤٠م) هو أبو بكر محمد ابن علي محي الدين الحاتمي الطائي الأندلسي امام المتصوفة في الاندلس . ألف كثيرا في التصوف وكلها نفيس غال ، وزعم بروكلمان أنه صنف اكثر من مائتي كتاب طبع له منها (الفتوحات المكية) و(ترنجمان الاشواق) وقد فصل ابن عربي عقيدة الحلول وقال بوحدة الوجود وابدع في شرحها.وكتابالكتاب الكثيرون عنه وعن آرائه. طبع له حوالي ٣٥ كتاباً في التصوف . (المعرب)

لقد شاهد القرن الثاني عشر بوادر تنظيم واسع جداً في الحياة الدينية، فيه شبه كبير برهبانية المسيحيين في القرون الوسطى . وكان مشاهير المعلمين الصوفيين في السابق يحيطون أنفسهم بجماعة من التلاميذ فيعيشون سوياً في شبه دير يسمى (خانقاه) . لكن المدارس التي كانت تنشأ على هذه الشاكلة ، ينقصها التماسك والثبات ، فلم يكن من الغرابة أن تختفي عاجلاً أم آجلاً هذه الجمعيات الحرة من المريدين التي تستوحي تعاليمها من اتصالها الشخصي بأحد شيوخ الطرق ، وأن يحل محلها (أخويات) ثابتة دائمة كل واحدة منها تختار طريقتها في العبادة مقتدية على آثار سلسلة من الأولياء الصالحين تبتديء بالنبي (ص) وتنتهي إلى مؤسس تلك (الاخوية) . والاساليب تختلف باختلاف الطرق ، والطرق بدورها تختلف بالنظر الى مبادئها الخاصة وموقفها من الشريعة ، وقلما كانت العزوبة شرطاً من شروط الانضواء اليها . إن أعضاءها كانوا يملكون المقدرة التامة على عمل الخير والشر معاً بواسطة الاعضاء المؤازرين الذين كانوا يجدونهم بوفرة من أخلاط المجتمع وعلى الاخص الطبقة الفقيرة . ويرى بعض الناقدين الاوربيين في (الحلول) النظري تفسخاً خلقياً عملياً . لكن عقلية الشرق لا يمكن أن تنحط لقبول مثل هذه المعادلات البسيطة . إن مذهب الحلول الصوفي بتطبيقه على الحياة ، إنما يتضمن مبدأ الشخصية الآلهية والواجبات الخلقية . وعلينا أن نقر انه بالنظر الى عدم وجود سلطة دينية معترف بها عند المسلمين ، فقد تمتع المتصوفة بحرية أساء استعمالها كثير منهم . كان (محي الدين ابن العربي) أعظم عبقري نظري عندهم . ولد بمرسية من بلاد اسبانيا ، وتوفي في ١٢٤٠ م بدمشق . ان عقيدته في فلسفة الكون رُكزت في مجموعة ضخمة من كتاباته ؛ أجلها وأعظمها شأناً كتاب « الفتوحات المكّية » و « فصوص الحكم » والقسم الاكبر من هذين الكتابين خيالي حافل بالغموض ، ومع ذلك فما قرأه أحد إلا تولاه الاعجاب والاكبار

لفرط معرفة المؤلف الواسعة وخياله الخصب ، مع ان بعضهم ، (كعبد الكريم الجيلي[٣٧]: ت حوالي ١٤١٠ م) شرحوها وبسطوها واختصروها أكثر مما فعل هو نفسه . وان الفقرات التي سنوردها فيما يلي تتضمن نقاطاً على جانب عظيم من الاهمية .

كان ابن العربي موحِّداً(وحدوياً) monist صلب القناة. والاسم الذي أطلقه على عقيدته هو (وحدة الوجود) ينطبق على ما فسره منها تمام الانطباق. لقد وجد ان الاشياء وجدت قبل أن تخلق كأفكار تجول في ضمير المبدع الخلاق أينما تصدر وحيثما توجد وليس هناك خلق من العدم ex nihilo والارض ليست إلا المظهر الخارجي لما كان يستقر الله في مظهره الباطني . وفي الوقت الذي تكشف كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة عن جزء من هيولي الحقيقة ، فإن الانسان هو (العالَم الصغير microcosm) تتحد في ذاته جميع صفات الله . وفي الانسان نفسه يستقر الله بوجوده الشخصي . هذه العقيدة التي انصهرت فيها عناصر مستمدة من المذاهب الغنوصية والافلاطونية الحديثة والمسيحية وغيرها احتلت مركز الصدارة في نظرية ابن العربي . انها بصورة أساسية عقيدة الكلمة (logos) . تجسدت الآلوهية وظهرت الى حيز الوجود

---

٣٧) عبد الكريم الجيلي (٧٦٧ – ٨١٤ هـ = ١٣٦٦ – ١٤١٠ م) : هو قطب الدين عبد الكريم بن ابراهيم بن سبط عبد القادر الكيلاني ، ومقبرته موجودة في بغداد . أحد أئمة المتصوفة ومبتدع النظرية الصوفية الشهيرة القائلة ان مظهر تعدد الاديان والعقائد يعود إلى تعدد الصفات الآلهية والاسماء التي يتجلى بها الحق بين مظاهر الخلق . فالوثنيون مثلا يعبدون الموجود الذي يتخلل كل جزء من أجزاء العالم المادي . والثنوية يعبدون وحدة الخالق والمخلوق . وعبدة النار يعبدون الذات الواحدة التي تفنى فيها جميع الاسماء والصفات كما تفنى الاجسام في النار الطبيعية وانك لواجد تفصيل هذه النظرية في كتابه المطبوع بمصر (الانسان الكامل في معرفة الاواخر والاوائل) طبع بجزأين عدة طبعات . (المعرب)

في الفكرة الصحيحة للانسانية حيث كان (آدم) اول تجسد لها ؛ والانسان الكامل باعتباره صورة الله والنموذج الاصدق للطبيعة ، هو وسيط بين العناية الآلهية ومبدأ الكون الذي وجد بمؤداه العالم وثبتت أسسه في الوقت نفسه . والانسان الكامل هنا هو (محمد) لا غير ، وان عقيدته التي سبقت وجوده استقرت في الفقه الاسلامي قبل مجيء (ابن العربي).فجوهره الروحي وهو أول شيء خلقه الله إنما يُدرك بوصفه نوراً سماوياً (نوراً محمدياً) تجسد في آدم وفي سلسلة من جمهرة الانبياء بعد آدم بتقمصهم من جيل الى جيل حتّى ختم ظهورهم بمحمد نفسه . ولكن الشيعة ترى أن هذا الجوهر الروحي انتقل من محمد الى علي ، ثم إلى كل إمام في بيته من بعده ، أما المتصوفة فيعتقدون ان هذا (الجوهر) واجب الوجود عند الاولياء . ويصف ابن العربي شخص محمد في طبيعته الحقيقية بكونه (حقيقة الحقائق) .هذا المصطلح الذي استخدمه اوريكن [٣٨] في وصف (الكلمة logos) ، وبكونه (العقل الفاعل active intellect) [٣٩] في فلسفة ارسطو . وعلى ذلك فهو وكيل في خلق العالم(الحقّ المخْلوق به). وخليفة الله على الأرض والقطب الذي يتوقف عليه وجودها وهوالذي بسببه خلقت. انه المصدر بل المجرىالاوحد لكل العلاقات

---

٣٨) اوريكن *Origen* (١٨٥–٢٥٥م) فيلسوف من فلاسفة مدرسة الاسكندريةالمسيحية، اول فلاسفة النصارى الذين شرحوا معاني التجسد الالهي (التأنس) وكيفية الخليقة (المعرب)

٣٩) يميز ارسطو بين التجربة والمعرفة ويقول أن للنفس قوة احساس . غير ان هذه القوة اذا تجردت ، عن ذات الشيء فلا توجد الا في حيز القوة ، ولا تصير فعلا ، الا اذا لازمها شيء خارجي . وهذا هو معنى الشيء الخاص ، وصورته تثبت في الذهن بالتذكر . وبتكرار التذكرة تنشأ التجربة او الخبرة . والخبرة هي اساس المعرفة لكنها ليست المعرفة بذاتها ، لان صفة المعرفة ان تدرك الشيء العام والصور التي تمر بها هذه الصفة أو الخاصية بالعقل المنفعل ، هي مادة المعاني والمثل ولكن ليست هذه المثل موجودة الا بالقوة فتصير عندما يميز العقل الفاعل ويجرد (تجريد) العام من الخاص . (المعرب)

الآلهية . لانه نبي في الوقت الذي كان آدم من طين . إن جرْس هذه العقيدة يشبه رجع صدى العقيدة التي بشّر بها بولس الرسول وكاتب الانجيل الرابع (٤٠) فيما يتعلق بالمسيح وقد يكون (ابن العربي) كذلك الى حد ما . ومهما يكن، فقد أظهر ميلاً غريباً للمسيحية ونعت (بالكلمة) كلاً من(محمد والمسيح)، لكنه لم يقصرهما عليهما . إن صوفية اتحادية خالصة تؤدي لا محالة ، إما إلى عقيدة الحلول ، او إلى عبادة الأولياء ، او الى مزيج من الاثنين كما في الاسلام . وبغض النظر عن الطبيعة الآلهية المجردة ، يبقى النبي او الولي الذي يُظهر الله ذاته فيه وبوساطته كمحل للعبادة الشخصية . إن عقيدة (الكلمة) الإسلامية تبدو وكأنها انبعثت من الحاجة الى كفاية الشوق الديني العميق من دون إفساد للوحدة الآلهية . انها استعاضت عن التجزئة المسيحية للشخصية الآلهية باختلاف الصفات ؛ فالانسان الكامل يمثل الله فيما يتعلق بالارض ، ومن ثم فان العبادة الصوفية لمحمد (ص) كثيراً ما يعبر عنها بكلام لو سمعه النبي مكة لعده من قبيل الزندقة والكفر كقولهم « لولا نور سيدنا محمد لما انكشف سر من أسرار العالم ولا فاض نبع ولا جرى نهر ».والصوفية يسمون محمداً (بحبيب الله) وينعتونه بانه مانح النعم الآلهية كافةً لاولئك الذين يحبونه ويعيشون باتصال مع روحه . وعلى كل حال فالمحبة الواجبة للنبي والأولياء عند ابن العربي ، انما هي شكل من مختلف أشكال الاعتقاد بأن الله يكشف عن نفسه فيقول : ان الصوفي الحقيقي يجد الله في كل الاديان :

لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ ... فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبان
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبــةُ طائــفٍ ... وألواح توارةٍ ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهــتْ ... ركائبُه فالحبُّ ديني وايماني

٤٠) بولس هو احد الحواريين الاثني عشر ويوحنا هو مدون الانجيل الرابع ومن حواريي المسيح (المعرب)

ان «آله» الدّين محدودٌ اذا قورن بـ«آله» التصوف . لذلك كان من الجهل والتجني ان نمتدح مذهب أحدهم ونُقبّح مذهب الآخر ، حتى الكفرة والمجوس فهم خدام الله خلقهم على صورته . وهو رؤوف بخدامه وإن كانت الشريعة تقضي عليهم بالموت . وقد استدل (ابن العربي)من الحقيقة القائلة بان النفس هي شكل من أشكال الوجود الآلهي ، أن الاعمال البشرية تقوم بها النفس بمحض اختيارها . ولكن نظريته هذه لا ترى حرية الاختيار في الاحوال العادية فالله نفسه يعمل بالنظر الى ضرورة طبيعته التي تستلزم أن يُنتج تغيير صفاته اللامتناهي ، تغييراً لا متناهياً في الآثار والاشياء التي تظهر صفاته فيها ، ويشمل ذلك ظهور النور والظلام والخير والشر وكل الاضداد التي تتوقف عليها احتمالات المعرفة . وما دام والحالة هذه لا احتمال لوجود حالةٍ أُخرى إلا حالة وقتية ،وكل آثم لا بد أن يخلص في النهاية .

هناك الكثير عند (ابن العربي) مما يذكرنا (باسبينوزا)[٤١]، ولكنها مجازفة منا حقاً أن نزعم بان هذا اليهودي الاسباني كان على معرفة بآراء المسلم الاسباني الذي كان تماديه بالخيال الصوفي كثيراً ما يخفي حقيقة كونه مذكراً جاداً عبقرياً كذلك . أما من الجهة الاخرى ، فمما لا شائبة فيه ان ابن العربي اثر على بعض الباحثين المسيحيين في القرون الوسطى كما أشار البروفسور آسين بالاشيوس Prof. Asin Palacios مؤخراً أن كثيراً من أوصافه وتعريفاته بجهنم والفردوس والرؤيا المباركة [٤٢] أوردها دانتي بالدقة والمطابقة

٤١) اسبينوزا (١٦٣٢ – ١٦٧٧) فيلسوف معروف هولندي نشر أثناء حياته كتابه « مبادىء الفلسفة الديكارتية » وبعد وفاته كتاب « الأخلاق » وتتلخص فلسفته بانكاره المذهب التجريبي وقوله ان العلم الحقيقي لا يدرك الا بالفعل المجرد وانه يرتقي بالتحليل الهندسي.(المعرب)

٤٢) راجع النشيد الرابع عشر من كتاب الفردوس في (الكوميدي الالهية) لدانتي . والبروفسر آسين هو قس اسباني يعد في طليعة الباحثين والمستشرقين العرب ، نشر كتباً عدة (لابن باجه والبطليوسي)وله ابحاث قاموسية في الكليات العربية الداخلة لغة اسبانيا. انظر ما سبق عنه (المعرب)

نفسها بحيث يصعب القول انها جاءت عفواً . فرقعة جهنم والسماء النجومية وحلقات الوِرْد الصوفية، وأجواق الملائكة تحيط بمصدر النور الآلهي وفيضه . والدوائر الثلاث التي ترمز الى الاقانيم الثلاثة؛ كل ذلك وصفه(دانتي) كما وصفه (ابن العربي) بالضبط . حدثنا (دانتي) أثناء مضيه صعوداً في الفردوس، كيف كان حبه يزداد قوة ورؤاه الروحية نفوذاً ووضوحاً بمشاهدته بياترتشي Beatrice تزداد فتنة وجمالاً . وتظهر الفكرة نفسها في شعرٍ لابن العربي كتبه قبل ذلك بقرن في ديوانه « تَرْجُمان الاشواق » :

لاني أرى شخصاً يزيد جمالُـه ... اذا مـا التقينـا نظرة وتكبرا
فلا بد من وجدٍ يكون مقارنـاً ... لِما زاد من حُسن(نظام)مُحرّرا

وربما حقّ علينا ان نذكر ان (ابن العربي) كان قد علق بحب (بياترتشي) أخرى هي (نظام بنت مكين الدين)[43] المثقفة الفتانة. ونظراً لما سببته القصائد الصوفية التي نظمها فيها من فضيحة ، فقد عمد الى كتابة بعض التعليقات على تلكم

---

٤٣) كان ابن العربي في الثامنة والثلاثين حين تعرف الى الفتاة الفارسية (نظام) الملقبة بعين الشمس في مكة السنة ١٢٠٩م ، وكانت آية في الجمال والنباهة والذكاء تحفظ الشعر وتعرف أسرار التصوف . فأسرته وأصبحت شغله الشاغل وعروس خياله ، فأخذ ينظم القصائد متغزلا بها وكان يعمد إلى تمويه اسمها في قصائده فيدعوها مرة (فاطمة) ومرة (صفية) كقوله :

لبست صفيـة خرقـة الـفقراء ... لـما تحلت حليـة الامناء
وأتـت بكل فضيلـة وتنزهـت ... عن ضدها فعلت على النضراء

ويظهر ان الحب الذي شب في نفسه فجأة أسلمه الى القلق والشك فصار لا يقر له قرار فكان يفر هارباً منها من مكة الى دمشق ثم الى بغداد ثم الى مكة وهكذا . ولقد كان لدانتي أيضاً حبيبته (بياترتشي) ابنة (فلكوبور تيناري) عشقها أيام كان عمره تسع سنوات وكانت بنت ثمان، ووصف عشقه هذا في قصائد شبابه ورجولته ، ويبدو انها توفيت بعد زواجها برجل آخر وفي ميعة الصبا . كانت من أبرز شخصيات كوميدياه الآلهية. ويظهر انه حبس هواها في قلبه أو حياتها ولم يبح لها بحبه حتى تفجرت عاطفته في مجموعته (الوليمة) . (المعرب)

القصائد لاقناع منتقديه بخطأهم . وشبيه بذلك ما صرح به (دانتي) في كتابه « convito » (٤٤) من عزمه على تفسير المعاني الغامضة لاناشيد الحب الاربعة عشر التي نظمها في زمان مضى حيث أنها أدت الى اعتقاد الكثيرين بأنها كانت تنطوي على الحب العاطفي لا الحب الفكري . وبالاجمال ، وسواء في ذلك أكان الاتفاق بين الصعيدين عاماً أم خاصاً ، فانه وصل حداً لا يحتمل فيه إلا تعليل واحد ، هو ان عقائد المسلمين الدينية مثل المعراج (صعود النبي الى السماء) والشروح الفلسفية الدينية لمذهب ما بعد الحياة المستمدة من التراث الاسلامي العام ومن كُتاب المسلمين (كالفارابي وابن سينا والغزالي وابن العربي)، لا بد وانها كانت قد جمعت في المذخر العام للثقافة العلمية التي تيسرت لأنبغ العقول الاوروبية في القرن الثالث عشر . وقد عاد الفاتحون العرب في اسبانيا وصقلية بالطريقة نفسها وان كانت على مقياس أضيق وأقل بروزاً ، فملأوا هذا الوطاب الثقافي الذي كانوا هم أنفسهم يدينون به للمدنية الهيلينية حين كانت تنشر ظلها الوارف على سوريا وبلاد فارس . وإن نحن وجدنا في كلتا الحالتين صعوبة عظيمة في الحصول على الدليل المحسوس لهذين الانتقالين ، فما ذلك إلا لعدم وصول شاهد خطي الينا فيه تفصيل للتماسّ الثقافي الذي استمر حقبة طويلة من الزمن بين مجموعتين بشريتين عاشتا معاً في اتصال وثيق يوميّ .

ولنلتفت الآن الى الشرق حيث لاحت في الأفق بوادر العصر الذهبي للتصوف الفارسي ، وكما يعقب الليل النهار ، فانه أشرق على أثر حقبة يكل عن وصفها القلم من مذابح وخراب ودمار سببه المغول القادمون من آسيا الى تلك الديار ،مروا وما مخلفين وراءهم إلا الرعب والشقاء والاضطراب.وكما في

---

٤٤) كتاب ألفه دانتي سنة ١٣٠٤ او ١٣٠٨ وتركه ناقصاً ، فيه شعر وسير وفلسفة وحوادث الخ .. (المعرب)

الشعوب ، كذلك في الافراد كان معاناة ذلك البؤس الطويل العظيم يتطلب بعض المؤاساة والعلاج . فلا عجب إن آضت بلاد فارس (وقـد برح بها الاعياء وبلغ بها حداً لم تستطع معه إسعاف نفسها) تنشد الراحة عند اولئك الذين يقدمون لها بيدٍ ، مُثُلاً عليا تعاظمت قيمتها حين بدت وكأنها اختفت من وجه الأرض وأعني بها النظام والطمأنينة والعدالة والخير وهي فضائل اجتماعية ارتبطت بالعرف والتقاليد ارتباطاً وثيقاً فكانت أساس الحياة المنظمة لأي شعبٍ ، ويقدمون لها باليد الأخرى أمل التصوف بالسلام الدائم والفرح الذي يُتوصل اليه بطهارة القلب ، تلك الطهارة التي ترى أنفسهم بها حياة روحية هي وحدها الحياة الحقة الباقية . وقد وقعت هذه المهمة على عاتق الشعراء المتصوفين ، وكان السبيل الذي سلكوه للنهوض بهذه المهمة هو الذي أذاع شهرة الشعر الصوفي الفارسي فطبق ذكره الخافقين حتى البلاد التي كان فيها قرّاء تلك اللغة قلة .

لقد جاء الاصل الثقافي لصورة هذا الشعر من(ابن العربي) ، وسنرى فيما يلي أن التصوف بهذا التأثير يعود ، فهو لا أكثر من عمل للقلب والضمير ؛ كفلسفة تأملية تقف بنجوة عن الاحاسيس الدينية والاخلاقية العميقة التي ألهمت المتصوفين الاولين ، فلم يعد الولي المثالي ، ذلك الشخص الذي يصل الى الله بطريق الصلاة والعبادة حتى يجده بعد مجهود شاق ، في رجوع الميت الى روحه بطريق العمل الحسن الباطني الذي يرتكز على ارادة الخالق الشخصية فحسب ، بل عاد فاذا هو نيو صوفي كامل Theosophist [٤٥] أو كاهن

---

٤٥) معنى الكلمة الحرفي (الحكمة الالهية) واصحاب هذه العقيدة يدعون معرفة خاصة بالذات الالهية ، ويقولون أحياناً ان هذه المعرفة نتيجة لفعل قوة اعلى او لوحي خارق للعادة ولا يقال انها نتيجة لوحي بل توصف انها اعمق حكمة نظرية لاصحابها الذين يسمون ثيوصوفيين. هؤلاء الثيو صوفيون يبتدئون بالكلام في الذات الالهية ويحاولون تعليل هذا العالم – عالم الظواهر – بأنه رد فعل قوي بالذات الالهية نفسها . (المعرب)

Hierophant لا تخفاه خافية الاعين . الانسان الكامل الذي يتحقق في نفسه وجود الله او ما يسمى (بالكلمة) :

كنتُ في ذلك اليوم الذي لم تخلق بعد الأسماء .
ولا ما ينم عن وجود اسم ما
بمقدرتي ظهرت الاسماءُ والمسمياتُ الى عالم الوجود ،
في اليوم الذي لم يكن ثمّ وجود لا لـ (أنا) ولا لـ (نحن)(٤٦)

قبل أن نأتي الى إجمال أغراض هذه الأبيات ، قد يحسن بنا أن نفي شرح النظرية الفلسفية التي تنطوي عليها . ان حقيقة الله هي كل ما موجود حقاً ، وصفات الله تتميز عن ذاته بالفكر ، على أنها في الواقع ليست إلا هو نفسه . ومجموع الصفات الآلهية التي نطلق عليها اسم (الكون) ؛ هي المنظار ذو الأوجه الملونة الدائمة التغيير الذي تظهر ذاته فيه . فلا تكون(حقيقة)الا عندما تنعكس ذاته فيها فقط ؛ بالظواهر (٤٧) والحالة هذه هي من قبيل اللاوجود . انها تتطلب وجوداً صوفياً منبثقاً من الوجود المطلق ، الوجود الذي تستمد منه نورها . أما مركز الانسان ووظيفته في نظام الاشياء ، فقد أتينا الى شرحه فيما سبق . في الانسان تلتقي العوالم الروحية والمادية جميعاً ؛ والانسان يقف كمحور للكون الذي هو روحه لكنه في مظهره أسود بظلام العدم ، اذ ان نزعاته الجسمانية تبقيه أسيراً . لذلك يخيل له أنه منفصل عن الذات الآلهية ،

---

٤٦) انظر المقطوعة المرقمة (١٧) من المجموعة الشعرية الانكليزية للمؤلف المسماة (مترجمات لشعر ونثر شرقيين) طبعت السنة١٩٢٢ وهي جزء من مقطوعة شعرية لجلال‌الدين الرومي.(المعرب)

٤٧) مذهب الظواهر *Phenomenism* هو المذهب القائل بان علمنا بالأشياء قاصر على معرفة ظواهرها دون حقائقها اي دون الأشياء ذاتها . فكل ما نعلمه في العالم انما هو ظواهر ، وان الظواهر هي كل شيء في الوجود ، ومعنى الظاهرة في هذه النظريةهي الحقيقة الماثلة امام العقل اما مباشرة او عن طريق الاستنتاج فاذا كان الامر كذلك فلا معنى للكلا م عن الأشياء في ذاتها اي عن وجود شيء لا علاقة له بالعقل . (المعرب)

هذا الوهم الذي يشد أزره ويقوي شكيمته العقل والشعور ، يناقض المبدأ الأول من الفلسفة الصوفية التي تُعلِمنا ان الموجودات والفعاليات البشرية كافةً ، انما هي مظهر من مظاهر النشاط الآلهي . أما معنى ذلك فقد استغلق على غير الصوفيين وهم وحدهم الذين توصلوا اليه . لكنهم بالطبع لا يستطيعون إيصاله الى الآخرين الا بصورة رمزية . ان الشعر الغزلي الذي تشف عنه هذه العقيدة كما يشف الخيال ، كان أعظم وسيط الى المخيلة لما يصعب فهمه على الذكي.زد على ذلك ان عاطفة الحب توائم أشد مواءمةٍ ، نوباتِ الوَجْد التي يراها الصوفيون دائماً من مستلزمات المعرفة والولاية .

في فترة متقدمة كانت قراءة القرآن تستخدم بصورة منتظمة لإحداث حالة الغيبوبة ثم ما لبثت القصائد الغزلية أن صارت تستخدم لهذه الغاية (لم يكن يراد بها باديء ذي بدء أن تستخدم لمقاصد صوفية) وصارت تنشد قصائد كثيرة من هذا النوع أحياناً لهذا الغرض بالذات ، ولم يكن هدف الشعراء الوحيد التعبير عن حقيقة الحقائق دائماً ، بل ليخلقوا بفنهم هذا عالم أحلام جميلاً زعيماً بايحاء اللامتناهي والمعبّر عنه . وكفيلاً بدستنة الروح على فرائض الايقاع السماوي وتزويدها بالتجارب الصوفية العليا . وأول مقطوعة من الامثال التالية منتزعة من ديوان(ابن الفارض)، اما الثانية فجزء من قصيدة فارسية لجلال الدين الرومي :

ولقد خلوتُ مع الحبيب وبيننا | سرٌ أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفي نظرةً أمّلْتُها | فغدوتُ معروفاً وكنتُ منكرا
فدهشتُ بين جماله وجلاله | وغدا لسانُ الحال عني مُخبرا
فأدر لحاظك في محاسن وجهه | تلقى جميع الحسن فيه مصورا
لو أنّ كل الحسن يكمل صورةً | ورآه كان مهللاً ومُكبرا

* * *

بيت الحب

هذا هو البيت الذي لا يقف صوت الكمانجة
عن سؤال ربه قائلاً « بيتُ مَنْ هذا ؟
إن كان هو الكعبة فماذا يعني هذا الوثن ؟
وإن كان هيكلاً للمجوس فما معنى نورُ الله فيه ؟
« في هذا البيت كنزٌ ، الكونُ أصغر من أن يحتويه .
هذا (البيتُ) وهذا (الربُ) كلاهما موجودٌ ومنشغلٌ .
لا تضعْ على (البيتِ) يداً ، لانه طَلّسْم
لا تحادث الربَّ لانه سكرانُ منذ ليلة أمس .
إن غبار هذا البيت وأنقاضه هي مِسْك وعِطر
وأبوابه وسقفه كلها شِعر وألحان .
وقصارى القول ؛ فكل من هداه سبيلُه الى هذا البيت
فهو سلطان الارض ، (وسليمان) عصره وأوانه .
آه يا مولاي ، أطل برأسك ولو مرةً من هذا السقف
ففي وجهك الوضاء بشير السعد واليُمن
كمرآة وجدتِ النفسُ صورتَك في قلبها
ان خصلة من شعرك نفذت الى قلبها كمشطٍ
هوذا رب السماء الذي يشبه (الزهرة) و (القمر)
هوذا هو بيت الحي الذي لا حد له ولا نهاية » .

بينما تحلق هاتان المقطوعتان الشعريتان فوق الزمان والمكان وترخيان العنان لغبطة وَوَجد يريان كل الاشياء [فوق المحدود باتحاد sub specie unitatis] نجد شكلاً مرغوباً آخر من الشعر الفارسي ، هو القصة الغرامية التي بلغ بها

الشاعر (نظامي[٤٨] : ت ١٢٠٣ م) حد الكمال . أُجيد استخدامها بصفة خاصة في وصف التباريح وشدة شوق الروح الى الله . واننا لنجد عنده منظومات صوفية لقصص الحب القديمة كغرام مجنون بليلى (ورليخة) امرأة (فوطيفار) بيوسف. وثمَّ نوع ثالث كثير المقدار يستهدف أغراضاً تعليمية بالدرجة الأولى او هو تعليمي بحت . وكـان أول أمره مجرد مواعـظ منظومة أو أكثر قليلاً تطرزها أمثال وجيزة وحكايات ، مثال ذلك (حديقة الحقيقة) للشاعر (سنائي الغزني)[٤٩] او وصف رمزي لدرجات الرقي الصوفي الذي يستهدف الاتحاد بالذات الآلهية . ما لبث هذان النوعان ان بلغا الأوج ؛ أولهما في كتاب (مثنوي لجلال الدين الرومي) ، وثانيهما في كتاب (منطق الطير : لفريد الدين العطار)[٥٠] وهو قصة جماعة من الطير انطلقت بزعامة

---

٤٨) (٥٣٦ – ٦٠٠ هـ = ١١٤١ – ١٢٠٣ م) هو نظام الدين أبو محمد الياس بن يوسف من أعظم شعراء الغزل الصوفي ولد في قم وقضى أغلب حياته في (كنجه) . أخذ بتأليف الشعر الصوفي الغنائي فعمل قصة اسمها (خسرو وشيرين) ثم اتبعها بغنائيته الكبرى (مجنون ليلى) و (حفت بيكار : اي الغانيات السبع ويروي فيها قصة زوجات الملك الساساني (بهرام كور) السبع. وقيل أن ديوانه الذي جمعه سنة ١١٨٨ م كان يحوي أكثر من عشرين الف قصيدة . اما (يوسف وزليخة) فقد ترجمها الاستاذ كريفت الى الانكليزية نثرا في العام ١٨٨٢ . (المعرب)

٤٩) (ت ١١٥٠ م) هو أبو المجد مجدود بن آدم احد شعراء الصوفية الفرس الاوائل . ولد في غزنة بافغانستان ونبغ أيام السلطان ابراهيم (١٠٥٩ – ١٠٩٩ م) وابنه مسعود وحفيده ابراهيم ومرت حياته بفترتين أولاهما كان فيها شاعر البلاط وكانت قصائده كلها في مدح السلطان ، ثم سلك فجأة مسلك التصوف فهجر القصر وتوارى عن الناس وعاش أربعين سنة في فقر وخصاصة يقرض الشعر الصوفي ، منه ملحمته « حديقة الحقيقة الفه السنة ٥٢٥هـ» وتسمى بكتاب الفخري . ومن كتبه الصوفية (طريقتي تحقيق) و (عقل نامه) . (المعرب)

٥٠) (٥١٣ – ٦٣٦ هـ = ١١١٩ ١٢٢٩ م) : هو محمد بن ابراهيم النيسابوري بائع العطور ، استهوته طرق المتصوفة فأغلق دكانه وتتلمذ على ركن الدين ، يدرس فلسفة التصوف=

(الهُدْهُد) للبحث عن (السّي مُرْخ) ملكهم الخفي. وبعد عبورها الوديان السبعة وهي: [البحث ، والحب ، والمعرفه ، والانفصال ، والاتحاد ، والضلال وإنكار الذات]: سُمح لمن نجح منها في الوصول – وكانت ثلاثين – بدخول حضرة(السّي مُرخ)وهنالك أدركوا في الحال بأنهم هم أنفسهم ال(سي مُرْخ) وان ال (سي مرخ) ليس إلا جماعة الطيور الثلاثين .

راحوا يلتمسون كشف هذا السر العميق ويطلبون حل
مشكل (أنا) و (نحن) فجاء الجواب من (الحَضرة)
بغير كلام يقول « هذه الحضرة الشبيهة بالشمس ،
هي كالمرآة كل من دَخَلَها رأى ذاته فيها .
رأى فيها الروح والجسم ، الروح والجسم كليهما

وربما استطاع المرء أن يصل الى غرض الشاعر هنا من تأمل عبارة مهمة بحد ذاتها للجيلي (الجيلاني) ، يجد فيها قائلها ان المسيحيين أخطأوا في قصر تجسد الشخصية الآلهية على شخص المسيح ، فهو يقول :

وما لبث أن صار من مشهوريها . تنقل في كثير من البلدان فزار مكة ومصر ودمشق والهند وبغداد ، ثم استقر بمدينة (شدياخ) وانكب على الرياضة الصوفية وكتابة النثر ونظم الشعر وكان بديع الاسلوب رقيق النظم مكثراً حتى قيل أنه ألف أكثر من مائة وعشرين الف مقطوعة شعرية. وقد وصل في التأمل الصوفي أواخر أيامه حداً بعيداً فحرم على نفسه نظم الشعر ، وبقيت مؤلفاته مصدر الفلسفة الصوفية بعده على الاخص في وحدة الوجود وله كتب كثيرة منها (أسرار نامه) و (منطق الطير) وهو كتاب ضمن للعطار الخلود حشدت فيه جميع معتقدات الصوفية ورياضتهم وفلسفتهم بزهاء ٤٦٠٠ بيت من بحر الرمل والقافية المزدوجة(المثنوي). ونسخه الخطية كثيرة ترجمه الى الفرنسية كارسان دي تاسي *Garcin de Tassy* باريس السنة ١٨٦٤

والملاحظ أن (فريدالدين)، جعل في(سي مرح)الهدهد رسولا لأنه هو الذي قاد سليمان الحكيم عبر الصحراء ، ولقد استفاد الشاعر من المعنى المزدوج لكلمة(سي مرخ) الفارسية ، فهي آناً تعني : ثلاثين طيراً ، وهي آناً تعني : الطائر الخرافي ملك الطيور ، وذلك للوصول الى الغرض الصوفي الذي رمى اليه . وله أيضا كتاب (تذكرة الأولياء) وهو في تراجم الصوفيين (المعرب)

« قال الله تعالى ونفختُ فيه من روحي . وليست روحُه غيره . فهذا إخبار الله سبحانه وتعالى بظهوره في آدم .. لان من شهد الله في الانسان ، كان شهوده أكملَ من جميع من شهد الله من أنواع المخلوقات ، فشهودهم ذلك في الحقيقة (العيسوية) يزول بهم – اذا انكشف الامر عن ساقٍ – أن يعلموا أن بني آدم كمراءٍ متقابلات يوجد في كل منها ما في الاخرى فيشهدون الله تعالى في أنفسهم فيوحدونه على الاطلاق فينتقلون الى درجة الموَحِدين[51]

ان حالة الوجد لا تعرف شريعة او قانوناً ، لذلك فان الانسان الآلهي هو فوق الايمان والكفر ولكن ذلك يجب ألاّ يفهم (خلا الصوفي المبتديء أو المنحط) بانه سماح له بسلوك سبيل الكفر والفساد الخلقي . فالولي الحقيقي هو الذي يحفظ سنن الشريعة لا لكونه مجبراً عليها بل لشعوره في ذاته بانه والله جزء واحد . ان الدائرة التامة الآلهية يجب أن تستوعب صورتي المعبود الداخلية والخارجية ، الواحدية والتعددية ، الحق والشريعة معاً ، وأنه لا يكفي ان ينفلت الانسان من قيد الانسانية دون أن يدخل الحياة الخالدة الآلهية الظاهرة في أعماله . والاتحاد بالله (البقاء) بعد المرور في حياة الروح (الفناء) ، إن هو إلا العلامة المميزة للانسان الكامل الذي لا يكتفي بشد رحاله الى الله ، أعني الانتقال من صفة التعدد الى صفة الواحدية . بل يجب أن يكون مع الله وفيه . أي يلزم أن يستمر في حالة الوحدة . وفي هذا التردي يجب عليه أن :

« يجعل من الشريعة رداءه الخارجي

ومن طريقته الصوفية رداءه الباطني »

ذلك لانه يصطحب الحقيقة في رحلته هذه ليظهرها للجنس البشري ، وفي الوقت نفسه ينجز جميع الواجبات التي تضعها الشريعة الدينية على عاتقه . ولو تركنا جانباً هذه النظرية وجدنا كبار أولياء المسلمين وأغلبيتهم من المرشدين

---

٥١) الانسان الكامل ج ١ ص ٧٥ ، ص ٨٢ (مطبعة حجازي) (المعرب)

الروحيين أذكى على العموم من أن يطرحوا معارفهم السامية تحت أقدام اولئك الذين لم يتمكنوا من المعرفة الأولى . وهم بذلك كبولس الرسول يميزون بين الحليب الضروري لطائفة من الناس وبين اللحم المتُغَسَّر المسموح به للآخرين . هذا المذهب ، مذهب الحقيقة الثنوية يعينهم على التوفيق بين المعنى القرآني (لله) وبين فلسفة الحلول ، ويأخذ بيدهم لبناء نظام خلقي شامخ البنيان راسخ الدعائم يقوم على القاعدة الاساسية القائلة بألا وجود للشر .

ان النظرة الكونية weltonschaung للتصوف الفارسي تبدو بشكلها المأثور في كتاب (مثنوي معنوي) لمولانا جلال الدين الرومي (٥٢) المتوفى

٥٢) (٦٠٥ – ٦٧١ هـ = ١٢٠٧ – ١٢٧٣ م) : ويلقب بمولا نا جلال الدين وهو عند بعضهم ، أعظم شعراء الصوفية الفرس . ولد في (بلخ) وكان أبوه (بهاء الدين) عالماً دينياً في بلاط الشاه (خوارزم تكش) . حج مع أبيه الى مكة ، وعاد واستوطن مدينة (قونيه) التركية ، وهناك تتلمذ على الشيخ برهان الدين الترمذي الذي علمه مبادىء التصوف ولما توفي أبوه خلفه في منصبه ، ثم ترك التعليم وسافر الى حلب ودمشق حيث تقول المصادر التركية انه التقى بابن العربي ، وعاد الى قونيه ، وكان الشيخ (شمس تبريز) قد جاء من تبريز للتعرف به ، فالتقيا وتمازجا ، وكانت نتيجة تلك الزيارة أن اعتزل جلال الدين منصبه وحبس نفسه على التصوف ، وفي هذا أنشأ (الذكر الصوفي) الذي يؤدى على ايقاع الناي ، ونظم بهذه المناسبة شعراً لإنشاده ، وكان في هذا بداية طريقة الدراويش الذاكرين . وقتل (شمس تبريز) بعد عودته الى قونية على أثر فتنة نشبت فيها وتوفي على أثره جلال الدين .

اشتهر جلال الدين بديوانه المسمى (ديوان شمس تبريز) المتضمن شعراً غنائياً فارسياً بالغ الرقة والعذوبة . تولى صاحب هذا البحث (الدكتور نيكلسون) نشر مختارات منه السنة ١٨٩٨ م مع ترجمتها الانكليزية . أما أشهر مؤلفاته (مثنوي معنوي) فهي قصيدة كبيرة تقع في كتب ستة في كل كتاب مقدمة ثلاثة منها عربية وتبلغ زهاء (٢٥٧٠٠ بيت من بحر الرمل والقافية المزدوجة (المثنوي).قيل انها نظمت بناء على اقتراح تلميذ له اسمه (حسام الدين) في بحز أربعين سنة. ترجمة صاحب هذا البحث الى الانكليزية ونشره مع أصله الفارسي تدريجاً في السنة ١٩٢٤– ١٩٤٠ بسلسله (كب) التذكارية . ترجمه نثراً الى العربية في ١٢٨٩ هـ (بولاق) ، يوسف بن احمد المولوي وسماه (النهج القوي لطلاب المثنوي) . (المعرب)

في قونيه السنة ١٣٧٣ م منشيء المولوية او طريقة الدراويش؛ سمّي « المثنوي» بقرآن فارس . والواقع أن كاتبه يزعم بانه شَرَحَ فيه أقصى شعور الوحي النبوي ، ولكن متصفح الكتاب يكفيه الأقل من القليل ليتبين ان مبادءه قد نسجت بالخرافات والروايات وحيكت بالاساطير والامثال المستمدة من جميع آثار الحياة الدينية والفكرية للعصور الوسيطة ، ولما كان جلال الدين في قصائده ، كثيراً ما يملي من مقام الصوفي الذي لا يرى شيئاً خلا الله ، فالمثنوي يظهره معلماً متحمساً بليغاً في ايضاحه السبيل الى الله لفائدة اولئك الذين شرعوا في سلوكه . وكانت(لنغمة الاساس)بداية في الابيات الاستهلالية حيث يمثل الناي وهو الآلة الموسيقية المقدسة عند الدراويش المولوية ، الروحَ بعد انفصالها عن الله :

اصغِ الى الناي وهو ينوح بصوت رفيع شجي على فراق المحبين !
منذ انتزعت من فراش القصب صارت أناشيدي تُشجي البشر رجالاً ونساء وآضت آلام الوجد بادية للعيان .
اني اريد قلباً مشفقاً ، يذوب أسى ذلك الشقي التائه بعيداً باحثاً عن هنائه القديم مفتشاً عن مقره .

لقد أُجيد تعريف هذا الشعر بأنه محاولة لتنقية المشاعر الدينية عن طريق الحب . ان (الايمان) الذي يسمي نفسه المعقول . بالنظر الى جلال الدين ، والذي يقوّم النفس على أسس البراهين العقلية ، لا تبلغ قيمته قيمة الايمان الذي تقوم أركانه على الطاعة والعرف والاحترام .

المبتدئون المباركون هم الذين لا يعرفون لا منطق ولا حبه ولا يريدون برهاناً عليهما . ولا قيمة كبيرة للمناسك والمبادىء عند الله الذي لا يسكن في الجامع او الكنيسة او الهيكل وانما مثواه القلب الطاهر الخالص من كل شائبة . والامر الجوهري هو التغيير الخلقي التامالذي لا يبعثه الا الايمان الحار والصلاة

الخاشعة . كان (جلال الدين) مؤمناً بكرم الخالق وضلال الانسان ، لذلك فهو في الوقت الذي ينزه الله عن حقيقة الشر ، يؤكده فيما يتعلق منه بالمخلوق . أما بخصوص الله ، فهو كريم ما دام يظهر كماله ، كما كان تصوير الفنان العبقري للشيء القبيح فضلاً عن الجميل . ينهض شاهداً على عبقريته لا على قصوره . ولكن مع ان(المثنوي)يكثر عن تصوير الرأي القائل بان كل ما هو متناقض ...

« انسجام غير مفهوم » . وكل شر جزئي في الكون « محمود » ،

نجد التصوف الفارسي ينادي بشن الحرب حتى الاخير على النفس الشهوانية التي يصفها (بجهنم ذات سبعة أبواب) و (أم الاصنام كافة) و (الشر الذي يراه الناس في غيرهم وهو انعكاس شر أنفسهم في الواقع) :

انما انت نفسك فاعل الشر . وانك أنت الذي تكيل لنفسك الضربات . وانما أنت تلعن نفسك في تلك اللحظة .

انك لا تستبين الشر في نفسك وإلا كرهت ذاتك ونفسك .

ويخصص الشاعر جانباً كبيراً من الوصف الرائع للرذائل والاهواء معالجاً الموضوع بواقعية يحار مفسروه أحياناً في التوفيق بينها وبين رأيه في مذهب (الجَبْر والاختيار) ، فهو يصر على القول بأن أعمالنا وإن كانت من تأثير الفعالية الآلهية ، فهي اختيارية بحقه من جانبنا ، لذلك لا يحق لنا ان نعتبر الله مسؤولاً عنها ، واذا كان الآثمون يشعرون بأنهم يعملون تحت تأثير الجبر فلماذا يستسلمون للإثم برغبة وشوق،ولماذا يحسون بعده بالخجل وعار الجريمة؟ هذا أيضاً لا يمكن أن يكون حلاً نهائياً ، فالحرية التامة مستحيلة بدون(الحب التام) ودون اتحاد الارادة البشرية بالارادة الآلهية :

لست أطيق صبراً على استعمال كلمة (الجبر) في الحب

فالجاهل بالحب هو ذلك الذي تقيده أغلال (الجبر)

وانما الامر هو اتحاد بالله وليس (جبراً) . هو ضياء القمر لا ظلام السحاب

وان صح تسميته (جبراً) لكان (جبراً) غير الذي نعرفه

لانه ليس (الجبر) الذي يدفع بالارادة الى سبيل الاثم

ان الغرض الادبي الذي أوحى بكتاب (المثنوي) يثبت وجوده حتى في العبارات الفلسفية التي تصف انبثاق الكائن الواحد من كل مرتبة من مراتب الوجود. ويمكن إجمال هذه العملية في قضية تبدلات النفس التي هي شكل من أشكال الادراك الكوني في انحدارها الى العالم المادي وانتقالاتها من مملكة الجماد الى مملكة النبات الى مملكة الحيوان حتى وصولها حد المعقول بالبشرية . ثم تبدأ بمعاناة رياضات ومكابدة عقوبات حتى تصعد الى مقر الملائكة وتستمر في انتقالاتها الروحية حتى تصل خاتمة المطاف في اتحادها بالازلي السرمدي (التي كانت مرآته) مدركة بان كل تجاربها في الانفصال هي من قبيل (المادة التي تصنع منها أضغاث الاحلام) .

في البدء ظهر بمملكة الجماد ، وعاش كذلك جملة سنين

غير ذاكرٍ ما كان أصله . ثم سار قدماً الى الوجود الحيواني

وللمرة الثانية لم يعد يذكر قطّ ، حياة النبات الاولى ،

إلا عندما تهفو اليها نفسه في موسم الازهار الجميلة

مثلما يهفو الرضيعُ الى الثدي ولا يدري السببَ لذلك .

وللمرة الاخرى رفعه الخلاق الحكيم الذي تعرفه من مرتبة الحيوان

إلى مرتبة البشر . وهكذا صار يتقدم من مملكة الى أُخرى ،

وصار مدركاً ذكياً أريباً كما هو الآن ، ولم يعد في مخيلته

ما يُذكرُه بالماضي فهو من ذاته الحالية يخرج ويتبدل .

* * *

ان الله لن يدركه في غفلته ، وإن هو استسلم للنوم .

حتى اذا أفاق ، صار يضحك
حين يتذكر الاحلام المزعجة التي مرت به في سباته ،
وكيف استطاع نسيان حالة الوجد التي استولت عليه .
كيف انه لم يدرك بان تلك الاحزان والاضطهادات والآلام الزائلة
كانت كلها من تأثير ذلك السبات ؟
لذلك بدأ هذا العالم أزلياً وإن لم يكن غير حلم نائم ؛
نائمٌ ما يلبث أن يتخلص من الأخيلة السوداء التي استهوته
حين ينبلج فجر اليوم الموعودِ فيطرِحَ جانباً
أحزانهَ الزائلة وهو مفترٌّ الثّغر لَدُنْ يرى بيته السرمدي .
ثق أن يوم الحشر سيُظهر الحسنات والسيئات كلها .
سيُظهر ما قدّمته يداك في هذه الحياة ويفسر أحلامك جميعاً .
اعوذ بك من باغٍ ! يمزق البريء ويفتك به .
أنت الذي سيستيقظ من هذا السبات العميق
كذئب بغاراته الشريرة المتوالية التي
تجعل الذئاب العاوية تعمد الى تمزيقك شلواً شلواً (٥٣) .

ولا يتسع لنا المجال لمقتبسات اخرى من هذا الشعر الرائع المتعدد الالوان الذي يعبر عن روح التصوف الفارسي بقوة وعمق لا يدانيه فيهما شعر آخر . وإن كانت قِلةٌ تهتم بقراءته بسبب عدم تساوق أفكاره وإسهابه وغموضه في في أكثر الاحيان . ان في طبيعة كاتبه مسحة من اسلوب العصر الحديث . فالحرية التي نعم بها ، اكثر من الحرية التي نعم بها الغزالي إذ كان موقفه

٥٣) هذه المقطوعة وما قبلها من المثنوي . (المعرب)

الديني موقف فقيه مستنير من فقهاء القرون الوسيطة لا غير . ومن طبيعة المتصوفة ان يحلقوا في الاجواء ، أما طبيعة عمل الفقهاء والمشترعين فهو ان يحذوا حذو تلك العجوز التي قصت مخالب صقر الملك وأجنحته حين وقع في يدها . مهما يكن من أمرٍ ، فمن العسير جداً ان نصم الاسلام بمثل هذه التهم . فالصوفية كانت تتبع سبيلها المنطقي في التقدم ضمن نطاق المجتمع الاسلامي . هذه الحرية كانت بمجموعها مفيدة لكلا الفريقين . انها أقامت تسامحاً متبادلاً أمنت لهما مباراة عادلة في النزال الذي لم يكن منه مفر بينهما . أما الادواء التي عزاها بعض كتاب الكاثوليك اليها ، فهي على الاقل لم تكن أسوءَ من الادوية التي وصفها رجال السلطة الكنسية في اوربا قبيل ذلك . وكما رأينا سابقاً ، ان المتصوفة ما أنْ شعروا بالاخطار التي حفت بعقيدتهم ودخلتها حتى أخذوا بالتدريج يتبعون نظاماً دقيقاً برئاسة وارشاد كبارهم وعباقرتهم الذين طلبوا منهم خضوعاً تاماً واستسلاماً بلا قيد او شرط فأُجيبوا اليه . هؤلاء هم أعضاء السلطة الدينية للاولياء الظاهرين والمستترين وعلى رأسهم يقوم (القُطب) (٥٤) الذي يمارس الحكم الروحي على الارض حسب اعتقادهم . إن مسؤولياتهم لهم أعظم من ذلك ، حيث أن كل صوفي يكون قد تدرب في الواقع على يد شيخ ، فهو يرى أن إطاعة أهواء النفس لا تتفق مع الاخوة (رابطة المحبة) .

ولكن « من يقوم حارساً على الحراس أنفسهم qui Custodiet ipsos Custodus انني لن أتكلم عن فضائل الاولياء . ولكن ما هي قيمة قوانين الأخلاق العرفية او أي شيء آخر بنظر الناس الذين يتوصلون إلى الانجذاب بطريق التنويم المغناطيسي الذاتي ويشعرون بالوجد الآلهي في أنفسهم الى درجة أن فرديتهم تفنى في الله ؟

---

٥٤) هي الدرجة الاخيرة من درجات الصوفية ، مطمح كل صوفي . (المعرب)

بدلاً من الحكم عليهم بالمقاييس العادية العقيمة .. دعنا نتأمل بالاحرى زعمهم بان العبادة الخالصة للمثل الأعلى وكما يسمونه (عبادة الحق) تستّر الكثير من الآثام والمعاصي وتعتّرف بان المرحلة التي بلغوها في بحثهم إن لم تكن هي الغاية فعلى الأقل هي دين أنقى وأعلى مما حاول الاسلام غرسه فيهم حسب زعمهم .

أرنولد – ألين نيكلسون

الفلسفة وعلم الكلام

بقلـــم

البروفسر الفريد غيّوم Alfred Guillaume M. A. D. D.

رئيس دائرة الشرق الادنى والاوسط لمعهد الدراسات الشرقية والا فريقية لجامعة لندن . وأحد علماء المستشرقين الانكليز الكبار . عين في عدة مناصب استاذية منها : كرسي اللغات الشرقية في جامعة دورهام (١٩٢٠ – ١٩٣٠) . وكرسي العربية في الجامعة الا مريكية ببيروت (١٩٤٤ – ١٩٤٥) وكتب الكثير في التاريخ الا سلامي ومن أبرز ما أصدر كتابه (تقاليد الاسلام) ونشر كتابي الشهرستاني : « نهاية الاقدام في علم الكلام » و « الملل والنحل » . وهو ايضاً من كتبة دائرة المعارف الاسلامية (المعرب)

اجتمعت كلمة المسلمين على أنّ المذاهب الفلسفية العربية والاسلامية الذائعة الصيت في ارجاء العالم والمعاهد العلمية الاسلامية التي كانت ونماذج للجامعات الاوربية طليعةً ، لم تزدهر إلاّ في عصر الخلافة الذهبي . هذا الرأي الذي يعني أنّ الاسلام هو أب تلك المدنية الاوروبية المزدهرة المجاوبة لم يكن قاصراً على أدب الدعاية الصرف بل نجده في أكثر أبحاث علماء المسلمين أثناء دراستهم تطور المذاهب الاسلامية في العصور الوسطى وتاريخها . كذلك يقرأ المرء في الادب الغربي من وقت لآخر عن الفلسفة العربية، ويقول بعض كتاب اوربا عن الفلسفة العربية إنها من مخلفات ميراث الغابرين حيث تكدست فيه أخلاط غير متجانسة من جميع الانواع وتركت هنالك لتغلي وتنضج . كذلك يزعمون أنه ليس ثمّ ما يصحّ تسميته بـ « الفلسفة العربية » . وان الشعوب التي تتكلم العربية استحوذت على الفلسفة اليونانية التي كانت سائدة بين مسيحيي سورية والمجتمع المثقف الوثني في حرّان ليس إلا ، بعد أن زادت عليها مواد قليلة مستعارة من بلاد فارس والهند .

والصحيح الآن هو أن نتأثر شكل اطار الفلسفة العربية بكامله . ان خطوطها الرئيسة ومادتها جاءت من مدنية الامبراطوريات التي ثلّها العرب وأن الفلسفة الاغريقية كانت هي السائدة على شكلها ومهما قيل في الازمان المتأخرة ، فليس ثمّ سوء فهم للحقيقة من جانب الباحثين المسلمين الاوائل . فالجاحظ البصري المتوفى ٨٦٩ م ، ذلك الكاتب القدير الجمّ الثقافة الذي قدر لتأثيره في اسبانيا المسلمة أن يكون عظيماً — يقر اقراراً نبيلاً بالدين الذي يدين به أهل جنسه لآثار اليونان بقوله « .. ولولا ما اودعت لنا الاوائل في كتبها ، وخلّدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها

ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا الى قايلنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن ندركه إلاّ بهم ، لقد خسّس حَظّنا من الحكمة ، ولضعف سبينا إلى المعرفة ... »[1] وفضلاً عما تقدم فانّ الفلاسفة وعلماء اللاهوت انفسهم لم يقوموا بأية محاولة في أغلب بحوثهم لستر أضل نظرياتهم ، ولا يمكن لايّ إدعاء علمي أن يخدع المترمتين الذين تمسكوا بالقرآن والسنة . حيث أنّ عدداً كبيراً من التهم كانت توجه بخصوص الابحاث الفكرية التي لم يكن للعرب معرفة بها زمن محمد (ص) ، ضد من يدخل بدعاً ذات أصول أجنبية . كانت الفلسفة تسمى « الحكمة التي يخالطها الكفر » وكانت عناوين الكتب أمثال بيان مخازي الاغريق في منهل الحكم الدينية ، وككتاب «أسطعُ البرهان في شَجْب وجود الفلسفةفيالقرآن » هي التي تنمّ عن محتوياتها. كما أن ثمّ حكاية شائعة مؤداها أن فيلسوفاً معروفاً قال وهو يعالج سكرات الموت « صدق الله العظيم وكذب ابن سينا » .

ولنعد الى القول أن الآثار التي قدمها العرب الى مجموع تراث المعرفة الانسانية بطريقة أضافتها الى ما حققه المفكرون الاوائل هو في الحقيقة ليس ذا أهمية . لكن حتى في هذه الحالة : حتى وان قام البرهان الدامغ بأن مدنية الاسلام خلفت القليل ، أو لا أكثر مما ورثته هي نفسها ، فيبدو من الظلم أن ينكر أيّ حق لتلك المدنية في خلق رابطة غريبة من الفكر الفلسفي رابطة ادعاها حكماء المسلمين لهم . وانه لمن الظلم الواضحأن نقلل من شأن الحماسة والاقبال على ورود مناهل الثقافة لاجل الثقافة نفسها ، هذا الاقبال الذي كان يجمع شمل من الرجال في ارجاء الامبراطورية المحمدية الواسعة . أنّ عبارة « الفلسفة العربية » تهدى المستشرقين الى معنى معين[2] ، فهم يعرفون بأن الكندي العربي الخالص الدم هو الذي برز واثبت وجوده في معرض مشاكل فلسفية

---

١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٨٥ طبعة مصطفى البابي بتحقيق عبدالسلام محمد هارون (المعرب)

٢) وبالنظر الى الآخرين ايضا ، انظر مقالة كيشر *Keicher* « ريموند للوس وموقفه تجاه الفلسفة العربية : *R. L. und seine zur Arabiechen Philosophie* » (المؤلف)

دقيقة لكنهم يعرفون أيضاً أنّ ذلك الخليط المتنافر (في أكثر الأحيان) من الفلسفة الافلاطونية الجديدة والارسطية التي أجمع أعظم فلاسفة المسلمين على أنها تشمل تفسيراً معقولا للكون ، هو قبل كلّ شيء يمكن تسميته عربياً لا محمدياً . فاعظم حمَلَة لوائه كانوا مسلمين بالاسم فقط أو ملحدين أقروا جهاراً بالحادهم فدفعوا حيواتهم ثمناً لهذا الاقرار او خسروا حرياتهم .

ولو أنّ العرب كانوا كالمغول البرابرة الذين اخمدوا نار العلم في الشرق بشكل لم يَعُد معه الى الاتقاد مرة أخرى : ربما لم يعد أبداً ، لضياع المكتبات والتقاليد العلمية ، لتأخرت حركة احياء العلوم في أوربا أكثر من مائة سنة . لا بد وأن حياة الباحث رائد الثقافة قبل اختراع الطباعة كان يحف بها القلق والخيبة دوماً . والى أن وجدت الجامعات الاسلامية ، وحتى بعد وجودها في الشرق والغرب ، كان أكثر طلاب العلم يشدون الرحال في سفرة قد تمتد الف ميل أو أكثر ليقصدوا استاذاً . وقد قام شبان عديدون برحلات مضنية من اسبانيا حتى مكة أو من مراكش حتى بغداد ، تاركين منازلهم ، ووطابهم خال من فلس ، ليجلسوا عند قدمي استاذهم المختار .

ان كلمة نقولها عن أصل الجامعات الاسلامية قد لا تكون خارجة عن صدد الموضوع . فالمدرسة النظامية الشهيرة المؤسسة ببغداد تأتي في الطليعة بناها (نظام الملك) صديق (عمر الخيام) الوزير التركماني (الب ارسلان) في العام ٥٤٧هـ=١٠٦٥م قبل الفتح النورماني لانكلترا بعام واحد ، وبعد ذلك بمدة وجيزة تأسست عدة جامعات في نيسابور ودمشق واورشليم والقاهرة والاسكندرية وغيرها من الاماكن التي كانت قد نالت صيتا في العلوم والثقافة قبل مجيء الاسلام بقرون كما سيأتي ذكر الكثير من ذلك . ففي اوربا كانت (سالرنو) [٣] قد طار

---

٣) انظر كتاب راشدال Rashdall : الجامعات الاوربية في القرون الوسطى *The Univereities of Europe in the Middle Ages* جزء ١ الفصل ٣ . وكتاب « تاريخ كبردج للقرون الوسطى » ج ٦ ص ٥٦٠ . (المؤلف)

صيتها بوصفها جامعة طبية . فلو كانت هذه المدرسة فعلاً من بقايا مدرسة الطب اليونانية الغابرة فالفضل في ذلك يعود إلى أن ايطاليا الجنوبية كانت جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية حتى القرن الحادي عشر فبقيت حتى بعيد الفتح النورماني منزلا لامة كبيرة تتكلم اللسان اليوناني ، كما أن فاتحي صقلية من النورمان بسطوا رعايتهم على الدراسات العربية واقتبسوا العادات الاسلامية بصورة واسعة حتى صار من الصعب علينا ألا نستنتج بأن الطب العربي كان له بدون شك نفوذ عظيم على تلك المدرسة.ان لم يكن تأثيراً ابتداعياً خلاقاً ، فهو على أقل تقدير تأثير تغذية وادامة (٤) . وعلى كل حال — فان العدد العظيم من السكان المسلمين كانت معالجتهم تتم بلا شك على يد أطباء مسيحيين ولم يكن أوائل المؤلفين — كما تظهر كتاباتهم — يجهلون كما يبدو آثار المؤلفين العرب .

كان معهد(سالرنو)مدرسة طبية بكل ما في كلمةمدرسةمن معنى وبساطة فهي لم تكن جامعة لأن أقدم الجامعات المسيحية في بولونا وباريس ومونبليه واكسفورد لم تنشأ الا في القرن الثاني عشر وكانت أول جامعة عربية في أوربا تدين بقيامها الى الدراسات الاسلامية ولا تدين الى الاسلام بتأسيسها ، كما أنها جاءت في وقت متأخر جداً . لقد استخدم (الفونسو الحكيم ١٢٥٢ — ١٢٨١) رجلاً اسمه (أبو بكر الراقوطي)وهو أعلم اعلام عصره فبنى له مدرسة فيها قام بتدريس جميع العلوم للمسيحيين واليهود والمسلمين . على أن أعظم الجامعات الاسلامية وأعلاها كعباً هي مدرسة(المستنصرية)التي بنيت ببغداد في

---

٤) قام غيوم لبون الثاني *Guillaume le Bon* بحث رعاياه الذين كان أغلبهم مسلمين ، على توجيه دعواتهم الى « الله » وقلد خلفاؤه النقود العربية ، وتقاليد البلاط وزخارف القصور ، وطرق الادارة ، حتى الحريم على ما يقال . « انظر كتاب وصف افريقيا واسبانيا للادريسي طبع دوزي ودي غويه » المقدمة ص : ١ . (المؤلف)

العام ١٢٢٤ « لقد علمنا من المظهر الخارجي ونسق الزخارف والنقش . ومن الاثاث الفخم واتساع الرقعة التي شيدت عليها وضخامة الاموال التي اوقفت لادامتها . انّ هذه المدرسة بذت جميع مـا وجد من مثيلاتها في العالم الاسلامي . لقد كانت تحتوي على أربع مدارس فقهية لتدريس الشريعة ، كلّ واحدة تتبع احد المذاهب الاربعة ويترأس كل مدرسة استاذ انيط به تخريج خمسة وسبعين تلميذاً يتولى تدريسهم حِسبة لله تعالى لا يتقاضى عنهم شيئاً من مال . وقد خصص له من بيت المال معاش شهريّ. أما التلاميذ الذين يبلغ عددهم نحو الثلاثمائة فقد عين لكل واحد منهم دينار واحد ذهباً كل شهر . وفضلاً عن هذا فقد كان المطبخ الكبير الملحق بالكلية يمدّ طلبة العلم بوجبات الاكل اليومية من الخبز واللحم ... وأورد (ابن الفرات)[٥] انه كان فيها مكتبة ... تضم كتباً نادرة في شتى العلوم منضدة تنضيداً متقناً يسهل على الطالب الرجوع اليها ، وكان بامكان من يرغب ، أن يستنسخ ما شاء من هذه المخطوطات لأن الاقلام والورق كانت تصرفها لهم ادارة المدرسة. وذكر أيضاً أن المدرسة كانت توزع على الطلبة المصابيح وما يقتضي لها من زيت الزيتون للاضاءة . كذلك كان يوجد صهاريج لتبريد مياه الشرب ، وفي المدخل الكبير المؤدي الى البهو ... اقيمت ساعة ... هي لا شك من الساعات المائية ، وظيفتها اعلان أوقات الصلاة وحساب الساعات ليلاً ونهاراً . وفي داخل المدرسة حمام للطلاب ... وبيمارستان ... عين له طبيب يزور المدرسة صباح كل يوم ويصف الدواء للمرضى من الطلاب ، ووجدت مخازن وعنابر عظيمة لخزن

٥) ناصر الدين بن محمد بن عبد الرحيم علي بن الفرات المصري الحنفي (٧٣٥ – ٨٠٧ هـ = ١٣٣٤ – ١٤٠٥ م صاحب كتاب التاريخ الشهير بتاريخ ابن الفرات الذي ألمع المؤرخون على أنه كان بمائة مجلد وقد بقي منه الآن تسعة مجلدات في المكتبة الامبراطورية بفيينا. نشره الدكتور قسطنطين زريق في السنوات ١٩٣٦ – ١٩٤٢ . (المعرب)

أنواع المؤن والاطعمة والاشربة والأدوية » [٦] كل ذلك كان موجوداً في مفتتح القرن الثالث عشر ، فتأمل [٧] .

انّ أصل الحركة الفكرية في القرن الحادي عشر غامض تماماً ومن الاسلم لنا نظراً لقلة معارفنا ومعلوماتنا الراهنة ــ أن نشير الى الاهمية العظمى للدور الكبير الذي لعبه علماء المسلمين في اسبانيا في ميدان التثقيف العام ، اكثر من التأثير المباشر لاساليبهم التعليمية على الجامعات المسيحية الاوربية ، وهذه المعاهد هي أحدث من جامعات الشرق طبعاً وانّ علماء القرون الوسطى يسلمون بلا قيد بالزعم القائل ان العلوم الاسلامية قد أمدّتهم بما لا يحصى من المواد في بحوثهم العلمية ، وفي كتاب « تراث اسرائيل» تنويه بكثير من هؤلاء الباحثين ، كما يوجد ذكر لهم أيضاً في فصول أخرى من هذا الكتاب انا لنرى (جون السالزبري) [٨] يذكّر قارئيه بخدمات الاسبان والمتصلين بافريقيا والشرق الاسلامي . أما روجر بيكن (١٢٢٥ ــ ١٢٩٢) فلم يتردد في القول أن « .. الفلسفة انما هي ارومة عربية ... لذلك فان اللاتيني لا يستطيع أن يكون على وقوف بالكتب المقدسة ولا على الفلسفة الاّ اذا عرف اللغة التي نقلت عنها : Philosphia ab .. arabico deducta est. Et ideo nullus

٦) « بغداد في أثناء الخلافة العباسية » غ . لو سترانج *G. Le Strange* ، ص ٢٧٦ . طبعة اكسفورد السنة ١٩٠٠ . (المؤلف)

٧) انظر بحث « المستنصرية » في مجلة سومر ١٩٥٤ « كوركيس عواد » . وهو بحث نفيس للغاية . (المعرب)

٨) ميثالوجيكوس *Metalogicus* مجلد ٣ ص ٦ : « واني مدين للبروفسور كليمنت مي . جي. ويب *Clement. C. J. Webb* بهذا المرجع (المؤلف) جون السالزبري توفي ١١٨٠ باحث انكليزي درس على الفيلسوف(ابيلار) في اكسفورد والجامعات العربية وعرف بكتابه المذكور آنفاً » . (المعرب)

latinus sapientiam sacrae scripturae et philospphiae poterit ut oportet intelligere, nisi intelligat linguasa quibus sunt translatae »
وأنه يورد لنا بصورة خاصة اسماء الكتاب الغرب الذين يعزون قوله هذا . لكن لسوء الحظ لم تخبرنا جمهرة السياح النصارى في الازمنة المتقدمة عما جلبوا من رحلاتهم الى البلاد الخاضعة للحكم الاسلامي أو تحت نفوذه . ان المقارنة بين ما كان متدارساً عند المسلمين في القرنين العاشر والحادي عشر وبين ما انشغل به الطلبة المسيحيون في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، قد يكون بمثابة اشارة الى وجود تمازج وثيق بين الجامعات الشرقية والغربية أكثر مما كان يظنّ ، لكنه لم يتيسر لنا على هذا التمازج دليل حاسم حتى الآن .

لا بد وان طبيعة البحوث العلمية المنظمة والعلاقة بين الاستاذ وطالبه ، مسألة الاجور والمنح ، الضبط والادارة ، وضع الدرجات العلمية أو اجازات التدريس وسائر ضروب فعاليات الحياة الجامعية كانت متشابهة الى حد ما ــ سواء في ذلك ، أكان مركز العلم بغداد ، أو اكسفورد . وعليه فربما صعب علينا الجزم بأنّ الجامعة المسيحية صبت في قالب مماثل للاسلامية منها ما لم يقم البرهان الدامغ على هذا .

هناك أوجه شبه عديدة جداً ، كمنح المدرس المسلم الاجازةَ (الليسانس) في التدريس ، أي كصيرورة الطالب معيداً ، لوثيقة معينة باسم الاستاذ أو بتخويل منه ؛ هذا النظام يماثل ما سمي في القرون الوسيطة بـ « اجازة المعلم licentia docendi » وهو أقدم أشكال الدرجة العلمية [٩] . ومن الجهة الاخرى فمبدأ عام احتراف احد التدريس دون أن يسبق له طلب العلم لنفسه فترة كافية على يد استاذ مجاز رسمياً بتعاطي التدريس ، انما هو أمر من الوضوح بمكان . حتى انه لا يحتاج الى سابقة بعيدة هذا البعد الشاسع . ومن بعض النقاط السطحية الدالة على وجود جاليات أجنبية كبيرة كانت تنتظم

٩) وعلى كل حال فان الهيئات التي تعطي الاجازات ليست متشابهة . (المؤلف)

بمثابة طوائف وأمم . كذلك الاسلوب الاوربي القديم وهو التدريس المجاني أي بدون تقاضي اجور من الطلاب هذا الاقرار الكريم بوجوب تسليم شعلة العلم من يد الى يد بدون تقاضي أجر ، ما زال حياً في الجامعة العظيمة في الازهر بالقاهرة حيث يجتمع التلاميذ من شتى انحاء العالم الاسلامي فينتظم كل حلقة برواق أو جناح خاص ويستعينون على عيشهم بالاوقاف الخيرية والاعانات الحكومية (١٠) .

ان الطريقة التي كان بعض رواد العلم اللاتين يمتارون العلوم من اسبانيا قبل أن بدأ المترجمون الموظفون بترجماتهم — بقرن من الزمن — فصلنا بمهارة ودقة عظيمتين في كتاب « تراث اسرائيل »(١١) . أما في أوروبا فان ثمار الفكر العربي اضطلع بنشره العلماء الجوالون الذين لم يصلنا شيء من كتاباتهم ،

---

١٠) كتب راشدال : ان اجازة العميد ***Rector*** لقراءة موضوع او كتاب ، او بالاحرى اكمال قراءة دور معين من المحاضرات تجعل الطالب « باشلر ***Bachler*** — صاحب بكالوريا » والفقيه ، يستطيع ان يدرس مادة واحدة بعد سماعه مدة أربع سنوات . ان المعنى الدقيق لكلمة « السماع » و « القراءة » يتفقان تماماً مع مدلولهما في العربية لكن هذه المشابهة — كذلك استخدام (الطالب — المدرس) بعد خمسة أوستة أعوام من التحصيل ليس ذا أهمية وقد يكون في أي جامعة من تلقاء نفسها لا محاكاة أو تقليدا . ولو استطعنا ان نجزم بالاصل العربي للفظة ***baccalareus*** (بعد ان عجز معجم اكسفورد الانكليزي عن إعطاء تفسير مرضي لها) لست قدمنا أرضاً قوية وما زلت . ولفظة « باشلر » الجامعية تبدو والمقصود بها اصلا الطالب المصرح له بالتدريس في مدرسة الاستاذ . ومع اني فشلت في العثور عن التعبير الدقيق عند اي كاتب عربي ، فعبارة « بحق الرواية » ومعناها منح حق رواية العلم من أحدهم الى الآخر ؛ ربما اعطت معنى (البكالوريا) للفئة النطقية المتقاربة التي تصدر من التعبيرين.ومهما يكن فأقدم استعمال للكلمة «انظر هاتزفيلد ودارمشتيتر» ورد في (نشيد رولا ند) . وان كان حدسي هذا صحيحاً ،فهو يستتبع ان تكون الكلمة العربية الاصل قد حرفت الى (ماجد) وليس في العربية صفة لشخص ذي درجة علمية ، بل صفة للوظيفة التي يتلقاها . (المؤلف)

١١) انظر الفصل الذى هو بقلم (جارلس ودوروثيا سنكر) ص ٢٠٤ وما بعدها (المؤلف)

ومع أننا على يقين بالقنوات التي تمّ بها تسرّب آثار(الغزالي وابن سينا وابن رشد)الى اللاتين ، لكن لا يسعنا الاّ اللجوء الى الحدس والتخمين في آثار القرون الخالية الاخرى حيث يعوزنا البرهان .

وبالتراجم التي انجزها (دومنيك كونديسالفي) أسقف سيكوفيا في أولى سني القرن الثاني عشر أصبح الغرب المسيحي يعرف ارسطو عن طريق(ابن سينا والفارابي والغزالي). فالموسوعة الفلسفية التي الفها (كونديسالفي) تعتمد بصورة رئيسة على المعلومات المستقاة من المصادر العربية [١٢] .

وهناك زعم كثير التّرداد على الافواه يحتاج الى دليل وهو : أن الغرب مدين باحياء فلسفة (ارسطو) الى العرب.وقد يقال أنه لم يكد يعرف حتّى الى زمن (كونديسالفي) فيلسوف باسم (ارسطو) . ان (بيكن) [١٣] يخبرنا بأنّ (بويوس) هو أول من عرّف العرب بارسطو ، فترجمته (للمقولات : القاطيغورياس) و (العبارة : de interpretatione) مع رسائله في المنطق وتعليقاته، كانت فعلاً جملة ما وصل اوروبا من الفلسفة الأرسطية حتّى السنة ١١٥٠ . والحق أن الغرب لم يكن ليعرف عن افلاطون اكثر مما عرف عن ارسطو بنتيجة الاتصال المباشر مع اليونان . لكن (الافلاطونية) تمتعت بامتياز اندماجها المستحكم بالفكر المسيحي . فاقدم ترجمة لكتاب (ما بعد الطبيعة : الميتافيزيقيا) — مع كونها ناقصة — وصلت باريس من بيزنطية مصدرها وذلك حوالي السنة ١٢٠٠م . وبعدها ببضع سنين وصلت باريس ترجمة أخرى ناقصة — نقلت من العربية . ولم يقع كتاب ارسطو هذا في يد الباحثين كاملاً الاّ في السنة ١٢٦٠م . ووصل كتاب (الاخلاق : ethics لنيقوماخس) من المصادر اليونانية اولا ثم من المصادر العربية . وفي الاخير بشكله المترجم الكامل

---

١٢) انظر كذلك (تراث اسرائيل) الص ٢٥٤ — ٢٥٦ . (المؤلف)

١٣) *Francis Bacon* (١٥٥١ — ١٦٢٦) كاتب انكليزي ومفكر معروف . (المؤلف)

من الاغريقية مباشرة في السنة ١٢٥٠ ووصل كتاب (الطبيعة : Physica) وكتاب (النفس De Anima) من الاغريق في أول الأمر .

وعلى هذا يمكن القول أن الغرب مدين باحياء الفلسفة الارسطية واعادة نشرها الى العرب بقدر ما أيقظ تصرف الاوربيين في الفكر العربي من اهتمام بآثار (ارسطو) . ويشق علينا ان نشك في أن الاوروبيين انصرفوا الى مدارسة (ارسطو) لان شوقهم المستعر الى الفلسفة اشتد باحتكاكهم بالفكر العربي . ومما لا ريب فيه أنه ان لم يكن أول تأثير خطير عربي الارومة فكيف يتسنى لنا تفسير امتزاج آراء (ارسطو) بالتعاليم المعزوّة الى (ابن رشد) طوال قرون متعاقبة ؟ (وابن رشد نفسه كان يجهل اليونانية وقد اكتفى بالاعتماد على تراجم اسلافه . وطريقته في البحث كانت شائعة تماماً عند اليهود . هذه التعاليم اوغلت في الفكر المسيحي ايغالا ، ونفذت عميقاً حتى أصبحت خطراً على تعاليم الكنيسة . والى (القديس توما) على الاخص يعزى الفضل في فصل (ارسطو) عن شارحه ، ونقد التفاسير العربية لفلسفته .

ولكن ما نهتم به الآن ليس أصل وتطور كل من الفلسفة العربية ولاهوتها ، بقدر اهتمامنا بتأثيرها على أفكار العرب . ونبذة مختصرة عن هذا اللاهوت ونشوئه أمر ضروري لنا حتى نتفهم طبيعة المكانة التي كان العرب يحتلونها في تاريخ نقل الفلسفة ، وقد يذكر في بحث . كهذا الصعوبة – ان لم تكن الاستحالة – في فصل الفلسفة عن اللاهوت . ولدينا سند قوي لتبرير تصدينا الى بحث الفلسفة واللاهوت معاً . (فارسطو) نفسه كان يسمي ما عرفناه باسم ما وراء الطبيعة – (الفلسفة الاولى او اللاهوت : ثيولوجيا) – وعقيدة الوحدانية لم تظهر في دوائر الاغريق الدينية وحدها بل في دوائرهم الفلسفية كذلك . يتجلى الخطر الأعظم لهذه الحقيقة في مناقشة اصل هاتين الدراستين وتطورهما عند الاسلام ، اذ كانت الفلسفة في العصور التي سبقت ظهور المسيحية تهتم أولا ،

بكل ما يتحقق لدى العقل الانساني . بينما تَدّعي الثيولوجيا انها تدرس الحقائق الروحية للاشياء التي لا يمكن ادراكها الا بالالهام . رفض العالم الاسلامي قاطبة أن يعترف بما اعتبر ثابتاً راسخاً في هذا الميدان ، ولقد أقر القديس (توما الاكويني) و (دنس سكوتس)[14] بهذا الفرق بين الفلسفة والثيولوجيا ، واعتبر كل فرع سيداً لميدانه الخاص لا ينازعه فيه منازع ، واعتبرا مثل أسلافهما العرب كلا من العقل والوحي وسيلة للتوصل الى الحقيقة . لكن لم يتوصلا الى اتفاق ثابت مستديم على ما يعود الى ما وراء الطبيعة ، وما يعود الى الدين الموحى به . وقد أوضح (روجر بيكن) في تنكره لدراسة الفلسفة وتنديده بها ، موقفه منها ونظرته فيها واشار الى المراجع الشرقية التي كانت العامل في تحويل فكره الى هذا السبيل قال :

« ان الميتافيزيقيا عند الفلاسفة ، تحتل مكان جزء من أجزاء الالهيات ، حيث أنهم أطلقوا عليها مع فلسفة الاخلاق اسم (العلم الآلهي scientia divina)[15] (أو الالهيات الطبيعية theolagie physica) كما بدت في البابين الاول والحادي عشر من كتاب ما وراء الطبيعة (لارسطو) ، ومن البابين التاسع والعاشر لما وراء الطبيعة لابن سينا . ان علم ما وراء الطبيعة يشمل مواضيع تتعلق بالله والملائكة وما جرى مجرى ذلك من الموضوعات الآلهية[16] ... ثم أن نهاية الفلسفة النظرية ، هو معرفة الخالق عن سبيل المخلوقات[17] وان على المسيحي ان يذكر دوماً (.. ان الفلسفة نفسها تؤدي

---

١٤) *J. Duns Scutus* (١٢٧٤ - ١٣٠٨) : راهب فرانشسكاني من فلاسفة القرن الثالث عشر . كان امام جدليي عصره وأحد أعلام المنطق حتى ضرب به المثل وأصبح اسمه في مفردات اللغة الانكليزية *dunce* مدلولا لمعكوس معناه (بليد او غبي) . وفلسفته مشائية كالقديس (توما) (المعرب)

١٥) انظر رسالة ابن سينا فيما وراء الطبيعة المسماة « علم الالهيات » وهي تبحث كما يدل عليها اسمها عن المعرفة بالأشياء المتعلقة بالمسائل الالهية . (المؤلف)

١٦) انظر الكتاب الاكبر *Opus Majus Philog* الفصل ٣ . (المؤلف)

١٧) المرجع نفسه الفصل ٨ (المؤلف)

الى عماوة جهنم ؛ لذلك لا بد أن تكون في قرارة نفسها ظلاماً وضباباً »[١٨].

ولم يكن بين الباحثين العرب أي اتفاق على هذه المبادىء بمقدار اوسع مما ذكرنا ، (فابن سينا) يؤكد أن موضوع (الكينونة الوجودية : qua) هو أنسب المواضيع للميتافزيقا . بينما يؤكد (ابن رشد) الذي يدعي باعتماده على (ارسطو) اكثر من أي فيلسوف – ان الله والعقل هما محجّم الفلسفة اللائق . وهكذا اختلف مفهوم الميتافزيقيا والثيولوجيا عند الفيلسوفين العربيين المعروفين في العالم اللاتيني اختلافاً بينا . بشر (ابن رشد) بوجوب اخضاع كل شيء الى حكم العقل ما عدا العقائد الدينية الموحى بها .

وبالرجوع الى أصل الدراسات الفلسفية عند المسلمين ، نجد انه لا مبرر للرأي القائل بأن العرب الذين تألفت منهم جيوش الخلفاء الاولين المظفرة إنما يختلفون عن عرب اليوم اختلافاً تاماً ؛ خلا ان نسبة البداوة العربية في دم الاولين كانت أكثر بكثير ، وتلك حقيقة لا يبدو أنها تثير آمالا عراضاً عند فلاسفة العصر . عند رجال كهؤلاء كانت كل رغبة في أي دراسة من الدراسات ، شبه معدومة . وقد آتاهم الحافز على الدرس من الخارج فضلا عن مواد الدرس نفسها ، جاء هذا الحافز عند انقراض الجيل الاول ، أو الجيلين : الاول والثاني ، وبررت الطبقة الفاتحة حقوقها بوصفها مجتمعاً دينياً منفصلاً ، كما حكم القادمون الجدد بقوة السلاح محتفظين بكل أو بأكثر العادات البدوية المأثورة عنهم ، ومتكلمين بلهجة مختلفة. لم يكونوا بحاجة إلى تبرير ايديولوجي لحكمهم هذا ، يتجلى ذلك مثلاً في سوريا على الخصوص حيث كان جيرانهم النصارى ينظرون اليهم نظرتهم الى فرقة جديدة (آريوسية)[١٩]

١٨) المرجع نفسه الفصل ١٩ حتى الاخير . (المؤلف)

١٩) نسبة الى *Aruis* (حوالي ٢٥٦ – ٣٣٦) موجد الهرطقة الاريوسية في المسيحية . وتتلخص آراؤه بانكاره أن الابن « الاله » ازلي مع الآب لان الآب موجود قبل الابن – يريد بهذا شجب عقيدة الوهية المسيح. وقد انتشرت بدعته في سوريا وانطاكية. (المعرب)

النزعة بينما كان العرب ينظرون بدورهم باستنكار الى الطقوس التي يقوم جماعـــة الثالوثيين Trinitarians [٢٠] لكن بعـــد مرور سنـــين ليست بالكثيرة لم يعد ثم فرق بين الساميين الذين اقبلوا من الصحراء وبين الساميين الزراع وانتظمت في صفوف جيوش الخلفاء : آلاف العرب الذين كانوا قبلاً بمثابة جنود احتياط للرومان . استُقبِل العرب على الاغلب في سوريا ومصر والعراق بترحاب لانهم قضوا القضاء المبرم على الابتزاز الامبراطوري ، وانقذوا البيع المسيحية المنشقة من الضغط الكريه الذي كانت تعانيه من الحكومة المركزية ، وبرهنوا بذلك على معرفة بالمشاعر والاحاسيس المحلية اكثر من معرفة الاغراب . كان الاسلام في بادىء الامر عقيدة واضحة لا تعقيد فيها ، فايمانه البسيط بآله واحد ، لم ينطو على أي تعارض مع العقيدة المسيحية ، ولم يتطلب الاسلام صوتاً مدافعاً منافحاً عنه ، ولم يشرع في البحث عن وسائل وتعاليل لاثبات رسالته والدفاع عن دعوته الا حين برزت أوجه الاختلاف بين الدينين وبدت مظاهر التناقض .

وبمرور الزمن اسلم الكثير من اليهود والنصارى تملصاً من الجزية التي كانت تجبى من الموحدين وأهل الكتاب من غير المسلمين [٢١] . فهؤلاء الذين دخلوا كنف الدين حملوا معهم ثقافة الامبراطورية البيزنطية وثقافة اليونان . هذه الانشقاقات الواسعة أفزعت السلطات الكنسية فشرعت تهاجم بالجدل والمناظرات اسس العقيدة الاسلامية: ما هي الطبيعة الالهية ؟ ما معنى قولنا : « انه على كل شيء قدير ؟ » و « انه بكل شيء عليم ؟ » ما هي علاقة علمه تعالى بذات نفسه ؟ اذا كان قد قدر كل الاشياء قبل حدوثها فعلاً ،

---

٢٠) او الفدائيون *Redemptonists* : اخوية مسيحية اوجدها السنة ١١٩٨ جون الماثي وفليكس الفالوازي على خطى القديس اوغسطين وغايتها افتداءالاسرى(الكفار)اي العزب. (المعرب)

٢١) وصفت تأثير اليهود في كتاب تراث اسرائيل في صحائف ١٢٩ وما بعدها . (المؤلف)

فأين تكمن حرية الارادة عند الانسان ؟ وإلى أي مدى تمتد مسؤوليته عن اعماله ؟ أمثال هذه المسائل كانت تبحث فيها الكنائس المسيحية لعدة قرون ، فسلمتها بارتياح ساخر الى المجتمع الاسلامي حيث أثارت نعراً وحزازات وشقاقات أعظم مما أحدثت عند أهلها الاصلاء وقد كان بالامكان اخماد اصوات هذه المسائل في مناطق وازمان معينة ، بأوامر من السلطات الحاكمة ولكن هذه الاسئلة كانت تتطلب اجوبة لدى الفئة المفكرة الجادة . وكانت الاجوبة عليها مخيبة مقتضبة لا تنفع غلة فالافكار واللغة كانا جديدين غريبين عن شعب لم تعرف طبقته الحاكمة اسمه (فلسفة) فالقديس يوحنا الدمشقي [٢٢] كان يستطيع اثناء مناظرته افحام مناظريه المسلمين ببراهين تأتيه مطواعة مستسلمة ولكن لم يطل الزمن بالمسلمين تاركين لخصومهم اسلحة الديالكتيك اليوناني بل أخذوا تدريجاً يعودون أنفسهم على شكل التفكير الذي كان يطبع كتابات الاغريق والسريان ، وما وصل الينا من هذه الفترة المتقدمة كان نزراً عدا ما روته الكتب والاخبار عن ترجمة عدة كتب فلسفية الى العربية ، وبعض الاقوال والحكم لاوائل اللاهوتيين المفكرين وهي تنبيء بان الشكوك الفلسفية كانت تراود عقولهم ، وتعمل فيها عملها .

ولم تستو الفلسفة على قدميها حقاً الا برعاية الخليفة المأمون العباسي (١٩٩ ــ ٢١٨ هـ = ٨١٣ ــ ٨٣٢ م) كان هذا الخليفة في الواقع يعتقد بخلق القرآن في أجل مسمى ، متحديا ومعارضاً بذلك المعسكر المتشدد من أهل السنة الذين يقولون بازليته وسبقه العوالم . كما انه اقر بدون مواربة انه من انصار المعتزلة[٢٣] أو اللاهوتيين الاحرار ، في مو ضوع طبيعة الله . ربما استدللنا من هذا بأن

٢٢) يوحنا الدمشقي : (٨١ ــ ١٣٧ هـ = ٧٠٠ ــ ٧٥٤ م) اسمه العربي منصور . كان عالما كبير القدر وقدسياً محترماً عند الكنيستين الشرقية والغربية ، له بعض مناظرات وجدالات دينية معروفة . (المعرب)

٢٣) انظر ما بعد الصفحات العشر التالية . (المؤلف)

المسلمين قد وقفوا على الفكر اليوناني والاهليات المسيحية منذ أمد طويل . وأوجد المأمون مدرسة للحكماء في بغداد حيث ظلت ترجمة الآثار اليونانية ودراستها متواصلة باشد ما يمكن من النشاط والعزم . ولعب الطبيب النسطوري (حنين بن اسحق العبادي : ٨٠٩ – ٨٧٣ م) في ميدان الترجمة دوراً هاماً هو واسرته . ولم يشتغل في بغداد وحدها بل سافر الى سورية وفلسطين وهو في طريقه الى الاسكندرية ليقف على كل ما وعى العالم القديم من الطب ويوسع معارفه العملية باللغة اليونانية . وبتركنا جانباً الرسائل الطبية والرياضية التي ترجمها ، فقد كان له الفضل في نقل كتاب (المقولات : قاطيغورياس) و(الطبيعة) وكتـاب (الاخلاق الكبـير Magna Moralia لارسطو) ، وترجمة كتـاب (الجمهوريـة) و (القوانـين) و (النواميس) [٢٤] و(طيماووس) (لافلاطون)،وان لم تكن الكتب تترجم برمتها دائماً . وربما كان ابنه (اسحق : ت حوالي ٩١٠.م) المترجم العربي لكتب : «الميتافزيقا والكون ، والفساد ، والعبارة» مع تعليقات (الاسكندر الافروديسي [٢٥] Alexander of Aphrodisia) .وغيرهم . فاذا مـا اضيف اليها اعمال (حبيش) ابن أخت (حنين) ، لم يعد باقياً الشيء الكثير من العلم المعروف في عالم ذاك الزمن ولم ينقل الى العربية . هذا ، ولم يظهر ان العرب أولوا اهتماماً بالشعر والدراما وتاريخ العصور القديمة .

---

٢٤) استعمل كلمة القانون بهذا المعنى الامام أبو القاسم بن جزى من أهل غرناطة ٦٩٣ – ٧٤١ هـ في (القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية) طبعة فاس ١٩٣٥.فكان أول من أورد هذه اللفظة باعتبارها مرادفة لكلمة الشريعة . وكلمة (القانون) يونانية الاصل دخلت العربية عن طريق السريانية وكان استعمالها في الاصل بمعنى المسطرة ، ثم صار بمعنى القاعدة . ومعنى القانون في اللغة العربية : مقياس كل شيء – أنظر لسان العرب ج ٧ ص ٢٢٩ وقاموس المحيط ج ٢ ص ٢٦٩ ومنه أخذ التعبير العام الذي يطلق على القواعد الكلية الملزمة وبهذا المعنى انظر الغزالي «قوانين الحد – المستصفى من علم الاصول ج ١ ص ٨» .(المعرب)

٢٥) نبغ في حدود القرن الثاني ق . م ، وهو تلميذ الفيلسوف ارسطوقليس . وأحد شراح أرسطو وقد وصلنا من شروحه عليها أكثر من أربعة . (المعرب)

الى هذا الوقت لم يكن يوجد تفكير مستقل الا فيما ندر ، ولم يوجد ما يبرر قولنا « الفلسفة العربية » فمدرسة المترجمين الذين اوجدها هؤلاء ، استمرت بفضل اليعاقبة الذين لم يتصاعد فخرهم بمزعم الاستقلال الفكري والابتداع اكثر مما تصاعد ادعاء اسلافهم ، خلا رسالة لرجل اسمه (قسطا بن لوقا) كتبها في مطلب (الفرق بين النفس والروح) هذا الأثر ، لقي اهتماماً عظيماً حينما ترجم الى اللاتينية .

وفي هذا الجيل ظهرت مؤلفات أول وآخر فيلسوف أنجبه العرب . كان (ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي) عربياً نزحت اسرته من جنوب جزيرة العرب وولد في الكوفة حوالي ٨٥٠م وتعلم في البصرة وبغداد. لم يصلنا الكثير من آثاره باسلوبه الاصلي ولكن ما زال يوجد الكثير من آثاره الفكرية باللغة اللاتينية عملها (جيرار القرموني) وغيره . ونحن الآن في شغل شاغل عن التصدي لما أنجزه هذا المفكر في حقل الرياضيات والنجوم ، والكيمياء والبصريات ، الى أعظم ما عزي اليه اسماً وتأثيراً في ترجمة كتاب قدر له ان يخلف أعظم التأثير على ما تبعه من الدراسات الفلسفية والالهية في الشرق والغرب حتى تمّ للقديس (توما الاكويني) ازاحته وتنحيته من الميدان . لكن لم يتحقق له ذلك بغير معونة المصادر العربية التي اعتمدها هذا القديس . الكتاب الذي نحن بصدده يحمل المقدمة التالية في أصله العربي : « الفصل الاول من كتاب (ارسطو) الفيلسوف ، ويدعى باليونانية ، اثولوجيا ، وهو قول على (الربوبية) تفسير فرفوريوس الصوري [٢٦] ، ونقله الى العربية (عبد المسيح بن ناعمة الحمصي) ، وأصلحه (لاحمد بن المعتصم بالله) ، (ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي) رحمه الله » [٢٨] يتضح من هذا ، انه

---

٢٦) *Porphyrys* هو تلميذ افلوطين واحد أساطين الافلاطونية الحديثة ، وعرف بأنه جامع القانون ومرتبه . (المعرب)

٢٧) طبعه الدكتور فردريك ديتريسي *Fr. Dieterici* « لا يبتسك ١٨٨٣ » (المؤلف) (نقول إن طبعته الاولى كانت في برلين ١٨٨٢) . (المعرب) .

وان كان الكتاب منسوباً (لارسطو) . لكن هذه التقدمة تُعاين دونما حذر بانه شرح معزو الى (فرفوريوس) وربما نُسب (الثيولوجيا) الى (أرسطو) في عهد متأخر عندما ثبتت جذور (الافلاطونية الحديثة) ذات النزعة الصوفية ثباتاً قوياً في الاسلام ، وعندما ارتفعت قيمة (ارسطو) الفلسفية فاصبح الفيلسوف الاعظم الذي لا يدانيه فيلسوف . هذا الكتاب ليست بالتعليق ، مهما رغبتَ في تفسير كلمة (تعليق) ، وهو في الحقيقة رسالة في (الافلاطونية الحديثة) مرتكزة على الكتب الرابعة والخامسة والسادسة من تاسوع (اينياد Enneads) للفيلسوف (أفلوطين)[٢٨] ونظراً لتوارد ظهور نظريات (النفس) في هذا الكتاب بتعديلات شخصية متعددة خلال السبل التي سلكتها الفلسفة العربية فربما كان من المفيد أن نأتي الى تلخيصها فنقول :

« النفس ، جوهر عقلي ، لا شائبة فيه ، لا هيولى له ولا يلحقه الفناء ، انحدر من عالم العقل الى عالم الشعور والمادة . هذا الجوهر العقلي ؛ يقيم ازليا في عالم العقل الذي لا يمكن أن يتخلى عنه ، ولكنه يلي درجة العقل النقي الذي لا تنهنهه العواطف في أنه يستشعر رغبة الى توليد الاشكال التي تخامره . والرغبة تتمخض بالالم ؛ حتى تنجز مهمتها في عالم المادة . من هذه الرغبة تكوّن في النفس ، لذلك كانت النفس هي العقل ، احياناً تكون خارجة عن جسم . والعقل يعمل في هذا العالم بواسطة النفس . ونفس سائر الحيوان قد سلكت سبيلاً خطأً . وهنالك أيضاً نفس نباتية انعم عليها بالحياة وانبثقت أيضاً من المصدر ذاته الذي انبثقت عنه النفسان الأخريان . والنفس البشرية ثلاثة اجزاء : نباتي ، حيواني ، عقلي وهي تفارق البدن عند تحلله . والنفس الخالصة من كل شائبة وهي التي حُفِظت ذاتُها غير مدنسة برِجْسِ هذا العالم ستعود

---

٢٨) *Plotinus* « ٢٠٣ – ٢٦٢ م » فيلسوف اغريقي موجد الافلاطونية الحديثة وآثاره تتألف من ستة مجموعات تحتوي على تسعة كتب ، ومنها جاء عنوانها « اينياد » . (المعرب)

فوراً وبدون أي تأثير الى الجواهر العقلية اما النفوس التي أصابها الرجس في هذه الدنا واصبحن خاضعات لوسخ الجسد ، فلن تعود الى حالتها الاصلية الا بعد معاناة الاهوال . وبصدد السؤال عن مقدار ما يسع النفس تذكره بعيد رجوعها الى عالم العقل ، فالجواب ان النفس انما تقول وتفعل ما يليق بذلك العالم . والبرهان على أنها لن تذكر افعالها التي اجترحتها شهواتها والتي غرقت فيها فلسفتها نفسها ، هو انها لا تعود تستشعر حتى في عالمها هذا ، أي اهتمام في الامور الدنيوية عندما تتعلق انظارها بالامور السماوية وكل النفوس في العالم السماوي لا يمكن تحديدها بزمان ، لذلك فالنفوس كلها خارجة عن حدود الزمان . ويأتي من هذا ان النفوس تعرف جميع أمور هذا العالم بلا تحديد زماني » .

ان الافاعيل المتكثرة للنفس في أوقات مختلفة لا تقوم برهاناً يدحض قوة النفس الواحدة البسيطة الموجودة . ان افاعيلها تتكثر في أوقات مختلفة لان الاشياء المتجسمة لاتستطيع ان تقبل افاعيلها مجتمعة في آن واحد . والعقل هو كل الاشياء ، وذاته يدرك جميع الاشياء ، وعليه فاذا رأى ذاته نفسه فقد رأى الاشياء كلها . والله هو علة العقل ، الذي هو علة النفس ، والنفس بدورها علة الطبيعة ، بينما الطبيعة هي علة مفردات الاشياء . وان كان الشيء الواحد علة الشيء الآخر ، فالله علة العلل لانه خالق العلة ، وبين عالمي الحس والعقل ، علاقة شبيهة بعلاقة الحجر الخشن مع الحجر المنحوت . والجمال في الطبيعة ينبثق من الجمال الذي تنطوي عليه النفس .

ان نتائج العلل الثانوية ، يجب ان لا نعزوها الى ارادة كامنة في النجوم السماوية . والجسم الذي هو مجرد آلة للنفس — يهلك ويتحلل عندما لا تعود النفس بحاجة اليه فتغادره — لان الانسان النفسي هو ما هو . والنفس باقية دوماً ابداً ، وفي حالة واحدة لا تخضع لا لفساد ولا لتحلل .

هذا قليل من الآراء التي تنسب الى (أرسطو) ، ومن الغريب كما يتضح لنا – ان الفلاسفة العرب المتأخرين لم يفكروا في مناقشة صحة هذه الاسانيد التي تحتوي على آراء ينكرونها ولا يعترفون بها هم أنفسهم بالغريزة . هذا الخبط والاضطراب في مراجع المضان الارسطية يمكن ان يكون هو العلة في الاضطراب العام والافتقار الى الانسجام الفكري الذي ورثه الغرب عن الشرق، والذي خلّص القديس (توما الاكويني) الدين المسيحي منه . على كل حال فالميراث الصوفي في مذهب(الافلاطونية الحديثة)، اصطدم بحاجة الكثيرين الذين رأواه ملجأ لهم من الشكوك والمصاعب التي خلقها لهم مذهب النفس هذا ، بانتشاره على أنه جزء من الفلسفة الارسطية . ومن الناحية الاخرى فان الاضطراب الذي ولده خليط الفلسفات المتنافرة في أذهان الباحثين عن الحقيقة من المسلمين المخلصين ، لا بد وانه جعل جوانحهم تزخر بالتعصب والبغضاء لكل ما يسمى فلسفة على نحو ما عبر عنه كثير منهم .

يقصد العرب بالفلاسفة ، أولئك الذين كان اهتمامهم الاول منصباً الى مدارسة الفلسفة اكثر من الثيولوجيا ، ويقول (الشهرستاني) المتوفى ١١٥٣ م انهم «سلكوا طريق (ارسطو) ... سوى شرذمة قليلة ... رأوا فيها رأي (افلاطون) والمتقدمين عليه» [٢٩] هذا التصريح يجب أن يفهم على أساس العقيدة الاسلامية التي كانت ترى أن نظريات الافلاطونية الحديثة المعزوة الى (ارسطو) انما هي نظرياته الحقة . يبدأ (الشهرستاني) قائمة فلاسفة العرب (بالكندي)ويتبعه(حنين بن اسحق) وينتهي(بابن سينا)الذي يقول فيه أن الاغلبية اتفقت على انه أمضى حكماً وارجح عقلاً . ومما لا شك فيه أنه كان

---

٢٩) الشهرستاني (٤٧٩ – ٥٤٨ هـ = ١٠٨٥ – ١١٥٣م) هو ابن أبي الفتح محمد أبي القاسم . ولد في شهرستان «خراسان» ودخل بغداد وبرع في الفقه وتكلم الكلام ، صنف كتاب «الملل والنحل» وكتابين في علم الفقه والكلام وتوفي بشهرستان . أنظر الفقرة في كتابه الملل والنحل ، ج ٢ فصل «الفلسفة» . (المعرب)

سيضيف الى هذه القائمة لو امتد به الزمن اسم الفيلسوف الاسباني (ابن رشد: ت ١١٩٨م) اثقف مفسر ارسطي واعظمهم عبقرية . ان كتب (الطبيعة) التي الفها هؤلاء الرجال بنيت على مبدأ (أرسطو) القائل(بالعلل الاربعة) [٣٠] ولقد أيدوا وجود الاشكال والطبائع التي تتميز بها المخلوقات واحدها عن الآخر ، وحاولوا ان يكتشفوا مبدأ الوجود في هذه الاشكال والطبائع .

ونظرية (الكندي) الخاصة بـ (الكَوْن) تقرب عن ثيولوجيا (ارسطو) . فالعقل الالهي هو العلة في وجود العالم السفلي . أما نفس العالم ، فهي وسط بين الله وعالم الجسوم . هذه «النفس العالَم» هي التي خلقت الأفلاك السماوية . والنفس البشرية انما هي منبثقة عن النفس العالَم . وبناء عليه ففي الانسان يوجد (ثنائي) : فبقدر ما كانت النفس مشدودة بالجسم ، فهي متأثرة بالأفلاك السماوية . لكن ما دامت هي مخلصة لأصلها الروحي ، فهي مستقلة . وكل من الحرية والسرمدية هما قريبتا المنال في عالم العقل . لذلك فعلى الانسان ان شاء الوصول اليها أن يأخذ نفسه برياضة قواه العقلية عن طريق اكتسابه المعرفة الحقة بالله وبالكون .

وفي رأي (ابن خلكان) كاتب السير المعدود من اوثق المؤرخين اطلاقاً ، ان اعظم فلاسفة المسلمين الاوائل طراً هو (الفارابي) التركي الثابت نسبه . (المتوفى ٣٣٩ هـ = ٩٥٠م) لقد كان شارحاً مكثراً على(أرسطو)وجميع الآثار المعزوة الى (أفلاطون) التي عرفها اخوانه في الدين . ورسائله في (النفس) وفي (قوى النفس) و (في العقل) كلها معروف باللاتينية . هذا وقد خلف (الكندي) و (الفارابي) لخلفائهم مسألة العقل الفعال intellectus agens

تقدم (ارسطو) بنظريته عن العقل البشري مشحونة مثقلة بنظريته في (تباين القوة والعقل) المحتمل والاكيد . وفي رأيه ان العقل البشري (الذي

٣٠) وهي المادية ، والصورية ، والفاعلية ، والغائية . (المعرب).

سمي في القرون الوسطى بـ intellectus) انما هو القدرة على المعرفة . وهو في بعض الاحيان يعرف ويفكر وفي بعضها لا يعرف ولا يفكر . اذن فلا بد وانه يوجد كائن فعلي يستطيع ان يرفع العقل البشري من منزلة القوة الى منزلة الفعل . وهذا يجب أن يكون العقل (الفعال) . لكن ما هو هذا العقل الفعال أو العقل الخلاق ؟ ما هي علاقته بالنفس البشرية؟ وبالعقول التي حركت الافلاك وبالله ؟ يقسّم (الفارابي) العقل الى اربعة (١)العقل بالقوة (٢)العقل بالفعل (٣) العقل المستفاد (٤) العقل الفعال . ويظهر انه يعني بالنوع الثالث ، حالة العقل في الفعل في اللحظة التي يدرك المعقولات . وبالعقل الفعال يعني شكلا خالصاً غير متقمص مادة . وهذا الذي يجعل العقل بالقوة عقلا بالفعل . والمعقول بالقوة معقولا بالفعل .

قبل أن نترك هذا الموضوع يحسن بنا ان نذكر ان (ابن رشد) ذهب الى ان العقل الفعال والعقل بالقوة هما واحد في جميع البشر . عقيدة مثل هذه هادمة لخلود النفس الشخصية وللشخصية الفردية ، هاجمها القديس (توما الاكويني) الذي كان يبشر بأن العقل بالقوة والعقل الفعال هما جزآن من نفس كل انسان . لذلك يكون عدد العقول بالفعل والعقول بالقوة مساويين لمجموع معشر البشر . تأثر (ابن سينا) خطى (الفارابي) في قوله بوحدة العقل الفعال وان لم يتفق معه في مسألة وحدة العقل بالقوة لدى جميع الناس . لكن هذا الدومنيكي العظيم ، كان على صواب حين وجد ذلك مناقضاً لاختيار المرء وسيطرته على افعاله نفسه .

نحن نلقى في آثار (الفارابي) هذه البراهين التي تثبت وجود الله ، حيث استقيت من معين (طيماؤوس) و (وما وراء الطبيعة) وكررت تكراراً مملا رتيباً عند جميع علماء المسلمين وهي الواجب والممكن والاستحالة في سلسلة علل ما لها نهاية ، وافتراض وجود علة اولي واجبة الوجود في ذاتها ولذاتها .

كان (الفارابي) شارحاً متحمساً للنظرية القائلة ان العالم قديم وما له بداية . وهو مذهب كان يعد جريمة عند الاسلام والمسيحية . وتعريفه الزمن بأنه حركة تضبط الاشياء معا انما أمر يستحق منا الذكر .

هناك اسم آخر غطت شهرته على (الفارابي) في الغرب وهو (ابو علي الحسين عبد الله بن سينا : ٩٨٠ – ١٠٣٧ م) الذي نزحت اسرته من بخارى . وشهرته بعد وفاته اعتمدت اكثر من أي شيء آخر على كتاباته الطبية لا الفلسفية . كان يملك موهبة الكتابة للدهماء ويستطيع أن يبتدع مواضيعه ، ويبرز فيها شخصيته ويؤكدها للناس بايجاز وتركيز حتى عد بحق ممثلا لأعلى ما بلغه الفكر العربي الفلسفي قبل ذيوع صيت (ابن رشد) في الغرب . عرف اللاتين (ابن سينا).وأمر رئيس اساقفة طليطلة (ريمند) بأن يُعمل له تراجم منها ، واناط المهمة بالشماس الانجيلي (دومينيك كونديسالفوس) (ويوحنا ابن داود الاشبيلي) . وحالة (ابن سينا) العامة اشبهت سلفه لكن نظرته كانت تمتاز بالتوضيح والتبسيط . وعنده ؛ ان العقول المحضة قد انبثقت عن واجب الوجود ، باشياء بسيطة لا تخضع للتغيير . هذه الاشياء الجميلة تتجه دوماً الى واجب الوجود محاولةً تقليده غارقة في اللذةالعقليةالناجمة عنالتفكر في الآله خلال الازلية . فتفسير (ابن سينا) لاقوال أسلافه كسب نفوذاً قوياً في الغرب عندما ترجمت كتبه الى اللاتينية [٣١] .

ومن التعابير الكثيرة التي اقتبسهاالغربمن(ابنسينا) كلمة (intention)[٣٢] وعربيتها « المقولات » اعني كل ما يدرك بالعقل فهو معقول . وهناك

---

٣١) قارن تراث اسرائيل ص ٢١١ (المؤلف) نقول : ان رئيس أساقفة طليطلة ريمند الذي شغل منصبه ١١٢٦ – ١١٥١ أسس ديوانا للترجمة ضم علماء منهم دومينيك جونزاليز المدعو كنديسالفس ويوحنا بن داود . فكان يوحنا ينقل من العربية الى الاسبانية فيرجع دومينيك لينقل من الاسبانية الى اللاتينية . وبقي هذا الديوان ينتج الكتب المترجمة عشرين سنة أعنيمن١١٣٠ حتى ١١٥٠ . (المعرب)

٣٢) أنظر التفسير لهذه الكلمة في « القاموس الانكليزي العصري » . (المؤلف)

نوع من المعقولات المدرَكة من الشيء اولا او بداهة كالشجرة . والمدرَكة ثانياً أو منطقياً لشيء بالاضافة الى الادراك الكَوْني المجرد . ومذهب (ابن سينا) في أن المنطق موضوعه هو المعقولات الثانية التي ينتقل بها المرء من المعلوم الى المجهول ؛ اخذها منه « البرت الاكبر » فاصبحت جزءً من فلسفة القرون الوسطى الكلاسية .

خلق (ابن سينا) لنفسه ولخلفائه مشكلة كلفته آخر طاقةمن ذكائه وعبقريته ، فوضع المبدأ القائل ان الواحد غير القابل للانقسام لا يمكن ان يصدر عنه الاّ كائن واحد (٣٣) ، وعليه فلا يجوز في عُرْفه الزعمُ بأنّ (الصورة والهيولى) تصدران من الله مباشرة ، لان هذا يتضمن التسليم بالزعم القائل بوجود حالين مختلفين في الجوهر الآلهي (الهيولى) في الحقيقة لا يلزم اعتبارها آتية من الله لأنها هي نفسها مبدءُ التكاثر والتغير .

ويعود (ابن سينا) ليقول ، علينا أن لا نشتط في زعمنا بأن (واجب الوجود) الذي لا علة نهائية له، مُسَيّر بغَرَضٍ ما على اعتبار أنه يعمل لاجل شيء آخر غير ذاته ، ذلك لانه لو فَعَل ، لكان خاضعاً في اعماله لكائن ادنى منه بالذات، وعندئذ يكون من الضروري التفريق في داخل الطبيعة الآلهية بين : (آ) صلاح الشيء الذي يجعله مرغوباً (ب) المعرفة الألهية لذلك الصلاح (ج) النية الالهية في تَطَلُّب هذا الصلاح أو صدوره . وعلى ذلك يجب أن يفترض وجود شيء يتوسط بين الله وهو واجب الوجود وبين عالم المتكثر . فالمسألة في هذه الحالة كانت تتلخص بكيفية امكان تعليل حقيقة الكون المركب والخلاق البسيط .

---

٣٣) لا ريب وان أفلوطين *Plotinus* الذي كان عالما بالمشقة التي تواجهه في ارائه كيفية انبثاق الكثير من الوحدة ، هو مصدر هذه النظرية ونظريات كثيرة اخرى لابن سينا . (المؤلف)

بدأ (ابن سينا)يربط مدلولي الواجب والممكن ، بمدلولي الشعور والمعرفة فالاول معلول وهو عقل محض يستمد وجوده من الموجود الاول فهو اذن واجب الوجود ، لكنه بذاته ممكن لا غير ما دام ليس ثم وجوب على العلّة الاولى أن توجده هي . وبهذا ظهرت ثنائية الكون ، العلة الاولى لا تتأثر بها . ومن هذه الثنائية وجدت الثلاثية . ومن ثم جاءت سلسلة من الانبثاقات التي انتهت في فلك القمر حيث العقل القمري قد انفصل عنه عقل محض أخير ، منه جاءت الأنفس البشرية والاسطقسات (العناصر) الاربعة . وهنا تورط (ابن سينا) في مشكلة خطيرة بان اضاع المبدأ الذي تمسك به أثناء بحثه عن الافلاك ومؤداه : لا يصدر عن الواحد الا واحد . وربما كانت العناصر واحدة من جهة المادة بسبب الرابطة الموضوعية المشتركة ولكن ماذا عن صورها ؟ لقد عزا وجود عناصر أربعة الى المعرفة الكامنة في العقول المحضة ، بأنها اربعة في عقل الله . وبمحاولته تحاشي ما يهدد سلامة نظريته ، كذلك ليترك مجالا لنظرية التكثر ؛ تقدم بنظرية مؤداها أن المادة (مستعدة) أو (مقدر لها) أن تقبل شكلاً خاصاً . هذا الاستعداد صدر عن حركات الافلاك ، بأسلوب ليس على (الشكل) الا أن يقوم باحتلال المادة أو أن يستحوذ عليها ، تلك المادة التي هيئت من سابق لتتقبل صورتها المناسبة .

ومراقي الخليقة عند كثير من فلاسفة الاسلام رتبت على النمط الآتي :

المبدأ الأول : اي الله .

العقل الأول : يعرف جوهره وأصله .

العقل الثاني : (أ ـ النفس وب ـ جسم الفلك التاسع) يعرف نفسه بأنه : (أ) واجب (ب) ممكن .

العقل الثالث : (أ ـ النفس ب ـ جسم فلك زحل) . يعرف نفسه بأنه : (أ) واجب (ب) ممكن . وهكذا حتى ..

فلك القمر : (نفس وجسم فلك القمر)

العقل الفعال : النفس الانسانية والاسقسطات الاربعة .

وانه وان كان الامر سابقاً على تقدم العلم في الغرب . فمن المناسب أن نورد هنا رأي (روجر بيكن) في حالة المعرفة الفلسفة ايام عاش (١٢٩٢) . قال : « لقد فشل القسم الاكبر من الفلسفة الارسطية في ترك أثر في الغرب : أما لأن آثارها الخطية كانت مختفية عن الانظار أو نادرة جداً أو لان موضوع تلكم المخطوطات صعب لا يلائم الذوق ، أو للحروب التي كانت مستعرة في الشرق . ظلت الحالة على هذه الشاكلة حتى بعد محمد (ص) حيث اعاد (ابن سينا وابن رشد) واضرابهم فلسفة (أرسطو)، الى النور وعرضوها عرضاً علمياً واسعاً . ومع أن بعض آثار في المنطق كان قد ترجمها (بويوس) من الاغريقية رأساً ، فان الفلسفة الارسطية لم تقع عند اللاتين موقعاً رفيعاً الا في زمن(ميخائيل سكوت) الذي ترجم أجزاء من كتابيْ (أرسطو) في (الطبيعة وما وراء الطبيعة) مع تعليقات له . فمن آلاف الكتب التي تضمنت حكمته الواسعة العظيمة لم يترجم الى اللاتينية الا مجرد جزء يسير وقتذاك . ولم يكن متداولا في أيدي الطلبة الا الجزء الأيسر . كان (ابن سينا) بوجه خاص مقلد (ارسطو) وشارحه الذي أكمل فلسفته قدر المستطاع ، قد الف كتابا في الفلسفة بأجزاء ثلاثة كما قال في مقدمة كتابه (الشفاء) اشتهر واحد من هذه الاجزاء وذاع صيته ، كما اشتهرت مناظرات المشائين [٣٤] الذين كانوا في مدرسة(أرسطو).أما الثاني فقد الفه على طريقة الفلسفة المحضة التي (لا تخشى حِرابَ الخصوم) كما عبر هو نفسه . والثالث الذي أكمله في اواخر حياته فهو يتضمن شرح الجزئين الاولين ، مع جمعه فيه أكثر حقائق الكون والفن خفاء لكن لم يترجم من هذه الاجزاء غير واحد . وفي اللاتينية فصول من الجزء الاول المسمى (بالشفاء Assepha) [٣٥] .

---

٣٤) *Peripatetic* : وهو اسم اطلق على الفلاسفة القدماء من اتباع وتلاميذ ارسطو . الذي قيل انه كان يتمشى عندما يلقي محاضراته وتعاليمه . (المعرب)

٣٥) هذه ترجمة خاطئة ، والاسم الصحيح باللاتينية هو *Liber Sanationis* وقد وضع الكتاب اول مرة كما يغلب على ظني السنة ١٨٨٧ في « الحوليات الشرقية *Analecte Orientalia* » باعتناء د . س مرغليوث *D. S. Margoliouth* . (المؤلف)

وجاء بعده (ابن رشد) ، وهو رجل جم المعرفة عبقري التفكير فصحح كثيراً من آراء أسلافه وساهم بقدر كبير في ايراد مادة جديدة من نفسه مع ان ما كتبه هو يحتاج الى اصلاح في بعض امور تفصيلية ، ويستلزم تبسيطاً في اماكن اخرى . وعلى كل حال فكما قال سليمان الحكيم في سفر الحكمة (تأليف الكتب لا نهاية له) (٣٦).

هناك بعض المبررات التي تجعلنا ننظر الى (بيكن) نظرنا الى ناقد حاد اللسان . ولقد فشل على وجه التأكيد احيانا في أن يكون رأس المعرفة في عصره ومع ذلك فلآرائه قيمتها اذا ما طبقناها على ماضيه القريب .

* * *

لما كانت اسبانيا المسلمة مرآة صادقة لمذاهب اسلام الشرق المتطاحنة التي جرّت الى عدة مناقشات وجدل طويل فلسفيا كان ام دينياً اثار اهتمام مراكز الدراسات الهيلينية القديمة ، فمن الضروري أن نبحث هنا ببعض اقتضاب تعاليم أولئك المفكرين الذين اثرت تعاليمهم تأثيراً قويا على الفلسفة الاسبانية الاولى والابحاث الكلاسية الوسيطة . وما زال بعض كلمات (بيكن) ذا قيمة . على أن الوقت لم يئن بعد ليكون في الوسع تدوين تاريخ الفلسفة الاسلامية حتى لوطبعت جميع المواد المتصلة بالموضوع والميسورة بشكل مخطوطات مودعة في عدة مكتبات من اوربا والعالم الاسلامي ، ثم وزعت بعد طبعها على الباحثين فعلينا ان ننتظر حتى تقوم الدراسات الواسعة والابحاث الدقيقة بتهيئة الجو فتتم الاحاطة العامة بمحتويات تلك الفلسفة الواسعة وآفاقها المترامية . أما في الوقت الحاضر ففي معلوماتنا ثغرات عديدة صارت تملأ الآن ببطء ، ولكن كل زيادة على معارفنا في الفلسفة العربية للقرون الوسطى تكاد تلقي نورا جديدا على تقدم الفكر الوسيطي في الغرب . كان الشرق الاسلامي مرتبطاً بالغرب

٣٦) سفر الحكمة : الاصحاح الثالث عشر (المؤلف)

بامر أُسّس الدين ، لم يكن التنابز السياسي بقادر على قطعها . وعندما فتح الغرب الاسلامي ابوابه الى الدراسات والافكار العربية المتدفقة ، لاح في الافق بكل وضوح بوادر ارتباط وثيق بين الجهتين سواء منها ما تعلق بالفكر ، او ما متّ منها الى مواضيع الدراسة . كانت هناك وحدةبل مصلحة مشتركة تربط العلماء المتفرقين في الامبراطورية الاسلامية الواسعة بعضهم ببعض . تربطهم برابطة الاخوة الفكرية والمفاهيم الثقافية الواحدة . تلك الرابطة الّتي آضت اوروبا اليوم منها عاطلة .

ان الفلاسفة المختصين Fachgenossen المسلمين ظهروا على نظرائهم بميزة لا يمكن تقدير قيمتها من التفكير والكتابة والتكلم بلغة واحدة . لذلك فاننا مضطرون الى البحث عن مقدمات وسوابق المفكرين الاسلام في اسبانيا ممن لم يبرز نشاطهم في الشرق حتّى القرن الثالث الهجري .

كانت الكنيسة في اسبانيا قد فقدت اتصالها بالفلسفة ، لذلك وعوضا عن ان يتولى المسيحيون مهمة تثقيف المسلمين الفاتحين وجدوا ألاّ مناص لهم من التتلمذ عليهم . كان أدب (المستعربة) ، ادبا فقيرا منحطاً بكل معنى الكلمة ، ومن العبث ان ننشد فيه بذور ثقافة القرون الوسيطة. وقد بقيت اسبانيا من أشد البلاد تمسكاً بدين الاسلام طوال ثلاثة قرون ولا نعرف فيها اثرا بينا لحركة عقلية او لاهوتية فكرية ، حتّى كتابات الجاحظ (وهو معتزلي ذو ذهنية عالمية كتب في كل علم كان معروفاً في العالم القديم تقريباً) فانها نقلت بفضل العرب الاسبان الذين كانوا يتلقون دروسهم وهم في الشرق. وسرعان ما لاقت المذاهب الاعتزالية ترحابا من الطبقة المثقفة الامر الذي اوجب ظهور تعاليم اهل السنة لمقارعتها .

ان علاقة السلطان الآلهي بالارادة البشرية اصبحت موضع نقاش حاد مستعر الاوار. منذ القرن الاول للهجرة . هذه المشكلة الّتي اثارها صاحبنا

(بيلاجيوس) [٣٧] وبحثها بعنف وصرامة حتى ان آراءه التي جاء بها ما لبثت ان عدت من قبيل الهرطقة الجديدة — كانت من جهة تلقى هوى في نفوس اللاهوتيين اليونان الذين تاقوا كثيراً الى موضوع مناظرة جديد .

ان (الجبر والاختيار) اصبح فهو السؤال المحرق الذي يتردد على الالسن الحائرة ، وقد سرى من ثمّ الى المعاهد الدينية الاسلامية كما يسري الوباء ، فكان اولئك الذين يرون ان الله لا يستطيع أن يسير اعمال الناس لانه كائن معصوم عن الشر ومقدر عليه الا يفعل الا ما هو عدل وحق ، قد نعتوا بـ (المعتزلة) اي المنشقين المعتزلين . ومنذ ذلك الحين وهذا الاسم لاصق بالذين انكروا الاعتماد الدقيق على القرآن والسنة والتمسك بحرفيتهما. وليس من المهم في موضوعنا هنا ان نتعقب مصائر هؤلاء اللاهوتيين الاحرار في بلاد الشرق الا بالقدر الذي اثرت تعاليمهم وانماط بحثهم في المجرى التالي للفكر الاسلامي الذي انصب في غربي اوروبا وجنوبها . والخدمة الكبيرة التي قدمها المعتزلة للعالم المتمدن لم تكن في اصرارهم على ترديد مبادىء معينة كالمبدأ الخالد في (العدل الرباني) [٣٨] ، وكدعوتهم القائلة ان علم الكلام يجب ان يكون موضوع التحقيق العقلي . وعبارة (قال الله تعالى) ما كانت تقوى على اسكاتهم ، بالعكس فقد كانوا يلحون في أن يُفَسّر لهم المقصود بكلمة (الله) وبكلمة (قال) . ان خطورة هذا المسلك باتت واضحة حين اشتط المتطرفون في تفسير هذه الاسئلة الموغلة في الاعتزالية حتى سقطوا في الغنوصية (اللادرية) او الالحاد الصريح . وقد

٣٧) *Pelagius* : زعيم هرطقة مسيحية ازدهرت في القرن الخامس . موءداها انه لا يوجد خطيئة أصلية وان المرء لا يحتاج الى النعمة لاجتناب الخطيئة الفعلية وللتوصل الى خلاص نفسه لان ارادة المرء الحرة كافية ، ولد حوالي منتصف القرن الرابع في بريطانيا وعاش في روما واعلنت هرطقته وزندقته في مجمع ديوسبوليس سنة ٤١٥ . (المعرب)

٣٨) في هذا لم يكونوا مجددين بل مبشرين بالمذهب السامي القديم في « الصدق » الذي هو اقدم بكثير من مذهب « التوحيد » . اما اسم المعتزلة فهو يعني بالاصل الشخص الذي يعتقد بأن الخاطىء خطيئة كبيرة قد اعتزل مجتمع المؤمنين . (المؤلف)

اجادت رباعيات (فيتزجيرالد) الشهيرة في تصوير التشاؤم الذي سقط في وهدته ما لا يحصى من هؤلاء الناس . لكن الشك والتشاؤم هما كما يراهما البشر بفطرته – حالتان غير اعتياديتين من حالات العقل . وقوة الحركة الاعتزالية مردها جهود اولئك الذين حاولوا اقصى ما في طوقهم اقامة علم الكلام الاسلامي على أسس ثابتة من الفلسفة مصرين في الوقت نفسه على ان تكون تلك الاسس منطقية – ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التي يجب ان تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية de fide واذ نحن نجد في التراث الضخم لتنابز المعتزلة على الصفات الالهية محض اختلاف حول اسماء ؛ فسنعود لنقلل من قيمة هذا التراث تقليلا كما فعل (جيبون) [٣٩] حين اتهم الكنائس المسيحية بأنها اقامت قيامة العالم بسبب مناقشات لفظية لاغير diphthong .

من العسير القول بان القرآن الكريم قد امد المسلمين بمادة لتكوين منحى مذهبي في فهم (الله) . كان يشار الى الله في آياته بأنه القادر ، علاّم الغيوب ، الحي ، القيوم ، المميت ، وما الى ذلك . انه ليتكلم عن الله المستوي على العرش معزياً اليه صورة الانسان . فعد المعتزلة هذه الصفات شكلية تمثيلية : محض سيماء تعتمد على صورة الانسان لتوضح المقصود وتقرب الموصوف من الاذهان واعتبروا تعظيم الصفات السبعة : القوة ، الارادة ، المعرفة ، السمع ، النظر ، الكلام ، الحياة ، وجعلها صفات مستقلة عن طبيعة الله ، اعتبروه من قبيل الشّرْك . واندفع بعضهم مشتطاً فأنكر ما يشار به الى الله كافة ، ورفض غيرهم الاعتراف ببعض هذه الصفات والتسليم بالاخرى . وذهب (دنز سكوت) الذي يدين بالكثير للمدرسة العربية الاسبانية ، الى أن الكائن الاول (اي الله) هو حي فعال ، عاقل ذو ارادة .

---

٣٩) *Gibbon* (١٧٣٧ – ١٧٩٤) أشهر المؤرخين الانكليز عرف بكتابه الاشهر « انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » . (المعرب)

ومما صار موضوعاً رئيساً ، هو المناقشة فيما يعني ان الله يملك صفة الكلام . هذا النقاش تمخض اخيراً بالقضاء على المعتزلة بقوة سلاح السلطة الزمنية . قال المعتزلة : اذا كان الكلام صفة من الصفات الالهية ، فيجب أن يكون ازلياً غير مخلوق سبق وجوده وجود العوالم . وبخلاف ذلك اذا ما تكلم الله في وقت ، طرأ التغيير عليه فيما صار اليه مما لم يكن من قبل . « والصيرورة» قد لا يمكن ان تعزى الى الله . وعليه اذا كان (الكلام) صفة الهية ، والقرآن الكريم سجل هذا الكلام ، وجب أن يكون القرآن على هذا الاعتبار قديما : غير مخلوق (ex hypothesi) . لكن ذلك محال ، لانه كان — حسب ما هو مبين — شيئاً وجد في العالم المخلوق اوحي به وكتب في زمان ومكان كما يشير الى ذلك احياناً بعض آياته المكانية بكل وضوح . ان صفات الله مطابقة لوجوده وان كانت علاقاته بخلوقاته قد تعرضت لصفات فعالة معينة كالخلق والبقاء . فهي مختصة بالزمان لا غير .

ان الخليفة (المأمون)وهو معتزلي — كان يؤمن بزمنية القرآن وهو امتحان يدل على ثبات عقيدة . وقد اظهر المعتزلة لسوء الحظ أيام بأسهم وسطوتهم تعصبا . لذلك تحول عليهم وانصب على رؤوسهم عين اضطهادهم لاهل السنة. وكان السنيون قد بقوا ثابتين على عقيدتهم الناطقة بقدم للقرآن والتقيد بمتنه الحرفي الى حد ما مع قبول عدد كبير من الاحاديث التي نقلت عن محمد (ص) .

ومهما يكن من أمر فقد كان واضحا في القرن الرابع الهجري بأن النزول الى بعض آراء المعتزلة واجب . اصبحت أفكار الناس متبلبلة ، واستدعت الحاجة الملحة الى اعادة تثبيت أركان الدين على ضوء الفلسفة الحديثة . بهذا العامل اضطلع رجلان ، هما موجدا علم (الكلام) الاسلامي المعروف ، واعني بهما : (ابا الحسن الاشعري البغدادي[٤٠] المتوفى في ٩٢٣م) و(أبا منصور

٤٠) ان رسالة الاشعري في شرح مذهبه ، تطبع الآن في المانيا للمرة الاولى وقبل وصول هذه الرسالة الى ايدي الباحثين نجد من المستحيل ان نحدد مدى تأثير آراء الاشعري الخاصة على مدرسته نفسها . (المؤلف)

الماتريدي السمرقندي المتوفى ٩٤٤ م)[٤١] . ان علم الكلام هو علم نظري يتصدى بصورة خاصة لا بصورة كلية — الى مسائل الاثولوجيا . وقد ذكر في مجال الاثولوجيا loquentes اسم القديس (توما الاكويني) الذي عـرّف علم (الكلام) بانه : « علم اسس الدين ، والادلة العقلية التي تدعم حقائقه الاثولوجية » . وكلمة (المتكلمين) ، بالاصل لم تطلق على مدرسة معينة ما ، وكان أهل السُّنة وغيرهم يستخدمونها على حد سواء وإنْ اصبح اطلاقها مع مرور الزمن — وقفاً على مظاهري اهل السنة ومشايعيهم في مواقفهم .

ان عقائد المعتزلة كان حظها في اسبانيا من الرواج حظا جد قليل لعدة سنوات . لان هذه الزندقة اقترنت في عقول الجمهور بالجمعية الفاطمية السرية الخطيرة التي كانت تهدد كيان الفرق الاسلامية الدينية كافة . وعليه اضطر الفلاسفة الى العمل سراً . وانجبت اسبانيا ثلاثة مفكرين عظام من العرب هم : (ابن مسرة وابن العربي وابن رشد) الذين اضطلعت ايديهم بمزيج الفلسفة والاثولوجيا المنحدرة اليهم من آثار الافلاطونية الحديثـة وشبه الامبذوكلية [٤٢] والارسطيـة . والمذهبان الاولان خالصا الصوفية . هؤلاء الفلاسفة قلدوا الصرامة والشدة التي اخذها اخوانهم في الدين الشرقيين من الرهبان المسيحيين ، وربطا بمراسيم المؤمنين الاطهار فلسفة وحدة الوجود النظرية الصبغة .

اول هؤلاء (محمد بن عبد الله بن مسرة) المولود في السنة ٢٦٩هـ =٨٨٣م .

---

٤١) الامام ابو منصور الماتريدي « او الماتوريد وهي محلة بسمرقند ، ت ٣٣٣ هـ » هو الحنفية في علم الكلام كالاشعري للشافعية . من كتبه « التوحيد ، واوهام المعتزلة ، ومآخـذ الشراح ، والجدل في اصول الفقه .. الخ » . (المعرب)

٤٢) *Pseudo - Empedocle* : امبذوكل ولد حوالي ٤٩٠ ق. م. وهو فيلسوف وقانوني وطبيب وشاعر اغريقي عرف بتقسيمه العناصر الكونية الى أربعة : النار ، الهواء ، الارض ، الماء . وقال ان الكائنات تتكون وتتبدل باختلاط العناصر بعضها ببعض او اقترانها بعاملي الحب والبغض . (المعرب)

كان ابو (عبد الله) قرطبياً وقد اصبح تلميذاً متحمساً لمذهب المعتزلة الذي حملته رجاحة عقله على اخفائه في ذات نفسه . توفي عن ابنه الشاب بعد ان زرع في قلبه حبه الاثولوجيا النظرية وحياة العزلة . ولهذا نزح (ابن مسرة) قبل بلوغه الثلاثين الى منطقة جبال قرطبة وهناك تفرغ — وهو محاط بتلاميذه — الى تدريس وتعليم مذهبه الثيولوجي السري . كانت السرية التي بعثها الخوف من السلطات الزمنية قد أشاعت في تعاليمه عمقاً لا يمكن أن يدعيه مذهب اوسع من مذهبه انتشاراً . وقد اطمأن (بن مسرة) ومدرسته الى التأثير الذي خلفه على القرون التالية واصبح المحل المنعزل الذي اختاره للتواري عن الانظار كعبة للقصاد ومركزاً انتشر منه مذهب خطر جدا على رسالة الاسلام الاساسية بمرور الزمن. والخوف الذي استولى على (أبن مسرة) من ان يُرمى بالزندقة ، جعله يوازن الامر في نفسه فآثر ترك البلاد متعللا بالحج الى مكة ، ولم يرجع الى اسبانيا من الجزيرة العربية الا بعد ان تولى المُلْك (عبدالرحمن الثالث) المعروف بالتسامح وحب العلم وعندما استعاد مركزه التعليمي اصبح طابع التقشف والخشونة في تعاليمه اكثر ظهوراً ووضوحاً . كان يبدو للعالم الخارجي تقيا ورعا ظاهر التصوف يتبع سبيل التائبين ويرتاض رياضتهم ويتسلك سبيل عباداتهم . كان يبدو لسامعيه العاديين صوفياً خلا نطقُه وكلامُه من اي دليل على زيغ العقيدة ولكنه كان في الباطن ، بين حلقة تلاميذه المقربين استاذاً للحقيقة التي لا تقبل المصانعة . كانوا يرون في كلامه معنى خفيا عميقاً لا يفهمه الا الصفوة المنتخبون . وهو اول من قدم للغرب الاستعمال الغامض الملتبس للكلمات الاعتيادية عمـداً وتقصداً . وسار على نهجه اغلب الكتاب التابعين لمذهبه فيما بعد . وبلغت طريقته اوجها من النجاح حتى انه عُدّ عند وفاته ٩٣١م ، انسانا ذا صفات نبوية وقداسة وتقشف اكثر مما عد معلماً لاثولوجيا شكوكية .

لايوجد أثر مكتوب (لابن مسرة) لكن مستشرقا اسبانيا باقعة ، جمع مواد

لبناء هيكل تقريبي لمذهب يحتوي على مقوماته (٤٣) الرئيسة ومنها يبدو ان (ابن مسرة) كان محاميا متحمساً عن الفلسفة المعزوة الى امبذوكل. كان المسلمون يرون في (امبذوكل) واحداً من الفلاسفة الاغريق التسعة الأوّل. وفي اسطورة ان (امبذوكل) كان تلميذاً على انبياء وحكماء (كداود) (وسليمان) (ولقمان). وبذلك كسي ثوباً آخر من الثقة والعلم، واكتسب تبعاً لهذا لوناً من المكانة بوصفه علَماً مفرداً في الاحاديث التي يروبها عنهم وان كان قد ولد في غير وقتهم.

ان الاختلاف الجوهري بين (المسرّية) وبين الشكل الشرقي (للافلاطونية الحديثة) يكمن في افتراض أن المادة الاولى للعنصر (أو الهيولى الاولى) هي أول شيء خلقه الله وهذا العنصر كان روحيا رمز اليه بعرش الله، هذه الفكرة التي كان (ابن مسرة) أول من بثها في الغرب، مارست نفوذاً عظيماً على مر العصور التي تلتها. فالفلاسفة اليهود المشاهير (كابن جبرول المالقي عاش حوالي ١٠٢٠ — ١٠٥٠ أو ١٠٧٠ م) و (يهوذا هاليفي الطليطلي)، (وموسى بن عزرا الغرناطي). (ويوسف بن صديق القرطبي) (وصموئيل ابن طبون) و (شمطوب بن يوسف بن فلفيرا)، كلهم ثبتوا اوليات المباديء شبه الامبذوكلية، وكانوا من الارتجال والفجاجة بحيث يحقّ لنا ان نؤكد انهم استمدوها من (ابن مسرة).

ومع أن الفكر الفلسفي اليهودي في العصور الوسيطة قد سبق بحثه في كتاب آخر من هذه السلسلة (٤٤) فالعدل يقضي أن ننوه بِديْن العرب على اليهود هنا. وما على المرء الا أن يتذكر انه لم يكن يوجد ترجمة عبرانية (لارسطو) وان اليهود كان يكفيهم الترجمات التي قدمها لهم (الفارابي) و(ابن سينا)

---

٤٣) بروفسر م. آسين في «ابن مسرة ومدرسته *Abonmasarra y su escuela*» مدريد ١٩١٤.
٤٤) تراث إسرائيل ص ٤٨٩ وما بعدها. (المؤلف)

(وابن رشد) ليدركوا كم تأثرت اليهودية بالحضارة العربية . ان علماء العبرانية قد ينظرون احيانا نظرة تساؤل وشك الى الترجمات العربية (لارسطو) (الترجمات التي كانت توحي الاحترام لمن يفلح في ترجمتها من المستشرقين اكثر من مترجمها الاصلي العربي) . لقد قرّ رأيهم على الاستفادة من شروح وتعليقات الذين اتينا الى ذكرهم آنفاً .

تمتع المعتزلة بنفوذ عميق على مفكري اليهود ، والواقع أنه يستحيل احيانا أن نتعرف على كاتب . من نص ورد في كتاب موضوعه علم الكلام ، أكان كاتبه يهودياً أم محمدياً . وكما كان المتوقع ، فان نظرة الأشاعرة المتزمتة الى الله المنكرة بكل صراحة فعالية القوانين الطبيعية والعلاقة بين السبب والمسبب ، لم يكن لها من أثر على اليهودية أكثر من أثرها على المسيحية .

اهتمت الفلسفة اليهودية من وقت (سعديه بن يوسف الفيومي : ٩٤٢ – ٨٩٢ م) حتى (يوسف ألبو Joseph Albo : ١٣٨٠ – ١٤٤٤) بالمسائل والمناظرات التي ورثتها من العرب ولا حاجة بنا الى تنظيم قائمة بأسماء الرجال الذين تصدروا بصورة عامة ديوان الفلسفة في ذلك الزمان أو برزوا[٤٥] فيه وكان اعظمهم طرا بل ابعدهم صيتاً (موسى بن ميمون : ١١٣٥ – ١٢٠٤م) الذي استخدم القديس (توما الاكويني) نقده العلمي للمتكلمين العرب بلا حد ولا تعفف . اقتدى (ابن ميمون) على آثار (الفارابي) (وابن سينا) في العودة الى (ارسطو) لاستمداد المواد اللازمة للبرهنة على وجود الله وعلى وحدانيته وعدم تجسده .

ومن بين العلماء المسيحيين ، أصاب (ابن جبرول) شهرة رفيعة مدهشة بعد أن ترجم له (افنديث : ابن داود) (ودومنيك كونديسالفس) كتابه « ينبوع الحيـــاة fons vitae » رأساً من العربية الى اللاتينيـــة في النصف

---

٤٥) انظر ايضا « تراث اسرائيل » الص ١٨٢ – ٢٥٢ وخاصة ص ٤٣٧ . (المؤلف)

الاول من القرن الثاني عشر . وقد وقعت المدرسة الفرنشسكانية كلها تحت سحر كتاب « ينبوع الحياة » بينما اخضع الدومينكان (مقتفين خطى توما الاكويني) تعاليمه وموضوعاته الى نقد حاد متلف . و(كونديسالفي) نفسه كتب ثلاثة كتب في الوحدانية : الاول De Unitate اوضح فيه ان كل شيء الا الله يتألف من صورة وهيولى . والثـاني في موضوع صدور العـالم De Processione Mundi . والثالث في النفس De Anima . والأخيران نشرا نظريات الحلول بمفهوم المدرسة العربية ــ الاسبانية .وكان كتاب« ينبوع الحياة » بدرجة من الحواء من كل جدال حتى ان عدة كتاب مسيحيين ظنوا أن كاتبه عربي بينما ظن (كيوم دوفيرن)[٤٦] انه المسيحي الاوحد الذي كان له وقوف تام على الفلسفة العربية ، وهو الذي برهن على طول باع في تفسير مبدأ الكلمة (verbum Dei) ولم يكن (كيوم) على كل ، يشارك وجهة نظر (ابن جبرول) في ان الكائنات الروحية مؤلفة من مادة.فمن المعقول أن تذهب الى أن مدحه له ووصفه اياه باعلى الفلاسفة طراً إنما هو مبني على معرفة بسيطة بآثاره .

ويتبنى (اسكندر الهاليسي)[٤٧] كذلك ، وجهة نظر (ابن جبرول) عن المادة الاولى . ويتكلم عن الملائكة باعتبارهم ذوي صورة وهيولى وعليه فهو مدين لهذا اليهودي الاسباني بفكرة ان كل علاقة فعّالة وانفعالية انما تشير الى الصورة والهيولات بالتسلسل . ولقد سمى (ابن جبرول) كتابه « ينبوع الحياة » لانه يدعي ان الكتاب يحوي على معارف عالية بخصوص المبدأ

---

٤٦) *Guillaum d'Auvergne* : ت ١٢٤٨ ، اسقف باريس في السنة ١٢٢٨ وأحد رواد الفلسفة الكبار كتب كتاباً مشابهاً « لمجموع » الكسندر الهاليسي فيه تحبيذ لمذهب ارسطو . درس لغة العرب وساعد في نشرها . (المعرب)

٤٧) *Alexander of Hales* : ١١٧٥ ــ ١٢٤٥ مفكر انكليزي تلقى الفنون فاللاهوت بباريس ثم علمها بجامعتها سنين طويلة ثم انضم الى رهبنة الفرنشسكان وشغل الكرسي اللاهوتي المخصص لهذه الرهبنة بجامعة باريس . (المعرب)

الذي يكمن خلف كل ظاهرة ، وهي معرفة كانت مستترة عن الجاهل والاحمق ومتكشفة للفيلسوف الذي له وقوف على الأسرار الالهية . كان الكون قد فسر على هذا النمط لا بدراسة طبيعة الاشياء بل بمعرفة المبدأ الذي منحها الوجود في هذا العالم ، ان الحكمة المستوحاة كانت معروفة لـ (بيكن) الذي يتكلم عن الفلسفة بأنها « جاءت الى الوجود بتأثير الوحي الالهي » .

ان ابتعاث الدراسات الفلسفية المشائية (الارسطية) قوّتْ معارضة كثيرين من علماء النصرانية لعقائد الاسبانية ــ العربية وأجبر من اعتنقها على أن يدأبوا في اكسائها خللا من آراء القسس . ولهذا تكلف القديس (توما الاكويني) عناء توضيح سوء فهم للقديس (اغسطين) [48] فيبين أنه لم يلصق صراحة صفة الهيولى بالكائنات الروحية . وكان ثم احتمال وجود استثناء واحد أو استثنائين في شرحه نظريات (ابن جبرول) ذلك الشرح الذي استهدف دائماً تنفيد تلكم النظريات . وكتابه الجواهر المتفارقة du substontiis separatis هو مثل بارزوبرهان ساطع . يقول فيه : «من المستحيل البرهنة على أن الكائنات الروحية مكونة من هيولى». ويتقدم بحجج لابطال المبدأ القائل بصدور العالم ، وإعمال تأثير الله المباشر الخلاق .

وثم كاتب آخر كان لثمار قريحته الخصبة ، تأثيرُ عظيم في الغرب الا وهو (الغزالي :أبو حامد بن محمد الطوسي ١٠٥٨–١١٠٩) ويلقب بحجة الاسلام. قضى حياته الكثيرة التقلب في وسط الحركات الفكرية والدينية الخطيرة التي كانت منتشرة في ايامه . وكان اولا فيلسوفاً ثم صار عالما ، ثم محدّثاً ، ثم شاكاً، ثم متصوفاً . وهو لا شك رجل عظيم الايمان ذو نزعة اخلاقية متينة يكاد يكون احد القلائل بين أهل ملته الذين وقفوا انفسهم دوما على ايقاظ الفضيلة

---

٤٨) *St. Augustine* : ٣٥٤ – ٤٣٠ ولد في الجزائر ، وهو من فلاسفة الكنيسة العظام والمدافعين عن الكنيسة ضد الهرطقات عرف بكتب دينية فلسفية كالاعترافات ، ومدينة الله (المعرب)

نفوس اخوانه . لقد جعل للاسلام مكانة يمكن مقايستها الى حد ما بالمكانة التي جعلها للمسيحية (توما الاكويني) . ان المرء لا يتبين حين يقرأ رسائله الثيولوجية بان كاتبها مسلم العقيدة الا بعد جهد . حتى تصل به القراءة الى مبحثه في عقيدة الثالوث المقدس ، وفي سر التجسد .

تفرغ الغزالي في شرخ شبابه الى دراسة الاثولوجيا والفقه ليكونا له مهنة ومستقبلا ، وقبل أن يبلغ العشرين بدأ يحاكم القواعد الدينية التي كانت آنذاك من الامور المسلم بها التي لا يتطرق اليها الشك . وأخذ يبحث بنفسه في مسائل الاثولوجيا ، واختير مساعد استاذ في (نيسابور) .ومن هنالك انتقل الى المدرسة النظامية ببغداد حيث ثبت مستقبله ونبه ذكره كاختصاصي في امور الشريعة . وبعد عدة سنوات قضاها في صراع بين ايمانه ، وعقله ، عانى انهياراً عصبياً هائلاً فترك العاصمة طلباً لراحة البال واستقرار الفكر . وبعد أن استعاد قوة التفكير المنظم ، شرع يدرس من جديد الطرق الاربعة التي زعم انها توصل الى الحقيقة وهي :

١ ــ طرق علم الكلام لمن تقدمه من اللاهوتيين .

٢ ــ التعليميين الذين كانوا يعتقدون بوجود معلم معصوم من الزلل .

٣ ــ الفلاسفة الارسطيين .

٤ ــ الصوفيين الذين يرون أن الله ممكن ادراكه صوفياً بالوصول الى حالة الوجْد .

ولقد درس هذه المذاهب درس تمحيص وخرج منها اخيراً وهو صوفي. وقصة الحج الروحاني قصته العجيبة المدهشة تستأهل الشرح بتفصيل ودقة . واهميتها لنا تتجلى في أن (الغزالي) انصرف الى معاودة درس عدة مذاهب من الفلسفة والاثولوجيا ، واودع النتائج التي توصل اليها في كتب ترجمت الى اللاتينية . وكتبه في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة اصبحت معروفة عن

طريق مترجمي طليطلة في القرن الثاني عشر مع أن تأثيره فيما يخص موضوع ما وراء الطبيعة لم يكن يداني تأثير (ابن جبرول) الذي كان يصبّ في المجرى الرئيس للفكر الاسباني – العربي لم يكد يتركز جيداً بين اللاتين حتى ابعده تماماً (ابن رشد) والقديس (توما الاكويني) الى مجرى فرعي صغير.

وعلينا هنا أن نذكر اسبانيين اثنين هما: (ريمند لل)و (ريمند مارتن). ان اللغط الذي دار حول اصل فلسفة (ريمند لل)، يجلو باتقان لا مزيد عليه تلك النقطة التي تقدم ذكرها في أول الفصل. يدعي المستشرقون الاسبان انهم وجدوا في كتاب (لُل) أمثلة عديدة تفوق الحصر ذات مصادر عربية، بينما يؤكد علماء فرنسيون ان اصل مذهبه هو كامن في الفلسفة الاغسطينية والتعاليم الكلاسية الكنسية. وحيث تحتدم المناقشة تضيع الحقيقة ولا يمكن التوصل الى البديهيات منها. لكن ربما يتفق الكثير على أن الحقائق تبرر النتيجة العامة المتوخاة في مبحثنا هذا، وهي أن تراثاً كلاسيا ضاع أثره واختفى في طيات النسيان في اوربا المسيحية ليعود تحت رعاية الاسلام ويسبب حماسة علمية تتبعية للكتابات العربية عن (أرسطو) وآباء الكنيسة. لم يكن ثم ضرورة للكتابة عن تقبيح الاستعراب reproche d'arabisme عندما عمل الباحثون المسيحيون على اعانة اولئك الذين نقلوا جميع علوم الاقدمين بصورة عامة. ولم يكن المسيحيون الذين عاشوا (الريسانس) العربي يشعرون بالخجل حين يستمدون العلم من العرب ولا كان العرب، (والوجدان يجبرنا على الاعتراف بذلك) بالذين اظهروا استعلاء اكثر مما يستأهلون في ميدان تفوقهم الثقافي الذي لا يمكن نكرانه. وكان (ابن طلموس الشقري : ت ١٢٢٣م) (وبذا يكون معاصراً لريمند لُل) يكتب بروح تجردت من المكابرة والغرور. ولقد سبق علماء الاسلام اسلافهم الاولين في علوم الهندسة والحساب والموسيقى ومع أن الاحتمال الكبير يحملنا على القول أنّ رجال اليوم حازوا معرفة اكثر من

معرفة الاقدمين فمن العدل ان نذكر ببعض الاحتمال بان الكثير جداً من آثار الاقدمين قد فقد . والبحوث الجديدة تدعم هذا الرأي (٤٩) الذي اتى به (بن طلموس) وشرحه بأمانة العالم الذي يميل إلى تعظيم اعمال سابقة لا الحط من شأنها . وادعاؤه بان المفكرين المسلمين قد انجزوا الكثير في ميدان فلسفة ما وراء الطبيعة بقدر ما انجزوا في العلوم الوضعية . لا يستند الى اساس قوي فلقد رأيتَ ما جرى على الارسطية عندما كُسيتْ ثيابها العربية .

ان عدم وجود آراء فلسفية ذات شكلٍ يتميز بالطابع العربي. يعقد أمر تحرينا عن مصدر مباشر . ولكن أي شخص كان يعتبر (لُل) مؤسسا لمعهد الدراسات الشرقية وانه اتقن العربية تكلماً وكتابة وكان اعظم هدف في حياته التبشير بالنصرانية بين العرب عن طريق صبها في قالب عقلي ولأنه ممن استشهد اثناء تبشيره بين عرب تونس ، ربما يشعر بأن استبعاد تأثير مباشر عربي من حياته ، انما هو تضييق اعتباطي لمدى اتجاهاته الجامحة.لقد عاش في عصرٍ : (١٢٣٥–١٣١٥)، كان الغرب فيه يكر راجعاً الى المصدر الحقيقي لفلسفته، ولا يمكن القطع بمدى اعتماده على الفلسفة الاسلامية الا بعد دراسة دقيقة غير موسومةٍ بتمهيدات قطعية الأحكام . ومما لا شك فيه انه استمد الكثير جداً من العربّ في الجزءً الخاص بالآهياته أو بالاحرى عباداته التي تفصح هي عن ذات نفسها . وهو يكتب في كتابه « Blanquerna » بكل ارتيـــاح عن المرابط marabout أو طريقة الدراويش في تحقيق احوال العبادة والانجذاب بترديدٍ ايقاعيّ لكلمات معينة . ويبدو لنا اكثر طبيعية وانسجاماً افتراضنا بان المشابهات بين اللغات والعادات وطرق العيش التي تبناها (لُل) وبين تلك العادات التي كانت سائدة في العالم الاسلامي انما تعود الى دقة ملاحظته واهتمامـــه بالحياة الدينية لمعاصريه المسلمين اكثر مما يعود فضلها الى ظروف وصدف امثال النساك النصارى الموغلين بعداً في أوائل عصور النصرانية .

---

٤٩) انظر الفصول ١٠ و ١١ و ١٢ . (المؤلف)

انشيء أول معهد للدراسات الانجيلية الشرقية في اوربا بمدينة طُليطُلة العام ١٢٥١ من جانب (اخوية الواعظين) وكانت اللغة العربية والعبرانية التوارتية من منهج الدرس لغرض تخريج رجال قديرين على النهوض باعباء المهـــام التبشيرية بين اليهود والمسلمين . واعظم عالم انجبه هذا المعهد هو (مارتن) معاصر القديس (توما الاكويني) . فلقد كانت معرفته بالكتاب العرب لا تسمو اليها معرفة اخرى في اوربا حتى العصر الحديث . لم يكن مطلعاً على القرآن ومجاميع الاحاديث النبوية الاسلامية وحدها بل تعداها الى الاستشهاد والاقتباس من مشاهير الاثولوجيين والفلاسفة المسلمين ابتداءً بـ (الفارابي) حتى (ابن رشد) مصحوبة بملحوظات انتقادية دقيقة في موضوع الاختلاف بينهم. ولكتابي « الرد على من ليسوا مسيحيين Summa contra Gentiles » والدفاع عن الايمان ضد الموريسكيين واليهود Pugio Fidei Adversus Mauros et Judaeos اصل مشترك في كونهما أُلّفا بامر رئيس اخوية الواعظين . كان (ريمند مارتن) هو الذي تحسس قيمة كتاب (الغزالي) « تهافت الفلاسفة » ذلك الكتاب الذي يعتبر عملاً جدلياً ألف ضد فلاسفة الاسلام ومفكريه . واستمد (ريمند) الكثير منه واودعه كتابه « الدفاع ... » المذكور. لذا فان مناقشات (الغزالي) المتفقة مـــع فكرة الخلق من العـــدم Creato ex nihilo وبراهينه المثبتة ان معرفة الله تشمل التفاصيل ، وان ثم نشوراً بعد الموت ، قد تبناها المسيحيون كذلك وضمنوها كثيراً من الكنائس . ويترجم (ريمند) عنوان كتاب الغزالي « تهافت الفلاسفة » الذي هاجمهم فيه ، بـ Ruina seu praecipituim philosophorum . وقد استهوى اسلوب (الغزالي) العقلي والديني مفكري المسيحيين ، ولقي استحساناً عظيماً من اللحظة التي تيسرت لهم كتبه ، وما برحوا يشبعونها درساً دقيقاً . كتاب « الدفاع » لا نظير لبساطته في انتقالاته بين تراث الشرق . فكان مؤلفه يقتبس نصوصاً عبرية من العهد القديم

(التلمود) ومن (ابن ميمون) باللغة نفسها بالاسلوب الذي ينحوه المفكر العصري الذي يكتب لحلقة من القراء المثقفين . وكان يذكر دوماً عنوان الكتاب الذي يرجع اليه أو يقتبس نصوصاً منه فيما يكتب باللاتينية ويا ما أكثر ماااقتبس من (الغزالي) و(الرازي) (وابن رشد) !

من آثار الغزالي رسالة « الاقتصاد » . وبينها وبين كتاب « الخلاصة » (لتوما الاكويني) اوجه شبه عدة في مناقشاته ونتائجه . وتلك ظاهرة يصعب أن يوجد لها أكثر من تفسير واحد . إن لكتابيْ « الرد » .. و« الدفاع » اصلاً واحداً من حيث انهما كتبا بناء على طلب (ريمند دي بنافور) [٥٠] رئيس رهبانية الدومنيكان.وتشابه بعض فصول الكتابين جلي واضح إذ تجد ثم بعض المسائل ذات الاهمية وافكار الضرورة والاحتمال ، كما انها تثبت وجود الله ووحدانته المتجلية في كماله ، وكامكان التجلي الالهي والمعرفة الالهية ، والبساطة الالهية ، وكلام الله verbum mentis ، واسماء الله ، والمعجزات بوصفها برهاناً على حقيقة احاديث الرسل وكعقيدة البعث من العالم الآخر .

كان القديس (توما) كما رأيتَ، يشير أحياناً الى آراء مختلف الاثولوجيين المسلمين ولهذا فانهَ كتب في الجزء الثالث (صحيفة ٩٧) من كتابه « الرد » يقول : « اولا هناك خطأ الذين يقولون بأن كل الاشياء هي نتيجة الارادة الالهية البسيطة من غير العقل. وهذا هو غلط الاثولوجيين المسلمين Loquentuim في مجال شريعة العرب saracen [٥١] (كما يقول الرابي موسى

٥٠) *St. Raymund de Pinnaforte* (١١٧٥-١٢٧٥) راهب دومينكاني من برشلونة يعزى اليه وضع قانون الكنيسة الذي ظل معمولا به من قبل الكنيسة الرومانية حتى ١٩١٧ . (المعرب)

٥١) اختلف الكتاب في أصل كلمة *saracen* التي كانت أوربا في القرون الوسطى تطلقها على العرب . والثابت ان الاغريق كانوا يطلقونها على قبائل العرب الرحالة في بادية الشام *Sarakenos* كما ورد في كتبهم ، ولهذا ظن أنها أتت من كلمة (السرحيون). قال ابن بطوطة في كلامه عن الروم : « وسمعتهم يقولون (سراكنو) ومعناه المسلمون » . (المعرب)

ut Rabbi Moyses dicit) الذين يرون أن السبب الوحيد في كـــون النار تحمى ولا تبرد هو ارادة الله . ثانياً اننا نفند قول أولئك الذين ظلوا يعتقدون بأن نظام العلل يتسلل مع العناية الالهية بطريق الضرورة » .

والواضح من مقتبسات (توما) عن (موسى ابن ميمون) من كتابه (مرشد الحيارى) ان مصدر معلوماته عن الاشاعرة والمعتزلة ليس عربيا بشكل ما . لكن نرجح ـ لاسباب بيناها آنفاً ـ أن يكون (ابن ميمون) مصدر المعرفة الوحيدة . كان (الغزالي) يقصر من الناحية العقلية عن اللاهوتي الانجيلي . على ان اوجه شبه كثيرة لوحظت بينهما . فميولهما واغراضهما ومصالحهما كانت واحدة بجوهرها : كلاهما عمل على وضع وجهة الخلاف قبل أن ينطق بحكم ، وكلاهما اجتهد في اصدار (خلاصات) لتكون بمثابة وجهة نظرة معقولة لمعتقده ، وكلاهما وجد السعادة في الادراك الصوفي لله تعالى الذي اعترفا له بانه جعل مجاهداتهما الاولى تبدو لا شيء .

وبمرورنا (بابن ماجه) (وابن طفيل) مرور الكرام ، وجب علينا أن ننتهي بذكر (ابن رشد) اعظم معلق على الفلسفة che il gran comento feo وهو (ابو الوليد بن رشد ٥٢٠ ـ ٥٩٥ ه = ١١٢٦ ـ ١١٩٨م) الذي يدعيه الفكر الاوربي وقارة اوربا لهما أكثر ممـا تصح نسبته الى الشرق . بقي تأثيره يسود ايطاليا حتى القرن السادس عشر وتسبب في اثارة الجدال الفلسفي الاشهر بين (اجلليني) [٥٢] (وبمبوناجي) [٥٣] . ظلت فلسفة (ابن رشد) عاملا حيا في الفكر الاوربي حتى ميلاد العلم التجريبي الحديث . وقد حفظ اللسان

---

٥٢) *Achillini* ١٤٦٣ ـ ١٥١٢ » طبيب وفيلسوف ايطالي ولد في بولونا ، كان احـد الاوائل الذين شرحوا الجسم البشري . وهو أيضا من المدرسة المشائية . (المعرب)

٥٣) *Pomponace* ١٤٦٢ ـ ١٥٢٥ أحد الفلاسفة الايطاليين . من اتباع مدرسة أرسطو (المشائية) والمتشيعين لا بن رشد . (المعرب)

اللاتيني أكثر من تأليف واحد (لابن رشد) فقدت اصوله العربية وكان لفلسفته في الغرب خلال فترة من الزمن أن تفخر باجتذابها اهتمام اعظم مفكري العصر . ولكنه لم يفز في الاسلام بمرتبة السَنَد أو المرجع .

انحدر (بن رشد) من اسرة قضاء قرطبية . كان هو وجدّه وابوه قضاة لمدينة قرطبة . تفرغ الى الكتابة في الفلسفة والتعليقات خلال اوقات فراغه المختلسة من ساعات اعماله القضائية . وكان في فترة من الزمن ذا حظوة عظيمة لدى البلاط المراكشي ولكن معارضة الفقهاء المستمرة خفضت مكانته فاتُّهم بالزندقة وحتى بالتهود فطرد من قرطبة وان كان قد عاد الى مكانته قبل وفاته . ثم انه استدعي الى مراكش حيث مات في العام ١١٩٨ ولا يزال قبره ظاهراً .

ظل (ابن رشد) عدة قرون ممثلا للفكرة الناطقة بصدق الفلسفة التي تكشف عن زيف الدين . والمسؤول الاول عن ذلك هو (سيجر البرابنتي Siger of Brabent) الذي قال بتناقض العقيدة المسيحية مستنداً الى قوة حجة (ارسطو) في مجال المقابلة ومعزيا غموض فلسفة هذا الفيلسوف الى تعليقات (ابن رشد). يرى (سيجر) ان العقل والايمان ضدان لا يجتمعان . ونظراً لافتقارنا الى دراسة دقيقة لما كتبه (ابن رشد) وعلمه فعلا . فلا مفر للكنيسة الا ان تشجب آراء (سيجر) وتشجب معه المصدر الذي زعم انه استمد منه آراءه . يعتبر (ابن رشد) بطبيعة الحال موجد الفلسفة التي عرفت باسمه . مثلما كان يعتبر (نسطورس) الى زمن جد متأخر السبب في كل مثلبة رمي بها المذهب الذي اوجده . ان رسالة اللاهوتي الانجيلي (في وحدة العقل ضد الرواشد du unitate intellectus contra averroistas) والتي فيها عارض المذهب القائل بأن وحدة العقل وهي الصرورة من الناحية العقلية واجبة النبذ من ناحية الايمان؛ كانت في ذات نفسها تكفي لتظهر (ابن رشد) فيلسوفاً زائفاً . والخطاب

الشهير (لإستيبان) اسقف باريس الذي كان مقدمة لـ ٢١٩ مسألة رشدية حكم بكفرها . ختمت على (ابن رشد) بانه ابو الفكر الحر والالحاد [٥٤] . ومما لا مراء فيه أن تعاليم (ابن رشد) القائلة بأن النفس هي واحدة عند كل الناس وان اجزاءها متماسكة لا يفرق بعضها عن بعض الا الاجساد التي تتقمصها — هذه التعاليم لهي كفريات في عرف المسيحيين والمسلمين على حد سواء . وتجد في كتاب (ريمند مارتن) المسمى « الدفاع » مناقشة واضحة للمسألة ، صرح في آخرها ان هذه التعاليم ليست الا خلط مجنون [٥٥] .

والآن — وبعد أن يتيسر تمحيص جميع الآثار المعزوة الى (ابن رشد) ويفسح له المجال باظهار نفسه ، سيتضح لنا انه غير مسؤول كلية عن الحالة العقلية التي تبناها من يسمون انفسهم بالرواشد في البلاد المسيحية . بالعكس ، فان (ابن رشد) والقديس (توما) يقفان جنبا الى جنب مدافعين عن مثل واحدة الا وهي انسجام العقيدة مع العقل بل يتمادى اللاهوتي الملائكي [٥٦] الى الاستفادة فعلا من اكثر المسائل التي سبق أن برهنها اللاهوتي المسلم . ولقد تكلف احدهم عناء الرجوع الى كتاب (ابن رشد) « كتاب الفلسفة » وعلى الاخص « فصل المقالة في موافقة الحكمة والشريعة » [٥٧]

---

٥٤) ومع ذلك ، علينا ان نضع حدا فاصلا بين ابن رشد كفيلسوف وابن رشد كشارح لارسطو . ان جامعة باريس نفسها التي ادانت تعاليم ابن رشد سطلبت من متخرجيها بعد ادانتها له بقرن ان يقسموا الايمان المغلظة على ان يعلموا الاشياءالتيتتفقمع ارسطو كما شرحها ابن رشد *quad textum Aristotelis et sui commentatoris ... firmiter et tanquam authenticum observabit.* (المعرب) انظر راشدال — الجامعات م ١ ص ٣٦٨ . (المؤلف)

٥٥) باريس ١٦٥١ ، ص ١٨٢ . (المؤلف)

٥٦) هو اللقب الذي عرف به القديس توما الاكويني . ويعرف ايضا بالمعلمالملائكي(المعرب)

٥٧) طبعت ترجمة لهذا الكتاب باللغة الفرنسية بقلم : ل . كوثييه *L. Gauthier* وعنوان *Accord de la Religion et de la Philosophie . traité d'Ibn Rochd. Alger, 1905* وفي الاسبانية مع آراء مشابهة ومقدمة تحليلية قيمة جـدا نقدية وتـاريخية بقلم م . آسين . *Homenaje a D. Francisco Codera* مدريـد ١٩٠٤ الص ٢٧١ وما بعدها (المؤلف)

وأجزائه المتسقة في رده المتزن على حملة (الغزالي) على الفلاسفة (تهافت الفلاسفة) فانه سيتدرج منذ البدء حتى يجد (ابن رشد) عدواً قوي المراس للفلسفة العقلية المعروفة في الغرب (بفلسفة ابن رشد) . انه سيجد هناك بغيته المنشودة تماماً .

هناك تشابه في موقف (ابن رشد) (وتوما الاكويني) . ان دل فعلى أكثر من التقارب العقلي وهو النية في اعطاء العقل مكانته الخيرية به ، والانتفاع بفلسفة الاقدمين على اساس اخضاع نتائجها الى النقد والتمحيص الذي تتطلبه ذهنية الاحقاب والقرون المتناجحة . وتبرير الرأي القاضي بوضع طريق وسط بين التصوف الارتياني والمذهب العقلي المطلق تماماً من إسار الاعتقاد بوجود ديانة منزلة آلهية . تلكم هي النوازع والاهداف عند كل من اللاهوتيين المسلمين والمسيحيين . والمعارضة التي قوبلا بها انما انبعثت من مصدر واحد وهو الفريق الذي يأبى تطبيق مباديء الفلسفةالرواقية علىاللاهوت.انفصول المعلّمالملائكي الشهيرة التي شرح بها مدى نفوذ العقل والايمان بما فيه تأكيدها على عجز العقل عن تكشف الاسرار الالهية التي يتم ادراكها بالوحي . لها ما يقابلها في الكتاب القرطبي « الدفـــاع عن نفسه Apologia pro vita sua » وفي عرف الاثنين ، ان التصادم بين للفلسفة وبين الحقيقة المنزلة كما نشرت في التوراة والقرآن لا يمكن نكرانه ، ففي حالة ما لو وجد اختلاف ظاهر بين الوحي وبين الحقيقة الفلسفية ؛ فليس معنى ذلك الا ان القاريء اساء التفسير . والمعنى الواضح الحرفي للنص ليس هو المعنى الحقيقي دائماً وخاصة عندما كانت الهيئة الانسانية تستخدم لبيان الصورة الالهية .

ملك القديس (توما) القدرة في الاستظهار على كل النصوص التي تبدو متعارضة مع نتائجه دائماً . لانه كان يستطيع الرجوع الى التفسير الاصلي الذي لا يقبل تأويلا ! كان الكتاب المقدس هو المرجع الاخير في تقرير صحة

الفكرة الفلانية أو الاعتقاد الفلاني ولكن الكنيسة وحدها صاحبة الحق في أن تقرر كيفية تفسير نص الكتاب المقدس . ومن الواضح ان (ابن رشد) لم يستطع المضي الى مسافة أبعد من هذا لكنه سار ما وسعه السير . فوضع عدداً من القواعد ليحكم القضايا حيث التأويل المجازي ضروري وحيث يجب أن يهمل المعنى الواضح للنص او يترك للجاهلين أو غير المثقفين الذين لا يملكون من الذكاء ما يكفي لتفهم الصعوبة الفلسفية المودعة في المعنى الحرفي.اولئك الذين قد ينحطم ايمانهم انحطاماً لو أخبروا بأن النصوص القرآنية هي ليست حقيقية بمعناها الحرفي . وهو ينكر في الرد على منتقديه بأن مبدأ الإجماع (وهو العقيدة الاسلامية التي هي الأقرب إلى « ما في كل مكان ، وزمان ، وما عند الكل quod ubique, quod semper quod ab omnibus) كان ثابتا في وقت من الاوقات . فاذا أعترض بأن ثم نصوصاً معينة يأخذها المسلمون بمعناها الحرفي بينما هم مجمعون على تفسير النصوص الاخرى تفسيراً مجازياً وعليه لا يمكن أن يكون صحيحاً تطبيق هذه القاعدة على النص الآخر والعكس بالعكس ، أجاب (ابن رشد) على ذلك بأنه اذا ما حصل الاجماع ، فليس جائزاً أن نفعل كذلك . ولكن عندما يكون هذا الاجماع تخمينياً فهو جائز . وفي رأيه أن اللاهوتيين لم يكونوا في عصر واحد مجمعين على تفسير اي مسألة — الا في حدود جد ضيقة .

ان الرواشد المسيحيين لم يكن لديهم حرية استاذهم في الدراسات الرواقية ، وكان عليهم أن يدفعوا بتفاسير لآرائه لا مبرر لها . قال (ابن رشد) بأن علم تفسير القرآن لم يجعل للجهلة وان الاحرى بهم أن يتركوا وآراءهم الفجة في الوقت الذي كان الفيلسوف يفسر نصوص الآيات على ضوء العقل . ومن المسلم به أن سيكون ثم اختلاف آنذاك بين كلمات القرآن وبين عقيدة المثقفين ولكن اختلافاً كهذا لا تمكن أن يجيز تلك النظرية الجريئة القائلة بأن الديانة

تتطلب الاعتقاد في فرضيات ينكر العقل صحتها . ان مترجمات (ابن رشد) اللاتينية الحالية من التعليق والنقد تساهم في تحمل مسؤولية جعل هذا العربي موجد نظرية الحقيقة المزدوجة . ولم يفهم المترجمون دائماً المدلول اللغوي الفني للكلمات التي كانت تستخدم بطريق (المجاز والمثال) فتؤخذ على اساس التخريف والزيف . وكان تمسك (ابن رشد) بالدين كاملا في تأكيده بشرعية التفسير المجازي مهما عكر اخوانه بالدين في النصوص التي اختارها لاجراء تجربته عليها . انه لم يكن غير مطبق مبدأ كان موجوداً من أول ظهور المسيحية والاسلام (٥٨) .

ان الاتفاق بين لاهوت القديس (توما) و (ابن رشد) كثير لا يمكن حصر وجوهه ، وليس ما يفوقه أهمية ، النظرية القائلة بان علم الله يشمل الجزئيات وجميع النتائج والفرضيات المقدمة لدعمها . ان الفرضية المشهورة للمعلم الملائكي ومؤداها بان (علم الله) هو علة الاشياء ، ليست الا نظرية (ابن رشد) نفسها « العلم القديم : هو سبب للموجود »(٥٩) . هذا وقد انكر الرواقيون المسلمون بأن علم الله يشمل الجزئيات متعللين بانه اذا احدث تغييراً في المعلوم فهذا التغيير يستتبع حتما تغييراً في العالم . رد (العزالي) على هذا بأنه اذا كان الله لا يستطيع أن يرى ويسمع كل ما يحدث في الحياة الدنيا فانه « وهو خالق السمع والبصر — يكون أقل شأناً ، سبحانه ، من سائر مخلوقاته » .

والتشابه بين (ابن رشد) والقديس (توما) كثير بحيث يستأهل التعقيب والبحث عن شيء ينفي كون هذا التشابه هو محض اتفاق صدفي . ان الرغبة

---

٥٨) قارن : انجيل (متى) الاصحاح السابع الآية ٦ ، والقرآن الكريم سورة ٣ الآية ٥ ، وبابن رشد « فصل المقال » ص ٨ ، « الخلاصة اللاهوتية » ص ١ المسألة الاولى وما بعدها . (المؤلف)

٥٩) انظر « ضميمة المسألة التي ذكرها ابو الوليد في فصل المقال » طبعه آسين ، (تأليف واقتباس) هذه الرسالة ترجمها (ريمند مارتن) وضمنها كتابه (الدفاع) ج ١ فصل ٢٥ (المؤلف)

المشتركة للتوفيق بين الفلسفة واللاهوت أمر لم يولياه اهتماماً عظيماً كلاهما. ولكن عندما تتلمس الخطة سبيلا مستقيمة واحدة فمن الطبيعي ان نستنتج بان (ابن رشد) قد خلف شيئاً اكثر من شروح (ارسطو) لعلماء المسيحيين . اننا لنجد لدى المؤلفين كليهما مقتبسات من القرآن الكريم والكتاب المقدس بعد البراهين الفلسفية على العقيدة وكلاهما يبتدي بعرض حجج تنطوي على الشك أو التناقض الظاهر . كما اننا نجد البرهان نفسه على وجود الله من الحركة، وعلى العناية الالهية للعالم وفرضية كليهما ان وحدة الله هي من وحدة العالم وهما يتفقان في فرضهما بأن علينا استخدام طريقة التنزيه Via remotiomis لاجل التوصل الى ادراك الله. وكلاهما استخدما طريقة القياس والتشبيه Via analogiae

هذه الاشباه والنظائر يمكن أن نورد منها ما نشاء ، والكثير منها متوفر بذات نفسه عند كتاب الاسلام في الشرق والغرب . ولكن ما اوردناه آنفاً فيه الكفاية لايضاح الطريق التي جرت فيها الافكار الفلسفية واللاهوتية خلال رحلتها الشرقية . فمن السنة ١٢١٧ فصاعداً ، أصبحت شروح (ابن رشد) في متناول يد المدارس الغربية بفضل (ميخائيل سكوت) في طليطلة وانك لواجدٌ كثيراً من آراء (ابن رشد) مجتمعة في كتاب (ابن ميمون) العظيم الذي كان يستشهد به القديس (توما الاكويني) احيانا . فينوه مثلاً في كتابه (مسائل جدليـــة Quaestiones Disputatae) باقوال (ابن رشد) في موضوع المناقشة الخاصة بطبيعة معرفة الله .

من المناسب أن نختم هذا الفصل (بتوما الاكويني) لانه واضع فكرة (التأثير) في قالبها الاصيل الذي استمده من علماء الاسلام بدون شك . لقد اقتفينا وجود التأثير العربي في كتاباته ولكن قد لا يصح قولنا انه كان يعتمد على الكتاب العرب . فهو لا يمكن أن يكون خادماً لاية مدرسة أو لاي قرن

من القرون [٦٠] . وتعوده اطراح عقائد آباء الكنيسة الغابرة السائدة عصره انما هو تذكرة قيمة جداً بأن الغرب كان يريد أن يسترجع من العرب تراثه الضائع . وقولنا هذا ليس فيه ارتخاص أو تقليل من قيمة ما انجزه العرب ، فانهم ابقوا نور العلم دائم الاتقاد. ومهما كان فضلهم قليلا في تقدم الافكار الفلسفية الخاصة ، فان خدمتهم للاثولوجيا كانت ذات قيمة لا تقدر [٦١] . قد تكون جد واثقين بأن اولئك الذين يتهمون العلماء المسلمين بافتقارهم الى الابداع وضعف المستوى التفكيري ، لم يقرأوا (ابن رشد) ، أو يلقوا نظرة على آثار (الغزالي) ، لكنهم تبنوا أحكام غيرهم بدون تمحيص . ووجود افكار ذات اصل اسلامي في قلعة المسيحية الغربية واعني بها كتاب (الخلاصة) (لتوما الاكويني) — يكفي لتفنيد الاتهام القائل بفقر العرب الابداعي وضحولتهم العقلية . وعلينا أن نكتب تاريخاً لحضارة القرون الوسطى جديداً وأن نثير شتى البحوث الجدلية بشكل واسع ان شئنا انصاف الاثر العربي .

تصب سيول الثقافة الوطنية في المحيط الواسع للفكر البشري ، فما أن تصل البحر حتى يصعب — ان لم يستحل — تفريق الماء العذب عن الماء الأجاج ، ولكلٍ أن يعتمد على ذوقه الخاص . وفي خلال القرون الاربعة لسيادة الاسلام ،

---

٦٠) « انه لم يشتط في الرجوع الى مصادره ليجمع منها خلاصة واحدة ، بل كان يفكر بكل نقطة كما تبدو ويخرج — مع العقبات التي أعاقت التفكير الحر ومنعته من الانطلاق في ميدان البحث بسبب الاحترام الدائم لمختلف المصادر الضرورية — اثراً لا قرين له تجلى فيه النقد الرزين والنظر الحديد في الميزات العامة والمطابقة بين الآراء المقبولة او المرفوضة » كليمنت سي . جي . ويب . في كتابه « تاريخ الفلسفة » طبعة لندن ١٩١٥ ص ١٢٠ . (المؤلف)

٦١) ان نظرية الجوهر الفرد المسلمة القائلة بالخلق المستمر والزمن الذري ، لهي على جانب عظيم من الاهمية في أيامنا هذه. انظر ابن ميمون « مرشد الحيارى » ترجمه م.(فريدلاندر)للانكليزية *M. Friedlander* لندن ١٩٢٥ صحيفة — ١٢ وما بعدها . وانظر ؛ د. ب. مكدونالد في مجلة (ايزيس) المجلد التاسع عدد ٢ ، ١٩٢٧ صحيفة ٣٢٦ وما بعدها . (المؤلف)

وجدت روح البحث الديني والفلسفي في كل مراكز العلم. وان لون الطابع الذي تميز به العقل الشرقيوسحره، ما زال باقياً متسكعاً في كتابات ذلك العصر الذي كان كل تاجر فيهشاعراً، وليس كل شاعر تاجراً.ان السفر والمطالعة، والحب والحرب، والموسيقى والغناء، كلها من (فضل ربي) . وقد تكون الحياة قصيرة وخاصة إذا ازداد دنو صاحبها من العرش أوالبلاط ؛ لكنها حلوة طيبة . ماذا يهم في عصر كهذا ، لو وجدت بعض الشكوك الدينية ؟ ان الريب والشك يستطيعان أن ينتجعا لهما مقيلا في الحلول الصوفي الذي يجد الله فيه أو يجد الله بدونه . ان الابوكالبتيين (٦٢) والجوهريين (٦٣) ليستطيعوا أن يتمتعوا بالانجذاب الروحي او ان يمارسوا التقشف . وهذه الطرق شقت لها طرقاً الى اوروبا والهبت حماسة الالبيجيين والكاثاريين (٦٤) والمسيانيين Messianists (٦٥) (مهديهم) المنتظر وللسني المسلم« فرحه الدائم،وسعادته المقيمة » في جنة حفلت بالحوريات ، فيجلس التلاميذ المتزمتون (كابن حزم القرطبي) ويؤلفون أول كتاب جامع حاو لتاريخ الاديان Religioneschichte وأول دراسة نقدية عالية للعهدين القديم والجديد . ولقد ظل الخيال ممزوجاً بالواقع وبه طلي معدن الحياة الحقيقي المشترك حتى جاء رجال (كابن العربي) ليخرجوا أولى النماذج العجيبة للكوميديا الالهية . ان سدود اللغة قضت بالا يحفظ اباؤنا الاولون من هذه الحياة المتعددة الالوان الا قطعاً متناثرة . وهكذا،

---

٦٢) *Apocalyptists* : فرقة مسيحية تتمسك بتفسير رؤيا يوحنا في جزء قصص الرسل من الكتاب المقدس ، تفسيرا يتفق مع اتجاهاتها الصوفية . (المعرب)

٦٣) *Essensee* اخوية يهودية دينية من وقت المسيح ورد ذكرها لدى يوسيفوس وبليني وفيلو وهي ذات طقوس صوفية سرية . (المعرب)

٦٤) *Cathari* : لفظ يطلق على فرقة من الالبيجيين كذلك . (المعرب)

٦٥) اولئك الذين يعتقدون بمجيء المسيح ثانية غير مجيء يوم الدينونة ومنهم الادفنتست (السبتيون) . (المعرب)

فحين ادرك الامبراطورية الاسلامية في اوروبا الانهيار والسقوط ضاعت كل المعارف التي لم تهضم بعد ، وراحت مع المراكشيين المندحرين . لكن مع هذا فان الشرق والغرب حققا في القرن الثالث عشر اتصالاً ثقافياً فياضاً متقاربا أكثر من أي وقت مضى ما خلا العقيدة الرئيسة وهي سر التثليث والتجسد ، فان فلاسفة العصور الوسطى كما رأينا – كانوا يجدون لهم معارضين من بين صفوفهم نفسها عدداً كثيراً لا يربو عليه الا عدد المشايعين الذين يجدونهم في المعسكر المقابل . وعندما ترى ضوء النهار جميعُ المواد النفيسة المختزنة في مكتبات اوروبا فسيتضح لنا أن التأثير العربي الباقي في الحضارة الوسيطة لهو أعظم بكثير مما عرف عنه حتى الآن .

الفريد غيوم

مصادر البحث

S. Munk, Mélanges de Philosophie Juive et arabe, Paris, 1857, reprinted 1927.

M. Horten, Die philosophischen Systeme der spekulativen Theologen im Islam, Bonn, 1912.

Baron, Carra De Vaux, Gazali, Paris, 1902.

M. Asin y Palacios, Algazel, Zaragoza, 1901.

El averroismo teologico de Santo Tomas de Aquino extracto del homenaje a... Codera, Zaragoza, 1904.

Abenmasarra y su escuela, Madrid, 1914. هذه المراجع لا يمكن الاستغناء عنها

In Beiträge zur Geschichte der Philosophie des Mittelalters :

M. Wittmann, Die Stellung des hl. Thomas von Aquin zur Avencebrol, Münster, 1900.

Zur Stellung Avencebrol's im Entiwickungsgang der arabischen Philosophie, 1905.

A. Schneider, Die abendländische Spekulation des Zwölften Jahrhunerts in ihren Verhaltnis zur aristotelischen und judisch-arabischen Philosophie, 1915.

E. Gilson, «Pourquoi saint Thomas a critiqué saint Augustine ?» in «Archives d'histoire doctrinale et litteraire du moyen âge, » « Paris, 1926, pp. 5 f.

C.R.S. Harris, Duns Scotus, Oxford, 1927.

De L. O'Leary, Arabic Thought and its Place in History, London, 1922.

S. Van Den Berch, Die Epitome der Metaphysik des Averrooes, Leiden, 1924.

Clement C. J. Webb, Studies in the History of Natural Theology. Oxford, 1915.

القانون والمجتمع

بقلم

دافيد دي سانتيلانا David de Sautillana

(١٨٤٥ – ١٩٣١)

ولد في تونس ودرس في روما . أحرز الدكتوراه في القانون ، فدعاه المقيم العام الفرنسي في تونس لدراسة وتدوين القوانين التونسية ؛ فوضع القانونين المدني والتجاري معتمداً بذلك على قواعد الشريعة الاسلامية ، ومنسقاً إياهما بحسب القوانين الاوروبية . كان على وقوف ومعرفة بالمذهبين المالكي والشافعي معرفة واسعة شاملة . وفي السنة ١٩١٠ عين استاذاً لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية وله محاضرات قيمة فيها. ثم استدعته جامعة روما لتدريس التاريخ الاسلامي وتاريخ الجمعيات الدينية الاسلامية . وله من الآثار (ترجمة وشرح الاحكام المالكية) وهو المذهب الأكثر شيوعاً في افريقية . وله كتاب (الفقه الاسلامي ومقارنته بالمذهب الشافعي) الخ .

(المعرب)

شيد الصرح الاجتماعي العربي على أساس رابطة الدم ، فكان بمثابة مجموعة من الناس ، انحدرت (أو تدعي أنها انحدرت) من رب أسرة واحد ، يسكنون رقعة أرض وتربط فيما بينهم ديانة وتقاليد واحدة . إلا أن رابطة الدم هي أوثق هذه الروابط طراً، حقيقيةً كانت أم موهومةً . من شأن هذه الصلة أن توآخي فيا بينهم وتجعلهم مشاركين بعضهم بعضاً في السراء والضراء.والمجتمع العربي القديم – أسوة بالمجتمعات البدوية – كانت وحدته الاجتماعية الاساسية هي الجماعة لا الفرد . والفرد لا يعتد بشخصه لكن باسرته وقبيلته . فالاسرة هي التي تنظم حياة أعضائها جميعاً بضوابطها الاجتماعية والقانونية . انهـا تطالب بحقوقهم وتثأر لهم وتداوي كلومهم . وهي المسؤولة عما يرتكبون من جرائم وآثام . وهي التي ترثهم حين يموتون ، متبعةً بذلك ما جرى عليه السلف أو ما يطلقون عليه اسم (السنة) . والسُنة تستمد قوتها وسلطانها الجبار من الممارسة والتطبيق المتواصل الذي لا يُعرف له مبتدأ .

وصان الاسلام هذا المبدأ وطبقه بحذافيره باستثناء أمرٍ واحد وهو الاستعاضة عن رابطة الدم (التي كانت الاساس الاجتماعي والسياسي) برابطة الدين . كان الدين عند القبائل السامية البدوية ، هو المحور الذي تدور حوله حياة القبيلة . فالقبيلة ومعبودها شيء واحد ، والرب هو صديق أصدقاء القبيلة وعدو من يناصبها العداء ، وفيه يتمثل دوام حياتها وحياة الاسرة . والقبيلة التي تجحد ربها كأنها تغير جنسيتها .

ما كان من محمد إلا أن تناول المجتمع العربي هدماً من أصوله وجذوره وشاد صرحاً اجتماعياً جديداً على قاعدة تتفق وأعمق غرائزه وميوله . هذا

العمل الباهر ، لم تخطئه عين (ابن خلدون) النفاذة الثاقبة . (إن (محمداً) هدم شكل القبيلة والاسرة المعروفين آنذاك، ومحا منه الشخصية الفردية gentes والموالاة والجماعات المتحالفة . من يعتنق دين الاسلام عليه أن ينسى روابطه كلها ومنها رابطة قرباه وأسرته ، إلا اذا كانوا يعتنقون دينه (اخوته في الايمان) . فما داموا هم على دينهم القديم فانه يقول لهم كما قال ابراهيم لأهله : (لقد تقطعت بيننا الأسباب) .

ذلكم هو شكل النظام الجديد الذي دعا اليه (محمد ص). ومهما يكن ، فنحن نجد في ظل هذا النظام الجديد أن قيمة الفرد بدأت تتضح وكينونته البشرية أخذت تبرز الى عالم الوجود . فصار يستمد حقوقه وواجباته من ايمانه ويستقيها من معين دينه لا من روابطه الاجتماعية والعرفية . فمن جماعة المؤمنين هؤلاء تكون المجتمع الاسلامي ؛ ان اولئك الذين آمنوا بالله الأحد ورسالة نبيه (محمد) وقبلوا التعاليم البسيطة التي دعاهم اليها ؛ هم بلا جدال شعب أو جماعة أو أمة (محمد) التي حلت محل الأمة القديمة والعشيرة التي قامت على أساس رابطة الدم والقربى .

هذه الجماعة تفضل غيرها بوصفها « الجماعة الممتازة » او الشعب المقدس الذي عهد اليه ببث الصلاح والخير وإزهاق الشر والباطل . انه مهبط العدل وينبوع الايمان الأوحد في هذا العالم ، وهو رسول الله الى الشعوب الاخرى كما كان (محمد) رسول الله الى العرب . هذه المبادىء ضمنت أقدم وثيقة تاريخية في الاسلام : الميثاق الذي أذيع في المدينة في العام الاول للهجرة [1] .

---

١) أورد لنا ابن هشام في كتابه « السيرة » (ج ٢ ص ٩٤ وما بعدها) نص هذه المعاهدة التاريخية التي أبرمت في المدينة العام ٦٢٢ م ، وهي حلف بين المهاجرين وبين أهل المدينة من المسلمين واليهود وغيرهم من المشركين ، نقتصر هنا على ايراد أهم بنودها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش =

كانت أمة (محمد) أشبه بأسرة كثيرة العدد مؤتلفة القلوب تمتشق حسامها في وجه كل جماعة تعبد إلهاً غير إلهها فهي (يد واحدة على سواها) . أو كما قال (أبو بكر) يخاطب أهل المدينة « إخوانٌ في الدِّين وشركاء في الفيء وحلفاءُ على العدو » وهنا يبدو الطابعُ الديني الذي يميز هذا النظام بأدق أجزائه : إذ عُد التعاون المتبادل ، واجباً قانونياً وفرضاً دينياً يُلزم المسلم أن يكون وقت الحاجة عوناً ونصيراً للمسلم الآخر . وبهذا ورد الحديث « المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان المرصوص ، يشدّ بعضه بعضاً » .

= ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ؛ انهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم (منازلهم : حدودهم) يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم (اسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . ولا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعه (طبيعه) ظلم او اثم او عدوان او فساد بين المسلمين وان أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن وان ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم . وانَّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ؛ وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وان سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا تعقب بعضها بعضاً وأن المؤمنين يبيء (يرجع) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجـير مشرك (مشركو المدينة الذين دخلوا الحلـف) مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن ، وانه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود به إلى أن يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة . وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده ، فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله ، وانه لا يجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم على من دهم يثرب . وإذ دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه . وإنهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل اناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .. » (المعرب)

يمكننا استكناه تلك المباديء ورؤيتها واضحة في كل جزء من أجزاء الشريعة الاسلامية ودقائقها الخاصة والعامة وهي نتيجة محتومة لقيام المجتمع على المساواة . فما دام المسلمون سواسية أمام الله ، فكذلك هم يستوون فيما بينهم . أما التمايز فهو أسبقيتهـم الى اعتناق الدين الاسلامي والسير على قواعده القويمة وحفظ مبادئه الصحيحة . « يا قريش إن الله قضى على التفاخر بالنسب والحمية الجاهلية . الناس كلهم من آدم ، وآدمُ من تراب » .

فالمساواة أمام القانون هي القاعدة الاساسية للنظام السياسي والشرع الديني معاً . ولذلك خاطب الخليفة (عمر بن الخطاب ، أبا موسى الاشعري) بقول : « آسِ في الناس بين وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمعَ شريف في حَيْفك ولا ييأس ضعيف من عدلك » [٢] .

---

٢) واليك الخطاب بنصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله ، عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عبد الله بن قيس سلام عليك ، أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة . فافهم اذا ادلي اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس في الناس بين وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً وحرم حلالا . لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه إلى رشدك أن ترجع الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج فيه صدرك مما ليس في كتاب الله ولا سنته . ثم أعرف الاشياء والامثال فقس الأمور عند ذلك واعمد الى أقربها الى الله واشبهها بالحق وأجعل لمن ادعى حقاً غائباً او بينة ، أمداً ينتهي اليه فان أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه بالقضية فانه أنفى للشك وأجلى للعمر . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً بحد أو مجرباً عليه شهادة زور او ظنيناً في لاء او نسب فان الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والايمان . إياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فان الحق في مواطن الحق، يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر من صحت نيته وأقبل على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الله . فما ظنك بثواب غير الله عز وجل من عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام » . (المعرب)

وسواء أصح هذا النصح أم لم يصح . فهذه القواعد موجودة في كل شريعة قضائية ، وهي أسس نظريات القانون المدني . والله يقوم على رأس هـذا المجتمع المتساوي والمتآخي في الايمان كشعب اسرائيل ايام (موسى) . وحُكم الله على شعبه حكمٌ مباشر ، وسلطانه سريع . كانت آلهة قبائل العرب في الجاهلية تحمي من يدينون لها بالطاعة والعبادة . فحل الله محل الآلهة البائدة الزائفة وصار سيداً وحامياً لشعبه المختار أمة المسلمين . لما أسلم أحد شيوخ القبائل في الجاهلية بادر النبي بقوله : « أنت ربنا » فأسرع (محمد) يجيبه : « ربك الله » . فالاسلام هو دولة الله المباشرة . هو حُكم الله الذي يرعى شعبه بعينه ويكلاؤه بحسن تدبيره .

إن أساس الوحدة الاجتماعية المسمى في المجتمعات الاخرى بوليس Polis وكيفيتاس Civitas (اي الحكومة) يمثله (الله) عند الاسلام . فالله هو الاسم الذي يطلق على السلطة العاملة في حقل المصلحة العامة.وعلى هذا المنوال يكون بيت المال (هو بيت مال الله) ، والجند هم (جند الله) ، حتى الموصفون العموميون هم (عمال الله) وليست العلاقة بين الله والمؤمن بأقل قوة من ذلك ولا يوجد بين المؤمن وربه « وسيط » [٣] ، وما دام الاسلام لا يقر بسلطان كنسي وكهنوتي ولا يعترف بأسرار كنسيةمقدسة[٤]،فأي فائدة ترتجى من الوسيط

---

٣) يعود هذا المفهوم العميق للدين الاسلامي . ليظهر مجدداً بدعوة محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٨٧) العيني النجدي مستنداً الى تعاليم الامام احمد بن حنبل (القرن التاسع) وابن تيمية (القرن الرابع عشر) . وقد قيض له محمد بن سعود شيخ مقرن الشيباني وأمير الدرعية مؤسس سلالة آل سعود الوهابية (توفي ١٧٦٥) لنشر هذا المذهب الذي يعتبر عملية إسقاط للبدع والتحريفات التي لحقت الدين الإسلامي في أثناء مسيرته عبر الأجيال . وفضلا عن كونه الآن مذهباً رسمياً في السعودية فإن له اتباعه في الهند وسومطرا والسودان وشمال افريقيا . (المعرب)

٤) الاسرار الكنسية هي : « المعمودية . التثبيت . مشحة المرضى . الميرون . الزيجة . درجة الكهنوت . الاوخارستيا » . ومن لا يؤمن بها او بأحدها لا يعد مسيحياً . (المعرب)

بين الانسان وبين خالقه الذي كان يعرفه قبل أن يبدعه، والذي هو « أقرب اليه من حبل الوريد » ؟ إن الله بعد أن أرسل الى البشر خاتمة أنبيائه وكلمته النهائية ، لم يعد ثمَّ من ينطق بلسانه او يعرب عن إرادته . الانسان وحده ماثل أمام الله في حياته وموته وله أن يخاطبه رأساً بلا وسيط او شفاعة او (اجراءات) كما كان أتباع (السيد العربي) يخاطبونه قبلاً . والانسان من فجر حياته حتى موته تحت أنظار الله اليقظة أبداً ، والله يرى كل عمل ويسمع كل كلمة ويعرف أخفى الأفكار وأعمقها في الضمير . الانسان هو وحده يمثل أمام الله يوم الحشر حيث لا يجديه وسيط أو شفيع . في يوم الحشر Dies Irae هذا ، ينال كل امرىء جزاء ما قدمت يداه لا أكثر ولا أقل . إن أشد المذاهب البروتستانية صرامة انما تكاد تكون مذهباً كهنوتياً صرفاً[٥] اذا ما قورنت بعقيدة التوحيد الراسخة التي لا تلين ولا تتزعزع ولا تسمح بالتدخل بين الخالق والمخلوق . ماذا يسع المرء فعله (وهو الوحيد المعدوم الظهير) أمام الله الحاكم الذي لا تخفاه خافية ؟ ماذا يفعل ليحمي نفسه من قوة الله، إلا أن يُذعن صاغراً ويضع نفسه تحت رحمته مُستسلماً أو على حد تعبير المسلمين : « إنا لله وإنا اليه راجعون » . إن هذا الاستسلام البشري المفعم بالاتضاع والأمل انما هو الايمان الصحيح . لذلك كان الاسلام (ومعناه تسليم المرء نفسه لله) عقيدةً دينيةً صحيحةً ؛ فذلكم هو الشكل الوحيد الذي يجب ان تتخذه النفس المؤمنة في حضرة الله . ان الانسان في هذا الدين يدرك معاني الله وصغر شأن البشر امامه . هذا الاستسلام المطلق في كل شيء (وهو طابع الساميين الاصيل غالباً) انما هو شعار الاسلام وميزته بين الشعوب. ولعل الادراك الغامض لوجود علاقة

---

٥) ومع هذا فبعض المسلمين يعتقد بشفاعة محمد (المؤلف) . نقول : والذي ورد في القرآن الكريم : « من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه » (البقرة) و « ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع » و « ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع » (الانعام) وعشرات غيرها من الآيات . (المعرب)

مشابهة بين هذه التعاليم وبين الغريزة الدينية التي تميز الشعب العربي هي التي دعت الى اعلان (محمد ص) بأنه محي دين ابراهيم ا لحقيقي الأصيل . والى كونه خاتم النبيين .

أسس المجتمع الاسلامي

وهي القانون الآلهي (الشريعة) . إن طبيعة هذه الجمعية الملتفة حول الدين والمستكنة تحت حكم الله ، هي التي تحدد معنى الفقه والقانون : وهي بالنظر الينا والى الأسلاف: مجموعة من القواعد السائدة التي أقرها الشعب، إما رأساً أوعن طريق ممثليه. وسلطانه مستمد من الارادة والادراك وأخلاق البشر وعاداتهم إلا أن التفسير الاسلامي للقانون ، هو خلاف ذلك . فإن صح ان الله هو رأس المجتمع الاسلامي وسائسه الاعلى ، فالقانون لا شيء امام ارادته . والقاعدة القانونية هي القاعدة التي يطبقها المشرّع الاعظم (الله) على شعبه المختار . والخضوع لهذا القانون انما هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه . ومن ينتهك حرمته او يشق عصا الطاعة عليه لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي ، بل يقترف خطيئة دينية أيضاً لأنه «لا حقٌ ثمّ لما ليس لله فيه نصيبُ» .

النظام القضائي والدين : القانون والاخلاق . هما شكلان لا ثالث لهما لتلك الارادة التي يستمد منها المجتمع الاسلامي وجوده وتعاليمه . فكل مسألة قانونية انما هي مسألة ضمير وتحكيم عقلي بذاتها . وكل مسائل الفقه كان مرجعها الاخير علم الكلام (اللاهوت) . ترى ما هي طبيعة هذا القانون ؟ ما هي وظيفته الحقيقية ؟ إن آيات القرآن فصلت للناس بمعرفة خبير حكيم لتكون شريعة للحرية وقانوناً للرحمة التي أنعم الله بها على الجنس البشري ، للتخفيف من صرامة الكتب الآلهية الأولى . فالاسلام هو عودٌ الى القانون الطبيعي بله عودٌ الى الايمان الأول الذي بشّر به الأنبياء والأولياء الأقدمون (نوح وابراهيم) والذي ابتعد به اليهود والنصارى عن غرضه الحقيقي . إن الشريعة

الجديدة ألغت القيود الصارمة والمحرمات المختلفة التي فرضتها شريعة موسى على اليهود ، ونسخت الرهبانية المسيحية وأعلنت رغبتها الصادقة في مسايرة الطبيعة البشرية والنزول الى مستواها واستجابت الى جميع حاجات الانسان العملية في الحياة .

« يسروا ولا تعسروا »[٦] تلك هي التعاليم والأوامر التي كان النبي يبلغها الى مـــن « أرسل اليهم Missi Dominici » . و« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . ان للاسلام بعض الميل الى الصوفية ولكن لا الى الزهد . وبعبارة أجلى أنه لا يقر تعذيب النفس وإماتتها بالتقشف وبسائر الوسائل الاخرى التي تضعف البدن وتَكبتُ الغرائز البشرية الطبيعية . انه يحض المؤمن على التمتع بـ (الطيبات)[٧] التي أنعم الله بها عليه ، شريطة أن يقيم الحدود ويخضع للسنة التي وردت في القرآن ؛ وهي ليست بالكثيرة ولا بالصارمة . ان الشريعة الاسلامية تحبذ كل نشاط عملي مجد . فهي تشجع الزراعة والتجارة وكل أنواع العمل ، وتُعزِّر اولئك الطفيليين الذين يعيشون على كواهل غيرهم وتحتم على كل فرد أن ينفق على نفسه من كدْحه وكسبه . ولا تحتقر أي عمل متى أغنى صاحبه عن غيره وكفاه ذل السؤال[٨] .

يقول (رينان)[٩] : « الاسلام هو دين الانسان » فروح الشريعة الأ سلامية تتسم بطابع جلي هو إفساح أرحب المجال للاعمال البشرية ، وهنا نتفق مع

---

٦) وكذلك الآية « وما جعل عليكم في الدين من حرج (الحج) » . (المعرب)

٧) وكذلك الآية « قل من حرم زينة الله والطيبات من الرزق (الأعراف) » . (المعرب)

٨ « ليس للانسان الا ما سعى (النجم) » و « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه (الملك) » . (المعرب)

٩) *Ernest Rénan* ١٨٢٣–١٨٩٢ من أحرار الفكر الفرنسيين والمؤرخين . (المعرب)

المشترعين والفقهاء المسلمين بان القاعدة الأساسية في القانون هي (الإباحة) ، لكن هذه الاباحة لا يمكن أن تكون غير محدودة، فالإنسان بطبعه طماع ، كفور ، جشع ، يميل الى السطو على مال الآخرين ، وهو شحيح كزّ يستطيب الخمول ويستنيم الى الكسل وهو كافر بنعم الله . فلو أن الله أطلق الحرية التامة لنزعات كل فرد وأباح للناس كافةً الظلم والتعدي ، فان المجتمع البشري يكون ضرباً من المحال وعيش الانسان منفرداً ضرب من المحال ، لذلك فقد وضع الله حدوداً للاعمال البشرية ، هذا الحد وهو ما نسميه على وجه الدقة بـ (الحُكْم) ، من شأنه أن يكبح جماح البشر ويقف أعمالهم وتصرفاتهم عند حد معين ، محرّماً بعض الاعمال محللاً بعضها الآخر . وهكذا تحدد الحرية المطلقة للبشر ، حتى تؤدي أقصى ما في طوقها من نفع للفرد والمجتمع . ومما لا مراء فيه أن الشريعة لم تتدخل في جميع التفاصيل . حسبها ان تتناول عدداً معيناً من القضايا ذات الطابع القانوني البارز فتبحثها وتشرحها . وقديماً قال المشترعون الرومان : « ان قوة القانون هي الامر والنهي ، والسماح والعقاب « Legis virtus haec est : imperare , vetare , permittere, punire » على أن الشريعة الاسلامية ذات الطابع الديني لم تلبث أن أضافت مبدأين قانونيين الى ما سبق ذكره وهما : المقْبُولات والمستَهْجَنات. فاذا أسقطنا القسم العقابي من الشق الاول وأضفنا اليه المبدأين الجديدين ، تمّ لدينا أوجهٌ خمسةٌ للقانون السائد بشكله التام . ان هذه المباديء القانونية على تعدد أشكالها تؤول الى غاية واحدة هي الرفاه العام (المصلحة) . لذلك فليس لهذا القانون : الآلهي مصدراً والبشريّ هدفاً، الا سعادة البشر ورفاهه . والعينُ النافذة لا يمكن أن تخطيء رؤية هذه الغاية وان شق عليها أن تتوضحها لأول وهلة . لان الله لا يمكن ان يعمل شيئاً لا تتجلى فيه الحكمة والرأفة اللتان هما باعثاه الاساسيان . لما كان البشر من روح وجسد فلا بد وان يكون للمرء اتجاهان في الحياة : اتجاه

روحي واتجاه جسدي (مادي ومعنوي) وعلى هذا الاساس آضت القواعد (الحدود) الآلهية التي وضعها الله لتدبير البشر منقسمة الى قسمين : ما يتعلق منها بالروح وما يختص منها بالجسد . فالدين والقانون هما نظامان متباينان . لكنهما متلاحمان يُتم أحدهما الآخر باتحادهما في المصدر والغرض وهو سعادة البشر ورفاهه .

ان مباديء الدين (العقيدة) تنظم حياة الروح وتحدد ما ينبغي للمرء أن يؤمن به ليظفر بالحياة الاخرى . اما القانون السائد (الشريعة) ومعناها بالعربية « الطريق القويمة » فهو نظام لضروب أشكال النشاط البشري الذي يهدف الى تيسير الحاجات الدنيوية . وهو كذلك التتمة الضرورية لمجموعة الجهاز القانوني العام الذي كان الايمان جوهره . ومجال الايمان هو القلب، او بمعنى آخر حياة المرء الباطنية . فالقانون السائد لا يمكن أن يُخضع تلك الحياة لقواعده وضوابطه فالايمان مسألة خاصة تعود للمرء نفسه ، والله هو الحكم الأوحد في هذا الشأن اذ ليس ثم من يعرف سريرة المرء سواه . أما ميدان الحكم الحقيقي للقانون السائد فهو اعمال المرء ذات المظاهر الخارجة ؛ بعضها يتعلق بمراعاة فرائض الاسلام الاساسية وهي « التوحيد . والصلاة . والصيام . والزكاة (او ضريبة الفقير) . الحج » . وهنا يخرج من حسابنا ايضاً مسألة الايمان (أي أعمال القلب فهي لا تدخل في شؤون المشرّعين والقانونيين . فضلاً عن الاعمال التي تقوم بها حواس الجسم واعضاؤه ، أعني الاعمال التي يدفعها القلب الى الخارج ؛ كالتقوى والعبادة اللتين فرضتهما الشريعة الاسلامية على المؤمن . زيادة على الواجبات التي يفرضها القانون العام مما سنذكره الآن وهي المسماة « بحقوق الله » وموضوعها واجبات المرء إزاء خالقه ، فهي لا تستند الى الخيار الشخصي أو ارادة الفرد .

إلا أن الانسان هو جسد كما هو روح ، لذلك فمن الضروري الاهتمام بكينونته الدنيوية وهنا تكمن الأهمية العظمى للحياة الإجتماعية حسبما ورد في

كتاب الدر المختار [١٠] ما مفاده أن الإنسان حيوان مدني بالطبع . لا يمكن ان يعيش منفرداً بل يفتقر الى التعاون والمشاركة خلافاً لسائر الحيوان . على أن مؤهلات الافراد متفاوتة وكفاءة كل واحد منهم صغيرة محدودة بنفسها لذلك كان البشر مدفوعاً الى طلب المعونة من أبناء جلدته واخوانه . وهنا تأتي العلاقات المشتبكة المتعددة والمعاملات التي هي قوام المجتمع ومصدره . وكانت النقود المضروبة أداةُ المعاملاتِ ووسيلتها . وهنا ندرك كم كان تأثير الافكار الاغريقية عميقاً ونفوذها بعيد الغور ! يمكننا اقتفاء أثر هذا التأثير (بوظيفة النقود) في مقارنة ما ورد بكتاب الدمشقي [١١] من جهة ، وما جاء في الكتاب العشرين من موسوعة الدايجست Digest [١٢] .

ان العلاقات التي انبثقت من الحياة الاجتماعية المتحضرة كانت السبب الجوهري لظهور القانون المطبق وأدت الحاجة الى التكاثر والتناسل البشري لوجود الاتصال الجنسي وتكوين الاسرة . ومن ثمّ تأتي العلاقات الناجمة عن الزيجة . وقد أدى تقسيم العمل وحاجات الفرد المتعددة، الى ظهور تلك الشبكة من العلاقات والمعاملات الاقتصادية : القضايا التي أوجد لها الفقهاء الاسم العام « المعاملات القانونية » وهي القضايا التي تقابل ما جاء من احكام في قانونينا

---

١٠) « الدر المختار في شرح تنوير الابصار » في الفقه الحنفي . هو كتاب ألفه محمد علي الملقب علاءالدين المعروف بالحصكفي العالم الفقيه. ولد بدمشق وحج في السنة ١٠٦٧هـ = ١٦٦٥م . سافر الى الروم ونهض بحظه لاقبال الوزير الفاضل عليه ثم فرغ عنه وطلب افتاء الشام فناله وقدم إلى دمشق واستمر مفتياً خمس سنين ومات بها. وقد طبع هذا الكتاب في كلكتا العام ١٨٢٧م. (المعرب)

١١) الدمشقي (٦٥٤ – ٥٢٢ هـ = ١١٣٢ – ١٢٥٦) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أبي طالب الانصاري الصوفي . شيخ الربوة . والكتاب هو (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) يشتمل على هيئة الارض وأقاليمها الطبيعية وعادات أهلها وتجاراتهم ومعاملاتهم . طبع في باريس ولينينغراد . (المعرب)

١٢) الدايجست أو الباندكت (*Digest : Pandect*) هي مجموعة قانون جستنيان الشهير وضعت في منتصف القرن السادس الميلادي . (المعرب)

المدني والتجاري مع فارق بسيط هو انها لا تتفرع الى أقسام وأجزاء في الشريعة الاسلامية كما هي في القانون الروماني .

ان وفاة المرء تؤدي الى قيام مسألة الميراث المحكومة بقواعد الانتقال وتقسيم المواريث ، وحماية النظام الاجتماعي تستلزم وجود قوانين الجزاء والعقاب التي سنفرد لها بحثاً خاصاً فيما بعد .

إن الفقه حقيقة اجتماعية يتعلق قسم منها بالفرد وقسم بالمجتمع ؛ فكل شيء لا ينضوي تحت لواء المنافع الشخصية يطلق عليه اسم (حقوق الله) لان الله في الشرع الاسلامي يقوم مقام سلطة المدينة Civitas وهو المبدأ الروماني القديم . ومن الحقوق الآلهية ، القوانين المتعلقة بالعِتْق والوِصاية والأنكِحة وصِلة الرّحِم وقانون الجزاء وتحريم الرِّبا . هذه القوانين لا يمكن التغاضي عنها او التقليل من شأنها لأنها متعلقة بمصلحة المجموع أو بتعبير أصح « بالنظام العام » وهي خارجة عن إرادة الفرد . أما القسم الثاني من الحقوق وهي الحقوق المتعلقةبالفرد وشؤونه الخاصة ، فتسمى « بحقوق العباد » . فاذا جعلنا الحرية نقطة البدء (الحرية هي اولى القواعد في الشرع الاسلامي) ، وجدنا فقهاء المسلمين قد وصلوا الى هاتين النتيجتين :

١ ــ تجد الحرية حدودها في طبيعتها نفسها ؛ لأن الحرية المطلقة معناها فناء البشرية . والحدود التي تقف عنها الحرية هي ما اصطُلح على تسميته : بالقواعد القانونية (الشريعة) .

٢ ــ ليس في هذه الحدود اشتطاط أو غُلوّ ، لان الغاية المتوخاة من فرضها هي المنفعة والصلاح والخير بأعظم ما يستطيع الفرد أو المجموع أن يجني منها تلك المنفعة ــ وهي الغاية التي تهدف اليها الشريعة ــ إنها أيضاً محدودة ومقيدة .

إن لمحة خاطفة نلقيها على مختلف الانظمة القضائية، قد يكون لنا فيها بعض

العون على تعريفنا بالفوائد العملية لهذه الشريعة . لما كان الفرد خليفة الله في أرضه ، فقد وهبه خالقه ملكات تدرك الحقوق والواجبات الملقاة عليه . ومن أعظم تلك الحقوق وأسماها حق المرء – بوصفه فرداً – في السلامة والحرية . فالحرية هي الحق الطبيعي لكل مخلوق بشري ، أما الرق فهو استثناء لتلك القاعدة «كان آدم وحواء وكلاهما حر» . من هذا المبدأ استخلص الفقهاء مسائل عديدة اليك بعضها :

١ – اللقيط المجهول أصله ترجح حريته على عبوديته .

٢ – الحر المشكوك في حريته لا يجبر مبادهةً prima facie . على إثبات حريته حتى تنهض القرائن والدلائل القضائية على عكس ما يزعم .

٣ – ترجح حالة الحرية عند وجود الشك .

والحرية معناها قوة التصرف الذاتي . والحر لا سيد له إلا الله مالك الارض وما عليها . فالحرية على هذا الاساس لا يمكن أن تباع ان تشرى لرغبة ساورت صاحبها او لنزوة عارضة . والعبودية التي يختارها المرء بملء رغبته لا تعترف بها الشريعة قانوناً قط . وعلى هذا المنوال تحرم الشريعة جريمة الانتحار كما يفعل الدين ذلك أيضاً .

إن هذه القواعد والمبادىء تسري أيضاً على حقوق الملكية فللمرء أن يقتني ما يشتهي ويصنع بماله ما يريد . لان متاع الدنيا جميعه خُلِق لاستعمال البشر وانتفاعه . ولكن الله ، مُقرر حق الملكية والحيازة – وضع لهذا الحق حداً – ، وأتاح الفرصة لكل امرىء في معرفة المقدار المخصص له من مصادر الثروة العامة صيانةً للنظام الاجتماعي . لكن يخطأ من يظن أن الملكية – باعتبارها حقاً – انما هي غير محدودة ، فهي في الواقع تجد حدودها في طبيعتها نفسها ، او في الهدف الذي تسعى اليه .

إن الله وهب المرء متاع هذه الدنيا ليصلح بها حاله ويكفي حاجته ، وبمعنى آخر ليُحسِن الانتفاع به لا ليبدده او ليبعثره نزولاً عند أهوائه ونزواته

الطارئة . فلو نظرنا الى الشريعة الاسلامية المستوحاة من القرآن الكريم والعُرف لوجدناها تتجاهل ما يسمى« بحق الاستعمال والتمتع jus utendi et abutendi». فهي ترى في كل صَرْفٍ تبذيراً لا نفع فيه وهو إثمٌ بالنتيجة . فالسفه[١٣] في نظر الشريعة هو نوع من الخلل العقلي يحجر على كل مُبتلٍ به شرعاً ، هذه الشريعة حريصة على الاعتدال والقِسط في كل شيء واتباع الطريق الوسط في إنفاق الثروة لكونه يتفق تماماً مع حكمة الشارع وطبيعة الشريعة من حكمة الله في إغداق آلائه ونعمه على البشر [١٤] .

إن مبدأ « الامكانية المحدودة » هو ذو نتائج متماثلة ، فلكل امرىءٍ أن يضطلع بالتزامات ويفرض الالتزامات على غيره بنفسه وبملء اختياره وبموجب الحدود التي يرسمها له القانون ، إلا أنّ لهذه القوة المطلقة حدوداً تقررها المصلحة التي يتوخاها موضوع الالتزام . تلك القيود تظهر واضحة في الضوابط والاجراءات المفروضة على العقود التي يبرمها صغار السن ، والمعتوهون والزمنى [١٥] ، والمفاليس . ذلك الحد من القدرة التصرفية يطلق عليه بصورة عامة اسم « القواعد او الضوابط » وقد أُوجدت لسبب شرعي هو حماية مقتنى العاجز لعدم أهليته وضعف بصيرته . ثم ان لكل امرء أن يستعمل حقوقه الخاصة غير مبال بمضايقة الآخرين وضررهم لان الغاية الاساسية لكل حق شخصي هو جلب المنفعة لصاحبه . ولكن هذا الحق يخضع لحدود تتجلى في المبدئين التاليين :

١ ــ يُمنع المرء من ممارسة حقوقه اذا كان يرمي من ذلك الاضرار المطلق بغيره ، وفي الوقت نفسه لا ينال منفعة شخصية من وراء ذلك .

---

١٣) المعنى القانوني واللغوي للسفه هو التبذير والإسراف والسفيه هو المبذر والمتلاف (المعرب)

١٤) « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً (الفرقان) » (المعرب)

١٥) هم المرضى طويلا الذين لا يرجى شفاؤهم من مرضهم (المعرب)

٢ – يُمنع المرء من ممارسة حقوقه عندما يسبب ذلك ضرراً فاحشاً بغيره على حساب منفعته الخاصة .

هاتان القاعدتان تبدوان بارزتين في كل ناحية من نواحي الشريعة ، فمنها : القيود المفروضة على السلطة الأبوية في موضوع البنات ، ومنها حقوق السيد في عبده ، والزوج في زوجه ، والقواعد الخاصة بذوي الارحام .

إن الطريقة المنطقية المتبعة في هذه القضايا هي واحدة بعد تقرير المبدأ العام ، فأول ما فعل واضع الشريعة هو اتخاذه الحيطة في وضع الحدود والقيود على الحقوق . تلك القيود التي يصير القانون بدونها نقمة على البشرية لا نعمة ، والمُسلم يجب ألاّ يحيد عن نهج مجموعة هذه القواعد الضابطة لكل ناحية من نواحي حياته من أدق التفاصيل الى أعم القواعد وأكبرها لانها وضعت لصيانة وجوده في المجتمع وكينونته الروحية . تلك القواعد تسمى « الشريعة » ومعناها « الطريق القويمة » ومن هنا جاءت الأهمية العظمى لعلم القانون « الفقه » الذي يمت الى علم الكلام بصلة وثيقة. وعلم الكلام أساساً هو علم العقائد(اللاهوت) فالله يمنح أعظم الاجر والثواب لمن يتدارسه ويجتهد فيه كما يدل على ذلك تعريف المذهب الحنفي للفقه :

« الفقه هو معرفة النفس ما لها وما عليها بحيث يصل بها الى معرفة طريق الحق في الحياة الدنيا ويهيؤها للحياة الاخرى »

ويجمل بنا أن نورد ما قاله فقهاء القانون الروماني عن صناعتهم تلك ، بصراحة وجلاء :

« الفقه هو علم الأمور الانسانية والآلهية Rerum humanarum atque divinarum scienti »

رئيس الدولة :

إن الملك ، أو راعي المجتمع وهو جزء القانون المكمل ، ضروري كضرورة

القانون نفسه . والقانون حقيقة اجتماعية قامت على بناء المجتمع البشري وطبيعة المرء المتمدنة . على أن المرء (وإن هو مدني بطبعه) ميال الى الشر لسوء الحظ . « بعضكم عدو لبعض ج ٢٠ آ ١٢١ » وإذا ما القي حَبْل نزواتهم وأطماعهم على الغارب فلن يألوا جهداً في أن يعيثوا في الأرض فساداً . والقانون هو كفاح دائب متواصل لغرائز المرء الخبيثة . القانون كلمة جوفاء لا تعني شيئاً إن لم يكن له مُنَفِّذ وحام . وان الاسباب التي أدت الى وضع حد لتصرفات البشر ونشاطهم تحقيقاً لسعادتهم هي التي قضت أن يقوم عليهم حاكم يسوسهم ويتولاهم ويحملهم على الانصياع اليه عند اللزوم . ولهذا فقد أكمل الله بناء القانون بالحاكم « الإمام او الخليفة » وفرض طاعته على الامة . والله وحده هو الذي يأتي المُلْك من يشاء[١٦] ، لأن الانسان بغير ارادة الله لا يستطيع أن يتحكم في مصائر اخوانه ، او يفرض سلطانه عليهم . وكل وجه من أوجه السيطرة على الناس : من سيطرة الأب على ابنائه والوصي على القاصر والسيد على العبد الى سلطان الحاكم على الرعية ، لا سند يدعمها ولا يحللها إلا الله فهي تكون بمشيئته وارادته لانه مصدر جميع السلطات وواهبها بمقادير متفاوتة للناس بعضاً دون بعض متوخياً بذلك مصلحة المحكومين . الله وحده يقيم الامراء . والله وحده يجردهم من الامارة والسلطان .

إن وجود (الوازع) [١٧] ووجوب الخضوع اليه ، واجبان دينيان وضرورتان محتومتان لدوام المجتمع الاسلامي وخلاصه من الانحلال والتفسخ ، كما هو ضرورة في أي مجتمع آخر . فإن لم توجد سلطة قوية وطيدة ، فليس ثمة ما يمكن أن نطلق عليه اسم « المجتمع البشري » او « الدين » [١٨] . لن

---

١٦) « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء »(آل عمران) . (المعرب)

١٧) الرئيس او الآمر الناهي . (المعرب)

١٨) قال العلامة الفقيه أبو الحسن علي بن محمد الماوردي المتوفى السنة ٤٥٠ ه = ١٠٥٨ م في كتابه « الاحكام السلطانية » المطبوع بمصر سنة ١٢٢٨ ه : ١٨١٣ م «الامامة موضوعة لخلافة النبوة من حراسة الدين وسياسة الدنيا » . (المعرب)

يكون ثمّ إلا فوضى وهمجية أطلقت لغرائزها العنان بلا رقيب أو رادع . وفقدت كل ما من شأنه أن يجعل الحياة جميلةً لذيذةً تستأهل أن يعيش المرء لأجلها . ومن تلك المسائل: المنفعة المستخلصة من الدّين الذي تُقَوَّم أسسه على أماني الفرد في المجتمع وسيادة النظام في حياته . « الامير هو عماد الدولة » لذلك فان تعيين الرئيس واجب ديني على كل مسلم حائز الصفات المقررة وبالتالي يجب أن يوليه الاهتمام الحريّ به . وكل من يتنصل او يتملص من ادائه يخرج عن حظيرة المؤمنين حيث أنه « من مات وليس له ايمان مات ميتة الجاهلية » . والامامة لا تكون الا لشخص واحد لا يشاركه فيها غيره لأن : (١ً) ان وحدة الشرع الآلهي تستلزم وحدانية السلطة التي تنفذ تلك الشريعة وتطبقها . (٢ً) لا يتحقق النظام في المجتمع الا اذا سُلمت مقاليد الحكم لشخص واحد لا أكثر بدليل قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا » (ج ٢١ — ٢١) .

ومما لا مِرية فيه أن هذا الرئيس الواحد يجب أن يكون حائزاً الصفات الخلقية والبدنية الضرورية والمناسِبة لإشغال منصبه واعطائه حقه ؛ وهـذه الصفات يمكن اجمالها بما يلي :

أولاً — الحرية : أي أن الإمام لا يمكن أن يكون عبداً رقيقاً . لان من لا يملك حرية التصرف بشخصه لا يمكن أن يُقلد سلطاناً أو يكون سيداً مطاعاً .

ثانياً — الرجولة : الإمام لا يمكن أن يكون امرأة بدليل الحديث الشريف (لا يفلح قوم أمّتهم نساؤهم) .

ثالثاً — كمال الأهلية شرعاً ؛ أعني أن يكون الإمام عاقلاً بالغاً .

رابعاً — صحة الجسم : أعني أن يكون سليماً من العاهات التي قد تعرقل انجازه لواجباته على الوجه الأتم .

خامساً ـ الالمام بالشرع الآلهي : (وان كان مدى هذا الالمام مختلفاً فيه) .

سادساً ـ أن يتصف بحسن التدبير ويكون عادلاً متحلياً بالشجاعة والحكمة ليصون ما أستُودع زمن الحرب والسلم .

سابعاً ـ أن تكون حياته نقيةً طاهرةً مطابقة لأحكام الشرع الآلهي والآداب الاسلامية .

ثامناً ـ وأخيراً ، وليس بأقل أهمية مما سلف ، أن يتصف بكرم الأرُومة وبشرف النسب ، أعني أن يكون من قبيلة قريش التي جاء منها الرسول (١٩) .

يبدو أن مبدأ سمو قريش على أسَر العرب كان مسلماً به منذ القديم ، ثم تدرج فصار قاعدة قانونية ثابتة ، على أن ذلك لا يعني وجوب حصر السلطة العليا بفرع خاص من فروع هذه القبيلة . ولو بحثنا عن الحكمة التي استدعت وضع هذا القيد الغريب والعلة الحقيقية في حصر الامامة بقريش، لوجدناه يكمن في المبدأ القائل بان الخليفة يجب أن يكون قبل كل شيء عربياً لحماً ودماً . وانه لما يخالف مباديء الشريعة الاسلامية أن يكون الخليفة أجنبياً عن عنصر غير عربي . وتلك هي احدى الاسباب التي منعت وجود الخليفة في الوقت الحاضر وان وجد بصورة ما ، فهو غير شرعي .

بالنظر الى هذه الامور الجوهرية ، يتضح أن اختيار رئيس المجتمع الاسلامي لا يمكن تركه للظروف والصدف او لأعمال العُنف والطغيان . بل يجب أن

---

١٩) انظر كتاب «شرح مقاصد الطالبين في علم أصول عقائد الدين للسيد التفتازاني» المتوفى في السنة ٧٩١ هـ = ١٣٨٩ م قال : « .. وقد ذكر في كتبنا الفقهية انه لا بد للامة من إمام يحي الدين ويقيم السنة وينتصف للمظلومين ويستوفي الحقوق ويضعها مواضعها ويشترط أن يكون مكلفاً ، مسلماً ، عدلا ، حرا ، ذكرا ، مجتهدا ، شجاعاً ذا رأي وكفاية سميعاً بصيرا ناطقاً قريشياً. فان لم يوجد في قريش من يستجمع الصفات المعتبرة ، ولي كناني . فان لم يوجد فرجل من ولد اسماعيل ، فان لم يوجد فرجل من العجم » (ص ٢٧١ ج ٢) . (المعرب)

يجري انتقاؤه بعد التفكير المليّ والتأمل الحكيم الناضج، وتقوم بانتقائه تلك الصفوة المنتخبة من أهل الرأي الذين هم وحدهم يقدرون هل أنّ المرشح للخلافة صالحٌ لملء هذا المنصب الجليل أم لا ؟ فلا يمكن أن يكون مجموع الناخبين أمة المسلمين كلها . إن الناخبين ، هم اولئك الذين عُرفوا بعِلمهم ومنزلتهم وتجاريبهم في امور الدين والدنيا وبأخلاقهم المتينة ؛ هؤلاء وحدهم يصلحون لإنْ يكونوا المحكمين في هذا الشأن واليهم أيْ الى رجال السيف والقلم يرجع أمرُ انتخابِ الإمام وأعني بهم مشاهير الشخصيات المدنية والعسكرية ، أصحاب الحل والعقد . هؤلاء مخولون باسم المجتمع كله أن يشترطوا بالاشتراك شكلَ الرباط أو الواجب الذي تنبثق منه سلطة الأمير ويعينوا مقدار الطاعة الواجبة له من الرعية .

الانتخاب في عرف القانون انما هو الفعل الذي يمنح به الشعب السلطة العليا لفرد ما بملء اختياره ، ويتم هذا المنح بوساطة مشاهير رجاله نيابة عن مجموعه . انه عروض للتعاقد (عُقَاد)، فإذا قبل به الشخص (المنتَخَب) أصبح (عَقْداً) .

في غضون القرن الأول الهجري ، ظهرت طريقة أخرى لنصب الخليفة ، إطَّرَدَت بعدها فأصبحت عادة. وهي أن يعين الخليفة الحاكم خَلَفَه او وليّ عهده . إن تعييناً كهذا يساوي في جوهره (العِقاد) ، فإن قُبل ، أصبح عقداً . والمراسيم التي يتم بها العقد تدعى « البيعة » . والبيعة كلمة كانت تستعمل في السابق للدلالة على إبرام الصفقة وهي رمز لمصافحة اليد التقليدية التي كانت دليلاً على الرضى والقبول منذ عهد (أبي بكر الصديق) من الجانب الذي وقع عليه الاختيار . ولنبحث الآن في الآثار الناجمة عن البيعة ، اولاً : من جهة الخليفة وثانياً : من جهة الامة التي يتولى أمرها .

١ ــ إن قبول الخليفة منصب الامامة يعني معاهدة نفسه على ممارسة السلطات

الممنوحة اليه بالحدود التي رسمتها الشريعة . هذا هو أهم وأول واجباته ، لأن غاية المرء ليست متاع هذه الدنيا الفاني .

والانسان بعدُ – مخلوق حقير الشأن ينتهي أمره بالموت والعدم ؛ والايمان وحده هو الذي يسير بالمرء الى الحياة الأبدية .

٢ – يتعهد الخليفة أيضاً بقضاء مصالح الاسلام الزمنية كالمحافظة على تخوم البلاد وقتال المشركين والكفار وإقامة الأمن الدائم ، وادارة الأموال العامة ونشر لواء العدل في الربوع .

إن رأس المجتمع الاسلامي بإنجازه هذا الواجب المزدوج يعمل كنائب دولة او رئيس حكومة locum tenens (كما في الاصطلاح الروماني) أو كخليفة الرسول . وخلفاء الرسول ما هم بوارثي رسالته الروحية (وإن كان يؤثر عنهم في الحقيقة صفة النيابة او الوكالة بتنفيذ رسالته وتعضيد المصالح الدينية والدنيوية (للمجتمع الاسلامي). لقد أبى(أبو بكر)قبول لقب « خليفة الله » واكتفى باسم « خليفة رسول الله » ثم درج لقب « أمير المؤمنين » منذ زمن (عمر بن الخطاب) . فحدد بكل وضوح صفة ممثل السلطة العليا الذي هو في الحقيقة ليس عاهلاً «ملكاً» بل هو(أميرٌ)نظراً الى المدلول الاصلي للعبارة الرومانية « رئيس الأقران primus inter pares

ان اسم الإمام الذي يطابق بمدلوله لفظة antistes أي قائد الصلاة . بقي حتى الأخير عنواناً لأعظم وأسمى صفة في العاهل الاسلامي ؛ وبكلمة اخرى كانت وظيفته الدينية أصل جميع وظائفه الاخرى وهي في الشريعة الاسلامية (العدل ، الجهاد ، الجباية ، تحكيم العادات والتقاليد) فإذا ذكَرَ الكُتاب لفظة «الإمام» غير موضحة، فإنهم يقصدون أمير الدولة مطلقاً، ويريدون مصدر جميع السلطات الذي تصرف شؤون المملكة كافةً باسمه . وليس في هذه الامور ما يُضفي على الخليفة صفة القداسة أو يَسِمُه بميسم الكهنوت كما

ادّعت بهذه السمة هيئات حاكمة معينة في تاريخ العالم . والحقيقة هي أن سلطة الخليفة كرئيس ديني — لا يمكن أن تعتبر سلطة حَبَرّيةً او باباوية مثلاً . فهو متجرد تماماً من صفة الكهنوت . لأن حكومة المسلمين ما كانت في أي زمن أو ظرف حكومةً دينية hierarchy ولم يوجد فيها تَعاقبٌ رسوليٌ ، والامام في سلطانه الدنيوي ليس سيداً (ربّاً) .

ومنصب الخليفة لم توجده الشريعة الآلهية إلا للخير العام . وهو الثقة العامة التي ترمي الى خدمة الشرع الآلهي وحمايته وتنفيذه . وكثيراً ما شُبّه الخليفة بالراعي يجمع في شخصه وحدة القطيع الذي يلتفّ حوله .

الراعي يرعى قطيعه ، والوصي يرعى صغيره ، كذلك الامير فقد وُجد ليسهر على مصالح المسلمين الذين يعجزون عن رعاية أنفسهم كمجموع . الامير « وكيل » جماعة المسلمين ، وأعماله تستمد قوتها وقانونيتها من المبدأ القائل أن الامير يجب أن يضع نصب عينه مصلحةً المجموع . فهذه الغاية « أُمّرَ الأمَراءُ على الناس » . وكما يجب أن يقدم الوكيل حساباً صحيحاً على ما انجزه لموكله وسيده ؛ كذلك يتحتم على الخليفة أن يستَرشدَ بالله . وبهذا كتب أبو يوسف (٢٠) الى الخليفة هرون الرشيد يقول : « وانني اوصيك بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله ... وانما لك من عملك ما عملتَ فيمن ولاك الله أمره ، وعليك ما ضيعتَ منه . فلا تنسَ القيامَ بأمرِ مَن ولاّكَ اللهُ أمرَه ، فلستَ تنسى » .

---

٢٠) هو القاضي أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصاري (١١٣ — ١٨٢ هـ = ٧٣١ — ٧٩٨ م) ولد بالكوفة وكان صاحباً للامام أبي حنيفة وعنه أخـذ الفقه وما يتعلق بـه . تولى القضاء في بغداد خلال حكم ثلاثة من خلفاء بني العباس : المهدي والهادي والرشيد . وهو اول من دعي بقاضي القضاة وميز العلماء بلباس خاص وكانوا لا يميزهم شيء عن العامة . وبقي من آثاره كتاب « الخراج » فيه مقدمة يخاطب بها الرشيد ، رواه عنه تلميذه الشيباني . وطبع بمصر السنة (١٣٠٢ هـ = ١٨٨٥م) . (المعرب)

الزعيم والشعب ، الإمام والجماعة ، اصطلاحان بسيطان يُجملان كل النظام السياسي الاسلامي ويفسران معنى الدولة كذلك . إنه تمثيل الدولة وسلطة الحكومة التنفيذية ، متمركزاً في شخص الخليفة الذي تُحتمُ عليه وظيفته أن يمارس تلك السلطة عندما يكون القانون واضح المدلول صريحاً . فهو من هذه الناحية لا يملك أية مقدرة على تحوير القانون ، بل هو مضطرٌ إلى تطبيقه بحذافيره كما في الاحوال التي لا يسوغ القانون للقاضي أن يجتهد . لكن حريته في فض القضاياالتي لم يرد فيهانص، هي حرية غير محدودة لأنه ليس وكيلاً عادياً بل محل ثقة ، كما وأن تنفيذ القانون موكول اليه بصورة خاصة . وبجانب حريته هذه في التصرف القضائي ، تمتد سلطته الى شؤون عديدة عامة أخرى : كإدارة دفة الحرب وتقسيم الغنائم وفرض الضرائب على الأموال وصرف أموال الدولة في شتى الوجوه وتعيين العُمال (الحكّام) والموظفين .

ان قبول الشعب « البيعة » يعني إطاعة أوامر الرئيس واتباعه في كل شيء « من عَصِي أمامه عصي الله » [٢١] . و« عليكم بالطاعة أي للولاة أي إلزموها وإن كان المولى عليكم عبداً حبشياً فأطيعوه واسمعوا اليه » . ان واجب المعونة (النصرة) مربوط بواجب الطاعة وهو يقيد الشخص الذي أعلن ولاءه وطاعته لتلبية كل طلب او اشارة من الأمير والانتصار له على كل من يُنازعه السلطان وكل من يُهدد سلامة المسلمين . ان الحد الوحيد المانع من النهوض بأعباء هذا الواجب هو عجز المسلم التام عن مدّ يد المعونة ، معنوياً أم مادياً . مثلاً اذا كانت تلك المعونة تفوق الطاقة البشرية او تناقض الشرع . وعندئذ يجب ان تقف سلطة الامير عند حدها ويجب ألا يطيعه المؤمنون . فاذا أمَر الامير رجلاً بأن يرتكب جريمة قتل او زنى أو أن يعاقر الخمر أو أن يمتنع عن إقامة فروض الصلاة ، فالعُرف يقول في ذلك « لا إطاعة في الاثم » [٢٢] .

---

٢١) « ان الذين يبايعونك يبايعون الله » (الفتح) . (المعرب)
٢٢) وفي الحديث « لا طاعة لمخلوق مع معصية الخالق » . (المعرب)

إن الرابطة التعاونية الموجودة بين الخليفة والشعب تبقى متينة وثيقة الرعرى ما دام الخليفة صالحاً للقيام بواجبه في حماية المجتمع الاسلامي . فاذ لم يعد أهلاً لمنح شعبه ما يريده منه ، بطل سلطانه وفسخ العقد شرعاً بين المتعاقدين . ويتم هذا الفسخ والالغاء عند العجز الجسماني او عند فقدان الحرية كوقوع الخليفة أسيراً في يد المشركين والكفار .

وبالاجمال فالنهج السياسي لمدرسة الفقهاء الصحيحة يتجسم في الخلافة . فخليفة الرسول — كما يدعى — هو الشكل القانوني الوحيد للسلطة . ويبدو لنا أن هذا النهج قد طبق في العصر الذهبي للاسلام بنجاح لا نظير له ، لا سيما في حكم الخلفاء الراشدين وهم خلفاء الرسول الاربعة الأوائل . وبعدها أخذ الفقهاء يذكرون عن تدهورٍ وانحلالٍ مطردٍ لابتعاد الاسلام عن اصوله وخروجه عن جوهره الأساسي . فحلّت الملكية محل الخلافة وهي السلطة المطلقة البسيطة أو ما يدعى بحكم السيف الذي لا شأن للشريعة الاسلامية به ، وهو حدث سياسي يُعزى الى الحديث النبوي « الخلافة بَعدي في أمتي ثلاثون سنة ثم مُلك بعد ذلك » [٢٣] . هذه الادلة المدعمة بالأحاديث النبوية تقدم لنا تاريخاً مجملاً للخلافة من وجهة نظر أولى الرأي . ان الفقهاء في الواقع ما كانوا يتصورون للخلافة وجوداً فعلياً ، إلا أنها وصلت في حكم الخليفتين الأولين الى النضج السياسي التام المقدر لها . ولو كانت الظروف ملائمة لصارت النطفة الأولى للحكومة الصالحة . فلم يكد الجيل السياسي الاسلامي الأول ينقرض حتى تحولت الخلافة عن مبادئها وصارت حكما فردياً مطلقاً زمن

٢٣) والحديث كما أورده المؤلف ليس هذا انما هو قريب من معناه ، فاذا ترجمناه حرفياً خرج لنا كالآتي : « سيكون بعدي أمراء ثم يعقبهم الملوك ثم الطغاة » ولم نعثر في كتب الحديث على نص هذه الترجمة ووجدنا ما أثبتناه هو أقرب الى المعنى كما رواه أحمد والترمذي وغيرهما (انظر شرح المناوي) . (المعرب)

الامويين وملكيةً مطلقةً في حكم العباسيين على النمط الفارسي . وكان سلاحه الظاهري ستْرُ الإستبداد والجور وفساد الادارة المتفشية التي قادت الامبراطورية العربية الضخمة الى الانهيار والاضمحلال ؛ ساعد على هذا التحول في شكل الحكومة عاملان آخران هما اولاً الحاجة العملية التي استدعت تأسيس نظام حكومي مركزي ، وشـدة مراس العرب وقـوة شكيمتهم ثانياً ، مما يجعل خضوعهم أمراً عسيراً .

وفي القرن الثالث الهجري حل « السُّلطان » محل «الخليفة » الذي أخذ يتقلص نفوذه ويتضاءل خطر منصبه حتى صارت وظيفته « فخرية » لا غير . فالقواد العسكريون الذين برزوا على أنقاض الامبراطورية ، فرضوا سلطانهم فرضاً باعتبارهم « السلطة الفعلية de facto » فلم يكن لخليفة بغداد بد من القناعة بالإشراف الديني والشرعي ، ولم يسع الفقهاء إلا أن يقنعوا بما قُدر لسلطان الخليفة ، لكنهم صاروا يحاولون التخفيف من شدة وقع هذا الانقلاب على صعوبة ذلك وشذوذه . وعَدّلت مدرسة الفقهاء من تعاليمها حسبما اقتضت الأحوال فأخذت تبثُّ فكرتها القائلة أن الحكومة الحالية وإن لم تكن قائمة أو سائرة وفق أوامر الشريعة الآلهية ونواهيها ومع كونها مدعومة بالطغيان والجور حقاً ؛ إلا أنه يجب احترامها والخضوع لأوامرها لانها السدُّ الذي يوقِف طغيان الفوضى ويحد من استبداد الفرد وشِرّته . وعلى هذا الاساس فهي تحقق هدف الشريعة الاول واعني الطمأنينة والأمن الاجتماعي والاستقرار .

أدركت جمهرة الفقهاء أن النظام القديم لا يتفق ومتطلبات العصر ، وسلّم كثير من العلماء بان الامام قد لا يكون ذلك الرجل الطاهر النقي الذي تشترطه أحكام الشريعة . كما قد يتعذر تحقق شَرْط النَسَب القُرشيّ او انه قد لا يكون جوهريا في الخليفة ، وتمادوا أكثر من ذلك فأجازوا قيام أكثر من إمام واحد. وقالوا: على المؤمن أن يُطيع ذا السلطان أكانت سلطته شرعية او فعلية ، والامر

سواء . لكن قد يكون الحكم في يد طاغية يحيا حياة الفسق والفجور ، فماذا على المؤمن أن يفعل ؟ « أصبر وأعطِ ما لقيصر لقيصر وانتظر حتّى يأخذ العدل مجراه »[٢٤]. لقد بسط (الغزالي) في أواخر القرن الخامس الهجري هذه المسألة بصراحته المعهودة حيث قال « وما أبحناه ، لم نُبحه بمحض اختيارنا ، فالضرورات تبيح المحظورات وليس للمرء أن يهلك نفسه ليمتنع عن ميتةٍ (وخمرٍ) ، فإن حفظ المهجة أهم في الشرع من ترك الميتة والخمر [٢٥] .. ولو سألنا اولئك الذين يقولون بذهاب الخلافة الى حيث لا رجعة : أيهما أفضل ؟ الفوضى وجمود حياة الامة لانتفاء السلطة الشرعية أم الخضوع للسلطان ؟ لا حيلة للفقهاء إلا باختيار ثاني الامرين [٢٦] .

في السنة ٦٥٦ للهجرة الموافقة للسنة ١٢٥٨ ميلادية ، اجتاح المغول بغداد وقتلوا الخليفة وأعملوا السيف في رقاب أبناء بني العباس وفرّقوا الاسرة ايدي سبأ ، فزالت الخلافة من عالم الوجود بعد أن بقيت زمناً طويلاً عنواناً للسلطة السياسية ، وهكذا قُضي عليها فعلاً . وصار التاريخ يعدد لنا اسماء سلاطين بعد هذه الفترة باستثناء مصر ، فقد كان يوجد عباسي (حقيقي او دَعيّ) انتحل لقب الخليفة. واحتفظ المماليك حكام مصر بهذه الالعوبة الفارغة لضمان حكمهم ، وإلباسه الصفة القانونية . وما ان استولى الاتراك العثمانيون على القاهرة في العام ١٥١٧ الميلادي حتّى أزاحوا آخر فرد من هذه السلالة [٢٧] .

---

٢٤) والحديث كالآتي : « من رأى من أميره شيئاً ، فليصبر عليه ، فان فارق الجماعة شبراً كانت ميتته جاهلية » اما عبارة « اعطِ ما لقيصر لقيصر » فهي جزء من آية انجيلية نطق بها يسوع عندما أقبل عليه بعض الكتبة اليهود ايحرجوه فسألوه : هل يتحتّم عليهم ان يدينوا للعاهل الروماني بالطاعة ، وأدرك غايتهم فطلب منهم قطعة نقد عليها صورة العاهل الروماني وقال قولته المشهورة اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله اشارة الى انهم ما زالوا يدفعون الجزية صاغرين ! (المعرب)

٢٥) المستصفى للغزالي ج ١ ص ٦٣ . (المعرب)

٢٦) احياء علوم الدين للغزالي ج ٢ ص ٨٠ ، و ٩٢ وما بعدها . (المعرب)

٢٧) ظل فرع من الأسرة العباسية يحكم ولاية (بهدينان) الكردية في شمال العراق الشرقي حتّى أوائل القرن السابع عشر . وما تزال ثم سلالة تدعي أنها بقية الاسرة العباسية في العراق (المعرب)

وزعم بعض المؤرخين أنه كان ثمّ تنازل رسمي عن السلطة وانتقال الخلافة من يد آخر سليل للاسرة العباسية الى يد الفاتح العثماني . فإن حصل هذا التنازل فعلاً فهو باطل شرعاً فاسخ قانوناً ، لأن الخلافة ليست حقاً من حقوق الملكية يصح نقله الى شخص بارادة شخص آخر ، انما هو إمانة أودعها المجتمع الاسلامي في عنق الخليفة كما مرّ شرحه .

ولذلك يمكننا القول أن السنة ١٥٤٣ ميلادية كانت سنة انقراض الخلافة الفعلي اي سنة موت آخر خليفة يمت الى الاسرة العباسية بصلة ، هذا إن لم يتم الانقراض في العام ١٢٥٨ ميلادية .

لقد اجمل القاضي (ابن جماعة الدمشقي)(٢٨) حقيقة الامر (حوالي العام ٧٠٠ هـ : ١٣٠٠ م) بما ملخصه : « للسلطان ان ينفرد بالحكم حتى يستظهر عليه من هو اقوى منه فيخلعه ويحكم دولته باسمه . وله ان يطلب الاعتراف بحكمه من رغيته على هذا الاساس . مهما كانت الحكومة ممقوتة فهي خير من لا حكومة ويختار اهون الشرين » . هذا وان فقهاء مراكش لخصوا هذه القاعدة بمبدء واضح فقالوا « من يُحكم يُطَع » .

قانون الجزاء

ليس ثمّ الكثير مما يقال عن قانون الجزاء . فنظام العقاب في الاسلام مبنيّ في جوهره على مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » كشريعة موسى . وهو مبتن أيضاً على مبدأ الثأر الغريزي . كما انه يضع أمام اعيننا المباديء العقابية الموجودة في متن التوراة دون كبير تحوير ولا يغرب عن البال ان لهذه المبادىء والقواعد

٢٨) ابن جماعة هو اسم أطلق على ثلاثة قضاة من أسرة واحدة ، ولعل المقصود هنا هو بدر الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهيم القانوني الحموي قاضي القضاة (٦٣٩ – ٧٣٣ هـ = ١٢٤١ – ١٣٣٣ م) في القاهرة من قبل الوزير ابن العلوي ، وله جملة تصانيف شرعية منها كتابه الذي نوه به مؤلف البحث « تحرير الاحكام في تدبير الاسلام » ذكره فلوجل وبروكلمان .(المعرب)

اسساً تاريخية وقيماً تقليدية ، ثم ان الجيل المتأخر من فقهاء المسلمين ما كانوا يجرأون على معارضة حرفية تعاليم القرآن في هذا الشأن تجاه تقدم الافكار وتطور النظرة الى العقاب فكانوا يحاولون بالتفسير والشرح المسهب التخفيف من وطأة النص وشدته في ميدان التطبيق .

تراث الاسلام

أيحق لنا بمفهوم العبارة الواسع أن نتكلم عن تراث الاسلام ؟

عبثاً نحاول أن نجد اصولاً واحدة تلتقي فيها الشريعتان الشرقية والغربية (الاسلامية والرومانية) كما استقر الرأي على ذلك . إن الشريعة الاسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادىء الثابتة لا يمكن ارجاعها او نسبتها الى شرائعنا وقوانينا[٢٩] لانها شريعة دينية تغاير افكارنا اصلاً . وقد يحصل في العادة خلط بين ناحيتين ، فالاسلام كالمسيحية او كأي دين آخر له عقائد مخصوصة ينفرد بها مما لا يمكن بالطبع ان يعرضها اولئك الذين نزلت فيهم، الى النقد والبحث . لكن من الظلم والتجني ان نصمها بالجمود والشدة ، كما لو الصقنا بالمسيحية التهمة نفسها ، اذ يوجد في اي نظام ديني عظيم الخطر جليل الشأن شيء اكثر من محض العقيدة . وقد اصاب القديس (توما الاكويني) كبد الحقيقة حين قال « ان سعادة المجموع هي الهدف النهائي لكل قانون له جذور كثيرة مختلفة ، نظراً للاشخاص والظروف والاحوال التاريخية » .

ولقد أدرك مفكرو الاسلام هذه الحقيقة بكل جلاء . فالنظام السياسي « الأرسطي » الذي امتزج بمبادىء الرسالة الآلهية ، اوجد في العلوم العربية نظاماً يوجد في جوهره اوجه شبه كثيرة بالآراء السياسية التي سادت العقيدة المسيحية في القرون الوسطى ، وكلتا العقيدتين كانتا رائعتين لا تجافيان الطبع البشري ، وفي هذا الأمر علينا ان نزداد تعمقاً وتفكيراً .

ان المجتمع كما وجدنا آنفاً ، أمرٌ عمليٌ لا بد منه ، إنه ليس فوضى

---

٢٩) اعني قوانين كاتب البحث وشرائعه الاوروبية (المعرب) .

الدهماء والرعاع ، بل كتلة متجانسة تجمعها نهاية واحدة ، وتربط ما بينها المعونة المتبادلة ؛ فالتفسير الاجتماعي والاخلاقي للدولة اذن هو : « ان غرض الحكومة هو تأمين الراحة والطمأنينة للناس في الحياة الدنيا ، وخلاص النفس البشرية في الحياة الاخرى » . هذا الغرض يتأثر بالقانون ، ولا يقوم صرح القانون إلا بقيام صرح المجتمع ؛ والقانون في الواقع لا يستمد شرعيته إلا من هذا المَعين . وقد رسم المسلمون أوليّات هذا المجرى كما كان الشأن مع العقيدة النصرانية .

عاش المرء في حقبة من فجر التاريخ حياة الفوضى الهنيئة الوادعة ، لا تحكمه إلا سنن القانون الطبيعي ، وكانت جريمة (قابيل) ايذاناً بختام هذا العصر (الذهبي) ؛ فصارت لعواطف البشر ونزعاتهم اليدُ الطولى ، وحلت الفوضى الاجتماعية القلقة محل الامن وفقد الايمان الصحيح ، فلم يكن ثَمّ مفر من ظهور الشرائع الخاصة والقوانين الوضعية التي استهدفت منع الشر والقضاء عليه . وهنا نجد قاعدتين تعترضان سبيلنا وهما قاعدتا(المساواةوالايمانالصحيح)

المساواة :

في حديث للرسول « الأبيض لا يسمو على الاسود ولا الأسود على الاصفر والناس كلهم سواسية أمام الله » . فالمسلمون يستوون أمام الله ، وهم أعضاء أسرة واحدة ليس فيها رفيع أو وضيع ، وانما هم مؤمنون جميعاً ، وهم متساوون كذلك أمام القانون المدني مطلقاً . وقد بشّر الاسلام بهذه المساواة في وقت لم يعرف عنها العالم المسيحي شيئاً !

الايمان الصحيح :

هذا القانون أو الشريعة التي توزع العدالة بالقسطاس على الجميع بلا تفضيل تستند الى الايمان القويم أساساً . فعلى المسلمين أن يفوا بالعهود التي يقطعونها على أنفسهم . وليس لهم أن ينتفعوا بمال مسلم آخر ما لم يُجزهُم ، بدليل

الحديث « أدّوا الامانة اذا ائتمنتم ولا تخونوا أماناتكم وانتم تعلمون » . هذه التعاليم وكثير غيرها مما يُعزى الى الرسول هي من ضمن القواعد العامة للشريعة الاسلامية ، وهذا التفسير للايمان القويم إنما هو تفسير خلقي أدبي بصورة جوهرية ، حتى انه ليرتفع الى فكرة « المطلق » ومبدأ « الدولية » . ومن المدهش أن يكون ذلك أقرب لفهمنا من التفسير الالماني الاقطاعي للايمان الصحيح ، ذلك التفسير الذي يرى الايمان منبثقاً من الولاء والخضوع الشخصي ولذلك فإن شريعة الاسلام تفسح أوسع المجال لتحكيم الارادة البشرية . وتعلق أعظم الأهمية على القصد القانوني لا على نص القانون الحرفي . إن إرادة البشر كافية مهما كانت لخلق رابطة قانونية ، ولكن قلما كان بطلان أو صحة اي مبدأ قانوني مرهوناً بأمر شكلي او بنص حرفي في الشريعة الاسلامية . يتجلى ذلك بمقارنته بما لا يُحصى من القواعد الشكلية في قوانين الجرمان . فقاعدة « الرضا في العقود يجعلها ملزمة consensus solus obligat هي قاعدة جوهرية في نظر فقهاء القانون .

لما كان الشرع الاسلامي يستهدف منفعة المجموع ، فهو بجوهره شريعة تطورية غير جامدة خلافاً لشريعتنا من بعض الوجوه . ثم انها علم ما دامت تعتمد على المنطق الجدلي الديالكتي وتستند الى اللغة . انها ليست جامدة ، ولا تستند الى مجرد العرف والعادة ، ومدارسها الفقهية العظيمة تتفق كلها على هذا الرأي. فيقول أتباع المذهب الحنفي ان القاعدة القانونية ليست بالشيء الجامد الذي لا يقبل التغيير ، انها لا تشبه قواعد النحو والمنطق . ففيها يتمثل كل ما يحدث في المجتمع بصورة عامة ، وهي تتغير بتغير الظروف والأحوال ، والقانون أيضاً عرضة للتبديل والتغيير نظراً للاستعمال والتطبيق وتتفق المالكية مع الحنفية في هذا الصدد ، ويقولون « المنفعة هي مبدأ الفقهاء والمشترعين » ولقد أدرك العرب بوضوح تام سر هذه المرونة وهو الاستعمال بلا ريب .

فالمجتمعات بوصفها أعضاء حية تعترضها في حياتها تغيرات مستمرة . في زمن آدم كانت حالة البشر شقية والانسان ضعيفاً . فالاخت كانت تحل لأخيها ، ثم وسّع الله إباحاته في أمور أخرى عديدة، فلما كثر البشر وزاد غنىً ، عُدلت الشرائع واختلفت أحكامها . إن هذا التفاعل المستمر في الحياة يمكن تتبعه في مسالك التاريخ الاسلامي . فلا نعدم أن نجد أحيانا صحابة الرسول يستنبطون أحكاماً تغاير ما جرى عليه العرف بناء على ما تقتضيه الضرورة والمنفعة في الوقت الذي لا نجد الشريعة تجبرهم وتلجئهم الى اتخاذها . ونذكر على سبيل المثال حكم تدوين القرآن في الوقت الذي لم يُعط السلف إشارة بذلك ، وإنشاء دواوين ودوائر [30] لشتى المرافق الحكومية وضرب النقود وتشييد السجون . فلهذه الضرورة والمنفعة يسلم القانون ويخضع . ان الشهود[31] العدول والشروط القاسية الشديدة التي يوجب العرف الراهن توفرها فيهم ، هو مما لم يكن يعرفه العرف الغابر . وقد دعت الحاجة إلى إباحة واسعة لاجراء عقود معينة كعقود الاستقرار . إن أسس السلطة العظيمة التي منحها الفقهاء المسلمون للعرف

---

٣٠) انظر الملحق الخاص بالنظام السياسي في آخر الفصل (المعرب)

٣١) اهتمت الشريعة الاسلامية بالشهود والتدقيق في اختيار الصالحين للشهادة ، الامر الذي أدى الى وجود (هيئة شهود دائمة) ملحقة بدائرة القاضي . ويبين لنا الكندي في كتابه القضاة (ص ٣٦١) مكانة الشاهد من مجلس القضاء بقوله : « كان القضاة اذا شهد عندهم أحد وكان معروفاً بالسلامة ، قبله القاضي ، وإلا أوقف ، ويسأل عن الشاهد المجهول من جيرانه » . وكون الشهود جزءاً من المحكمة بسنة اختطها القاضي العمري الذي ولي على مصر أيام الرشيد ، فانه « جعل أسماء الشهود في كتاب ، ودونهم واسقط سائر الناس : الكندي ص ٣٩٤ » . ومن الشهود نشأت بطانة القاضي . ولما كان هؤلاء يختارهم القاضي ويعدلهم بنفسه فانهم كانوا يعزلون بعزله او موته (الاحكام السلطانية للماوردي ص ١٢٨) . وكان عددهم يزيد وينقص في الولاية حسب تشدد القاضي وتسامحه فيهم . فيروى مثلا أن القاضي التميمي في القرن الثالث الهجري بالبصرة قد سجل أثناء ولايته ٣٦٠٠٠ شاهد (رسائل الصابي ص ١٢٢) وفي الوقت نفسه نجد ابن الجوزي يذكر عدد الشهود ببغداد سنة ٣٨٢ ه = ٩٩٢ م أنهم ٣٠٣ . (المعرب)

والعادة هذه . انما هي شكل من أشكال القواعد غير المكتوبة التي تكمن فيها القدرة على صنع القانون وتبديله وتحويره « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » . فعندما يكون هذا الاستحسان (الاستعمال) ثابتاً موافقاً للنظام العام غير مخالف للاخلاق الحميدة contra bonos mores أو مضاداً لقواعد الشريعة العامة . كان له إذ ذاك قوة القانون لا بل كان الجزء المتمم له . تقول الحنفية : ان الحاجة أفسحت السبيل لاعادة النظر في أمر إدخال مسائل عديدة لم تكن النصوص الصارمة تبيح دخولها . فأبيح (الرهن) للتفريج عن الضائقة التي يعانيها المدينون . واستطاع (فائض الدّين) ان يجد له طريقاً ملتوياً للخلاص من التحريم . فهو محرم نظريا لانه ينزل في المجتمعات ذات الاقتصاد البدائي (المشاعية البدائية) ليكون شكلاً من أشكال (الربا) . ويمكننا اضافة عقد المزارعة emphyteusis والاتفاق مع دلاّل المدينة او سمسارها ؛ مثل هذه العقود باطلة ممنوعة نظراً الى حرفية الشريعة الاسلامية لان نتيجتها غير مؤكدة ولوجود عنصر المضاربة فيها . ومهما يكن فإن مدرستين من مدارس الفقه الاسلامي تقرها وتسمح بممارستها (٣٢) .

ان الشريعة لم تقتصر على قبول العرف وحده . بل أخذت تتبعه في كل تغيراته (القاعدة العامة تقضي بان تكون الممارسة والعادة مصدر كل قانون ، تلك العادة التي لا تتغير إلا بعادة) ويمكن القول اننا نستطيع اتباع ما تقرّر وثبت ، اذ لا يسعنا ان نصنع القانون لكوننا لا نملك المعرفة والسلطة اللازمتين لصنعه ، فنحل المسائل التي نجابهها عن طريق الكتب المدونة . هذا من جهة . ومن جهة أخرى . لو طبقنا القوانين التي بنيت على العرف القديم في الوقت الذي تغير ذلك العرف . فمعنى ذلك اننا وقفنا ضد الرأي العام المعوّل عليه وبرهنا على جهلنا التام بالدين . والحقيقة هي أنه اذا أُسس قانون على عرف

---

٢٨) لعله يقصد الشافعية والحنفية . (المعرب)

سائد في زمن معلوم ، فإن ذلك القانون يجب أن يتغير عندما تتغير الأحوال التي استدعت وجوده . والمحور الاصلي في هذه التطورات هو الامير او الحاكم الوكيل الامين الذي لا يسعه ان يعتاض عن ممارسة سلطة القانون السائد بممارسة سلطة أخرى هي سلطته الخاصة . لكنه يستطيع ان يختار سبيلاً للاجتهاد في القانون من بين السبل ويمكنه أن يجعل العادة مبدأ حكمياً يتدرج بعدها ليصبح جزءً من القانون نفسه . ويمكنه اذا دعت الحاجة أن يتخذ بعض الاجراءات التي تفرضها الظروف الطارئة كما يفعل المتولي الامين لتأمين منفعة المستحقين . أفيكون معنى ذلك ان الفكرة الدينية لم تساهم في تطور القانون الاسلامي ؟ هذا الاستنتاج ليس إلا سوء فهم لتلك الوحدة الفكرية التي يتمثل فيها مصدر قوة الاسلام الرئيس . إن علم القانون ليس إلاجزءً من علم الكلام(الثيولوجيا) وربما كانت الشريعة الاسلامية قد صرحت بالثيوقراطية [٣٣] أكثر من الشريعة المسيحية بمقارنتها مع الحكم المدني . ولكن يجب ألاّ ننساق كثيراً وراء هذا التفسير ، فلو ازددنا تأملاً لوجدنا أن ما ذهبنا اليه هو المعنى الذي قصده فقهاء المسلمين .

إن الفارق بين حقوق الله وحقوق العباد ليس فيه من معنى أكثر من الفارق بين للقانون العام والقانون الخاص . وللفكرة الدينية بلا ريب أثر عظيم ولكن ليس بالمقدار الذي يظنه المرء . هذا التأثير مستمد من الصبغة الاخلاقية التي تسود القانون أي من العلاقة التي تقترب غالباً لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الاخلاقية توحيداً تاماً . فأحكام الشركة والقرض وشروط الشهادة وعلاقة العبد بالسيد وعلاقة المدعي والمدعى عليه وكل اتفاق او عقد يتهيأ فيه موضوع علاقة قانونية ذات صبغة أخلاقية لهو أسمى درجة من أن يكون محض منفعة . فالرهن مثلاً هو شكل من أشكال المعونة المتبادلة ، لان المرتهن يُعين

---

٣٣) أي الحكم الديني . (المعرب)

المالك على الاحتفاظ بملكه . « وتعاونوا على البر والتقوى لا تعاونوا على الاثم والعدوان » (المائدة ج ٥) . وفي الحديث «الله في عوّن العبد ما كان العبد في عون أخيه » .

إن الانسان الذي ينال أجراً لا يستحقه هو أولاً آثم أمام الله وثانياً مجرم امام من سلبه أجره . والمدين المليء الذي يماطل في دفع دينه يرتكب إثماً عظيماً ويعرّض حريته للخطر ، وقد فاه الرسول بحديث رائع في علاقة الجار والاخوة ، قال « أتدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعنته . وان استنصرك نصرتَه . وان استقرضك أقرضته . وان افتقر ، عدتَ اليه . وان مرض عدْتَه . وان مات تبعته . وان أصابه خيرٌ هنأتَه . وان أصابته مصيبةٌ عزّيته . ولا تستَطِل ّ لاعليه بالبناء فتحجبَ عنه الريح الا بأذنه ، ولا تؤذه وأصفح عنه » ونتيجة هذه الروح الجميلة الغلاّبة في الشريعة ما كانت ممارسة الحق إلا إنجاز واجب ، لانه إن كان الحق شيئاً حسناً ، فلا يمكن اغفاله.واهمال المطالبة به إثم . ومن يدعي بملكه من مغتصب لا حق له فيه ، انما ينجز واجباً أخلاقياً، وفي بقائه ساكناً مهملاً مطالبته بحقه يجعل الباغي متمادياً في بغيه . ويقول الرسول « انصر أخاك ظالماً او مظلوماً . ان كان ظالماً فلينته ، فان له نصراً وان كان مظلوماً فلينصرن » أي ان مساعدة الأخ من هذه الناحية هي الحيلولة بينه وبين التمادي في ضِلّتِه . ولكنه اذا كان حق المرء هو منفعته الخاصة وواجبه الادبي معاً ، فإن لذلك الحق حدوداً معينة بموجب مباديء الاخلاق والمصلحة العامة ، فالصلح والتراضي هما سيدا الاحكام في كل وقت . وأخذ الثأر ممنوع منعاً باتاً ، والتضييق البدني على المدين مخالف للقانون ولا اعتساف في استعمال الحق تماماً ، اذ ليس لأحد أن يمارس حقاً له ، بالدرجة التي يسبب للآخر ضرراً محققاً . وللفقهاء المسلمين في هذا الصدد احساس دقيق مرهف يفوق ما نتصوره ؛ فمثلاً يُمنع أن يخول حق الادعاء الى وكيل هو

عدو للطرف الذي أُقيمت عليه الدعوى ؛ وممنوع أن يؤجّر حيوان لشخص عُرف بقسوته على الحيوان . كذلك حرم بيع أمَة صغيرة السن لرجل حر بالغ خشية أن يغيّرها بالفسق او أن يطأها زان . وهكذا ترسم الاخلاق والآداب في كل مسألة حدود القانون ، وبذلك جاء الحديث النبوي « .. ليس لله فيه سهم ليس للمرء فيه حق » وسهم الله هو ارادته في منحه كل شخص ما يستحقه ، وليس له أن يجور على ما يعود لغيره . وإنا لنجد أنفسنا أخيراً وقد بلغنا مرحلة « الحق المطلق » الذي هو أساس المجتمعات المتمدنة قاطبةً .

تلك هي الميزات التي تسم الشريعة الاسلامية في كبد حقيقتها . قد نجرأ على وضعها في أرفع مكان وتقليدها أجل مديح علماء القانون وهو الخليق بها . ومجمل القول انها سمت حتى أصبح علينا أن نترسم وجه مقارنة بينها وبين قواعد واجراءات القوانين الاقطاعية السائدة ايام ازدهرت الشريعة الاسلامية . اما ما كان يفتقر اليه الشرع الاسلامي ، فهو ما كانت تفتقر اليه جميع الشرائع التي سبقتها وعاصرتها وكثير من الشرائع التي لحقت بها . أعني وجود مسحة من الفوضى وعجز في التبويب والتنظيم ، تلك الاسباب التي أدت بالعرب الى الضعف السياسي وكانت في الوقت نفسه مصدر الضعف الذي تخلل نظامهم القانوني فضلاً عن أنهم أفرطوا في الاعتزاز والكبر بالقواعد الكلية لشريعتهم . ففكرة العدالة التي تسود المعاملات القانونية وصلت الى أوجها بفعل فقهائهم كما وصل فقهاؤنا بقانوننا . على أن فلسفة (ارسطو) تتفق معها في هذه النتيجة اكثر من اتفاقها مع العقيدة الدينية على الأقل ، تحريم الربا بأي شكل كان ، النفور من كل أنواع المضاربة ، بطلان اي اتفاق او عقد غير مؤكد النتيجة ، كل هذه المميزات في الشريعة الاسلامية انبثقت من هذا الاصل وبنيت على المبدأ العام (المساواة) وبكلمة اخرى تكون العدالة رائد المساواة في كل مرحلة من مراحلها . والافتئات عليها انما هو ضرب من المستحيل . ولقد اعتاد الفقيه القانوني ان

يضع نصب عينه اعادة تثبيت كفتي الميزان كلما رجحت أحداهما عـلى الاخرى . اعني الغاء وخنق كل محاولة ترمي الى تطبيق النص الحرفي مدفوعاً « بخدمة العدالة ut aequalitas servetur » كما جرى علماء القانون عندنا على تسميته .

ان الجهود المستمرة المبذولة للوصول الى هذا الهدف أدت الى الاكثار من القيود والتفصيلات غير المهمة وخنقت كل شكل من أشكال المصلحة ، ان لم نقل انها جمعت المباديء والتعاليم بنظام حقيقي حسن الترتيب ، فلم تبق مجرد نظريات بأغلب أجزائها . ومن بين المسائل القانونية التي غنمناها من شريعة المسلمين ، الأنظمة القضائية الخاصة بالشركة المحدودة (القيراط) وبعض المصطلحات القانونية الفنية في قانون التجارة . واننا لو ضربنا صفحاً عن كل ما تقدم فلا شك وان المستوى الاخلاقي الرفيع الذي يسم الجانب الاكبر من شريعة العرب قد عمل على تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقي على ممر الدهور .

دافيد دي سانتيلانا

ملحق

في النظام السياسي للدولة الاسلامية

١ – الادارة المركزية :

أشبهت الدولة الاسلامية بعد نضجها السياسي ، اتحاد ولايات federation وكان ارتباط هذا الاتحاد بالمركز يتراوح قوةً وضعفاً بقوة الخلافة وضعفها .

كان لكل ولاية أو إمارة ، ديوان department خاص بها في بغداد ، يصرّف شؤونها ويُهيمن عليهـــا . وكل ديوان من هذه الدواوين يتألف من دائرتين :

آ – ديوان الأصل ووظيفته فرض الضرائب وجبايتها وايداعها (١) بيت المال ومراقبتها ومعاقبة المسؤولين عنها اذا اسلتزم الأمر أو محاسبتهم .

ب – ديوان الزّمام (٢) (ديوان المال) وكان يُقام عليه رجلٌ غني أمين كيلا تمتد يده إلى ما يدخل هذا الديوان من ضرائب .

بقي هذا النظام الاداري ساري المفعول حتّى جاء « المعتضد » الخليفة العباسي (٢٧٩ – ٢٨٩ ﻫ = ٨٩٢ – ٩٠٢ م) وكان من عباقرة رجال الادارة في الاسلام ، فأحدث في كل دواوين الدولة إدغاماً وإدماجاً amalgamation ،

---

١) كتاب الخراج لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ ﻫ : ٩٤٨ م .

٢) تجارب الامم لابن مسكويه ج ٦ ص ٣٣٨ .

ووحدها بديوان واحد سماه « ديوان الدار الكبير »[٣] وفرّعه الى دواوين مكانية ثلاثة هي : ديوان المشرق ويضمّ امارات الأهواز والبحرين وولاية خراسان وولاية طبرستان ، وولاية سجستان وكرمان ومكران ، ثم ديوان المغرب ويضمّ ولاية الحجاز وولاية سورية وولاية فلسطين وولاية مصر العليا والسفلى وولاية غرب مصر وصحراء ليبيا . وأخيراً ديوان سواد (العراق) وهو مختص بولايات العراق (الكوفة والبصرة) .

وُضعت هذه الدواوين في يدٍ واحدةٍ ، كما أنيط أمر الضرائب بيد واحدة . ومن هاتين اليدين انبثقت (وزارتان) وزارة الداخلية وتسمى (ديــوان الأصول) ووزارة المالية وتدعى (ديوان الضرائب) . وهذه الدواوين كانت حسب الحاجة تتفرع الى دواوين اخرى لاذات اختصاص عددها يتراوح من زمن وآخر . ومن الدواوين الثابتة نوعاً ما ، كان ثم : ديوان الجيش بمجلسين ، وديوان النفقات وهو مختص بتوزيع الرواتب ونفقات الحكومة ، وكان ثم ديوان المصادرين [٤] وديوان الرسائل (للتحرير والمكاتبات) ، وديوان البريد ، وديوان العرائض (التوقيعات) وديوان البرّ والصدقات وتوزيعها[٥].

٢ ـ الأمراء والعمال (حُكام الاقاليم) :

ويقوم على رأس كل ولاية ، رجلان ، الأمير والعامل (ويسمى صاحب الخراج) . والفارق بين الاثنين ، أن الأمير يملك تصريف الادارة ، أما العامل فواجبه منحصر في جمع الخراج وحمله الى الخزانة العامة في العاصمة ، بعد أن يُنفق على الولاية ما يراه ضرورياً لها ، من مال الضرائب المجتمعة .

كانت السلطة المركزية تنظر الى الامير والعامل نظرة واحدةً ، فتخاطبهما

---

٣) كتاب الوزراء ص ٢٦٢ وقد أورد أيضاً في ص ١٣١ اسمه هكذا « ديوان الدار » .

٤) تجارب الامم لابن مسكويه ج ٥ ص ٣٠٣ .

٥) تجارب الامم لابن مسكويه ج ٥ ص ٢٥٧ .

على قدم المساواة في الرسائل الرسمية ، وكانت أوامر الوزير وتعليماته ترسل لكلّ واحد منهما في آن واحد [٦] ولكن الامير كان يمتاز عن صاحبه بالامامة فهو رئيس المسلمين وإمام الصلاة (والي الحرب والصلاة ؛ كما ينعت أحياناً) واذا اتفق الامير والعامل ، فعلا بالامارة ما شاءا ، ولطالما استقلاّ بها وعصيا أوامر الخليفة . وقد يستظهر أحدهما على الآخر فيقتله ويُنكل به أو يكفّ يده ، وقد أُجبر الجمع بين الوظيفتين بان يُعين والٍ هو أمير وعامل في الوقت نفسه) [٧] .

٣ ـ القضاء والقضاة :

في مفتتح الدولة الاسلامية ، لم يكن ثمّ فصل بين السلطة التنفيذية والقضائية كذلك كان الوضع في اوروبا المسيحية الى أواخر القرن السابع عشر الميلادي تقريباً . كان النبي (ص) هو القاضي الأعلى، كذلك خليفته من بعده . والولاة يباشرون السلطة نيابة عنه ولما تشعبت مرافق الدولة وكثرت مشاغل الوالي ،

---

٦) كتاب الوزراء ص ١٥٦ .

٧) مما هو جدير بالذكر أن العمال والولاة والكتبة قد تضخم عددهم في أواخر أيام الدولة العباسية الى حد التخمة ، اذ كانت وظائف الدولة تعني السرقة والنهب القانونيين اللذين لا عقاب عليهما . كان أكثر الموظفين يطردون بطرد الوزير الذي عينهم فيظلون متعطلين يذرعون شوارع بغداد يتوسطون ويثيرون الفتن والشغب ويرشون أصحاب الحكم لاعادة تعيينهم . وقد تضخم ملاك موظفي الدولة في القرون المتأخرة إلى حد أشبهت الحال الحاضرة.وتعددت المناصب التي لا نفع فيها ، وكلهم ضعيفو الذمم أنذال كتبت عنهم الكتب وحكيت الحكايات . حتى كان الوزير يعين في المنصب الواحد الكثيرين لكى ينال من كل واحد رشوة.ويحكى انه اجتمع في خان واحد بالعراق سبعة أنفس ، قلد الخاقاني (الوزير) كل واحد منهم ماء الكوفة ، عشرين يوماً . واجتمع بالموصل خمسة آخرون قد قلدهم منصباً آخر وهناك تشاكوا على ما بذلوه في تقليدهم (كتاب الوزراء ص ٣٦٣) . وبلغت رواتب الموظفين الاداريين أرقاماً خيالية ، فضلا عن الرشاوى و ما جرى مجراها من الهدايا .

عُين القضاة واحتفظ الامير لنفسه بما عجز عنه القاضي [٨] ، لكن السلطة العليا لإنفاذ حكمه بقيت بيد الامير ، فإن لم يقبل حكمه لم يكن للقاضي الا الانصراف عن الحكم والاعتزال [٩] . ولكن هذا التصادم كان قليلاً في ميدان التطبيق كما لاحظنا . كان من أثر القضاء على الادارة الاقطاعية في العصر العباسي خروج القاضي عن سلطان الأمير (الوالي) ، فأصبح القاضي يُعين من قبل الخليفة كالأمير والعامل فثبتت بذلك أحكامه ، وحصلت على قوة الإنفاذ القانونية من الشرع الذي يمثله أمير المؤمنين مباشرة . وكان أبو جعفر المنصور أول من ولّى قضاةً على الأمصار من قبله [١٠] وأولهم عبد الله بن لهيعة الحضرمي الذي ولي قضاء مصر في العام ١٥٥هـ = ٧٧٢م (وبهذه المناسبة لا بأس علينا من الاشارة الى أن جميع الخطابات والكتب المعزوّة الى عمر بن الخطاب التي زعموا انه كان يوجهها الى القضاة، انما هي منحولة او موضوعة)

لقد ظل تعيين القضاة منوطاً بالخليفة حتى في أسوأ العهود ، من حيث أن القضاء هو آخر ما بقي من الوظائف التي تعكس هيبة الشريعة والسلطان الديني المتمثل في الخليفة ، وإنْ كان ضعيفاً مجرداً من السلطة .

وكما روى التاريخ في صدر الاسلام عن صلابة القضاة ونزاهتهم وتعففهم (البالغ حد الامتناع عن قبل التكليف بالقضاء ، واحتمال الأذى والعذاب بسبب رفضهم) فكذلك سجل تاريخ الانحطاط ، انحطاطاً خلقياً وتهالكاً على المنصب الخطير لجني الثروة والتمتع بمباهج الحياة ، وما أشبه الليلة بالبارحة .

* * *

كان مجلس القضاء يتألف عدا القاضي من : (١) كاتب الضبط . (٢) الحاجب (المباشر) . (٣) عارض الأحكام . (٤) خازن ديوان القاضي . (٥) أعوان تنفيذ (شُرَطٌ إجراء) . وكان الاختصام مجاناً .

---

٨) الخطط للمقريزي ج ٧ ص ٢٠٧ .

٩) القضاة للكندي ص ٢٢٦ .

١٠) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦٨ .

العلوم والطب

بقلم

الدكتور ماكس مايرهوف Dr. Max Meyerhof (M. D, Ph. D. H. C.)

« مستشرق الماني وكحال شهير ، مارس طبه في مصر زهاء ربع قرن وتوفي ثم . ألم بجانب مهم من اللغات ، كالعربية والفارسية ، وألف باللغتين الفرنسية والانكليزية فضلا عن الألمانية . إطلع خلال إقامته الطويلة في الشرق على كنوز المخطوطات من عربية وسريانية في أغلب بقاعه ونشر وأحيا كتباً عربية قيمة منها (عشر مقالات لحنين بن اسحق ١٩٢٨ ، ومسائل في العين لحنين بالتعاون مع القس بولس سباط ١٩٣٨ وكتاب العالم الاسلامي ١٩٢٦) . هذا علاوة على رسائل قيمة بالفرنسية والانكليزية في مواضيع تاريخ الطب العربي ، منها المختصر الذي عمله جرجيس أبو الفرج لكتاب الادوية المفردة للنافقي بجزئين ٣٢ — ١٩٣٣ . ورسالة بالانكليزية عن(ابن النفيس)ووصفه للدورة الدموية الصغرى ١٩٣٥ ، وكثير من الرسائل والمقالات في مختلف المجلات الشهيرة العلمية تنم عن روح استشراقية رفيعة وعلم غزير » . (المعرب)

أجزاء البحث

المرحلة الأولى : ٧٥٠م

مرحلة النقل والترجمة : ٧٥٠ – ٩٠٠م تقريباً

العصر الذهبي : ٩٠٠ – ١١٠٠م

عصر الانحطاط : ١١٠٠م فصاعداً

الـــتراث

تمهيد

بدأت كنوز العلوم الاسلامية تفتح الآن أبوابها . ففي القسطنطينية مثلاً تجد أكثر من ثمانين مكتبة جامع تضم عشرات الالوف من المخطوطات ، وفي القاهرة ودمشق والموصل وبغداد فضلاً عن الهند وايران ، مجموعات اخرى . قليل من هذه المخطوطات ما أدرج في فهارس وأقل من ذلك بكثير ما وُصف ونشر . حتى أن فهرس مكتبة(الاسكريال)في اسبانيا التي تحوي كثيراً من حكمة الغرب الاسلامي وثمار قرائح أبنائـــه العرب ما زال ناقصاً . إن المعلومات العظيمة التي توصلنا اليها في السنين القلائل الاخيرة تقدمت شوطاً بعيداً واضطرتنا إلى إعادة النظر في كثير من معلوماتنا السابقة والقت فيضاً من النور الساطع على أوائل تاريخ الفكر العلمي في العالم الاسلامي وتقدمه . لذلك فان بحثاً مجملاً عن الغنائم العلمية والطبية كالذي نحن فيه لن يكون اكثر من محاولة أولية لا تخلو من قصور .

المرحلة الاولى : حتى ٧٥٠ م.

لما آل للعرب في مطلع القرن السابع الميـــلادي تركة المدنية القديمـــة ، لم يتقدموا للعالم خلا ديانتهم وآرائهم الاجتماعية بشيء من التعاليم والثقافة الفكرية غير موسيقاهم ولغتهم.وقُدر للسان العرب المبين المرن أن يصبح لسان العلم في الشرق الادنى . كما كانت اللغة اللاتينية لغة الاوساط العلمية في اوربا

الغربية . يظهر لنا من الشعر الجاهلي والاسلامي الاوّلي ان البدو كانوا على درجة لا بأس بها من المعرفة بشؤون حيوان شبه جزيرتهم المترامية وصخورها ونباتها . كان شعراؤهم يتغنون بوصف محاسن إبلهم وخيلهم ، وقد أولدت أوصافهم تلك ، نوعاً معروفاً من الادب في العصور التالية . اما معرفتهم بعلوم الطب والصحة والآثار العلوية فقد كانت ساذجة بسيطة جداً . وفي القرآن لم يرد ذكر مفصل لطبيعة المرض ولم تعط نصائح وارشادات صحية إلا ما كان له علاقة بالأغراض الاجتماعية . ثم أضافت الاحاديث النبوية وشروح المفسرين والفقهاء على تعاليم القرآن وآياته معلومات مهمة دقيقة في أول عصور الدين الاسلامي . إلا أن هذه المعلومات كانت ذات قيمة علمية زهيدة . فهي عبارة عن قوائم بأسماء الامراض وضروب العلاج يختلط بها السحر وأوصاف الطلاسم والتمائم لاتقاء العين الشريرة الى جنب أدعية دينية ذات صفة وقائية .

كانت علوم الاغريق في الزمن الذي نفذ العرب الى قلب الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية، قدأصيبت بوهن شديد ولم تعد تلك القوة الحية الفاعلة . فانتقلت الى أيدي العلماء الذين نسخوا أو علقوا على أبحاث (أرسطو) و(ابقراط) و(جالينوس) و(بطليموس) و(ارخميدس) وغيرهم . فوجد تراث الاغريق الطبي أقوى مذيع في أشخاص (آيتيوس الاميدي [١] نبغ في ٥٥٠ م) و (بولس الاجنيطي [٢] نبغ في ٦٢٥ م) اللذين سكنا الاسكندرية و(اسكندر الترالي [٣] نبغ في ٦٤٠ م) . وازدهرت الاكاديمية العلمية القديمة

---

١) *Aetios of Amida* طبيب اغريقي ، الف كتاباً طبياً في ستة عشر مجلدا لعبت فيه الرقى والشعوذات دوراً رئيساً (المعرب)

٢) ويدعوه العرب (بولس القوابلي)، طبيب اغريقي كان موجوداً أيام فتح العرب مصر عرف بـ مهره بالجراحة والتوليد . (المعرب)

٣) *Alexander of* T طبيب اغريقي زاول الطب في روما . (المعرب)

في (الاسكندرية) عاصمة مصر خلال العصر الذي سبق الفتح الاسلامي وأصابها بعض الانتعاش ، فظهرت فيها مبادىء جديدة لتدريس الطب مستندة إلى آراء (جالينوس) الرئيسة . ووقف (جوهانس فيلوبونس الاسكندري)[٤] يدافع عن نظريات (أرسطو) أمجد دفاع .أما الكتابات التي قرن اليها اسم (ابقراط) ، فقد لخصها تلاميذ مدرسة الاسكندرية . ومهما يكن من أمرٍ ، فمن جهةٍ كان أغلب سكان (مصر) في عصر متقدم يعتنقون الدين المسيحي ، ومن الجهة الثانية كانوا متعصبين مغالين.مما جعل الظروف غير مؤاتية للتقدم العلمي . ولهذه الاسباب لم تكن (مصر) بمثال الوسط الفعال بين الغرب والاغريق في امور الطب وسائر العلوم . فلا مندوحة لنا من الشخوص بانظارنا الى العالم الذي كان يتكلم اللغة السريانية لنجد أن المصطلحات الآرامية والسريانية الحديثة أخذت تحل محل المصطلحات الاغريقية تدريجياً وتهيمن على الاوساط الثقافية في غربي آسيا منذ القرن الثالث الميلادي فصاعداً ، وكان جلّ حملة لواء الحضارة السريانية – الهيلينية جماعة من النساطرة ،وهي الفرقة المسيحية التي أوجدها (نسطور) بطرك القسطنطينية في العام ٤٣٨م . وكان مجمع أفسس المنعقد السنة ٤٣١م قد أعلن هرطقة اولئك المنشقين وزيغهم عن التعاليم الكنسية . فأخذوا منذ ذلك الحين يهاجرون الى الرُّها Edessa ثم أصدر الامبراطور (زينو) قراراً بطردهم ، فهجروا البلاد الى إيران في ٤٨٩ م ، حيث أكرم ملوك الساسانيين وفادتهم . على أنهم نفذوا الى أقاصي الشرق بدافع من حماستهم التبشيرية فوصلوا حتى قلب آسيا واجتازوها الى أقصى الصين الغربية .

انتقل المركز العلمي للنساطرة (وكان مدرسة للطب) من(الرها)الى (نصيبين)

---

٤) والعرب تدعوه بيوحنا النحوي او البليغ لكثرة ما الف . تعزى اليه شروح كثيرة على ارسطو . ونبغ في علم التاريخ الطبيعي . (المعرب)

من أعمال بلاد ما بين النهرين . ثم انتقلت مرة أخرى في غضون النصف الاول من القرن السادس الى (جنديسابور) في جنوب غربي ايران . وكان ملوك الساسانيين قد أنشاوا ثمَّ مستشفى كبيراً يجاوره معهد دراسي وذلك في القرن الرابع . ثم جاء الملك العظيم (كسرى أنو شروان : ٥٣١ – ٥٧٩ م) فجعلها أهم مركز ثقافي في ذلك الحين . الى هذا المكان نزح علماء الاغريق من أثينا عندما أغلق (جوستنيان) جميع المدارس الفلسفية في ٥٢٩ م ، فالتقوا هناك بعلماء السريان والهند والفرس . فنجم عن هذا نشاطٌ علمي كان له أهمية في تقدم الفكر الاسلامي . لقد أرسل (كسرى انوشروان) أطباءه الى الهند للبحث عن الكتب ونقلها الى الفهلوية (لغة أواسط ايران) من لغتها الاصيلة السنسكريتية . كذلك ترجمت كتب اغريقية علمية كثيرة الى الفارسية أو السريانية . وأُثر عن طبيب(٥) كان تلميذاً في معهد (جنديسابور) الطبي وأحد صحابة الرسول العربي انه اول من تلقى دراسة علمية من معشر العرب وقد ذكر خبره مفسرو القرآن وحفظته .

كان (سرجيوس الرأس عيني المتوفى ٥٣٦م) (٦) أول شخصية علمية شهيرة لدى الناطقين بالسريانية ، ولم يكن نسطورياً بل قساً يعقوبياً ، وإماماً لأطباء العراق بلده . وهو الذي شرع في ترجمة آثار الاغريق الطبية الى اللغة السريانية ، ونسبت اليه تراجم عديدة لآراء (جالينوس) ، وكانت مع سذاجتها وتفاهتها كافية لنشر العلوم الطبية الاغريقية وإذاعتها في غربي آسيا لأكثر من قرنين . وفي أثناء تلك الفترة شرع التلاميذ يكتبون رسائل طبية خاصة تستند الى الآراء الطبية الاغريقية . وخير ما عرف من هذه المؤلفات (كناش اهرون) القس

---

٥) هو الحارث بن كلدة وسيأتي ذكره وتفصيله . (المعرب)

٦) سمي (بسرجيوس الرأس عيني) نسبة الى رأس العين (ريش عينا) الواقعة شمال العراق . كان طبيباً ومترجماً وفيلسوفاً من تلامذة مدرسة الاسكندرية وترجم كتب الطب الى السريانية من اليونانية (المعرب)

النصراني والطبيب الاسكندري الذي عا ر. قبل ظهور الاسلام بزمن وجيز . وربما كانت هذه الرسائل قد كُتبت بالاغريقية ثم تُرجمت الى السريانية ، ثم الى العربية . إن أبحاث اهرون لم تصلنا ، ولكن يظهر انها كانت تشتمل على أول وصف لمرض الجدري وهو داء لم يكن معروفاً في الطب اليوناني القديم .

أما مراجع مصنفات العلوم الطبيعية التي جاءت عن العصور السابقة لظهور الاسلام فإننا نجدها أندر من الكتب التي تحمل طابعاً طبياً . ففي مطلع تلك الفترة ظهر باللغة السريانية كتاب (الطبيعيات الصغير parva naturalia) (لأرسطو) وبعض الكتب الأخرى المعزوة له ، ككتابه(في الكون de Cosmus) و(في النفس) . فضلاً عن كتاب (في علم وظائف الأعضاء) وهو رسالة مسيحية لاهوتية في الحيوان وأساطيرها وقوتها ومحاسنها . وباللغة ذاتها ، ظهرت تراجم الرسائل اليونانية في أصول تربية الماشية والزراعة والطب البيطري ، ورسائل في الكيمياء . وكان ثمَّ أجزاء متفرقة من أبحاث سريانية قديمة في أصول استخراج المعادن منتشر بين الباحثين وربما كانت المراكز الرئيسة لدراسة كيمياء المعادن والتنجيم أثناء حكم الساسانيين– المدن الواقعة في أقاليم الشمال من بلاد فارس – والشرق منها حيث تم الاتحاد بين النفوذين الصيني والهندي ليتمخضا بحضارة جديدة .

عندما اجتاح العرب شمال افريقية وغرب آسيا ، احترموا الادارة المحلية (جنديسابور) المركز الثقافي للامبراطورية الاسلامية الجديدة ، ليتخرج فيها العلماء والأطباء على الاخص ، وليؤموا(دمشق)العاصمة أثناء حكم الامويين (٦٦١–٧٤٩م) ومعظم هؤلاء الاطباء هم نصارى ومن بينهم يهود ذوو أسماء عربية . فـ(ماسرجويه) [٧] اليهودي الفارسي الذي ترجم (كناش اهرون)

٧) ويعرف بماسرجس ايضا وهو طبيب بصري اسرائيلي عاش أيام عمر بن عبد العزيز وتولى له ترجمة كتاب أهرون(القس السرياني في أوائل الخلافة الاموية)الى العربية من السريانية(المعرب)

في الطب الى اللغة العربية ؛ ربما كان صاحب أقدم كتاب طبي صدر بتلك اللغة . ومهما يكن من أمر فإن التاريخ لا يزيد شيئاً عن المراحل العلمية في بلاط خلفاء الامويين .

مرحلة الترجمة والنقل : من ٧٥٠ الى ٩٠٠ م تقريبا

كان حكم العباسيين منذ السنة ٧٥٠م بشيراً بحلول دور السؤدد والعظمة والاستقرار في حياة امبراطورية المسلمين . وفي تباشير فجر هذا العهد برز لنا رجل مسلم امتد خياله وتطاول الى علوم القرون الوسطى شرقاً وغرباً ، هو (جابر بن حيان) الملقب بالصوفي والمعروف في العالم اللاتيني المثقف خلال القرون الوسطى باسم (جبير Geber) . كان ابن عطار عربي من الكوفة استشهد في سبيل تشيعه . رمارس علوم الطب والحكمة لكن شيئاً من كتاباته الطبية لم يصلنا. خلا أن كاتب هذا البحث أفلح في العثور على بحث في السموم ينسب اليه . وقد اشتهر (جابر) بأنه أبو الكيمياء العربية . وقد وصلتنا — ونحن نكتب هذا البحث — أدلة وأسانيد ترد الكتب المنسوبة اليه الى القرن العاشر الميلادي ، لذلك فسننظر فيها في محلها .

قيل أن جابراً كان وثيق الصلة باسرة البرامكة التي أخرجت لهرون الرشيد وزراءه العظام . فلما سقطوا ، جرّوه معهم الى الهاوية وأصابه رشاش من التنكيل الذي انصب على رؤوسهم في السنة ٨٠٣ م . ثم توفي في منفاه بالكوفة مسقط رأس أبيه ، وبعد مرور قرنين من الزمن على وفاته وُجد مختبره هناك — كما قيل — خراباً عبثت به يد البلى .

وفي زمن الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور (٧٥٤ — ٧٧٥ م) ، استؤنفت ترجمة كتب الطب اليوناني وعلى الاخص في جنديسابور . ومن هذه المدينة استقدم ذلك الخليفة عندما مرض ، (جرجيس) المنحدر من أسرة (بختيشوع) المسيحية (وبختيشوع معناها عطية المسيح) وكان إذ ذاك شيخ أطباء مستشفى جنديسابور الشهير .

واستخدم الخليفتان : موسى الهادي (٧٨٦ م) وهرون الرشيد (٨٠٩ م) فرداً آخر من أفراد هذه الأسرة التي أنجبت بعد ذلك ما لا يقل عن سبع سلالات من مشاهير الاطباء . عاش آخر فرد منها حتى النصف الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي . ولا مراء في أن مهارة أول جيل من أسرة بختيشوع هي التي رغّبت الخلفاء في تعميم البحوث الطبية اليونانية ونشرها على أطبائها في جميع أنحاء امبراطوريتهم .

كان القرن التاسع فترةً زخرت بأعظم النشاط في الترجمة والنقل . فنقحت مترجمات (سرجيوس) السريانية القديمة وأضيف اليها مترجمات اخرى جديدة . وكان للمترجمين—وأغلبهم من النساطرة المسيحيين— تمكُّن وسيطرة على أسرار اللغات اليونانية والسريانية والعربية ، وفي أغلب الاحيان الفارسية . وكان معظم ما كُتِب ، كتب باللغة السريانية اول الامر . فنشر (يوحنا بن ماسويه الشهير ت : ٨٥٧ م) بعض الابحاث الطبية باللغة العربية وكان طبيب الخلفاء الذين عقبوا(هرون الرشيد)طوال نصف قرن تقريباً . كانت المترجمات السريانية تعمل خصيصاً للتلاميذ النصارى وللأصدقاء . أما العربية منها فقد خصصت للمخدومين المسلمين الذين كانوا هم أنفسهم أحياناً رجال معرفة وحب للثقافة .

وفي غضون حكم (المأمون: ٨١٣ — ٨٣٣م) وصلت الجهود الثقافية الجديدة الحد الاقصى الأول. فقد أنشأ الخليفة في بغداد داراً رسمية للترجمة[٨]

٨) من مترجمي بيت الحكمة يوحنا بن ماسويه (١٩٠ — ١٤٣ هـ = ٨٠٩ — ٨٥٧ م) اول رئيس له ، ومن رؤسائه حنين بن اسحق العبادي (١٩٤ — ١٦٠ هـ = ٨٠٩ — ٨٧٣ م) رئيس أطباء بغداد أيام المتوكل . ومنهم قسطا بن لوقا وهو بعلبكي نبغ أيام المقتدر وضرب بسهم وافر في الفلسفة والرياضة والهندسة والموسيقى فضلا عن الطب . ومنهم اسحق بن حنين المار ذكره وخليفته في الترجمة (٢٠٢ — ٢٩٨ هـ = ٨١٧ — ٩١٠) ترجم عن أرسطو وجالينوس ، وطبعت بعض كتبه في لا يبتسك وكوبنهاغن . ومنهم ثابت بن قرة (٢٤٨ — ٢٨٩ هـ = ٨٦٢

مجهزة بمكتبة . وكان أحد مترجميها (حنين بن اسحق ٨٠٩ — ٨٧٧ م) الفيلسوف العبقري العظيم المواهب والطبيب النطاسي الواسع الاطلاع ، والشخصية الرئيسة في عصر المترجمين هذا . ولقد استدللنا من (رسالته missive) المطبوعة مؤخراً بأنه ترجم الى العربية جميع آثار (جالينوس) العظيمة . وهذا ما يستغرق مئة كتاب سرياني ويتسع لتسع وثلاثين ترجمة عربية لمصنفات (جالينوس) الفلسفية وللطبية . وأتمّ تلاميذ (حنين) ومنهم ابنه (اسحق) وابن أخته (حُبيش) وكانا أذكاهم وأشهرهم — ما يناهز ثلاث عشرة ترجمة سريانية . وبهذه الطريقة نقل الى العالم الاسلامي كل التراث العلمي الضخم الذي خلفه جهابذة اليونان .

إن تفضيل (حنين) نظريات (جالينوس) من الوجهة التدريسية ظاهر في كل ناحية . والى (حنين) وحده يرجع الفضل في تبوّء (جالينوس) أسمى المقام في الشرق خلال العصور الوسطى ، وبصورة غير مباشرة في الغرب الوسيط . أما ابحاث (أبقراط) فكان ذيوعها أقل منها. لقد ترجم له (حنين) كتاب (تقدمة المعرفة aphorismus) وبقيت ترجمته مرجعاً مدرسياً للعرب المتأخرين الذين كثيراً ما تناولوه بالشرح والتعليق . أما أكثر مؤلفات أبقراط الاخرى ، فقد اضطلع بترجمتها تلاميذ (حنين) وكثيراً ما كان الاستاذ ينقح

— ٩٠١ م) من صابئة حران طبيب(المعتضد)ورئيس أطباء زمانه.ومنهم (ابو يعقوب الكندي) مفخرة الفكر العربي الذي نسب اليه أكثر من (٢٥٠) مؤلف . كان عالما في الرياضيات والكيمياء والهندسة والموسيقى والبصريات . ومنهم(حبيش بن الاعسم) ابن اخت حنين الذي ترجم فنسب ترجماته الى حنين . ومن نجوم بيت الحكمة اللوامع(سنان بن ثابت والحجاج بن مطر وعثمان الدمشقي وثابت بن قرة وابن سيرابيون ، وعيسى بن يحي وموسى بن خالد ويوحنا بن البطريق ويحي بن عدي وابو بشر متّى). ونظرا للتلف العظيم الذي حاق بأغلب المؤلفات وبسبب التقلبات السياسية ، ضاع أغلب الكتب ولم يصلنا الا اسماؤها . (المعرب)

تلكم الترجمات ويصلحها . وترجم (حنين) الى العربية والسريانية جميع الشروح التي كتبها (جالينوس) على آثار (أبقراط) تقريباً ، فضلاً عن ترجمته كتاب المترادفات synopsis (لأوريباسيوس Oribasius ٣٢٥ ـ ٤٠٣ م) والكتب السبعة (لبولس الاجنيطي) Paul of Aegna وكلاهما أثران نفيسان . وترجم كذلك كتاب (مادة الطب materia medica) الشهير (لـديسقوريدس Dioscuridus نبغ حوالى ٦٠ م)[٩] الذي نقله مترجم آخر الى العربية نقلاً سيئاً . ونُقل ثالثة في اسبانيا العربية خلال النصف الاخير من القرن العاشر الميلادي . ويوجد من مترجمات كتاب (ديسقوريدس) الى العربية مخطوطات ممتازة مزينة بالرسوم والتهاويل موزعة على مكتبات عديدة .

ومن المترجمات العربية الاخرى المنسوبة الى (حُنين) ، مصنفات اخرى لبعض الاطباء اليونان لمشاهير كتابهم مع عددٍ من آثار (ارسطو) الطبية وتوجمة التوراة اليونانية القديمة (السبعينية septuagint)[١٠]. كذلك ما زالت توجد (لحنين) ترجمات كثيرة مخطوطة في مكتبات عديدة كالقسطنطينية هذه المخطوطات تكشف عن حرية في تصريف الترجمة ومقدرة عجيبة للمترجم في اللغة العربية اما اسلوبها فسهل المتناول خالٍ من التعقيد اذا ما قورن بأصله اليوناني مع دقة في التعبير وخلو من الحشو والركة . كان تفوق (حنين) في عملية الترجمة سبباً لصيرورته مثلاً يحتذيه المترجمون الصغار حتى أنهم كثيراً ما صاروا ينسبون الى استاذهم ما يترجمونه. أما تآليف (حنين) فهي كثيرة

---

٩) طبيب اغريقي على عهد نيرون نبغ في حدود (٥٠ م) واشتهر كتابه هذا في القرون الوسطى ونقله الى العربية اسطيفان بن باسيل الرهاوي . (المعرب)

١٠) هي أقدم ترجمة يونانية للتوراة سميت بذلك للزعم القائل بأن مترجميها كانوا سبعين شخصاً استقدمهم بطليموس (٢٤٧) لهذا الغرض . (المعرب)

العدد تزيد عما ترجمه ، وفيها شروح وتعليقات على آراء (جالينوس) ومقتبسات وملخصات دقيقة وافية أخرجها بشكل كتب دراسية لتلاميذه . ومن آثاره الشهيرة عند العرب والفرس رسالته (مسائل في الطب) وهو على شكل أسئلة وأجوبة . اما كتابه (عشر مقالات في العين) ، فيعد أقدم كتاب مدرسي منتظم عرفه البشر في أمراض العين .

إن التراجم العربية التي يعود الفضل في نقلها الى (حنين) وتلاميذه ، حفظت لنا كثيراً من تآليف (جالينوس) التي ضاع أصلها اليوناني . كان (لحنين ابن اسحق) أنداد كثيرون يصح لنا ان نسميهم بالمترجمين العظام فضلاً عن حوالي تسعين تلميذاً من تلاميذه اضطلعوا بعمل كهذا ولكنه يقل عنه أهمية ، ومن الفئة الاولى ابن اخته (حبيش) وابنه الطبيب والرياضي العظيم (اسحق ابن حنين المتوفى في السنة ٩١٠) وتلميذه (ثابت بن قرة : ٨٢٦–٩٠١م) المولود في (حران) من أعمال بلاد ما بين النهرين . وتلميذه الآخر (قسطا ابن لوقا : نبغ حوالي ٩٠٠ م) كل هؤلاء خلا (ثابتاً) كانوا نصارى كما كان معظم أطباء القرن التاسع . و(ثابت) نفسه ، فهو صابئي وثني او عابد نجوم . وكانت ترجمة (حنين وحبيش) مقصورة على الكتب الطبية . أما رفاقهم فقد انصرفوا الى ترجمة الابحاث الفلكية والطبيعية والرياضية والفلسفية الاغريقية ، وكلهم أنتجوا مؤلفات خاصة ينوف عددها على المئات . لقد كانت الكتب الدراسية العلمية الموضوعة باللغة السريانية هي السائدة في النصف الاول من القرن التاسع . فما أن بدأ نجم هذا القرن بالأفول حتى احتلت الكتب العربية مركز الصدارة وزاد انتشارها ، وصحب هذه الظاهرة اختفاء معهد (جنديسابور) وانتقال جميع العلماء والاطباء تدريجياً الى بغداد وسامراء المصيف الزاهر للخلفاء . وفي السنة ٨٥٦ م تقريباً جدد الخليفة المتوكل مدرسة الترجمة ومكتبتها في بغداد والقى عبء ادارتها على عاتق (حنين بن اسحق)

ومهد الخليفة ورجال دولته لتلاميذ النصارى سبل البحث العلمي وقدموا لهم جميع التسهيلات للسفر والتنقيب عن المخطوطات اليونانية وحملها الى بغداد لترجمتها واننا لنجد (حنيناً) يتحدث هو عن كتاب الآن مفقود وفي ذلك الزمن [١١] نادر فيقول :

« انني بحثت عنه بحثاً دقيقاً وجبت في طلبه أرجاء العراق وسوريا وفلسطين ومصر الى أن وصلت الى الاسكندرية لكني لم أظفر إلا بما يقرب من نصفه في دمشق » .

وكان يقول بانه يود على الدوام لو يشتغل بالترجمة على ثلاث نسخ يونانية من الكتاب المنقول على الأقل ليتسنى له المقابلة بينها واستخراج الاصل الصحيح منها . انه وايم الحق لادراك حديث عصري لواجب الكاتب المترجم . أما عن الدراسة في معاهد بغداد الطبية فتكفي فقرة مهمة واحدة نوردها هنا من كتاب (حنين) المطبوع مؤخراً باسم (رسالة في تراجم جالينوس) لتظهر لنا طرق الدراسة اليونانية تبعث حية من جديد في ٨٥٦ م ولتعطينا الصورة الدقيقة عن الاسلوب الذي كانت تدرس به كتب (جالينوس) العشرين ، قال :

« اقتصرت قراءة تلاميذ مدرسة الاسكندرية الطبية على هذه الكتب بالنظام والترتيب الذي اتبعتُه أنا ، انهم تعودوا أن يجتمعوا كل يوم ليقرأوا ويترجموا مقداراً مخصوصاً من تلك المؤلفات . كما تعود اخواننا النصارى في هذه الأيام، من اجتماعات يقصدونها في المعاهد التدريسية المعروفة بالاسكلي (اسكول) ليبحثوا موضوعاً معيناً في أحد كتب السلف ، أما بقية كتب جالينوس فقد جرت العادة على دراستها كل واحد بنفسه بعد درس تمهيدي للكتب التي ذكرناها كما هو الشأن من اخوتنا في تفسير كتب السلف » [١٢] .

---

١١) هو كتاب « في البرهان » وقد أشار مؤلف هذا الفصل في مقدمة كتابه « عشر مقالات العين » الى هذه الواقعة . (المعرب)

١٢) الاسكولي *Schole* بالسريانية مأخوذة من اليونانية . ومنها اقتبس العرب كلمة (اسكل)=

وفي هذه الفترة وما بعدها كانت حرية التعليم مكفولة مؤمنة للجميع في معاهد بغداد ومساجدها الى جانب تيسير المترجمات اليونانية ومقتبساتها ، ألف المترجمون كتباً مدرسية صغيرة بشكل مجموعات درج استعمالها في فترة الدراسات العربية . كانت هذه الكتب ملخصات تبحث في شتى نواحي العلوم الطبية مفصلة العوارض التي تعتري الجسم البشري ؛ مبتدئة بصورة منتظمة من الرأس ومنتهية باخمص القدم . ان معظم تلك المجموعات مفقود ، لكن واحدة منها طبعت في القاهرة قبل بضعة أشهر ونسبت الى ثابت بن قرة (١٣) الذي اشتهر مترجماً وفلكياً أكثر منه طبيباً ، وهي منقسمة الى واحد وثلاثين قسماً تبحث في مبادىء صحة الجسم والامراض الباطنية والخارجية (أعني الجلدية) ثم يأتي الجزء الرئيس من الكتاب وهو أمراض الجسم ويبتديء بالرأس ثم الصدر ثم المعدة والامعاء الغليظة والدقيقة والاطراف (اليدين والرجلين) ثم يأتي بحث في الامراض السارية كالجدري والحصبة ، وهنا تجد السموم لها مكاناً أيضاً ، ثم يلي ذلك بحث في الجو والمناخ ، وفصل في الكسور والخلع والاغذية والحميات ، وتختم ببحث في الشؤون الجنسية . والكتاب مرتب بشكل يصنف أولاً أعراض كل مرض ثم أسبابه ومراحله وعلاجه بلغة سلسة واضحة خالية من الحشو والاطناب وباستشهادات مقتبسة من مؤلفات علماء اليونان والسريان . وثم نوع آخر من التراث الطبي نبغ فيه علماء العرب وهو الكتاب الموسوعي الموضوع على شكل أسئلة وأجوبة ، وقد وصلنا من هذا القبيل مخطوطات تبلغ المئات عداً وكانت صاحبة الفضل في اكساء الطب

للدلالة على مدرسة الدير التي كان يسمح في كثير منها بتدريس العلوم الدنيوية . أما الكتاب الذي اقتبس منه المؤلف هذه الفقرة ، فهو كتاب حنين « في تراجم جالينوس العربية والسريانية » المطبوع في لايبزك السنة ١٩٢٥ م باعتناء جي . بيركستراسر . (المعرب)

١٣) هو كتاب « الذخيرة » المطبوع السنة ١٩٢٨ م بالمطبعة الاميرية بالقاهرة . (المعرب)

العربي صبغته المدرسية العلمية المأتورة . أما معلوماتنا عن سير ترجمة الابحاث العلمية اليونانية في العلوم الاخرى عدا الطب فهي نزوة زهيدة بعض الشيء . ان أكثر كتب (أرسطو) نقلت الى العربية والسريانية ، نقلها مترجمون لا نعرف عنهم شيئاً ، وهكذا صارت كتب (أرسطو) العلمية في متناول الايدي باللغتين العربية والسريانية ؛ وهذه العلوم هي : الفيزياء ، وعلم الآثار العلوية ، وفي النفس ، وفي الحس ، وفي السماء ، وفي التاريخ الطبيعي ؛ وفي الكون والفساد ، فضلاً عن كتب في علم النبات والمعادن والميكانيكا نسبت الى هذا الفيلسوف العظيم . وظهرت بعض رسائل يونانية بالعربية عليها صبغة الافلاطونية الحديثة مثل كتاب (سر الخليقة) وكتاب(العلل de causis) الشهير وينسب هذان الاثران الى (ابلنياس التاياني) [١٤] الذي يسميه العرب (بالينوس) . وبعض الابحاث التي يحوم الشك في نسبتها الى علمـــاء الهيلينيين ظهرت أيضاً بلبوس عربي .

وتُرجم الكثير من كتب الكيمياء اليونانية أيضاً ، كلها أو جلها منسوبٌ لشخصيات وهمية لا وجود حقيقي لها . ولم يؤثر تقدمٌ في الكيمياء خلال القرن التاسع الميلادي ؛ وكان العالمان الكبيران (حنين ، والكندي : ت حوالي ٨٧٣ م) من أشد المعارضين لمن يشتغل بالكيمياء التي اعتبراها محض دجل وشعوذة .

ولننتقل الآن من التراجم الى المؤلفات الأصيلة التي تمخضت بها تلك الفترة لنجد اسم (الكندي) يكثر ترداده بين أسماء الباحثين والعلماء الطبيعيين آنذاك . وقد عزي الى (فيلسوف العرب) هذا ما لا يقل عن مئتين وستة وخمسين كتاباً ، خمسة من هذه الكتب على الاقل في علم الآثار العلوية وعدد

---

١٤) *Apollonius of Tyana* : فيلسوف اغريقي من الفيثاغوريين ولد قبل المسيح ببضع سنوات ورحل الى الشرق ووصل نينوى والهند ثم عاد ، ونسبت اليه خوارق الأعمال . (المعرب)

منها في الاوزان النوعية ، والتمدد ، والبصريات ، لا سيما في انعكاس الضوء (مطارح الشعاع) . وثمانية من هذه الكتب في علم الموسيقى . ومما يؤسف له إن المجموعة الكاملة لآثار الكندي العلمية مفقودة ، ولكن (بصرياته) التي وصلت الينا بترجمتها اللاتينية كان لها تأثير على (رجر بيكن) وغيره من رجال العلم الغربيين . وأخذت فنون الميكانيكا تتقدم بخطى حثيثة في بلاد ما بين النهرين ومصر حيث وُجدت أعمال الري وُشقت القنوات لتنظيم المياه وخزنها وتأمين المواصلات النهرية . واشتد الاهتمام بنظريات الميكانيكا الى أقصى درجة ووضعت كتب عديدة في طرق رفع المياه وإدارة الدواليب المائية والمقاييس والساعات المائية ، واول رسالة في الميكانيكا ميسورة ظهرت حوالي السنة ٨٦٠ م باسم (كتاب الحيل) لمؤلفيه الرياضيين (محمد وأحمد وحسن) أولاد (موسى بن شاكر) [١٥] الذين كانوا هم أنفسهم من أرباب الترجمة وحماتها . يحوي هذا الكتاب على مئة عملية ميكانيكيا ؛ عشرين واحدة منها ذات قيمة عملية ، منها ما يعالج أمور الاوعية ذات المياه الحارة والباردة والآبار ذات المستوى المائي المعين الثابت ، وأغلبها وصف لبعض الالعاب العلمية كأوعية الشرب المجهزة بآلة موسيقية وأشباهها المستندة الى القواعد الميكانية التي وصفها (هيرو الاسكندري) [١٦] . وظهرت خلال القرن الثامن أبحاث في تاريخ الطبيعة (علم الحيوان) ، أبحاث ذات طابع

---

١٥) برز أولا د موسى في ميادين الهندسة والميكانيكا . فالاكبر منهم محمد (ت ٨٦٨ م) تمهر في الهندسة والنجوم ، وغلب على (احمد) الاوسط ، صناعة الميكانيكا (الحيل) والابتكار فيها . أما الأصغر (حسن) فقد برز في الهندسة النظرية واستخرج مسائلها (انظر جزأي الموسيقى والرياضيات من هذا الكتاب) . (المعرب)

١٦) أو (هيرون *Hero*) عالم اغريقي في الهندسة والميكانيكا والطبيعة . ربما نبغ في النصف الثاني من القرن الاول الميلادي في زمن بطليموس الثاني. عزيت اليه مخترعات آلية عديدة(المعرب)

خاص وقد اتخذت شكل أبحاث في الحيوان والنبات والجماد جمعت لغايات أدبية ، إلا أنها كانت تستبطن معلومات قيمة ، ومن أشهر مؤلفي هذه الكتب الفيلولوجية العربية ، (الأصمعي) البصري (٧٤٠ – ٨٢٨ م) [١٧] الطائر الصيت . فقد الف كتباً في الخيل والجمال والوحوش والنبات والشجر والنخيل والكرم وخلق البشر ، والف غيره كتباً مماثلة ، وهناك كتاب (الفلاحة النبطية) الذي أثار اهتماماً وجدلاً كبيراً الفه (ابن وحشية [١٨] . عاش حوالي السنة ٨٠٠ م) . وهو يتضمن معلومات قيمة عن النبات والحيوان وطرق زراعتها وتنميتها وتكاثرها تمتزج بها مختلف الخرافات والترجمات عن البابلية وغيرها من المراجع السامية . وقد نقلت الى العربية الترجمة السريانية لمصنف (في الزراعة geoponica) الفه العالم البيزنطي (كاسيانوس بـاسوس: نبغ في ٥٥٠ م) نقله علماء متعددون . وبعد النقل العربي لكتاب (أرسطو) في (المعادن) الف كثير من علماء المسلمين كتباً عن الاحجار الكريمة التي تؤلف فصيلة علمية خاصة اسمها (الجواهر) ما لبثت بعدها أن ترجمت معاً . والف على غرارها في الغرب. وكل من سبق لنا ذكرهم من جابر حتى الكندي هم من مؤلفي مثل هذه الرسائل .

والف (الكندي) فضلا عما تقدم كتبـاً صغيرة في الحديد والصلب

---

١٧) طبع للأصمعي كتب علمية نذكر منها « الابل طبع ببيروت ١٣٢٢ هـ » و « أسماء الوحوش طبع بفيينا ١٨٨٨ م » و « الخيل . بفيينا سنة ١٨٩٥م والشاء ١٨٩٦ م والنبات والشجر ١٨٩٨ م والنخل والكرم ١٨٩٨ م في بيروت » . (المعرب)

١٨) أبو بكر احمد بن علي بن وحشية النبطي الكلداني من أهل العراق عرف بتأليفه في علم الفلاحة والكيمياء والسحر والسموم . (المعرب)

١٩) *Cassianus bassus* : عالم زراعي بيزنطي راجع كتب الاقدمين في مسائل الزراعة والنبات وجمع منها المصنف الكبير (جيوبونيكا) الذي بقي غير معروف حتى ذاع أمره في السنة ٩٥٠ م . (المعرب)

واستخدامهماأفي عمل السلاح ، وقد أدى التماس المباشر المتزايد بين امبراطورية الخليفة والاقاليم الجنوبية والشرقية (أي تركستان والهند وسواحل افريقية) الى تعاظم الرغبة في اقتناء الجواهر الكريمة وكثرة دراستها وزيادة المعلومات عنها . وما زالت الاسماء الحديثة للاحجار الكريمة تحمل أثر الاحتكاك بالعرب والفرس . فالبيروز (وهو بالفارسية باد ــ زهر معناه حرز من السم) . وهناك ما لا يحصى من العقاقير والنباتات لم تكن معروفة لدى الاغريق جاءت من ايران كالكافور (كلمة عربية أصلها فارسي) وعرق الكَلنكَة (بالفارسية خولينجات وهي مشتقة من المصطلح الصيني كوليناك جانك) الذي ورد من جزر السند ، والمسك وأصله من التبت ، وقصب السكر من الهند ، والكهرمان من سواحل المحيط الهندي . وظهرت رسائل في الصيدلة وفي تركيب السموم لكثير من كتاب العرب وعلمائهم الطبيعيين من (جابر بن حيان) فصاعداً . وكان العالم الاسلامي يستورد ورق الكتابة من الصين في غضون القرن الثامن الميلادي ، وفي العام ٧٩٤ م انشيء أول مصنع اسلامي لانتاج ورق الكتابة ببغداد .

العصر الذهبي ٩٠٠ ــ ١١٠٠ م تقريبا

في نهاية عصر الترجمة والنقل كان أطباء العالم الاسلامي وعلماؤهم قد كتبوا وهم على أسس مكينة من المعرفة بعلوم اليونان المتزايدة بمقدار كبير من الافكار والتجارب الفارسية والهندية كأصل . وبحلول هذا الزمن أخذوا يعتمدون على مصادرهم ومنابع علومهم الخاصة ويتقدمون بها بأنفسهم . وهنا راحت العلوم ، ولا سيما الطب ، تنتقل بسرعة من أيدي النصارى والصائبة الى أيدي علماء المسلمين ومعظمهم من سكنة بلاد فارس . ففي الطب صرنا نجد عوضاً عن المجموعات المأخوذة من المصادر العتيقة ــ موسوعات منتظمة صنفت فيها معارف الاجيال السابقة تصنيفاً دقيقاً ووضعت مقابل المعلومات الجديدة .

كان (الرازي) الكاتب المعروف عند اللاتين باسم Rhazes (٨٦٥ - ٩٢٥ م) أول وأعظم علماء هذه المدرسة الحديثة بلا مراء . وهو فارسي مسلم ولد في بلدة (الري) التي تقع قرب طهران الحالية . كان (الرازي) بلا جدال أعظم من أنجبته المدنية الاسلامية من الأطباء وأحد مشاهير أطباء العالم في كل زمن . وحين درس في بغداد وتلقى علومه على يد الاستاذ (حنين ابن اسحق) الذي كان طبيباً متمرساً في الحكمة اليونانية والفارسية والهندية ، وكان في مطلع شبابه من رواد الكيمياء، لكنه - بعد أن نبه ذكره في السنوات التالية واجتذب علمه التلاميذ والمرضى من آفاق آسيا الغربية كافة - انصرف بكليته الى الطب . كان واسع الاطلاع الى درجة الاحاطة بكل علم وفن . وكان منتوجه العلمي كثيراً حتى أنه أناف على مئتي كتاب نصفها طبي . وتتضمن مصنفات (الرازي) الطبية رسائل معتبرة عديدة عليها طابع العجلة والارتجال ، ان عناوينها وحدها تكشف عنصراً انسانياً لما يعده أكثر القراء مواضيع جافة . مثال ذلك كتاب : « في أن الطبيب الحاذق ليس هو من يقدر على إبراء جميع العلل فإن ذلك ليس في الوسع » و« مقالة في الاسباب المُميلة لقلب أكثر الناس من أفاضل الاطباء الى اخسّائهم » و« كتاب العلة التي لها تذم العوام الاطباء الحُذّق » و« رسالة لِمَ صار جُهال الاطباء والنساء في المدن أكثر من العلماء ؟ » [٢٠] التي هي من ضمن موضوعاته الخفيفة . ويبحث غير ذلك من رسائله أمراضاً مستقلة . مثال ذلك (الحصى المتولد في الكلى والمثاني) وهما حالتان كثيرتا الانتشار في الشرق الادنى . على أن أعظم

٢٠) ذكرت كتب العرب (للرازي) اسماء أكثر من مائة وعشرين كتاباً طبياً بالاضافة الى (١٠٤) في الفلسفة والطبيعة والموسيقى والفلك والرياضيات . ترجم « جيرار القرموني » له الى اللاتينية « المنصوري والمدخل في الطب ، والتقسيم ، والتشجير ، وكتاب الأسرار » فضلا عن (الحاوي) الذي ترجمه (فاراجوت سالم بن فرج الجرجنتي) . كما ورد في المتن . (المعرب)

ما خلفه لنا (الرازي) من آثار بلا شك هو (في الجدري والحصبة) . وقد ترجمت هذه الرسالة الى اللاتينية في زمن متقدم ثم نقلت بعدها الى لغات اخرى عديدة منها الانكليزية حيث طبعت بها حوالي اربعين مرة خلال (١٤٩٨ – ١٨٦٦ م) وبهذه الرسالة وصلنا اول وصف دقيق لهذين المرضين الوافدين الينا . وفقرة واحدة نقتبسها منه توضح للقارىء روح التنقيب والتعمق اللتين رافقتا تأليف الكتاب :

«يتقدمُ ثورانُ الجدري حُمى مُطبِقة ووجع الظهر وحُكَاكُ الأنف والتفزُّعُ من النوم وهذه أخص العلامات بكونه ؛ لا سيما وجعُ الظهر مع الحمى ثم النَخْس الذي يجد العليل في جميع جسده وامتلاءالوجهِ واربِداده حيناً، واشتعال اللون وشدة حمرة الوجنتين واحمرار العينين وثقِل الجسد كله وكثرة التململ. ومن علاماته التمطي والتثاؤب ووجعٌ في الحلق والصدر مع شيء من ضيق النفس والسعلة وجفوف الفم وغِلظ الريق وبحة الصوت والصداع وثقل الرأس والقلق والضجر . والغَثْيُ والكَرَب في الحصبة؛ أكثر منه في الجدري؛ ووجع الظهر في الجدري أخص منه بالحصبة [٢١] ...»

ويأتي (الرازي) بنصائح وافية لعلاج البثور بعد نهاية أعراض الجدري . هذه البثور هي في الواقع سبب وجود تلك الندوب والحُفر الجلدية على البشرة بعد انتهاء المرض وهذه الظاهرة منتشرة في الشرق مألوفة لا تستلفت النظر .

إن أعظم أثر طبي (للرازي) ، وربما كان أوسع ما توصل الى كتابته رجل طب ، هو كتاب (الحاوي في الطب) الذي يتضمن في الواقع كل ما توصل اليه الطب السرياني والعربي من معرفة واكتشافات . لا شك في أن (الرازي) كان يجمع في حياته الآراء والمعلومات من كتب الطب التي كان يعكف على قراءتها والنظر فيها . فيدرجها جنباً إلى جنب مع تجاريبه الطبية

٢١) أنظر رسالة الجدري والحصبة طبعت ببيروت ١٨٧٢م باعتناء الدكتور فانديك (المعرب)

بجمعها كلها في أواخر أيامه ويعمل منها هذا الكتاب المدرسي العظيم . ان كتب التاريخ والاخبار العربية تقول انه لم يكمل هذا الأثر اذ أدركته الوفاة فأكمله تلاميذه ووضعوه بشكله النهائي الذي لم يصلنا منه غير عشر مجلدات من أصل عشرين مجلداً ، وهذه المجلدات العشرة مبعثرة في ثماني مكتبات عامة أو أكثر .

ولم يبق معروفاً بعد نصف القرن الذي عقِب وفاة (الرازي) إلا أثران كاملان من آثاره، ولكني وجدت بنفسي ملحوظة في كتاب أحد الاطباء الكحالين من أسرة (بختيشوع) في السنة ١٠٧٠ م تقريباً مؤداها أن هـذا (الكحّال) رجع في مناسبات معينة، الى خمس نسخ من فصل (العيون) في كتاب (الحاوي) . كان (الرازي) عندما يريد الكتابة عن أي مرض،ينقل أولاً جميع أقوال العلماء والمؤلفين اليونان والسريان والعرب والهنود والفرس وبالاخير يدلي برأيه وتجاربه حيث انه كان يحتفظ بأمثلة عديدة رائعة جاءت نتيجة علاجه وتشخيصه الرائع .

ترجم (الحاوي) الى اللاتينية بأمر ورعاية (شارل الاول) سليل آنجو ، ترجمه طبيب يهودي من صقلية اسمه (فرج بن سالم) (فراجوت الجرجنتي) الذي لم ينجز عمله العظيم إلا السنة ١٢٧٩ م واستبدل لفظة الحاوي بمقابلها اليونانية continens .

ان أعظم كتب (الرازي) هذا ، انتشر في القرون التالية على شكل مخطوطات لا عدّ لها . ثم أخذ يطبع باستمرار ابتداء من السنة ١٤٨٦ م . وما أن جاءت السنة ١٥٤٢ م حتى كان يوجد من هذا الكتاب العظيم النفيس خمس طبعات ، عدا أجزاء منه كثيرة طبعت منفصلة . لذا كان أثره في الطب الاوروبي جد عظيم . وترك (الرازي) فضلاً عن مؤلفاته الطبية ، أبحاثاً في اللاهوت والفلسفة والحساب والفلك والطبيعيات . وعالج في هذه الناحية مواضيع المادة والفراغ

والوقت والحركة والغذاء والنمو والفساد وعلم المعادن والضوء والبصريات وكيمياء الذهب . ولم تتضح أهمية كتاب الرازي في الكيميا إلا في غضون السنوات القلائل الاخيرة ، وعثر على كتابه العظيم في (فنون الكيميا) مؤخراً في مكتبة أمير هندي . ومع أن (الرازي) كان يعتمد أحياناً على المصادر التي اعتمدها (جابر بن حيان) إلا أنه فاق (جابر) دقة في تصنيف المواد الكيمية ووصفه الواضح لتجاربها وأجهزتها البسيطة التركيب الخالية من أي صفة سرية. وبينما كان (جابر) وغيره من علماء العرب في الكيميا يقسمون المعادن الى أجسام : كالذهب والفضة . وارواح : كالكبريت والزرنيخ وغير ذلك . وخلاصات : كالزئبق وروح النشادر ، نجد (الرازي) يصنف المواد الكيمية ثلاثة أصناف (نباتية وحيوانية ومعدنية) ، وقد وصلنا هذا التصنيف من (الرازي) وما زال حتى الآن ثابتاً في العلم الحديث . يعود (الرازي) فيقسم المعادن الى خلاصات وأجسام وأحجار ، وزاج وبَوْرق وملح. ثم يفرق بين الاجسام الطيارة والخلاصات غير الطيارة ويضع في هذا القسم الزرنيخ والزئبق والكبريت . وثمّ مؤلف شهير آخر يقف من(الرازي)موقف الأقران عرفه الغرب باسم (اسحق اليهودي : ٨٥٥ ــ ٩٥٥ م) [٢٢] . كان هذا الاسرائيلي المصري طبيباً لامراء الفاطميين في القيروان بتونس . ومصنفاته هي من أوائل الكتب العربية المترجمة الى اللاتينية أتم نقلها (قسطنطين الافريقي) حوالي السنة ١٠٨٠ م . وكان لها أقوى التأثير في طب اوروبا القرون الوسطى وبقيت تُقرأ حتى القرن السابع عشر . وكانت من جملة المراجع التي اقتبس منها (روبرت برتون : ١٥٨٧ ــ ١٦٤٠ م) [٢٣] بكل حرية في كتابه (شرح مرض

٢٢) *Isaac Judaeus* ويسميه العرب اسحق الاسرائيلي ولد في مصر ومارس الطب القيروان في زمان زيادة الله وعبيد الله المهدي (ابن أصيبعة ج ٢ ص ٣٦٢) . (المعرب)

٢٣) *Robert Burton* : قس انكليزي ولد في لندلي . وتفرغ للكتابة والبحث . وفي سنة ١٦٢١ م أصدر كتابه « شرح مرض الكآبة » . (المعرب)

الكآبة) . ان كتب اسحق في الحميات وفي العناصر وفي الادوية المفردة وفي الاغذية ـ وأجدرها بالذكر رسالته في (البول) ، آثار سيطرت على مغاليق صناعة الطب قروناً عدة . وأطرف شيء هو كراسه « مرشد الاطباء » الذي لم تصلنا منه غير ترجمته العبرية ففيه يظهر ادراكاً تاماً علمياً لمهنة الطب، وان بعض نصائحه المثبتة في هذا الكتاب جديرة بالذكر :

« إن نزلتْ مصيبةٌ بطبيب فلا تفتحنَّ فَمَكَ بلَوْمه فلكل امرء ساعتُه » ، « فليسمُ بكَ عقلُكَ وجِدُّك ولا تبحثْ عن الشهرة بطريقِ انتقاص الآخرين » « لا تتردد في عيادة فقيرٍ أو معالجته ، إذ ليس ثم عمل أشرفُ من هذا » ، « أدخِلِ الطمأنينةَ الى قلب المريض المتألم ومَنِّيه بالشفاء، وإنْ لم تكن صناعتك واثقةً من شفائه لانك بذلك تساعد قواه الروحية على المقاومة » .

وهناك نصيحة أخرى في غاية الاهمية بالنسبة الى المرضى الشرقيين وهي : « اطلب أجرك لما يكون المرض في أخطر مراحله لان المريض ينسى ما فعلت لأجله متى أبلَّ » .

وكان (ابن الجزّار العربي المسلم : ت ١٠٠٩ م) [٢٤] أعظم تلاميذ (اسحق الاسرائيلي) ، وكتابه الاعظم «زاد المسافر» ترجم الى اللاتينية بين الرعيل الاول من المترجمات باسم (فياتكوم: viaticum) والى اليونانية باسم (إيفوديا ephodia) والى العبرية . وكان معروفاً ذائعاً بين أطباء القرون الوسطى لانه يحوي معلومات جيدة جداً عن الامراض الباطنية . ولكن مترجمه (قسطنطين) انتحله وعزاه لنفسه ولم يضع عليه اسم مؤلفه الحقيقي . ان الابحاث الكيمية التي تنسب الى اسم (جابر) ظلت مصدر حيرة للعلماء مدة طويلة ، فلو كان (جابر) هو اسم الصوفي الذي ظهر في القرن الثامن ، فمن

---

٢٤) ابو جعفر احمد بن ابراهيم بن ابي خالد الطبيب الاندلسي القراوي تلميذ اسحق الاسرائيلي . (المعرب)

الصعب علينا ان نفهم كيف استطاع هذا المرء أن يلم بالعلوم الكيمية اليونانية التي لم تزل غير ميسورة حتى ذلك الزمن . لقد ذكر فيما سبق ان الادلة قد توفرت لدينا الآن في أن الأبحاث المعزوة الى (جابر) لم تظهر للملأ إلا في غرة القرن العاشر . ويظهر انها من عمل جمعية سرية شبيهة بالجمعية المسماة (اخوان الصفا) . ففي الكتاب الطبيعي المنسوب (لجابر) نجد المقتبسات والمراجع من علماء اليونان فقط ، ولكن العبارة لا تمت اليهم بصلة . ويبدو منها اتجاه شديد الوضوح للبحث والتعمق ومن النادر أن نجد فيها اسماء العقاقير السريانية والهندية ، ولكنها زاخرة بالمصطلحات الفارسية . فلا مفر لنا من اعتبار هذا الكتاب النفيس خليطاً من البحوث اليونانية والمعارف التجريبية الفارسية في الطب وتأثير السموم . ومهما يكن من أمر ، فهو بلا شك آخر حلقة من سلسلة طويلة للتقدم العلمي في الفترة التي سبقت عصر الاسلام وما بعدها . ان شهرة (جابر) العالمية تنحصر في انه أبو الكيميا العربية . وكلمة الكيميا مشتقة كما زعموا – من اللفظة المصرية (كاميت) او (كميت) ومعناها (الاسود) وقيل انها جاءت من اللفظة اليونانية (جيما chyma) [٢٥] ومعناها المعدن الذائب . ان الفروض الاساسية التي بنى عليها الباحثون المصريون واليونانيون هذا العلم هي ما يأتي :

(١) المعادن كلها بالاصل من معدن واحد فتحويل أحدها الى الآخر ممكن
(٢) الذهب أنقى المعادن ، يليه الفضة .
(٣) هنالك مادة في الامكان جعلها عاملاً مساعداً لتغيير المعادن الرخيصة الى معادن نقية بصورة مستمرة .

---

٢٥) حرف الاغريق لفظة كميت المصرية (كم : أسود والتاء للتأنيث) . واستخدمها من سكن منهم الاسكندرية في عهد البطالسة للدلالة على الصناعة التي اشتهر بها المصريون من قديم الزمان . ولم يكن علم الكيميا معروفاً قبل نهاية القرن الثالث للميلاد . وأقدم ما وصلنا من الأخبار عن ذلك ، أمر أصدره الامبراطور ديوكليسيان في السنة ٢٩٦م يقضي بحرق كتب المصريين الكيمية . فأصل العلم هو (مصر) بلا مماراة . (المعرب)

هذه المكتشفات لها قابلية لاثارة سلسلة من التجارب لازمها لسوء الحظ ميل مفرط الى التجريد النظري فضلاً عن أن بعض الميول الصوفية المأخوذة من فلاسفة الافلاطونية الحديثة والمذهب الغنوصي في (الاسكندرية) المركز الثقافي اليوناني ، وفي البلاد الخاضعة للحكم الاسلامي ، كان لها تأثير قاطع جداً على الروح التجريبية . فانقلبت الكيميا التي كانت في يد (جابر) من مجرد بحث علمي تجريبي وموضوع صناعة محاطاً بالكتمان ، الى ممارسة للخرافات حتى انتهى أخيراً الى شعوذة ودجل .

وصلنا حوالي مئة كتاب من المؤلفات الكيمية المعزوة (لجابر) أكثرها صغير الحجم ، لكنه خليط مشوش من الخرافات الصبيانية . ولكن هناك غيرها ثبت أن مؤلفها كان يدرك بوضوح كلي ويعرض بشكل سافر لا شبهة فيه أهمية التجارب العلمية أكثر من أي كيمي آخر من الاوائل . وبهذا السبيل استطاع أن يحقق تقدماً جديراً بالذكر في الناحيتين العلمية والنظرية من الموضوع . إن تأثيره يمكن تقصيه في شتى مراحل تاريخي الكيمياء وكيميا تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب (alchemy) الاوروبيين . فمن الناحية العملية وصف (جابر) طرقاً محسنة للتصعيد والتقطير والترشيح والتذويب والتبلّر والتبخر ، ووصف طرق تحضير كثير من المركبات الكيمية كالسنابار (كبريتات الزئبق) واكسيد الزرنيخ وغيرها وعرف كيف يحصل على الزاج الازرق النقي تقريباً وهو ما يدعي (بكبريتات النحاس) والشب والقلو (الهيدروكسيد) وملح النشادر (هيدروكلوريد الامونيوم) وملح البارود (نترات البوتاس) وكيفية تحضير كبد الكبريت او حليبه عن طريق تسخين الكبريت مع مركب كيمي قلوي . وتوصل أيضاً الى تحضير اكسيد الزئبق والسبلمة (السليماني) فضلاً عن مركب «خلات الرصاص» وغيرها من المعادن أحياناً على شكل بلوري . وكان يعرف كيف يحضر الكبريت الخام

وحوامض التريك وكيف يعمل خليطاً من تلك الحوامض يدعى بماء الملك ، واختبر قابلية ذوبان الذهب والفضة في هذا المزيج الحامضي . انتقلت عدة مصطلحات علمية من أبحاث (جابر) العربية الى اللغات الاوربية عن طريق اللغة اللاتينية ، منهـا الريالكار realgar (كبريتيد الزرنيخ الاحمر) [٢٦] والتوتياء (اكسيد الزنك) وملح الانتيمون (بالعربية – الأثمد) والامبيق والودِل (القسم الاعلى والاسفل من جهاز التقطير) وظهرت مواد كيمية في كتب (جابر) لم تكن معروفة عند اليونان منها (ملح النشادر sal-ammoniac) و (الامونياكون ammoniacon) اليوناني وهو ملح الحجر . والظاهر ان واسطة نقل الاسم القديم الى الملح الجديد كانت السريان وليس في المستطاع أن نقدر مجهودات (جابر) في الكيمياء حقّ قدرها إلا بعد طبع آثاره الكيمية غير منقوصة ولا سيما كتاب (السبعين) . هذه المجموعة التي تضم سبعين بحثاً بقيت حتى الآن معروفة بترجمة ناقصة ركيكة . إن كاتب هذا البحث وفقه الحظ في العثور على الاصل العربي الكامل لهـذه الترجمة .

ان الكتابات الكيمية التي حملت اسم (جابر) ما لبثت أن تُرجمت الى اللاتينية ، وكان اولى تلك التراجم « كتاب صناعة الكيميا » عمله (روبرت الجستري) الانكليزي [٢٧] السنة ١١٤٤ م أما الترجمة اللاتينية لكتاب

---

٢٦) أصل الكلمة عربي وهي (رهج الغار : بفتح الراء وضم الهاء) اي تراب الغار . والغار هو شجر طيب الرائحة من فصيلة الغاريات ، ينبت برياً وورقه دائم الخضرة زكي الرائحة فيه صلابة (المعرب) .

٢٧) *Robert Chester* عالم انكليزي درس مدة طويلة في اسبانيا ، أتم ترجمة القرآن في القرن الثاني عشر ونقل في ١١٤٤ م اول كتاب عربي في الكيمياء. ان المقصود بالكيمياء هنا ، تلك المادة التي تؤثر على المعادن الرخيصة فتحيلها ذهباً (انظر المتن). وكان العرب يسمون المادة التي تدخل كعامل مساعد في هذه العملية بالاكسير . اما الاوروبيون فأطلقوا عليها اسم حجر الفلاسفة ، أو الصيغة *Tincture* وهي صيغة ما زالت دارجة الاستعمال في الصيدلية الحديثة (المعرب)

(السبعين) فقد كان من عمل (جيرار القرموني) الشهير في السنة ١١٨٧م وثم كتاب آخر اسمه (شمس الكمال) يعزوه مترجمه الانكليزي (رشارد رسل: ١٦٧٨ م) الى (جابر) الذي كنّــاه « بجبر Geber أشهر أمراء العرب وفلاسفتهم » . ظهرت مؤخراً أدلة كثيرة تربط (جبر) المعروف عند كُتّاب اللاتين ، بالكيميين العرب . وهذه الادلة كانت بقلم الدكتور (إي . جي. هوليارد Dr. E. J. Holmyard) وظهر في زمن الخلافة الشرقية(خلافة بغداد) جيل من الاطباء طبقت شهرته الآفاق نذكر منه ، أولاً : الفارسي المسلم (علي بن العباس) [٢٨] المعروف في العالم اللاتيني باسم (هالي أبّاس Haly Abbas : ت سنة ٩٩٤ م) فقد الف موسوعة ممتازة متقنة سماها (كامل الصناعة الطبية) وعرفت عند اللاتين باسم (الكتاب الملكي liber regius) يعالج شؤون الطب العملية والنظرية معاً ويبتديء بفصل من أطرف الفصول وأجلّها ، يتضمن نقداً مبسطاً للرسائل الطبية العربية واليونانية السابقة . وترجم هذا الكتاب مرتين الى اللاتينية في زمن متقدم لكن كتاب ابن سينا ما لبث ان حل محله .

ومع أن (أبا علي الحسين بن سينا) المعروف لدى العالم العربي باسمه الذي طبق الآفاق(آفسينّا : ٩٨٠ — ١٠٣٨ م) وهو أحد عباقرة المسلمين كان فيلسوفاً أكثر منه طبيباً . فما لا مراء فيه أن تأثيره على الطب الاوروبي كان

---

٢٨) علي بن عباس طبيب فارسي مجوسي أهوازي ذكرت كتب العرب أنه كان تلميذاً للطبيب الشهير (أبي ماهر موسى بن سيار). والكتاب (الملكي)الذي الفه لعضد الدولة البويهي ، فيه مكتشفات طبية عظيمة جدا . فقد اتضح للباحثين انه سبق ابن النفيس (من اطباء القرن الثالث عشر العرب) في وصف الدورة الدموية الصغرى اثناء كلامه عن وظيفتيّ الانقباض والانبساط (الشهيق والزفير) فهو بهذا استاذ (وليم هارفي)الانكليزي . وكان اول من كتب عن علاج الورم المسمى انورسما (انوريزم) بالجراحة ووصف العملية . كذلك وصف علاج كسر الفك الاسفل بالتجبير . وعملية تفتيت الرأس في الأجنة ذوات الرؤوس الضخمة عند التعسر . وذكر أشياء جديدة عن كيفية التوليد . وعن امراض النساء واورام الرحم والتهابات الفتق . واجاد في وصف عملية استئصال اللوزتين (بالخل كمعقم وحيد) الخ .. (المعرب)

شاملاً بعيداً . لقد ركز (ابن سينا) تراث المعرفة الطبية الاغريقية بالأضافة الى معارف العرب وصبها كلها في كتابه الضخم (القانون في الطب) وهو في الحقيقة مفخرة التفكير العربي المنظم ونهاية ما وصل اليه من عبقرية . ان هذه الموسوعة الطبية كانت تشتمل ببحوثها ، الطب بصورة عامة والادوية المفردة والامراض التي تنتاب جميع أجزاء الجسم من الرأس الى القدم ، وابحاث في الباثالوجي ، والصيدلة .

ان الطريقة التي صنف بها كتاب القانون معقدة جداً ، ولنا ان نقول ان مسؤولية هوَس الكتاب الغربيين بالتقسيمات والتفريعات في البحث انما تقع على عاتق مؤلف كتاب(القانون). ترجم (جيرار القرموني) كتاب (القانون) الى اللاتينية في القرن الثاني عشر ، وترجمته موجودة في نسخ خطيـــة لا تحصى . وشدة الطلب عليه تتضح من كونه قد طبع في آخر ثلاثين سنة من القرن الخامس عشر ست عشرة طبعة ، واحدة منها باللغة العبرية والباقي باللاتينية . وفي غضون القرن السادس عشر اعيد طبعه أكثر من عشرين مرة ، ولا يدخل في هذه الارقام طبع أجزاء متفرقة من الكتاب . أما التعليقات باللغتين العبرية واللاتينية وباللغات المحلية الدارجة آنذاك على المطبوع منه سواء بسواء ، فمما لا يدخل تحت حصر . واستمر طبعه حتى النصف الاخير من القرن السادس عشر ، وربما لم يُكتب من قبل كتاب كان مثله موضع دراسة طويلة دائبة ، وما زال رائج الاستعمال في الشرق. لقد عرف زهاء خمسة عشر كتاباً طبياً (لابن سينا) عدا هذا الكتاب ، فضلاً عن قرابة مئة أخرى في علم الآلهيات والفقه وما وراء الطبيعة والفلك واللغات كلها تقريباً كتبت بالعربية خلا بعض المنظومات الشعرية باللغة الفارسية وهي لغة صار لها بعض الاهمية خلال القرن العاشر ، وبلغ الطب العربي أوجه في الشرق بفضل ابن (سينا) شيخ الاطباء وأميرهم . انك لتجد قبر هذا الطبيب حتى الآن في همدان (غربي ايران) تزينه الأدعية الدينية المنقوشة على حافته .

وبينما كان العالم الاسلامي في الشرق ينال بالتدريج السيادة الطبية ، كان الغرب الاسلامي يتقدم كذلك ليصير مركزاً ثانياً لهذا العالم . ففي اسبانيا أيام الحكم الذهبي للخليفتين (عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني) بقرطبة ، كان (حسداي بن شبروت اليهودي : ت حوالي السنة ٩٩٠ م) وزيراً وطبيب البلاط وحامي حمى العلم في الوقت نفسه . ترجم في سني شبابه بمعونة الراهب (نيقولاس) الكتاب الرائع « مسائل الطب materia medica » (لديوسقوريدس) الى العربية ، وكانت نسخة هذا الكتاب هدية دبلوماتية [٢٩] أرسلها اليه (قسطنطين السابع البيزنطي) . وخلفه (ابن جُلْجُل) طبيب البلاط الاموي وأحد المؤلفين في تاريخ الطب ، فنقّح هذه الترجمة وعمل لها شرحاً. أما المسلم المعروف عند علماء اللاتين باسم (أبولكسيس[٣٠] Abulcasis : ت حوالي ١٠١٣ م) فقد كان كذلك طبيب أمير قرطبة . ويقرن اسمه الى الكتاب العظيم التصريف Medical Vade Mecum ويقع في ثلاثين فصلاً ، آخر فصل منها يعالج موضوع الجراحة وهو الفن الذي أهمله المؤلفون العرب حتى ذلك الحين .

---

٢٩) كان ارسال الكتاب المذكور قد تم السنة ٩٥١ م=٣٤٠ ه . قال ابن جلجل الطبيب الشهير (ابو داود سليمان بن جلجل الاندلسي القرطبي) «انهذه النسخة التي ترجمها (حسداي) تفضل على تلك التي ترجمها(اسطيفان بن باسيل)للمتوكل العباسي في انها حوتاسماء الادوية التي كان ابن باسيل قد جهلها واغفلها ولم يضع اسماءها بالعربية» . (المعرب)

٣٠) هو ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (ت ٤٠٤ ه) كتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) جعله في مقدمة الجراحيين العالميين في القرون الوسطى . وكان لعدة قرون عمدة الجراحة والتدريس في اوربا عصر النهضة حتى مطلع القرن السابع عشر . وهو اول من علم طريقة استئصال الحصى المثانية عن طريق المهبل ووصف الاستعداد الخاص عند بعض النساء للنزف (هيموفيليا) وقد مارس عملية شق القصبة الهوائية (تراكيومي) على احد خدمه بنجاح . كما مارس عملية تفتيت الحصى المثانية . وترجم كتابه هذا عدة مرات الى اللاتينية وطبع في فينيا ١٤٩٧ م وبازل ١٥٤١ م واوكزبرغ ١٥١٩ م . (المعرب)

أن رسالة أبي القاسم الجراحية وأغلبها مستند على الكتاب السادس (لبولس الاجنيطي) لكن باضافات وزيادات لاتحصى . وتضمن مصنفه وصفاً وصوراً للآلات الجراحية التي كان لها كبير تأثير على غيره من المؤلفين العرب وساعدت على الاخص في وضع أسس الجراحة في اوربا . وترجمت الى اللاتينية والبروفنسية والعبرية في زمن متقدم . وعلّق الجراحي الفرنسي العظيم (كي . دي شولياك [٣١] : ١٣٠٠ – ١٣٦٨ م) على الترجمة اللاتينية في احدى مصنفاته .

حصل نشاط طبي عظيم في مصر وسوريا والعراق خلال القرن الحادي عشر ، فألف (علي بن رضوان [٣٢] القاهري : ت حوالي ١٠٦٧ م) المعروف عند اللاتين باسم Haly Rodoam تقويماً للطب في مصر وكان أحد التلاميذ المتحمسين لجالينوس ولغيره من كتاب اليونان . وصرح بان المرء يستطيع أن يكون طبيباً نطاسياً بدراسة كتب الاوائل في الطب فحسب . هذا الرأي ، أثار بينه وبين زميليه في بغداد (ابن بطلان : ت حوالي ١٠٦٣ م) جدلاً عنيفاً طويل الأمد . ان تعليق (ابن رضوان) على كتاب (جالينوس)

---

٣١) جراحي فرنسي شهير الف كتابه المعروف باسم (التشريح الاكبر سنة ١٣٦٣ م) اعتمد فيه على آثار الطب العربي . حتى عدد له احد الباحثين اكثر من مائتي استشهاد باقوال أبي القاسم الزهراوي . (المعرب)

٣٢) لا يذكر اسم ابن رضوان الا مقروناً باسم ابن بطلان والعكس بالعكس . كان (الحسن علي بن رضوان)القاهري منجما قبل أن ينصرف للطب وعرف بتأليفه عدة كتب طبية منها (دفع مضار الابدان بارض مصر) . احتدمت المناقشة بينه وبين(ابن بطلان ابي الحسن المختار)الطبيب البغدادي النصراني . فما الف أحدهما كتاباً الا حمل عليه الآخر وسفهه وانتقده، ثم سار ابن بطلان الى مصر ووصل الفسطاط في السنة ٤٤١ هـ زمن المستنصر بالله الفاطمي فأقام فيها ثلاث سنوات واستؤنفت أثناءها المناظرات العلمية مع ابن رضوان وضمنها الاول كتاباً عند خروجه. بدأت مناقشة هذين الطبيبين بالعلم وانتهت بالمنابزة والمهاترة فتهاجيا وتبادلا الشتائم . طبع كتاب ابن بطلان (دعوة الاطباء) باعتناء الدكتور بشارة زلزل بالمطبعة الخديوية السنة ١٩٠١م . (المعرب)

(العلوم أو الفنون الصغيرة ars parva) مع كتاب (مجمل تقويم الطب) التحفة العلمية البديعة ، ترجما كلاهما الى اللغة اللاتينية .

وقبل أن نمضي عن هذه الفترة من الطب الاسلامي ، علينا أن نبحث في بعض المنتوج العلمي الذي لا يمت الى الطب بصلة ، فنأتي أولاً الى الرسائل في الادوية البسيطة التي تؤلف أقساماً من الموسوعات الكبيرة المؤلفة والتي صنفت أيضاً بكتب ومجموعات مستقلة الكيان كتبتها سلسلة من الاعلام المفكرين المسلمين ظلت تحتل في الشرق حتى الآن مكانة مرموقة . الف أبو منصور موفق الهراتي (من هرات في فارس) حوالي السنة ٩٧٥ م، مجموعة بالفارسية اسمها (أسس الخواص الحقيقية للعلاجات) وصف فيها خمسمائة وخمسة وثمانين عقاراً. وقد احتوت أيضاً على معارف يونانية وسريانية وعربية وفارسية وهندية . وهي فضلاً عن ذلك اول مثال للنثر الفني الفارسي الحديث. وثم رسائل عربية من هذا النوع نفسه نذكر منها رسائل (ماسويه المارديني[٣٣] البغدادي والقاهري ت ١٠١٥ م) و (ابن وافد) [٣٤] في اسبانيا (ت حوالي ١٠٧٤ م) وكلاهما معروف معرفة جيدة بتراجمهما اللاتينية وقد طبعا معاً في قرابة خمسين طبعة أو أكثر . وظهرا باللاتينية موسومين بالعنوانين الآتيين (المباديء العامة والخاصة للطب لموسى الاصغر) وكتاب (العقاقير البسيطة) (لآبنكوفت Abenguefit) .

---

٣٣) ويدعى بالاصغر تفريقا له عن (يوحنا بن ماسويه).درس الطب ببغداد ومارس زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله وتوفي في القاهرة. واشهر تآ ليفه مجموعة مختصرة للوصفات الطبية ترجمت الى اللاتينية ويكاد يكون اسمه مجهولا من العرب بينما سطع اسمه في اوروبا(القرن الحادي عشر) وكان في مقدمة من ترجم لهم الى اللاتينية . (المعرب)

٣٤) ابن وافد (٣٨٥ – ٤٦٧ هـ : ٩٩٤ – ١٠٧٤ م) هو الوزير ابو المطرف عبد الرحمن محمد بن وافد اللخمي الاندلسي الطليطلي، تمهر بعلم الادوية المفردة وكان طبيباً حاذقاً عرف برأيه في الابتعاد عن الادوية قدر الامكان والاخذ بأسباب الوقاية . (المعرب)

كانت (الكِحالة) فرعاً آخراً من فروع الطب بلغ أوجه حوالي ١٠٠٠ م . لقد خلف لنا الكَحّال المسيحي (علي بن عيسى) [٣٥] البغدادي المعروف لدى اللاتين باسم (جيزوهالي Jesu Haly) والمسلم (عمّار الموصلي) [٣٦] المعروف باسم (كاناموصلي Canamusali) رسالتين ممتازتين أضافا بها الى معلومات الاغريق في قسم طب العيون ، زيادات وعمليات جراحية وملاحظات شخصية عديدة لا تحصى . ترجمت كلتاهما الى اللاتينية وبقيتا من أحسن الكتب المدرسية في أمراض العين حتّى النصف الاول من القرن الثامن عشر عندما بدأ عهد الاحياء في طب العيون بفرنسا .

نوهنا في بحثنا عن العلوم بما حققه (الرازي) و(جابر) في الكيمياء . إن أعظم شخصيتين في ذلك العصر وهما (ابن سينا والبيروني) كانا من أشد المعارضين في الاشتغال بهذا العلم . أما من الجهة الاخرى فنحن مدينون (لابن سينا) برسالته في تكوّن الجبال والاحجار والمعادن وكان من الاهمية بمكان لتاريخ علم الجيولوجيا ، في مناقشته تأثير الزلزال والريح والماء ودرجة الحرارة والرواسب والتحجر والتعرية .

كان (أبو ريحان محمد البيروني : ٩٧٣ – ١٠٤٨ م) الملقب بالأستاذ ، طبيباً فارسياً وفلكياً ورياضياً وعالماً طبيعياً وجغرافياً ومؤرخاً . وربما كان أشهر شخصية من العباقرة المسلمين العالميين الواسعي الاطلاع ومن أولئك

---

٣٥) من تلاميذ حنين ، قدم بغداد السنة ٣٥٠ هـ : ٩٦١ م . وكتابه (تذكرة الكحالين) طبع مع ترجمة الى اللاتينية باعتناء الاستاذ هل *K. A. Hill* في درسدن السنة ١٨٥٤ م . (انظر ابن اصيبعة ج ١ ص ٢٤٧ ، والقفطي ص ١٦٤ . (المعرب)

٣٦) هو ابو القاسم عمار بن علي ولد في الموصل وتعاطى الطب في القاهرة وتوفي السنة (٤٠٠ هـ : ١٠٠٩ م) في كتابه (المنتخب في علاج العين) مكتشفات طبية رائعة ، منها ممارسته لعملية الكترا كتا (قدح العين) بنجاح ، واختراعه لذلك ابرة مجوفة لا يكون استعمالها خطرا على الاغشية العينية . (المعرب)

العلماء الذين نشروا ظلهم الوارف على العصر الذهبي للاسلام وكسوه بطابعهم. ان كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ودراساته الهندية ، معروفة في ترجمات انكليزية متقنة وينتظر كثير من أبحاثه الرياضية ومصنفاته الاخرى التي لا تحصى ، دوره ليُطبع ويُنشر . توصل (البيروني) في الفيزياء الى تحديد الاوزان النوعية لثمانية عشر معدناً وحجراً كريماً تحديداً صائباً [٣٧] .

وفي مكتبة الاسكريال كتاب كبير عن الاحجار الكريمة يتضمن وصفاً لعدد كبير من الاحجار الكريمة ما يزال مخطوطاً لكنه كامل [٣٨] . يصف الاحجار الكريمة والمعادن الثمينة من الناحية الطبيعية والتجارية والطبية ، والف كذلك في الأدوية . ومن المحقق انه يمكننا الحصول على معلومات مهمة من كتبه غير المطبوعة عن أصل الاحجار والعقاقير الهندية والصينية التي ظهرت في أوائل المصنفات العربية .

كان (المسعودي : ت في القاهرة ٩٥٧ م) «بليني» العرب[٣٩] بأدق ما في التشبيه من معنى ، ففي مؤلفه (مروج الذهب) وصفٌ للزلزال ومياه البحر الميت وطواحين الريح الاولى التي ربما كانت من مبتكرات الشعوب الاسلامية وقدّم ما وصف بعد ذلك بانه أصل نظرية التطور . وكتب (اخوان الصفا)

---

٣٧) كان البيروني لتحديد الوزن النوعي ، يعمد الى وزن الجسم في الهواء ، ثم الى وزنه في الماء بعد ان يدخله في وعاء مخروطي الشكل منقوب على علو معين . وبعدئذ يزن الماء الذي أزاحه ذلك الجسم ، وفي الماء المزاح كان يعرف حجم الجسم ، ومن قسمة وزن الجسم في الهواء على وزن الماء المزاح يخرج الوزن النوعي (يدعوه الثقل النوعي) للجسم الموزون بطريقة قريبة جدا من الصواب ، يدل على ذلك جدول بسيط مقارن باوزان مختلف المواد التي وزنها . (المعرب)

٣٨) وهو كتاب « الجماهر في معرفة الجواهر »المطبوع سنة ١٩٣٨م بحيدر آباد الدكن. (المعرب)

٣٩) *Pliny* (٢٣ – ٧٩ م) هو كايوس بلينوس سكندروس اعظم مؤرخي الرومان . الرومان وجغرافييهم وعلمائهم الطبيعيين . كتابه التاريخ الطبيعي *Historia Naturalia* اشهر من ان يعرف . (المعرب)

وهي جمعية سرية فلسفية اسست في العراق في القرن العاشر دائرة معارف مؤلفة من اثنتين وخمسين رسالة : سبع عشرة منها عالجت علوم الطبيعة على الطريقة اليونانية بصورة رئيسة . اننا لنجد هنا مناقشات عن أصل المعـــادن والزلزال وظاهرتي المد والجزر والآثار العلوية والعناصر وكلها أوجدت لها علاقة مع الكرات السماوية والاجسام . ومع أن آثار (اخوان الصفا) احرقت في بغداد بأمر من رجال الدين المسلمين المتنطعين ، فقد انتشرت مع ذلك حتى تعدت اسبانيا وكان لها تأثير على الفكر العلمي والفلسفي . وكانت الساعات المائية تصنع بكثرة في بلاد المسلمين ، وقدم سفراء (هرون الرشيد) احداها هدية (لشارلمان) . وعلينا ان نذكر هنا الفيلسوف التركي المسلم الشهير (الفارابي : ت حوالي ٩٥١ م) الذي كان لرسالته في الموسيقى أعظم أثر في نظرية الموسيقى . والف كذلك كتاباً مهماً في (احصاء العلـــوم) وتبعه كتابان آخران شبيهان به هما كتاب « مفاتيح العلوم » كتبه (محمد الخوارزمي : ت ٩٧٦م) ، والثاني هو المصنف الشهير « فهرست العلوم » (لابن النديم : ت ٩٨٨ م) والاخير ذو أهمية عظيمة جداً في تعريفنا بأوائل علماء الاسلام والاغريق وفلاسفتهم . وصل علم البصريات الى الاوج بظهور (ابن الهيثم أبي علي الحسن البصري في ٩٧٦م)[٤٠] المسمى بـ (الهازن) الذي نزح الى القاهرة ودخل خدمة الخليفة الفاطمي (الحاكم : ٩٩٦ ـــ ١٠٢٠ م) وحاول ان

---

٤٠) ابن الهيثم البصري (٣٥٤ – ٤٢٩ هـ : ٩٦٥ – ١٠٣٨ م) ابو علي بن الحسن العالم الهندسي المعروف ، وصفته دائرة المعارف البريطانية بأنه رائد في علم البصريات بعد بطليموس ، وهو في الواقع اعظم الطبيعيين العرب ومن علماء العالم في البصريات . كان اول من رتب أقسام العين ورسمها بوضوح تام . ووضع لاقسامها اسماء اخذها عنه الطب الغربي ، كما حل معادلات تكعيبية واعطى قوانين صحيحة لمساحات الكرة والهرم والاسطوانة المائلة والقطاع الدائري والقطعة الدائرية . شرح الغربيون كتابه وعلقوا عليه كثيرا ، وقد نشرت له رسالة في الضوء بالمانيا في السنة (١٨٨٢ م) باعتناء الاستاذ ارمان *J. B. Armann* (المعرب .)

يكتشف طريقة لتنظيم فيضان نهر النيل السنوي،ولما أخفق اضطر الى التخفي وتظاهر بالجنون والخبال حتى موت الخليفة الفاطمي . لقد وجد لديه متسعاً من الوقت لنسخ رسائل الاقدمين في الرياضيات والطبيعيات بل ولتأليف عدة كتب في هذه المواضيع أيضاً وفي الطب مهنته الاصلية . وأعظم مؤلف له هو (البصريات).والاصول العربية لمصنفه هذا مفقودة ، لكن ترجمته اللاتينية ميسورة . عارض (ابن الهيثم)نظرية (اقليدس وبطليموس) في أن العين ترسل أشعة الرؤيا إلى الجسم المرئي . وبحث أيضاً في انتشار الضوء والالوان وخداع البصر والانعكاسات الضوئية مع بعض التجارب في قياس الزوايا المحدثة والانعكاسية ، وما زال اسمه يقرن بما سمي عند العرب (مسألة ابن الهيثم) « في المرايا الكروية المقعرة منها والمحدبة ، والمرايا الاسطوانية والمخروطية، لايجاد الموقع الذي ينعكس فيه الجسم ذو البعد المعلوم الى العين ذات الموقع المعلوم » هذه النتائج تؤدي الى معادلة من الدرجة الرابعة حلها (ابن الهيثم) بواسطة القطع الزائد .

واختبر (ابن الهيثم) انكسار الاشعة الضوئية داخل الاوساط الشفافة (كالماء والهواء) واقترب كثيراً بتجاربه الطويلة في القطوع الكروية (أوعية زجاجية مملوءة ماء) الى الكشوف النظرية في تكبير العدسات [٤١] الذي تحقق عملياً في ايطاليا بعده بثلاثة قرون في الوقت الذي مرّ أكثر من ستة قرون قبل أن يثبت (سنل وديكارت) [٤٢] قانون الجيوب الهندسي .

---

٤١) يرى الكثير من الباحثين ان ما كتبه ابن الهيثم بهذا الصدد ، قد مهد السبيل لاستعمال العدسات في اصلاح عيوب الرؤية في العين . (المعرب)

٤٢) سنل أو سنللس *Snell, Snellus* (١٥٩١ – ١٦٢٦ م) فلكي ورياضي هولندي ذاع صيته في السنة ١٦١٧م بكتابه عن البصريات واكتشافه لقانون الجيوب ، وقياسه درجة الارض بصورة صحيحة . (المعرب)

ان (روجر بيكن من القرن الثالث عشر) وكل كُتاب القرون الوسطى في البصريات وعلى الاخص (فيتلو او وايتلو) [٤٣] الهولندي ، بنوا أبحاثهم البصرية على كتاب البصريات (لابن الهيثم) بصورة رئيسة ، لذلك بقي كتابه منهلاً (لليوناردو دافنشي)[٤٤] و(يوهان كبلر)[٤٥] الذي التزم التواضع بتسمية أعظم كتبه عن العدسات باسم «في آثار فيتلاو : Ad Vitellionem Paralipomena» نشر في (فرانكفورت) السنة ١٦٠٤ م .

كتب كثير من علماء الشرق شروحاً وتعليقات على بصريات (ابن الهيثم) ، ولكن أغلب خلفائه لم يثبتوا نظريته في الرؤية وتبعهم في ذلك أطباء العيون الذين ظهروا في عصور متأخرة من عصور العلم الاسلامي . ومهما يكن ، فان (البيروني وابن سينا) يشاركان ابن الهيثم مطلقاً في رأيه « بان الشعاع ليس هو الذي يترك العين ليقع على الجسم المرئي فتحصل الرؤية ، بل أن شعاع النور يأتي من الجسم المرئي الى العين فيتحول بمعونة جسمها الشفاف أي العدسات » . وخلّف (ابن الهيثم) مؤلفات كثيرة صغيرة في طبيعة البصر ، أحدها في الضوء ، وقد عدّ الضوء شكلاً من أشكال النار التي تنعكس على قبة السماء الجوية ، وفي (ظاهرة الشفق) ورسالته فيها ميسورة باللاتينية فقط ، قدّر أن الجو المحيط بالارض يعلو زهاء عشرة أميال انكليزية ! وتعالج رسائل اخرى له قوس قزح والهالة ، والمرايا المسطحة ، والمرايا ذات القطع الزائد المجسم . هذه وغيرها من الكتب (في الظلال والخسوف والكسوف) انما تم

---

٤٣) *Witelo (Vitelio)* ظهر في المانيا والف في مدينة بادوا الايطالية (١٢٧٠ م) كتابه في (المناظر) يبحث في الضوء وانتشاره وتركيب العين وخداع البصر وانعكاس النور والمرايا . وقد اتفق كتاب الغرب أنه مبني على ابحاث ابى الهيثم . (المعرب)

٤٤) كان ليوناردو دافنتشي الرسام الشهير من كبار الجراحيين في عصر النهضة. (المعرب)

٤٥) *Johann Kepler* (١٥٧١ — ١٦٣٠ م) فلكي الماني ذو مكتشفات مهمة في علمي الفلك والبصريات. منها شرحه الصحيح لطبيعة عمل عدسة العين والشبكية والانكسار الضوئي. (المعرب)

عن تفكير رياضي رفيع . ووضع بهدي من حساباته وتخميناته مرايا من المعدن . وأكثر هذه الكتب والمصنفات هي من منتوج السنوات العشر الاخيرة من حياته . كما توصل بدراسته العظيمة عن المرايا المحرقة الى استنباط انعكاس شعاعي فاق في قوته جميع ما توصل اليه اليونان . وكتابه يكشف عن ادراك عميق تام لطبيعة عمل البؤرة الحارقة ، والصورة المنكوسة وعمل حلقات وألوان من الضوء بتجاربه ؛ وكتب فضلاً عن ذلك شروحاً على بصريات (اقليدس وبطليموس) وعلى كتاب (الطبيعيات) و(المسألة) (لارسطو) . ولاحظ صورة الشكل النصفي للقمر في الشمس أثناء الكسوف ، على جدار يقابل ثقباً صغيراً يتخلل درفتي النافذة ، وكان ذلك التجربة الاولى للغرفة المظلمة camera abscura [٤٦] .

يجمل بنا أن نلقي نظرة على المعاهد العلمية في غضون هذا العصر الذهبي للعلم الاسلامي . وُجدت المستشفيات في زمن متقدم ربما كانت على نمط المستشفى التعليمي الشهير في جنديسابور . ومن الاسم الفارسي لهذا المستشفى (بيمارستان) اشتُق الاسم الذي عُرف به المستشفى في أرجاء العالم الاسلامي كافة . ولدينا معلومات وثيقة لأربعة وثلاثين معهداً من هذه المعاهد على الاقل كانت منتشرة في أنحاء العالم الاسلامي من بلاد فارس حتى مراكش ومن شمالي سوريا حتى مصر . وانشيء مستشفى في القاهرة في السنة ٨٧٢ م بأمر من (ابن طولون) [٤٧] وظل قائماً حتى القرن الخامس عشر ، وانشئت عدة مستشفيات بعده . وأول مستشفى انشيء في بغداد كان بأمر من هرون

---

٤٦) انظر كتاب (تنقيح المناظر لذوي الابصار والبصائر) لأبي الحسن كمال الدين الفارسي وهو شرح كتاب المناظر لابن الهيثم طبع حيدر آباد ١٣٤٧ هـ . (المعرب)

٤٧) احمد بن طولون (ت ٨٨٣ م) مؤسس الدولة الطولونية . أحد المقربين من الخليفة المستعين ولي مصر في (٨٦٨) واستقل بحكمها وأنشأ (القطائع) عاصمة جديدة له قرب (الفسطاط) ومد سلطانه على المراقيء وسورية والموصل . بنى الجامع المعروف باسمه في القاهرة (المعرب)

الرشيد في مطلع القرن التاسع ثم اشفع بخمسة مستشفيات اخرى في القرن العاشر وعُرفت المستشفيات السيّارة في القرن الحادي عشر . ان التواريخ الاسلامية تتحفنا بمعلومات جد دقيقة عن كيفية ادارة تلكم المعاهد . واننا لنعرف الآن فضلاً عن ميزانياتها السنوية مقدار الرواتب الممنوحة للاطباء والجراحيين والكحالين والموظفين . كان رؤساء الاطباء وكبار الجراحيين يلقون دروسهم على الطلبة والمتخرجين ويمتحنوهم ثم يجيزونهم (يمنحونهم الدبلوم) . وكان رجال الطب والعطارون (الصيادلة) والحلاقون عرضة للتفتيش والفحص . فمجبرو الكسور مثلاً كانوا يمتحنون بدرجة معرفتهم وإلمامهم بأصول التشريح والجراحة على طريقة (بولس الاجنيطي) ، واتخذت جميع التدابير لتسهيل التطبيقات العملية . وكانت المستشفيات مقسمة الى جناحين للرجال وللنساء ولكل جناح مديروه وموظفوه كما كان لبعض المستشفيات مكتبات ويتدرب معظم الاطباء على مهنتهم بالتتلمذ على استاذ ممارس يكون في أغلب الاحيان أباً أو عماً أو قريباً لهم.وآخرون كانوا يرتحلون الى مدن أخرى ليتتبعوا دروس أحد الاطباء المشهورين . وتقول رواية اسبانية أن طبيباً من مدينة قادس زرع في حديقة الحاكم حقلاً نباتياً أنبت فيه أعشاباً طبية نادرة جلبها معه من رحلاته . وكانت العلوم الاخرى غير الطب تلقن في المساجد ، وفي عصور الاسلام المتقدمة كانت المساجد توضع تحت تصرف العلماء بدون قيد او شرط . وهنالك روايات أيضاً تنبيء بوجود مكتبات تعليمية أنشأها الخلفاء والامراء وغيرهم من عظماء رجال الدولة . ويتحفنا التاريخ العربي بمعلومات لا تحصى عن هذه المعاهد .

كان لكل مسجد كبير وما يزال ، مكتبته الخاصة لا في المواضيع الدينية وحدها بل في الابحاث الفلسفية والعلمية أيضاً . وقد ذكرنا سابقاً (بيت الحكمة) الذي أنشأه في بغداد الخليفة المأمون حوالي العام ٨٣١ م . وجرى

(المتوكل) ابن أخيه على نهجه ، وقلده في هذا كثير من رجال دولته . فكان (لعلي بن يحي ٨٨٨ م) مستشار الخليفة وصديقه ، مكتبة نفيسة في قصره الريفي وأنشأ الخليفة الفاطمي (الحاكم بأمر الله في السنة ٩٩٥ م) بيتاً للعلم في القاهرة عرفنا نفقاته على وجه الدقة . ولما كان البحث في الآلهيات وفلسفة الدين قد قطعا شوطاً بعيداً من العمق ، فقد خيف نتائج ذلك من زندقة والحاد وأوقف ميدان البحث عند حد .

كان الحج الى مكة المكرمة فريضة كل مسلم مما ساعد على انتشار العلم ، إذ لا مفرّ للتلاميذ القادمين من الهند وإسبانيا وآسيا الصغرى وافريقية من المرور ببلاد مختلفة ، فتتاح لهم زيارة المساجد والمعاهد العلمية والاتصال بمشاهير العلماء فضلا عن قدوم أكثرهم من تونس وفارس وسواحل بحر قزوين الى القاهرة وقرطّبة ليردوا مناهل العلم على يد مشاهير الاساتذة . ان الطريقة العملية في التدريس كانت آنذاك شبيهة بالطريقة المتبعة اليوم : يجلس الاستاذ مسنداً ظهره الى عمود او ركن في الجامع ويلتئم التلاميذ حوله على شكل حلقة. ويحد الرجال عادة في جامع الازهر القاهري العظيم ، عشرين او ثلاثين حلقة من هذه الحلقات المدرسية داخل الصحن المخروطي السقف . انه ليرى في ذلك صورة طبق الاصل للدروس العلمية كما كانت تعقد عند قدماء الاغريق وفي معاهد قرطبة المسلمة .

عصر الانحطاط من ١١٠٠ م تقريبا

كانت الشريعة الاسلامية في أول ظهورها تبيح دراسة العلوم مطلقاً ، ويمكننا القول بأنه من وقت المعلم الديني الشهير (الغزالي ١١١٠ م) فصاعداً حل الاضطهاد الديني لهذه الدراسات محل السماح بها بزعم انها « تؤدي الى الشك في الاعتقاد بأصل العالم بوجود الخلاق » وان لم يكن هذا الموقف كافياً لوقف ظهور علماء ومفكرين أحرار ، فمما لا شك فيها انها كانت عاملاً

مهماً جداً في خنق أصوات أولئك المفكرين . وكان القرن الثاني عشر مؤذناً بهذا الركود وظلت آثار الرازي وابن سينا وجابر منتشرة تلخص وتكتب عليها الشروح ، ولكن المصنفات البارعة المستقلة باتت نادرة .

وتزايد عدد اليهود بين الاطباء وعلى الاخص في قصور بغداد والقاهرة واسبانيا وربما يرجع ذلك الى أن اليهود كانوا يتمتعون آنذاك بحرية نسبية ازاء القيود الطارئة التي فرضها تزمت الشريعة الإسلامية . وأصدق انموذج للطبيب الشهير الممارس والفيلسوف والمعلم الديني في البلاط هو (موسى بن ميمون Maimonides ١١٣٥ – ١٢٠٤م).ولد(موسى)في اسبانيا إلا أنه قضى معظم حياته الحافلة بالنشاط في القاهرة بحمى ورعاية (صلاح الدين الايوبي) الشهير وأولاده من بعده . وكتابه « الاوليسات في الطب Aphorisms » هو خير ما كتب . لقد جرؤ فيه على نقد آراء (جالينوس) نفسه . وكتب بوصفه موظفاً في البلاط رسائل صحية [٤٨] للسلطان تُعد نموذجاً صادقاً للابحاث الطبية والمعارف السائدة منها في العصور الاسلامية المتأخرة . ان تأثير الشدة الدينية التي كانت تغلب على البلاط القاهري وتزمته ، يظهر في الاعتذار الذي تقدم به (ابن ميمون) في ختام احدى رسائله حيث لجأ الى كتابه تعليل علمي مسهب يعتذر فيه عن نصيحته التي قدمها للسلطان بضرورة شرب الخمر المحرمة والاستماع الى الموسيقى كعلاج لمرض السوداء الذي ابتلي به . اما الندّ الاصغر (لابن ميمون) فهو المسلم (عبد اللطيف)[٤٩] الذي رحل من بغداد الى القاهرة

---

٤٨) منها الرسالة الافضلية كتبها للملك (الافضل الناصر صلاح الدين الايوبي) . وترجمت الى اللاتينية باسم (الغذاء الصحي) . ترجمها ايضا (موسى بن تبون : بكسر التاء وتضعيف الياء) الى العبرية في السنة ١٢٤٤ م . ونشرها الاستاذ كرونر *H. Kroner* ، ١٩٢٤ بنصها العربي مع ترجمة المانية . (المعرب)

٤٩) هو عبد اللطيف بن يوسف بن محمد علي بن سعد البغدادي الشافعي الملقب بابن اللباد (٥٥٧ – ٦٢٩ هـ = ١١٦١ – ١٢٣١م) طبيب بغدادي رحل الى مصر ثم بلاد الروم وحلب وعاد الى مسقط رأسه وقد الف كتباً علمية جليلة منها كتابه المشهور « الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر » طبع في القاهرة ١٢٨٦ هـ . (المعرب)

ليرى كبار العلماء وارض مصر التي وصفها وصفه الشهير بعدئذ بعد أن وصف المجاعات والزلازل التي حدثت فيها ما بين ١٢٠٠–١٢٠٢ م . تقدم بمعلومات نفيسة عن خواص العظام بعد درسه لها في مقبرة قديمة تقع شمالي غربي القاهرة ، راجع وصحح وصف (جالينوس) لعظم الفك الاسفل [٥٠] وعظم العَجْز .

كانت الرسائل المؤلفة في علم الصيدلة خلال هذا العصر لا تحصى ، وهي إما في الادوية المفردة ، وأشهر من كتب فيها بلا منازع هو (ابن البيطار [٥١] : ت ١٢٤٨ م) ، أو في الادوية المركبة ، والرسائل من هذه الطائفـة تسمى بالاقرباذين (محرفة عن للفظة كرافديون : وتعني الرسالة الصغيرة . وتستتر هذه الكلمة في كثير من المخطوطات اللاتينية وراء لفظة كرباذين Grabadin). الف (ابن البيطار) كتاب « جامع مفردات الادوية » وكان يجلب أنواع النبات والادوية من ساحل البحر المتوسط واسبانيا وسوريا ويدرسها . ووصف في كتابه أكثر من الف واربعمائة عقار طبي وقارنها بأوصاف اكثر من مئـة وخمسين عالماً عربياً ، فكان ثمرة ناضجة لأعمق الدراسة ودقة الملاحظة وسعة الاطلاع . ويعد أعظم ما الف بالعربية عن النبات . وظلت الكتب العربية المتأخرة في الادوية المركبة عند العطارين المحليين منتشرة في أرجاء العالم الاسلامي . ومن أكثرها رواجاً حتى يومنا هذا كتاب « منهاج الدكان في

---

٥٠) (ص ٦٢ من كتاب الافادة والاعتبار) : « .. من ذلك عظم الفك الاسفل ، فان الكل قد اطبقوا على انه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك ، وقولنا الكل نعني به ها هنا (جالينوس) والذي شاهدناه من حال هذا العصر انه عظم واحد ليس فيه درز ولا مفصل أصلا . واعتبرنا .. في اشخاص كثيرة تزيد عن الفي جمجمة .. ثم اعتبرت العظم ايضا بمدافن (بوصير) القديمة .. فوجدته على ما حكيت .. » (المعرب)

٥١) هو ضياء الدين ابو محمد عبد الله بن احمد (ت ٦٤٦ هـ) صيدلي اندلسي ساح في شبه الجزيرة العربية و المغرب ومصر وسورية . واشغل وظيفة مدير الصيادلة « رئيس المشابين » عند الملك الكامل الايوبي عرف بكتابه « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » طبع بجزئين في القاهرة ١٢٩٠ هـ . (المعرب)

الادوية » لمؤلفه اليهودي (كوهين العطار [٥٢] : القرن الرابع عشر) . و « التذكرة » (لداؤد الانطاكي [٥٣] : ت ١٥٩٩ م) وكلاهما صُنف في القاهرة . وقد انتقلت وصفات مركبة طبية قديمة عديدة من هذه الكتب الى صيدليات اوربا ، فدخلت الغرب من الشرق أدوية مختلفة منها الروب rob ، لمحفوظ عصير الفاكهة الثخين ممزوجاً بالعسل (المربى) ، والجُليب juleb (بالفارسية : الجُلاب كُلْ — آب أي ماء الورد) للجرعة الطبية المعطرة ، والسيروب sirup (بالعربية : شراب) [٥٤] .

وبمطلع القرن الرابع عشر بدأت ممارسة السحر والدجل تتسلل الى أبحاث جمهرة العلماء المسلمين التي صارت تستمد آراءها الطبية من الابحاث الدينية ، وبهذا دب الفساد في جسم العلم فانحطّ وسفّ عن مستواه العام الذي وصل اليه . وفي اسبانيا تسلط التفكير الفلسفي على رجل الطب . وأصدق انموذج لهذا الامتزاج بين العلمين ، ابن رشد وابن زهر [٥٥] (ت ١١٦٢) باشبيلية ، وكان ثانيهما طبيب الخاصة والنبلاء في بلد يحكمه أحد ملوك الموحدين وقد أظهر احتقاراً للجراحة والتشريح وغلبت فيه صفة الطبيب الناصح على صفة الطبيب المعالج . وأعظم أثر طبي له كتاب في تسهيل العلاج اسمه « التيسير » نقله بهذا الاسم الى اللاتينية بارافيشيوس Paravicius في العــام ١٢٨٠ م .

---

٥٢) هو ابو المنى داود بن ابي النصر حفاظ الاسرائيلي كتب وهو في مصر كتابه في الصيدلة (منهاج الدكان ودستور الاعيان) وطبع عدة طبعات بالعربية (المعرب) .

٥٣) استقر بالقاهرة وان كان انطاكياً،ودرس اليونانية وعكف على الطب حتى برز فيه، والف كتابه « تذكرة اولي الالباب والجامع للعجب العجاب » الذي طبع كثيرا (المعرب)

٥٤) كذلك كلمة صودا *Soda* فأصلها صداع . (المعرب)

٥٥) *Avenzaor* (٤٧٨ – ٥٥٨ هـ = ١٠٩٤ – ١١٦٢ م) هو (ابو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر الاشبيلي) . وكان من أنبغ أطباء العرب في الاندلس عرف بكتابه « طرق استحضار الادوية والحميات » وكتابه « المجربات في الطب ». وكان أول من وصف خراج الحيزوم وصفاً دقيقاً،ووصف التهاب غشاء القلب الرطب والناشف وفرقه عن امراض الرئة (المعرب)

بمعونة اليهودي في البندقية حيث طبع في أزمنة متأخرة عدة مرات. والكتاب مثال عظيم للاستقلال الفكري لانه مبنٍ بصورة رئيسة على التجربة الشخصية ولذلك لم يَحظ من العرب بما حظي عند اوروبا من نجاح. وكان (ابن رشد: ت في مراكش السنة ١٠١٩م) تلميذاً وصديقاً لابن زهر ومن أهم الفلاسفة الارسطيين بل أعظمهم. كتب أيضاً حوالي ست عشر كتاباً طبياً. اشتهر أحدها بترجمته اللاتينية المسماة «الكليات في الطب» ترجمه ١٢٥٥ م اليهودي البادوي (بوناكوزا Bonacosa) باسم(الجامع : Colliget)وطبع مرات عديدة مع كتاب «التيسير». ان كل سطر من سطور«كُلّيات» (ابن رشد) ينطق بان كاتبه مفكر أرسطي وعلى الأخص في جزئه الثاني عند معالجته الفسيولوجيا والسيكولوجيا البشرية، وكثيراً ما كان يشيد بأفضلية آراء الرازي وابن زهر على آراء أبقراط وجالينوس.

ان الطاعون الاكبر الذي تفشى في القرن الرابع عشر والمعروف (بالموت الاسود) أتاح الفرصة لاطباء المسلمين في اسبانيا ليحرروا أنفسهم من القيود الشرعية التي ترى الطاعون عقاباً آلهياً. فاجترأوا على اعتبار هذا الداء عدوى. ووصف السياسي والمؤرخ والطبيب العربي المشهور ابن الخطيب الغرناطي (١٣١٣ — ١٣٧٤ م) تلك العدوى في رسالة شهيرة عن الطاعون (٥٦) نجد فيها مثلاً فقرة نفيسة:

«.. وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار المتواترة وهذه مواد البرهان ... و ... وقوع المرض في الدار أو المحلة، لثوب أوآنية حتى ان القرط أتلف من علق باذنه وأباد البيت بأسره ووقوعه في المدينة في الدار الواحدة ثم اشتعاله منها في أفراد المباشرين، ثم في

---

٥٦) هي «المقالة المسماة: بمقنعة السائل في المرض الهائل» وصف بها طاعون غرناطة في ٧٤٩ هـ = ١٣٤٧ م طبعت باعتناء الاستاذ (موللر *Muller*) في ميونيخ ١٨٦٤م (المعرب)

جيرانهم وأقاربهم وزوارهم خاصة ، حتّى يتسع الخرق ، وفي مدن السواحل المستصحبة حال السلامة الى أن يحل بها في البحر من عَدْوة أخرى قد شاع عنها خبرُ الوباء ... وصَحّ النقل بسلامة أهل العُهود والرحالين من العرب بافريقية وغيرها لعدم انحصار الهواء وقلة تمكن الفساد منه ... »

هذا تصريح متناهٍ في الجرأة في أحلك أيام التزمت الديني (٥٧) . وكتب الطبيب المراكشي ابن خاتمة (٥٨) المتوفى في ١٣٦٩ م كتاباً عن الطاعون الذي اجتاح المرية Almeria في اسبانيا (١٣٤٨ – ١٣٤٩ م) . هذا الكتاب يعد أعظم وأعمق سائر الكتب التي الفت عن الطاعون في اوروبا بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر نجتزيء منه الفقرة الآتية : « وجدتُ بعد طول معاناة ، أن المرء اذا ما لامس مريضاً ، أصابه الداء وظهرت عليه علاماته . فإن نزف الاول دماً ، نزف من الآخر ، وإن ظهر في الاول ورم ، ظهر على الآخر أيضاً في المكان نفسه ، وإن تكونت قروح وسال منها قيح في الاول حصل للآخر مثله ، وهذا هو سبيل انتقاله من المريض الثاني الى الثالث .. »

ولتقدير تعاليم هؤلاء الكتاب ، علينا ان نذكر بأن مبدأ وجود العدوى في بعض الامراض لم يبحثها أطباء اليونان ولقد مرَّ كُتاب الطب في القرون الوسطى غير منتبهين اليها تقريباً . كان حاصل الكتب المؤلفة في العلوم الاخرى عدا الطب عظيماً جداً ، ولكن الانحطاط لم يكن بأقل ظهوراً . لذلك فلدينا

---

٥٧) ص ٦ – ٧ و ١٨ – ١٩ من الرسالة ، ويلاحظ ان لسان الدين أعتذر عن تقحمه الشرح فقدم لكلامه بقوله : « فان قيل ، كيف نسلم بدعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك ، قلنا » (المعرب)

٥٨) (ابن خاتمة ٧٠٧ – ٧٧١ هـ = ١٣٠٦ – ١٣٦٩ م) هو (ابو جعفر أحمد بن علي ابن محمد بن خاتمة الانصاري) مؤلف كتاب (تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد) . وصف به طاعون المرية . عرفه (لسان الدين بن الخطيب) مؤرخاً واديبا كبيرا وطبيبا . يوجد من هذا الكتاب مخطوطتان واحدة في الاسكريال والاخرى في متحف برلين وقد ذكره لـه المستشرق الالماني (اهلورد) في قائمته وأورد ديباجته . (المعرب)

كتب معروفة لنحوٍ من أربعين كيمياً من العرب والفرس بعد القرن الحادي عشر . ومع ذلك فإن كتبهم لم تضف شيئاً الى الموضوع إلا ما ندر . ومما هو جدير بالذكران (ابن خلدون ت : ١٤٠٦ م) أشهر فلاسفة التاريخ عند العرب وأعظم عقلية في عصره ، كان خصماً عنيداً للكيميا .

ان علم المعادن ذو علاقة بالكيميا الزائفة Alchemy وقد وجد لدينا قرابة خمسين كتاباً عربياً في الجواهر خير ما عرف منها كتاب « أزهار الافكار في جواهر الاحجار » (لشهاب الدين التيفاشي[٥٩] : ت في القاهرة ١٢٥٤ م) يقدم في فصوله الخمسة والعشرين معلومات وافية لخمسة وعشرين حجراً كريماً ؛ في أصلها ، جغرافيتها ، فحوصها ، درجة نقاوتها ، قيمتها ، استعمالها لغايات طبية وسحرية ، وهكذا .. وقد استند على الكتاب العرب فقط باستثناء (بليني) وكتاب « الجواهر الزائفة » لأرسطو .

إن الكتاب العربي الوحيد المهم الوحيد في علم الحيوان هو كتاب : « حياة الحيوان » (لمحمد الدميري : ت في القاهرة ١٤٠٥ م) . كان المؤلف فقيهاً لذلك لم يكن كتابه ثمرة للتجربة الشخصية بل مقتطفات ومقتبسات من كل المصادر الادبية التي وقعت له ليس غير ، ومع كونه كتاباً مدرسياً صرفاً ، فقد كُتبت له شهرة مستفيضة في الشرق ، ويتضمن بعض أجزائه معلومات مفيدة في علم عقائد الشعوب وأوليات طبية ، في سيكولوجية الاجناس . ولكنه مشحون بابحاث متنافرة ، مرتبكة ، مبتورة .

إن الموسوعات العامة العديدة ، فارسية وعربية ، كانت كلها تتضمن

---

٥٩) (التيفاشي ٤٣٦ - ٥٤٩ هـ = ١٠٨٣ - ١١٥٤ م) هو (شهاب الدين ابو العباس احمد ابو يوسف) المولود بتيفاش والمتوفى في القاهرة تلميذ (عبداللطيف البغدادي) طبع كتابه المذكور مع ترجمة ايطالية في (فلورنسا ١٨١٨ م) بقلم (ديري المجلة الاسيوية ١٨٦٨ ص ٥) . (المعرب)

أجزاء في النبات والحيوان والاحجار . وخير ما عرف منها دائرة المعارف (زكريا القزويني [٦٠] : ت ١٢٨٣ م) وهي ما زالت سيئة الطبع ، وكثير من مخطوطات هذا المؤلف مزين بالرسوم الجميلة . ويوجد عدد لا بأس به من كتب وأقسام لموسوعات تعالج مواضيع الطبيعيات يبحث أغلبها من وجهة النظر الفلسفية . ان دراسات المقاييس كانت متقدمة جداً عند المسلمين في العصور المتأخرة ولا سيّما تلك التي تبحث في الاوزان . وقد ترك لنا(الخازني كان بالاصل عبداً رومياً عاش في مرو من مدن إيران حوالي ١٢٠٠ م) [٦١] كتاباً نفيساً اسمه « ميزان الحكمة » طبع منه أجزاء فقط . وقد تناول فيه بحوث(ثابت بن قرة) بالشرح ، وأكمل شرح ما يسمى بالميزان الروماني او القبان ، ويشتمل مؤلفه فضلاً عن ذلك على أبحاث نفيسة في الثقل النوعي ، والوزن النوعي للخليط المعدني ، وبحث أيضاً قضية الكثافة العظمى للماء عندما يكون قريباً من مركز الارض قبل أن يعرض(روجر بيكن)لهذهالفرضية ويبرهنها ببعض زمن .

وثم مخطوطات رائعة جداً ملأى بالرسوم الجيدة عن آلات حفظ السوائل وتوازنها وعن الساعات وعلى الاخص تلك التي تشتغل بالماء او الزئبق او

---

٦٠) (زكريا القزويني ٥٩٨ – ٦٨٣ هـ = ١٢٠١ – ١٢٨٣ م) : طبعت موسوعته (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) في لايبزك باعتناء وستنفلد السنة ١٨٤٨م (المعرب)

٦١) الخازن او (الخازني) : هو أبو الفتح عبدالرحمن المنصور الخازني المروي من مفاخر الفكر الاسلامي في علمي الطبيعة والميكانيكا ، وكتابه « ميزان الحكمة » عثر عليه ونشره قنصل روسيا في تبريز المدعو(كانيكوف)، فتهافت عليه علماء الغرب وشرحوه وترجموه . ثبت منه ان (الخازن) بحث في وزن الهواء وكثافته والضغط الذي يحدثه–قبل توريشلي. وبين ان قاعدة(ارخميدس) تسري على السوائل والغازات معاً و شرح عملية القبان ، وجرب استخراج الوزن النوعي بطريقة تختلف عن البيروني وغير ذلك . (المعرب)

بالشموع الموقدة او بالاثقال . وقد أنهى (الجزري [٦٢] : ١٢٠٦ م) في العراق كتاباً عظيم الشأن في الميكانيكا والساعات من أفضل ما عُرف في العالم الاسلامي . وفي ذلك الزمان وصف (رضوان الفارسي [٦٣] : ت ١٢٠٣ م) الساعة المائية التي نصبها أبوه (محمد بن علي) قرب أحد أبواب دمشق وكان في ذلك الزمن اختراعاً أثار إعجاب العالم الاسلامي وبقي ذكره يرن صداه حتى القرن السادس عشر . كان الكتاب يرجعون الى (أرخميدس وابللونيوس وكتسيبيوس) [٦٤] ولكنهم كانوا ممتازين في وصفهم الدقيق لكل التفاصيل الميكانية . ومن أنبغ علماء البصريات في هذا العصر هو (كمال الدين الفارسي : ت ١٣٢٠ م) الذي شرح وعلق على تجارب (ابن الهيثم) في (الغرفة المظلمة) ، كذلك لاحظ مسلك الاشعة داخل زجاجة كروية حتى يختبر انعكاس الاشعة الشمسية في قطرات المطر وهذا ما أوصله الى تعليل ظهور قوس وقزح الاول والثاني.

إن مثالاً غريباً على اهتمام العامة الداثب بامور العلم يظهر من الكتاب البَصَري [٦٥] الذي الفه (شهاب الدين القرافي) الفقيه والقاضي القاهري (ت:في ١٢٨٥ م) ، انه يبحث بطريق غلب فيها الاسترسال على الدقة

---

٦٢) هو أبو المعز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري وكتابه « الحيل او الجامع بين العلم والعمل الفه للملك الصالح ابي الفتح بن قره أرسلان بديار بكر ارتفع فيه الى مصاف كبار المخترعين الميكانيين . (المعرب)

٦٣) كتابه « في الساعات وكيفية العمل بها » ، يوجد نسختان احدها في مكتبة كوبرلي ، والاخرى في المكتبة الخديوية بمصر . (المعرب)

٦٤) *Ctesibius* طبيب اسكندري نبغ حوالي ٢٥٠ ق. م. واشتهر بمخترعات ميكانية منها الساعة المائية ، وكان أول من اكتشف القوة الانبساطية والانقباضية في الهواءواستخدمها كقوة محركة . (المعرب)

٦٥) هو كتاب المناظر المنسوب له . (المعرب)

العلمية . خمسين مسألة بصرية ، ثلاثاً منها ذات أهمية خاصة لأنها تتعلق بالمسائل التي طرحها امبراطور الفرنك وملكهم في صقلية على علماء المسلمين . لم يكن هذا سوى (فردريك الثاني الهوهنشتافني) الذي عرض على علماء المسلمين في اسبانيا ومصر عدة قضايا هندسية وفلسفية . واليك المسائل البصرية الثلاث :

« لماذا تبدو الرماح والمجاذيف مُنحنيةقليلاً اذا غُمر جزءٌ منهافي الماء ؟ » .

« لماذا يبدو نجم سهيلي Canopus كبيراً عندما يكون قريباً من الافق ؟ مع أن عدم وجود رطوبة جوية في الصحارى الجنوبية يُخرج عامل الرطوبة من أن يكون تعليلاً لذلك الكبر ؟ »

« ما سبب ظهور بقع متراقصة أمام أعين أولئك الذين اصيبوا بمرض نزول الماء في أول أعراض هذا الداء او غيره من عوارض العين ؟ » .

أخيراً علينا ان نلقي نظرة على دائرتي معارف للسير على درجة عظيمة من الاهمية في تاريخ الطب الاسلامي وعلومه ، أولاها كتاب « اخبار العلماء بأخبار الحكماء » (لابن القفطي [٦٦] : ت بدمشق سنة ١٢٤٨ م) وتحتوي أربعمائة وأربع عشرة سيرة من سير الاطباء والفلكيين والفلاسفة اليونانيين والسريان والمسلمين . فهي أشبه بمنجم فيه أنفس المعلومات عن علوم اليونان وآثارهم التي وصلت الى العرب . انه يحدثنا عن كثير من أقدم الآثار اليونانية التي لم تصل عن طريق كتب الاولين . ولا يقل عنه أهمية كتاب « عيون الانباء في طبقات الاطباء » [٦٧] (لابن أبي أصيبعة) وهو طبيب واسع الثقافة وكحال كان أكثر عيشه في القاهرة (ت في السنة ١٢٧٠م). لقد تصدى لكتابة سير أكثر من ستمائة طبيب ، مستمداً بعض معلوماته من مراجع هي الآن مفقودة ، واعتمد بعضها من معرفته الجيدة بعدة آلاف من الكتب الطبية .

---

٦٦) اعتمدنا في أغلب التعليقات على طبعة لايبزك من هذا الكتاب (المعرب)

٦٧) اعتمدنا على طبعة المطبعة الوهبية بالقاهرة ١٣٠٠ هـ من هذا الكتاب (المعرب)

وجميع كتب تاريخ الطب العربي الحديث بنيت على هذا الاثر الذي يحوي علاجات وفوائد نفيسة قديمة . إن اعتماد القبط في مصر والارمن على علم الطب العربي انما هو واضح من كتبهم التي هي الآن ميسورة في ثوب جديد . ويمنع المؤلف ضيق المجال من القيام بتحليل لها .

التراث

لنترك الآن منبع العلوم الاسلامية ومواطنها لنلتفت الى مساربها ونشرح كيفية انتقالها الى الغرب . إن تراث العالم الاسلامي في الطب والطبيعيات ، هو تراث اليونان المنقح المستزاد باضافات عديدة أغلبها عمـلي . (فالرازي) الفارسي كان طبيباً عبقري التشخيص والعلاج والملاحظة ولكن ليس من صنف (هارفي)[٦٨] . وعبد اللطيف العربي كان رائداً دؤوباً من رواد علم التشريح ، ولكن لاسبيل الى مقارنته بـ(فيساليوس)[٦٩] . لقد استشار المسلمون تراجم ممتازة لكتب أبقراط وجالينوس وأحسنوا فهمها (حتى الايضاحات النظرية الطويلة للكاتب الاخير !) وأتقنوا ترجمتها بفضل عباقرة العلماء وفطاحلهم أمثال (حنين) ؛ ولكن اضافات الاطباء المسلمين عليها كادت تقتصر على نواحي المعالجة والتشخيص والوصف المجرب . وهكذا بقيـت النظريات والافكار اليونانية غير مطعون فيها ، لكنها صينت وحفظت ، بعد اعتناء زائد بتصنيفها وتنسيقها . علينا أن نذكر بان المسلمين لم يكن يسمح لهم بتشريح جسم الانسان وجسم الحيوان الحيّ مطلقاً ، ولذلك كانت التجربة في الطب ممنوعة فعلاً ، لذلك لم يكن بالمستطاع تصحيح أي غلط تشريحي او فسلجي وقع فيه جالينوس . وأما من الناحية الاخرى ، فقد أخذوا بعض الفوائد من تجارب علماء الفرس والهند وأواسط آسيا بخصوص طرق معينة في العلاج

٦٨) وليم هارفي ١٥٧٨ – ١٦٥٧ م جراحي انكليزي عرفه العالم باكتشاف دورتي الدم الصغرى والكبرى وغيرها من المكتشفات الطبية الهامة . (المعرب)

٦٩) أندريه فيسال ١٥١٤ – ١٥٦٤ م جراحي وطبيب فرنسي شهير جداً (المعرب)

والعمليات الجراحية ، وفي معرفة بعض المعادن والعقاقير . هذه المعرفة أعانتهم على النجاح في حقل الكيميا ، وإن كنا في الواقع لا نملك المعلومات الكافية لتقدير نصيب اليونان والشرق في تقدم الكيميا كل على حدة . وفي العلوم الاخرى كانت بعض آثار اليونان الرائعة غير معروفة عند المسلمين ككتاب ثيوفراستس(٧٠) في النبات ، لكنهم ضربوا في هذا الفرع كما ذكرنا ، سهماً صائباً عظيماً ولا شك ، نعود لنقول عنه انه ذو أهمية عملية صرفة. كان علماء العرب مفكرين بالمعنى الضيق فقط مع إظهارهم قوة ملاحظة عجيبة ، هذا القول يصدق أيضاً على علم الحيوان وعلم المعادن والميكانيكا (علم الحيل) . ان عظمة العلم الاسلامي تتجلى في ميدان البصريات . ها هنا تكسف مقدرة (ابن الهيثم وكمال الدين) الرياضية ضياء (بطليموس واقليدس) . ان هذا النوع من العلوم مدين للمسلمين بتقدم حقيقي باقٍ مقرون الى اسمهم على مر الدهور .

عندما وصل الطب والعلم الاسلاميين مرحلة الوقوف حوالي السنة ١١٠٠م، أخذا ينتقلان الى اوروبا بتراجم لاتينية . لقد وصف (شارلس سنكر Charles Singer) بدقـــة في طبعه ، الطب الرهبـاني خلال ذلك العصر في كتابه « موجز تاريخ الطب » قال : « لقد قضي القضاء المبرم على علمي التشريح والفسيولوجيا ، وتحول التشخيص الطبي الى جس باليد سخيف جداً — إن وجد — وصار علم النبات قائمة أدوية لاغير ، وتسللت أعمال السحر والشعوذة وسفّ الطب الى مجموعة من الوصفات تتأرجح بين الدجل والرقى ، ذلك لان الجدول العلمي الذي كان دم حياته نضب إلى آخر قطرة منه . بقيت زاوية واحدة في اوربا حافظة لتراث الطب الاغريقي وهي (سالرنو) القريبة من نابولي . بهذه المدينة مرّ المغامر التونسي المتنصر (قسطنطين الافريقي) قبل أن

٧٠) *Theophrastus* ٣٧٣ — ٢٨٦ ق. م. فيلسوف وعالم طبيعي يوناني قيل انه الف ٢٧٢ كتابا في المنطق وعلم النفس والرياضيات والسياسة الخ .. وله كتابان في علم النبات واسباب نموه وفي الاحجار والنار . (المعرب)

يترهب في الدير الشهير المسمى بدير (مونت كاسينو) في(كامبانيا)بسنوات .
وفيها شرع بالترجمة حوالي العام ١٠٧٠ م الى أن وافاه الاجل في ١٠٨٧ م .

ان تراجم قسطنطين الافريقي لاتينية ضعيفة كثيرة الاضطراب مشحونة بالركة ملأى بتحريف المصطلحات العربية،وبعض أجزائها غير مفهوم . وبكلمة أخرى هي مثال صادق للغة اللاتينية البربرية التي كانت سائدة في القرون الوسطى ولكنها كانت صاحبة الفضل في غرس أول بذرة من بذور العلوم اليونانية في تربة اوروبا القرون الوسطى. كان (قسطنطين) لصاً وقحاً معدوم الحياء نسب لنفسه كثيراً من الكتب العربية التي ترجمها الى اللاتينية ، ولا يعزب عن بالنا أن حقوق التأليف لم تكن معتبرة في ذلك الحين بقليل او كثير ، وقد ترجم عن ترجمة (حبيش) كتاب (أبقراط) المسمى « افوريزما Aphorisms أو تقدمة المعرفة » مع شرح جالينوس عليه . كذلك كتاب الحمية الفعالة diata acutorum وكتاب التشخيص prognostica مع كثير من كتب جالينوس ، وكان مصير أحد الكتب الذي نشر باسم « كتاب قسطنطين في أمراض العين » يقدم مثالاً لما حدث في تلك الازمان . نقله بعده الى اللاتينية رجل اسمه (ديمتريوس) يظن انه صقلي . ولم يكن هذا الكتاب غير عشر المقالات في العين ، (لحنين بن اسحق) . وعلى كلٍ فقد كان قسطنطين أول من جعل الكتب اليونانية ميسورة منتشرة ، كذلك هو الذي وضع كتب (علي بن عباس) و(اسحق الاسرائيلي) بأيادي خلفائه ، وترجم قسطنطين للرازي كتاباً في الكيمياسماه« كتاب التجارب liber experimentorum» وعلى(قسطنطين)تتلمذ رهبان كثيرون في (مونت كاسينو) ، منهم (يوحنا أفلاشيوس Johannes Afflacius) السرقسطي الذي أعانه على ترجمة المصنفات العربية الى اللاتينية . كانت الحرب سجالاً بين العالمين المسيحي والاسلامي في كل من صقلية واسبانيا في حياة (قسطنطين) . ففي

العام ١٠٨٥م سقطت طليطلة أعظم مركز للثقافة الاسلامية في الغرب بأيدي الاسبـان المسيحيين وصار تلاميـذ اللاتين يفدون الى العاصمة الجديدة ليظهروا إعجابهم بما يرون من بقايا حضارة المغرب ولكي يدرسوا الفنون العربية artes arabum وكـان الوسط الناقل للدراسة ثم الترجمـة بعدئذ ؛ اليهود المتنقلون المتوطنون والاسبان الخاضعون للحكم الاسلامي (المستعربة mozarbs) . ولقد رسم (شارلس ودروثيا سنكر) في مجلد آخر من هـذه السلسلة صورة حية لهذا التعاون الذي يعرض لنا فكرة واضحة عن الامتزاج العلمي العجيب ، وكان أول شخصية علمية اوروبية جاءت الى طليطلة هي (ادلارد الباثي) الرياضي الانكليزي والفيلسوف . وكان يوجد كذلك يهودي اسباني متنصر اسمـه (بطرس الفونسي Petrus Alphonsi) ذهـب الى انكلترة وصار طبيباً (لهنري الاول) ونشر علوم المسلمين هناك لاول مرة . هذان العالمان نقلا المؤلفات العربية الفلكية والرياضية الى اللاتينية في غضون النصف الاول من القرن الثاني عشر وسار على نهجها كثيرون غيرهم . إن الحياة العلمية التي انتعشت في طليطلة خلال القرن الثاني عشر تذكرنا من طرق شتى بفترة الترجمة في بغداد قبلها بثلاثة قرون ، فمثلما أنشأ الخليفة المأمون (بيت الحكمة) ، كذلك أسس (ريموند) رئيس الاساقفة مدرسة للترجمة باشراف رئيس الشمامسة (الارخدياقون دومنيكو كنديسالفي) (٧١) ، ازدهرت هذه المدرسة في طليطلة حتى القرن الثالث عشر . ان الدور الذي لعبه العلماء المسيحيون والصابئة الملمين بلغات عدة في بغداد ، لعبه في طليطلة اليهود الذين يعرفون اللغة العربية والعبرية وأحياناً اللاتينية . فقد ترجم اليهودي

---

٧١) ان كونديسالفي (حوالي ١١٣٠ و ١١٥٠ م) ترجم لا بن سينا « الطبيعيات » وفي « النفس » مع حنا الاشبيلي . و« ما وراء الطبيعة » . وللفارابي « احصاء العلوم » وينبوع الحياة لابن جبريل ، وللكندي « رسالة في العقل والمعقول » ، ولقسطا بن لوقا « الفرق بين النفس والروح » وللغزالي كتاب « مقاصد الفلاسفة » الخ . (المعرب)

المتنصر (أبن داؤد الاشبيلي [٧٢] Avendeath) كتباً كثيرة جداً في الرياضة والفلك والتنجيم من العربية الى اللاتينية مثلما نقل(ثابت بن قرة الصابئي كتب اليونان الى العربية وعمل (جيرار القرموني) للشعوب اللاتينية كما عمل حنين ابن اسحق للعرب في ترجمة مؤلفات الفلاسفة والرياضيين والاطباء والطبيعيين؛ ولد جيرار في قرمونة من أعمال ايطاليا في العام ١١١٤ م ورحل الى طليطلة للبحث عن كتاب المجسطي لبطليموس، ثم ترجمه الى اللاتينية (١١٧٥ م)، وما عتم أن أصبح أعظم وأشهر مترجمي العربية. وقد ساعده في ذلك مواطنان مسيحيان ويهودي واحد. وأصدر في السنوات العشرين التي سبقت وفاته(١١٨٧م) حوالي ثمانين مترجماً بعضها نفيس الى درجة لا تُقَوَّم، ففتح بذلك أبواب الكنوز الثقافية اليونانية والعربية على مصاريعها فضلاً عن أنه أضحى مثالا لاتباعه ساروا على نهجه واحتذوه، فكان الاب الحقيقي للاستعراب في اوروبا.

اننـــا مدينون (لجيرار) في حقل الطب بترجمـــات لمؤلفات (أبقراط وجالينوس) وجميع مترجمات (حنين) تقريباً وآثار الكندي وقانون ابن سينا العظيم. وكتاب الجراحة الشهير لأبي القاسم الزهراوي. لقد ترجم من العربية في علم الطبيعة عدة مؤلفات لارسطو يدخل في عدادها كتاب «الجواهر» المنسوب لهذا الفيلسوف العظيم، فضلاً عن مؤلفات (الفارابي وأسحق الاسرائيلي وثابت بن قرة). كذلك أدى (مرقس اللاهوتي) الطليطلي الذي ربما كان الند الاصغر (لجيرار) خدمة كبيرة فترجم رسالة أبقراط في «الاهوية والمياه والبلدان» وكثيراً من مؤلفات جالينوس عن مترجمات (حنين وحبيش) العربية. وترجم (روفينو Rufino) وهو باحث من مدينة (ألسندريا) في إيطاليا — وإن عاش في (مرسية) باسبانيا — كتاب (حنين الشهير) «مسائل

---

٧٢) ترجم حنا بن داود الاشبيلي لا بن سينا كتاب «الشفاء» ولقسطا بن لوقا كتاب «الفرق بين النفس والروح» ولموسى بن ميمون كتاب «مرشد الحيارى». (المعرب)

حنين » بعنوان « مسائل طبية » ، وعمد ابراهيم الطرسوسي [٧٣] اليهودي الى مساعدة سمعان الجنوي على ترجمة كتاب « التصريف » لابي القاسم الزهراوي باسم « Liber Servitoris » وكتاب ابن سيرابيون [٧٤] في الادوية المفردة ، وترجمت أقسام من آثار أبي القاسم بقلم المدعو (برغنار البلنسي Beregnar Valencia) (وارنالد من فيلانوفا [٧٥] : ت ١٣١٣ م) ولهذا الاخير وهو خاتمة مشاهير مترجمي الكتب الطبية باسبانيا ، ندين بترجمة بعض كتب ابن سينا والكندي وابن زهر وغيرهم .

سقطت صقلية نهائياً بيد النورمان في العام ١٠٩١ م بعد ان ظلت في قبضة الاسلام زهاء مئة وثلاثين سنة وبقيت المركز الخصيب لانتشار العلوم العربية . وكانت اللغات التي يتخاطب بها سكانها بلهجاتها الدارجة ؛ اليونانية والعربية واللاتينية . ولكن بعض مثقفيها كانوا يتقنون الفصيح منها . وكان ملوكها : من (روجر الاول حتى فردريك الثاني ومانفرد وشارل الاول) من أسرة (آنجو) يستقدمون العلماء الى (بالرمو) مهما كان دينهم ولسانهم . فشرع جمهرة من العلماء في بالرمو كما في طليطلة ينقلون من العربية واليونانية الى اللاتينية ، وكانت أغلب هذه التراجم في الرياضة والفلك . لم تظهر في صقلية مترجمات طبية مهمة خلال القرن الثاني عشر ، ولكننا نجد في القرن الثاني

---

٧٣) لابراهيم الطرسوسي : ويكنى « بابراهيم اليهودي البرشلوني » ترجمة القسم الطبي من كتاب « التصريف » للزهراوي بمعونة (سمعان الجنوي). وترجم لحنين رسالة في البول. ونشرت مترجماته في نورمبرغ في السنوات ١٥٣٧ – ١٦٤٥ م . (المعرب)

٧٤) نشأ بالعراق وكان من مترجمي الكتب اليونانية الى السريانية . وجد له الاستاذ ريتر *Ritter* في مكتبة آيا صوفيا باستانبول كتاب « كناش يوحنا الصغير » – من اسمه يوحنا – ولم يكن يعرف قبلها الا بالترجمة اليونانية التي عملت في السنة ١٤٧٩م (الكناش بضم الكاف وتشديد النون هو الكتاب) . (المعرب)

٧٥) *Arnald of Villanova* ١٢٣٥ – ١٣١٣م ترجم لابن سينا كتاب « الادوية القلبية » . (المعرب) .

أيام حكم (شارل الاول المذكور ١٢٦٦ ــ ١٢٨٥ م) المترجم اليهودي العظيم (فراجوت الجرجنتي) (٧٦) هو وترجمته لكتاب الرازي (الحاوي) . لقد فرغ من عمله ــ العمل الذي يستغرق نصف حياة رجل متوسط العمر ، في العام ١٢٨٩ م . وثمّ يهودي آخر اسمه (موسى البالرمي) درب على الترجمة اللاتينية بأمر من الملك شارل ، ولا نعرف من آثاره إلا ترجمته لكتاب مشكوك في نسبته لأبقراط عن أمراض الخيل . وترجم (ميخائيل سكوت :تالسنة ١٢٣٥ م) أحد المقربين الى الملك (فردريك الثاني)، جميع كتب أرسطو في علمي الاحياء والحيوان من العربية والعبرية الى اللاتينية نخص منها بالذكر « مختصر علم الحيوان » مع شروح ابن سينا عليه وقدمه للامبراطور في العام ١٢٣٢ م .

والمعروف جيداً أن (فردريك الثاني) كان يبدي عظيم اهتمام بعلم الحيوان الى درجة أنه استخدم ثروته وصداقته لامراء العرب ليرسلوا الى ملعبه الفيلة والجمال والاسود والفهود والصقور والبومة وغيرها ، إذ كان يصحبها معه في تنقلاته . وكتب هو نفسه كتاباً عن الصيد اسمه (فن القنص) معتمداً في تأليفه على أحد كتب (ميخائيل سكوت) وعلى ترجمة لكتاب أرسطو في الحيوان ، أما عن مدى اهتمام فردريك بعلم البصريات ، فراجع ما سبق من صفحات هذا البحث .

إن أثر الحروب الصليبية في نقل علوم المسلمين الى الغرب كان من الضآلة بدرجة يقف أمامها المرء مشدوهاً ، والكتاب المهم الذي ندين به لهذا البحث التاريخي هو « الكتاب الملكي او كامل الصناعة الطبية » لعلي بن عباس المجوسي ترجمه(اسطيفان البيزي)وهو من سكان(بيزا)نال ثقافته في سالرنو وصقلية ثم رحل الى انطاكية وفيها ترجمه (١١٢٧ م) باسم Liber regales وتعرض

---

٧٦) ترجم فرج بن سالم الجرجنتي ، ايضا لا بن جزلة كتابه « في تقويم الابدان » . (المعرب)

فيه لنقد الترجمة التي عملها قسطنطين الافريقي للكتاب نقداً مراً . ولنا أن نميل الى الاعتقاد بان الفضل في بناء مستشفيات اوربا خلال القرن الثالث عشر ، تلك المستشفيات التي خرجت من احتكار رجال الدين ، انما يعود بعضه الى تأثير الحروب الصليبية.لقد كانت تقليداً بلا ريب للبيمارستانات الجيدة التي أنشأها معاصرهم السلجوقي الملك نور الدين زنكي في دمشق وسلطان المماليك في القاهرة (المنصور قلاوون) . وقد بقي المستشفى الاخير مثاراً لإعجاب السياح الاوربيين في القرون التي تلت . ولقي في هذا الوقت وبعد فترة من الخراب فرصة إحياء . أسس البابا (انوسنت) الثالث في (رومة) في مفتتح القرن الثالث عشر مستشفى القديس (سبيريتو) ، وسرعان ما انتشرت شبكة من المستشفيات أمثاله في غربي اوربا . فالمستشفى والملجأ المسمى (لكانز فان Les quinze - vingt) أسسه (لويس التاسع) في باريس بعد عودته مقهوراً من حملته الصليبية في (١٢٥٤ — ١٢٦٠ م) ، وكان قد خصص بالأصل لايواء ثلاثمائة أعمى فقير ، ثم ألحق به مستشفى لامراض العين وهو يعد الآن من أكبر مستشفيات عاصمة فرنسا [٧٧] .

إن المسلمين الذين اتصلوا بأطباء الفرنج أثناء الحروب الصليبية لم يكتموا ازدراءهم العظيم بصناعة اولئك الاطباء وشكهم بمهارتهم . ويظهر ذلك من الرواية التي قصها (أسامة) الامير السوري نقلاً عن طبيبه المسيحي(ثابت). هذا الرجل عاين في حوالي السنة ١١٤٠ م حالتين جراحيتين ختمتا بالموت بسبب عُقم طرق الجراحة البربرية التي كان يستخدمها الفرنج[٧٨] وأنجزت

---

٧٧) انظر الملحق في آخر الفصل .

٧٨) واليك الحادثتين كما رواها أسامة بن منقذ : «.. ومن عجيب طبهم (الفرنج) ان صاحب (المنيطرة) كتب الى عمي يطلب منه انفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه.فأرسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت ، فما غاب عشرة ايام حتى عاد فقلنا له : ما اسرع ما داويت المرضى قال : احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبخة ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم : (هذا ما يعرف=

بعض المترجمات اللاتينية في القسم الشمالي من ايطاليا ؛ نذكر على سبيل المثال (برغنديو البيزي) الذي أكمل ترجمة عشرة كتب عن جالينوس عن اليونانية رأساً في حوالي ١١٨٠ م . وترجم (اكيوريوس Accurius) من بستويا كتاب (جالينوس) « في قوى الاطعمة De Vibirus Alimentarum » عن ترجمة(حبيش)العربية له حوالي السنة ١٢٠٠م ، وترجم (بوناكوزا) اليهودي المتنصر كتاب الكليات لابن رشد في بادوا سنة ١٢٥٥ م ، ونقل بارفيشيوس كتاب (التيسير) لابن زهر بمعونة يعقوب اليهودي في البندقية سنة ١٢٨٠م. أما عن المترجمين الآخرين ، فلا نعرف شيئاً عن مواطنهم والزمان الذي عاشوا فيه كداؤد هرمينوس David Hermenus الذي ترجم كتاب علاج أمراض العين لعمار الموصلي . وحفل ذلك العصر بتراجم كثيرة لاتينية نجهل أسماء مؤلفيها ، ومنهـا رسائل (لموسى بن ميمون) وابن سينا وجابر والرازي وابن الهيثم . ومما يجدر التنويه به أن أغلب الترجمات الكيمية نجهل أسمـاء مترجميها . سارت عملية الترجمة سيراً حثيثاً حتى القرن السادس عشر ، واننا لنجد ذكر أندريا الباكو [79] البللوني بايطاليا (ت ١٥٢٠ م) ضرورياً

شيء يداويهم) وقال للفارس : أيما أحب اليك ، تعيش برجل واحدة او تموت برجلين ؟ قال : اعيش برجل واحدة . قال : احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً ، فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحـدة واقطعها . فضربه وانا أراه ضربة واحدة ما انقطعت ، ضربه ضربة ثانية ، سال مخ الساق ومات من ساعته . وابصر المرأة فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل . فزاد بها النشاف فقال : « الشيطان قد دخل في رأسها » ، فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت في وقتها . فقلت لهم : بقي لكم الي حاجة ؟ قالوا : لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه !» (الاعتبار ص ١٣١ — ١٣٢) . (المعرب)

(٧٩) ترجم أندريا الباكو لابن سينا عدا ما ذكر أعلاه « السنكجبين » و« الكناش » لابن سيرابيون . (المعرب)

بوصفه أحد مشاهير مترجمي كتب ابن سينا (القانون Canon) و (النفس De Animia) و(تقدمة المعرفة Aphorismi)،وآثار صغيرة لابن رشد ويوحنا بن سيرابيون ومعجم الاطباء الذي كتبه ابن القفطي.وثمّ تراجم عديدة تعود الى ما بعد ذلك التاريخ استخدمت بصورة واسعة في التدريس الجامعي على الاخص في فرنسا وشمالي ايطاليا . بهذا الطريق انتقلت مئات من تراجم التراث العربي — الاغريقي العلمي الى تربة اوروبا المجدبة . وكانت النتيجة زخات من المطر الوابل أحيا تلك الارض الموات . فبتأثير تراجم(قسطنطين الافريقي) ظهر في سالرنو جيل من مشاهير الاساتذة في الطب ، وأظهر علم وظائف الاعضاء بعض النشاط والانتعاش وصدرت كتب في علم التشريح فاقت ما سبقها اتقاناً وأصبحت أمراض النساء وعوارض الحمل والولادة موضوعاً للدراسة العلمية بعدما كانت الى ذلك الزمن من اختصاص القوابل والمولـدات . وانتقلت أمراض العين من أيدي (قدّاحي العين) الجوالين الى أيدي أطباء عارفين بمهنتهم . وأسس ما لا يعد ويحصى من الجامعات والمعاهد . ابتداء من القرن الثاني عشر فصاعداً . وأصبحت مراكز الثقافة الجديدة جامعات(بللونا وبادوا ومونبيليه وباريس)، وكما هو الشأن في الاسكندرية البيزنطية وبغداد حاضرة الخلافة لم تكن الدراسة إلا قراءة كتب الاقدمين ، تلك الكتب التي صارت أخيراً ميسورة باللغة اللاتينية ، ولم يكن العلم التجريبي قد ظهر حتى ذلك الوقت . وتأثرت علوم النبات والحيوان والطبيعة والكيميا خطو مناهج الاساليب العربية اليونانية مطلقاً . ولم يجر تشريح الجسم البشري علناً إلا في نهاية القرن السادس عشر بمدينة بللونا . وكان أول السماح هو لغرض استحصال بعض الادلة القضائية (انظرسنكر)،فهي لم تكن تستخدم قطعاً لتصحيح الاخطاء التشريحية والعضوية التي وقع فيها (جالينوس) ونقلها (ابن سينا) كما هي وبقي التقليد أقوى من التجربة . ومهما يكن فقد حصل من الجهة العملية

بعض التقدم في ميداني الصحة والجراحة ، وربما في كيفية ادارة المستشفيات أكثر من غيرها . فاضطلع (كي دي شولياك) كبير جراحي مونبيلييه (ت ١٣٦٨ م) بعمليات بدائية (للفتق والكتاركتا) ، كما أتحفنا (لانفراشي الميلاني Lanfranchi) الذي زاول الطب في فرنسا بطرق محسنة لربط الاوعية الدموية وخياطة الجروح ، أما معالجة القيح في الجروح بوضع كمادات من النبيذ عليها فقد بقيت تسود شمالي ايطاليا حيناً من الزمن . وكانت باريس موطن علوم الطبيعة جميعها ، وتعاليم أرسطو التي انبعثت من طليطلة العربية مع شروح ابن رشد عليها هناك ، وشرح (روجر بيكن) وغريمه (البرت البولشتادي) (البرت الكبير) (٨٠) وآخرون غيرهم أساساً للثقافة .

ولقد وجدنا فيما سبق كيف بنى (روجر بيكن) مؤلفه في البصريات على كتاب « المناظر : لابن الهيثم » ، وهنا أيضاً نجد (البرت الكبير) يردد تعاليم جابر الكيمية وغيره من كتاب العرب بكتابه « في المعادن » ولكنه كان مبتدعاً في دراساته النباتية والحيوانية ،وحتى في هذه فإنه كان يعتمد على بعض المترجمات اللاتينية من العربية . ان تأثير جابر كان واضحاً في موسوعة فنست البوفي المسماة مرآة الطبيعة Speculum Naturale كما ان الرسائل المعزوة (لارنالد الفيلانوفي وريموند لل) (٨١) كلهــا مشحونة بمقتبسات مــن (جابر) وكانت الكيميا العربية الممزوجة بالتنجيم هي السائدة طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وبعد القرن السادس عشر صار الطب والعلم(في شمالي ايطاليا على الأخص) يبتعد عن العربية ليدنو أكثر فأكثر من الترجمة عن اليونانية مباشرة ، فحصل نزاع بين الاتجاهين العربي واليوناني واشتد الخصام

---

٨٠) البرت الكبير : (١٢٠٥-١٢٨٠م)من كبار فلاسفة القرون الوسطى الالمان . (المعرب)

٨١) (١٢٣٥ - ١٣١٥ م) فيلسوف وباحث اسباني متشيع للعربية وأحد خصوم ابن رشد . (المعرب)

بين أنصار الجهتين وإن لم يكن ثمَّ كبير فرق بين الاثنين ، فما دامت كتب الاقدمين هي المرجع الاول والاخير في البحث العلمي فالدراسة وحدها هي صاحبة القول الفصل . وبعد اختراع فن الطباعة ، بوشر بطبع جميع الكتب اليونانية والعربية العلمية منها والطبية مراراً عديدة وبرغبة مستمرة . وفي الفترة المنحصرة ما بين ١٥٣٠ — ١٥٥٠ م ، أصيب الاستعراب بضربة قاتلة . وخلاصة الحكاية ان انقلاباً فكرياً تم عقيب الثورة الفلكية التي جاء بهـا (كوبرنيكوس : ت١٥٤٣م) (وباراجلسوس [٨٢] : ت ١٥٤١م) المجدد في الطب والكيميا الذي كان يحرض تلاميذه بلا انقطاع على نبذ آراء جالينوس وابن سينا والاستفادة من الملاحظة والتجربة بقوله : « التجربة والاستنباط وتحكيم العقل خير من الاعتماد على المؤلفين Experimenta et ratio auctorm loco mihi suffragantur ! » . وفي الوقت الذي نشر (كوبرنيكس) كتابه « ثورة الاجرام السماوية » ألف (أندريه فيسال: ت ١٥٤٣ م) كتابه في أسس(علم وظائف الاعضاء) الحديث . وفي هذه السنة نفسها كانت نهاية العصور الوسطى في العلم والطب والختام المؤسف لسيادة العلوم العربية المباشر . على أن الاستعراب بقي يصير الى الزوال على مهل . ففي فيينا الى سنة ١٥٢٠ ، وفرانكفورت (على نهر الاودر) الى سنة ١٤٨٨ ، ظل البحث العلمي لا يخرج عن نطاق قانون ابن سينا والجزء التاسع من الكتاب المنصوري للرازي . وامتد هذا العمر الى القرن السابع عشر حيث بقي الباحثون في فرنسا والمانيا متمسكين بالطريقة العلمية العربية بينما استمر الكفاح بين أنصار الثقافتين العربية واليونانية حتى هزما معاً بهجوم مبادىء العلوم الجديدة . أما علم الصيدلة العربي فقد عاش حتى مطلع القرن التاسع عشر ، فطبعت أجزاء من كتاب(ابن البيطار) في الادوية المفردة بترجمتها اللاتينية في السنة ١٧٥٨ م بمدينة(كرمونا). ودرست

---

٨٢) *Paracelsus* (١٤٩٠ - ١٥٤١) أحد كبار الاطباء في القرون الوسطى (المعرب)

أبحاث سيرابيون وماسويه الماردیني (الأصغر) ولخصت لافادة مدارس الصيدلة في اوروبا حتى السنة ۱۸۳۰ تقريباً، واعيد طبع المجموعة الارمنية الطبية التي جمعها ميختار Mechithar من المصادر العربية والفارسية واليونانية في العام ١١٨٤ م وكان طبعها في البندقية السنة ١٨٣٢ م . وقد وجدتُ في كتاب الماني قديم في علم الحيوان كلّ الخرافات التي تدور حول المقدرة السُمية لسام أبرص (وهو حيوان شرقي غير مؤذ من زواحف البيوت) مما يمكن العثور عليه بالنص في كتاب «حياة الحيوان» للدميري .

عاشت آراء الاغريق والعرب في بعض فروع الطب زمناً طويلاً حتى في ميدان التطبيق والعمل . وقد ترك (فيسال) نفسه بعض الاغلاط التي وقع فيها (جالينوس وابن سينا) في تشريح العين وأجزائها غير مصححة . فبقيت كذلك حتى السنة ١٦٠٠ م تقريباً . فالوصف الحقيقي لقزحية العين (انها جسم صلب مظلم للعدسة وليست بسائل جامد) : كان من مكتشفات (بيير بريسو Pierre Brisseau) الطبيب الفرنسي في العام ١٦٠٤م . وان عملية القدح القديمة (ثقب قزحية العين بمسمار) كما وصفها انتللوس Antyllos الاسكندري ومارسها (برسفال بوث) بانكلترة في ١٧٨٠م. (وهي التي أخذها الرازي عن انتللوس ، حتى وصلت الى علي بن عيسى) ، بقيت تمارس في المانيا حتى السنة ١٨٢٠ م . إن التقاليد الطبية والعملية ما زالت في الشرق الاسلامي رائجة السوق تنبض بالحياة في الطب البلدي وبين القرى وعند الحلاقين . وقد وجد كاتب هذه السطور في يوم كتابته هذه الخواطر ، مُشعْبِذاً سودانياً جوالاً في القاهرة يُجري على عين رجل عملية قدح الماء على طريقة انتللوس وابن سينا . كما اعتاد العطارون من سكنة مراكش والهند تركيب أدويتهم بارشاد (اقرباذين) أطباء العرب .

لو التفتنا الى الوراء قليلاً ، صح لنا القول بان الطب والعلم العربي قبل أن

تدول دولته كان يعكس أشعة الشمس اليونانية ــ الهيلينية . وكانت العلوم الاسلامية وهي في أوج عظمتها تضيء كما يضيء القمر فتبدد غياهب الظلام الذي كان يلف اوروبا في القرون الوسطى . ولكن بعض النجوم أخذت تسطع على مبعدة ، فصارت أضواء القمر والنجوم الاخرى تبهت وتتهافت مؤذنة بانبلاج يوم جديد، وهو يوم (إحياء العلوم)، ولما كان لتلك العلوم العربية سهمها الأوفى في توجيه هذا العهد الجديد وحث خطواته ، فعلينا أن نقر مذعنين بان التراث العربي الاسلامي ما زال يعيش في علومنا حتى الآن .

ماكس مايروف

ملحوظة : إن الكاتب شديد الامتنان من الدكتور شارلس سنكر لمراجعته هذا البحث وقيامه بتصحيحه والادلاء ببعض المقترحات فيه .

بعض الكتب للمراجعة والاستنارة

١) الطب والعلم العربيان :

F. Wustenfeld, Geschichte der arabischen Aerzte und Naturforscher, Gottingen, 1840 مازال مرجعاً رئيساً لايمكن الاستغناء عنه في هذا الموضوع، L. Leclerc, Histoire de la médecine arabe, 2 vols., Paris, 1876, and C. Brockelmann, Geschichte der arabischen Literatur, 2 vols., Weimar, 1898-1902 وما يمكن قراءته من الكتب التي تشمل آفاقاً واسعة من المعرفة

Baron Carra de Vaux, Les penseurs de l'Islam, 5 vols., Paris, 1921-6; Joseph Hell, The Arab Civilization, Cambridge, 1926; M. Meyerhof, Le monde islamique, Paris, 1926; De Lacy O'Leary, Arabic Thought and its Place in History, London, 1926.

والكتب التالية هي ذات قيمة في مسائل خاصة

E.G. Browne, Arabian Medecine, Cambridge, 1921; E. J. Holmyard, Book of Knowledge concerning cultivation of gold by Abulqasim Muhammad ibn Ahmad, Paris, 1927; and Avicennae De congelatione et conglutinatione lapidum, Paris, 1927; O. Von Lippmann, Entstebung und Ausbreitung der Alchemie, Berlin, 1919; H. Suter, Die Mathematiker und Astronomen der Araber, Leipzig, 1900; J. Berendes, Die Pharmacie bei den alten Culturvôlkern 2 vols., Halle, 1891; J. Stephenson, Zoological Section of the Nuzhatu-l-Qulub of... al Qazwini, London, 1928; H. Duhem, Le Système du Monde, 5 vols., Paris, 1913-17; J. Hirschberg, Geschichte der Augenheil kunde bei den Arabern, Leipzig, 1905; Abu Mansur Muwaffak, Liber fundamentarum Pharmacologiac, ed. R. Seligmann, Vindobanae, 1830-3; G. Bergsträsser, Hunain ibn Ishaq Uber die syrischen und arabischen Galenübersetzungen, Leipzig, 1925. O.C. Gruner, A treatise on the Canon of Medecine of Avicenna, London, 1930.

٢) النقل الى الغرب :

من الكتب التي لايمكن الاستغناء عنها كتاب، M. Steinschneider, Die Europäischen Ubersetzungen aus dem Arabischen bis Mitte des 17 Jahrhunderts, 2 parts, Vienna, 1904-5.

وهناك ايضاً معلومات هامة في كتاب :

E. Wiedemann, Beiträge zur Geschichti der Neturwissenschaften, 69 fasc., Erlangen, 1904-29; G. Sarton, Introdution to the History of Science, Baltimore, 1927; and Lynn Thorndike, History of Magic and experimental Science, 2 vols, 2nd edition, Cambridge, Mass., 1927.

وثمة كتب تشمل آفاقاً واسعة لأجل القراءة وزيادة المعرفة ، ومنها :

Charles Singer, From Magic to Science, London, 1928; and Studies in the History and Method of Science, vol. ii, Oxford, 1921; C.H. Haskins, Studies in the History of Medieval Science, 2nd edition, Cambridge, Mass. 1927.

إن الكتب الاتية ذات قيمة في مواضيع خاصة :

Charles Singer, Short History of Medecine, Oxford; Max Neuburger, History of Medecine, 2 vols, Translation, Oxford, 1910-1915; D. Campbell, Arabian Medecine, 2 vols, London, 1926; F.H. Garrison, An Introduction to the History of Medecine, 4th edition, Philadelphia, 1929; E.J. Holmyard, Chemistry to the Time of Dalton, Oxford, 1925; Darmstaedter, Die Alchemie des Geber, Berlin, 1922; Dorothia Waley Singer, Catalogue of Latin and Vernacular Alchemical Manuscripts in Great Britain and Ireland, 3 vols., Brussels, 1928-29; H. Schelenz, Geschichte der Pharmazie, Berlin, 1904; Julius Ruska, Tabula Smaragdina, Heidlberg, 1926; G. Sobhy, The Book of al-Dhakhira, Cairo, 1928; Hirschberg, Die arabischen Augenärzte, 2 vols., Berlin, 1904-5; Max Meyerhof, The Ten Treatises on the Eye, by Hunain b. Ishaq, Cairo, 1928; E. Wiedemann, Al-Kimiya, in Encyclopaedia of Islam, Vol. ii, 1927 (Leyden and London); L. Leclerc, Traité des Sample par Ibn al-Baithar, 3 vols., Paris, 1877; Jayakar, Al-Damiri's Hayat al-Hayawan, a zoological Lexicon, 2 vols., London and Bombay, 1906-8; M. Berthelot, La Chimie au Moyen-Age, vol, iv, Paris, 1895; J. Ruska and P. Kraus, Der Zuammerbruch der aeschabir-Legende, Berlin, 1930.

ان الكاتب مدين للدكتور (شارلس سنكر) لمراجعة هذا القسم وتصويباته ولبعض الاقتراحات الاخرى التي اخذت بها مشكوراً .

ملحق للمعرب

بادارة المستشفيات والمراقبة الصحية في المجتمع الاسلامي

أنواع المستشفيات :

تكامل تقسيم المستشفيات في العقد الثاني من فترة حكم الدولة العباسية ، فكان ثمّ مستشفيات للمجانين وأخرى سيّارة (متنقلة) [1] وعسكريـة (مستشفيات ميدان) ومستوصفات تقام بالقرب من المساجد حيث يقوم الصيادلة والاطباء بالعلاج وصرف الدواء مجاناً [2] . وكان ثمّ مآوي للعجزة والنساء (كالتي أمر ببنائها المأمون) [3] ، ثم وجدت المستشفيات الملحقة بالمدارس والسجون . وعلى رأس هذه المعاهد تقوم المستشفيات العمومية الكبيرة وتشاد في العواصم عادة . يعين لادارتها الاطباء المهرة الاختصاصيون ، ويُلحق بها كليات الطب والصيدلة والكِحالة (طبّ العيون)والجراحة وتوقف عليها الاوقاف العظيمة لإدامة حياتها .

والمستشفى الكبير في العادة يتألف من جناحين واحد للرجال والآخر للنساء ويلحق بهما جناح الامراض العقلية . وفي أغلبها ردهات مخصوصة للتوليد وجبر الكسور والجراحة والعيون وفيها غرف خاصة للنقاهة ، وصيدلية مملوءة بكل صنوف الادوية التي توزّع مجاناً .

---

١) ابن اصيبعة ج ١ ص ٢٢١ .
٢) المقريزي ج ٢ ص ٢٤ .
٣) ابن خلكان ج ١ ص ٤٩٣ .

المعالجة :

كان يقبل في المستشفيات الاسلامية كافة ، كل شخص بغض النظر عن دينه أو لونه او جنسيته او طبقته ذكراً أم أنثى مهما بلغت مرحلة مرضة ، أمرٌ قد يستغرب منه في عصرنا الحديث عصر المساواة ! واليك نُتَفاً من وقفية المستشفى المنصوري الذي بناه (منصور بن قلاوون) في العام ١٢٨٢م :

« .. وتقيم المرضى الفقراء من الرجال النساء لمداواتهم الى حين برئهم وشفائهم . ويُفرّق على القوي والضعيف والغني والفقير والمأمور والأمير والمترف والصعلوك من غير اشتراط تَعَوّض من الأعْواض بل لمحض فضلَ الله الكريم[٤] .. »

وأن الاهتمام بمراقبة الأرزاق والجرايات وتوزيعها همٌّ كل مسؤول . وكان المتعهد الغَشاش يعاقب ويُعزَّر ، كما فعل الوزير (عيسى بن علي) مع مدير أرزاق المستشفى العضدي بناء على شكوى الساعور (العميد) ثابت بن قرة الطبيب المعروف .

« .. عَرّفْني أكرمك الله ، ما النكتةُ في قصور المال ونقصانه ، في تخلف نفقة البيمارستان .. خاصة مع الشتاء واشتداد البرد ؟ فاحتلْ بكل حيلة لِما يُطلق لهم ويُعمل حتى يدفأ من في البيمارستان من المرضى بالدِثار والكسوة والفحم .. وأعْنِ بأمر المستشفى أفضل عناية[٥] .. » .

وكانت الخفارة واجبة على الاطباء كبيرهم وصغيرهم رفيعهم ووضيعهم ، وقد تمتد إلى ثمان واربعين ساعة[٦] .

كان المرضى قبل دخولهم المستشفى يفحصون أولاً في القاعة الخارجية (العيادة الخارجية) فمن خفّت علته ، أُسعِف وكُتب له العلاج وصُرف له

٤) تاريخ البيمارستانات في الاسلام للدكتور احمد عيسى ص ١٥٢ .
٥) ابن اصيبعة ج ١ ص ٢٢٢ .
٦) القفطي ص ١٤٨ .

من صيدلة المستشفى [٧] ، أما الباقون فكانوا بعد أن تقيد أسماؤهم في سجل المرضى ، يدخلون الحمام ويغتسلون ثم يلبسون ثياباً مطهرة نظيفة ، أما ثيابهم التي جاؤوا فيها ، فتحفظ في المخزن حتى خروجهم .

والمرء لا يسعه إلا أن يعجب أشد العجب لشدة حرص السلطات في ذلك الزمن على الاهتمام بتغذية المرضى . كانت علامة الشفاء عند الاطباء هي أن يأكل المريض رغيفاً ودجاجة كاملين في كل وجبة . وكان المرضى قبل خروجهم من المستشفى ، يُعطون بذلة ثياب ومبلغاً من المال ، لهذا تكثر حالات (التمارض !) كما روى صاحب (الافادة) من أن شاباً عجمياً تظاهر بالمرض ولكن أمره لم يَخفَ على الطبيب الفاحص ، فأدخله المستشفى رغم ذلك وأبقاه ثلاثة أيام وبعدها جاء اليه وقال ممازحاً : « ان مدة الضيافة العربية قد انتهت ! » [٨] .

توزيع الادوية ومراقبة الصيدليات :

يذكر بن أصيبعة عن أساتذته في معرض تنويهه بدراسته : « .. وكان في ذلك الزمان في البيمارستان الشيخ رضي الدين الرحبي أشهرهم ذكراً ، وكان يجلس على دكة ويكتب لمن يأتي الى البيمارستان ويستوصف منه للمرضى أوراقاً يعتمدون عليها ويأخذون من البيمارستان الاشربة والادوية التي يصفها .. » [٩] .

والوصفات : إما داخلية وهي التي يصرفها صيدلي المستشفى الرسمي ويسجلها لمحاسبته عنها . وإما خارجية وهي التي يحتفظ المريض بها لمراجعة الصيدليات (الدكاكين) الخاصة في المدينة . ومما تجدر الاشارة اليه أن سائر الصيدليات الخاصة كانت خاضعة للتفتيش الحكومي الدقيق ويتولاه مفتش

---

٧) ابن اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٣ .
٨) الافادة والاعتبار ص ١٢٢ .
٩) ابن اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٣ .

الصيدليات (رئيس العشابين) ، ولذلك كان يوجد قيد خاص بأسماء الصيادلة وتثبت بالاجازات والرخص لفتح هذه الدكاكين [١٠] .

الدراسة وتخريج الاطباء :

ذكرنا وجود كلية ملحقة في كل مستشفى عمومي يقصدها الطلبة لدراسة الطب والتخرج . كانوا عادة يجتمعون في القاعة الكبرى يراجعون دروسهم وينسخون المخطوطات الطبية وعدا المحاضرات التي كانت تعطى من قبل الاساتذة ، كان باب التطبيق لهم مع المرضى مفتوحاً على مصراعيه . كان الاطباء المسؤولون يكتبون التعليمات والعلاج اللازمين لكل مريض فيقوم التلاميذ على تنفيذها واكتساب الخبرة . ولم يكن يصرح لأحد بتعاطي الطبابة إلا بعد اجتيازه الفحص على يد عدة أساتذة مختصين ومنحه شهادة (اجازة علمية) موقعة تؤيد حقه في تعاطي مهنة الطب . ويروى ان الخليفة (الطائع) بلغه السنة ٩٤٩ م أن أحد أطباء بغداد أخطأ في علاج مريض فتوفي. فأصدر أمره بفحص جميع الاطباء ما عدا القائمين بخدمته ، وكان عددهم في بغداد وحدها ٨٦٠ طبيباً [١١] عدا أطباء الخليفة .

وكان اختيار عمداء المستشفيات الكبيرة لا يجري اعتباطاً كما يجري اليوم أو على أساس المحسوبية والتوسط وبذل الرشوة ، بل بالامتحان والفحص الدقيقين والشهرة المتواترة [١٢] .

مقارنــة :

إن المستشفيات العربية ونظم الصحة في البلاد الاسلامية الغابرة لتلقي علينا

١٠) ابن اصيبعة ج ٢ ص ١٣٣ .

١١) ابن أصيبعة ج ١ ص ٢٢٢ . ومن غريب الصدف أن يكون عدد أطباء بغداد الممارسين في الوقت الحاضر حوالي ٨٥٠ طبيباً ، ومع هذا ترتفع الاصوات بسحب جانب من هذا (الجيش) وتوزيعه على الزيف وحاجة الزيف الى العناية الطبية لا يمكن وصفها ، ونحن بعيدون الف سنة عن الفترة الموصوفة .

١٢) ابن أصيبعة ج ١ ص ٣١٠ .

الآن درساً قاسياً مراً لا نقدره حق قدره إلا بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات اوربا في ذلك الزمن نفسه .

مرَّ أكثر من ثلاثة قرون على اوربا اعتباراً من زمننا هذا قبل ان يُعرف للمستشفيات العامة معنى في مدنها . ولا نبالغ اذا قلنا بانه حتّى القرن الثامن عشر (سنة ١٧١٠ م) والمرضى يعالجون في بيوتهم او في دور خاصة (١٣) . كانت المستشفيات الاوربية قبلها ، عبارة عن دور عطف وإحسان ومأوى لمن لا مأوى لديه ، مرضى كانوا أم عاجزين . وأصدق مثال لذلك هو مستشفى (اوتيل ديو Hotel Dieu) بباريس أكبر مستشفيات اوربا في ذلك العصر وصفه كل من ماكس نوردو Max Nordaw وتينون Tenon بما يلي :

« يحتوي المستشفى ١٢٠٠ سرير منها ٤٨٦ خصصت لنفر واحد ، أمـا الباقي—ولم تكن سعة الواحد منها تتجاوز خمسة أقدام ، فيوجد فيها عادةً ، ما يتراوح بين ثلاثة مرضى وستة . وكانت الردهات الكبرى عفنة كثيرة الرطوبة لا منافذ تهوية فيها ، مظلمة دوماً ، ترى فيها في كل حين حوالي ثمانمائة مريض يفترشون الارض وهم مكدسون بعضهم فوق بعض على القاع او على كوم من القش في حالة يرثى لها ... انك لتجد في السرير ذي الحجم المتوسط اربعة اوخمسة مرضى متلاصقين وقدَمْ أحدِهم على رأس الثاني ! تجد أطفالاً بجانب شيوخ ، نساء بجنب رجال (قد لا تصدق لكنها الحقيقة) ، تجد امرأة في المخاض مع طفل في حالة تشنج مصاب بالتيفوس يحترق في بحران الحمى ، وكلاهما الى جنب مريض بداء جلدي يحك جلده المُهتَريء باظفاره الدامية فيجري قيح البثور على الاغطية ... وطعام المرضى من أحقر ما يتصوره العقل يوزع عليهم بكميات قليلة للغاية وفي فترات متباعدة لا نظام فيها . وقد اعتادت الراهبات أن يحابين المرضى الطائعين المنافقين على حساب الباقين

---

١٣) دائرة معارف ايفري مان ج ٧ ص ٢٨٥ .

فيسقينهم الخمور ويصلنهم بالحلوى والمآكل الدسمة مما يتفضل به المحسنون ، في الوقت الذي هم أحوج الى الحمية فيموت الكثير منهم بالتخمة ريفطس غيرهم جوعاً . وكانت أبواب المستشفى مفتوحة في كل وقت وحين لكل رائح وغاد ، وبهذا تنتشر العدوى بانتقالها وبالفضلات وبالهواء النتن الملوث. وإن لم يتفضل المحسنون على المرضى ، ماتوا جوعاً كما يموتون أحياناً بالتخمة او من فرط السكر ! .. البناية حافلة بالحشرات الدنيئة وهواء الحجرات لا يطاق لفساده حتى أن الخدم والممرضين لم يكونوا يرأون على الدخول إلا بعد وضع اسفنجة مبللة بالخل على أنوفهم .. وتترك جثث الموتى ٢٤ ساعة على الاقل قبل رفعها من السرير المشاع ؛ وكثيراً ما تتفسخ الجثة وتتعفن وهي ملقاة بجانب مريض يكاد يطير صوابه (١٤) . . » .

واليك حادثة أخرى وقعت بعد هذا الوقت بحوالي ١٥٠ عاماً في (ميلان) السنة ١٦٣٠م ، تدلنا على مبلغ الجهل العلمي المستحوذ: ففي صباح الأول من حزيران لوحظ (كوكبيلمو بيازو) رئيس صحة المدينة يسير في الشارع وهو يكتب من محبرة مثبتة بحزامه ويمسح بقع الحبر من أصابعه في حيطان البيوت أثناء سيره ، فسرت إشاعة بين الناس انه يصم البيوت بقشع الطاعون ورفعت شكوى ضده الى مجلس المدينة فقبض عليه وعذب الى أن أقرّ بأنه كان ينشر الطاعون فطلب منه أن يعترف بشركائه ، فذكر اسم الحلاق (مورا) فقبض عليه وعذب حتى أقرّ بجرمه ، واتهم (دون جوان دي باديللا) ابن قائد القلعة ، فقبض عليه وعذب ونفذ حكم الموت بهم جميعاً بتمزيقهم على الاسياخ والكلاليب (١٥) .

وامثال تلك الحكايات كثيرة .

---

١٤) انظر كتاب « أبالسة أدوية ، أطباء *devils, drugs & doctors* » تأليف *H.W. Haggard* ص ٣٣ – ٣٤ .

١٥) المرجع السابق ص ٢٠٨ – ٢١٢ .

الموسيقى

بقلم

الدكتور اج . جي . فارمر

Dr. H. G. Farmer. (M. A, OH. D, M. R. A. S.)

١٨٨٣ - ١٩٦٢

أحد المستشرقين البريطانيين المعاشرين . بدأ عمله موسيقيا محترفاً ، ثم انصرف الى دراسة الموسيقى بصورة عامة ، ثم تعلم العربية والفارسية ، وأوقف نفسه على دراسة الموسيقى العربية نظرياً وتاريخياً حتى صار حجة فيها ومرجعاً . وفي مؤتمر الموسيقى العربي المنعقد في القاهرة للعام ١٩٣٢ ، انتخب رئيساً للجنة التاريخ والموسيقى .

الف في ذلك كتباً منها « التأثير العربي في نظرية الموسيقى » و« المخطوطات الموسيقية العربية في المكتبة البودلية » و« أثر الموسيقى مستمداً من المصادر العربية » و« تاريخ الموسيقى العربية » . كما طبع القطع الموسيقية المنسوبة للفارابي والموجودة في كتاب « احصاء العلوم » ، وأشغل منصب الاستاذية في جامعة كلا سكو ، وقد اذيعت له سنة ١٩٤٩ سلسلة أحاديث عن الموسيقى العربية من الاذاعة البريطانية » . (المعرب)

حين نفكر في البون الشاسع الذي يفصل الموسيقى الشرقية عن زميلتها الغربية ، يتعذر علينا أن نحكم بوجود تراث عربي او اسلامي في موسيقى اوروبا . ونحن الغربيين نفهم الموسيقى « رأسياً vertically » ، بينما يفهمها العرب « افقياً horizontally » . وبمعنى أوسع ، اخلافنا عنهم في قواعد الموسيقى التوافقية اللحنية [١] مما يوجد في كل من فنّيْ الموسيقى : الشرقي والغربي حسب اتجاه كل واحد منهما. هذا فضلاً عن رأي العرب في درجة الأساس (القرار) والإيقاع والزائدة الموسيقية [٢] . فما هو لديهم منها غريب عنا تماماً . على كل حال ، فالاختلاف بين الفنين في القرن العاشر لم يكن عظيماً قطْ . بالعكس فقد كان تافهاً يكاد لا يُذكر بحيث يمكن رد الوجهين الى أصل واحد بكل سهولة ؛ اذ أنهما اعتمدا في فترة من الزمن على المقام (السلم) الفيثاغوري[٣] ، وورث كلاهما عناصر معينة من اليونان والسريان .

١) البعد الموسيقي نوعان : لحني *melodic* ، وتوافقي *harmonic* ، وتعريفهما بأبسط صورة ممكنة هو أن الاول منهما ما كان صادرا من صوتين متعاقبين والثاني ما كان صادراً من صوتين في آن واحد . (المعرب)

٢) درجة الاساس او *tonic* وهي المعروفة بالقرار . أما الايقاع *rythm* فيمكن تعريفه بانه الضابط للمنشدين أو الضاربين لئلا يسبق أحدهم الآخر ، أو يتأخر عنه ، ويعبر عنه المحترفون عندنا بـ « دم تك » أو « دم طاع » وهو بمنزلة التفاعيل من الشعر. أما الزخرفة أو الزائدة الموسيقية *gloss* فهي عبارة عن تلوين المقطوعة أو المقام بألحان تزيدها جمالا وحيوية . (المعرب)

٣) من الحقائق الثابتة في علم الموسيقى أنه مهما تعددت تقسيمات السلالم واختلفت نسب الانغام ، فلا بد من وجود سلم قياسي يتبين بواسطته الفوارق الصوتية بين درجات أي سلم كان . والسلم الفيثاغوري كان قائماً بهذه المهمة . حتى جاء العرب فأضافوا الى درجاته السبع الرئيسة، عشر درجات فرعية *notes* لتسهل الدلالة على أنواع الأبعاد الموسيقية والتقليل من عدد علامات التحويل (البيمول) التي يستلزمها التعبير عن سائر نسب الأنغام فيما لو اقتصرنا على درجات السلم. (انظر الملحق الأول) هذا السلم الفيثاغوري يتألف من خمسة أبعاد طنينية نسبة كل منها ٩/١ الوتر ، ومن بعدين قيمة كل منها ٢٥٦/١٣ من الوتر. ويعزى تأليف هذا السلم الى مدرسة الفيلسوف اليوناني(فيثاغوراس من القرن السادس ق.م) التي دون لها تاريخ الحضارة مستنبطات علمية وفنية لا تحصى . ويسمى ايضاً بالسلم اليوناني كما سنرى فيما بعد (المعرب)

هذا كما أن الموسيقى اللحنية كما نفهمها الآن لم تكن معروفة حينذاك . أما الفر ق الظاهر بين الصناعتين ، فهو أن العرب كانوا يملكون نظاماً في الموسيقى (المُقَنَّنة) فضلاً عن ادراكهم التام لمعنى الزائدة الموسيقية او ما يُدعى (بزخرفة اللحن) التي لها كان تأثير مباشر في الموسيقى الغربية . ان مصدر الموسيقى العربية هي : النظرية الساميّة ؛ وممارسة صناعة الموسيقى من أقدم العصور التاريخية . هذان العاملان أثرا في صناعة الموسيقى اليونانية وممارستها إن لم نقل انهما كانا أساسها وسر وجودها . ومما لا مراء فيه أن مملكتي الحيرة وغسان العربيتين اللتين ازدهرتا قبيل الاسلام ، تأثرتا بعض الشيء بما ساد المجتمعات الفارسية والبيزنطية واقتبستا معاً من السلم الفيثاغوري الذي كان ساميّ المصدر . وفي أيام الاسلام الأولى نجد الحجاز — وكانت قطب السياسة — تتبنى الموسيقى المقننة المسماة بالعربية (الايقاع) . وفي غضون هذا العصر اتبع العرب نظرية موسيقية جديدة جاء بها ابن مِسجَح [٤] المتوفى السنة (٧٠٥ أو ٧١٤ م) ، وتحتوي هذه النظرية على عناصر فارسية وبيزنطية . وبهذا يقول

---

٤) : (ت سنة ٩٧ هـ = ٧١٥ م) هو أبو عثمان سعيد بن مسجح من أعظم موسيقاري ومغني العصر الاموي . ولد في مكة وكان مولى لبني الجهم . وسمعه سيده في أيام حكم معاوية يغني أبياتاً عربية بألحان فارسية فطرب لها وأعتقه . وهنا فكر ابن مسجح جديا في احتراف صناعة الغناء . فسافر الى الخارج للاستزادة من فنونه وأخذ ما لم يدركه . فوجد في سوريا وتعلم من البربطية (وهم الضاربون على البربط) و من الاسطخوسية (وهم من أصحاب نظريات الموسيقى البيزنطيين) ثم رحل الى فارس وأخذ عن غنائهم الكثير . وأتقن فن الدرب (وهو مصاحبة الموسيقى للغناء) ثم عاد الى الحجاز وأخذ يمارس صناعة الموسيقى مسقطاً من الموسيقى الأجنبية ما استقبحه من النبرات والنغم ما لا يأتلف والذوق العربي . وفي عهد عبد الملك بن مروان ذاع صيته وأثارت شهرته في الغناء سخط بعض المتزمتين من المسلمين فاتهم عند عامل مكة بالفسق فأبعد الى دمشق . وهناك استدعاه أبناء عمومة الخليفة فدخل خدمتهم . وسمع الخليفة غناءه عرضاً فاستدعاه فغنى في مجلسه ألحاناً من الحداء ، وغناء الركبان ، وغناء المتقن ، فعفا عنه وأجزل له العطاء وأرجعه الى مكة . وقد عاش حتى حكم الوليد ولا يعلم تاريخ وفاته بالضبط ، لكن يبدو أنه وقع خلال حكم هذا الخليفة . و يعد ابن مسجح أحد المغنين الاربعة العرب العظام . و من تلاميذه الذين أدركتهم الشهرة ابن سريج ويونس الكاتب . (المعرب)

الدكتور لاند [٥] « ان الاقتباس الموسيقي من الفرس والروم لم يقض على الموسيقى السائدة ، بل دخلها وغذيت جذورها به وبقيت محتفظة بطابعها الاصيل... » . هذا النظام الذي كان سلّمُهُ فيثاغورياً، بقي مستعملاً حتى سقوط بغداد بأيدي المغول (١٢٥٨م). وفي تلك الاثناء حدث بعض التغييرات فيه مما أدى الى اختلال كبير في المقام (السلم) بحيث لم يرَ اسحق الموصلي [٦] المتوفى في السنة ٨٥٠ م بدأً من وجوب صب نظرية الموسيقى في قالبها الفيثاغوري السابق . وبقي الامر كذلك حتى مجيء (الاصفهاني) فعادت النظريات المتقدمة تثبت وجودها ومنها نظرية المقام الخراساني[٧] والمقام الزلزلي[٨]. ومما ساعد على

---

٥) الدكتور ج. ب. ن. لاند *Dr. J. P. N. Land* من كبار المستشرقين الالمان عرف بكتاب « نظرات في أوائل تطور الموسيقى العربية » الذي ألفه السنة ١٨٨٠ (ترجم الى الانكليزية في العام ١٨٩٣) وعرف بكتب عديدة اخرى من هذا النمط (المعرب)

٦) اسحق الموصلي (١٥٠ – ٣٤٦ هـ = ٧٦٧ – ٨٥٠ م) هو ابو اسحق محمد اسحق بن ابراهيم الموصلي المغني المشهور والموسيقار الذائع الصيت . خلف أباه ابراهيم الموصلي في بلاط العباسيين كرئيس المغنين ، وعنه تلقى علمه في الموسيقى ، وقد نال لدى هرون الرشيد والبرامكة مكانة لم يرق اليها فنان قبله حتى ان الخليفة مازه عن غيره من المغنين فسمح له بارتداء الأسود من اللباس اسوة برجال الدولة من بني العباس. وقال عنه المأمون : « لو لم يكن مغنياً لجعلته قاضياً » . كان أعظم الموسيقارين الذين أنجبتهم الامة العربية طراً. وقد بوّاته مقدرته في تأليف اللحن وابتداعه مكانة وتفوقاً لا نزاع فيه ، وكان عبقرياً في الضرب على الآلات الموسيقية. ومع أنه لم يكن مفكراً نظرياً كالكندي إلا أنه كان قادراً على التقريب بين الالحان والمزج بين نظريات الموسيقي المتنافرة في ميدان الممارسة والتطبيق . قال ، انه توصل الى ذلك ولم يقرأ كتاباً واحداً من كتب الاوائل (اليونان) ، وذكر له ابن النديم زهاء أربعين كتاباً في الموسيقى . (المعرب)

٧) كان هذا النوع يعتمد على الدساتين (مفردها دستان : اي محل دوس الاصابع على العود والطنبور) الموجودة في الطنبور الخراساني . وهو سلم متقن لم يكن ليدانيه سلم آخر مما شاع في ذلك الحين ودخل الموسيقي العربية ، ولقد كتب له التفوق من القرن السابع عشر حتى العاشر الميلادي .(المعرب)

٨) هذا السلم أو المقام منسوب الى زلزل الضارب المتوفى ١٧١ هـ = ٧٩١ م وكان من أشهر موسيقاري العصر العباسي الذهبي ، وهو أخ غير شقيق لابراهيم الموصلي والد اسحق الموصلي . قال عنه صاحب « العقد الفريد » انه من أبرع الآلاتية الضاربين على العود ولم يقم له ند او يسبقه أحد وكان أخوه ابراهيم يرافقه بغناه في الضرب . ولم يؤثر عنه الغناء، لكن عرفته الموسيقى=

بقاء النظام الموسيقي القديم كأصل ، هو وصول نظرية الموسيقى اليونانية القديمة عن طريق ترجمة آثار أرسطوكزينس (٩) وما عُزي الى اقليدس صدقاً أو كذباً والى نيقوماخس (١٠) وبطليموس وأضرابهم ، مع وجود هذه الاستعارة وعرفنا كذلك من (يعقوب الكندي والاصفهاني واخوان الصفا في القرن العاشر) بان النظم الموسيقية العربية والفارسية والبيزنطية كانت متباينة ، وبمجيء القرن الحادي عشر أخذ العرب النظريات الفارسية والخراسانية ولا سيما في الالحان . ثم ظهر رائد نظري في الموسيقى ابتدع او ألّف نظرية جديدة في الموسيقى سميت بالنظرية المقننة ، هذا الرائد هو(صفيّ الدين عبدالمؤمن)(١١)

العربية مصلحاً في السلم الموسيقي . وهو مخترع العود المسمى بعود (الشبوط) الذي حل محل العود القديم الفارسي . كان من موسيقيي هرون الرشيد ، ولسوء حظه لم ينجح في علاج الخليفة من نوبة السوداء التي أصابته . فألقي به في السجن ومكث فيه سنيناً حتى ابيضت لحيته واعتلت صحته . وكان لزلزل أيام عزه بئر حفرها في موقع ما ببغداد ، فأوصى بها لانتفاع العامة وأوقف عليها مالا وبقيت معروفة (ببركة زلزل) عدة قرون . إن الثلث الحيادي في العود المعروف بقياس (٢٧/٢٢) هو ما استحدثه لنغمة ذات ثلاثة أرباع الابعاد المسمى الآن (بيكاه) عمله خصيصاً للمأمون . (المعرب)

٩) أرسطوكزينس *Aristoxenus* : فيلسوف يوناني ، من تلامذة أرسطو ، ولد في تارنتو ، وهو أحد المتقدمين الذين كتبوا في نظريات الموسيقى وكان نبوغه حوالي سنة ٣٥٠ ق. م ، آثاره العلمية كشفت عن نبوغ وعبقرية في الموسيقى ، وقيل أنه ألف أكثر من ٤٥٣ رسالة في مختلف الفنون . وأوجد مدرسة موسيقية وسيلتها الاصغاء والسماع في الكشف عن السلم الطبيعي (الدياتوني *diatonic*) خلافاً للفيثاغوريين الذين قاسوا السلم الطبيعي بالدرجات والفواصل العددية . وقد ضاعت كل آثاره غير نبذ صغيرة متفرقة ، ولم يتخلف لنا الا كتابه الموسيقي الموسوم « عناصر الهارموني » المطبوع بباريس في السنة ١٨٦٩ . (المعرب)

١٠) *Nikomachos* ذكره صاحب الفهرست باسم (نيقوماخس الجهراسيني) صاحب الكتاب الكبير في الموسيقى . وذكر أن الفارابي استمد نظريات منسه وأدخلها في كتابه الكبير عن الموسيقى . وهو من المدرسة الفيثاغورية الحديثة ، وقيل أن مولده كان في (جراسة) حوالي ١٠٠ ق. م (المعرب)

١١) صفي الدين (ت ٦٩٤ هـ) بن عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر الارموي البغدادي ، يغلب على الظن أنه ولد في بغداد في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي . نزحت أسرته من أرمية (أذربيجان) وشق طريقه الى الشهرة عن طريق خدمة المستعصم آخر خلفاء بني العباس ، تحدث عن

(المتوفي السنة ١٢٩٤ م) . ثم وقبل ان تلفظ القرون الوسطية أنفاسها ، راج استعمال سلم آخر هو (نظام ربع النغمة) [١٢] ، وما زال الى اليوم منتشراً لدى عرب الشرق . ان العرب أنفسهم لا ينكرون أثر الموسيقي الفارسية والبيزنطية في موسيقاهم . كما أن الفرس والبيزنطيين بدورهم لا ينكرون أخذهم عن فنون الموسيقى العربية .

= كيفية اتصاله به قال « ثم صارت الخلافة الى المستعصم فعمر خزانة كتب وأمر أن يختار لها كاتبان يكتبان ما يختاره ، ولم يكن ذلك الوقت أفضل من الشيخ زكي الدين وكنت دونه في الشهرة ، فرتبنا ذلك ولم يعلم الخليفة أنني أحسن الضرب على العود . وكان في بغداد مغنية تعرف (بلحاظ) فائقة الجمال تغني جيداً ، فأحبها الخليفة وأجزل لها العطاء . فاتفق انها غنت بين يديه وضربت لحناً طيباً غريباً ، فسألها عنه ، فقالت هذا لمعلمي صفي الدين فقال : « علي به » فأحضرت بين يديه وضربت العود فأعجب بمهارتي فأمرني بملازمة مجلسه وأمر لي برزق وافر وخير جزيل وكان لي مرتب في الديوان كل سنة خمسة آلاف دينار ... » ثم اجتاح هولاكو بغداد فخرج صفي الدين اليه ومثل بين يديه وغناه فضاعف ما كان له في أيام المستعصم وأمنه على حياته واستثنى أمواله من النهب ، ثم صار معلماً لولدي وزيره وهما بهاء الدين وعطاء الملك مؤلف كتاب « تاريخي جهان كوشا » ونصب رئيساً لديوان الانشاء في بغداد . وألف للأخير من الابنين كتاب الموسيقى الشهير باسم « رسالة الشرفية » وأخذه بهاء الدين معه الى أصفهان عندما عين حاكما للعراق وعراق العجم في ١٢٦٥م . ولما سقطت الاسرة الجوينية السنة ١٢٨٤ م فقد الموسيقار منزلته « ... ثم زالت سعادتي وتقهقرت الى الوراء في رزقي وعمري وعيشي وغلبتني الديون وصارلي أولاد وكبرت سني وعجزت عن السعي ... » ومات الموسيقار في السجن بسبب دين لمجد الدين غلام بن الصباغ مبلغه ثلاثمائة دينار ، «وهو الذي كان ينفق أيام عزه على الخضار والفواكه أربعة آلاف درهم يومياً» أجمع كل من جاء بعد صفي الدين من المؤرخين بانه كان واسع الاطلاع جداً في نظرية الموسيقى ، وقال عنه ابن تغري بردى انه لم يقم له شبيه غير اسحق الموصلي ، فقد اخترع آلتين وتريتين أثناء وجوده في أصفهان هما « المغني والنزهة » ، ولكتابيه الموسيقيين العظيمين « الأدوار : ألفه سنة ١٢٧٦ م » و« رسالة الشرفية : ألفها سنة ١٢٥٢ م »شهرة مستفيضة في بلاد الغرب ناهيك عن الشرق . وترجمت « الشرفية » بقلم البارون كارا دي فو وطبعت بباريس سنة ١٨٩١م ،عن صفي الدين مخطوطات عن كتابيه هذين موزعة على متاحف اوربا ومكتباتها . (المعرب)

١٢) نظام ربع النغمة *quarter - tone system* ،ويعرف لدى العرب بـ « الارخاء » وهو تقسيم زمني للنغمة الواحدة . أعني اخراج اربع درجات من النغمة الواحدة ، في حين السلم الغربي يخرج درجتين فقط من نفس بعد النغمة *half - tone system* (المعرب)

صناعة الموسيقى

أوضح لنا كتاب « الف ليلة وليلة » مبلغ شغف العرب بالموسيقى . ويمكننا أن نفهم عظم منزلتها عندهم حق الفهم من الكتب العربية أمثال (العقد الفريد) « لابن عبد ربه » وكتاب (الاغاني للاصفهاني) وكتاب « نهاية الأرب للنويري » وهي ميسورة باللغة العربية فقط لسوء حظّنا . انك لتجد فيها كيف ترافق الموسيقى العربيَّ من المهد الى اللحد ومن التهليل الى النوْح . وكل دقيقة من حياة العربي لها موسيقاها ، فمن الجد الى الهزل ومن تهجد الصلاة الى مثار النّقْع .. وكاد يكون لكل عربي ميسور الحال مطرب خاص يلازم بيته أكثر مما تلازم بيوتنا الآن هواية العزف على البيانو .

ليست الموسيقى الشعبية في الواقع هي ميدان بحثنا الرئيسي ، وان ابـن خلدون يقول « لا يوجد الفن إلا بوجود أهله ». فنحن نجد قبل ظهور الاسلام وبزوغ نجم الخلافة طبقة محترمة من المغنين بقيت تحتل أرفع المنازل ، مع تحريم الاسلام الذي لم يكن ينظر سماع الموسيقى بعين الرضى . والحقيقة أن اهتمام العرب بالموسيقى وفنونها الأخرى كان من الضآلة بحيث لا يُعد شيئاً مذكوراً اذا ما قورن بما لقيت من رعاية في حياة الامم الاخرى .

حظيت الموسيقى الصوتية (الغناء) من العرب بمكانة واهتمام فاق اهتمامهم بموسيقى الآلة وحدها . وقد حدد هذا الميل الى درجة ما ، تذوقهم العظيم للشعر مع أن الرأي الشرعي الذي كان متشدداً في احتقار الموسيقى يعزى اليه هذه الأفضلية . فمن أشكال منظومات موسيقى الصوت القصيدة ode فضلاً عن منظوم أقصر منها كالقطعة fragment والغزل (غناء الحب) والموال أكثرها شيوعاً . وفي الاندلس ظهرت أشكال جديدة من المنظومات كالزجل والموشح أما اللحن الذي استنبطت له أنغام ومقامات معينة فقد يكون إما على شكل تقاسيم مؤلفة من إيقاعات وإما لا يكون كذلك ، ولكل مغن الخيار في

العزف والغناء إما على النغم الآحادي unison وإما على الجواب octave [١٣] ولم تكن الموسيقى التوافقية معروفة بالشكل المفهوم من التعبير الحديث ، فقد كان لدى العرب عوضاً عنها ما يدعى (بالزائدة gloss) او زخرفة اللحن الذي يتضمن أحياناً ضرب درجة لحنية مع رابعتها وخامستها او مع جوابها . وهو الاصول المعروف لدى العرب (بالتّركيب) . اما الدرْب او المسايرة الموسيقية التي تماشي مجرى النغم فتّم عادة بالعود ، ومنه اشتق اسم آلتنـا الموسيقية المسماة lute ؛ او بالطنبور pandore او بالقانون psaltry او بالشبابة (الناي) flute ، بينما يعمل الطبل drum او الدف tambourine او القضيب wand على تقوية الايقاع . وثمّ معزوفات موسيقيـة تستعمل بمثابة فاصل interlude ودولاب prelude في الغناء . وربما كان أصح وأهم شكل لهذا النوع من الموسيقى ، (النوبـة) [١٤] وهي نوع مـن

١٣) او الديوان أو الطبقة أو الصياح : وينقسم الى ٢٤ ربع نغمة . وهو قرار الاوكتاف الاعلى *O. superior* وجواب الاكتاف الادنى *O. inferior* (المعرب)

١٤) إن النوبة بلغة الموسيقى العربية لا تطلق على النوبة العسكرية وحدها ، فمعناها أوسع من ذلك . وبالرجوع الى المؤلف نجده قد خص هذا البحث بجزء من محاضرته التي القاها في دار الاذاعة البريطانية عن الموسيقى العربية في أواخر سنة ١٩٤٩ ، قال « هذا المصطلح معروف حق المعرفة في بلاد المغرب العربية الآن دون الشرق . إن النوبة هي أعلى صورة فنية للموسيقى العربية ويرجع تاريخ نشأتها الى عهد الخلفاء العباسيين الأوائل (القرن الثالث الهجري) ونحن نقرأ عن موسيقار ما ، في عهد الخليفة الواثق خصص وقت محدود لنوبته في القصر . واننا لنعلم أن كل موسيقار كان متخصصاً بضرب من ضروب الموسيقى . فالموسيقار (معبد) مثلا كان معروفاً بغنائه وعزفه على اللحن الثقيل . في حين ان ابراهيم الموصلي نال شهرته بعزفه على (اللحـن الماخوري) ، ولا شك أن حضورهم مجلس الخليفة كان يتّم حسب الترتيب او الدور او بالتتابع (النوبة) . فيعرضون مبتدعاتهم وفنونهم كما مر . وكان نتيجة ذلك ان تكاملت هذه الانواع من الموسيقى المعزوفة باعتبارها كلا او وحدة لا تتجزأ . ومن ثم انتقل استعمال لفظة النوبة من عزف موسيقار واحد في الشرق ، أي من (نوبته) ، الى عزف كامل لجميـع من يحضر المجلس من موسيقيين . وكانت (النوبة) هناك حتى السنة ٧٨١ هـ تتألف من أربع قطع فقط (القول ، الغزل ، ترانه ، فرودشت) والاخيران من أصل فارسي . وفي السنة نفسها أضاف (عبدالقادر بن غيبي) في بغداد قطعة خامسة سميت (المستزاد) . وقد الغي هذا الضرب من النوبة عندما فتح

الموسيقى الصوتية والآلية يتألف من حركات movements [15] متنوعة ، وقد أحرز هذا تقدماً في الغرب العربي بصورة خاصة . وكان هذا النمط من الموسيقى يتسم بطابع (موسيقى البيت : Chamber Music) ، لكننـــا

الأتراك البلاد العربية فحلت النوبة التركية (او الفصول) محله . وبقي هذا النوع رائج الاستعمال الى وقت متأخر بعض الشيء . وتتألف النوبة التركية من سبع حركات هي (التقسيم) وهو مقدمة على الآلات ، (البشرف) وهو استهلال على الآلات ، و(الكيار) وهو نبذة صوتية ، و (المربع وهو عبارة عن الترانة التي كانت مستعملة من قبل ، و (النقش) الذي يدل اسمه على طبيعته ، و(الأغير) وهو سماعي بايقاعه البطيء، و(الشرقي واليوروك سماعي والبشرف سماعي)وهو ختام على الآلات . وكادت هذه النوبة الآن تختفي تماماً بوصفها وحدة فنيةوإن كان قد بقيت أجزاء منها في مصر تعزف كل منها بالاستقلال وهي التقسيم والبشرف . كما انه يوجد في البلاد الشرقية أنواع اخرى للنوبة في الوقت نفسه . أما في بلاد المغرب فلم تصل الينا معلومات مفصلة عن النوبة إلا مؤخراً مع أنها فيما يتعلق بحركاتها بقيت دون تعديل في بلاد الجزائر ، وقد يرجع اختلاف حركاتها بين المغرب الاقصى وبين تونس والجزائر ، إلى أنها انفصلت عن اشكال اندلسية ثلاثة متمايزة هي : الحلية الغرناطية، والحلية الاشبيلية،والحلية القرطبية . لكنها مع ذلك فهي تتفق جميعاً في انها لا تختلف – على حد تعبير احد ظرفاء العرب – ومعنى ذلك انها جميعاً تشتمل على الحركات المسماة (بطيحي ودرج) . بل انه عندما تختلف اسماء الحركات تكون روحها واحدة في الاقطار الثلاثة كما نشاهد ذلك في (المخلص الجزائري والختم التونسي) بما يحدثانه من الجو الزربندي الخيالي الذي ما زال يفوح عبيره حتى الآن من الأندلس الغابرة . وللأمم العربية في النوبة صورة فنية ذات تطور عالمي في تكوينها تصل الى الذروة في بلاد المغرب وليس هناك ما يبرر امتناع أهل المغرب عن زيادة التشجيع لهذا الضرب الخاص من الصور الفنية ، وهي على صورتها الحالية الآن تضاهي ما يسمى في اوربا بدورة الحركات الموسيقية *suite de pieces* بل من المرجح ان الاصطلاح الاوربي *suite* قد يكون منقولا عن اللفظ العربي (نوبة) إذ أن معنى كل من *suite* ونوبة هو واحد تماماً . وليس ثم اي شك في نشأة النوبة العربية قبل القرون العشرة المنصرمة، فلا يمكن ان يكون العرب نقلوا مصطلحهم عن اوربا (المعرب)

١٥) الحركة الموسيقية هي التي تحدد الفترة الزمنية من حيث البطء والسرعة في أي قطعة او شكل من أشكال الموسيقى ، ومن تلك الحركات : بطيء *grave* أونى *andante* أمهل *adagio* ، رائث *lento* ، أريث *largo* ، أعجل *allegro* ، وان *andanatino* ، ماهل *largetto* ، وحي *presto* ، سريع *virac* ، عاجل *allegretto* ، معتـــدل *moderate* ، أسرع *allegro vivaco* أوحى *prestissino* . (المعرب)

قرأنا عن وجود أجواق موسيقية كبيرة (اوركسترا) . أما القاعدة الأساسية فشيوع الجوق القليل العدد .

إن موسيقى السَّيْر المخصصة للمواكب والاستعراضات العسكرية كان عزفها يتطلب نوعاً خاصاً من الآلات كالزّمر (السرناي) reed - pipe والبوق horn, clarion والنفير trumpet والطبل والنقّارة kettledrum والكاسة cymbal . وكان للموسيقى العسكرية دور هام في استعراضات الجيوش الاسلامية ، فعدت جزءً من فن السوق الحربي وكان لكبار القادة ، أجواق خاصة يختلف عدد آلاتها باختلاف منزلة القائد . كما يتوقف على عدد الحركات أو الضربات في النوبة العسكرية .

ومع التحريم الشرعي للموسيقى وبالأخص آلاتهـا ، فقد كان سلطانهـا الروحي على العرب جباراً ، وكانت فئة المتصوفة ترى فيها وسيلة من وسائل الوحي الذي يأتي عن طريق الانجذاب الآلهي . كذلك نجد شيوخ الطـرق يمارسون طقوسهم على أنغامها . ويؤثر عن الغزالي قوله ان الطرب هو الحالة التي تتأتى من الاصغاء الى الموسيقى . وفي مكان آخر أعطى هذا الكاتب سبعة أسباب في ترجيح الغناء على ترتيل القرآن من ناحية إشاعة الطرب في نفس الانسان وذكرت الموسيقى في مناسبات من الف ليلة وليلة باعتبارها لحمـاً وخبزاً عند فريق من الناس ودواء يستطب به عند فئة أخرى . هذا الرأي أخذ من مبدأ تأثير الموسيقي الذي يتحد مع الايمان في التأثير ومع مبدأ انتظام الكون ، ونظرية الاعداد ، لتسترعي اهتماماً عظيماً . وقد لقي مبدأ قدرة الموسيقى الشفائية تحبيذاً وانتشاراً واسعاً . ان المرء ليرى عند خروج الناس أيام الأعياد العامة على الأخص كل أنواع آلات الموسيقى ، تتعاورها الأيدي بالضرب والنقر . والدف الآلة الفضلى بينهم . وللمغني الجوال مكانته المرموقة : تراه أبداً يحمل طبله وشاهينه (مزماره) ينقر على الاول بيد ، وينفخ في الثاني ، وفي الوقت نفسه يحرك رأسه حركات منتظمة الايقاع فيرن عدد من الجلاجل

الصغيرة المثبتة في طاقيته . أما الفضل المعزو الى العرب في تيسير مزاولة الموسيقى في الشرق فيشهد له مختلف المصطلحات والاسماء الفنية العربية المنتشرق من سمرقند الى ساحل الاطلنطي .

آلات الموسيقى

إن آلات الموسيقى العربية تفوق الحصر ويتعذر علينا هنا أن نأتي على ذكر عِشرها . لقد أوصل العرب صناعة آلات الموسيقى الى مرتبة الفن الجميل ، وكتبوا عدة رسائل وكُتبٍ في طرق صنعها ، واشتهرت بعض المــدن (كأشبيلية) بانتاجها . فأسرة (العود) وحدها تحتوي على مختلف الانواع والحجوم والاشكال . لدينا (المزهر) وهو عودهم لما قبل الاسلام . ويصنع من جلد الثور . ثم عودهم المدرسي المسمى (بالعود القديم) وهو قريب الشبه بالماندولين الحديثة ، فضلاً عن آلة أكبر حجماً من الآلتين المذكورتين تسمى (العود الكامل) . أما (الشَحْرود) فهو العود المنحني . وثمّ مخططات وصور لآلات موسيقية لا تحصى . أما من المجموعة الطنبورية ، فلديهم آلات يقارب حجمها حجم الطنبور التركي الكبير وطنبور (البِكِلمَةْ bighilma) الصغير . ويلي ذلك القيثار المعروف (بالمربع) ، وهو آلة مسطحة الصدر مستطيلة الشكل عرفت فيما بعد (بالقيثارة) . وأهم ما لديهم بالنسبة الينا ، الآلات القوسية المعروفة بالرباب وهو اسم جنسها العام ، وهي على أشكال وحجوم مختلفة أيضاً . فمنها ما يسمى (بالكمانجة ، والغيشَق) . ومن الآلات ذات الوتر المطلق [١٦] ما يدعى بالجَنكْ أو الصَنج harp والقانون ، والنُزهة psaltery والسَنطور dulcimer .

١٦) المطلق *open string* وهو الضرب على الوتر بدون دستان (ضرب اصبع) والآلات التي لا يوجد فيها زند أو لوحة لدوس الاصابع واخراج الدرجات الصوتية بهــذه الطريقة تدعى بهذا الاسم . (المعرب)

أما آلات النفخ الخشبية ، فتشمل فصيلة المزمار ذات الاطوال والاحجام المختلفة . من آلة الناي البَم ، وغيرهما مما قد يبلغ طولها حوالي ثلاث أقدام ، الى أصغر شَبّابة وجُواق مما لا يزيد طوله عن القدم او يقل . أما الصفارة ، فهي ما يسمى الآن (flute a bec) . ومن القصبات النفخية أيضاً (الزمر والسرناي والزُلامي والغَيطة) فضلاً عن البوق المعدني . ولفظة (الدُف) تطلق على جميع صنوف (التامبورين tambourine) غير انها تطلق بصفة خاصة على الآلة المربعة الشكل . والآلة الدائرية من هذه الفصيلة لها ما يناهز اثني عشر اسماً نظراً لأحجامها وصنعها (كالطار والدائرة الخ ..) . أما الطبول ، فثم منها أنواع مختلفة أيضاً (كالطبل والنقارة والكاسة والقصعة الخ ..) . والكاسة اسم يطلق على الصنوج الشبيهة بالطاس . ويسمى الشكل المسطح منها (بالصنج) .

إن الارغون organ والارغن البوقي hydraulis كانا معروفين عند العرب ، وربما عرفوا أيضاً الارغن الزمري organistrum الذي شاع في دوائر الفن في اوربا القرون الوسطى . وشبيه بالارغن الانبوبي (ايشقيل eschaquiel) ، الانبوب الحديث المسمى hurdy - gurdy وهو (الشَقيرة) بالعربية [١٧] .

لدينا أكثر من دليل على أن العرب كانوا من مُخترعي آلات الموسيقى ومُحسّنيها فقيل ان الفارابي المتوفى ٩٥٠ م اخترع او حسّن آلتيْ الرباب والقانون . أما الزنام [١٨] (من القرن التاسع) فقد ابتكر آلة نفخية خشبية

١٧) المؤلف في كتابه « تاريخ الموسيقى العربية » ان ثم رسالة لبني موسى بن شاكر اسمها (رسالة في آلات الموسيقى التي تزمر بنفسها) عثر عليها في كلية الروم الارثوذكس ببيروت وطبعت في مجلة المشرق البيروتية (مجلد ١٦ ص ٤٤٤) . تجد نص هذه الرسالة في كتابنا (تاريخ الموسيقى العربية) طبعة دار الحياة البيروتية ١٩٧٣ . (المعرب)

١٨) الزنام ويقال له الزلام ، من مشاهير موسقيي العصر العباسي الأول . نادم الرشيد والمعتصم والواثق . وانفرد باتقانه العزف على المزمار . وورد ذكره في احدى مقامات الحريري وفي اشعار البحتري . (المعرب) .

عرفت باسمه وهي (الزُنامي او الزُلامي) وأول من جاء بعود الشبوط ، هو زلزل المتوفى ٧٩١ م. وحسّن الحكم الثاني [١٩] المتوفى ٩٧٦ م آلة النفخ (البوق) ، وأضاف زرياب المغني [٢٠] (من أوائل القرن التاسع) أوتاراً جديدة على العود المعروف . اما البياسي [٢١] وابو المجد [٢٢] وكلاهما من

---

١٩) كان هذا الخليفة الاموي الاندلسي من هواة الموسيقى وممارسيها .(المعرب)

٢٠) هو الموسيقار المعروف بابي الحسن علي بن نافع، ولقب بزرياب لسواد غلب على بشرته وذلاقة في لسانه . كان أعظم موسيقيي عرب الاندلس قاطبة ومؤسس مدرسة الموسيقيين هناك . ولد في بغداد وهو مولى للخليفة المهدي . فأسلمه الى اسحق الموصلي فبرع في الغناء ودخل قصر الخليفة في عهد هرون الرشيد . وأبى أول ممارسته إلا أن يضرب على عوده الخاص الذي اخترعه بنفسه . وما لبث أن لقي حظوة وإكراماً أثار عليه حفيظة استاذه اسحق فناوأه حتى ألجأه الى ترك بغداد ، فرحل الى المغرب ودخل مجلس زيادة الله الاول سلطان القيروان من دولة الأغالبة(٨١٦ – ٨٣٧ م . ولكن هذا غضب عليه فجلده وسجنه ثم طرده ، فخرج يريد الاندلس . وأرسل (الحكم الاول) وكان قد سمع به ، يستعجله في القدوم . ولما وطئت قدماه الاندلس كان الحكم قد توفي واستخلفه مروان الذي لم يتقاعس عن استقباله بظاهر قرطبة ، وأنزله في قصره ريثما بني له قصر خاص وخصص له معاش سنوي قدره اربعون الف دينار . وكان زرياب قوي الحافظة حتى قيل أنه يحفظ اكثر من الف قصيدة بكلمها ولحنها وايقاعاتها . وتمت له الاحاطة بجميع الموسيقى . وكان كاسحق بارعاً في شتى العلوم ، فهو فلكي وجغرافي وراوية ، وقيل أنه أضاف الوتر الخامس على العود المعروف ، ويؤثر عنه انه منشيء اول مدرسة للموسيقى في الاسلام (المعرب)

٢١) هو أبو زكريا يحي البياسي ، ولد في الاندلس ورحل الى الشرق وقضى أكثر حياته في مصر وسوريا . كان طبيباً ورياضياً فضلا عن نبوغه كموسيقار شهير . زاول الطب في بلاط صلاح الدين الايوبي (١١٧١ – ١١٩٣ م) وهو أحد تلاميذ ابن النقاش ، أخذ عنه فنون الموسيقى . وقد ورد في « طبقات الأطباء » أن أبا زكريا البياسي صنع لابن النقاش آلات موسيقية معقدة التركيب وضعها على أصول الهندسة والميكانيكا . وعمل ارغناً وعزف عليه بطريقة فنية تفرد بها ، وكان من أبرع الضاربين على العود . (المعرب)

٢٢) (ت ٥٨٧ هـ = ١١٨٠ م) : هو أبو المجد محمد بن أبي الحكم الباهلي الموسيقار المشهور . كان طبيباً بارعاً ورياضياً ومنجماً وموسيقاراً . دخل خدمة أتابك نور الدين زنكي (١١٤٦ – ١١٦٣ م) في دمشق وتولى تدبير مارستانه . ويذكر عنه صاحب« طبقات الأطباء » أنه كان من علماء الموسيقى وبارعاً في ضرب العود ، واشتهر بالغناء وتأليف الألحان والايقاعات والزمر . وعمل ارغناً دقيق الصنع محكم التركيب . (المعرب) .

موسيقاري القرن الحادي عشر . فقد كانا من صناع الارغن ومن الذين أدخلوا عدة تحسينات فيه . واخترع (صفي الدين بن عبد المؤمن)قانوناً مربع الشكل اسمه (النزهة) فضلاً عن آلة أخرى اسمها (المُغني) . ان شكلاً من أشكال العلامات الموسيقية (النوطة) شاع استعماله في السنوات الاولى من القرن التاسع . ولقد كان أغلب أصحاب الصناعة (الآلاتية) يدرسون الموسيقى عن طريق السماع . وكان الاعتقاد السائد بان الجنّ توحي لبعض الملحنين ألحانهم . ومن الطرافة ان نذكر شيئاً عن الثياب والهيئة العامة التي كان يبدو فيها المطربون العرب : شعر طويل مسترسل . وأيد وأوجه مصبوغة اذ يظهر ان الالوان الزاهية كانت تجتذب النظارة . وقد يردّ هذا بعضهم الى أثر الخنوثة والمخنثين الذين ظهروا في عصور ما قبل الاسلام وكان أكثرهم خصيّاً evirati ، إمـا لقصّاص فُرض عليه . وإما لاتيانه ذلك اختياراً . وربما كان مرد ذلك الى شيوع صوت الغلمان . كان المغني يدخل خدمة الخليفة لا للغناء وحده بل لمعالجة أمور السياسة ، لان صناعة الغناء تتيح للمغني ولوج كثير من البيوت حيث كانت أقداح الخمر تفك عقد الألسن وتفضح الاسرار . فضلاً عن أن كثيراً من الآراء يكون لنشرها عن طريق الغناء تأثير أشد وميدان أوسع كما هو الشأن في اوروبا حيث (الجونكلير والطروبادور[٢٣]

---

٢٣) *trouvere, jonglare, jongleurs* طبقة من المغنين الشعراء الجوالـين ، لا تتكسب بصناعتها ، وهم من فئة النبلاء ، نبه ذكرهم في أواسط القرن الحادي عشر حتى الثالث عشر . ووصلنا مقدار كبير من قصائدهم الغنائية الى جنب بعض لحونها ومقاماتها .

وفي الوقت الذي نبه ذكر هؤلاء في شمالي فرنسا كنت تجد أشباههم التروبادور (*trobadors* ، *troubadours*) في جنوبها والقسم الشمالي الجبلي من اسبانيا في العصور نفسها . ومع أن القسم الأعظم من شعرهم الغنائي قد وصلنا ، إلا أن شيئاً من لحونه لم يصل .

لقد استمعت في أحد الايام الى منهج أغان جونكليري – تروبادوري نظمته هيئة الاذاعة بباريس. فوجدتها لا تفترق عن الموال الثقيل ، او العتابا العربية الأصيلة مع مصاحبة آلة وترية مطلقة كالرباب او مزمار خفيف كالشبابة ، مما يقوي الاعتقاد بان الموسيقى العربية الاسبانية وجدت طريقها الى اوربا بفضل هؤلاء المغنين الفرسان . (المعرب)

في مقاطعة البروفانس كانوا يذيعون أغانيهم في القرون الوسطى مقلدين العرب في ذلك ولا شك .

كُتاب الموسيقى

إن ما كُتب عن الموسيقى العربية كثير جداً لا يمكن الإحاطة به ، من تاريخها ، الى مجموعات أغانيها ، الى وصف آلاتها ، الى رأي الشريعـة فيها ، الى مدى تأثيرها وسحرها ، الى سِيَر الموسيقيين . وأعظم من كتب عنها طراً هو (المسعودي المتوفي ٩٥٧ م) و(الأصفهاني المتوفي ٩٦٧ م) . يعرض المسعودي في كتاب « مروج الذهب » ، معلومات تامة نفيسة جداً في صناعة الموسيقى التي كانت متقدمة كثيراً عند العرب ، ويبحث في مؤلفات له أخرى ، عن الموسيقى في البلاد الاخرى . أما (الاغاني) للاصفهاني فربما فاق سابقه نفاسةً وقيمةً . يتألف هذا الكتاب من واحد وعشرين مجلداً وقد سماه ابن خلدون (بديوان العرب) . ولصاحبه فضلاً عنه ، اربعة كتب اخرى في موضوع الموسيقى . أما كنز المعلومات والأخبار الخاصة بالكتاب الموسيقيين ونظريتها فضلاً عن فوائد عامة عن الموسيقى فهو كتاب « الفهرست لصاحبه (محمد بن اسحق الورّاق) الملقب (بابن النديم توفي ما بين ٩٩٥ و ٩٩٩ م) . وكانت المجهودات الموسيقية في الأندلس العربية لا تقل شأناً عنها في الشرق العربي ؛ فهنالك مثلاً كتاب « العقد الفريد » (لابن عبد ربه) الذي حوى سِير مشاهير الموسيقارين . فضلاً عن دفاعه الروحي المجيد عن الموسيقى حيال المتزمتين من رجال الدين . وكتب (يحيي الخُدُجّ المرسي [٢٤] من

٢٤) او (ابن الخدج الأعلم المرسي) نبغ حوالي ٦٤٠ هـ = ١٢٤٢ م في الاندلس وكانت ولادته بمرسية قال عنه المقري انه صاحب الاغاني الذي ألفه على مثال كتاب الأغاني للاصفهاني . (المعرب)

القرن الثاني عشر) كتاباً في الاغاني على غرار (أغاني الاصفهاني) الشرقي . وأخرج (ابن العربي) الاندلسي (١١٥١م)وقرناؤه كتباً في تحليل الموسيقى شرعاً وأتحفونا في الوقت نفسه بمعلومات قيّمة كثيرة عن آلاتها . وبعد سقوط بغداد في السنة ١٢٥٨ م ، خمل ذكر الموسيقيين والكتاب فيها تقريباً . وجاء في أعقابهم فريق من المشترعين والفقهاء الذين أفتوا بتحريم الموسيقى . أما القلة التي كتبت في الموسيقى آنذاك على غرار من سبقهم ، فقد كانت بحوثها نُتفاً وفصولاً صغيرة من كتب كبيرة ، كما في مقدمة ابن خلدون وكتاب (المُستَطرف) للأبْشيهي .

النظريون

وأول نظريي العرب ممن لدينا عنهم معلومات ثابتةهو (يونس الكاتب[٢٥] : حوالي ٧٦٥ م) و (الخليل بن أحمد [٢٦] ٧٩١ م) واضع علم العَروض

---

٢٥) (توفي حوالي ١٤٥ هـ = ٧٦٥ م) : هو يونس بن سليمان بن كرد بن شهريار الفارسي الاصل . كان مولى لعمر بن الزبير ، وكان أبوه قانونياً في بلاد فارس . ونشأ بالمدينة (الحجاز) ثم أسلم الى ديوان الخليفة وصار كاتباً ولذلك لقب بالكاتب . وكانت الموسيقى بالنسبة اليه أول الأمر ملهاة ، ثم انه درسها على (ابن مسجح وسريج) وغيرهما،حتى صار موسيقاراً حسن الشهرة . واستدعاه ابن أخ هشام الخليفة (الذي ارتقى الخلافة فيها بعد باسم الوليد الثاني) وأكرمه ، ثم وقع في مأزق بسبب غنائه بضعة أبيات فيها تعريض بفتاة من اسرة شريفة اسمها زينب (زيانب) فشكاه أهلها فاضطر الى ترك المدينة وتوجه نحو دمشق ، والى هنا تنقطع أخباره . وربما امتد به العمر الى منتصف حكم المنصور العباسي . أما شهرته الأساسية فمبنية على كونه من المؤلفين في نظريات الموسيقى فضلا عن كونه شاعراً جيداً . وذكر(ابن النديم)أنه مؤلف كتاب « النغم » وهو اول مجموعة للأغاني وفيه اولى المحاولات لجمع بعض المعلومات عن المؤلفين والملحنين ، وكتاب « القيان » وفيه وصف ومعلومات عن أغاني المغنيات الشهيرات . (المعرب)

٢٦) كان الخليل بن أحمد الفراهيدي على معرفة بالنغم والايقاع . وعرف بكتاب موسيقي توجد منه نسخة محفوظة في مكتبة (آيا صوفيا) بالآستانة اسمه « جملة آلات الطرب » (المعرب)

(ميزان الشعر) العربي وأول أصحاب المعاجم العرب ، وكتاباه « في النغم » و« في الايقاع » ورد ذكرهما في الفهرست ، وربما كانت نظرياته هي التي نقلها (عباس بن فرناس [٢٧] المتوفى ٨٨٨م) . وابن فرناس هذا من أوائل الذين نشروا علم الموسيقى في الاندلس . وكان اسحق الموصلي اول من صب النظام العربي القديم في الموسيقى بقالب جديد وقد وردت نظرياته في كتابي « النغم والايقاع » . وترجمت الى العربية بين القرنين الثامن والعاشر الميلاديين رسائل يونانية اخرى كثيرة في نظريات الموسيقى وعلم الصوت . وعرف العرب كتاباً منسوباً الى فيثاغورس في الموسيقى. وترجم (يوحنا بن البطريق [٢٨] المتوفى ٨١٥م) كتاب (طيماؤوس) المعزو الى أفلاطون ثم ترجمه أيضاً حنين ابن اسحق المتوفى ٨٧٣م . ومن الكتب الارسطية المعربة يوجد كتابان: « في النفس De anima ، والمسألة Problemata » ترجمهما (حنين) المذكور بالاضافة الى شرحين من الشروح الاغريقية على كتاب « في النفس » معروفة بالعربية يعزى أحدهما الى ثمستيوس [٢٩] والآخر الى سمبلشيوس [٣٠] أولهما ترجمه (حنين)، وترجم حنين كذلك كتاب «في الصوت De Voce» لجالينوس ومن هذا الكتاب استفاد العرب آراء علمية جمة في نظرية الصوت .

وعرف العرب أرسطوكزينس في كتابيه « عناصر الهارموني » و « الايقاع » ويدل العنوان الاول على أن عناصر الهارموني التي نعرفها الآن كانت تتألف عند الاغريق من قسمين رئيسين هما المباديء والعناصر . ولدى العرب أيضاً

---

٢٧) يذكر باسم (عباس بن فرناس) مقروناً باول محاولة للطيران البشري . (المعرب)

٢٨) أبو زكريا يوحنا بن البطريق ، كان أحد مترجمي بيت الحكمة ، ونقل كثيراً من الكتب السريانية واليونانية الى العربية . (المعرب)

٢٩) *Themistius* (٣١٧ – ٣٨٧ م) فيلسوف يوناني من تلامذة أرسطو . (المعرب)

٣٠) *Simplicius* فيلسوف صقلي . وهو واحد من الفلاسفة الذين هاجروا ٥٢٩ م الى بلاد فارس، ، بعد غلق مدرسة الفلسفة بأثينا . (المعرب)

كتابان منسوبان الى اقليدس هما « مقدمة في الهارموني وقانون اقليدس » . وعرفوا(نيقوماخس) بكتابه الكبير « في الموسيقى » ومختصرات اخرى منه ، نستدل منها أن نيقوماخس كتب فعلاً ذلك الكتاب الكبير الذي ألمع اليه في كتابه (عناصر الهارموني) وهذا الأخير مقتبس من مختصره المعروف لدينا بلغته الأصلية . وكتابه « المدخل الى الارثماطيقي » الذي تعرض فيه الى الموسيقى ترجمه(ثابت بن قرة المتوفى ٩٠١م) وعرف العرب بطليموس من كتاب « الموسيقى » الذي ربما كان « رسالته في الهارموني » المعروفة اليوم بلغتها الاصلية . ووصلنا عن الاغريق باللغة العربية فضلاً عما تقدم ، رسائل في الارغن البوقي تُعزى الى أرخميدس وأبوللونيوس بركيوس Apollonius Pergaeus [٣١] وغيرهما ، ككاتب عرفه العرب باسم (مورطس او مورسطوس)[٣٢] الذي ألف رسالة في الأرغُنين الزّمْري والبوقي وفي الجلاجل. وأقدم ما وُجد عند العرب في نظرية الموسيقى هي آثار الكندي. ومن دراستها يظهر تأثير علماء اليونان على العرب . ألف الكندي في نظرية الموسيقى سبع رسائل وصلنا منها ثلاثة (إن لم تكن أربعة) وهي : (١) رسالة في إجزاء

---

٣١) ويدعى بابولونيوس البرغائي (نحو ٢٦٠ — ٢٠٠ ق. م) رياضي وفلكي وميكاني علم في الاسكندرية وله رسالة في المخروطات نقلها للهلال بن هلال الحمصي وثابت بن قرة ورسالة في قطع المخروط ورسالة في النسبة للحدود ورسالة في الدوائر المماسة الخ .. (المعرب)

٣٢) يسميه العرب (مورطس) وهي كلمة يونانية معناها نبات (الآس) ، ذكره ابن النديم وابن القفطي وأبو الفداء مقروناً باختراع الارغن ، لكن اليونان ينسبون صنعه الى (كتيسبيوس *Ctesibius*) ومهما يكن ، فقد شاع أمر الارغن في بلاد الروم . وانك لواجد صورته في الآستانة العليا على العمود المنسوب لثاودسيوس في القرن الرابع الميلادي . وكان من جملة آلات الموسيقى الكنسية في عهد ملوك الروم ، حتى أن قسطنطين الرابع أرسل أرغناً الى (بيبان ملك الفرنك ٧٥٧ م . إن لمورسطس المجهول هذا مخطوطات عربية ثلاثة في مكتبة المتحف البريطاني وهي (صنعة الجلجل الذي اذا حرك خرجت منه أصوات مختلفة شجية غنجة) و(صنعة الارغن البوقي) و(صنعة الا رغين الزمري) ذكرها المؤلف في كتابه« تاريخ الموسيقى العربية ».(المعرب)

خُبرية الموسيقى (٢) رسالة في اللحون (٣) رسالة في خُبرِ تأليف الألحان (٤) كتاب موسيقي آخر بلا عنوان [٣٣] . وتتملذ على هذا الكاتب ، (السرخسي [٣٤] المتوفى ٨٩٩م) و(منصور بن طلحة بن طاهر) [٣٥]، ومن قرنائهم النظريين(ثابت بن قرة ومحمد بن زكريا الرازي المتوفى ٩٢٣م) [٣٦] ، و(قُسطا بن لوقا المتوفى ٩٣٢م).هؤلاء خُتموا حميعاً بالفارابي أعظم من كتب في نظرية الموسيقى من العرب .

للفارابي كتب كثيرة في الموسيقى منها «كتاب الموسيقى الكبير » و« كتاب في احصاء الايقاع » و« كتاب في الموسيقى» ، هذا فضلاً عن بحثه فيها عرضاً في كتابيه النفيسين « احصاء العلوم » و«أصل العلوم » ، ويخبرنا الفارابي عن سبب تأليفه كتابه الكبير في الموسيقى هو ما وجده من نقص وغموض في ما كتبه الاغريق عنها مُستدِلاً بذلك من تراجم العرب عن اليونانية على الأقل . وأعقبه (البوزجاني المتوفى ٩٩٨م)أعظم رياضيي العرب قاطبة،فألف كتاب

---

٣٣) المخطوط الثالث محفوظ في مكتبة المتحف البريطاني ، أما الثلاثة الباقية فهي في متحف برلين . (المعرب)

٣٤) : هو أبو العباس محمد بن مروان السرخسي المعروف بابن الطيب الفيلسوف (ت ٢٨٧ هـ) كان أحد خاصة المعتضد العباسي ومقربيه، وله معه رحلة الى الطواحين السنة ٣٧١هـ لمحاربة خمارويه بن احمد بن طولون . ودون خبر رحلته في كتاب جغرافي اعتمد عليه ياقوت الحموي كثيراً . كان السرخسي معلماً للمعتضد أيام كان ولياً للعهد ، فلما استخلف لزمه وخص به وكان كاتم سره ومستشاره في أمور السياسة ، وفلكيه . على أن المعتضد غضب عليه وأمر بقتله، اذ أفشى سراً سياسياً . كان عالماً رياضياً وطبيباً وهندسياً وفلكياً وموسيقياً وله تصانيف عديدة في الجبر والمقابلة وكتاب في الفلك والرؤيا وكتاب وصايا فيثاغورس ومن كتبه الموسيقية « كتاب الموسيقي الكبير والصغير ، وكتاب المدخل الى علم الموسيقى وكتا ب اللهو والملاهي والغناء والمغنين ، وكتاب نزهة الفكر الساهي في المغنين والملاهي ، وكتاب الدلالات على أسرار الغناء» . (المعرب)

٣٥) كان منصور أحد الكتاب النظريين في الموسيقى له كتاب « المؤنس في الموسيقى » ألفه على غرار الكندي . (المعرب) .

٣٦) ذكر ابن أصيبعةله كتاباً واحداً في الموسيقى هو « كتاب في جمل الموسيقى » . (المعرب)

« المختصر في فن الايقاع » . وعاش في الوقت نفسه جماعة من الموسوعيين عُرفوا باسم « اخوان الصفاء » (حوالي القرن العاشر) ذاعت رسالتهم عن الموسيقى أيّما ذيوع . ونبغ في القرن نفسه محمد بن أحمد الخوارزمي [٣٧] مؤلف كتاب « مفاتيح العلوم » ويُعتبر أحد الذين أحدثوا فتحاً جديداً في نظرية الموسيقى وعمموها بين الناس . ولابن سينا المتوفى ١٠٣٧ م شهرة خاصة ، فقد كانت كتاباته الموسيقية من أنفس الآثار العربية بعد الفارابي . ويمكن الرجوع اليها في كتابيه « الشفاء والنجاة » . وكتب أيضاً « مقدمة في فن الموسيقى » فضلا عن بعض التعاريف أثبتها في كتابه « تصنيف العلوم » وكتب تلميذه (ابن زَيْلة [٣٨] المتوفى ١٠٤٨) كتاب « الكافي في الموسيقى » بينما كتب أحد قرنائه العالم الطبيعي والرياضي اللامع (ابن الهيثم المتوفى: ١٠٣٩م) شرحين لكتابين منسوبين الى اقليدس هما « شرح الرونيقي » و«شرح قانون اقليدس » ألفهما في مصر حيث كان هناك عبقريّ ثانٍ يدعى(أبا الصلت أمية المتوفى ١١٣٤ م) الذي ألّف رسالة في الموسيقى كذلك . أما النظريون

---

٣٧) (ت ٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م) : هو أبو عبد الله أبو بكر محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي غير الخوارزمي الفلكي معاصر المأمون . اشتهر بكتاب « مفاتيح العلوم » وقد ألفه لأبي الحسن عبد الله بن أحمد العبري ، وقسمه الى مقالتين تجتمع في الأولى ستة أبواب وهي (الفقه والكلام والنحو والكتابة والشعر والعروض والأخبار) ، والثانية في تسعة أبواب (الفلسفة والمنطق والطب وعلم العدد والهندسة والنجوم والموسيقى والحيال والكيمياء) (المعرب)

٣٨) (ت ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) : هو أبو نصور الحسين بن عمر بن زيلة ، ويكنى بالحسين بن زيلة ورد ذكره في طبقات الاطباء لابن أصيبعة . وكان ألمع وأشهر تلاميذ ابن سينا ونبه ذكره في الطب وفي الموسيقى ، وذكر له « كتاب الكافي في الموسيقى » توجد منه نسخة خطية محفوظة في المتحف البريطاني إطلعنا عليها وصورناها . (المعرب)

٣٩) (٤٦١ - ٥٢٩ هـ = ١٠٦٨ - ١١٣٤ م) : هو أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الاندلسي . ولد باسبانيا ورحل الى الشرق فأقام بمصر ونفاه منها الأفضل شاهنشاه وكان شاعراً وموسيقياً ورياضياً وفيلسوفاً ، له رسالة في الموسيقى وفي الاسطرلاب . (المعرب)

الآخرون الذين زخر بهم القرن الثاني عشر ، فهم (ابن النقاش [٤٠] المتوفى ١١٧٨ م) و(الباهلي [٤١] وابنه أبو المجد المتوفى ١١٨٠م) و (ابن منعة [٤٢] المولود في السنة ١١٥٦ م) . وأنجب القرن الثالث عشر من النظريين العباقرة ما فاق بهم سابقه . وقد كان (علَـم الدين قـيصر [٤٣] المتوفى ١٢٥١ م) يُعد في الواقع أعظم وأشهر من أنجبت مصر وسوريا من الرياضيين ، واشتهر بنظرياته في الموسيقى على الأخص . وشبيهه في الشرق الأقصى هو (نصير

---

٤٠) (ت ٥٧٥ هـ = ١١٧٨ م) : هو مهذب الدين أبو الحسن علي بن عيسى . ولد في بغداد ودرس فيها ثم رحل الى دمشق وذاع صيته هناك . برع في جميع العلوم الرياضية والموسيقى والطب . واختاره نور الدين زنكي طبيباً خاصاً له ، ثم دبر مارستانه المعروف بالمارستان النوري . وهو أحد معلمي أبي زكريا البياسي وأحمد الحاجب من كبار موسيقيي القرن الثاني عشر . (المعرب)

٤١) (٤٨٧ - ٥٥١ هـ = ١٠٩٣ - ١١٥٥ م) : ابو الحكم عبيد الله بن المظفر الباهلي . ولد بالمرية في الاندلس ، ورحل الى الشرق قبل سنة ١١٢٢ م واستقر ببغداد وأسس مدرسة كان يعلم بها ثم التحق بخدمة السلطان محمد السلجوقي وصار طبيباً لمستشفاه المتنقل ثم حط رحله في دمشق واشتهر هناك بغزارة علمه في الطب والأدب والموسيقى كما شهد له (المقري) الذي قال انه كان آية زمانه في الضرب على العود ، وكتابه في الموسيقى معروف . كذلك أشاد صاحب طبقات الأطباء بمقدرته الموسيقية . (المعرب)

٤٢) : هو أبو الفتح موسى بن يونس بن منعة الملقب كمال الدين . ولد في الموصل وتعلم على أبيه ، ثم رحل الى بغداد وأقام بالمدرسة النظامية يشتغل على المعيد بها (السديد السلماني) ، ثم صعد الى الموصل وصار معلماً بعد والده . واشتهر أمره وتولى عدة مدارس ومعاهد منها مدرسته المسماة (بالكمالية) . وتبحر في جميع العلوم وتفرد باستقصاء علوم الرياضة كالحكمة والمنطق والطبيعي والالهي والطب والهيئة والمخروطات والمجسطي وأنواع الحساب والجبر والمقابلة والموسيقى والمساحة والأرثماطيقي . توفي في الموصل ودفن في محل اسمه (باب عراق) وهو معروف حتى اليوم . (المعرب)

٤٣) (٥٧٥ - ٦٥٠ هـ = ١١٧٨ - ١٢٥١ م) : هو أبو القاسم علم الدين قيصر ولد في افسون من مصر العليا وتوفي في دمشق ، وكان يعتبر في كلا القطرين نسيج وحده وإمام علمائه في الرياضة والحساب . رحل الى بغداد وتتلمذ على كمال الدين بن منعة وقرأ على يده نظرية الموسيقى حتى برع فيها وأتقنها وانتقل الى غيرها من العلوم وعرف بتفهمه العظيم لأسرار الموسيقى. (المعرب)

الدين الطوسي الفارسي ١٢٧٤ م) وقد وصلنا كراسه عن الموسيقى . أما في اسبانيا المسلمة فإننا نقرأ بعد (عباس بن فرناس) عن (مسلمة المجريطي المتوفى ١٠٠٧ م) (٤٤) و (الكرماني (٤٥) المتوفى ١٠٦٦ م) الذي شرح رسائل اخوان الصفاء وظهر نظريون آخرون منهم (أبو الفضل حسداي الاسرائيلي) (٤٦) من القرن الحادي عشر و (محمد بن الحداد (٤٧) المتوفى ١١٦٥ م) . ولعل أعظم الفضل يعود لكاتب في نظريات الموسيقى هو (ابن باجة المتوفى ١١٣٨م) وكتابه عن الموسيقى له في الغرب من الشهرة ما لكتاب (الفارابي) في الشرق . وكتب (ابن رشد المتوفى ١١٨٨ م) شرحاً وافياً شهيراً لكتاب أرسطو « في النفس » تطرق فيه الى نظرية الصوت وشرحها شرحاً وافياً . ونبغ في القرن الثالث عشر الموسيقار المدعو (ابن سبعين (٤٨) المتوفى ١٢٦٩ م) وقرينه

---

٤٤) او المرحيطي (ت ٣٩٥ هـ = ١٠٠٤ م) هو الشيخ أبو القاسم مسلمة بن أحمد عمر الوضاح المجريطي . ولد في قرطبة وكان إمام رياضيي عصره وموسيقاراً معروفاً وله فيهما رسائل، وتوفي بقرطبة ولم يصلنا منه إلا كتاب كيمي هو « وثبة الحكيم في الكيمياء والسيمياء » وطبي وهو « غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم » . (المعرب)

٤٥) (ت ٤٥٩ هـ) : هو أبو الحكم عمر الكرماني . ولد في قرطبة واشتهر ببراعته في علم الرياضيات والطب . رحل في مطلع شبابه الى المشرق ودرس هناك مختلف العلوم ، ومكث طويلا في حران ، ثم رجع الى الاندلس ومات بسرقسطة ، ويؤثر عنه شرحه لرسائل اخوان الصفا ونقلها الى الاندلس . (المعرب)

٤٦) أبو الفضل حسداي بن يوسف حسداي ، انحدر من اسرة يهودية عريقة اشتهرت بالعلم والغنى ، وولد في مدينة سرقوسة ، ولا يعلم شيء عن تاريخ ولادته ووفاته ، والمعروف انه كان شاباً في السنة ١٠٦٦ م.وكان يجمع الى معرفته بالرياضة والفلك ، معرفته بالترسل والأدب، ونظم الشعر ، ونظريات في الموسيقى والطب ، وألف كذلك في علم المنطق . (المعرب)

٤٧) (ت ٤٨١ هـ = ١٠٨٧ م) : هو أبو عبد الله بن محمد بن أحمد بن عثمان القيسي الأندلسي الشاعر ، ذكر له (كسيري) كتاباً في الموسيقى ترجم الى اللاتينية ولم يقدم اسمه بالعربية . كان مختصاً بالمعتصم بن صمادح ، ولقب بابن الحداد لأن جده كان حداداً . له ديوان شعر جيد ، وكتاب في العروض والأوزان والموسيقى . (المعرب)

٤٨) (٦١٤ - ٦٦٩ هـ = ١٢٣٥ - ١٢٩٠ م) : هو ابو محمد عبد الحق بن ابراهيم الاشبيلي ثم المرسي الأندلسي الفيلسوف . كان يقول عن نفسه : إني ابن (٥) يعني الدارة التي هي كالصفر ،

(الراقوطي) [٤٩] الذي استخدمه الاسبان المسيحيون لتدريس « الرابوع [٥٠] في مرسيه بعد سقوطها بأيديهم . ووجد في القرن الثالث عشر مدرسة لتلقين الموسيقى المقننة أنشأها (صفي الدين عبد المؤمن المتوفى ١٢٩٤ م) ونظرياته في الموسيقى مفصلة تفصيلاً وافياً في كتابيه الشهيرين « الشرفية » و« الأدوار » قال عنه (حاجي خليفة) انه من الذين احتلوا الصف الأمامي في كتابة نظريات الموسيقى . وما سنذكره من أسماء فيما يلي ، هـم موسيقيون تخرجوا في مدرسته . (فشمس الدين محمد بن المرحوم: توفي حوالي ١٣٢٩ م) ألّف رسالة شعرية سماها « جواهر الانتظام في معرفة الأنغام » . و(محمد بن عيسى ابن كارة المتوفى ١٣٥٨ م) ألّف كتاب « غاية المرام في معرفة اللحون والأنغام » . ويفوق كل ما ذكرناه دقةً وروعةً ، الرسالة المعروفة باسم « شرح مولانا مبارك شاه » على كتاب الأدوار ، المهداة الى الشاه شجاع (١٣٥٩ — ١٣٨٤ م) . هذه الرسالة واحدة مما لا يُحصى من التعليقات والشروح على آثار صفي الدين عبد المؤمن . وقد أهديتْ إلى (الشاه شجاع) المذكور ، الموسوعة المعروفة « بخطب العلوم » وهي تتضمن بحثاً في الموسيقى .

=وهي بحساب بعض المغاربة سبعون . بخع نفسه في مكة بقطع شريان في ذراعه . له في الموسيقى « كتاب الأدوار » محفوظ في المكتبة التيمورية . وله كتاب « أسئلة من أجوبة » كتبه للسلطان الموحدي عبد الواحد ، يجيب فيه على أسئلة فلسفية وجهها له فردريك الهوهنشتافني . (المعرب)

٤٩) : هو أبو بكر محمد بن أحمد . ولد في مرسية ، وذاع صيته في الموسيقى والرياضة والطب . ولما استولى المسيحيون على مرسية ، استبقى ملكهم (الراقوطي) ليعلم في مدارسها التي أنشأها قبل الفتح . وتوفي في غرناطة . (المعرب)

٥٠) كانت العلوم في القرون الوسطى تنقسم بصورة عامة الى صنفين : (الرابوع) *quadrivium* وتشمل علوم الفلك والحساب والهندسة والموسيقى . و (الثالوث) *trivium* وينضوي فيه النحو والمنطق والبلاغة . وللفيلسوف الكلابري كاسيدور (٥٧٠ — ٦٥٠ م) كتابان بهذين الاسمين . (المعرب)

ولعلّها من تآليف (الجرجاني [٥١] المتوفى ١٣٧٧ م) . وألّف (عمر بن خضر الكردي [٥٢] المتوفى حوالي ١٣٩٧ م) كتاباً اسمه «الكنز المطلوب في الدوائر والضروب» . أما (ابن الفناري [٥٣] المتوفى ١٤٣٠ م) ، فقد تطرق الى الموسيقى ببحث أصيل في موسوعته العلمية. وكتب (شمس الدين العجمي وهو من كُتاب القرن الخامس عشر) رسالة نفيسة في علم الألحان . وكتب (اللاذقي [٥٤] المتوفى ١٤٤٥ م) مؤلَّفاً قيّماً اسمه «الفتحية» والظاهر أن (حاجي خليفة) يضع هذا الكتاب في مستوى مؤلفات (صفي الدين عبد المؤمن) و(عبد القادر بن غيبي)[٥٥] . وربما كانت أهم رسالة في الموسيقى

---

٥١) هو السيد الشريف علي بن محمد علي الحسيني الجرجاني (٧٤٠ – ٨١٦ هـ = ١٣٣٩ – ١٤١٣ م) . ولد بجرجان واستوطن بشيراز . وله زهاء عشرين مؤلفاً نفيساً في المنطق والفقه والعلوم العقلية وشروح على كتب الأوائل وكلها مطبوع تقريباً (المعرب) .

٥٢) هو جمال الدين عمر بن عبد الله بن خضر الكردي الموسيقي والرياضي الحاسب . نبغ في بغداد وعرف بتأليفه في نظرية الموسيقى والحساب . (المعرب)

٥٣) هو شمس الدين محمد بن حمزة بن ابن محمد الفناري .(٧٦٧– ٧٣٤ هـ = ١٣٤٧ – ١٤٣٠ م) كان متبحراً في جميع العلوم والفنون والفقه ، صنف كتاباً جامعاً سماه «نموذج العلوم» أتى فيه بمسائل من مئة فن وأورد فيها إشكالات . ونسب هذا الكتاب الى ولده محمد شاه . (المعرب)

٥٤) (ت ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦ م) : هو محمد بن عبد الحميد اللاذقي العثماني . سمى كتابه بـ«الفتحية» تيمناً وتفاؤلا بفتح القسطنطينية ، ألفه في أوائل فتوح السلطان بايزيد . واليك ما قال عنه الحاج خليفة (١٠٠٤ – ١٠٦٧ هـ = ١٥٩٥ – ١٥٥٦م) صاحب معجم كشف الظنون المعروف : « .. هو من المتوسطات في هذا الفن (يقصد فن الموسيقى) ، ولقد رتبه على مقدمة وطرفين ، وذكر في المقدمة فصولا ثلاثة ، وذكر في الطرف الثاني الايقاع وفي الطرف الاول التأليف . (المعرب)

٥٥) هو من أشهر موسيقيي العراق ، كان في مقدمة أحمد جليلرد السلطان العراقي في السنة ١٣٧٩ م حيث تعاون هو وجلال الدين الحسيني أحد موسيقيي ذلك العصر ، على تحسين النوبة الموسيقية. وعندما اجتاح تيمورلنك بغداد وقتل سلطانها احمد وسبى أولاده ونساءه وحاشيته وفيهم عبد القادر ، أرسل الى سمرقند ، وبقي هناك ، وتوفي في المراغة بالطاعون الذي اجتاحها . له كتاب «جامع الألحان» (جاء في الرسالة الشهابية في الصناعة الموسيقية للدكتور خليل مشاقة

منذ أن نشرت أبحاث المدرسة النظامية ، هي رسالة (محمد بن مراد (١٤٢١ ـ ١٤٥١ م) الذي نجهل اسم مؤلفها والمحفوظة الآن في المتحف البريطاني[٥٦]

قيمة النظريين العرب

كان أكثرية النظريين العرب في فن الموسيقى من نوابغ (الرابوع quadrivium) ومن خيرة الطبيعيين والرياضيين ، وإن نظرية الموسيقى والقواعد الطبيعية للصوت التي جاءت بها الرسائل اليونانية ، حملت جمهرة من اولئك النظريين على اجراء تجارب خاصة بأنفسهم . وهذه ناحية من أروع نواحي مجهوداتهم . ولقد قرأنا أكثر من مرة قولهم ، انهم وضعوا النظرية الفلانية والفلانية في حيز التطبيق والعمل فوجدوها خاطئة الى غير ذلك . وان نقدات (صفي الدين بن عبد المؤمن) وتعاريف (الفارابي وابن سينا) أظهرت لنا طباع هؤلاء الرواد الباحثين الذين لم يخرّوا على رُكبهم رُكّعاً مقتبلين الآراء التي جاء بها سلفهم على علاّتها مهما كانت أسماء اولئك الاسلاف شهيرة إن لم تكن آراؤهم تلك صحيحة .

رأينا فيما سبق أن كلا من (الفارابي وابن سينا) قد زادا على ما جاء به الاغريق . فكما أصلح الفلكيون العرب أخطاء (بطليموس) وغيره ، كذلك حسّنوا ما خلفه لهم أساتذتهم الاغريق من تراث موسيقي . فمقدمة (الفارابي) لكتابه الكبير في الموسيقى ، تضاهي في الواقع إن لم تبز كل ما ورد من المصادر اليونانية . ومما لا شك فيه أن العرب حققوا بعض التقدم في نظرية المباديء الطبيعية للصوت وعلى الأخص في قواعد انتشاره ومما لا شك فيه ان الستار

« المطبعة اليسوعية في ١٨٩٩ » أن اسم كتابه هو « مقاصد الالحان ») توجد منه نسخة خطية في المكتبة البودلية ببريطانيا وقد عرف فيه النغمة بقوله : « النغمة صوت واحد ، لابث زماناً ذو قدر محسوس في الجسم الذي يوجد » . (المعرب)

٥٦) اخترت لها هذا الاسم لانها كانت مهداة الى السلطان العثماني محمد بن مراد . (المؤلف)

سيزاح عن كثير من معميات المصطلحات والعبارات اليونانية العلمية التي استغلقت على الافهام وأوضحت مجالاً للأخذ والرد بين كتاب اليونان وذلك بعد نشر آثار النظريين العرب باتقان وتهذيب .

إن وصف العرب آلات الموسيقى (الأوزان الموسيقية) وصفاً دقيقاً سهل علينا معرفة (السلالم) الموسيقية الخاصة بتلك الفترة من التاريخ . فلدينا وصف آلات العود والطنبور ومجموعة الآلات النفخية الخشبية ، وصفتها أقلام الكندي والفارابي والخوارزمي واخوان الصفا أي قبل عدة أجيال من القيام بأية محاولة مثلها في اوربا . أما عدم استحسانهم النغم اليوناني فيتجلى في تجاربهم على الحيادي لزلزل ذي قيمة ٢٧/٢٢ والثلث الفارسي ذي قيمة ٨١/٦٨ (٥٧)

ان مدرسة صفي الدين عبد المؤمن النظامية الموسيقية ، ابتدعت ما اعتبره (سر هربرت باري Sir Herbert Parry) أكمل سلم وُجد على الاطلاق وقال (هلمهولتز Helmholtz) : « إن استعمالهم البعد السابع الكبير major 7th (٥٨) من السلم ، كنغمة أساسية في القرار انما يدل على بدعة جديدة في الموسيقى أدى استخدامها الى تطور غير مسبوق في درجات السلم الطنينية حتى ضمن نطاق الموسيقى الهوموفونية (٥٩) الخالصة .

تراث الموسيقى العربية

كان التراث الذي تركه العرب لعالم الموسيقى هبة جسيمة رائعة . فحينما أرسلنا الطرف في الشرق وجدنا تأثير الفن العربيّ عمليّاً . أما عن انتفاع

---

٥٧) وهو السلم للنغمة ذات ثلاثة أرباع الابعاد الذي يدعى الآن بالبيكاه . (المعرب)

٥٨) ان الابعاد الموسيقية خمسة وهي : تام *just* ، كبير *major* ، صغير *minor* زائد *augmente* ، ناقص *diminue* ، ولكل بعد من هذه الابعاد ثمانية أبعاد فرعية اخرى بمقتضى درجات السلم . (المعرب)

٥٩) الهوموفونية *Homophonic* تطلق اصلا على نوع من السمفوني الاغريقية وهي الانشاد من جملة أصوات في آن واحد (المعرب)

النظريين الفرس والترك وغيرهم أيضاً فهناك كثير من الشواهد الخطية . وفي بلاد فارس يفصح عن التراث العربي كتب « بهجة الروح » لعبد المؤمن بن بن صفيّ الدين [٦٠] من رجال القرن الثاني عشر . وكتاب « جامع العلوم » (لفخر الدين الرازي : ت ١٢٠٩) [٦١] وكتاب « نفائس الفنون » للآملي[٦٢] وهو من رجال القرن الرابع عشر ، و« جامع الالحان » وغيرها من آثار (عبد القادر بن غيبي) . هذه الآثار كُلّها تكشف عن التراث العربي . وفي تركيا نجد مترجمات تركية لرسائل (الفارابي وصفي الدين وعبد القادر) . وكان ابن هذا الأخير المدعو (عبد العزيز) مع حفيدٍ له وكلاهما في خدمة سلاطين آل عثمان ، قد كتبا رسائل تكشف عن اعتمادهما على اساتذتهما العرب. كما ظهرت ذلك آثار (خضر بن عبدالله واحمد أُوغلو شكر الله) من القرن الخامس عشر وفي هذا أيضاً نجد أن الرسائل العربية كانت موضع اقتباس .

وأمّا عن غرب اوروبا فإن الفوائد المستخلصة من الاحتكاك بالحضارة العربية ، أكبر وأعظم . فلقد استمدت اوروبا تراثها من العرب بسبيلين . (١) الاحتكاك السياسي الذي اوصل تراث الفن العملي باليد واللسان . (٢) بالتماس الادبي والثقافي الذي توسّل الى نقل تراث الفن النظري بالترجمة وبتعاليم الباحثين من علماء الغرب الدارسين في المعاهد الاسلامية باسبانيا وغيرها .

---

٦٠) عبد المؤمن بن صفي الدين بن عز الدين محيي بن نعمت بن قابوس وشمكير الجرجاني مؤلف كتاب « بهجة الروح » ، الذي وجد منه نسخة خطية في المكتبة البودلية ، يظهر أن هذا الكتاب الف في أفغانستان أيام حكم السلطان محمد الغوري (١١٧٣ – ١٢٠٦ م) (المعرب)

٦١) (٥٢٤ – ٦٠٧ هـ = ١١٤٩ – ١٢٠٩ م) : ولد في الري وعاش في خوارزم وخراسان وتركستان ، وتوفي في هرات . دخل خدمة علاء الدين خوارزمي شاه فأكرمه ، فصنف له كتاب « جامع العلوم » (توجد منه نسختان خطيتان في المتحف البريطاني) . (المعرب)

٦٢) هو محمد بن احمد الآملي الاندلسي . ويوجد من كتابه هذا نسخة خطية واحدة محفوظة في المتحف البريطاني . (المعرب)

ومع أن الآثار العربية في نظرية الموسيقي كانت عظيمة جداً في القرون الوسيطة ، فما جاء اوروبا عن طريق التراجم اللاتينية والعبرانية قليل جداً . أمّا عن اليونانية، فقد ترجم (يوحنا هَيْسبالِنسيس Johannes Hispalensis ت : ١١٥٧ م) كتاب (ارسطو : في النفس) وكتاب (جالينوس : في الصوت) . ومن هذا الأخير لدينا مخطوط يعود تاريخه الى القرن الثالث عشر . والمعروف عن هذين الكتابين انهما مترجمان الى اللاتينية من العربية : ولعل (يوحنا) هذا بالمشاركة مع (جيرار القرموني : ت١١٨٧م) ترجم كتابي الفارابي : احصاء العلوم De Scientiis واصل العلوم De Artu Scientiarum . وعَرَفَ العالم اللاتيني (ابن سينا) أيضاً بمختصرٍ لكتاب (ارسطو : في النفس) الذي نقله (يوحنا) المذكور . وأعاد ترجمته (أندرياس الباكوس Andrias Alpacus : ت ١٥٢٠ م) . وترجم كذلك كتـاب « تصنيف العلوم » . ولشرح (ابن رشد) المطول على كتاب « في النفس » أهميـة خاصة فقد نقله (ميخائيل سكوت : ت ١٢٣٥ م) . وترجمت كتب عربية كثيرة الى اللغة العبرانية في اوروبا الغربية ، ولقيت انتشاراً واسعاً . وكما يبدو فان كتاب « القانون لاقليدس » ترجم من العربية الى العبرانية ما دام وجد لدينا التعليق الذي كتبه (اشعيا بن اسحق) عليه . وكان (موسى بن تبّون : ت ١٢٨٣ م) قد ترجم كتاب (المسألة) لأرسطو وفي الفاتيكان كتاب موسيقي ينسب الى (ميخائيل بن حيّه : ت ١١٣٦ م) قيل انه ترجمه من العربية . وربما كانت رسالة (أبي الصلت أميّة : رسالة في الموسيقى) معروفة باللغة العبرانية أيضاً . هذا وان مقدمة الفارابي « للكتاب الكبير في الموسيقى » كانت موضع مدحٍ وثناء (ابن عَقْنين : ١١٦٠ — ١٢٢٦ م) . وترجم (شمطوب بن اسحق الطرطوسي : ت حوالي ١٢٦٧ م) كتاب ابن

رشد المسمى « الشرح الاوسط » على كتاب « في النفس » (٦٣) لارسطو . ونقل (قالونيموس بن قالونيموس Kalonymus ben Kalonymus المتوفى حوالي ١٣٢٨ م) كتاب « احصاء العلوم » للفارابي . وان أول من قام بحركة احياء التراث العربي الموسيقي ونقله الى الغرب بطريق التماس الادبي والترجمة ، وهو (قسطنطين الافريقي المتوفى حوالي ١٠٨٧ م) الذي كان أحد المترجمين الاوائل من العربية الى اللاتينية ، وأحد الذين بشروا بتأثير النجوم العلاجي وقوة الموسيقى الشفائية بكتابيه « عن طبيعة البشر De humana natura » و « عن المعرفة الادبية De morborum cognitione . وهـذان مبدآن مستمدان من قول ابن سينا الآتي : « يؤخذ مـن بين التجـارب العملية أحسنها : inter omnia exercitia sanitatis cantare melius est.

وكُنديسالفوس Gundisalvus (عاش فيما بين ١١٣٠ — ١١٥٠ م) له فصل عن الموسيقى في كتابه « نقسيم الفلسفـة divisione philosophia وهو صورة منتزعة من كتابيْ الفارابي اللذين أتينا الى ذكرهما . وربما صح لنا القول بان كُنديسالفوس هذا ، كان قد ساهم في ترجمتها . ومما يدل على الاستمداد من المصدر نفسه ، وجود رسالة في الموسيقى تُعزى إلى أرسطو . ولدينا كذلك كتاب(فنسنت دي‌بوفيه Vincent de Beauvais)(٦٤) المعروف باسم « مرآة المبادىء Speculum doctrinale » وهو لا أكثر من مقتبسات عن الفارابي ، و(بويوس Boëthius وايزيدور الاشبيلي Isidore of Seville و (كيدو الاريزي Guido Arezzo) (٦٥) ويظهر مـن تعريفٍ لفن

---

٦٣) لابن رشد ثلاثة شروح على كتاب « النفس » لأرسطو : مطول ووسط ومختصر (المعرب)

٦٤) (١١٩٠ – ١٢٦٤ م تقريباً) موسوعي أنجز ثلاثة كتب من دائرة المعارف المعروفة آنذاك باسم *Speculum Magus* هي : الطبيعة ، والمبادىء ، والتاريخ . وكانت مباحث الموسيقى من جملة الكتاب الأول . (المعرب)

٦٥) (٩٩٥ – ١٠٥٠ م) راهب بندكتي عزيت اليه جميع المبتدعات الموسيقية التي عقبته . وكتابه الموسوم *Micrologus de Disciplina Artes Musica* حسن به العلامات الموسيقية وتقدم بغناء التقطيع (المقاطع) وهو غناء شرقي قديم . (المعرب)

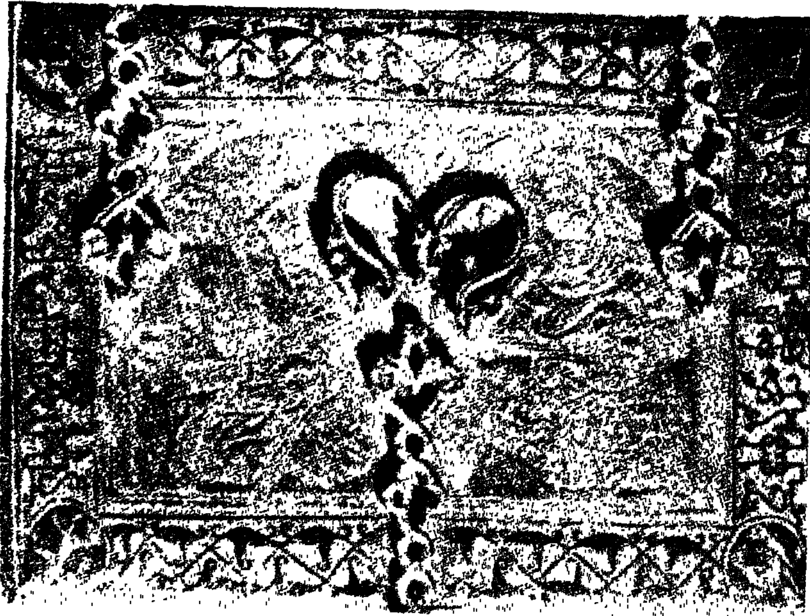




زمر عود

الشكل ٨٩ : موسيقيان اسبانيان فرانشيان من القرن العاشر حتى القرن الحادي عشر الميلادي

(عن صندوق عاجي في متحف فكتوريا والبرت)



رباب جنك (جانك)

الشكل ٩٠ : موسيقيان فارسيان من القرن الثاني عشر الميلادي

(عن صندوق فضي في بروكيوراتو دي سان مارينو بالبندقية)



الشكل : ٩١ جوق عسري يعود إلى القرن الرابع عشر

(من مخطوطة للجزري في متحف الفنون الجميلة ببوسطن)

الموسيقى في مؤلفٍ للكاتــب النظري الاسباني (يوحنــا ايكيديوس Johannes Aegidius المتوفى حوالي ١٢٧٠ م) الذي عرّف الناس بآثار (قسطنطين الافريقي) ؛ أن الفارابي كان أحد مصادره التي اعتمد عليها . ويصدق مثل هذا القول أيضاً عــلى كل مــن (روبرت كيلووردبي Robert Kilwardby المتوفى ١٢٧٩ م) . (وريموند لول Raimundo Lull المتوفى ١٣١٥م) ، و (سيمون تونشتيد Simon Tunstede نَبَغَ ١٣٠٠–١٣٦٩م) ، و (آدم دي فولــدا [٦٧] Adam de Fulda عاش حوالي ١٤٩٠ م) . واقتبس (روجر بيكن Roger Bacon) كثيراً من آراء الفارابي الى جنب اقتباسه من اقليدس وبطليموس وضَمّنها « الكتاب الثالث Opus tertium » الخاص بالموسيقى من كتابه الجامع المعروف بالكتاب الأكبر Opus Majus وأورد ذكر الفارابي ببحثه عن كتاب احصاء العلوم. ونحا نحو ابن سينا في تقدير قوة الموسيقى العلاجية.واستعار والتر أُدنكتن Walter Odinectan[٦٨] جملة آراء من كتاب روجر هذا وضمنها كتابه الموسوم بنظرية الموسيقى de Speculatione Musices » كذلك فعل (انجلبرت Engelbert المتوفى ١٣٣١ م) في كتابه « عن الموسيقى » . وخصص (جيروم المورافي Jerome of Moravia) [٦٩] (من القرن الثالث عشر) فصلاً عن الفارابي في كتابه « في الموسيقى » واستشهد ببعض آرائه في أحد فصوله ، الى

---

٦٦) الكردينال ورئيس أساقفة كنتربري واستاذ في جامعة باريس ، نبه ذكره في المنطق والبلاغة ، وعرف بتعليقاته النفيسة على أرسطو . (المعرب)

٦٧) آدم الفولدي (ولد حوالي ١٤٥٠ م) : موسيقي الماني أوجد ما يدعى بالغناء القوطي . ويتم بانشاء أصوات ستة يغني كل زوج منهـا ثلاثة أقفال مختلفــة في آن واحد . وله رسالة في الموسيقي الفها السنة ١٤٩٠ م . (المعرب)

٦٨) موسيقار نظري انكليزي نبغ حوالي ١٣٠٠ م ، وكتابه الذي نوه به صاحب البحث أظهر فيه أول التغييرات التي طرأت على السلم الموسيقي السائد آنذاك . (المعرب)

٦٩) راهب فرنسي دومنيكي عاش في باريس حوالي ١٢٥٠ م ، كان من الموسيقيين الذين يحبذون الاصوات المعتدلة في الانشاد وله نظريات في أصوات الكمانجة . (المعرب)

جنب (بويوس وايزيدور وهوكو سانت فكتور Hugo of St. Victor)
و (كيدو الاريزي ويوحنا الكارلندي) كما استدللنا عليه من كتاب
« المستحسنات والمستهجنات de expetendis et fugiendis rebus » لمؤلفه
(جورج فالا George Valla ١٤٩٧ – ١٥٠١ م) وكتاب « اللؤلؤة الفلسفية
Margarita philosophica » لمؤلفه (جورج رايش George Reish في
١٥٠٨ م) ومن (كاميراريوس Camerarius) الذي أعاد طبع كتاب
احصاء العلوم للفارابي في العام ١٦٣٨ م . ان الفوائد المستخلصة من
التماس الثقافي على النحو الذي بسطناه آنفاً لم تكن كثيرة ، والأهم منها
انتقال النظريات العربية بالسماع واللسان . يقول (ابن الحجاري المتوفى
١١٩٤ م) بان الطلاب الغربيين كانوا خلال الحكم العربي الاموي يتقاطرون
الى اسبانيا من جميع أنحاء المعمورة لتلقي العلم في قرطبة ينبوعه ومعينه الذي
لا ينضب . وكانت الموسيقى وهي من جملة « الرابوع » داخلة في مناهج
الدراسة ،وكان باستطاعة التلاميذ الاوربيين أن ينهلوا من معين العلوم العربية
مباشرة دون حاجة الى توسط التراجم اللاتينية . ويغلب على الظن ان المستعربة
Mozarabs (وهم المسيحيون الذين عاشوا في اسبانيا خلال حكم العرب)
كانوا يتكلمون اللغة العربية وان ادوارهم كانت هامة في نشر علوم العرب .
وقد توفرت لدينا معلومات بان (روجر بيكن) استاذ الطب في جامعة
اكسفورد كان موضع سخرية التلاميذ الاسبان واستخفافهم برجوعه الى
مترجمات مغلوطة لاتينية ، ذلك لانهم كانوا على معرفة باصولها العربية . ولا
عجب إن رأينا (أديلارد الباثي) الاديب الملفان dector mirabilis ينصح
مستمعيه كسلفه – بترك المعاهد الاوربية ودخول المعاهد العربية . وفي
الوقت الذي لم يعرف نظريو اوروبا نظرية الاغريق إلا عن طريق مارتيانوس
كابللا Martianus Capella ، وبويوس ، وكاسيدورس Cassiodorus ،

وايزيدور ، نجد العرب قد توصلوا الى آثار (أرسطو وأرسطوكزينس ونيقوماخس وبطليموس) وغيرهم . لذلك ، وسواء أعرف الغرب اللاتيني أحسن رسائل العرب في الموسيقى أم لم يعرفوا فإن مجرد دراسة العرب لها ، جاء بنتائج ذات فائدة عظيمة . أما عن تأثير العرب على اوروبا في إدخال (التنغيم Solfeggio) وأبجدية العلامات الموسيقية [70] فهذا ما لا يمكن البت فيه برأي قاطع ، ويمكن تلمس سبيل الاستعارة بصورة أوضح في أخذ دساتين العود كما دلّ عليه أقدم أثر لاتيني عندنا في هذا الموضوع « فنون العزف Ars de pulsatione lambuti » أما العلامات الموسيقية المتباعدة ، فيرجع أول استعمال الشرق لها الى حوالي ١٢٠٠ م . ولعل أهم تراث خلفه العرب لاوربا هو « الموسيقى الموزونة » . لقد كان الغناء الموزون cantus mensurabilis قبل مجيء (فرانكو الكولوني Franco of Cologne حوالي ١١٩٠ م) [71] غير معروف في اوروبا . وكان الايقاع (جمعه ايقاعات) هو الجزء الأصلي من الموسيقى العربية منذ القرن السابع الميلادي وقد جاء وصفه في أحد آثار الكندي . ولم يكن امر فإن أوزان النغم وحدها هي التي استمدها (فرانكو الكولوني) ومدرسته من العرب بالاصل ، بل استمدت كذلك (الالحانُ الايقاعيةُ) . ونجد في الرسالة اللاتينية المسماة « الابعاد والفواصل mensuris et descantu » التي كُتبت فيما بين (١٢٧٣ – ١٢٨٠ م) ، أنواعاً خاصة من الالحان الموسيقية عربية الأصل كما

---

٧٠) ان أبجدية الاصوات الموسيقية قد اصطلح عليها بالاصوات السبعة المتضمنة السلم الموسيقي وهي (دو ، ري ، مي ، فا ، صول ، لا ، سي ، دو ،) وهذه الاخيرة باضافتها مكررة مع المفاتيح الاخرى بنغمة أعلى يتكون لنا سلم جديد . (المعرب)

٧١) فرانكو الكولوني : من موسيقيي القرن الثالث عشر ، صاحب رسالة مهمة في الموسيقى اسمها *Ars Cantus Mensuralibus* تقدم بها بجملة تسهيلات لقراءة النوطة . (المعرب)

تدل عليها أسماؤها كـ (الموهيم Elmuahym والمريفه Almarifa) .
كذلك نجد جوهانس دي مُورِس Johannes de Muris : مـــن القرن الرابع عشر) ينوه ببدعة موسيقية اسمها (الانترادي Alentrade) [٧٢] وهي ذات أصل عربي أيضاً . وان (الهوكيت hocket) الذي شاع في القرون الوسطى وقال عنه (روبرت دي هاندلو Robert de Handlo المتوفى ١٣٢٦ م) بأنه عبارة عن «تركيب من السكتات والاصوات » انما هـــي الايقاعات العربية بعينها ، مثلما كانت لفظة (الهاش alhash) في الترجمة اللاتينية (لقانون ابن سينا) هي الكلمة العربية (العشق) بالضبط .

الفن العملي

يعود الفضل في انتشار الموسيقى العربية الى المغنين والمطربين الذين كانوا المذيعين الحقيقيين للموسيقى في القرون الوسطى . وربما كانت أزياء المغنين الأوروبيين الزاهية المبرقشة وشعرهم المسترسل وأوجههم المصبوغة، تعود الى تأثير موسيقيي الشرق ومغنيه . ان الراقصين الموريسكيين [٧٣] أي الراقصين المراكشيين Morris Dancers برأس حمارهم الخشبي وجلاجلهم انما هم بدون شك من بقايا المطربين الجوالين العرب . ظلّ هؤلاء الراقصون حتى العصر الذي عاش فيه (توانو آربو Thoinot Arbeau [٧٤] حوالي ١٥٨٩) يصبغون أوجههم تقليداً للمراكشيين وإن الإسم الباسكي لرأس الحمار الخشبي

---

٧٢) ربما كانت الاطرادي. (المعرب)

٧٣) انه الرقص المغربي (*Moorish : Morris dance*) وكان شائعاً في اواسط اوروبا وغربها في القرون الوسطى أما الآن فهو يطلق للدلالة على الى قص الديني التقليدي الشائع في انكلترا الآن . (المعرب)

٧٤) عرف بكتابه النفيس *Archesogradhic* الذي الفه في العام ١٥٨٨ م (المعرب)

(زَمَلْزين Zamelzain) المسمّى hobby horse هو بالعربية (زامِل الزِّيْن)[٧٥] بالضبط . ومعناها « حصان الرقص الأعرج Gala Limping Horse » . والكلمة الاسبانية (مَسْكرا mascara) التي تقابل اللفظة الانكليزية mascker وتعني الممثل المسرحي ، انما هي اللفظة العربية الاصيلة (المسخرة) وهناك عشرات الكلمات التي تمتّ الى الموسيقى شائعة في شبه جزيرة ايبريا مثل(الحُداء Huda) و(مغربية Mourisca)و(الزمرZamlra) و (الزّربنده Zarabanda) . وكلها كما هو ظاهر عربية الأصل .

لقد قدر للحضارة العربية التي سمت الى الأوج ان تعكس ضوءها على اوروبا الغربية وثبث لدينا بان الاسبان كانوا يقلدون النماذج العربية في الاسجاع والأوزان الشعرية للقصيدة في غضون القرن التاسع الميلادي . وقد تأثر بها حتى اليهود أنفسهم في غضون القرن العاشر . ومما لا ريب فيه أن الموسيقى التي تُساير الشعر استعيرت أيضاً . لانهما يؤلفان وحدةً لا انفصام لها.ونحن اولا نجد بين المغنين ، اليوكلير Juglare في اسبانيا المسيحية يمارسون مهنتهم غرباً واليهود في القرن الثاني عشر عندما صار كونتات برشلونة حكاماً لمقاطعة البروفانس . ان التروبادور Troubadour وهي كلمة يرجح أنها محرفة عن لفظة (الطرّاب) العربية مع (يونكلوره Jongleur) ؛ يعيدان تمثيل دوري الأمير العربي ومغنيه .

ان التراث العربي المتخلف لاوروبا الغربية في ما يخص الآلات الموسيقية والفن الموسيقي الآلي انما ينطوي على عظيم أهمية . أمّا وأنّ للعرب فضلاً في إدخال اسماء عدد من الآلات الموسيقية بأشكالها الحالية في اوربا الغربية ، فهذا ما قرّ الرأي عليه بصورة عمومية . فأصل كلمات (العود والرباب والقيثار والنقارة Lute, Rebec, Guitar, Naker) هو عربي وأغلب (التسميات)

---

٧٥) الزمال (بكسر الزاي) صاحب الزاملة ، والزاملة هوما يحمل عليه من الحيوان.(المعرب)

الاجنبية التي استعارتها اوروبا لم تمثل دائماً شكلاً جديداً مـن الآلات المستعارة وربما كان مردّ ذلك الى ضغط سياسيّ . لقد دخل عدد كبير من أشكال عربية خالصة جديدة تماماً وكانت ذات أهمية كبيرة للموسيقى الاوربية . فأولاً وصل كل أسرة الآلات الوترية لمجموعات العود والطنبور والقيثار ، وثانياً وردت الآلات القوسية بمختلف أشكالها، ولدينا شاهد على اول انتقالها من (مزاهر) سان ميدارد ايفانجيل St. Médard Evangel (القرن الثامن) و (لوثير Lothair) و(لابيو نوتكر Labeo Notker) [٧٦](وكلهم من رجال القرن التاسع والعاشر) .

وجاءت مع هذه (الملاهي) فوائد مادية جديدة . لم يكن لدى المطربين الاوربيين قبل الاحتكاك العربي الاّ ما يدعى بالـ : (Cithara, Harp) مـن الآلات الوترية ولم يكن لديهم غير آذانهم تهديهم الى (الدّستان) الصحيح . فجلب العرب الى اوربا عيدانهم وطنابيرهم وقيثاراتهم بمواضع النغمات مؤشرة فوق زند الآلة بوساطة ما يسمى Frets (من العربية : فِرْضة او فريضة) وهي التي حدّدت مقياس المسافات (الميزان الصوتي) وهو تقدم عظيم بحد ذاته . والواقع ربما كانت دستانات (فريضات) العود العربي هي التي أدّت الى استعمال (مقام البُعد الكبير Major Mode) في اوروبا .

وبطبيعة الحال فأعظم غُنْم نالته اوربا في الموسيقى من جراء الاحتكاك بالعرب هو بدون شك اقتباس الموسيقى الايقاعية التي درج المطربون على استعمالها قبل أن يتناولها النظريون بالتنظيم بزمن طويل ، ويأتي بعد ذلك الزائدة gloss أو الحلية أو زخرفة المقطوعة وهو ما يقابله الفنون الأخرى (الزخرفة العربية : أرابِسْك) فهذه استعيرت ودرج استعمالها . ان شكل الزائدة

---

٧٦) أو لابيو نوتكر الأخرس (٨٣٠ – ٩١٢ م) راهب بندكتي أثر عنه انه ألف في علم الموسيقى ولكن لم يصلنا شيء من تأليفه . (المعرب)

(الحلية) المسمّى (تركيب) هو عبارة عن ضرب النغمة او الدرجة تواً مع رابعتها وخامستها او قرارها (أوكتافها) ، هو الذي حث الخُطى باوربا الى الموسيقى التوافقية (الهارموني) . ومما هو جدير بالذكر أيضاً ان كلمــة كوندكتس Conductus [٧٧] وهو أشبه شيء بشكل من أشكال التركيب الموسيقي للقرون الوسطى ، انما يماثل (المجرى) الموسيقي العربي . كما أن العود العربي الذي أصلحه فنانو الاسبان كان السبب لابتداع الموسيقى التصويرية musica ficta [٧٨] عندنا .

وبسقوط بغداد بيد المغول في ١٢٥٨ م واستيلاء الجيوش المسيحية على غرناطة في ١٤٩٢ م ووقوع مصر بأيدي الاتراك العثمانيين في ١٥١٧ م ، آذن تفوق الشعوب الناطقة بالضاد بالأفول ثقافياً وسياسياً . وقد يتبادر الى الذهن أن الثقافة والسياسة قطبان يتعذر التقاؤهما ، إلا أن الواقع عكس ذلك تماماً . فهما مرتبطان بعضهما ببعض أوثق رباط . هذا فضلاً عن أن اوروبا كانت قبل السنة ١٥١٧ م بزمن طويل قد أمسكت بطرف أعِنّة الحضارة العالمية وصارت تقود العالم .

كانت تظهر في اوربا بين آن وآخر محاولات لإدخال الألحان العربيــة والمسحة الشرقية في الموسيقى الغربية ، وظهر قبيل نهاية القرن التاسع عشر بعض الموسيقاريين أمثــال روبنشتاين Rubinstein [٧٩] وفيليسيان دافيد

---

٧٧) ان اول ذكر للكوندكتس ، وكان في السنة ١١٤٠ هو باعتباره شكلا ثالثاً من الغناء المتعدد الاصوات الذي شاع في القرن الثالث عشر. فيه صوتان او ثلاثة أو أربعة أخفضها يتم بانشاد مقطع لاتيني بنغمة مبتدعة ، بينما تقوم الاصوات الأخرى بمصاحبته بدندنة تشبه وزنه ونغمته (المعرب)

٧٨ هي ألحان كنسية كانت سائدة في القرن الرابع عشر ومنها *Musica Falsa* المعرب)

٧٩) انطون كريكور روبنشتاين (١٨٣٠ – ١٩١٣) ملحن ورسام روسي شهير (المعرب)

Félicien David [٨٠] وسانت سينس Saint-Saëns [٨١] قاموا بمثل هذه المحاولات ، إلا أن بعض المتأخرين من الموسيقاريين هاجموا في الوقت نفسه ذلك المنحى وانتقدوه . وقد تكون دراسة أبحاث هؤلاء ذات فائدة كبيرة ، ألا أن اسهابنا في بحث مقتضب كبحثنا هـذا ، قد يورطنا في تفاصيل فنية معقدة ما كان أغنانا عنها .

اج . جي . فارمر

---

(٨٠) فيليسيان دافيد (١٨١٠ – ١٨٧٦) ملحن فرنسي ولد في (كاردنيه) وتوفي في باريس ، وألف في ١٨٤٤ م قطعـاً موسيقية ذات مسحة شرقية ، منها سيمفونيتان بـاسم « كريستوفر كولومبس وعدن » مما جعله يقفز الى سلم الشهرة . وظهر ذلك الطابع الشرقي عنده في قطعتين موسيقيتين باسم « الصحراء ، لالاروك » . (المعرب)

٨١) سان سينس (١٨٣٥ – ١٩٢١) موسيقار فرنسي غلب عليه التأثر بالموسيقى الشرقية ، له قطع موسيقية مبتكرة منها « شمشون ودليلة ، ورقص المقابر » . (المعرب)

ملحق للمعرب

في شرح اصول السلالم الموسيقية

وعلاقة الموسيقي بالرياضيات

ان العلاقة بين الموسيقى وبعض مناحي الرياضيات وثيقة جداً ويتضح ذلك مما يلي :

اولاً : إن وقع الصوت الموسيقي على الأذن يتوقف قبل كل شيء على ارتفاعه او ذبذبته ومعنى الذبذبة هو تواتر رجات إهتزازات الجسم المُرسِلة للصوت في الثانية الواحدة.فعندما نقول اننا سمعنا نغمة Do : دو ، فمعنى ذلك أن أذننا سجّلت ٢٥٦ ذبذبة في الثانية . ولكل صوت والحالة هذه عدد ملازم له ، كما أن لكلّ عدد صوتاًيقابله ،صحيحاً كان هذا العدد أم كسراً .

ثانياً : عندما نسمع في آن واحد صوتين مختلفين ، تتلقى آذاننا عددين اي نسبة ما . فاذا سمعنا Do و Sol من سلم واحد فنحن نسمع نسبة ٣ الى ٢ وهي نسبة ارتفاعهما.ولما كان الاختبار يدل على ان التأثير الجمالي للحـــن الموسيقي يتوقف على النسب بين هذه الارتفاعات فإن مسألة التآلف(الهارموني) هي مسألة اختيار النسب العددية .

ولا يختلف الأمر في موضوع الايقاع فهو بجوهره ذو طبيعة حسابية ايضاً لاّ أنها دقيقة النسب جداً بحيث يتعذر حصرها وتدوينها ويعتمد الأمر على الأذن المرهفة وحسب .

ان الأذن تحصي التواتر الصوتي او الذبذبة ارتفاعاً وانخفاضاً والموسيقي يكتب احوال هذه الذبذبات ويكون بحاجة الى عدد لا نهاية له من الرموز ان اراد الاشارة الى جميع ارتفاعات الأصوات فتغدو قراءة تلك الكتابة شيئاً مستحيلاً او على الاقل عملية شاقة بطيئة . ثم ان الموسيقى تكتب في سبيل الاداء العملي

وكلّ آلات الطرب والموسيقى الحالية تقريباً لا تستطيع الاّ ان تؤدي عدداً محدوداً من الأصوات .

ولان الأذن من جهة ثانية ، لا تستطيع التفريق بين صوتين شديـدي التقارب . وهذه القوة التفريقية تختلف طبعاً من شخص الى آخر الا انه ليس ثم أذن مهما بلغت رهافتها ان تميز على العدد انحرافاً في الأصبع أو الدستان قدره ملمتّران ، وهذا ما يجعل استخدام كل الذبذبات الممكنة شيئاً غير عمليّ. وعلى أية حالٍ فبوسعنا القول عموماً أن اذنا متمرنة تستطيع في مجال الصياح (الديوان أو الأوكتاف الكامل) ان تميز حوالي ثلاثمائة صوت وهو ما لا تستطيع التدوينات (النوتات) الموسيقية النهوض به — الأذن التي تميز (٣٠٠) صوت ، تستلزم عمل بيانو ذي ثمانية دواوين (٢٤٠٠اصبع). لكل ديوان (اوكتاف) ٨٠٠ اصبع !

هذه الاعتبارات أدّت الى تحديد عدد الاصوات المستعملة في اوكتاف (ديوان) واحد . والديوان هو المجال الاساسي الطبيعي . يقال ان نغمتين هما على اوكتاف واحد اذا كانت ذبذبة الواحدة مهما ضعف تواتر الثانية . اي انه اذا ادى وترٌ نغمةً ما ، فإن نصف الوتر يؤدي أوكتافهما .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن عندما غدت الموسيقى فنّاً عاماً : كيف نختار بين الثلاثمائة صوت التي يمكن تمييزها في أوكتاف (ديوان) واحدٍ ، سلماً مؤلفاً من بضعة اصوات فقط ؟

. نود هنا أن يدرك القارىء تمام الادراك الاهمية التي كانت معلقة على هذا السؤال . فقد كان من شأن الجواب عليه زج الموسيقى في اتجاه معين الى آلاف من السنين ان لم نقل الى الابد وابقاؤها في قالب جامدٍ واحدٍ غير متغير .

ذلك ما ان يصار الى اختيار سلم ما حتى يمسى من المستحيل عمليّاً ابداله . ولنضرب على ذلك مثلاً ، لنفرض أن الموسيقيين في احد العصور قرروا تجزئة (الديوان) الى عشرة مجالات (ابعاد) على النحو التالي :

الصوت الاساسي يخرجه وتر طوله متر واحد : فيكون أوكتافه (جوابه) أو ديوانه الصوت الذي يعطيه وتر طوله ٥٠ سنتمتراً. اما الاصوات التي تخرج بينهما فتعطيها اوتار طولها ٥٥ سم و ٦٠ سم و ٦٥ سم وهكـذا ، وليس في هذا الاختيار لأول وهلة ما يضير . الا انه اذا أردنا نقل لحن كتب في مثل ذلك السلم، الى كتابتنا الحالية، عجزنا عن ذلك حتى ولو استعملنا (الدييز ، والبيمول والدييز المزدوج والبيمول المزدوج) ، ولعجز معظم آلاتنا الموسيقية عن أداء اللحن فتكون الموسيقى المقننة وفق هذه الصورة عبثاً لا طائل تحته فهي بالتالي موسيقى ميتة .

إذن فاستمرار حياة الموسيقى يتطلب استعمال دائب دائم لسلم واحد او عدة سلالم يكون الفارق في بينها ضئيلاً جداً يكاد لا يذكر وهذا ما حصل فعلاً خلال التاريخ الموسيقي.

واذا انتبه الفلاسفة والموسيقيين الى ذلك كله فلا بد ان يروعهم عظم المسؤولية التي تحملها الموسيقيون القدماء يوم قسموا الاوكتاف الى أقسامه النهائية فليس ثم فن من الفنون اتخذ فيه قرار حاسم له مثل تلك الاهمية بل لعل أروع أمجاد الأغريق أنهم وضعوا السلم الموسيقي (في نفس الزمن الذي خلقوا فيه الرياضيات ومثل هذه المصادفة جدير بأن يشار اليه) .

و قد ظهر فيما بعد سلم مختلف سمعياً عن ذلك السلم وأكثر جمالية منه لكنا شاهدنا محاولات لفرضه بالرغم من الصعوبات التي أشرنا اليها ولكن ها نحن نرى بعد مضي (٢٥٠٠) عام ان السلالم التي سنوردها ليست في الواقع غير سلم واحد وهو السلم الاغريقي (الفيثاغوري) معدلاً فكتابتها جميعاً واحدة ، والعلامات تحمل الاسماء نفسها والقطعة الموسيقية تؤلف وتكتب وتؤدى وتغنى دون اشارة الى اسم السلم وهي كلها وان تكن متكافئة فيزيائياً ، تستعمل وتعتبر متكافئة .

فيما يلي سنأتي الى شرح اهم السلالم الموسيقية وهي السلـم الفيثاغوري

(اليوناني) وسلم زارلين (الطبيعي او الحيادي أو الدياتونيك) والسلّم الكروماتي او السلم المعدل او الملوّن ويعرف بسلّم باخ Bach نسبة الى الموسيقار الشهير جان سباستيان باخ .

كثيراً ما سنذكر في معرض الحديث ما نسميه مجال نغمتين او صوتين وهو نسبة تواترهما . لنأخذ مثلاً النغمات التي تقابل ٤٠٠ و٦٠٠ و٨٠٠ ، ذبذبة في الثانية.فيكون المجال بين الاولى والثانية بنسبة ٢ الى ٣ وبين الثانية والثالثة بنسبة ٤الى ٣ ونرى ان الفرق بين التواترات هو نفسه في حين يكون المجالان مختلفين .

السلم الاغريقي « الفيثاغوري »

لنأخذ وتراً يعطينا نغمة أو صوت (فا fa) فنعتبره مطلع ديوان (اوكتاف) واذ ذاك يصدر عن ثلثي الوتر نغمة أحدُّ من الأولى وهي الخامسة (نغمة : فا fa) فنعطيها اسم دو doفي نفس المقام (الا وكتاف) وثلثا وتر do يعطي كذلك خماسية جديدة وهي صول sol من الاكتاف الاعلى.فاذا ضاعفنا وتر نغمة صول sol هذا ، عدنا الى صول sol الاوكتاف الأولى . وهكذا دواليك من خماسية الى خماسية . فالتدوين السلميّ الذي نحصل عليه يكون بالترتيب من اليسار الى اليمين : do , ré , mi , fa , sol , la , si , do .

واذا مددنا هذه السلسلة من الخماسيات الى ما بعد (سي si) لا تعود تعطي فا fa بل تعطي نوطة هي (فا دينير fa dieze) ثم (دو دييز do dieze) الخ ... واذا مددناها الى ما قبل (فا fa) الأولى تعطي البيمولات ، فمفهوم هذا السلم اذن سهل جداً وهو السلم الفيثاغوري الأصيل او على الأقل وفاقه .

السلم الطبيعي

ومبدأه يختلف تماماً عن الأول فهو يضع منذ البدء قاعدة مؤداها ان وقع

صوتين على الأذن خصوصاً اذا ارسلا في آن واحد، يزداد جمالاً كلما ازداد عدد موافقاتهما المشتركة . والموافق لصوت ما، هو كلّ صوت تواتره مضاعف لتواتر الصوت الأول . فيقال عندئذ ان هذا الصوت هو الوُفاق الثاني او الوُفاق الثالث او الرابع الخ ... لنأخذ مثلاً التواترين (٤٠٠) و(٥٠٠) اللذين يقابلان مجال ٤ / ٥ ، فالوفاق الخامس للصوت الأول يطابق الوفاق الرابع للصوت الثاني (اي ٢٠٠٠ ذبذبة في الثانية) وموافقاتهما العاشرة والثامنة ترتيباً تتطابق من جديد ، وهكذا ... واذا كانت المجالات معقدة نوعاً ما ، جاء تلاقي الموافقات بعيداً . اما اذا كانت اعداد التواترات اعداداً صمّاء ، فلا يبقى ثمّ للاصوات وُفاقاتٌ مشتركة .

ولذلك كان من الضروري تعيين مجالات تواتر قليلة العدد . ومن هذه المجالات ما كان قد ورد في السلم الاغريقي (٨ / ٩ لمجال do-ré دو-ري) و (٤ / ٣ لمجال do-fa دو – فا) و (٢ / ٣ لمجال دو– صول do-sol) ومنها ما لم يرد في السلم الاغريقي ولكنه قريب منه قرباً شديداً لدرجة انه يمكن اطلاق الاسم نفسه عليها .

السلم الكروماتي أو الملون أو المعدل

في السلّمَيْن الآنفي الذكر تقسّم الاوكتاف الى ١٢ مجالاً موسيقياً غير متساوية في الابعاد . اما في السلم الكروماتي فالاجزاء الاثنتا عشرة متساوية ، فينتج من هذا ان كل مجال منها مرفوعاً الى قوة ١٢ ، يجب ان يعطي عدد (٢) وهو مجال الاوكتاف وبعبارة اخرى يكون المجال الاساسي ، الجذر الاثني عشري للعدد ٢ فتأتي تواترات الاثني عشرة نغمة على شكل متوالية هندسية وتكون النوطة الأولى دو do والثانية دو دييز do diez او ري بيمول ré bemol (وهاتان نغمتانِ متطابقتان في السلم)وهكذا، ولحساب المجال الحقيقي يُعمد الى استخدام جدول اللوغاريتم لاستخراجها . ولما كان الجذر الاثنا عشر لرقم (٢) هو عدد أصّم ، انتفى وجود مجال بسيط من كلّ

مجالات هذا السلّم فلا وفاق مشترك بين نغماته ودرجاته . وهذا ما يجعل السلم الكروماتي ممجوجاً من قبل المتشيعين للسلم الطبيعي حيث يزعمون انه يفتقر الى شرط الجمال في تمازج الاصوات الذي يوجد في سلمهم ، الاّ أنّ نوتات هذا السلم قريبة جداً من نوتات رفيقاتها في السلمين السابقين (وان لم تتطابقا) وهذا ما جعل اسماءها واحدة كما ترى .

فالسلم المعدل والحالة هذه مفهوم رياضي اكثر تعقيداً من مفهوم السلالم الأخرى . ولم يكن بالامكان وصفه وتحديده قبل اختراع اللوغاريتم . اعني لو لم يضع نيبير Neper جداول اللوغاريتمات (المثلثات) في العام ١٦٠٠ م (انظر فصل الرياضيات من هذا الكتاب) لما كان باستطاعة أحد استعمال هذا السلم .

* * *

من هذا يتبين لنا أن السلمين الأولين الموسيقيين بسيطان رياضياً في حين ان السلم الثالث معقد . لأنه يعتمد على النسب الصماء . وجمال السلمين الأولين يعتمد على بساطتهما وجمال الثالث يعتمد على تساوي مجالاته الاثني عشر . ففي اختيار اثني عشر مجالا (لا سبعة وخمسة عشر) نصادف اصواتاً مطابقة عملياً لاصوات السلم الاغريقي وقد تمّ وضع هذا السلم الأخير ليكون مشابهاً للسلم الاغريقي .

ولعل في هذا الشرح الكفاية للإهتداء إلى بعض نواحي الجمال في السلم العربي المأخوذ رأساً من السلم الاغريقي ، كما سيرد شرحه في الملحق الثاني .

ملحق ثان للمعرب

في قياس درجة الصوت والسلم العربي

— ٢ —

لما أراد العرب درس العنصر الصوتي في موسيقاهم وبحث سلمهم الموسيقي علمياً ، اتخذوا أغلظ صوت يصدر من حنجرة الرجل أساساً لهذا السلم ، وكانوا يشدون عليه طبقة وتر (البُـم) في العود وهو أغلظ الأوتار صوتاً في دستان هذه الآلة . ولما بحثوا في أمر الدرجة الثانية وجدوا أن الجمال والتآلف لا يتمان بينها وبين الاولى إلا اذا ارتفعت عن الاولى بمقدار بُعد ثنائي كبير وهو ما كانوا يسمونه بالبعد الطنيني . ثم بحثوا عن الدرجة الثالثة فوجدوا أن الجمال والتآلف لا يتمان لها مع ما سبقها ولا يكون طبيعياً لذيذاً عمليّاً السمع إلا إذا كانت هذه الدرجة على مسافة بُعد ثنائي أوسط مما يلي الدرجة الثانية ، وهذا البعد يساوي ثلاثة أرباع البعد الثنائي الكبير . فإذا كان البعد الثاني الكبير يساوي (تُسع) طول الوتر ، فالأوسط يساوي جزءاً من اثني عشر جزءاً من الباقي من طول الوتر . ثم بحثوا عن الدرجة الرابعة فوجدوا أنه يجب أن تكون على بُعدٍ أوسط أيضاً مما يلي الدرجة الثالثة ، وهكذا استمروا صَعْداً حتى (الصيّاح) وهو جواب الأساس ، ومضاعفته الحادة ، ونقطة انتهاء الديوان الموسيقي سُلمّهم الموسيقي الاساسي على الأبعاد الآتية :

الدرجة الأولى وهي الأساس .

الدرجة الثانية تبعد عن الاولى بعداً ثنائياً كبيراً .

الدرجة الثالثة تبعد عن الثانية بعداً متوسطاً .

الدرجة الرابعة تبعد عن الثالثة بعداً ثنائياً متوسطاً أيضاً .

الدرجة الخامسة تبعد عن الرابعة بعداً كبيراً .

الدرجة السادسة تبعد عن الخامسة بعداً متوسطاً .

الدرجة السابعة تبعد عن السادسة بعداً متوسطاً أيضاً .

الدرجة الثامنة تبعد عن السابعة بعداً كبيراً .

وبعد الاختبار والتجارب ، تحقق للعرب أن هذا السلم (قارن السلم الفيثاغوري) هو أجمل وأصلح وأرق وأعذب وخير ما يمكن أن يكون في تسلسل الاصوات وتدرجها وتكوين الألحان الانفرادية . ثم انهم حددوا في ذلك السلم ، المواقع (النصفية) أي الاصوات التي تبعد عن الدرجات الاساسية لذلك السلم بمقدار بُعد ثنائي صغير ، وهو يساوي نصف البعد الكبير . ثم ازداد التعقيد في سلمهم بتحديد أنصاف النصف وإخراج أرباع الانغام وهو الذي يميّز الموسيقى العربية (الشرقية بصورة عامة) عن مثيلتها الغربية اعني استخدام انصاف الأنصاف . ومما يجدر ذكره هنا أن موسيقى المغرب الجديدة ولا سيما تلك التي يعزف منها على الآلات الوترية مع إخواتها الايقاعية (الطبل والصحون) – أخذت تتبنى أرباع النغم وتخرج لحوناً صوتية ورقصات على مصاحبتها وهي غير موسيقى الجاز التي كانت شائعة في النصف الأول من قرننا هذا . وللاستزادة في دراسة السلم العربيّ والحانه راجع رسالتنا « معاني اسماء الاصوات في كتاب الاغاني للاصبهاني مع نبذة من تاريخ اهتمام المستشرقين بالموسيقى العربية » مطبعة المجمع العلمي العراقي – بغداد ١٩٥٨ . وكتاب « تاريخ الموسيقى العربية الى القرن للثالث عشر » الميلادي مع تعليقاتنا الكثيرة وملاحقنا من طبع دار مكتبة الحياة ١٩٧٣ ببيروت .

الفلك والرياضيّات

بقلم

البارون كارا دي فو Baron Carra De Vaux

١٨٦٨ – ١٩٣٩

« مستشرق فرنسي كبير من المعهد الكاثوليكي بباريس ، درس العربية ، ودرسها في المعهد الكاثوليكي بباريس ، وتميز بالناحية العلمية ، فألف في الرياضيات والفلسفة . وشرح كتاب « الكرويات » تصحيح يحيى بن محمد المغربي (١٨٩١) ، ونشر كتاباً يبحث في الساعات المائية وكتاب المجسطي لأبي الوفاء البوزجاني (١٨٩٢)، وكتاب الآلات والحيل لهيرون الاسكندري، مستنداً الى قسطا بن لوقا (١٨٩٣) ، ووضع كتاباً عن ابن سينا في (١٩٠٠) وكتاباً عن الغزالي السنة (١٩٠٢) ، وأصدر كتاب « مفكرو الاسلام » في أجزاء خمسة ١٩٢١ – ١٩٢٦. كذلك ترجم كتاب « التنبيه والاشراف » للمسعودي السنة ١٩٠٤ . وترجم قصيدة النفس لابن سينا ، وتائية ابن الفارض . وله كتب قيمة كثيرة جداً غير هذه » . (المعرب)

قد لا نتوقع أن نجد عند العرب تلك العبقرية العظيمة وموهبة الابتكار العلمي والنشاط الفكري الذي نجده عند الاغريق . فالعرب هم تلامذة الاغريق قبل كل الشعوب الاخرى ، وعلومهم انما هي تكملة لعلوم الاغريق حفظوها وصانوها من الضياع والتلف وتقدموا بها ، وفي بعض الاماكن ، اتموها وأخرجوها بشكلها النهائي . ويحصر (البيروني) أحد مشاهير اولئك التلاميذ الشروط اللازمة للبحث العلمي بالثقافة السابقة ومعرفة اللغات والحياة الطويلة وحيازة الوسائل الضرورية لقيام المرء باسفار وشراء الكتب واقتناء الادوات اذ يقول « وعمرُ الانسان لايفي بعلم أخبار أمة واحدة من الأمم الكبيرة علماً ثاقباً ، فكيف يفي أخبارَ جميعها ؟ هذا غير ممكن ولا سبيل الى التوصل الى ذلك سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل،أقاويلهم وآرائهم ... واذا كان الامر جارياً على هذا السبيل ، فالواجب علينا أن نأخذ الاقرب فالأقربَ والأشهرَ فالأشهرَ ونحصّلها من أربابها ونُصلح منها ما يمكننا اصلاحه ونترك سائرها على التعرف في غيرها ومرشداً الى ما لم يتهيأ لنا ..»[1].

مما لا شك فيه أن البيروني هنا كثير الاعتدال . فبهذا القدر المحدود من الطموح أنجز العرب أعظم المكتشفات العلمية فعلاً . فعلمونا استعمال (الصّفر ولو أنهم لم يكونوا مبتكريه وهكذا ابتدعوا حساب الحياة اليومية . انهم جعلوا (الجبْر) علماً متقناً وتقدموا به ؛ ووضعوا أسس علم الهندسة التحليلية ،

---

١) انظر « الآثار الباقية » للبيروني طبع لايبزك سنة ١٩٢٣ باعتناء سخاو ص ٤ — ٥ . والبيروني هو ابو الريحان محمد بن احمد البيروني الخوارزمي قال عنه سخاو « انه أكبر عقلية عرفها التاريخ » ولد في خوارزم وعاش بجرجان ثم بالهند يجول فيها حوالي (٤٠) سنة . كان يتقن فضلا عن العربية العبرية والسريانية والفارسية واليونانية والسنسكريتية . ألم كما قال عنه الدكتور سارتون بجميع الفنون والعلوم ووقف على علم المثلثات وعرف قانون الجيوب واشتغل في الفلك واشار الى دوران الارض على محورها الخ .. (المعرب)

وهم بلا منازع موجدو علمي المثلثات المستوية والكروية اللذين لم يكن للاغريق فضل في وجودهما اذا ما توخينا الحقيقة والانصاف . كما أنهم عملوا في الفلك أرصاداً عديدة قيّمة . وحفظوا لنا بترجماتهم عدداً كبيراً من كتب الاغريق وأبحاثهم التي ضاعت أصولها ، منها ثلاثة كتب من مخروطات ابللونيوس [٢]، وكتاب كُريّات منالاووس [٣] وميكانيكا (هيرو الاسكندري) وكتاب في الاهوية pneumatic لفيلو البيزنطي [٤] ومقالــة في الأوزان تُعزى الى اقليدس ، واخرى لأرخميدس في الساعة المائية elepsedre . عن هذه الخدمات لا يمكن ان نكون ممتنين كثيراً ، والسبب الآخر لاهتمامنا بعلم العرب هو تأثيره العظيم على الغرب . إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية الى المقام الاسمى في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق من أحابيل البربرية وأغلالها . ووصلوا الى قمة نشاطهم (الذي استمر حتى القرن الخامس عشر) في القرنين التاسع والعاشر . ومن القرن الثاني عشر فصاعداً كانت مراكش والشرق محط أنظار كل غربي يميل الى العلم ويتذوقه . في هذه الفترة شرع أبناء اوروبا يترجمون آثار العرب ، كما كان العرب قد ترجموا آثار الاغريق . وهكذا كانوا هَمْزة وصل بين الثقافة القديمة والمدنية الجديدة ، عندما عادت النفس الانسانية في عهد الاحياء العلمي

---

٢) *Appollonius* نبغ (٢٦٢ ق.م) هندسي اغريقي من مدرسة الاسكندرية ، اشتهر برسالته في المخروطات وعرف بفضلها بالهندسي الاكبر . (المعرب)

٣) *Menelaus* عالم رياضي اغريقي ظهر قبل بطليموس ذكره ابن النديم كتبــاً في الهندسة والمثلثات وترجم له ثابت بن قرة كتاب اصول الهندسة . فيه مباحث عن الاوتار وبراهين على بعض علاقات اضلاع المثلث المستقيم منه والكروي مع زواياه . (المعرب) .

٤) *Philo* مخترع في علم الحيل من بيزنطية نبغ حوالي ٢٥٠ ق. م. له كتاب في الميكانيكا . استطاع مؤلف هذا الجزء ان يجد منه جزءاً باسم « في الحيل الروحانية » مخطوطاً في مكتبتي اوكسفورد وأيا صوفيا . (المعرب)

لتمتليء ثانية بحب المعرفة والاستقصاء ولتتنبه بوميض من العبقرية العلمية . فإن هي أفلحت في سلوك السبيل الأقوم للعمل ، وإن أتيح لها الانتاج والابتكار فما ذلك إلا لان نفسية العرب قد حفظت وأكملت مختلف فروع العلم وصانت روح البحث العلمي حية تائقة للتحرر والحركة ، متهيئة للمكتشفات المقبلة .

وقبل الدخول في التفاصيل ، علينا ان نقرر حقيقة واحدة في ذهن القاريء عن تاريخ العلوم ، علينا أن نأخذ كلمتي (العرب) و(الاسلام) بمفهوميهما الواسعين ، إذ أن أغلبية رواد العلم الذين نبغوا أبان الحكم الاسلامي لم يكونوا عرباً بالولادة حتى أن بعضهم لم يكونوا يدينون بالاسلام . ان مركز الحياة العقلية التي كانت مدينة الاسكندرية (في مصر) حتى آخر العصر الهيليني ، انتقلت في أزهر فترات الحركة العقلية العربية الى منطقة تبدو للقاريء الآن قاصية البعد متأخرة المدنية ، وهي خراسان الواقعة وراء بلاد فارس ووادي الحرز حتى أصقاع خوارزم وتركستان وبلاد البختيارية . و(الخوارزمي) هو مواطن من سكنة مدينة (خيفا) ، و(الفرغاني) تركستاني ، و(أبو الوفاء البوزجاني والبتاني) فارسيان (كالبيروني) . أما (الكندي) فقد كان عربياً خالصاً ، و(الفارابي) تركي الأصل ، أما (ابن سينا) فقد نزح من نواحي بلخ و(الغزالي ونصير الدين الطوسي) أصلهما من (طوس) الواقعة شرق بلاد فارس ، أمّا (عمر الخيام) فقد دوّن كتابه « في الجبر والمقابلة » باللغة العربية ، وإن كانت غلبت عليه شهرة الشعر . واعتمد الكثير من هؤلاء العلماء على لغة أخرى عدا تآليفهم بالعربية . فقد عمل (ابن سينا) ترجمة فارسية لأحد كتبه الذي ربما كانت أهميته أكثر من الناحية الطبيعية وهو « حكمة العلائية » [٥] . وكتب نصير الدين الطوسي باللغة نفسها رسالة رائعة جداً في الاخلاق ورسالة في

---

٥) في الاصل « دانش نامه علائي » طبع في الهند حيدر آباد ١٣٠٩ هـ (المعرب)

الفلك . أما (ابن رشد والزرقالي [6] والبطروجي [7]) ، فهم عرب أقحاح من اسبانيا ...

ومن ناحية الدين نجد (حنين بن اسحق وابنه اسحق ، وقسطا بن لوقا وغيرهم ممن قاموا بأجل خدمة كمترجمين ، أنهم نصارى . كما أن (ثابت بن قرة) الهندسي العظيم والبتّاني المنجم الجليل المعروف باسم Albatagonius في العالم الغربي ، هما من الصابئة . وثمّ طائفة وثنية من عبدة النجوم تفرغت للدراسات العلمية وواصلت جهودها فترة طويلة من الحكم الاسلامي. وثم آخرون من اليهود مثل (ما شاء الله) . ولنا أن نذكر فضل بعض اليهود الاوربيين أيام عهد الاحياء العلمي في الغرب اللاتيني بنشرهم الدراسات العربية عن طريق ترجمتهم وتعاليمهم .

هؤلاء العلماء المختلفةأجناسهمأشد الاختلاف،المتفقون في عدةأوجهنظر ، وغرضهم التبسيط والتسهيل ، كانوا أعظم منظمين ومصنفين . فهم على افتقارهم الى العبقرية الكافية للتصميم والابداع العظيم ، كانوا أعظم منظمين عرفتهم البشرية ، وكان تنظيمهم منطقياً فصنفوا ورتبوا . وهذه الموهبة الساذجة في التنظيم والتبسيط تكفي تقريباً لتفسير سر النجاح الذي بلغوه . كان اسلوبهم تعليمياً ، وهم ليسوا كالاغريق يتقربون من أجد هواة الفن والادب أو نصير من نصرائها ميله الى الثقافة للثقافة نفسها ، لكنهم كانوا يبذلون علومهم لجميع التلاميذ الاذكياء بكل سخاء ، وكتبهم تذكر المرء بكتاب التعليم العالي او الجامعي . كان العرب تجاراً وسياحاً وفقهاء ، فهم يمتازون بالتفكير الواقعي ، لذلك كان لعلومهم هدف مادي ، فالحساب كان

---

٦) ابراهيم بن زرقالي (نحو ١٠٢٩ – ١٠٨٧) منجم واكبر راصدي الفلك في زمانه وضع مع ابن صاعد مبادىء جداول طليطلة المعروفة بالزيج الطليطلي واخترع اسطرلابا جديداً سمي باسمه . (المعرب)

٧) أو البتراجيوس (توفي ١١٨٥ م) نور الدين ابو اسحاق . فلكي اندلسي تلميذ ابن طفيل له كتاب « الحياة » فيه نظرات جديدة على حركة النجوم السيارة . (المعرب)

يخدم التجارة ويعاون في تقسيم الاموال . أما الفلك فهو مطلب المسافرين وقاطعي الصحاري والمهالك ، أو يستخدم لأغراض الدين لمعرفة أوقات الصلاة وقبلة azimuth [٨] مكة ، والدقيقة الاولى لطلوع قمر رمضان .

كان العرب عمليين دائماً ، فلم يحصل لهم أن سرحوا في بيداء الخيال . زد على ذلك أن اللغة العربية هي لغة جافة دقيقة التعبير ، تذكّر المرء بعض الشيء بأسلوب (فولتير) الفرنسي . فهي أكثر ملائمة للعلم الدقيق منها للفخامة الشعرية . وثمّ ميزة اخرى لها ، هي مرونتها وسرعتها في استجابة مطالب المصطلحات الفنية والتعابير العلمية الدقيقة . لم يكن علماء العرب يكتبون شعراً كالهندوس الذين كانوا يؤلفون أعمالهم الجبرية بـ (شلوكات shloka [٩]) ، ولم يعالجوا حل مسائل تاريخية كالاغريق ، ولم يتذوقوا الاعداد الكبيرة والفترات الطويلة جداً من الازمان فلا نجد عندهم (كالبايوكا) [١٠] او ما يدعى بأيام (براهما) كما عند الهندوس ، ولا أسماء لأرقام عالية جداً . انهم أكثر واقعية من الاغريق الذين اهتموا بالاعداد الكبيرة جداً كما نرى في مسألةأريناريوس [١١]. وفي مسألة المواشي عند أرخميدس [١٢] والسنة العظمى

---

٨) او السمت ، وهي الزاوية الحاصلة بين الهاجرة والدائرة العظيمة بجرم سماوي (المعرب)

٩) قال البيروني في كتابه (تحقيق ما للهند من مقالة ص ٨٤ سخاو لايبزك ١٩٢٥) « انهم (أي الهنود) ينظمون الكتب شلوكات (أي قصائد شعر طويلة) فاذا احتاجوا ان يعبروا في زيجاتهم عن عدد في مرتب ، عبروا عنه بكلمات موضوعة لكل عددفي مرتبةأومرتبين » (المعرب)

١٠) *Kalpa Yoga* هذا اليوم هو بتقدير الهنود ٨٦٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٥ يوم عادي نصفه نهار ونصفه ليل (المرجع السالف ص ١٦٨) . (المعرب)

١١) هي رسالة صغيرة له موجهة الى كيلون أكبر أبناء (هيرو) يظهر فيها طريقة الوصول الى حساب عدد الذرات الرملية التي تحتويها كرة في حجم الارض وهو رقم يتألف من (واحد) يليه ثمانون الف صفر ! (المعرب)

١٢) *Arinarius* مسألة حساب أرسلها ارخميدس الى علماء الرياضيات في الاسكندرية لحلها فاعياهم ذلك . (المعرب)

عند أرسطاخوس الساموسي [13] .

لم تصل الينا أية كتب عن العصر الاموي . ان تاريخ العلوم العربية المؤيد بالوثائق تبتديء بالعباسيين [14] . ففي حكم الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور ، انتقلت عاصمة الامبراطورية الاسلامية وحاضرة خلافتها من الجزء البيزنطي الى الجزء الفارسي . وبنى المنصور مدينة بغداد في (٧٦٢م — ١٤٥هـ) وكان في بلاطه عدد من العلماء والمهندسين والفلكيين ووضعت خارطة المدينة باشراف الوزير الشهير (خالد بن برمك) وبمعرفة (نوبخت) الفلكي الفارسي و(ما شاء الله) اليهودي . وفي العام (٧٧٠م = ١٥٤ هـ) قدّم فلكي اسمه (يعقوب الفزَاري) لبلاط المنصور عالماً هندسياً اسمه (مانكا) ، فجاء بكتاب السِندْ هندْ (السدهانتا) وهو رسالة في علم الفلك على الطريقة الهندية . هذه الرسالة ترجمها الفزَاري الابن وترجمتها مفقودة الآن . كان الفزاري أول من عمل اسطرلاباً من المسلمين [15] ، وكتب في فائدة ذات الحَلَق [16] السماوية armillary sphere وعمــل جداول فلكية (أزياجــاً) على سِنِيّ العرب . بدأت الترجمة عن الاغريقية في الفترة نفسها ، فترجم (أبو يحي بن

---

١٣) *Aristarchus of Samos* (نبغ حوالي ٢٧٠ ق. م) فلكي اغريقي كان أول من قال بدوران الارض حول الشمس حقق السنة الشمسية واضاف اليها كسرا قدره ١و١٦٢٨ بعملية حسابية معقدة جدا . (المعرب)

١٤) كتب الكثير على الاخص في السنين القلائل الماضية — عن علوم العرب وانه في الواقع وضوع يتطلب دقة وطول معاناة في علم المخطوطات والكتب وهذا موجود في المجلد الثاني لكتابي (مفكرو الاسلام *Les Penseurs de l'Islam* المطبوع بباريس السنة ١٩٢١ م مطبعة « كونثر » لا يسمى بصورة خاصة الا التنويه بالبحث النفيس الذي قام به الاستاذ ويدمان *E. Wiedmann* من ارلانكن الذي جمع حوله عدة تلاميذ ومناصرين . كذلك أنوه بكتاب سوتر *H. Suter* المطبوع في لايبزك السنة ١٩٠٠ م باسم (الرياضيون والفلكيون العرب وآثارهم : *Die Mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke.*) . (المؤلف)

١٥) وتسمى ذات الصفائح ، آلة اخترعها هابرديوس تقاس بها دوائر الكرة ، ويستخدمها المنجمون (المعرب)

١٦) آلة فلكية قديمة تتألف من كرة وحلق معدنية وخشبية . (المعرب)

البطريق) فضلاً عن كتب طبية . المقالات الاربع في صناعة أحكام النجوم quadripartitum لبطليموس . وكتب (مـــا شاء الله ، المتوفى ٨١٥ م) وهو عالم شهير في التنجيم وفي الاسطرلاب (ذات الصفائح) وفي علم الانواء . وكتابه في الأثمان de mercibus هو أقدم الآثار العلمية لدينا من العربية ، ترجم له (يوحنا دلونا هـسبالنسيس) عدة كتب الى اللاتينية في القرون الوسطى . أما (عمر بن الفرّخان المتوفى ٨١٥ م = ٢٠٠ ه) صديق الوزير يحي البرمكي ، وأحد مهندسي ومعماري مدينة بغداد ، فقد ترجم عن الفارسية بعض الكتب وشرح كتاب (المقالات الاربع) لبطليموس .

هذه الحركة التي بدأت زمن المنصور اتسع نطاقها في عهد حفيده المأمون . كان المأمون أميراً جم الثقافة عالماً فيلسوفاً لاهوتياً ، فكان سبباً في جمع كتب الاقدمين وتأسيس دار لترجمتها ، فترجم (الحجاج بن يوسف) الى العربية كتابي اقليدس والمجسطي [١٧] زمن هرون الرشيد وشملت ترجمته الكتب الستة الاولى لاقليدس . وأمر المأمون بقياس الهـــاجرة [١٨] meridian في سهل (سنجار) [١٩] فجرى ذلك بطريقة تختلف عن الطريقة اليونانية ، وكيفيتها : أنّه أطلق عدد من الراصدين، فساروا من نقطة واحدة باتجاهات مختلفة بعضهم يسلك شمالاً وبعضهم جنوباً حتى شاهدوا النجم القطبي وهو يظهر ويختفي درجةً واحدة . ثم قاسوا المسافة التي قطعوها وأخذوا أصغر النتائج . لم يقفوا فعلاً عند هذا الناتج الاصغر ، بل أخذوا أكبر القيمتين

---

١٧) الحجاج بن يوسف بن مطر (٧٨٦ – ٨٣٥ م = ١٦٦ – ٢٢٠ ه) ولد في الكوفة وعاش ببغداد موظفا في بيت الحكمة قال عنه القفطي انه نقل اصول الهندسة لا قليدس نقلين احدهما يعرف بالهاروني والآخر بالمأموني . (المعرب)

١٨) انظر : ابن خلكان ج ١ ص ٧٩ وما بعدها . والهاجرة ، خط نصف النهار أو خط الزوال ، هي دائرة عظيمة عمودية على خط الاستواء تمر بالقطبين (المعرب)

١٩) بلدة كردية في شمال شرق العراق والسهل المشار اليه يمتد منها حتى الموصل جنوباً.(المعرب)

الصغيرتين وهي ٥٦ ميلاً وثُلُثا الميل تعادل حسب الدائرة العظيمة ٤٧,٣٢٥ كيلومتراً ، وهي نتيجة كبيرة نوعاً ما . وفي الوقت نفسه بديء بعمل الارصاد أيضاً في بغداد وجنديسابور . وبني مرصد في بغداد قرب باب سامراء يعود الفضل في انشائه الى (سَنْد بن علي)[٢٠] اليهودي الذي أسلم . وبنتيجة تلك الارصاد عملت جداول (ازياج) اطلق عليها اسم (الازياج الممتحنة ، او أزياج المأمون) مبنية على قاعدة السند هند . وكان (الفرغاني) Alfraganus المعروف في الغرب خلال القرون الوسطى ، من أعظم فلكيي هذا الزمن ، نشأ في فرغانة من تركستان ، وكتابه العظيم في (جوامع علم النجوم) ترجمه الى اللاتينية جيرارد القرموني ثم يوحنا هسبالنسيس ،ودرسه ريجيومونتانس[٢١] في عهد إحياء العلوم ، وطبع ميلانجتون Melanchthon[٢٢] الشهير طبعة معتمدة على دراسة ريجيومونتانس في نورمبرغ ١٥٣٧ م .

إن الحساب والجبر ازدهرا أيضاً الى جانب الفلك ، وكان هذا عصر الخوارزمي[٢٣] الشهير وهو مواطن من خوارزم (ت بين ٨٣٥ – ٨٤٤م) حرّف كتاب اللاتين الغربيين اسمه الذي جاء منه كما يعتقد — اصطلاح الغورزم algarism (يكتب أحياناً الغورتم algorithm)— . وكتب هذا العالم فضلاً عن رسالة نفيسة في الفلك ، كتاباً آخر في الطريقة الهندسية للحساب ، وآخر في الجبر ترجم الاول منها ادلارد الباثي ، أما الآخران فترجمهما جيرارد القرموني . ورسالتا الفلك والحساب معروفتان بهاتين الترجمتين اللاتينيتين فقط .

---

٢٠) نبغ حوالي (٨٥٠ م = ٢٣٦ هـ) كان منجما للمأمون واشتغل بعمل ارصاد وآلات رصد فلكية . (المعرب)

٢١) *Regiomontanus* (١٤٣٩ – ١٤٨٦ م) رياضي وفلكي شهير اعتمد كولمبس على جداوله الفلكية في كشف امريكا . (المعرب)

٢٢) (١٤٩٧ – ١٥٦٠ م) احد مشاهير المترجمين والناشرين الالمان . (المعرب)

٢٣) محمد بن موسى ابو جعفر معاصر المأمون واحد فلكيه (المعرب)

ان كتاب الجبر للخوارزمي [٢٤] واضح المبنى حسن التنظيم . فبعد أن يعالج المؤلف المعادلات من الدرجة الثانية ، يبحث في عمليتي الضرب والقسمة الجبريتين ، ثم يعرض لمعالجة المسائل المتعلقة بمساحات السطوح وغيرها مما يتعلق بتقسيم التركات وغيرها من المسائل القانونية ؛ هذه الاخيرة منها هي على الغالب معادلات جبرية من الدرجة الاولى وإن كانت تبدو لاول وهلة شديدة التعقيد ؛ معروضة كلها بشكل أمثلة رقمية . ان طريقة معالجة المعادلة ذات الدرجة الثانية مهمة ، فقد تأثر الخوارزمي خطى ديوفانتس [٢٥] فذكر ستة ضروب للمعادلات الجبرية واعطي احداها لأجل التكملة لانها تتعلق بأبسط حالة من الدرجة الاولى وهي (ب س = حـ) ، أما الحالات الست فهي :

أموال مساوية لأجذار	م س^{٢} = ب س
أموال مساوية لأعداد	م س^{٢} = حـ
أجذار مساوية لأعداد	ب س = حـ
أموال وأجذار مساوية لأعداد	م س^{٢} + ب س = حـ
أموال وأعداد مساوية لأجذار	م س^{٢} + حـ = ب س
اجذار وأعداد مساوية لأموال	ب س + حـ = م س^{٢}

من هذا الجدول يتضح لنا أن العلم في ذلك الزمن لم يصل الى استعمال الرموز بصورة تامة ، ما دامت الاوضاع المختلفة للحدود في كل من طرفي المعادلة يحتاج الى حلول منفردة ، وقد اصطلح العرب لهذين الطرفين من المعادلة كلمة (المقابلة comparison) ، وهذا المصطلح يصاحب عندهم كلمة (الجبر) التي تعني بالانكليزية (الرد restitution) . ويعرّف علم الجبر بانه : « إضافة شيء الى كمية معلومة أو ضربه به حتى يصير مساوياً أحدهما للآخر » ومن هذا التعريف يتضح أن القصد منه هو العمليتان الجبريتان التاليتان :

---

٢٤) نشره فيليب روزن *F. Rosen* في لندن ١٨٣١ م . (المؤلف)

٢٥ *Diophantus* نبغ حوالي القرن الثالث ق. م، احد كبار الحسابيين والجبريين اليونان عاش وألف في الاسكندرية . وعرفه العرب اكثر مما عرفه الغرب . (المعرب)

م + س = ب

م س = ب

وانتشر تطبيق هاتين العمليتين فصارتا تعنيان موضوع الجبر كله ، كذلك اختلف وتباين مع (الحـَطّ) ومعناه تقليل عدد طرحه او تقسيمه حتى يصير مساوياً لعدد معلوم ، أي :

$$\text{م} - \text{س} = \text{ب} \quad ، \quad \frac{\text{م}}{\text{س}} = \text{ب}$$

بعد أن عدّد الخوارزمي الحالات الست الممكنة ، أعطى قاعدة حلها بالحروف الابجدية اذ أن الرموز الجبرية لم تكن معروفة آنذاك ، وبعدئذ تعرّض لبرهنة تلك القوانين ، وكان طريق برهنته لها هندسية. إذلا يعزب عن ذهن القاريء أن العرب كانوا هندسيين قبل كل شيء ولم يكونوا آنذاك يدركون موضوع الجبر بوصفه علماً قائماً بذاته لا يرتكز الى الهندسة . هذا البرهان تكرر عدة مرات من التغييرات التي تتطلبها احتلافات الحالات الجبرية وطريقة الاثبات فيها بعض طرافة واليك مثالاً .

٢٫٥	٣	٢٫٥
	ح	
هـ	أ ب	و
	د	

لحل معادلة : مال مضاف اليه عشرة أجذار يساوي ٣٩ درهماً ، لنفترض مربعاً طول ضلعه غير معلوم ، وفيما يلي انموذج لما نحن بصدده . لنأخذ المربع (أ ب) ، فإذا ضربنا أضلاعه بعدد ، كان الناتج هو نفس العدد من الأجذار التي نضيفها إلى المربع. وهنا علينا أن نضيف عشرة أجذار ثم نأخذ ربع العشرة أي (٢٫٥) فنرسم على كل جانب من المربع مستطيلاً فيتم لدينا مستطيلات أربعة هي (ح د هـ و) . إن قيمة (مساحة المربع والمستطيلات الاربعة معاً يجب أن تكون (٣٩) . والمربعات الصغيرة الاربعة التي تقوم في زاوية كل مستطيل تكون مساحة كل واحد منها : ٢٫٥ × ٢٫٥ = ٦٫٢٥ ، وعلى ذلك تبلغ مساحة المربعات الاربعة (٢٥) . وعلى هذا الاساس تكون

مساحة المربع الكبير برمته (٦٤) وبعبارة أخرى: ٣٩ + ٢٥ = ٦٤ [٢٦]. فيكون كل ضلع من أضلاعه مساوياً (٨) فاذا طرحنا منه ضعف ضلع أحد المربعات الصغيرة المثبتة على زوايا المستطيلات أي مرتين (٢,٥) أو (٥) بقي لدينا (٣) وهو جذر المربع المطلوب.

إن السؤال الذي يتبادر الى الذهن: ما هو وجه الاختلاف في القضية بين الطرق العربية والهندية؟ يرى «م. روديت M.Rodet» أن الهندوس أكثر تحليلاً من العرب، ولكن العرب هندسيون خالصون أكثر من الهندوس. إذا كان لديهم فضلاً عن ذلك، فكرة تربيع الرمز. انهم كانوا ينقلون بكل سهولة جزءً من طرفي المعادلة الى الطرف الآخر. وبذلك أخذت الطريقة عندهم تخرج الى حيز التعميم. وعلينا ان ندرك في صدد أسلوب العرض اللغوي، أن لغتهم (لغة الهندوس) الفخمة المعقدة بطابعها الشعري ليس فيها الوضوح والدقة والبساطة العلمية التي تتسم بها لغة العرب.

هنالك مسألة عند الخوارزمي بدت فيها فكرة تربيع الرمز وهي الحالة الخامسة، أي م س^٢ + حـ = ب س. في هذه المسألة يقول الخوارزمي «يمكن استعمال عمليتي الجمع والطرح على حد سواء خير استخدام». إن نظرية المعادلات من الدرجة الثانية بقيت معروفة في العالم كما وجدها الجبريون العرب حتى القرن السادس عشر تماماً. وفي القرن الثامن عشر، اعترف العالم الجبري (ليونارد فيبوناجي البيزي) [٢٧] بانه مدين للعرب بالكثير. رحل هذا الباحث الى مصر وسوريا واليونان وصقلية وتعلم هناك القواعد العربية فوجدها «أدق وأسمى من قواعد فيثاغورس» ثم عمد الى تأليف كتاب الحساب liber abaci في خمسة عشر فصلاً، الأخير منها يبحث في

---

٢٦) التكييف الجبري للمسالة هي المعادلة (س٢ + ١٠ س = ٣٩) (المعرب)

٢٧) *Leonardo Fibonacci* رياضي ايطالي اتصل بالعرب وأخذ عنهم العلوم الرياضية، وعن طريقه عرف الغرب الاعداد العربية (الاوربية الآن) (المعرب)

الحساب الجبري . أورد (ليوناردو البيزي) الحالات الستّ لمعادلات الدرجة الثانية كما عرضها (الخوارزمي). أما فكرة الجذور السالبة والتخيـُّلية فلم تفسر تفسيراً واضحاً حتى (كاردان)[٢٨] ١٥٤٥ في كتابه» الفن الاكبر ars magna .

إن كتاب الخوارزمي الآخر « دلائل العدد de numero indcoi » [٢٩] أثار الموضوع الذي بُحث ونوقش كثيراً حول أصل الارقام، فما سماه العرب « بالحساب الهندي » ، هو الارقام التي نسميها نحن الغربيين بالارقام العربية [٣٠] لتفريقها عن الأحرف الابجدية التي كانت تستعمل آنذاك في الشرق . ويتضح من وصفنا هذا (للهندي) أن العرب لم يدعوا قط اختراعهم الارقام . ولكن علينا ان نتريث في الاستنتاج والحكم بانها هندية الاصل فعلاً . لقد وَجَدتُ أنا نفسي ان كلمة (هندي) تقترب لتمتزج مع لفظة (هندسي) العربية في ميدان الاستعمال ، (والهندسي) نسبة الى الهندسة او إشارة لفن المهندس . ففي مواضع كثيرة استعملت لفظة « هندي » بشكل باب يستدعي احلال لفظة « هندسي » محلها لتكون أوفى غرضاً وأنسب مقاماً . ولهذا يوجد في علم الفلك ما يدعى « بالدائرة المقسمة » المسماة (هندي) وربما كان من الأنسب ترجمتها (بالدائرة الحسابية) لذلك فالاعداد التي تسمى كذلك ، انما هي (الرموز الحسابية) . ومن الجهة الاخرى نجد الفرس يسمون الارقام « أرقام النّهاية » وهذا يعني بلغتهم أرقاماً ذات كميات كبيرة أو صغيرة . أما عن

---

٢٨) *Cardan* (١٥٠١ – ١٥٧٦ م) رياضي وفلكي وطبيب ايطالي يعد في طليعة الجبريين العالميين وكتابه « الفن الاكبر » يكشف عن اول حل جبري للمعادلات التكعيبية (المعرب)

٢٩) نشره الامير بونكمبانيي *Boncompagni* في السلسلة المسماة *Trattati d'Arithmatica* تحت رقم « ١ » ١٨٥٧ م في رومة . (المؤلف)

٣٠) انظر الملحق في آخر الفصل .

أشكال الارقام ، فإن (فوبكي)[٣١] يميل الى القول بانها مشتقة من الاحرف الاولى لأسماء الارقام باللغة السنسكريتية ولكن بغض النظر عن وضوح عدم الارتباط بين الاشكال ، فقد يعترض معترض بان النظم الحسابية التي تستخدم فيها الحروف لا يشترط كقاعدة عامة ان تستعمل الاحرف الاولى من الارقام، بل أحرف الابجدية حسب ترتيبها الالفبائي . وهذا ما كان معمولاً به عند اليونان والعرب أنفسهم . إن الاستاذ العربي البيروني (من القرن العاشر) يقول ما خلاصته « ان الارقام الغبارية والهندية هي أحسن ما عند الهنود وهي منتخبة من أرقام الحساب المتنوعة التي كانت معروفة عندهم » ؛ ولكنه لم يعين بالضبط ماهية ذلك الشكل ولم يخبر عن أي مكان في الهند كانت تستعمل . ويبدو الامر عكس ذلك بان للارقام عند العرب شكلاً أبسط وأسهل تناولا منه لدى أي شعب آخر . فالارقام الخمسة الاولى تتألف من خطوط مترابطة 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 . أما الأرقام الاربعة الاخيرة فقد صيغت بطريقة بسيطة جداً ، والصفر هو دائرة صغيرة او نقطة . ومن المحتمل جداً أن العرب توصلوا الى تلك الرموز ككثير من علومهم من تراث مدارس الافلاطونية الحديثة .

نحن نعلم بان الصفر في النظام الرقمي هو أهم شيء لانه يساعدنا على وضع الارقام في سلسلة مضاعفات العشرة والواحد والعشرات والمئات الخ . . في حالة عدم وجود أحد هذ المضاعفات.ولو لم يكن لدينا الصفر للزمنا استعمال جدول ذي حقول ؛ حقول للآحاد ، واخرى للعشرات ، واخرى للمئات وهكذا ، يحفظ كل رقم في محله الخاص . هذا الجدول هو ما يُعرف الآن بالمعداد abacus . اننا لنجد الصفر معروفاً عند العرب قبل أن يعرفه الغرب بمئتين وخمسين سنة على الأقل . وأول من أوجد المعداد في روما هو (بويوس)

---

(٣١) *Woepcke* (١٨٢٦ – ١٨٦٤ م) مستشرق الماني اهتم بالناحية الرياضية من العرب درس في لايبزك ونشر ثم رسالة الخيام في الجبر والمقابلة ، وكتاب « الفخري » في الجبر والحساب للكرخي ، ١٨٥٢ م وتفسير المقالة العاشرة لأقليدس من وضع ابي عثمان الدمشقي الخ (المعرب)

في القرن الخامس الميلادي ، لكن استعماله كان ضيق النطاق . ثم عاد الى الظهور لدى (جربرت Gerbert) في القرن العاشر . كان (جربرت) قد طوّف في اسبانيا ودرس علوم المغرب فنشر استعمال المعداد ، لكنه كان يجهل الصفر . ولم يدخل الصفر اوروبا إلا في القرن الثاني عشر حين بدأ الحسابيون النصارى يكتبون رسائل في علم العدد والارقام من غير حقول ويكملونها بالصفر . عُرفت هذه الطريقة باسم « ألغورتم » وكانت الاصفار تظهر مع الارقام عند العرب من زمن متقدم ، فقد كتب صاحب « مفاتيح العلوم » في القرن العاشر ، وهي الفترة التي لم يعم انتشار الارقام فيها قائلاً انه اذا تعذر كتابة قوى العشرة فيستعمل دارة صغيرة للمحافظة على التسلسل ؛ هذه الدارة الصغيرة تسمى صفراً (أي فراغاً) . وعمد بعض الحسّابين الى وضع حاجز يسمى (ترقين) وهي مأخوذة من اللغة النبطية (ريقان) وتعني أيضاً (الفراغ واللاشيء) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن للكلمة اللاتينية (جفرا cifra) معنيين : فهي أحياناً (الصفر) وأحياناً (الارقام العددية) نفسها وفي معنى (زيرو zero) يظهر بوضوح كلي (معنى الصفر العربي : الفراغ) وفي معنى رقم ، من الجلي أن كلمة السِفر (بالسين الخفيفة) تعني الشيء المكتوب ، كتاباً كان أم رقماً ، وكلمات (الجبر والصفر والغورتم) بقيت تشهد بالدور الذي لعبه العرب في ايجاد علم الحساب وتثبيت أركانه وتيسيره .

في أثناء حكم الخلفاء الذين عقبوا المأمون وعلى الاخص المعتضد الشهير ، نبغ عدد من العلماء الذين أناروا الحياة العقلية العربية بضياء ساطع ، وعرفت القرون الوسطى أكثرية هؤلاء النابغين . فحصل تقدم عظيم في الدراسات الهندسية ونواحي المخروطات بحيث صارت تسترعي الانظار . واشتهر في تلك الفترة أشقاء ثلاثة عُرفوا باسم (أبناء موسى) وهم أولاد رجل اسمه (شاكر) كان في أيام شبابه على حد قول أحد المؤرخين ، قاطع طريق في

جهات خراسان ، ما لبث أن أصبح مقرّباً من المأمون وفي مقدمة علماء زمانه، ونحن مدينون بعدد من الكتب لهؤلاء الاشقاء الثلاثة ، أحدها في (مساحة الأكر و قياس الاسطح) ، ترجمه الى اللاتينية (جيرار القرموني) بعنوان liber trium fratrum . وكتبوا رسالة في (الحيل) محفوظة في مكتبة الفاتيكان . هذه الرسالة لا تعالج بصورة رئيسة مباديء الميكانيك ولابسائط الميكانيك كما هو الحال في كتاب « هيرو الاسكندري » الذي ترجمه (قسطا ابن لوقا) الى العربية ذلك الحين ، فهي تشبه كتابي « الاهوية » (لهيرو ، وفيلو) ، وفيها وصف للآلة ولأنواع الاجهزة المتحركة وضعت بدقة وبراعة عظيمتين . وثمّ رسالة عربية أخرى ألفها بعد هذا التاريخ (بديع الزمان الجزري) [٣٢] يوجد منها في القسطنطينية الآن نسخة مصورة صغيرة الحجم محفوظة في مكتبة (آيا صوفيا) . لقد كان العرب عظيمي المهارة في صنع المزولة والساعة المائية الاوتوماتية ولا بأس أن نذكر حادثة إرسال إحدى هذه الساعات هديةً (لشارلمان) من (هرون الرشيد).كان أبو معشر البلخي [٣٣] الخراساني الذي توفي في سن المائة (٨٨٦م – ٢٧٣ هـ) فلكياً ومنجماً عظيم الشهرة وقد ترجم (ادلارد الباثي ويوحنا هسبالنسيس) الى اللاتينية أربعة من كتبه ورُسم أحدها بعنوان « de conjuctionibus et annorum revolutionibus »

ويُعد(ثابت بن قرة الحراني) من بلاد ما بين النهرين، أعظم هندسي عربي على الاطلاق وهو الذي ترجم الكتب السبعة من أجزاء المخروطات في كتب ابللونيوس الثمانية الى العربية فحفظ لنا بذلك ثلاثة كتب من مخروطات ابللونيوس فقدت اصولها اليونانية . وساعده بنو موسى في ذلك . فقدموه الى

---

٣٢) بديع الزمان اسماعيل (حوالي ١٢٠٠ م) ميكاني ومخترع ألف (لمحمود بن أرتق) صاحب آمد كتاب في معرفة الحيل الهندسية – ١٢٠٥ وفيه تعليمات على صنع الساعات (مخطوط في متحف برلين) . (المعرب)

٣٣) ابو معشر جعفر البلخي (ولد ٧٧٦ م) من أعظم فلكيي العرب الف في هذا العلم حوالي ستين كتاباً . (المعرب)

(المعتضد) خليفة المستقبل فأكرم وفـادته وأجرى له معاشاً شهرياً قدره خمسمائة دينار . كان ثابت يعرف اللغتين السريانية واليونانية ، فترجم الكثير عن هاتين اللغتين الى العربية ، وأصلح كتابي (الاسطقسات) لاقليدس والمجسطي اللذين ترجمهما (اسحق بن حنين) وكتب عدداً من الرسائل القصيرة أو الخواطر في الفلك والهندسة مبسطاً فيها ما غمض من الفكـر والعبارات في كتب الاقدمين مستنبطاً مسائل جديدة ، مُسهلاً مُعبّداً بها طريق الدراسة والبحث . ويكان يكون قد لمس بقلمه وطـرّق بابحاثه كل المواضيع العلمية المعروفة في زمانه ، فهناك استشهادات بمقالات له في فرضيات ومبادي اقليدس وفي عدد الوفْق ترجمه الى اللاتينية (جيرار القرموني) ، وفي قواعد الهندسة وفي علم الحِيل ، وفي الجذور الصُمّ بحثها على اسلوب اقليدس وأفلاطون ، وثم (مقدمة لاقليدس) وهو مؤلَف عظيم القدر ، وكتابه في ظلال المزولة (٣٤) هو أقدم ما عرفنا في هذا الموضوع . وترجم (رسالته في العمل بالقرسطون) جـيرار القرموني الى اللاتينية بعنوان : liber carastonis sive de statera . إن التراث العربي يحوي عدداً من الرسائل في الأوزان ، منها رسالة (الخازني) (٣٥) ذات القيمة الجليلة الخاصة. ونظرية التوازن والثقل في هذه الرسالة قد قطعت شوطاً بعيداً في مضمار التقدم ، كذلك ورد فيها بحث عن الاثقال النوعية .

قام (ثابت)بعمل أرصاد فلكية في بغداد نخص منها بالذكر ارصاداً في حساب ارتفاع الشمس وفي طول السنة الشمسية وسجل أرصاده في كتاب . كان هذا العالم الصابئي العقيدة الوثني المتعصب لدينه ؛ من أشهر ممثلي تراث الثقافة القديمة في القرون الوسطى .

---

٣٤) اسمه بالأصل في « أشكال طرق الخطوط التي يمر عليها ظل المقياس » . (المعرب)

٣٥) ابو الفتح – عبد رومي من مرو نبغ في الهندسة والفلسفة والفلك والف كتباً جليلة منها « الزيج المعتبر السنجري » ١١١٦ م وفيه مواقع النجوم الثابتة وميزان الحكمة (١١٢٢م) .

ومن الجيل الثاني يبرز أحد مشاهير علماء الشرق . وربما كان العالم الذي أعجب به الباحثون اللاتين في القرون الوسطى وأغدقوا الثناء عليه أكثر من غيره ، وهو (البتّاني) الذي قام بأرصاده الفلكية ما بين العامين ٨٧٧ و ٩١٨ م = ٢٦٤ – ٣٠٦ هـ . وكتب رسالة كبيرة ونظم أزياجاً فلكية[٣٦] أظهرت في نواح كثيرة مدى تقدمها على كتاب الخوارزمي وابتعادها الكبير عن الطرق الهندية . إن تلك الحسابات او الارصاد تتعلق بأول ظهور القمر الجديد ، وميلان فلك البروج وطول المدارين ، والسنة النجوميـــة[٣٧] والخاصّات القمرية[٣٨] والخسوفات والكسوفات واختلاف المناظر parallaxes هذه عند (البتاني) أكثر تعقيداً ودقة مما هي عنـــد الخوارزمي ولكن القسط الاكبر من شهرته يعود بدون شك الى اكتشافه أو على الاقل نشره وتبسيطه أوائل علم النِسب المثلثية كما نستعملها اليوم لقد استعمل (بطليموس) الاوتار في عملياته التي كان قد عرف منها قانوناً واحداً رئيساً مضطرباً أخرق ، فاعتاض (البتاني) بالجيب عن الوتر واستعمل « الظل » و« ظل التمام » وكان يدرك علاقتين أو ثلاثاً رئيسة من علاقات النِّسَب المثلثية . إن

---

٣٦) طبعها بالعربية واللاتينية الاستاذ نلّينو سنة ١٩٠٣ . اما رسالة الخوارزمي الفلكية نشرت باللغة اللاتينية بمعرفة « اج. سوتر » وهي منقولة عن ترجمة ادلارد الباثي لها « طبعت في كوبنهاكن ١٩١٤» كان الفلكيون العرب في تلك الفترة يحسبون الاطوال بموجب خط زوال « آرين » وهذا الاسم محرف عن « اوجيان » في الحقيقة . والاوجيان اسم مدينة تقع في أواسط الهند كان بها آنذاك مرصد فلكي.وبعد مرور زمن طويل على تلك الحقبة ومجيء القرن الثامن عشر أعاد « جي سنغ *Jay-Singh* » انشاء المرصد هناك (المؤلف) . نقول ، هذه المراصد من أعجب مباني العالم أسسها هذا المهراجا صاحب جيبور في امارة راجبوتانا(١٧٢٧— ١٧١٠)وتضم مجموعات من آلات فلكية مبتكرة . (المعرب)

٣٧) السنة النجومية هي المدة التي تقطعها الشمس حتى عودتها الى مكانها بين النجوم وطولها ٣٩٥ يوما ، و٦ ساعات و٩ دقائق و٩٧و٨ ثانية . (المعرب)

٣٨) وهو سير الكوكب القمري في فلك التدوير . (المعرب)

كلمة « sine » هي « جيب » [٣٩] وتعني بالعربية شق أو خليج (باللاتينية sinus) وهذا هو أصل الاصطلاح « sine » كما هو ظاهر . إن ظل التمام cotangent عند الفلكي العربي هو « الظل الافقي horizontal shadow » للمزولة ، أما « الظل tangent » فهو « الظل القائم vertical shadow » . يظهر من هذا أنهم لم يفهموها رأساً على أساس أقواس الدائرة ، ولكن ظل المزولة (الصفيحة) ذاته ، منقسم الى اثني عشر جزءً . أما (حبش) أحد معاصري (البتاني) وأقرانه ، فقد قسمها الى ستين جزءً ، ومن هذا نحصل على جدول لظلال التمام في أجزاء صفيحة المزولة تستند الى المعادلة :

$$\text{ظتا أ} = ١٢ \frac{\text{جتا أ}}{\text{جا أ}}$$

يتعين ارتفاع الشمس ابتداء من ظل التمام بالقانون الآتي :

$$\text{جا} \,(٩٠ - \text{أ}) = \frac{\text{ظتا أ} \times ٦٠}{\sqrt{(١٢^{٢} + \text{ظتا}^{٢}\,\text{أ})}}$$

أما القانونان فهما :

$$\text{جا أ} = \frac{\text{ظا أ}}{\sqrt{(١ + \text{ظا}^{٢})}} \quad \text{و} \quad \text{جتا أ} = \frac{١}{\sqrt{(١ + \text{ظا}^{٢}\,\text{أ})}}$$

وقد شرحهما (البتاني) . وهذا ما يجعلنا متقدمين بمسافة شاسعة عن المرحلة التي وصل اليها الاغريق ويفتح لنا في الواقع أبواب العلم الرياضي الحديث على مصاريعها .

---

٣٩) لفظة « جيب » مشتقة من السنسكريتية جيفا *jiva* ومنها اخذ العرب مصطلحم (المعرب)

٤٠) هو احمد بن عبد الله بن حبش الحاسب ، ظهر في العصر المأمون وعاش ببغـداد واشتغل بالفلك وآلات الرصد وكتب فيها وعمل اول جدول للظل وظل التمام « محفوظ منه نسخة خطية في متحف برلين » . (المعرب)

بعد البتاني بحوالي ستين سنة ، نبغ الفلكي الطائر الصيت أبو الوفاء [٤١] فأكمل عمل سلفه . وقد ظن كثير من العلماء العصريين أنهم يستطيعون أن يروا في (المجسطي) الذي ألفه هذا العالم، اكتشافَ «الاختلاف القمري الثالث» الذي ندعوه « بالاختلاف variation » [٤٢] . ان الاختلافين الاولين اكتشفهما اليونان ، وقد جرت مناقشة طويلة الأمد في الاكاديمية بباريس بين فطاحل العلماء منهم بايّو ، وآراكو ، ولوفيرييه ، وجوزف برتران [٤٣] امتدت خمساً وعشرين سنة (١٨٣٦–١٨٧١ م) لم يثبت بعدها أن هذا (الاختلاف) كان معروفاً لدى (أبي الوفاء). إن الفلكيين العرب لم يميزوا (الاختلافين) الاولين كما ميزناهما نحن ، فقد فصلوا أحدهما عن الآخر وهذا ما أدى الى قيام بعض الشك . لكن الخدمات التي أسداها أبو الوفاء في علم المثلثات لا يمكن أن يجادل فيها ، فقد أصبح هذا العلم بفضله : أكثر بساطةً ووضوحاً ، متطلباً القانون التالي لاضافة الزوايا :

---

٤١) ان ابا الوفاء البوزجاني (٩٤٠ – ٩٩٨ م = ٣٢٩ – ٣٨٨ ﻫ) هو أعظم ذهنية فلكية نبغت في الاسلام فضلا عن الهندسة والجبر ، وقد عدد له علماء تاريخ الرياضيات مكتشفات مهمة جداً فمنها أنه زاد على بحوث الخوارزمي زيادات تعتبر أساساً لعلاقة الجبر بالهندسة وحل هندسياً المعادلتين س٤ = ج ، و س٤ × ج س ٣ = ب . واعترفوا بفضله في وضع النسب المثلثية (الظل) واستعمالها في حلول المسائل الرياضية ، واستعمل القاطع وقاطع التمام ووضع الجداول الرياضية للمماس وأوجد طريقة جديدة لحساب الجيب فكانت دقيقة جدا « الى ثمانية ارقام عشرية » كتابه المجسطي الذي ذكره المؤلف في المتن ، يوجد منه نسخة ناقصة في مكتبة باريس الوطنية. (المعرب)

٤٢) الاختلاف : بأبسط تعريف، هو حركة غير ثابتة في القمر اثناء سيره بين سنة واخرى . قاس أول انحراف منه (هيبارخوس) ، ثم اكتشف (الخلل) الثاني بطليموس . وقد استقر في تاريخ العلم الحديث ان الاختلاف (الخلل) الثالث اكتشفه (تيخوبراهه) ورد سببه الى جاذبية الشمس وجعل متوسطه (٠٫٦٦) درجة خلافاً لما ذهب اليه قدري حافظ طوقان في كتابه « ترات العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص ١١٨ » من ان البوزجاني مكتشفه . (المعرب)

٤٣) *Biot* (١٧٧٤ – ١٨٦٢ م) ، *Arago* (١٧٨٦ – ١٨٥٣ م) ، *Le Verrier* (١٨١١ – ١٨٧٧ م) ، *Joseeph Bertrand* (١٨٢٢ – ١٩٠٠ م) ، علماء طبيعيون و فلكيون ورياضيون فرنسيون و اعضاء في الاكاديمية الفرنسية . (المعرب) .

$$\text{جا}\ (\text{أ} + \text{ب}) = \frac{\text{جا أ جتا ب} + \text{جا ب جتا أ}}{\text{ك (الكمية)}}$$

هذا القانون الذي اكتشف في ذلك الزمن ، لم يعرف عند العالم اللاتيني ، ويظهر أن (كوبرنيكوس) كان يجهله . لكن (راتيكوس Rhaeticus) تلميذ (كوبرنيكوس) وناشر كتبه ، عاد الى استخراجه بمشقة عظيمة في قانون أكثر التواء وتعقيداً من قانون (أبي الوفاء) بكتابه « opus palatinum de triangulis »[٤٤] . ليس هذا نهاية ما أسداه أبو الوفاء من خدمات للعلم . فلما كان عالماً هندسياً عبقرياً ، فقد تصدى لمعالجة عدد من المسائل ودرس تربيع القطع المخروطي المكافئ[٤٥] والمساحة الحجمية للقطع المكافيء المجسم paraboloid ، أما في الجبر فانه ترجم كتاب (ديوفنطس) .

في هذين القرنين اللذين اتخذت تلك المكتشفات صيغتها النهائية ودخلت أسس مدنيتنا الحديثة ؛ كان عدد من ذوي الأدمغة الجبارة يعالج قضايا أخرى متعلقة بفلسفة العلوم ، والعلوم الطبيعية والفيزيائية . ومع أن تلك الابحاث لم تصل الى حلول نهائية ، فقد انحصر فضلها في ترويض العقول وصقل الافكار وتعبيد السبل للمكتشفات الاخرى المقبلة . فكتب (الكندي) أول الباحثين العرب (ت ٨٧٣ م = ٢٦٠ هـ) في علم الظواهر الجوية والبصريات ، أما رسالته في الامطار والرياح وترجمته المنقحة لبصريات اقليدس ، فقد ترجمتا كلتاهما الى اللاتينية . لقد سعى أيضاً الى إثبات صيغ القوانين التي تحكم سقوط الاجسام ، وهو موضوع لم يلقَ من العرب كبير اهتمام . أما (الفارابي) الاستاذ الثاني بعد أرسطو وأحد أساطين الافلاطونية الحديثة ذو العقلية التي

---

٤٤) ونجد أيضا عند ابي الوفاء ، القاطع *Secant* الذي يسميه (بقطر الظل) ، بينما يعزى اكتشافه الى كوبرنيكس . (المؤلف)

٤٥) القطوع المخروطية ، ثلاثة أنواع : قطع مكافيء *Parabola* ، قطع ناقص *Ellipse* ، قطع زائد *Hyperbola* . (المعرب)

وعت فلسفة الاقدمين ، فقد كتب رسالة جليلة في الموسيقى وهو الفن الذي برز فيه– فيها نجد أول جرثومة لفكرة النِسَب (اللوّغارِتمَ) ومنها نعرف علاقة الرياضيات بالموسيقى . ففي زمن فيثاغورس دفعت الحاجة لاستخدام أجزاء الأوتار حتى تعبر عن الفواصل الموسيقية intervals والجواب (الاكتاف) وتواتره والرابع والخامس والسادس من درجات الأساس، مما أدى الى إثارة موضوع درس الكسور . إن نظرية الموسيقى العربية مصبوبة كلها في قالب الكسور ، وربما كانت تحتوي على اللوغارتم ، لان إضافة الفواصل والارباع والنغمات tones وأنصاف النغمات وأرباعها الـخ .. ترتبـط بضرب الاوتار التي تمثلها ، وطرح الفواصل المتعلقة ، يرتبط بتقسيم هذه الحدود . وإن (النغمات) في الآلات الوترية مرتبطة بقانون اللوغارتم وبحث ابن سينا والغزالي مسألة الكميات اللانهائية ، أحياناً بارتباطها مع الدِّين ، وأحياناً بارتباطها مع الفيزياء ، فتساءلا : « هل ان متسلسلة سابقة لا متناهية ممكنة ؟ » « أيوجد على الخط المستقيم نقطة بدء يلتقي فيها بخط مستقيم آخر متجه اليه ؟ » ثم بحثا المسائل المتعلقة بنظريات الذرة : « في المربع المقسم بصورة منتظمة الى ذرات ، كيف يمكن أن يحوي القطر على ذرات أكثر من الضلع ؟ » ، « في خط الذرات كيف يمكن ان تبقى الذرة غير قابلة للتجزئة في حين انها تتقاطع من كل جهة مع ذرتين اخريين مختلفتين ؟ » ، أيمكن تعليل الحركة والحرار والضوء على أساس الذرات ؟

هذه المسائل هي من نوع سوفسطائيات (زينو الاليائي) (٤٦) . لقد كانت تمثل تركيز الفكر البشري قبل اكتشاف حساب التفاضل والتكامل . وكان (البيروني) باحثاً ذا عبقرية فذة وناقداً دقيق الملاحظة ، ألف كتاباً غني

---

٤٦) *Zeno* نبغ في حدود ٤٨٥ او ٤٩٠ ق. م. ، فيلسوف اغريقي من المدرسة الاليائية تدور فلسفته حول طبيعة المادة والذرة . تجد تفصيل البحث عن علاقة الرياضيات بالموسيقي في الملحق الذي ذيل به الفصل السابق من الكتاب فليراجع (المعرب)

المعلومات في تاريخ عدة شعوب ، وسافر الى الهند ومكث بها مدة طويلة ليخبرنا عن حساب الهندوس وسجّل جملة غرائب تتعلق بلعبة الشطرنج وعالج عدة مسائل في الجغرافية الرياضية كالهواجر والتسطيح [٤٧] وكان له بعض الفضل في تقدم علم المثلثات أيضاً .

ولنأتِ الآن إلى عالم لايحتاج الى تعريف لقرائنا ، فقليل من العلماء تمتعوا بشهرة كشهرته ، هو عمرالخيام العظيم (عمر بن ابراهيم الخيامي) الحاسب والشاعر (ت ١١٢٣ م=٥١٧ ﻫ) . إن عبقريته الهندسية توازي عبقريته الادبية وتكشف عن قوة حقيقة منطقية ونفاذ بصيرة . وكتابه « في الجبر » [٤٨] يعتبر من الدرجة الأولى ويمثل تقدماً عظيماً جداً على ما نجده من هذا العلم عند الاغريق . لقد أحرز تفوقاً على (الخوارزمي) نفسه في درجات المعادلة بصفة خاصة . فقد خصص القسم الاكبر من كتابه لمعالجة المعادلات التكعيبية ، بينما لم يتصدَ الخوارزمي ثم إلا للمعادلات التربيعية بصدد بحث المسائل في الحلول ؛ وكل هذا يسجل تقدماً شاسعاً جداً على الاغريق . وعلى كل حال فقد كان (عمر) واقعاً تحت تأثير ديوفانطس من ناحية مسعاه في حل المعادلات الى أعداد صحيحة ، لذلك لم يستطع أن يحرر نفسه من الجبر غير المعين[٤٩] . لقد صنف المعادلات ذات الدرجة الثالثة الى سبعة وعشرين نوعاً ، ثم عاد فقسمها الى أربعة أشكال ؛ الاثنتان الاخيرتان تتألفان من معادلات ثلاثية الحدود ورباعية الحدود . أما الشكل الرابع فيتألف من ثلاثة صنوف :

---

٤٧) *Projection* هو الجزء المحصور بين سطحين منزلين على سطح آخر او خطين على خط مستقيم آخر . (المعرب)

٤٨) ترجمه فوبكي الى الفرنسية ونشره بباريس ١٩٥٧ م . (المؤلف) .

٤٩) اخذ العرب المعادلات غير المعينة من ديوفانتس وتوسعوا بها وحلوا كثيرا من المسائل المركبة من معادلات غير معينة ذات الدرجتين الاولى والثانية واطلقوا عليها اسم (المعادلات السيالة لانها تخرج بصوابات كثيرة . (المعرب)

س٣ + ب س = ح س + هـ
س٣ + ح س = ب س٢ + هـ
س٣ + هـ = ب س٢ + ح س

إن هذا يعطينا فكرة عن الصعوبة التي تُحل بها المسائل . والطريقة المستعملة لمعالجتها هي التحليل الهندسي ، وهذا نوع من الهندسة التحليلية كان معروفاً قبل ديكارت (٥٠) وفي فترة لم يثبت أركان نظام الاحداثيات والترقيم الرياضي . انه حل الصنف الاخير مثلاً بمعونة قطعين زائدين مرسومين بموجب فروض المسألة على أن تكون (ب) كعامل للمربعات الممثلة بخط معين يساوي او يقل عن ارتفاع متوازي الاسطح المنشأ تبعاً للحد المطلق والجذور المعادلة . أما القطوع المخروطية ، فقد تتقاطع ، او لا تتقاطع . ويقول (عمر) هناك حالات مختلفة من هذا الصنف بعضها مستحيل ، حلت بواسطة خواص القطعين الزائدين . إن طريقة كهذه ، تحتاج الى معرفة تامة بأبحاث(ابللونيوس) وبراعة عظيمة في استخدام قوانينه وبذلك برهن (عمر) على عبقريته حيال اليونان وكثير من تلامذتهم العرب الذين سبقوه . فهو يقول في مقدمة رسالته: « انك لواجد في هذه الدراسة فروضاً تعتمد على نظريات ابتدائية معينة في غاية من الصعوبة والتعقيد ، فشل في حلها أكثر من تصدى لها ، كما لم يصل الينا من أبحاث القدماء ما ينير لنا السبيل الى معالجتها أبداً » .

إن هذه الطريقة لحل المعادلات من الدرجة الثالثة ترجع لتبدو بنصها الحرفي تقريباً في كتاب « الجومطري » لديكارت . أما عن الحل الجبري المحض لمعادلات الدرجة الثالثة فلم ير ضوء النهار إلا على عهد إحياء العلوم في آثار (سْجيبيوني دل فيرّو من تارتاكليا Scipione dell Ferro) وفي

٥٠) *Descartes* (١٥٩٦ — ١٦٥٠ م) ، من أعاظم الفلاسفة والمهندسين الفرنسيين له مكتشفات هامة جداً في قوانين الجيوب والمثلثات والهندسة . (المعرب)

مؤلفات « كاردان » لكنها بدت غامضة بعض الشيء ومضطربة فأثارت كثيراً من الاخذ والرد والتخمين .

حقق جبر (عمر الخيام) ، مرحلة التقدم العظمى في هذا النوع من الرياضيات . فلو نحن تتبعنا النسخة الممتازة التي طبعت في باريس السنة ١٨٥١ ، وجدنا أن ناشرها العالِم (فوبكي) قد جمع مسائل مختلفة اخرى كانت شائعة عند الحَسّابين العرب . واحتوت أيضاً بعض المعلومات عن المخروطات كمسألة الوَسَطين المتكافئين ومسألة تثليث الزاوية ومسألة رسم مضلع منتظم ، وعلى الأخص المتَسّع . وعرف العرب عدة حلول لتثليث الزاوية ، وأعطى (السَجَزي)[٥١] أحد مشاهير الهندسيين ، حلاً شاملاً لها يعتمد على تقاطع الدائرة بالقطع الزائد المخروطي . إن رسم المتسّع المعطى من قبل (ابن الليث)[٥٢] يعتمد على تقاطع القطعين الزائد والمكافيء كما أن الفروض التي لم يستطع أرخميدس إثباتها في كتابه « الكريات والاسطوانات ، ج ٢ ص ٦ – ٧ de sphaera et cylindro » أثارت بحثاً لدى (ابن الهيثم) وغيره . وقد وضع (الكوهي)[٥٣] المسألة على الشكل الآتي : «لإنشاء قطعة من كرة حجمها يساوي حجم قطعة من كرة أخرى ومساحة سطحها الجانبي يساوي مساحة السطح الجانبي لقطعة كروية أخرى» واستخرج حلها بكل براعة

---

٥١) او السجستاني ، (ت ٤١٦ هـ = ١٠٢٤ م) ، أبو سعيد احمد بن محمد عبد الجليل . عرف بانه مخترع الاسطرلاب الزورقي المبني على حركة الارض وهو اول من قال بحركة الارض عرفت له دراسات في قطوع المخروط وتقاطعها مع الدائرة . نشر له سكوي ١٩٢٦ م في مجلة ايزيس بحوثاً في تقسيم الزاوية ثلاثة أقسام و انشاء المسبع المنتظم . (المعرب)

٥٢) (توفي ٥٠٨ هـ = ١١١٣ م) ، محمد بن احمد بن الليث احد نوابغ الرياضيات في الاندلس . (المعرب)

٥٣) هو ابو سهل ويجن بن رستم من الكوه من جبال طبرستان فلكي ورياضي نبغ في القرن التاسع والعاشر كان منجما وراصدا لشرف الدولة عدد له القفطي مؤلفات في الهندسة . (المعرب)

مستعيناً بمخروطين مساعدين وقطعين مخروطيين هما القطع الزائد والقطع المنتظم ثم ناقش الحدود بعدئذ .

وقدم العرب في الحساب عدة مكتشفات فيما يتعلق بالمربعات السحرية [٥٤] والاعداد المتحابة [٥٥] ، كما أن اختراع البرهان بطريقة إسقاط التسّع تعزى اليهم وكذلك القاعدة المسماة « بقاعدة وضع الخط المزدوج regula duorum falsorum » التي نجدها ثانية عند رياضيي القرنين السابع عشر والثامن عشر. وأعلن واحد منهم النظرية الشهيرة بنظرية (فرما) theorem of fermat [٥٦] وهي ان مجموع مكعبين لا يمكن أن يكون قدر مكعب عدد صحيح ، لكنه لم يقدم لذلك برهاناً ما . أما الكرخي [٥٧] فيقدم لنا طريقة هندسية لجمع المتسلسلة التكعيبية الآتية : $١^{٢} + ٢^{٢} + ٣^{٢} + ... ن^{٢}$

---

٥٤) كانت المربعات السحرية تستخدم في عمل الطلسمات ، وقد لاحظت مؤخرا في رسالة احد منجمي العرب المسمى البوني (ت ١٢٢٥ م = ٦٢٢ هـ) حلا شاملا للمربعات السحرية في غاية الابداع ، هذا الحل يعين المرء على كيفية رسم مربع آخر ذي ضلع ن + ٢ ، حين يكون مربع معلوم ذو ضلع (ن) و سواء في ذلك أكانت (ن) زوجا او فردا . (المؤلف)

٥٥) يقال للعددين متحابان اذا كان مجموع اجزاء احدهما مساوياً للثاني والعكس بالعكس . فالعدداد ٢٢٠ و ٢٨٤ متحابان لان أجزاء الاول هي ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ٤٤ ، ٥٥ ، و ١١٠ ، وجملتها ٢٨٤ . واجزاء العدد ٢٨٤ هي ١ و٢ و٤ و٧١ و١٤٢ وجملتها ٢٢٠ . ولثابت بن قرة قاعدة لايجاد الاعداد المتحابة . (المعرب)

٥٦) بيير فرما (١٦٠١ — ١٦٦٥ م) رياضي فرنسي شهير خرج هو و(باسكال) بمكتشفات مهمة في خواص الاعداد وعليها بني باسكال قانونه المعروف بالا حتمالات التفاضلية . (المعرب)

٥٧) الكرخي (ت ٤٢١ هـ = ١٠٢٩ م) هو محمد بن الحسن ابو بكر الحاسب الكرخي من عباقرة الرياضيين والجبريين العرب ذكر له الحاج خليفة ثلاثة كتب في هذا العلم (الكافي والبديع والفخري) الاخير اهداه الىالوزير فخر الملك وتصدى فيه الى حل المعادلات السيالة و العادية من الدرجتين الاولى والثانية قال عنه سمث في « تاريخ الرياضيات » انه خير ما الف في الجبر ، وقد ترجمه (فوبكي) الى الفرنسية (١٨٥٣م)، أما (الكافي) فقد ترجمه(هوشايم)الى الالمانية السنة (١٨٨٠ م) وكان اول عربي برهن النظريات المتعلقة باستخراج مجموع مربعات ومكعبات الاعداد الطبيعية التي عددها (ن) كما جاء في المتن اعلاه وله أبحاث في الجذور الصم منها برهانه ان حاصل طرح جذر ٨ من ٥٠ يساوي جدر ١٨ الخ .. (المعرب)

ثم يأتي بعده (الكاشي)[٥٨] الطبيب والفلكي الذي استخدمه (الغ بك) من سمرقند ، فيقدم لنا طريقة لجمع المتسلسلة العددية المرفوعة الى القوة الرابعة ؛ وهي الطريقة التي لا يمكن أن يتوصل اليها بقليل من النبوغ .

بقي علم الفلك العربي في اسبانيا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر في حالة الازدهار وظل موضع دراسة الشرق مدة طويلة واستمر يسترعي اهتمام علماء القرون الوسطى فاشتهر (الزرقالي[٥٩] Arzachel) الاسباني (٤٢٠ – ٤٨٠ هـ = ١٠٢٩ – ١٠٨٧ م) بصنع الآلات ، واخترع اسطرلاباً (صفيحة) وكتب عنها رسالة كانت أساساً لظهور شروح وتعليقات شتى عليها ، ترجمها الى اللاتينية يهودي من مدينة مونبيلليه ، وعمل منها الملك (الفونسو) القشتالي ترجمتين اسبانيتين . ونشر (ريجيومونتانس) في القرن الخامس عشر مجموعة من المسائل في الآلة الشريفة (الصفيحة) . واقتبس (كوبرنيكس) في كتابه « دوران الأجرام السماوية » من آراء (الزرقالي رالبتاني) . واما البطروجي[٦٠] (من القرن الثاني عشر)أحد تلامذة (ابن طفيل) فله آراء مبتكرة في حركة الكواكب السيارة. وكان قد خلف كتاباً ترجمه الى العبرية (موسى بن تبون) ثم نقله الى اللاتينية (كالونيموس بن داؤد Kalonymos ben David) في القرن السادس عشر . إن الجداول الفلكية الالفونسية التي جمعها ورتبها الفونس الحكيم في القرن الثالث عشر كانت أعلى ما تقدم اليه علم الفلك العربي وكانت الاطوال مبينة على خط زوال طليطلة .

---

٥٨) محمد غياث الدين (ت ١٤٢٤ م او ١٤٣٦ = ٨٢١ أو ٨٣٨ هـ) رياضي وجبري ولد في كاشان وعاش في سمرقند . (المعرب)

٥٩) ولد الزرقالي في قرطبة واشتغل في طليطلة قال عنه نللينو : اكسبته « ازياجه الطليطلية » شهرة عظيمة فضلا عن تحويل الاسطرلاب من خاص الى عام بنقله الى المسقط الافقي (الاستريوغرافي) حيث يمكن بمقتضاه ان تكون عين الراصد في نقطتي الاعتدالين . (المعرب)

٦٠) هو ابو اسحاق نور الدين البطروجي ، عاش في حدود ٥٧٦ هـ = ١١٨٠ م) ، ولد في اشبيلية واشتغل بالفلك وترجم له ميخائيل سكوت كتابه « الملكي » كان فيه اول محاولة لوضع آراء بطليموس في نظام نجومي ثابت . (المعرب)

كان لهؤلاء العلماء أدمغة حرة مستطلعة ، فلم يترددوا في انتقاد بطليموس نفسه . وقد أعلنوا بلسان فيلسوفهم(ابن رشد)أنهم ضد نظرية تعدد الافلاك وابتعادها عن المركز . لقد كانوا يتطلعون الى نظم أبسط وأقرب الى الطبيعة . وسبق (للبيروني) فقال بأن فرضيات الفلك انما هي مترابطة فيما بينهاوقوله هذا ، شبيه بما توصل اليه أسلافه أمثال(أرسطارخوس الساموسي وسلوقوس) قبل الفي سنة من ظهور(كوبرنيكس)وفي فترة تاريخية غير بعيدة . قال بعض علماء الهند ، ان الليل والنهار هما نتيجة لحركة الارض ، وقالوا ان الارض تدور على محورها وحول الشمس في الوقت نفسه ، وفسروا كذلك جميع حركات النجوم وحصروها جرياً على تقليد العلم في ذلك الزمان ، لكن روح البحث العلمي العربي لم تعرقلها في هذه الفترة أي نظريات علمية موضوعة أو تقاليد ثابتة :

وقد نبغ في الشرق خلال الفترة المضطربة بغزوات المغول عالم جليل ذو عقلية مبدعة جبارة هو نصير الدين الطوسي (ت السنة ١٢٧٤ م)[٦١] ، قام هذا العبقري بعمل أرصاد في المراغة — الواقعة في آسيا الصغرى — حيث أنشأ سخاء أمراء المغول مرصداً فلكياً هناك ونشروا أزياجاً اشتقت أسماؤها الملكية من القاب أولئك الفاتحين « كزيج أيلوخاني » وكانت آلات رصد المراغة محط إعجاب العلماء ، فقد أولى فلكيو العرب اهتماماً عظيماً لاتقان صنع آلات الرصد وأهمها (ذات الحلق) المعروفة عموماً عند الاقدمين باسم (الكرة السماوية) وهي تتألف من دوائر (حلقات) ثلاثٌ منها تمثل الهاجرة

---

٦١) الطوسي (٥٩٨ — ٦٧٣ هـ = ١٢٠١ — ١٢٧٤ م) صحب هولاكو في حملته على بغداد ولذلك ندر أن ألف كتاب سيرة بعده وليس للطوسي فيه ترجمة. تجد وصف أرصاده في المراغة وزيجه الايلخاني مذكور في معجم « كشف الظنون ». ان (لنصير) من كتب الفلك ما يكفي لجمع مكتبة نفيسة وثم كتب كثيرة له بأغلب اللغات الاوربية تتناهى بعضها في القدم. وقد نبغ ايضا في الهندسة والجبر والحساب ككتاب تحرير هندسة اقليدس الذي نشر باللاتينية ١٦٥١ م ، وكتبه المخطوطة موزعة على امهات مكتبات العالم . (المعرب)

وفلك البروج ودائرة منطقة البروج والعروض . ثم حلقتان أخريان للرصد . وأكمل العرب (ذوات الحلق) الاسكندرية والبطليوسية وأدخلوا عليها تحسينات بإضافة دائرتين اليها إحداهما لتثبيت النجوم من جهة الافق والاخرى لرصد الارتفاع . وسعوا لجعل آلاتهم بأكبر حجم مستطاع لتقليل الخطأ القياسي الى أدنى حد ممكن . ثم صار يعملون أدوات أخرى كل واحدة منها خاصة بنوع معين من الرصد . فكان في مرصد المراغة آلات مركبة من دوائر معدنية أو خشبية لاستعمالها في أرصاد معلومة كرصد فلك البروج ecliptic والمنقلبات solistices . وكان ثمّ ما يسمى بـذات الحلوق الاستوائية ecuatorial armillaries ، وذات الحلوق الشمسية ecliptical armillaries المؤلفة من خمس حلقات يبلغ قطر أكبرها نحواً من اثنتي عشرة قدماً مقسمة الى درجات ودقائق . ولما أراد الملك الفونسو القشتالي ان يعمل (ذات الحلق) ، رجع الى العرب مسترشداً بخبرتهم ومستمداً المعلومات الضرورية بهذا الشأن من كتبهم ، فكانت آلته أدق وأبدع من كل ما صنع منها حتى ذلك الوقت. ولما أراد (ريجيومونتانس) في عهد إحياء العلوم إعادة تركيب ذات الحلق الشمسية البطليوسية ، استهدى بالكتب العربية ومنها اقتبس العضادة [٦٣] alidade العربية الأصل .

وتساوي عبقرية نصير الدين الطوسي الهندسية عبقريته الفلكية ، فقد جمع كل المؤلفات الرياضية التي كتبها الاقدمون وأبلغها ستة عشر كتاباً وهي مع أربعة كتب من العصر الاسلامي، تستوعب في الواقع كل المكتشفات والمعلومات العلمية التي توصل اليها الذهن البشري حتى تلك الفترة . ومن بين هذه الكتب المضافة ، كتاب من تأليف نصير الدين نفسه ، وأعني به رسالته في « الشكل

---

٦٢) وهو الطريق الذي تتخذه الشمس في رحلتها السنوية ، من الغرب الى الشرق بين الكواكب الثابتة . (المعرب)

٦٣) أصل الكلمة بالعربية (العدد او العداد او العضادة) ، وتفيد بمعناها هنا التقسيمات الموجودة في الحلوق الفلكية من درجات ودقائق وثوان وما الى ذلك . (المعرب)

الرباعي » [٦٤] وهو مؤلف من الصنف الممتاز في علم المثلثات الكروية بسط فيه موضوعه بأوضح اسلوب وأسهله ، أولاً على طريقة منـالاووس وبطليموس ، ثم على طرق استبطها هو مشيراً الى نتائجها . وقاعدته التي سماها « قاعدة الاشكال المتتامة » ، تخالف استعمال نظرية بطليموس في الاشكال الرباعية وهي صورة بسيطة لقانون الجيوب الذي يقضي بان جيوب الزوايا تتناسب مع الاضلاع المقابلة لها :

$$\frac{\text{حا أ}}{\text{جا ء}} = \frac{\text{جاب}}{\text{جاب}} = \frac{\text{جا حـ}}{\text{جا حـَ}}$$

والى هذه القاعدة أضاف « قانون الظل » المبني على علاقة :

$$\text{جاب} = \frac{\text{ظا حـ}}{\text{ظاحـَ}^{٢}}$$ [٦٥]

وبذلك أصبحت المثلثات المستوية والكروية علماً راسخ الدعائم وطيـد البنيان ، حين وجدت في هذا الكتاب تقدماً وترتيباً ، تحفّ بهما تعابير ومصطلحات جبرية صحيحة علمية الصبغة .

ومجمل القول فإن (نصير الدين الطوسي) يعود ليذكّر العالم بأسلافه العرب الذين كان لهم سهم في هذه المكتشفات والمبتدعات . وعلينا أخيراً أن ننوه بفلكيي سمرقند الذين كانت لجداولهم الفلكية الموضوعة ١٤٣٧ م لأمير من أسرة تيمورلنك باسم (أزياج أولغ بك) [٦٦] عظيم منزلة معتبرة في الغرب ، فقد

---

٦٤) طبعه قره ثيودوري باشا في الآستانة السنة ١٨٩١ مع ترجمة فرنسية (المعرب)

٦٥) (أ) و (ب) و (ج) هي اضلاع المثلث المقابلة للزوايا (أ . ب . ج) . (المعرب)

٦٦) اولغ بك (١٣٩٣ – ١٤٤٩) ولد في سلطانية وخلف والده على سلطنة هرات ، نصبه ابوه حاكما لتركستان . وكان ايام امارته من حماة العلم في بلاده فقد جمع في سمرقند افذاذ الرياضيين والعلماء والفلكيين والادباء وأنشاء مدرسة عالية وبنى مرصدا زوده بجميع الادوات المعروفة في زمانه فكانت ثمرته الزيج المعروف (بزيج جديد سلطاني) بقي معمولا به عدة قرون وقد اشتغل نفسه هو فيه . وله أيضاً ابحاث في المثلثات وجداول الجيوب (اللوغارتمات) ، واعتنى باستخراج مسائل هندسية معقدة . (المعرب)

طبعت في انكلترة باجزاء متتابعة خلال القرن الثامن عشر [٦٧] .

تلك هي الابحاث العلمية العربية عرضناها باجمال واسع ، وقد وصلت ختامها ببدء ظهور العبقرية الغربية – أي في القرن الخامس عشر –. وقد يتبادر الى الذهن أحياناً هذا السؤال : ما هي أسباب وقوف النشاط العقلي في العالم الاسلامي ؟ ما علة هذا الجمود الفجائي بعد فترة من النشاط العظيم المثمر ؟ هذا السؤال على كل حال يثير بعض المعضلات الغامضة في سيكولوجية الشعوب العامة ، وأنا نفسي لا أملك آراء خاصة في هذا كما ولست أرى ضرورة لهذه المحاولة .

كارّا دي فو

---

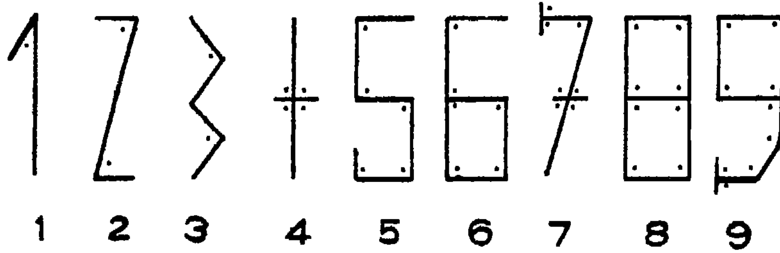
٦٧) طبعها (جي غريفز و ت. هايد *J. Greaves & T. Hyde*) باللغتين اللاتينية والفارسية (لندن ١٦٥٠ و ١٦٥٥) ، وترجم سيدللو *Sedillot* الى الفرنسية ، المدخل الى هذه الازياج طبع باريس ١٨٤٦ (المؤلف) .

ملحق للمعرب

في الأرقام العربية وانتقالها إلى العالم الاوروبي

وجد العرب أن القبطيين في مصر يستعملون نظام الترقيم بأبجدية لغتهم ، بينما يستعمل السوريون الأبجدية اليونانية للغرض نفسه فوضعوا لكل حرف من أحرف لغتهم رقماً خاصاً به . فكان الجدول المعروف بالابجدي الذي يستعمل الآن لنظم التواريخ الشعرية (الألف : ١ ، الباء : ٢ ، الجيم : ٣ ، الدال : ٤ الخ ...) . وعرفت الثانية بالأرقام (الغبارية) التي انتشر استعمالها في الأندلس والمغرب انتقلت الى اوربا فعرفت هناك بالارقام العربية .

على أن بعضهم يرى أن الأرقام (الغبارية) أي العربية المستعملة في اوروبا الآن هي مرتبة على أساس تلاقي الفواصل الذي يُحدِث زوايا ،أي على الشكل الآتي :



ثم دخل عليها بعض التعديل والتحوير في الاستعمال ، فصارت على النحو الذي نرى ويرى بعضهم أن هذه الأرقام مأخوذة من الحروف الابجدية العربية هكذا :

أ : 1 ، ح : 2 ، حج :3 ، ع : 4 ، عو :5 ، ه : 6 ، م : 7 ، 8 : ، و : 9 (لاحظ أن السبعة هي لام مقلوبة ، وأن الثمانية صفران أحدهما فوق الآخر) .

واستعمل الهنود (.) لتدل على الصفر ، واسمه عندهم (سونيا) ، ثم استعملوا الدائرة (٥) للدلالة على النقطة . فأخذ العرب النقطة ولم يأخذوا الدائرة خشية أن يحصل التباس بينها وبين رقم (خمسة : ٥) ، لكن رقم الخمسة دخل الاندلس واستعمل كصفر ومنها انتشر إلى جميع اللغات الاوربية بهيئته الحاضرة (O) .

بيروت : كانون الثاني ١٩٧٣

جرجيس فتح الله المحامي

فهرس الاعلام

ح

خ

د

ش

ص

ف

ل

م

و

ي

المحتويات

هذا الكتاب

يبحث عن مقدار ما ساهمت به المدنية الاسلامية في حضارة اوروبا فناً وعلماً وفكراً ، بعد ان بلغت اوجها بامتداد الحكم الاسلامي من اواسط آسيا حتى اسبانيا . والموضوع التالي اعقد واخطر من تأثير ابن سينا وابن رشد أو من استعارة التعابير والمصطلحات العربية في عالم الفن والتجارة والحرب من جانب اللغات الاوروبية .

انه عمل جليل يتقسمه اثنا عشر بحثاً مستقلاً تحيط بمعظم مناحي الفن والفكر الاسلامي تناولها ثلاثة عشر عالماً مستشرقاً متألق الاسم طائر الشهرة في عالم الاستشراق وفي دائرة اختصاصه الاسلامي .

مازال هذا الكتاب وسيبقى دوماً من اهم المراجع العلمية في أفقه فقد طبع اثنتي عشر طبعة بلغته وبين يديك طبعته العربية الثانية بعد ان نقحت وزيدت تعليقاتها وملاحقها بشكل لا سبيل لاستغناء القاريء عنه .

انه قصة حضارة زاهرة انتقلت عندما كانت اوروبا تتلمس سبيل الحضارة في ليل مظلم من الخرافات والوهم فما لبثت ان خلقت طابعها الخالد في الحضارة العالمية .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ١٦ ل.ل.
٢٢ ل.س.